
المركز القومى للترجمة
الحرب الباردة الكونية
تأليف: أود آرن وستاد
ترجمة: مى مقلد
مراجعة: طلعت الشايب
1942



لقد شكلت الحرب الباردة العالم الذى نعيش فيه اليوم؛ سياسته واقتصاده وشئونه العسكرية. يوضح هذا الكتاب كيف تسببت عولمة الحرب الباردة فى القرن الأخير فى نشأة معظم الصراعات التى نراها اليوم، بما فيها الحرب على الإرهاب. الكتاب يركز على ما تسببت فيه السياسات الخارجية للقوتين العظميين فى القرن العشرين - الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى - تجاه العالم الثالث، من رفض ومقاومة ساعدا فى النهاية على إسقاط إحدى القوتين ولا يزالان يهددان الأخرى. كما يتسع مجال الكتاب من الصين إلى إندونيسيا وإيران وإثيوبيا وأنجولا وكوبا ونيكاراجوا، ومن ثم فهو يقدم منظورا عالميا حقيقيا عن الحرب الباردة. والكتاب عند فحصه لكل من تطور أيديولوچيات التدخل والحركات الثورية التى واجهت التدخلات، يربط الماضى بالحاضر بأساليب عجزت عنها كبرى الكتب التى تناولت حقبة الحرب الباردة.

تصميم الغلاف: حسين جبيل



الحـــرب البــاردة الكـــونية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1942
- الحرب الباردة الكونية
- أود آرن وستاد
- مى مقلد
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

The Global Cold War:
Third World Interventions and the Making of Our Times
By: Odd Arne Westad

Published by Cambridge University Press

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الحرب الباردة الكونية

تألـــيـف : أود آرن وستــــــــاد
ترجمــــــة: مـــى مقلـــــــــد
مراجعــــــة: طلعــــت الـــشايب



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

وستاد، أود أرن

الحرب الباردة الكونية/ تأليف: أود أرن وستاد،

ترجمة: مى مقلد ، مراجعة : طلعت الشايب

ط ١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤

٧٤٠ ص، ٢٤ سم

١ - الحرب النفسية

(أ) مقلد ، مى (مترجمة)

(ب) العنوان ٣٢٧,١٤

رقم الإيداع ١٦٨١٥ / ٢٠١١

الترقيم الدولى: I.S.B.N- 978- 977- 704 -779 - 1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

"تنظر فى التاريخ بدافعين: فضول بشأن الماضى، ما حدث ومن قام بماذا ولماذا؛ وأمل فى فهم الحاضر وكيفية تفسير زمننا المعاصر وفهمه وتجاربنا وآمالنا بشأن المستقبل"[1] كما يقول چاسپر جريفين ***Jasper Griffin*** عالم الكلاسيكيات بأكسفورد. وكما هو الحال فى تاريخ العصور القديمة، فإن أفضل تاريخ معاصر هو ما يقوم على كلا النوعين من الدوافع؛ تلك التى ترى الماضى ماضيًا وتلك التى ترى الماضى حاضرًا. وبنفس روح البروفيسور چاسپر جريفين، فإن هذا الكتاب يتناول تشكيل العالم الذى نعيشه اليوم، وكيف تدخلت أعتى قوتين فى أواخر القرن العشرين – الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى – على نحو متكرر فى عملية تغيير أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومن خلال تلك التدخلات أشعلتا الكثير من الأوضاع والحركات والأيديولوچيات التى سيطرت على الشئون العالمية على نحو مطرد. بعبارة أخرى فإن هذا الكتاب باختياره لموضوعه معنى بالحاضر بدرجة كبيرة، حتى وإن كان رواية تاريخية يكتبها مؤرخ.

نبع الكتاب من شغفى بالدوافع والقرارات لدى قوتي الحرب الباردة العظميين فى سياساتهما فى العالم الثالث، التى رأيت أنها تحتاج إلى إعادة تفحص بعد أن أصبحت المادة الأرشيفية متوفرة من كلا الجانبين لأول مرة. لكن أثناء البحث تحول موضوع الكتاب إلى شىء أوسع؛ فقد وجدت أنه من المستحيل فهم قرارات موسكو أو واشنطن دون الخوض فى الجذور الأيديولوچية للتدخل أثناء الحرب الباردة لدى كل منهما، والتحولات في سياسات العالم الثالث التي عجلت

بتدخلهما. فتحول العمل الذى بدأ بوصفه كتابًا عن التدخلات إلى كتاب عن عمليات التغيير فى العالم الثالث. لقد تحول منظوره إلى الجنوب.

مثل هذا التحول قد لا يكون مدفوعا بفضول المؤرخ فحسب. فقد كان بـلا شك بسبب قضائى وقتًا طويلاً فى أفريقيا وآسيا فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، حيث كنت – شابًا صغير السن – شاهدًا متحمسًا على التغيرات الاجتماعية والسياسية. وقد تعاطفت بشدة مع أولئك الذين كانوا يحاولون العيش فى مجتمع أكثر عدلا ومساواة، ومع أولئك الذين كانوا يدافعون عن مجتمعاتهم ضد التدخلات الخارجية. (وأثناء كتابتى لهذا الآن لا زلت أتذكر عودتى إلى منزلى سيرًا على الأقدام عائدًا من مسيرة سياسية فى مابوتو فى ذات ليلة قبل خمسة وعشرين عامًا مذهولا من الشجاعة والتصميم لدى الموزمبيقيين العاديين فى مواجهة الفقر والحرب)، ولا زال ذلك التعاطف والإعجاب يراودانى، حتى وإن كنت تخليت عن الحلول السياسية السهلة للمشاكل الاجتماعية المعقدة. كان ذلك ما جعل الأمر مستحيلا بالنسبة لى أن أكتب كتابًا عن الحرب الباردة فى العالم الثالث من منظور القوى العظمى وحدها.

لقد لاحظ أحد أصدقائى، ممن يدرسون اللغات، بلفتة من السخرية، كيف أن اختيارى للمصطلحات المفهومية لهذا الكتاب تتفق زمنيًا مع موضوعه؛ فكلاهما: "الحرب الباردة" و"العالم الثالث" مصطلحان سكا فى أواخر القرن العشرين وتم توظيفهما لأغراض مختلفة وفى الأحداث الثقافية المتنوعة لخلق بعض من أشد النقاشات السلطوية الرئيسية فى هذه الحقبة. صديقى هذا دارس اللغات على حق طبعا. فإن أيًا من المصطلحين لم يوجد قبل الحرب العالمية الثانية، وأسلوب استخدامهما يدل على الجانب الذى تنحاز إليه فى الصراعات الأخيرة الكبرى فى القرن. "الحرب الباردة" مصطلح استخدمه چورج أورويل ***George Orwell***

لأول مرة في ١٩٤٥ ليستعرض وجهات النظر والمعتقدات والبنى الاجتماعية لكل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة والدليل كذلك على حالة الحرب غير المعلنة بينهما. فقد وجد أورويل أن "القنبلة الذرية قد تنزع عن الطبقات والشعوب المستغلة كل قوى المقاومة، وفى الوقت نفسه تضع من يمتلكونها على قدم المساواة. ومع عدم قدرتهما على هزيمة أى منهما الأخرى، فإن الاحتمال الأكبر هو أن يستمر حكم العالم فيما بينهما"[٢]. ورغم أن "الحرب الباردة" كان مصطلحًا نقديًا فى البداية، فإنه أصبح فى الخمسينيات يدل على مفهوم أمريكى عن الحرب ضد الاتحاد السوفيتى: عداء دون حرب. أما السوفيت فمن جانبهم لم يستخدموا هذا المصطلح رسميا إلا فى حقبة جورباتشوف، حيث كانوا يتعلقون بوهم أن بلادهم دولة "سلمية" وأن "الإمبريالية" وحدها هى العدوانية، وقد كان زعماء الولايات المتحدة (وأوروبا الغربية) يستخدمون مصطلح "الحرب الباردة" بالأسلوب نفسه للإيحاء بخطر سوفيتى.

ظهر مفهوم "العالم الثالث" لأول مرة فى أوائل الخمسينيات بالفرنسية أولا ثم بالإنجليزية، ثم برز بعد مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥، عندما التقى زعماء من آسيا وأفريقيا فى أول قمة كبرى بعد الاستعمار . ومع تداعياته الفرنسية عن "الفئة الثالثة" *tiers état*، وهم أكثر المجموعات الاجتماعية قبل الثورة شعبية ولكنهم كانوا الأقل تمثيلا – فإن مصطلح "العالم الثالث" كان يعنى "الشعب" على المستوى العالمى، أو الغالبية العظمى فى العالم التى حرمت كل الحقوق واستعبدت أثناء الاستعمار ، ولكنها الآن فى طريقها لتعتلى سلم النفوذ. كما أن المفهوم يوحى بموقف محدد فيما يخص الحرب الباردة: رفض الوقوع تحت حكم القوتين العظميين وأيديولوجيتيهما، والبحث عن بدائل لكل من الرأسمالية والشيوعية، و"طريق ثالثة" (لو أمكن استعارة هذا المصطلح من نفاق بلير هذه الأيام) للدول حديثة التحرر.

استخدامى إذن لهذين المصطلحين يمكن رؤيته باعتباره يشير فى اتجاهين متعاكسين: مصطلح "الحرب الباردة" يعبر عن مشاريع النخبة فى الغرب على أكبر المستويات، بينما يشير مصطلح "العالم الثالث" إلى عمليات التهميش الاستعمارية وما بعد الاستعمارية (والنضال ضد تلك العمليات). بعض النقاد يرون أننى عندما أضع أحدهما "بداخل" الآخر، فإننى أسيء إلى حالة الانفصال بينهما – أى أننى أصنف أحدهما تحت الآخر. ومع إعادة قراءتى للأدبيات التى كتبت عن الحرب الباردة فى العالم الثالث قرب نهاية حقبة الحرب الباردة، أصبح من الممكن أن أتعاطف مع هذا الموقف؛ فالكم الأكبر من تلك الكتابات، الأمريكية فى الغالب، تحاول أن تنزع الشرعية عن الثورات المحلية أو الحركات الأصولية فى العالم الثالث على أساس أنها ملهمة أو مدعومة من السوفيت.

ومع ذلك، فإن الجدل بأن الحرب الباردة لا تنتمى إلى الجنوب من حيث المفهوم أو من حيث التحليل هو جدل خاطئ لسببين. أولا: لأن التدخلات الأمريكية والسوفيتية قد شكلت إلى درجة كبيرة الأطر العالمية والمحلية التى قامت فيها التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية فى دول العالم الثالث. فدون الحرب الباردة كانت أفريقيا وآسيا، وربما أمريكا اللاتينية، ستصبح مناطق مختلفة تماما اليوم. ثانيا، لأن النخب فى العالم الثالث كانوا كثيرا ما يشكلون أجنداتهم السياسية بوصفها استجابة واعية لأنماط التنمية المقدمة من قبل الراعيين الأساسيين للحرب الباردة: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. فى الكثير من الحالات قربت خيارات زعماء العالم الثالث للتحالفات الأيديولوجية بينهم وبين إحدى القوتين العظميين، وجعلتهم يختارون أنماطا للتنمية ثبت أنها كارثية لشعوبهم. والجانب الأخير من الحرب الباردة فى العالم الثالث هو أقل الجوانب التى تم تفحصها، ربما لأنه أكثر الجوانب صعوبة على كل من أنصار الحرب الباردة ومعارضيهم لكى يقبلوه[٣].

ومن أجل هدف هذا الكتاب فإن تعريفي للمصطلحات الأساسية فيه سيكون واضحا ومباشرا. "الحرب الباردة" تعني الفترة التي كان فيها الصراع العالمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يحتل الشئون العالمية في الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٩١؛ "العالم الثالث" يعني الدول المستعمَرة أو شبه المستعمرة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التي كانت خاضعة للسيطرة الاقتصادية أو السياسية الأوروبية (أو المناصرة لأوروبا بما فيها أمريكا وروسيا)[٤]؛ "عالمي" تعني العمليات التي وقعت في القارات المختلفة في نفس الوقت. "التدخل" يعني أي جهد منظم تقوده دولة ما لتحدد التوجه السياسي لدولة أخرى. هذه تعريفات عملية مختصرة ذات معنى في هذا السياق المستخدمة به هنا تحديدا (ولكنها قد تكون موضع اختبار في أي سياق أوسع).

في دراسة تهدف إلى مناقشة جذور الثورات في العالم الثالث وسياقها وتدخلات القوى العظمى التي صاحبتها، كان لابد من القيام ببعض الخيارات الصعبة لتجنب أن يصل حجم الكتاب إلى مجلدين أو ثلاثة. يهتم الكتاب بفترة السبعينيات وأوائل الثمانينيات عندما كان صراع القوى العظمى في العالم الثالث في ذروته وعندما كان للتطورات في العالم الثالث أبلغ الأثر على سير الحرب الباردة. وكما سيتضح فيما بعد، فليس معنى هذا أن العالم الثالث لم يكن مهما في صراع الحرب الباردة في الفترات السابقة، ولكن في السبعينيات كانت الظروف في العالم الثالث وإمكانات كل من القوتين العظميين قد وصلت إلى مرحلة جعلت الأحداث في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية محورية بالنسبة للشئون الدولية. كذلك فإننا لم نعط وزنا مساويا في فصول الكتاب لكل صراعات العالم الثالث التي انخرطت فيها القوتان العظميان. بل إن الصراعات التي شكلت فيها التدخلات الخارجية إطار الأحداث وسيرها كان لها الأولوية، بمعنى أنه، مثلا، الحرب العربية الإسرائيلية والحرب الهندية الباكستانية (واللتان كان الحكم فيهما هو

المنطق العقلانى الخاص الذى ساد منطقتهما أكثر من سياق الحرب البـاردة) تـم تناولهما بتعمق أقل مما لو كان الهدف هنا هو القيام بدراسـة عامـة. مثـل هـذه المحددات جعلت من الممكن التركيز على قضايا أخرى، مثل تتبع التطور التاريخى لأيديولوچيات التدخل لدى القوتين العظميين وسياسات ما بعد الاستعمار فى العـالم الثالث فى الفصول الثلاثة الأولى.

وفى حين يمثل راحة للمحررين المعنيين بطول الكتب، فإن اسـتبعاد منـاطق جغرافية معينة يُذكر القارئ بأن الحرب الباردة ليـست هـى القـصة الكاملـة رغـم محوريتها فى التاريخ العالمى. هناك مواضيع كبرى أخرى نشأت بمعزل عن الحـرب الباردة – مثل الصعود الاقتصادى لشرق آسيا أو تفجر الإسلام السياسى – كـان لهـا تاريخ خاص بها، وجد أحيانا بمحاذاة صراع القوتين العظميين (وجعلها فـى النهايـة، كما قلت فى كل مكان، نقطة ارتكاز للشئون الدولية). إن الحرب الباردة جزء منفـصل محدد من مجال أغنى كثيرا فى أواخر القرن العشرين، ولكنه قد أعطى شـكلا لنظـام عالمى محدد قائم على نموذجين متعارضين من الفكر الأوروبى المعاصر.

يجادل هذا الكتاب بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قاما بالتدخل فـى العالم الثالث بسبب الأيديولوچيات الكامنة فى سياساتهما. لقـد انغلقـت واشـنطن وموسكو بداخل الصراع حول مفهوم الحداثة الأوروبية – وقد اعتبـرت كلتاهمـا نفسها خليفة لها – ومن ثم احتاجت كل منهما أن تغير العالم لكى تثبـت إمكانيـة تطبيق أيديولوچيتها عالميا؛ وقد كانت النخب فى الدول حديثة الاسـتقلال أرضـا خصبة للتنافس بينهما. وبمساعدتهما لتوسيع مجالات الحرية أو العدالة الاجتماعية، كانت كلتاهما ترى أنها تساعد فى التوجهات الطبيعية فى تاريخ العالم، وأنها تدافع عن أمنها فى الوقت نفسه، وأن لها مهمة خاصة تقوم بها فى العالم الثالـث ومـن أجله، لا يستطيع غيرها القيام بها، ودونها سوف تقع المهمة فى أيدى المحليين.

من السهل إذن رؤية الحرب الباردة فــي الجنــوب باعتبارهــا اســتمرارًا للتدخلات الاستعمارية الأوروبية وللمحاولات الأوروبية للــسيطرة علــي شــعوب العالم الثالث. وليس لدى شك في أن المؤرخين فى المستقبل سيرون هــذه الحقبــة باعتبارها إحدى المراحل الأخيرة للسيطرة العالمية الأوروبية. الوســائل والــدوافع المباشرة لتدخلات الحرب الباردة كانت شبيهة بوسائل "الإمــــبرياليــة الجديــدة" ودوافعها في أوائل الحقبة الاستعمارية، عندما شرعت الإدارات الأوروبية في إنقاذ الشعوب الأصلية من الجهل والقذارة ومن عواقب أفعالها هي. في كل مــن أوائــل القرن العشرين وأواخره كان المنطق الأيديولوجــي الأوروبى هو أنهم قد اكتــشفوا الطريق إلى المستقبل، وأن عليهم واجب مساعدة شعوب العالم الثالــث فــي هــذا الطريق. وخلال بحثي، أصابتنى الدهشة من مشاعر التضحية وأداء الواجب لــدى المستشارين، التى أظهرها كلا الجانبين لمساعدة الأصدقاء أو معارضة الأعداء فى أماكن بعيدة عنهم. كانت أخلاقيات الحــرب البــاردة – لمــن يتقبلونهــا – مثــل الأخلاقيات الإمــبريالية التى حلت محلها في بريقها، للأوروبيين ولحلفائهم. (أثناء مقابلة زعماء من جمهوريات العالم الثالث التى طال نسيانها، كنت كثيرًا ما أتــذكر الكاتب الهندى نيراد شودرى ***Nirad Chaudhury*** عندما أهدى سيرته الذاتية إلــى الإمبراطورية البريطانية التى جعلت "كل ما هو حسن وحى فــي داخلنــا يتكــون ويتشكل ويتسارع"[٥])

غير أنه لابد من التفرقة في موضع مهم للغاية. إننــي لا أجــد معنــي لأن أتحدث عن نماذج سيطرة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كــ"إمبراطوريــات"، بقدر ما أجد معنى في وصفهما بالمعنى المؤقت. كانت أهداف موسكو وواشــنطن مختلفة عن التوسع الأوروبي الذى بدأ في أوائل الفترة الحديثة، حيــث لــم تكــن الاستغلال أو الإخضاع وإنما السيطرة والتطوير. ورغم أن هذا الفارق قد لا يــرى على هذا النحو من الجهة المستقبلة، فإنه ضرورى جدا لفهم سير الحرب البــاردة

نفسها: فبينما الإمبريالية قد أوجدت الوعى الاجتماعي فى النهاية، فإن ذلك الوعى كان موجوذا فى الحرب الباردة من البداية. انتقادات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لممارسات الإمبريالية الأوروبية لأوائل القرن العشرين كانت وجهات نظر أيديولوجية حقيقية وعميقة، بل إن بعض الوحشية غير العادية فى تدخلات الحرب الباردة – شأن ما حدث فى فيتنام أو أفغانستان – يمكن تفسيره باعتباره نوعًا من التوحد السوفيتى والأمريكى مع الشعوب التى كانا يحاولان الدفاع عنها. كانت تدخلات الحرب الباردة امتدادًا للحروب الأهلية الأيديولوجية، تُحارب بضراوة لا تجلب مثلها سوى الحروب الأهلية.

إن الحاجة إلى فهم الحرب الباردة فى ضوء التجربة الاستعمارية قد تركت أثرها على بنية هذا الكتاب. تعنى الفصول الثلاثة الأولى بالجذور الأيديولوجية والسياسية للحرب الباردة فى العالم الثالث بالكشف عن دوافع الزعماء الأمريكيين والسوفيت وزعماء فترة ما بعد الاستعمار من منظور تاريخى. يناقش الفصل الأول تطور الفكر الأمريكى عن الشعوب غير الأوروبية وعلاقاتها بالهوية الأمريكية والسياسة الخارجية. ويجادل بأن المناقشات حول الحرية والتقدم والمواطنة فى السنوات الأولى من عمر الجمهورية قد وضعت نموذجا للتدخل فى العالم الثالث استمر حتى هذا اليوم. الفصل الثانى يتناول جذور الفكر الروسى عن العالم الثالث منذ بداية الإمبراطورية حتى حقبة ما بعد ستالين. ويظهر كيف ورث البولشفيك الكثير من مشكلات الماضى، وكيف حاولوا تحويلها من خلال تأكيد شكل جمعى للحداثة، حاولوا نشره عن طريق الكومنتيرن والسياسة الخارجية السوفيتية، إلى أجزاء أخرى من العالم. الفصل الثالث ينهى هذه النظرة إلى الجذور التاريخية للأفكار والأيديولوجيات بالتركيز على مقاومة العالم الثالث للاستعمار الأوروبى وتطور الأشكال المختلفة من الحركات الثورية المناهضة للاستعمار، ويشرح كيف تفاعلت تلك الحركات مع صراع الحرب الباردة الباكر وكيف اختار بعض زعماء

العالم الثالث أن يتحالفوا مع إحدى أيديولوجيتيه المتنافستين، بينما وقف آخرون يعارضون كلتيهما.

الفصلان الرابع والخامس يشرحان العلاقة المتبادلة بين النجاح المطرد للمقاومة المناهضة للاستعمار ونشأة تدخل الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة. الفصل الرابع يقول بأنه فى فترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٦٠ ساعدت الولايات المتحدة، من خلال سياساتها فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى خلق العالم الثالث باعتباره مفهومًا ذا معنى فى السياسات الدولية، يرمز إلى المقاومة ضد الهيمنة الغربية. الفصل الخامس يتفحص السياسة الخارجية لكوبا وڤيتنام فى معارضة السيطرة الأمريكية، وكيف أنهما مثلتا بؤرتين لإلهام الحركات الثورية فى كل مكان آخر (رغم أنها كانت فى الغالب فى شكل سوء فهم خلاق أكثر منها دروس مباشرة).

الفصول من السادس إلى الثامن تتناول الحالات الرئيسية للتدخل فى العالم الثالث أثناء الحرب الباردة. الفصل السادس يتيح نظرة عامة على العوامل الدولية للصراع ضد العنصرية والاستعمار فى أفريقيا الجنوبية، بينما يركز على الحرب الأهلية الأنجولية وتدخلات الحرب الباردة التى صحبتها. الفصل السابع يشرح الثورة الإثيوبية وارتباطها بالولايات المتحدة وبالاتحاد السوفيتى على وجه الخصوص، وينظر كيف أن الحرب الإثيوبية الصومالية ساعدت على هدم عناصر الاشتراكية فى القرن الأفريقى، وعلى فترة التهدئة الوجيزة بين القوتين العظميين. الفصل الثامن يظهر كيف ساعد نمو الإسلاموية فى كل من إيران وأفغانستان على تحطيم المؤسسات الحداثية فى النظامين، وكيف عزم الاتحاد السوفيتى على التدخل لكى يعيد إنشاء نظام تحديثى اشتراكى فى كابول.

الفصلان الأخيران والخاتمة يقدمون نقاشًا حول الحرب الباردة فى العالم الثالث فى الثمانينيات وأثرها حتى وقتنا الحالى. الفصل التاسع يوضح هجوم

ريجان على الأنظمة الثورية وعلى الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان وأنجولا وأمريكا الوسطى، كما يناقش التغيرات الاقتصادية والأيديولوچية التى أدت إلى نجاح الهجوم. الفصل العاشر يوضح كيف قرر ميخائيل جورباتشوف، بعد فترة وجيزة من التورط النشط، أن يسحب الاتحاد السوفيتى من التدخل فى صراعات العالم الثالث وكيف حاول، وفشل، فى بناء نظام عالمى حول مبادئ حق تقرير المصير لدى الدول. أما الخاتمة فتقيّم تأثير الحرب الباردة على العالم الثالث، وكيف أشعلت المقاومة المستمرة ضد الهيمنة الأجنبية، كما تناقش كيف أضعفت سياسة التدخل كلا من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وكيف ظلت تفسد أيديولوچية السياسة الخارجية الأمريكية اليوم.

هناك الكثير من الأدبيات التى تتناول تدخلات القوتين العظميين وثورات العالم الثالث، وأنا مدين للكثير من الباحثين لعمق نظرتهم، وهم أكثر من أن يُذكروا جميعا فى الإهداء أو حتى فى الملاحظات. الغريب - بالنسبة للطلاب الجادين - أن هاتين النوعيتين من الأدبيات لا ترتبطان بالمعنى المنطقى فى الغالب؛ بل يتتابع الحديث عنهما أكثر مما يرتبطان حول القضايا التى تخصهما معا. والسبب المهم فى ذلك الخلل هو أن الأبحاث المهمة فى كل مجال قد تم تقسيمها إلى مذهبين: فبينما ركز المؤرخون وخبراء العلاقات العامة على جوانب التدخل، كان علماء الاجتماع والعلوم الإنسانية الاجتماعية يدرسون ثورات العالم الثالث ونتائجها، وكان هدفى أن أتعمق فى كل تلك المذاهب حول موضوع دراسة كل منهما (حتى وإن ظهرت حدود مذهبى الخاص من وقت لآخر).

السبب الجوهرى بالنسبة لى بصفتى مؤرخًا لكى أستطيع كتابة هذا الكتاب، هو إمكانية الوصول إلى أرشيفات العالم الأول والثانى والثالث (سابقا). فبينما لم يستطع مؤرخو الحرب الباردة حتى العقد الأخير الوصول إلى الأرشيفات خارج

الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، استطعنا نحن الآن الاستفادة من أرشيفات الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية وكذلك من مجموعات متزايدة من دول في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. هذا الوصول السريع إلى مصادر المادة يحمل الوعد بتغيير المجال تغييرًا عميقًا – من حيث كل من، كما آمل، منهجه الكلي وتفسيراته، وأيضًا من حيث جعله أكثر ملاءمة لعدد كبير من الناس بوصفه مجال دراسة. هذا الكتاب محاولة لزيادة كل من العمليتين.

شكر وعرفان

إن كتابًا يهدف إلى الدمج ما بين خمسين عامًا من التاريخ العالمي في خمس قارات لابد من أن يحمل قدرًا كبيرًا من العرفان بالدين، سواء أكان دينًا فكريًا ثقافيًا أو غير ذلك. والدين الأساسي في عنقي هو لأولئك الدارسين الكثر الذين كتبوا عن جوانب مختلفة للحرب الباردة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التي أخذتها لهـذا الكتاب. لقد كونوا أدبًا كبيرًا متسعًا في الكثير من مجالات البحث من التاريخ إلـى علم الاجتماع والعلوم الإنسانية الاجتماعية. وكل من تلك المجـالات لـه روعتـه الخاصة وقد كتبت هذا الكتاب بعرض المزيد من الصلة بينها.

وهناك دين آخر أحمله في عنقي لأعضاء المنتدى الخاص بـي فـي ***LSE*** على مدار السنوات الأربع الأخيرة، وخاصة أليتا بيرد ***Alita Byrd*** وجيفري بايرن ***Jeffrey Byrne*** وجان كورنيليوس ***Jan Cornelius*** وتانيا هارمر ***Tanya Harmer*** وجوليا هوبر ***Julia Huber*** وألـيكس مـارتينوس ***Alex Martinos*** و ألكـساندرا ميجلياكو ***Alessandra Migliaccio*** وديڤيد مـيلن ***David Milne*** وكلوديـا شـليبن ***Claudia Scheipen*** وسيم شي-ين ***Sim Chi-yin*** وكانـداس سـوبرز ***Candace Sobers*** وأمال ترحوني ***Amal Tarhuni*** وديـڤيد والـش ***David Walsh*** وڤالديس ويش ***Valdis Wish*** ولويس وودروف ***Louise Woodroofe*** وسـينثيا وو ***Cynthia Wu***. لقد أجروا ورفاقهم الكثير من المناقشات المثمرة وقاموا بالكثير من التـشجيع أثناء مساعدتهم في كتابة هذا الكتاب.

كما أننى مدين أيضا للدارسين الذين وافقوا أن يقرأوا البروفات أو المسودات كاملة أو أجزاء منها أثناء الإعداد. إن زميلى فى التحرير صاحب كتاب موسـوعة كمبردج عن الحرب الباردة ***Cambridge History of the Cold War*** ملـڤين ليفلـر ***Melvyn Leffler*** ناقد بارع وصديق عظيم أثرت قراءته في المسودة بالعديـد مـن الأساليب المختلفة (رغم أننى أعتقد أننا مازلنا مختلفين على الجدلية الأساسية بها). وفى كلية الاقتصاد بلندن ***LSE*** أضاف زملائى ماك جريجور كنوكس ***McGregor Knox*** وپيير لودلو ***Piers Ludlow*** ونيجيل أشتون ***Nigel Ashton*** وستيڤين كاسى ***Steven Casey*** مدخلات مهمة، وأثناء إقامتي فى جامعة نيويورك فى ربيع ٢٠٠٢ قـرأت مارلين يونج ***Marilyn Young*** الفصل الأول وقامت بالتعليق عليه. وفـى جامعـة كاليفورنيا ساعدت سانتا باربارا ***Santa Barbara*** وتسيوشي هازيجـاوا ***Tsuyoshi Hasegawa*** وفريد لوجـالڤال ***Fred Logevall*** (وهو الآن فى جامعـة كورنيـل)، ساعدوا على تنظيم ندوة لمناقشة ما توصلت إليه فى ربيع ٢٠٠٣، وفعـل كاميـل كريج ***Campbell Craig*** الشيء نفسه بجامعة كانتربرى، بنيوزيلنده. فـى جامعـة بيكنيج ***Peking*** ساعد نيو چون ***Niu Jun*** وزملاؤه فى ربيع ٢٠٠٤ على تحـسين الكتاب، وفى موسكو ساعدنى ألكساندر شوباريان وفريقه فى معهد التاريخ العام فى الأكاديمية الروسية للعلوم كثيرًا أثناء رحلات البحث الكثيرة التى قمت بها بأساليب أكثر من أن أستطيع أن أذكرها. وبالقرب من وطنى، فى كمبـردج، أسـدى إلـى ديـڤيـد رينولـدز ***David Reynolds*** وجوناثـان هاسـلام ***Jonathan Haslam*** وكريستوفر أندرو ***Christopher Andrew***، أسدوا إلىّ النصائح أثناء الكثيـر مـن المناقشات والندوات التى قمت بها. وتعلمت الكثير فى أكسفورد من خـلال تقـديم ندوة فى أول سولز ***All Souls*** أثناء تولى چون لويس جاديس ***John Lewis Gaddis*** منصب الأستاذ فى باليول فى ٢٠٠١.

وفي حين أن الكثير من العمل في هذا الكتاب يقوم على مصادر منشورة أو مجموعات وثائقية يسهل الوصول إليها، فقد كان عليّ أن أقوم ببحث أساسي في الأرشيفات، في الكثير من أرجاء العالم حتى أستطيع أن أرسم صورة متكاملة. كذلك أدين بالشكر في موسكو إلى مدير أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية ألكساندر شوريلين *Aleksandr Churilin* وخلفائه، وإلى مدير أرشيف الدولة الروسية للتاريخ الاجتماعي السياسي كيريل أندرسون *Kirill Anderson*، وإلى مدير أرشيف الدولة الروسية للتاريخ المعاصر ناتاليا توميلينا *Natalia Tomilina*، وإلى أرشيف رئيس الفيدرالية الروسية. في بيجين ساعدني زانج سولين *Zhang Sulin* في أرشيفات وزارة الخارجية الصينية أكثر مما يقتضي الواجب، وفي بلجراد زودني فريق العمل في الأرشيفات الفيدرالية لصربيا والجبل الأسود – وخاصة نائب المدير ميلادين ميلوسوفيتش *Miladin Milosevic*، بالمصادر التي لم يتم التطرق إليها من قبل هناك. في بريتوريا ساعدني نيلز مولر *Niels Mueller*، من أرشيفات وزارة الخارجية، في الوصول إلى الوثائق الخاصة بجنوب أفريقيا. في برلين كان فريق عمل قسم الأرشيفات الفيدرالية للأحزاب والمنظمات الكبرى لألمانيا الشرقية متعاونًا للغاية، وفي روما أثبتت أرشيفات معهد جرامشي – من خلال مجهودات العاملين بها – أنها منجم ذهب للمؤرخ العالمي.

كان من المستحيل أن أتم هذه الدراسة لولا مساعدة مشروع التاريخ العالمي للحرب الباردة *Cold War International History Project (CWIHP)* وأرشيف الأمن القومي – هذان المعهدان الرائعان بواشنطن، حيث الانفتاح الأرشيفي الدولي والتعاون الدراسي الدولي يسيران جنبا إلى جنب. وأدين بالشكر لمديري المشروع السابقين جيمس هيرشبرج *James Hershberg* وديفيد وولف *David Wolff* والمدير الحالي كرستيان أوسترمان *Christian Ostermann*. في أرشيف الأمن القومي ساعدني كثيرا مديره توماس بلانتون *Thomas Blanton*، كما ساعدني مالكولم بايرن *Malcolm Byrne*

ووليـــام بيـــر *William Burr* وســــفتلانـــا ســـافرنـــسكايا *Svetlana Savranskaya* وفلاديسلافزوبوك *Vladislav Zubok* وهو الآن بجامعة تمبل).

وكالعادة فإن إنجن وأندرز وچينى هم من يعطون للنجاح معنـــى. وســـوف يسامحونى لأننى لم أهدِ هذا الكتاب لهم، وإنما إلى صديقين لى ماتا أثناء الحـــرب الباردة: روث فيرست *Ruth First* وهو اشتراكى من جنـــوب أفريقيـــا، اغتالتـــه عناصر النظام العنصرى فى مابوتو فى ١٩٨٢؛ وسيد على مجروح، وهو مـــسلم أفغانى وديمقراطى قتله المتطرفون الإسلاميون فى بيشاور فى ١٩٨٨.

Bis vivit qui bene vivit عاش مرتين من عاش سعيدًا.

هوامش المقدمة

(١) *Jasper Griffin, "It's All Greek!" New York Review of Books, 18 December 2003*
إن دراسة العالم القديم قد تمنح مؤرخي الحرب الباردة أكثر مما يظن كثير منا. فعند مراجعة دور النخب المحلية في الحرب الباردة (انظر الفصل الثالث) أتذكر رسالة شعب كورسيرا *Corcera* إلى أهل أثينا، وهم يقدمون تحالفا مصيريا لإحدى القوى العظمى اليونانيــة فـــي ٤٣٣ ق.م.: "الآن هناك الكثير من الأسباب التي تجعلكم تهنئون أنفسكم بمناسبة تحالفكم معنا وقد قدمنا لكم هذا الطلب. أولا، لأن دعمكم سيؤول إلى قوة غير معتدية، ومن ثم فهي ضحية لظلم الآخرين. ثانيا، لأن كل نفيس لدينا في خطر الآن، وترحيبكم بنا تحت هذه الظروف سيكون دليلا علـــى النوايا الحسنة التي ستبقى عرفاننا بكم حيا في قلوبنا إلى الأبد "

(Thucydides, The History of the Peloponnesian War, trans. Richard Crawley [Oxford: Oxford University Press, 1960], ch. 2, § 33).

(٢) *George Orwell, "You and the Atomic Bomb," Tribune, 19 October 1945*

(٣) انظر مثلا النقاش الحاد حول مناصرة العالم الثالث في فرنسا في أواخر الثمانينيات وأوائــل التسعينيات الذي انعكس في

Claude Liauzu, L'enjeu tiersmondiste: debats et combats (The Tiermondiste Stakes: Debates and Battles) (Paris: Harmattan, 1987).

للخلفية التاريخية انظر:

Denis Pelletier, Economie et humanisme: de l'utopie communautaire au combat pour le tiers-monde:1941-1966 (Economy and Humanism: From Communitarian Utopia to Struggle for the Third World) (Paris: Editions du Cerf, 1996).

(٤) هنا أستعير استخدام إيمانويل فالرشتاين *Immanuel Wallerstein* للمصطلح، انظر كتابه

"Cultures in Conflict? Who are We? Who are the Others?", Y. K. Pao Distinguished Chair Lecture, Center for Cultural Studies, Hong Kong University of Science and Technology, 20 September 2000.

(٥) *Nirad Chaudhury, Autobiography of an Unknown Indian (London: Macmillan, 1951).*

الفصل الأول

إمبراطورية الحرية: الأيديولوجية الأمريكية والتدخلات الخارجية

فى تسعينيات القرن التاسع عشر، حين كانت الولايات المتحدة تعد العدة لاستعمار شعوب خارج قارة أمريكا الشمالية، ازداد النقاش حدة حول ما إذا كان يمكن للجمهورية أن تكون أيضا إمبراطورية. وعندما قبل "وليام جيننجز بريان" *William Jennings Bryan* الترشيح الديموقراطى للرئاسة فى ١٩٠٠، أدان الاستعمار الأمريكى للفلبين قائلا بأن مثل تلك السياسات كانت تضر بروح الجمهورية: "إن تاريخنا كله كان تشجيعًا – ليس للفلبينيين فحسب – وإنما لكل من لا يملكون صوتًا فى حكوماتهم ...

> **فرغم أن نشاطنا محدود بالساحة الغربية، فإن تعاطفنا لا يقف عند حدود البحار من حولنا. إننا نشعر بأن من واجبنا نحو أنفسنا ونحو العالم، وكذا نحو من يكافحون لنيل حقهم فى حكم أنفسهم، أن نعلن اهتمام شعبنا بأى سجال بين حقوق الانسان والقوة الاستبدادية[١].**

وفى القرن الذى أعقب معارك بريان الخاسرة من أجل الرئاسة، كانت مشاعره – بكل تعقيداتها – تتكرر فى اللحظات المهمة فى صناعة قرارات السياسة

الخارجية الأمريكية؛ فهل يستطيع الأمريكيون، وهم المباهون بحرياتهم، أن يحكموا الآخرين؟ وإن لم يستطيعوا، فما الشكل الذى سوف يأخذه هذا "الاهتمام" بالعالم الذى يتحدث عنه بريان؟ وهل كانت حرية الأمريكيين وحدها كافية لتفى بوعد أمريكا، أم كانت أجندة الحرية الأمريكية هى العالم؟ ولو أن مهمة أمريكا توقفت عند حدودها وسواحلها فكيف للولايات المتحدة أن تدافع عن حرياتها على المدى البعيد؟ ولو أن هذه المهمة امتدت إلى ما لا نهاية، فكيف للقوة الأمريكية أن تحمى الولايات المتحدة وتبنى الحريات العالمية فى الوقت نفسه؟

كثيرًا ما رأى المؤرخون – بحسهم بالثنائيات – أن تسعينيات القرن التاسع عشر وهزائم بريان هى صراع بين الانشغال الجمهورى بالحرية وانشغال للجمهوريين بالمال والمصالح – سجال انتصر فيه الأخير انتصارًا مؤكدًا. لكن على الأقل من حيث السياسة الخارجية، يمكننا أيضا رؤية نهاية القرن التاسع عشر على أنه لحظة حاسمة فى صناعة أيديولوچية أمريكية واضحة – وهى العملية التى تعود تاريخيا إلى القرن الثامن عشر ومستقبلا إلى القرن الحادى والعشرين. عندما امتدح توماس چيفرسون ***Thomas Jefferson*** فى ١٧٨٥ *المبدأ* الأمريكى الذى يركز على تحسين الحريات فى الداخل، أضاف أن تجنب الحرب قد يكون "نظرية لا يملك المواطنون الأمريكيون الحرية فى أن يتبعوها". وقد وجد چيفرسون المشكلة فى دعائم الأمة – "إن شعبنا لديه تذوق خاص للإبحار والتجارة"[٢]. فعند تكوين الدولة الأمريكية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت "النظرية" و"الأذواق" يتنافسان على الأولوية، فى الوقت الذى أصبحا أكثر ارتباطًا وتداخلا وتوافقًا.

وبحلول منتصف القرن العشرين كان لكل من الحرية والمصالح – "النظرية" و"الأذواق" – مكانًا طبيعيًا ومتكاملا فى أيديولوچية السياسة الخارجية للولايات المتحدة، ترتبطان معًا كرمزين ومفهومين أساسيين فى الفهم العالمى لمهمة أمريكا.

وأثناء الحرب الباردة كانت الرموز والصور الأمريكية - السوق الحرة ومعاداة الشيوعية والخوف من قوة الدولة والإيمان بالتكنولوچيا - لها وظيفة تنبؤية؛ فما يكون في أمريكا اليوم هو ما سيكون في العالم غدًا. وفي حين تعود العالمية والتنبؤ الأمريكيان بجذورهما إلى الأصول الثورية للدولة، فإن مظاهرهما الأيديولوچية قد تطورت على نحو أبطأ، وعادت حلولا وسطا بين أفكار متناقضة. وكما يقول المؤرخ مايكل هنت ***Michael Hunt*** فإن الشكل الخارجي لهذه الرموز يعود إلى حقبة الثورة بينما محتواها قد يكون معاصرًا بشكل مذهل[٢]. ولذا فمن المجدي الحديث عن أيديولوچية أمريكية تضرب بجذورها إلى مائتي عام، لكنها في الآن نفسه تمثل أيديولوچية معاصرة يمكن من خلالها تفسير تجارب الأجيال وحل الصراعات الفكرية.

إن تاريخ التدخلات الأمريكية في العالم الثالث لهو - إلى حد بعيد - تاريخ تطور هذه الأيديولوچية عبر الزمن وأسلوب تشكيلها لسياسات النخبة الموجهة للسياسة الخارجية الأمريكية. ورغم أنه كانت هناك فترات من المعارضة الداخلية الشديدة للسياسات المتبعة، فإن فترة الحرب الباردة تمثل فترة كان بها إجماع ملحوظ - وفقًا للمقاييس الأمريكية - على الأهداف المباشرة والوسائل المطروحة للسياسة الأمريكية في الخارج. هذا الافتقار النسبي إلى النقاش السياسي كان يؤدي أحيانًا بالأكاديميين إلى تبسيط العلاقة بين الأيديولوچية والممارسة في كيفية إدارة واشنطون للسياسات العالمية. ولكن، كما يظهر في أصل علاقات أمريكا بالعالم وبداية هذه العلاقات، فقد نشأ وتطور الإجماع بشأن الحرب الباردة عن صراعات عميقة في الماضي، حول دور الجمهورية الديمقراطية والوسائل التي تستطيع أن تستخدمها لكي تؤثر في الآخرين.

"فى كل سجال"

منذ البداية، كانت الولايات المتحدة قوة تدخلية تقيم سياستها الخارجية على التوسع الإقليمى. وكانت رسالتها الثورية – رجال أحرار وشركات حرة – تحديًا للقوة الأوروبية على المستوى القارى. وحتى بالنسبة للقلة التى لم تكن تؤمن بالحق الإلهى فى أوائل القرن التاسع عشر، فقد كانت الأفكار الرئيسية التى قادت الأمريكيين إلى فكرة الأمة هى الأفكار نفسها التى قادتهم إلى إدراك قوة أمريكا، وحولتها فى نظرهم. تلك الأفكار كلها خلقت أيديولوجية حركة النخب الأمريكية فى علاقتها بالعالم الخارجى من حقبة الفيدرالية إلى الحرب الباردة.

كان أول هذه الأفكار الجوهرية، المفهوم الأمريكى عن ***الحرية Liberty*** بكل ما له من معان وامتدادات. فقد كانت الحرية بالنسبة للمواطنين الأمريكيين هى ما تفصل الولايات المتحدة عن غيرها من الدول؛ بل هى ما تسبغ المعنى على وجود دولة أمريكية منفصلة. وكانت الحرية الأمريكية مدعومة بحالة إنسانية مختلفة عن الحالة الإنسانية للآخرين. فالأمريكى – كما قال چيفرسون ***Jefferson*** فى أعقاب الثورة الفرنسية

> **بممتلكاته – أو بموقفه المُرضى – يهتم بتدعيم القانون والنظام. ومثله يستطيع أن يحفظ لنفسه سيطرة كاملة على شئونه العامة بشكل آمن وصحيح، ودرجة من الحرية لو تركت فى أيدى غوغاء (*canaille*) المدن الأوروبية لتحولت فى اللحظة نفسها إلى هدم كل شىء وتدميره ، العام والخاص.... لكن حتى فى أوروبا، حدث تغير مهم فى عقل الإنسان. فقد حرر العلم أفكار من يقرأون ويفكرون ويتأملون، وأثار**

النموذج الأمريكي مشاعر الحقوق لدى الناس، ومن ثم بدأت الثورة ... وفشلت في جهودها الأولى بسبب رعاع المدن، وهم الذين كانوا الأداة المستخدمة في التنفيذ، وقد حط الجهل والفقر والرذيلة من قيمتهم فلم يمكن السيطرة عليهم في إطار الفعل العقلاني. لكن العالم سوف يفيق من فزع هذه الكارثة الأولى(٤).

الحرية، من وجهة نظر الرئيس الثالث وخلفائه، لا يمكن أن توجد بدون وجود الملكية الخاصة والتبعية لمجتمع منظم، وهى التبعية الناشئة عن ذلك الحق تحديدًا. إذن، فالحرية ليست للجميع، وإنما هى لمن يملكون الاستقلال المطلوب – من خلال الممتلكات الخاصة والتعليم – ليصبحوا مواطنين في الجمهورية. وكان مقبولا أثناء الفترة الفيدرالية أن معظم الأوروبيين يستطيعون تحقيق مثل هذه المكانة إذا اقتدوا بالنموذج الأمريكي للتنوير، وقد اتسعت دائرة التنوير المحتمل في القرن العشرين من حيث العرق. لكن حتى الحرب الباردة كان معظم سكان العالم – بمن فيهم أبناء المستعمرات الأفريقية التي جلبها الأوروبيون إلى أمريكا – خارج تلك الدائرة. وكذا استبعد أيضا الأمريكيون الأصليون واللاتينيون. وكتب جيفرسون إلى "دى لافاييت" *de Lafayette* في ١٨١٣ يقول: "إننى أشاركك الأماني الصادقة بأن تتحرر أمريكا الجنوبية.

ولا أشك أنهم سوف يتحررون من الخضوع للقوى الأجنبية، لكن نتاج معلوماتي لا يدع لي المجال أن آمل في أنهم سيستطيعون إقامة حكومة حرة. فالناس منغمسون في ظلمات الجهل، وقد جردتهم الخرافات والتعصب من إنسانيتهم.

لكن جيفرسون ظل يشعر بالأمل لأهل أمريكا اللاتينية: "لكن النور سوف يشرق على عقولهم بعد حين، وربما يؤهلهم النموذج الذى نمثله، الذى يعتبر حافزًا ومرشدًا لهم إلى الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه – ويؤهلهم على المدى البعيد لكى يحكموا أنفسهم"[٥].

كانت *معاداة الجماعية* ***anticollectivism*** مبدأ جوهريًا فى الأيديولوجية الأمريكية؛ فالفرد الحر يمكن أن يكون جمهوريًا أما الغوغاء فلا. وكانت الجماعية تمثل كل مخاوف الثوريين الأمريكيين فى القرن الثامن عشر على جمهوريتهم من الفساد. فى خارج أمريكا، كان معنى انعدام الحرية يتمثل فى سيطرة الغير من خلال الإقطاع أو – كما فى حالة الثورة الفرنسية – من خلال إغواء حزب أو حركة ما. أما فى أمريكا – وتدريجيا فى كل مكان آخر – كان الثقل المضاد لهذه العبودية يكمن فى التعليم و"العقلانية" من خلال العلم. لكن بقى دائمًا الخوف، الذى ظل صداه يتجاوز الأجيال، من أن أمريكا إذا لم تدافع عن حريتها، فسوف يتحرك التاريخ فى الاتجاه المعاكس؛ وأن الأفكار الجماعية المستوردة أو المهاجرين غير المتعلمين الذين يتمسكون بهويات ثقافية لا تقتنع بها النخب فى الولايات المتحدة، قد تفت فى عضد الحرية الأمريكية أو تقلل من شأنها.

معظم الأمريكيين فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كرهوا القبول بفكرة *القوة السياسية المركزية*. بل إن الكثير من النقاشات الأيديولوجية فى القرنين الأولين من عمر الجمهورية الأمريكية كان يتركز حول أساليب تجنب الدولة القوية. فمثلا لكى تتم الموافقة العامة على دستور للأمة فى أواخر القرن الثامن عشر، كان لابد من أن تنتزع عدة سلطات من القوة التنفيذية، بما فى ذلك سلطة إعلان الحرب. وبعد مائة عام، منعت معاداة المركزية هذه أمريكا من أن تستخدم الدولة كوسيلة للإصلاح الاجتماعى تأسيًا بأوروبا، بل وألقت

بظلال من الشك – بالمعنى الأيديولوجى – على الدول التى تتبع هذا المنهج. وأثناء القرن العشرين، رغم المحاولات العارضة لإجراء الإصلاح الذى تقوده الدولة، وأيضًا رغم النمو الضخم للدولة الفيدرالية على نحو مطلق، ظلت تلك المواقف لها أهمية كبيرة فى كيفية رؤية النخب الأمريكية للعالم ودورها فيه.

العلم كمصدر "للفعل العقلانى" كان هو أساس الإيمان الأمريكى بالأهمية العالمية للدولة الجديدة منذ البداية. وقد كانت الولايات المتحدة الدولة الأولى التى قامت على أساس "المبادئ العلمية" للتنوير، مما يعنى أن الدولة الجديدة كانت رائدة لغيرها من الدول التى ستأتى فيما بعد – "النور الذى سيشرق على عقولهم" على حد تعبير چيفرسون. لكن معنى ذلك فى الوقت نفسه، أن الهوية الأمريكية فى القرن التاسع عشر أصبحت مرتبطة بمفهوم الحداثة، مما جعل الارتباط وثيقًا بين التكنولوچيا والنظام الاجتماعى القائم فى الولايات المتحدة. وأصبحت الطريقة الوحيدة للحداثة هى اتباع النموذج الأمريكى، و"تحرير" الإنتاجية والابتكار من الثقافات والأيديولوچيات "القديمة" (ما أصبحت تعرف بـ"التقليدية" فيما بعد). وفى القرن التاسع عشر، كان المرجع الوحيد للأمريكيين هو أمريكا – اكتمال النبوءة المُرضية للذات التى أُطلقت مع بداية وجود الجمهورية الأمريكية.

كانت *السوق* جزءًا من "الفعل العقلانى" لأمريكا الباكرة – السوق بمعنى تبادل المنتجات والخدمات على أساس قيمتها النقدية فقط، بلا تقيد بالعمالة التجارية أو الحاجة. وكما رأينا، فحتى توماس چيفرسون – ومعه أعداد غفيرة من الأمريكيين فى القرن التاسع عشر، الذين كانوا يرون أن المزارع صاحب الاكتفاء الذاتى هو المواطن المثالى – استطاع أن يدرك حب مواطنيه "للإبحار والتجارة"، للدرجة التى دفعته بوصفه رئيسًا إلى أن يرسل قوات بحرية إلى شمال أفريقيا لحماية السفن الأمريكية. ومع تحول الولايات المتحدة إلى الصناعة فى أواخر

القرن التاسع عشر، أصبحت السوق الرأسمالية حقيقة بالنسبة لكل الأمريكيين وأصبحت المشاركة فى هذا التبادل التجارى - بحال أو آخر - رمزًا للانتماء إلى أمريكا. ومع نمو الصادرات الأمريكية قرب نهاية القرن، حوّل هذا الإيمان بالسوق نفسه إلى إيمان بالأسواق العالمية المفتوحة يخدم المصلحة الذاتية، حيث استطاعت الشركات الأمريكية - التى كانت فى الكثير من الأحيان أقوى المتنافسين - أن تُعمل خبراتها فى صناعة الأموال ومؤسسات الأعمال. وحتى رغم أن تلك الفكرة لم تحمل دائمًا معنى أن يكون هناك اختراق خارجى للأسواق *الأمريكية*، أصبحت الأسواق الحرة جزءًا من أيديولوچية السياسة الخارجية الأمريكية - فكرة وامتداد منطقى لمزايا الرأسمالية والحرية العالمية.

ومع نجاحها فى الدفاع عن دخولهم إلى التجارة العالمية فى حرب عام ١٨١٢، حولت نخب القرن التاسع عشر اهتمامها إلى التوسع الموعود فى بداية قيام دولتهم. وحتى نهاية القرن كان الهدف من هذا التوسع قاريًا بالأساس - حيث إن وجود الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية على الأرض الأمريكية كان أمرًا لا تحتمله حرية الولايات المتحدة. أثناء تولى چيفرسون للرئاسة، بلغت مساحة الولايات المتحدة نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ ميل مربع، وفى ١٨٤٨ كانت ثلاثة ملايين ميل مربع، وفى ١٨٦٧ بعد الاستيلاء على ألاسكا من روسيا، وصلت إلى أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون ميلا مربعًا، وقد جاءت تلك الأخيرة فقط بناء على "تحول بالمفاوضات الحرة" وفق عبارة المؤرخ "برادفورد پيركين" ***Bradford Perkin***. أما الولايات الأخرى - لويزيانا وفلوريدا وتكساس ونورثوست وفتوحات ١٨٤٨ من موسكو، فجميعها حدثت بفعل الحرب أو التهديد بالحرب. وكانت الصورة التى جعلت من حيازة أمريكا للقارة "قدرها الجلى" ***manifest destiny*** - وهو المصطلح الذى استخدم لأول مرة فى ١٨٤٥ - تعبر عن خرافة واقعها وحقيقتها برنامج إمبريالى ملموس(٦).

لكن أهم تدخلات الولايات المتحدة أثناء القرن التاسع عشر كانت ضد السكان الأصليين فى القارة الأمريكية. وحاولت الحكومة الأمريكية، باسم العقلانية والتقدم، أن تسيطر على – وفى بعض الحالات أن تبيد – جميع الشعوب التى استوطنت ما أصبح يعرف بالولايات المتحدة قبل القرن السابع عشر. تلك التدخلات، ضد من ظلوا يسيطرون على معظم أراضى القارة فى الجزء الأول من القرن التاسع عشر رغم المزاعم الإمبريالية التنافسية، أرست أسلوب التعامل مع الدول التى لم تستطع – بسبب ضعف مستويات "الفعل العقلانى" لديها – أن تنعم بالحرية كهدية من الولايات المتحدة. "السيطرة" أصبحت هى الأسلوب الأمثل لامتداد الأهداف الأمريكية وراء البحار، حيث لم تكن الحرية اختيارًا مطروحًا بعد(٧).

قضية السيطرة على من لم يكونوا يستحقون بعد مستويات الحرية التى يتم الإنعام بها على الأمريكيين البيض، كانت أيضًا قضية جوهرية لمعالجة المستعمرة الأفريقية التى تركها الأوروبيون. فرغم تزايد كراهية معظم الأمريكيين للعبودية فى القرن التاسع عشر، كان لابد من السيطرة على السود خوفًا من أن يتسبب نقص "الفعل العقلانى" لديهم فى إفساد تقدم أمريكا أو إعاقته. وبعد فترة إعادة البناء، تسببت العنصرية فى الجنوب وخطط "التحسين" ***"betterment"*** فى الشمال فى حرمان السكان السود من حقهم فى التصويت حتى أواخر القرن العشرين مما تسبب – كما سنرى – فى استخدام كلا أسلوبى السيطرة فى الخارج ثم أخيرًا فى وجود تحد أيديولوچى للمفاهيم الأمريكية عن الحرية.

فى أواخر القرن التاسع عشر، فى الوقت الذى أثيرت فيه لأول مرة قضية أن الولايات المتحدة هى قوة إمبريالية عابرة للمحيطات، كان الوجه المزدوج لمسألة الهجرة الخارجية قد بدأ يتضح للكثير من الأمريكيين. فمن ناحية، وجد

الأمريكيون فى ذلك الوقت – كما في أثناء الحرب الباردة وكما هو اليوم – وجدوا فى تزايد الهجرة تأكيدًا على نجاح أمريكا. ومن ناحية أخرى، صار البيض من أهل الشمال أكثر قلقًا بشأن التهديد الذى يمثله "غرباء لا يمكن دمجهم" على "القيم الأمريكية". وفى الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٩٢٠ ، وهى الفترة التى استقبلت فيها أمريكا ستة وعشرين مليون مهاجر جديد، تصاعدت الآراء العنصرية والإثنية النمطيـة المكـررة لتحـدد "موضعهم" فـى المجتمع الأمريكى، وفى بعض الأحيان لتحدد من ينبغى البقاء خارج هذا المجتمع. وكان "قانون إبعاد الصينيين" ***The Chinese Exclusion Act*** في ١٨٨٢، هو الأول فى سلسلة القوانين التى تزعمت حملات إصدارها مؤسسات مثل "رابطة الحد من الهجرة" ***Immigration Restriction League*** التي حاولت إبعاد من هم "من أجناس أدنى". وزُعم أن ذلك الإبعاد مهم، لأن الهجرة الحرة سوف تعوق أمريكا عن الوصول إلى وعدها العالمى. وكما قال مبعوث ويومنج ***Wyoming*** إلى اتحاد عمال مناجم أمريكا فى عام ١٩٠٤ "إننا نعتقد

> **أن الأمـريكيين اليـوم، كمـا فـى ١٧٧٦، يمثلـون الاستقلال وأنبل صور الرجولة؛ أما العامل اليابـانى، كما نجده فى مناجمنا وصناعاتنا الأخرى، فلا يمثل أيا من هاتين الصفتين. إنه، مثل العامل الـصينى، يعمـل مقابل ما سيروق للشركة أن تدفع له، ويرد جزءًا من إيراداته إلى وكيله اليابانى الذى يسميه "مديرًا"، لا شـك لكى يروغ من القانون الذى يمنع العمل التعاقدى(٨).**

ومع تملُك مفهوم "القدر الجلى" من الأمريكيين ومفهومهم عن دور دولتهم، أصبح السؤال عن أين ينتهى هذا القدر أكثر إلحاحًا وأشد جدلاً. فهل تستطيع

الأيديولوجية التي كانت عالمية وتنبؤية فى مغزاها وجوهرها أن تتوقف عند حدود شواطئ أمريكا الشمالية؟ فى الجزء الأول من القرن التاسع عشر كانت التدخلات الخارجية مقصورة على الدعم السياسى، وفى القليل من الحالات في جنوب أمريكا على إمداد المجموعات والحركات المفضلة. وكان على الولايات المتحدة – كما قال "جون كوينسى آدمز" *John Quincy Adams* فى ١٨٢١ أن تفرق بين التعاطف وبين استخدام القوة العسكرية:

> **حيثما تكون الحرية والاستقلال فإن قلبها ومباركتها وصلواتها ستكون. لكنها لا تذهب لملاقاة الوحوش وتدميرهم. إنها تتمنى الحرية والاستقلال للجميع لكنها لا تناصر وتناضل إلا من أجل حريتها واستقلالها هى[٩].**

غير أنه فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر تصاعد الجدل بأن الولايات المتحدة لديها واجب مهم نحو مساندة "حرية واستقلال" الغير، خارج حدودها الجديدة. وكان هناك عدة أسباب لهذا التحول. فقد أدت نجاحات التصنيع الأمريكى وإعادة تنظيم المجتمع حول الخطوط الرأسمالية بعد الحرب الأهلية إلى زيادة ثقة النخب فى الأهمية العالمية لرسالتهم. لقد تم تولى السلطة فى شمال أمريكا قدر الإمكان دون إشراك اللاتينيين فى المكسيك، أو المخاطرة بصراع مع الإمبراطورية البريطانية بشأن كندا. وكان الاستعمار الأوروبى للأراضى فى أفريقيا وآسيا يثير التحدى عن كيفية تعامل الدول "المتقدمة" مع الشعوب الأقل تقدمًا. وكانت البعثات التبشيرية الأمريكية قد بدأت حملات القرن التاسع عشر عن السيطرة الاجتماعية والتحسين الاجتماعى بالخارج. وأخيرًا، أنعش التوسع التجارى الأمريكى الآمال بشأن أسواق خارجية جديدة أو على الأقل الخوف من أن تصبح هذه الأسواق، حال وجودها، ملكًا لدول أخرى.

ومن الخطأ رؤية الاحتلال الأمريكي لهاواى (١٨٩٧) أو احتلال الفلـــبين وكوبا عقب الحرب الإسبانية الأمريكية (١٨٩٨) باعتبارهما تحولا جذريا فى العلاقات الخارجية للولايات المتحدة. فدخول أمريكا مع شرق آسيا تجاريًا وسياسيًا يعود إلى أربعينيات القرن الثامن عشر حيث كانت سفن البحرية بالولايات المتحدة هى ما دفع التجارة الغربية نحو اليابان فى ١٨٥٤. كذلك قربت الحرب المكسيكية التى وقعت فى الفترة من ١٨٤٦ إلى ١٨٤٨ – حين خدم ماثيو برى ***Matthew Perry*** صاحب الشهرة اليابانية الواسعة – بين الولايات المتحدة من جهة والكاريبى وأمريكا الوسطى من جهة أخرى، وفى ١٨٥٥ نصب الأمريكى وليام ووكر ***William Walker*** نفسه حاكمًا لنيكاراجوا، وقد حاول عدد من مغامرى القرن التاسع عشر أن يسيروا على نهجه[١٠]. وكما نعلم فإن التدخل الأمريكى فى الكاريبى لم ينته بكوبا؛ ففى الفترة ما بين ١٨٩٨ و ١٩٢٠ استخدمت السفن الأمريكية على الأقل فى عشرين واقعة منفصلة فى المنطقة.

أما ما يفصل تسعينيات القرن التاسع عشر عما قبلها فقد كانت رغبة الدولة الفيدرالية الأمريكية تحت حكم مكينلى ***McKinley*** وروزفلت ***Roosevelt*** أن تتحمل المسئولية السياسية عن الشعوب التى تسيطر عليها عبر البحار. قد يكون المؤرخون على حق فى رؤية أن إنشاء إمبراطورية أمريكية عابرة للمحيطات نوع من الضلال، وأنه مجرد رد فعل قصير المدى على تصاعد الإمـــبريالية الأوروبية ومحاولة للتماشى مع النظام العالمى الذى خلقته. ومع تحملها لــ"عبء الرجل الأبيض" – كما ناشدها "كيبلينج" ***Kipling*** فى قصيدته – وجدت الولايات المتحدة لها مكانا ضمن القوى الغربية الكبرى. لكن المشكلة بالنسبة للإمبرياليين الأمريكيين أن الولايات المتحدة كانت تتحول سريعًا عن مجرد كونها واحدة من بين كثيرين؛ من حيث الاقتصاد والقوة العسكرية، لم يكن يتعين عليها أن تتماشى مع أحد أو – حسب التوصيف الأيديولوجى – أن تتبنى دورًا غريبًا عنها. وبدلا من أن تصبح

"إحدى" القوى الإمبريالية، كانت الولايات المتحدة تتحول سريعًا لتصبح الراعية لنظام عالمي رأسمالي والمحدثة للتوازن فيه.

كان ذلك هو الدور الذي تبنته أمريكا رسميا – حتى بالنسبة لأوروبا نفسها – أثناء الحرب العالمية الأولى. فقد كان قرار الحرب يعني بالنسبة لـ"وودرو ويلسون *Woodrow Wilson*" والكثير من معاصريه، أن أمريكا تستطيع أن تعيد تشكيل العالم، حيث هناك الكثير من الأخطاء التي ينبغي تصحيحها، وحيث يمكن اعتبار التجربة الأمريكية نموذجًا يحتذى. واستنتج ويلسون في ١٩١٧ أن سياسة التدخل كانت هي الطريق الوحيد لتحقيق "تسوية سلمية معقولة وإعادة بناء النظام العالمي"[١١]. ما كان ويلسون يشعر أنه في مصلحة العالم، كما جاء في نقاطه الأربع عشر، كان بالتأكيد في مصلحة أمريكا.

"الغرباء" ومعاداة الشيوعية

في المنهج الأمريكي العام عن الشئون العالمية، تمثل الحرب العالمية الأولى أولا وأخيرًا حطًا من قدر أوروبا وقواها الرئيسية إلى مستوى اتهامها بإتيان أفعال غير منطقية. فأوروبا، منشأ النور الذي تحدث عنه جيفرسون، قد هوت بنفسها غرقًا في بحار الكراهية والدماء، وكان الأمر متروكًا لأمريكا – وهي المنتصرة في الحرب وأقوى القوى في العالم مع نهايتها بلا شك – لكي تعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. اهتم الرئيس وودرو ويلسون، وهو مصلح في الداخل والخارج عن طريق التدخل، وعالم (سياسي) يرى أن مهمة أمريكا هي خلق نظام عالمي يمنع الحرب بين القوى العظمى في المستقبل، اهتم بمشكلتين: القومية/الوطنية

والثورة. وفي فهم مناهجه بالنسبة لهذا التحدى المزدوج أهمية قصوى لفهم السياسة الخارجية الأمريكية حتى نهاية القرن العشرين.

رأى ويلسون أن القومية (تقرير المصير ***self-determination*** على حد تعبيره) هى السبيل الوحيد لخلق دول مستقرة، ستقف، بمساعدة أمريكا، على الطريق نحو الديمقراطية. ولكن، كما أظهرت الحرب، فللوطنية وجه آخر مملوء بتلك الملامح الوحشية الشرسة غير المهذبة التى شكلت أقدار ألمانيا على الطريق نحو الكارثة. وكما لاحظ الرئيس أثناء الحرب، كان هناك خط رفيع يفصل بين "الرغبات الإيجابية" و"الفوضى" (لعله المصطلح المفضل لدى ويلسون تعبيرًا عن الأعمال المخزية)، وقد أعطاه الموقف فى أوروبا بعد الحرب العديد من الأمثلة على ذلك الأخير. وفي حين ساعد دعم ويلسون لحق تقرير المصير العديد من المشاريع القومية لكى تصبح حقيقة على أنقاض الحرب فى أوروبا الوسطى والشرقية، لكن منع الدعم الأمريكى عن دول أخرى كثيرة، خاصة عندما كان يخشى أن تكون الأصولية أو الاشتراكية هى القوى المحركة فيها. وقد أدى خوف ويلسون من الفوضى – الذى ورثه من سنواته الأولى فى إعادة بناء فرجينيا – إلى قبول تأكيد الحكومتين الفرنسية والبريطانية على الاستقرار بدلا من الإرادة الشعبية، فى التسويات السلمية الأوروبية.

بالنسبة للعالم خارج أوروبا، كانت النتائج السلبية للاستعمار الأوروبى هى ما مثّل تحديًا بعد الحرب العالمية الأولى. وبدلا من رفع شأن المستعمرات إلى مستويات أعلى من الحضارة، استغلها المستعمرون الأوروبيون وأساءوا معاملتها، مما خلق تربة خصبة للفوضى وانعدام النظام. حتى بالنسبة للمستعمرات البريطانية كالهند – والتى كثيرًا ما اعتبرت فى القرن التاسع عشر نموذجًا واضحًا للحكم الاستعمارى المحسن – تحول الرأى الأمريكى فى فترة ما بين الحربين إلى النقد

المتزايد. ولكن منذ بدايتها الأولى واجه هذا النقد المناهض للاستعمار مشكلات كثيرة من حيث البدائل. فبما أن الأوروبيين قد فشلوا فى الكثير من الأحيان فى مهمتهم لنشر الحضارة، فإن الاستقلال الحقيقى للمستعمرات لن يأتى إلا بالمزيد من عدم الاستقرار والمعاناة. وكانت الثورة المكسيكية، التى اندلعت على حدود أمريكا، بالنسبة لويلسون نموذجًا فظيعًا عما يمكن أن يأتى به مثل هذا الانفلات.

فى أوائل عشرينيات القرن العشرين، زادت الثورة الروسية من المخاوف بشأن ما يمكن أن يحدثه عدم الاستقرار والجهل. فى البداية، فى ١٩١٧ رحب الكثير من الأمريكيين بانهيار حكومة القيصر، إذ كانوا يرون القيصرية أكثر أشكال الحكم رجعية فى أوروبا وكانوا يأملون أن يكون لسياسات النظام الجديد أهداف تشبه أهداف الثورة الأمريكية. ولكن الجماعية السلطوية لدى البولشفيك، وتأكيدهم على استمرارية ثورتهم وعالميتهم ، سرعان ما أبعدت أى نوايا حسنة محتملة لدى النخب الأمريكية. بل على العكس، فى السنوات التى تلت ذلك، أصبحت الشيوعية السوفيتية تعتبر المنافس اللدود للنزعة الأمريكية، لأنها قدمت نفسها باعتبارها الحداثة البديلة؛ أسلوب يستطيع به الفقراء والمضطهدون أن يتحدوا ظروفهم دون محاكاة النمط الأمريكى. وفى ١٩١٨ انضمت الحكومة الأمريكية إلى القوى الإمبريالية الكبرى الأخرى فى التدخل العسكرى ضد البولشفيك.

كثيرًا ما تعزى عدم رغبة أمريكا بعد الحرب أن تتزعم الموقف فى المنظمات العالمية التى كان ويلسون قد أنشأها، إلى شعورها بالخيانة السياسية بعد أن ازدرت أوروبا مواقفها فى مؤتمرات السلام. بيد أن ما كان يسمى بـ "انعزالية" العشرينيات والثلاثينيات له جذور أعمق من مجرد القلق بشأن المفاوضات الدبلوماسية. فمع كون الولايات المتحدة القوة الصناعية الأساسية فى العالم تضاعفت الهجرة أضعافًا مضاعفة ووصلت إلى الذروة فى السنوات السابقة للحرب

العالمية الأولى. ورغم تقبّل الكثير من الأمريكيين مبدأ الحاجة إلى استيراد العمالة للتماشى مع زيادة إنتاجية الصناعة الأمريكية (والقدرة على التصدير)، فقد اهتموا بما يمكن أن تمثله المجموعات "الجديدة" من المهاجرين بالمعنى الأيديولوجى- وما إذا كانت مبادئ الحرية تقاوم تدفق المهاجرين اللاتين والسلاف والآسيويين؛ وهى الشعوب التى لا يتم النظر إليها باعتبارها تمتلك الفضائل المطلوبة من أجل السلوك العقلانى. فهل حقا كان انخراط أمريكا مع العالم يعكر فكرة الحرية فى الداخل بالمعنى الحرفى؟

فى أمريكا ما بعد الحرب العالمية الأولى - وهى الفترة التى نضج فيها معظم قادة الحرب الباردة الأمريكيين- امتزجت فكرة أن أوروبا والعالم قد أظهرا عدم استعداد لتطبيق النظام والإدارة ومفاهيم الحقوق الأمريكية، امتزجت بالاهتمام بآثار الهجرة: من وجهة النظر الأيديولوچية، يمكن القول إن المفهومين كانا يقويان كلاهما الآخر؛ فلو أن الدول الأجنبية لم تصل بعد إلى المستويات الضرورية من التحضر المطلوب لاستقبال الرسالة الأمريكية، فماذا عن الجماهير الآتية من تلك الدول نفسها إلى الولايات المتحدة؟ سيكون بإمكان الهجرة أن تجتاح الديمقراطية الأمريكية وتهزمها بالأساليب نفسها التى أصبحت القوى الخارجية عاجزة عنها. كان السبيل إلى دحض هذا التحدى الداخلى هو الحد من هجرة الشعوب "الأقل تحضرًا"، وأمركة الأجانب الموجودين فى الداخل بالفعل.

كانت العقبة الأساسية فى طريق عملية أمركة الأجانب فى الداخل هى الأفكار التى لوثتهم قبل وصولهم إلى الشواطئ الأمريكية. فى العشرينيات، كانت الشيوعية هى الفكرة الأخطر تهديدًا من بين تلك الأفكار، ذلك لما بها من جماعية ثورية، ولأنها آلت على نفسها أن تقدم شكلا من الحداثة أكثر تقدمًا من ذلك الذى تقدمه أمريكا. وكما رأت النخب فى الولايات المتحدة، فإن الادعاء الأخير لم يكن

خطأ فى مضمونه فحسب، بل كان تحديًا سافرًا للعالمية والغائية الكامنة فى أيديولوچيتهم. فلم تكن هناك أية مساحة، فى داخل الولايات المتحدة أو خارجها ، من أجل أيديولوچية شمولية تبنى العالم وفقا لمبادئ وغايات مختلفة عن تلك الموجودة فى تصورهم. فالشيوعية – ومن ثم الجمعانية بجميع أشكالها – تجتمع فى هذا الصدد مع المناهج التقليدية والمعادية للحداثة فى أوروبا، التى ظهرت بذلك الشكل المدمر أثناء الحرب العالمية الأولى.

لذا فقد كان وجود حزب شيوعى أمريكى بدءًا من ١٩٢١ مظهرًا أيديولوچيًا لا يتفق مع أتباع ذلك الحزب. ورأى الكثير من الأمريكيين أن مجرد وجود مثل هذا الحزب (مع وجود شرور أخرى مثل الجريمة المنظمة) إثبات للحاجة إلى الأمركة واليقظة فى الداخل. وفى الوقت نفسه، أصبح وجود حزب شيوعى أمريكى، لفترة قصيرة أثناء الكساد، إشارة إلى بعض من حرمتهم النزعة الأمريكية من حقوقهم الشرعية ودليلا على إمكانية تصور أساليب أخرى يُحكم بها المجتمع، حتى فى أمريكا. وقد كتب ريتشارد رايت ***Richard Wright***، الذى انضم إلى الحـــزب لفترة وجيزة بعد هربه من القهر العنصرى المؤسسى فى الجنوب، يحط من شأن

> **أمريكتنا الصغيرة جدًا الجديدة جدًا؛ يافعة لأنها وحيدة؛ عدوانية لأنها خائفة؛ مصرة على أن ترى العالم على أساس الخير والـشر؛ والحـــلال والحـــرام؛ والعـــالى والمنخفض؛ والأبيض والأســود؛ أمريكتنـــا تخـشى الحقيقة؛ والتـــاريخ والتقـدم والـضرورة، وتتمــسك بالأسلوب السهل فتصب اللعنات على من لا تفهمهـــم؛**

وتنبذ من يبدون مختلفين؛ وتسكن ضــميرها وتغلفــه
بعباءة بالية من الاستقامة والصواب[١٢].

بيد أن السواد الأعظم من الأمريكيين كانوا ينظرون إلى نمو الأيديولوجيات الجماعية السلطوية فى أوروبا أثناء الكساد العظيم بشك وخوف. ورغم أن الشيوعية كانت، بمختلف الأساليب، هى التحدى الأساسى، فلم يكن صعبًا رؤية أوجه للتشابه بين العقيدة الشيوعية – خاصة فى شكلها الستالينى – وبين الاتجاهات السياسية المعاصرة الأخرى مثل الفاشية والاشتراكية القومية. وكلها كانت تمثل تحديًا لأمريكا. وكما قال فرانكلين روزفلت ***Franklin Roosevelt*** فى خطاب الاتحاد عام ١٩٣٨: "فى عالم يموج بالتوتر وانعدام النظام تصبح مسئولية كل أمة تكافح من أجل السلام فى الداخل والسلام مع الأمم الأخرى والسلام بين هذه الأمم بعضها وبعض، أن تكون قوية بما يكفى لتضمن مراقبة أساسيات الحل السلمى للصراعات، وهى القاعدة الأساسية الوحيدة للوجود المنظم"[١٣].

ورغم أن الدروس المستفادة من الحرب العالمية الأولى دفعت بالإدارات الأمريكية فى العشرينيات والثلاثينيات لكى تتساءل حول قيمة التدخل العسكرى المباشر، لكن العلاقات الخارجية الأمريكية لا يجوز وصفها بـــ"الانعزالية" فى فترة ما بين الحربين. بل على العكس، لقد كان هذان العقدان يمثلان التقدم الشديد لأمريكا بوصفها مركزًا للاقتصاد العالمى وخاصة بالنسبة للعالم الثالث. وقد حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا فى أمريكا اللاتينية كقوة اقتصادية أساسية، كما تضاعف نصيب أمريكا من الصادرات إلى شرق آسيا ثلاثة أضعاف فيما بين ١٩٢٠ و١٩٤٠. وفى عالم دفع فيه الكساد العظيم ***Great Depression*** الكثير من العقول لكى تحاول التفكير فى أنماط جديدة لشعوبها، اندفعت الأفكار الأمريكية خلف المنتجات الأمريكية لدرجة لم يدركها سوى القليل من الأمريكيين لخوفهم من

التحديات الخارجية. وقد كان ذلك التأثير أعمق أثرًا من مجرد الأنماط الأمريكية للإنتاج والإدارة. وفي الثقافة الشعبية المدنية، في أوروبا والعالم الثالث، نصبت أمريكا نفسها باعتبارها تجسيدًا للحداثة، وراحت تنشر أفكارًا أضعفت من المفاهيم القائمة عن المكانة والطبقة والهوية.

الثنائية التي وجدت بين النخبة الداخلية في رؤيتها للولايات المتحدة على أنها تحت ضغط في الداخل والخارج، والرؤية العالمية لأمريكا باعتبارها شديدة التقدم والتوسع، وجدت لها صدى كبيرًا بدءًا من الثلاثينيات فصاعدًا بسبب التصدع الذي أحدثه الكساد العظيم في السياسات الأمريكية. وقد رحب البعض بصفقة روزفلت الجديدة والإصلاحات التي تتم بمعرفة الدولة التي تلت ذلك باعتبارها توافقًا ضروريًا مع الجماعية، بينما خشيَ البعض من مبادرات الإدارة ورأوا فيها تأكيدًا على الانهيار السياسي والثقافي والأخلاقي دُفعت إليه أمريكا بسبب المؤثرات "الخارجية". وكلا الاتجاهين – "الليبرالي" و"المحافظ" – كانا معاديين للشيوعية؛ بيد أن الثاني كان أكثر تشككا في التدخل العسكري المباشر في الثلاثينيات ولفترة كبيرة من الحرب الباردة. كلاهما وجد في الشئون الدولية امتدادًا لتفسيرهم عن دور أمريكا في الداخل، غير أن المحافظين اتهموا معارضيهم بأنهم كانوا "يترفقون بالشيوعية ويلينون لها الجانب"؛ فيما زعم الليبراليون أن المحافظين لم يكونوا يريدون أن يدفعوا ثمن "تأمين العالم من أجل الديمقراطية".

وفي حين كانت ردود الأفعال على الكساد العظيم هي الأسباب المبدئية لوجهات نظر أمريكا عن العالم في الحرب الباردة، كانت الحرب العالمية الثانية هي ما شكل استراتيجياتها. فقد أكد هجوم اليابان في ١٩٤١ أن سياسة التدخل والإصلاح العالمي أمران محوريان لبقاء أمريكا – فـ"الوحوش الكاسرة" لابد من أن تُدمر لكي تشعر الولايات المتحدة بالأمان من جديد. وكان التفسير الليبرالي

لأيديولوجية السياسة الخارجية الأمريكية هو ما جعل الحرب العالمية الثانية ونتائجها معمل اختبار من أجل الإصلاح العالمي. وشأن ويلسون أثناء الحرب العالمية الأولى، اعتقد فرانكلين روزفلت أن "القوميات الإيجابية" هى صمام الأمان الأفضل فى وجه الأيديولوجيات السلطوية؛ لكن الاختلاف المهم هنا أن أمريكا تستطيع أن تساعد – بل ويتعين عليها أن تساعد – فى تنقية محتوى هذه القوميات والإصلاح الذى تتخيله لدولها عندما تتحرر من تهديدات العدو. فكما حدث فى أمريكا، يمكن للإصلاح المدروس أن يكون مرشدًا لطاقات أولئك الذين يحلمون بالثورة فى الاتجاه "الحداثى". وفى إشارته إلى نتائج الحرب العالمية الأولى، وعد فرانكلين روزفلت فى أكتوبر عام ١٩٤٤ بأن "إرادتنا أن نحيا كأمة ناضجة، تواجه آفاقا غير محدودة، لن يعيقها عائق ولن يحول بيننا وبينها حائل. فسوف نتحمل مسئوليتنا كاملة، ونمارس تأثيرنا كاملا، ونقدم المساعدة والتشجيع لكل من ينشدون السلام والحرية[١٤].

كان انخراط أمريكا فى الصين أثناء الحرب هو أفضل مثال عن محاولات واشنطن مساعدة النظم المتحالفة، التى كانت تعتبر أقل موهبة وتعليمًا وقوة أخلاقية، نحو الإصلاح. وفى حين رأى الزعيم الصينى شيانج كاى- شيك ***Jiang Jieshi*** (***Chiang Kai-shek***) أن تحالفه مع الولايات المتحدة زواج مصالح موجه أولا ضد اليابان ثم، بعد هزيمة طوكيو، ضد الشيوعيين الصينيين، وكان الكثيرون فى واشنطن يجدون أن التعاون الصينى الأمريكى "كارت أبيض" لإصلاح المجتمع والدولة الصينيين. وحينما أثبت شيانج أنه غير قابل للتعلم على يد الأمريكيين، حاولت الولايات المتحدة – بدلا من أن تنسحب – أن تستبدل الزعيم الصينى بزعيم آخر معادٍ للشيوعية، ومن ثم أكثر رغبة فى الإنصات للنصائح الأمريكية. ورغم أن أمريكا لم تنجح فى الصين، فإن ذلك الأسلوب فى التدخل تكرر فى كل المناطق الأخرى من آسيا على مدار بقية القرن العشرين.

وقد أثبت الأسلوب الذى انتهت به الحرب العالمية الثانية، والاستسلام غير المشروط لأعداء أمريكا، أنها تستطيع أن تهزم الشر على المستوى العالمى. لكنه أثبت أيضًا لمعظم الأمريكيين أن العالم يريد الأمركة – من خلال المنتجات الأمريكية والأفكار الأمريكية كذلك. وقد رأى الأمريكيون فى الخارج فى أوروبا، ناهيك عن الصين وكوريا وإيران، شعوبًا تحتاج إلى التحرر من الأشكال القديمة للقهر الاجتماعى والأيديولوچى، شعوبا تختلف حياتها تماما عن الحياة المعهودة فى الولايات المتحدة، لدرجة أن مجرد وجودها يمثل تحديًا لمهمة أمريكا العالمية. وقد أظهرت الحربان العالميتان ما يمكن أن يحدث لو *لم* تتعرض هذه الشعوب إلى أشكال التقدم الأمريكية وتعرضت إلى أشكال خاطئة مـــن الحداثة – الإمـــبريالية أو النازية الألمانية أو العسكرية اليابانية. أما الدول الأخرى كاليونان وتركيا، فكما قال "هارى ترومان" ***Harry Truman*** فى مارس ١٩٤٧، فينبغى مساعدتها قبل أن تنتشر "الفوضى وانعدام النظام".

كان لتحالفات الحرب مع الاتحاد السوڤيتى وبريطانيا العظمى أثر ضئيل على أسلوب رؤية الزعماء الأمريكيين للعالم. وانتقد المحافظون إدارة روزفلت بأنها "ساذجة" فى علاقاتها بالاتحاد السوڤيتى – جزئيًا بهدف الهجوم على الإصلاح الداخلى – لكن نجاحها كان محدودا. فقد كان روزفلت ومستشاروه الأساسيون مقتنعين أن مشاركة الولايات المتحدة فى حد ذاتها فى الحرب سوف تجتذب حلفاءها إلى اتجاه أكثر "ديمقراطية" و"تقدمية"، بما أن الولايات المتحدة كانت أقوى الدول الثلاث. ولم يكن الانتصار فى الحرب العالمية الثانية انتصار حلفاء فحسب، بل كان انتصارًا لنمط الحياة الأمريكى فى حد ذاته. أما وقد قهرت الأعداء، فقد حان الوقت لتغيير صورة كل من الأعداء والأصدقاء فى مخيلتها.

ما وراء أوروبا

إن جذور تدخل أمريكا فى العالم الثالث تكوّن جزءًا من جذور الدول الأمريكية. فعندما تدخل توماس جيفرسون ضد القراصنة على ساحل شمال أفريقيا – وهم من يمثلون فى المخيلة الأمريكية أسلاف إرهابيى القرن الحادى والعشرين– كان هدفاه هما تأمين التجارة الأمريكية وفرض المعايير السلوكية الأمريكية. كما كان يهدف إلى أن يعلن للعالم الخارجى أن الولايات المتحدة مستعدة لفرض إرادتها بالخارج. وقد نشأت الحاجة إلى مثل ذلك الإعلان – والذى راح يتكرر باعتباره عقيدة بالنسبة لأمريكا اللاتينية فى "مبدأ مونرو" ***Monroe Doctrine***– نشأت عن التناقض الواضح بين بناء الإمبراطوريات عبر البحار مثلما كانت تفعل قوى أوروبا الغربية، وبناء إمبراطورية قارية أو "داخلية"، مثلما فعل الأمريكيون من خلال عمليتين متزامنتين وهما التوسع نحو الغرب والعبودية.

ورغم أن الكثير من الفكر الأمريكى عن غير الأوروبيين بدأ مع الاحتكاك الاستعمارى مع الأمريكيين الأصليين، كان من خلال مسألة العبودية أن كونت الجمهورية الجديدة أفكارها وتخيلاتها الرئيسية عن العالم فيما وراء أوروبا. ولذا فإنه خطأ مزدوج أن نرى أن سياسات أمريكا تجاه العالم الثالث نوع من الأفكار اللاحقة عن الشئون الخارجية الأمريكية، كما فعل بعض المؤرخين. كانت أفريقيا فى قلب سياسات الجمهورية الجديدة فى الداخل والخارج أثناء القرن الأول من وجودها، وكان الأفارقة فى قلب هذه السياسة أبعد من ذلك بكثير. وكان من خلال المعارك بشأن العبودية أن تشكلت أيديولوجية السياسة الخارجية الأمريكية وأن تحدد شكل الحرية الذى راحت الولايات المتحدة تمثله أثناء القرن العشرين.

ومن خلال صراعات القرن التاسع عشر بشأن العبودية وإعادة البناء في الجنوب ***Reconstruction in the South*** ظهر شكلان أساسيان لتطور السياسات الأمريكية بخصوص العالم الثالث في القرن العشرين: *التحرر* ***emancipation*** *والإرشاد* ***guidance***. كان الأول يُعنى بإزالة وصمة العبودية عن المبادئ والمثل العليا الأمريكية للحرية. وكان معنى التحرر إزالة *أسباب* العبودية، التي لم تكن تُرجع إلى الحاجة الاقتصادية الأمريكية بالأساس؛ وإنما إلى "الجهل والفقر والرذيلة" المنتشرة في تلك المجتمعات التي استُجلب منها العبيد. ومن ثم كانت تهمة لمعظم المجتمعات الريفية غير الأوروبية، وكان شرط منع العبودية من الظهور مجددا هو إزالة الشكل الحالي لتلك المجتمعات. بهذا المعنى، كان للتحرر أجندة عالمية لها ضرورة ملحة، لأن العبودية قد وجدت في أمريكا نفسها وكانت تُعتبر تهديدا مباشرًا لحرياتها، وخاصة لأن أهل الشمال المناهضين للعبودية شعروا بأن التغير في مسألة الأجور والعمل – الذي كثيرًا ما يشار إليه بـ"الأجور-العبودية" ومسألة الهجرة الجماعية كانت تمثل تهديدًا لاستقلاليتهم هم.

أما مفهوم الإرشاد، وموضوعه – الوصاية – فقد كانا بارزين في الأفكار الأمريكية عن الأمريكيين الأفارقة قبل الحرب الأهلية وأثناءها ، ولكنهما أصبحا شديدي الأهمية أثناء حقبة إعادة البناء. كان العبيد يعتبرون عاجزين عن التحكم في أنفسهم بسبب احتياجاتهم، وتفوقوا في ذلك الصدد على المهاجرين حديثي الهجرة ووقعوا فريسة للعودة إلى أساليب مجتمعاتهم الريفية "المتخلفة" وأيديولوچياتها القديمة، بل الأسوأ أنهم كانوا فريسة لمغريات الأيديولوچيات الجماعية الجديدة – مثل الاشتراكية – التي كانت تتنافس على السيطرة. وأثبت مشروع إعادة البناء والكفاح المضني الذي خاضه الأمريكيون الأفارقة من أجل المساواة والعدالة، أثبت أنهم كانوا في حاجة إلى الإرشاد. في الجنوب، قامت النخب البيضاء بمنع السود من حقهم في التصويت عن طريق العنف السياسي والإرهاب. في الشمال، كان

المصلحون – أولئك الذين حاولوا أن يمحوا الفقر والرذيلة من المدن – هم الذين حطموا آمال السود بإصرارهم على جعل الأمريكيين الأفارقة يخضعون للمجتمع الأبيض كشرط لـ"إدماجهم" فيه في النهاية.

بيد أن حماسة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نحو الإصلاح لم تكن مجرد أولوية في السياسات الأمريكية، بل تركت بصمتها على نشاطات الأمريكيين بالخارج، وخاصة من خلال توسع البعثات الدينية. فبعد أن اندفعت الولايات المتحدة إلى داخل الصين واليابان في منتصف القرن، انتشرت البعثات التبشيرية الأمريكية هناك ثم انتشرت في كل مكان آخر تدريجيا، بما في ذلك أفريقيا. وبينما كان لها أهمية كبرى في استحضار "جوهر الحداثة" إليها – من صحة وتعليم ونزعة استهلاكية – فإن فشل تلك البعثات النسبي في نشر "جوهر المسيحية" أزعج المتابعين لها في الداخل، حتى وإن تم الإبلاغ عن أعداد مبالغ فيها من الأرواح التي أنقذها الدين. في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين بدأ الكثير من الأمريكيين يرون أن "السكان الكافرين"، وخاصة في شرق آسيا، يجحدون ما تقدمه لهم البعثات الأمريكية من خير.

كذلك كانت موضوعات مثل "إنكار الجميل" و"الفرص الضائعة" علامات في وجهات النظر الأمريكية عن أمريكا اللاتينية في مطلع القرن العشرين، وخاصة عن كوبا، والتي أخذتها الولايات المتحدة من إسبانيا في الحرب التي دارت رحاها في ١٨٩٨ ثم منحتها مكانة شبيهة بالوصاية والاستقلال. وفي العشرينيات والثلاثينيات كرر المعلقون الأمريكيون الكثير من أفكار القرن التاسع عشر عن عدم صلاحية الشعوب اللاتينية للجمهورية الحقة، ولكن مع إضافة التغيير بأنه في حالة كوبا قوضت "الديمقراطية" من الداخل بعد أن بذلت الولايات المتحدة قصارى جهدها في غرس بذور الحرية على الجزيرة. وبدلا من السير على خطى الولايات

المتحدة، تبنى الزعماء فى كوبا وفى بقية دول أمريكا اللاتينية أسوأ ممارسات الزعماء الاستعماريين السابقين. وفى فعلهم هذا أهدروا العرض الذى قدمته لهم واشنطن بالحرية والتقدم. وكما قال أحد المعلمين بوزارة الخارجية للمبعوثين الجدد فى منتصف العشرينيات: "ليت الولايات المتحدة قد وجدت ولو القليل من العرفان

إن هـذا أمر متوقع فى عالم لا يدين بالفضل للمعلـم أو الطبيب أو رجل الشرطة؛ وقد كنا نحـن ثلاثـتهم. لكنهم قد يرون الولايات المتحدة بعيون مختلفـة مـع الزمن، وقد يجدون فى أنفسهم لها بعـض الاحتـرام والعاطفة التى ينظر بها المرء إلى مـن وَجَّهـه فـى شبابه وينظر بهـا الطفـل إلـى الأب الـذى شـكّل شخصيته[١٥].

كانت الفلـبين هى الدولة الوحيدة التى استطاعت فيها الولايات المتحدة أن تفرض نموذجها عن التطور من خلال الاستعمار فى أوائل القرن العشرين. فالفلـبين مثل كوبا، كانت أمريكا قد أخذتها بعد الحرب الأمريكية الإسبانية؛ ولكنها، على عكس كوبا – الجزيرة الواقعة فى الكاريبى – فإن جزر الفلـبين الواقعة جنوب شرق آسيا ظلت تحت السيطرة الأمريكية المباشرة كدولة تابعة. كان امتلاك الفلـبين قد منح الولايات المتحدة الفرصة لتجربة انتقال المبادئ الأمريكية إلى ثقافة أخرى تعتبر غريبة عنها. ورغم المقاومة الشرسة التى أبداها أهل الفلـبين للمشروع الاستعمارى الأمريكى فى البداية، اقتنع أمريكيون كثر فى منتصف الثلاثينيات أن تقدمًا كافيًا قد أحرز فى المستعمرة يؤهلها للحصول على الاستقلال فى غضون عقد من الزمان. وقد أمن تحالفًا فى واشنطن بين المدافعين عن حماية التجارة ومصلحى الصفقة الجديدة والمحافظين الماليين جدولا بإزالة

الاستعمار على أساس أن تُبقى الولايات المتحدة على قواعدها العسكرية ومعظم تأثيرها السياسى. واعتبرت الفلبين انتصارًا للإصلاح الأمريكى: فقد جلبت "يومًا جديدًا للحرية" لشعب آسيوى لم يكن ليطمح أو يأمل فى مستقبل كهذا[١١].

إذن كانت أجندة ما بعد الحرب لتدخل الولايات المتحدة فى العالم الثالث قد وضعت قبل ١٩٤٥ (أو ١٩٤١ بهذا الخصوص). وقدمت نتائج الحرب العالمية الثانية فرصًا ومتطلبات جديدة؛ فقد قدمت للولايات المتحدة – بوصفها المنتصر الأول فى الحرب – إمكانية أن تعيد تشكيل العالم، كما ظن الكثيرون فى واشنطن. لكنها واجهت تحديًا من الاتحاد السوفيتى، القوة العظمى الأخرى الباقية بعد الحرب، بشأن محتوى المهمة الأمريكية نفسه. فى داخل أوروبا، تركزت الأهداف الأمريكية فى إعادة بناء الاقتصاد من خلال مشروع مارشال ***Marshal Plan***، وفى الأمن من خلال منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) ***North Atlantic Treaty Organization (NATO)***. وكلا الأسلوبين كان يهدف إلى القضاء على الشيوعية، ثم – و بالأساليب المختلفة – أصبحت تلك عناصر رئيسية فى سياسة أمريكا تجاه العالم الثالث.

مع ذلك كانت إعادة بناء اليابان هى ما شكل النمط الأساسى للمبادرات الأمريكية المستقبلية خارج أوروبا. ورغم وجود خلافات لدى المستشارين الأمريكيين حول مدى ما سيكون عليه إعادة بناء اليابان من عمق، فإن اتجاههم الأساسى لم يكن نحو الخلاف؛ فالأمر برمته يتعلق بأن تصبح اليابان أقرب شبهًا للولايات المتحدة حتى يمكن – وهى القوة الاقتصادية والعسكرية غير الأوروبية الوحيدة – أن يتم إصلاحها. لم يكن السبيل إلى النجاح هو إعادة بناء المؤسسات اليابانية فحسب، بل أيضًا إعادة تشكيل "العقل اليابانى"؛ فكما ورد فى أحد الأفلام التعليمية فى ١٩٤٥ عن قوى الاحتلال: "إن مشكلتنا تكمن فى العقل الذى بداخل الرأس

اليابانى، وعددها فى اليابان سبعون مليون عقل – من حيث المادة لا تختلف عن أى عقول أخرى في العالم بل مصنوعة من نفس المادة التى صنعت منها عقولنا. وبوسعها – مثل عقولنا – أن تفعل أشياء جيدة أو خبيثة وفقًا لنوعية الأفكار التى توضع بداخلها" (١٧).

وقد أكد مزيج القهر والإغواء والنداء إلى الإرادة الشعبية التى ظلت سلطات الاحتلال تدخلها فى العقل اليابانى أكد على الدور الجديد الذى راحت الدولة تحتله فى السياسة الأمريكية فى الداخل والخارج. فى المرحلة المبدئية من إعادة بناء اليابان – تماما كما فى المرحلة المبدئية من تنفيذ خطة مارشال فى أوروبا – كان مؤيدو برنامج الصفقة الجديدة لروزفلت هم من وضعوا الأهداف، وقد عكسوا نظرة أكثر إيجابية مما كان معتادًا فى السياسة الخارجية الأمريكية عما يمكن للدولة أن تفعله. ورغم أن الحرب الباردة قد شهدت فقدان أصحاب الصفقة الجديدة لتأثيرهم داخل نظام الاحتلال وفى السياسة الخارجية الأمريكية عامة، فإن جميع الإدارات الأمريكية فيما بعد الحرب، وحتى رونالد ريجان، كانوا أكثر رغبة فى استخدام سلطة الدولة من أجل أغراض التنمية الاجتماعية أكثر من أى من أسلافهم.

كانت سلطة الدولة تعنى – غالبا – مجموعة من البرامج التى تقوم بها الحكومة المحلية تحت إشراف الولايات المتحدة. وفى حين وضعت تجربة اليابان غايات السياسات الأمريكية تجاه العالم الثالث، قام برنامج الإنعاش الأوروبى *European Recovery Program* بتحديد الوسائل. وكما قال بول هوفمان *Paul Hoffman* – أحد أهم إداريى مشروع مارشال – فى ١٩٥١: "لقد تعلمنا فى أوروبا ما يجب أن نفعله فى آسيا، إذ إننا وفقًا لمشروع مارشال قد طورنا الأدوات الضرورية للسياسة الناجحة على ساحة السياسات العالمية"(١٨). تلك الأدوات كانت إغواء النخب المحلية سياسيا وثقافيا، دخول الأسواق المحلية، المساعدات والتدريبات

العسكرية. تلك الإجراءات جميعها هدفت إلى خلق دول قادرة على تحقيق التنمية بنجاح، وأن تكون جزءًا مــن سياســات الاحتــواء الأمريكية ضد الاتحاد السوفيتى وحلفائه.

ورغم أن الكثير من المؤرخين بالغوا فى الضغوط المحلية التى كان الرئيس ترومان يواجهها بعد الحرب العالمية الثانية من أجل أن تنسحب أمريكا من عالم الشر، فمن الواضح أن الدعم الذى أعطاه الكثير من الأمريكيين للانخراط العسكرى بالخارج ولسياسة التدخل فى العالم الثالث جاء نتيجة للتنافس مع الشيوعية السوفيتية. فقد وجه الصعود الكبير للقوة السوفيتية كإحدى نتائج الحرب العالمية الثانية – حيث كانت القوى الكبرى المنتصرة الأخرى – وجه تحديًا لأى قوى كبرى فى أوروبا أو آسيا. غير أن الإصرار الأيديولوچى الأمريكى على أن توسع القوة السوفيتية بعد الحرب سوف يؤدى إلى انتشار الشيوعية عالميا – لو لم يجد من يوقفه – ذلك الإصرار هو ما أدى إلى التنافس بين القوتين فى الحرب الباردة. بالنسبة للنخب فى الولايات المتحدة، كان معنى ظهور الاتحاد السوفيتى كقوة عالمية، يعنى أيضًا ظهور شكل بديل من أشكال الحداثة ظلت أمريكا تقاومه منذ ١٩١٧. لم يكن عاديًا أو متوقعًا وجود أى حل وسط مع القوة العظمى التى تجسد المبادئ الشيوعية فى أواخر الأربعينيات. غير أن الشكل السوفيتى من الحداثة كان سيئ الحظ إذ وصل إلى ذروة تأثيره فى نفس الوقت الذى أزالت فيه الولايات المتحدة آخر الحدود بينها وبين مهمتها العالمية. يتساءل مسئول الخارجية الأمريكية چوزيف چونز ***Joseph Jones*** فى ١٩٥٥ عن حدود السياسة الخارجية للولايات المتحدة بالتحديد:

> **إن الإجابة على هذا السؤال هى أن حــدود سياســتنا الخارجية بعيدة الآفاق. وهى – للكثير مــن الأســباب**

العملية – ما نعتقد أننا نستطيع تحقيقه وما نعتقد بضرورة تحقيقه في وقت محدد.... [إن تجربة مشروع مارشال لم تظهر] الحدود بل أظهرت الاحتمالات اللانهائية لتأثير الحكومة في واشنطن على السياسات ومواقف الدول الأخرى وأفعالها (١٩).

لكن اتجاه الولايات المتحدة إلى التدخل عالميا لم يتم إلا بعد مناقشات سياسية مكثفة في الداخل حول الأساليب التي تستطيع أمريكا أن تنتهجها. وقد هاجم اليمين الليبرالي الصفقة الجديدة بسبب فشلهم في بسط سياسة التدخل بشكل مبكر ومحدد بما يكفي، وخاصة بعد نجاح الثورة الشيوعية الصينية ومحاولة الشيوعيين الكوريين أن يعيدوا توحيد دولتهم بالقوة. بالنسبة للسيناتور جوزيف مكارثي *Joseph Mc Carthy* وحلفائه السياسيين، لم تكن المعارضة القوية التي أبداها شيانج كاي شيك لضغوط الإصلاح الأمريكية سببًا كافيًا للحد من مساعدة نظامه في مواجهته مع الهجوم الضاري للثورة الشيوعية. وفي أسلوب متطرف من الاحتياج إلى حلفاء أيديولوچيين على مستوى العالم، هاجم مكارثي القائمين على الصفقة الجديدة لأنهم لم يركزوا على هزيمة الشيوعية تحديدًا في فترة ما بعد الحرب:

في إحدى المناطق من العالم كانت الخطة أن نحارب الشيوعية العالمية بالمساعدات الاقتصادية، وفي منطقة أخرى كانت أن نحارب الشيوعية العالمية بالمساعدات العسكرية؛ وفي منطقة ثالثة [آسيا] كانت أن نسلم كل شيء إلى الشيوعيين... نعرف أنهم خانونا في يالطا. ونعرف أنه منذ يالطا ظل زعماء

هذه الحكومة إما عن عمد أو عن جهل يخونوننا... إننا أحرار أكثر مما يريدوننا أن نكون، ونحن مستعدون أن نقاتل من أجل ما نعتبره صحيحًا، ولكننا ينبغي ألا نقاتل تحت زعامة دبلوماسيين متأنقين متعطرين[٢٠].

ورغم أن رطانته وما بها من تحد قد جلبت له الهزيمة في النهاية، تعرف مكارثي على الكثير من أهدافه في السياسات التي طبقتها إدارة إيزنهاور ***Eisenhower*** تجاه العالم الثالث في الخمسينيات. وقرب نهاية الحرب الكورية كان قد اتضح للجنرال إيزنهاور أن هناك حدودًا للتضحيات التي كان معظم الأمريكيين يريدون أن يقدموها لنشر النزعة الأمريكية بالخارج، واقترنت سياساته في استخدام التدخلات غير المباشرة المقنعة بالتحالف مع النخب المحلية – وليس مع القوات العسكرية الأمريكية – ونجحت في خلع الحكومات اليسارية المعتدلة في إيران وجواتيمالا. كانت المساعدات الخارجية التي تقدمها الولايات المتحدة للعالم الثالث مساعدات عسكرية بالأساس، إذ مثلت نسبة ٩٥% من إجمالي المساعدات في ١٩٥٤، وأكثر من ٥٠% في ١٩٦٠ – وكان الهدف هو منع الحكومات اليسارية من الوصول إلى السلطة ومساعدة النخب المحلية في مقاومة الضغوط السوفيتية (أكثر من نصف إجمالي المساعدات كان يوجه إلى "دول خط المواجهة" حتى ١٩٦١).

ووفقًا للأيديولوچية الأمريكية، كانت موجة التحرر من الاستعمار التي بدأت في أواخر الأربعينيات واكتملت في منتصف السبعينيات قد أدت إلى اتجاهين مختلفين. فمن ناحية، رحبت النخب الأمريكية بتصدع الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية، لأن ذلك كان يعني وجود فرص أكبر لنشر أفكار أمريكا عن الحريات

السياسية والاقتصادية. كما كان يعنى أن النخب الأوروبية – التي تضاءلت مكانتها بعد الحربين العالميتين – تستطيع أن تركز على الدفاع ضد الشيوعية والإصلاح الداخلي. وكما علق مارشال ***Marshall*** وزير الخارجية على النقاشات التي دارت حول الناتو في ١٩٤٩، "عندما وصلنا إلى مشكلة زيادة الأمن في أوروبا، وجدتُ أن كل القوات الفرنسية على مختلف أشكالها قد خرجت إلى الهند الصينية، ووجدت إن القوات الألمانية على مختلف نوعياتها قد خرجت إلى أندونسيا، والمكان الوحيد الذي بقوا فيه هو أوروبا الغربية"(٢١). كان معنى إزالة الاستعمار هو أن الاتجاه الذي سيسلكه العالم الثالث في المستقبل قد أصبح مسئولية أمريكية – وليست أوروبية.

من ناحية أخرى – أدى التحرر من الاستعمار إلى زيادة الخوف أن يكون للأيديولوچيات الجماعية اليد العليا في العالم الثالث. وقد أدت الثورة الشيوعية الصينية والحروب التي ساندتها أمريكا ضد حروب العصابات الشيوعية في ڤيتنام ومالايا والفلبين، والتوجهات الأصولية في أنظمة ما بعد الاستقلال في إندونيسيا والهند ومصر، وحتى التدخلات الأمريكية الناجحة في جواتيمالا وإيران – أدت كلها إلى إقناع إدارة أيزنهاور بأن العالم الثالث ربما لا يكون مستعدًا للديمقراطية – وكان نكران الجميل الذي أظهره الصينيون والإندونيسيون للمجهودات الأمريكية لتأمين حريتهم أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها دليلا على عدم تقدير المبادئ التي كانت أمريكا تحاول أن تعمقها، وفي هذه الحالة فإن الاستراتيچية غير المباشرة للتأثير ستكون أكثر جدوى من المحاولات المكشوفة للحصول على الأصدقاء من خلال المساعدات والتجارة.

ولو كان المجتمع الأمريكى أقل ديناميكية؛ ولو كانت دعائمه الأيديولوچية مختلفة؛ فلربما امتد أسلوب إيزنهاور تجاه العالم الثالث لعقد آخر. ولكن نفس الدوافع إلى الإصلاح التى نشرت الديمقراطية الأمريكية فى الداخل فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، هى ما أدى إلى زيادة التأكيد على الإصلاح فى الخارج. وقد اعتبر جيل ما بعد الحرب، القلق، أن احتواء الشيوعية فى العالم الثالث ليس بكاف. فمع الحديث عن نشر الديمقراطية لتشمل الأمريكيين الأفارقة والمجموعات الأخرى المحرومة من حقوقها فى السابق، ازدادت صعوبة القول بأن شعوب العالم الثالث ليست مستعدة للديمقراطية بعد. ولو أنهم كانوا كذلك حقًا، فعلى أمريكا أن تساعدهم للوصول إلى ذلك الهدف. وأكد كل من اليسار واليمين فى السياسات الأمريكية على الحاجة إلى زيادة التدخل الأمريكى – وفى حين قلل اليسار من شأن الخطر السوفيتى وأكد على الحاجة إلى المساعدة، أكد اليمين أهمية وجود شكل أكثر عدوانية للاحتواء كما أكد الحاجة إلى كسب حلفاء. وكلا الاتجاهين اندمجا معًا فى "المعركة من أجل القلوب والعقول" فى العالم الثالث التى أقامتها إدارتا كيندى ***Kennedy*** وچونسون ***Johnson***. ومن دواعى السخرية أن فشل هذا الأسلوب المشترك فى فيتنام هو ما أدى إلى وجود الكثير من النقد لسياسة التدخل الأمريكية. لكن فى الوقت الذى تحولت فيه أيديولوچية السياسة الخارجية الأمريكية إلى سياسة تدخلية بالأساس، لم يتركز هذا النقد على الدوافع ووجهات النظر فى العالم، وإنما على أمور الاستغلال الاقتصادى فى الخارج وسيطرة الأعمال فى الداخل.

"العالم كسوق"

بالنسبة للبعض كانت الرأسمالية الأمريكية دائمًا هى محور السياسة الخارجية الأمريكية. وقد اعتبروا أن الجوانب السياسية للشئون الخارجية الأمريكية لن يمكن فهمها إلا من خلال فهم دورها الاقتصادى المتزايد. فى القرن العشرين،

كان هناك اتجاهان أساسيان فى هذه المدرسة الفكرية. أحدهما كان شعبيًا أصوليًا وأحيانًا انعزاليًا، يرى أن تأثير مصالح عمل معينة قد حكمت السياسة الخارجية الأمريكية منذ أواخر القرن التاسع عشر فصاعدًا محددًا كيفية تطور علاقات أمريكا مع العالم. أما الآخر فكان نقدًا ماركسيًا يرى فى الولايات المتحدة نفسها تعبيرًا عن مصالح الطبقة البرجوازية وأنها تمثل هذه الطبقة على الساحة الدولية للتنافس من أجل أنصبة السوق. ومع زيادة اختراق التجارة والاستثمارات الأمريكية للأسواق العالمية، والنمو الكلى فى اقتصادها، فليس من عجب أن العوامل الاقتصادية – سواء اعتبرت تآمرية أو بنيوية – كانت محور التأويلات النقدية للدور العالمى الذى تلعبه أمريكا.

نحو عام ١٩٠٠ وفى عشرينيات القرن وفى الستينيات منه – وهى الفترات التى واجهت فيها سياسة التدخل الأمريكية نقدًا كبيرًا بالداخل – كان محور معظم الانتقـادات هو الحد من النماذج الأمريكية من خلال تأثير الأسواق. وبدلا من أن يُعتبر دور السوق فى السياسة الخارجية الأمريكية جزءا من أيديولوجية متكاملة، رأى معظم من عارضوا احتلال الفلـبين وتدخلات ويلسون والحرب فى فيتنام، أن التأثير المفسد لرجال الأعمال يغير من اتجاه السياسة الخارجية. وقد أدان بريان *Bryan* فى ١٩٠٠ "الجدلية التجارية. فهى تقوم على أنه من الصحيح خوض الحرب من أجل المصلحة المادية وأنه من المربح شراء التجارة بالقوة والعنف ... قد تكون الإمـبريالية مربحة للمقاولين فى الجيش؛ وقد تكون مربحة لملاك السفن الذين سيحملون الجنود الأحياء إلى الفلـبين ويحملون جثثهم إلى الوطن مرة أخرى؛ ستكون مربحة لمن يستولون على الإعفاءات الحكومية"[٢٢] وفى بيان بورت هورون *Port Huron* عام ١٩٦٢ عبرت جماعة "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطى" – بأسلوب أشبه بأسلوب بريان – عن أسفها من أن "الاستثمارات

الخارجية تؤثر على الخطط السياسية فى المناطق المتخلفة - وأن مجهوداتنا المضنية لبناء عالم رأسمالى "مُربح"، تعمينا عن حاجات البشرية وأقدارها"(٢٣).

قبل الحرب الباردة وأثناءها حدثت مواقف كان لمصالح العمل الملموسة دور مباشر ومحدد فى التدخلات الأمريكية، لكن السجل التاريخى يظهر أن هذه المواقف كانت قليلة ومتباعدة. وفى العادة كان الرؤساء - بدءًا بـ"جيفرسون" وحتى "ريجان" - خاصة بعد أن يُنتخبوا هم أنفسهم للبيت الأبيض - لا يتحلون بالصبر مع رجال الأعمال الساعين إلى مصالحهم الخاصة. فكثيرًا ما كان رجال البنوك والمستثمرون والمصدرون الذين يأتون إلى المكتب البيضاوى يُستقبلون بردود مقتضبة كتلك التى كان يُستقبل بها المنظرون السياسيون السوفيت والعلماء ورؤساء جمعيات الصداقة فى الكرملين عندما يبدون مقترحاتهم بشأن السياسة الخارجية.

لكن ذلك لا يعنى أبدًا أن السوق الرأسمالية قد لعبت دورًا تافهًا فى تكوين الشئون الخارجية الأمريكية. فيبدو أن الماركسيين كانوا على حق فى جدلهم من أجل دور منظم لمصالح العمل. وقد نادت النخبة الأمريكية دائمًا - وإن كان بطرق متنوعة تمامًا - بتنمية التبادل فى السوق الحرة باعتبار ذلك جوهر "المصلحة الوطنية" الأمريكية بالخارج. ورغم أن الرؤساء قد أنكروا وجود رأسماليين أفرادًا - لم يبتعد أى رئيس عن رؤية أن حماية هذا التبادل التجارى مهمة جوهرية. وكما قال "وودرو ويلسون" عندما كان لازال عالم سياسة أكثر منه ممتهنًا لها: "بما أن ...المُصنِع يصر أن يجعل العالم سوقًا، فإن علم بلاده لابد أن يتبعه ولابد أن تتكسر أبواب الأمم التى تنغلق دونه. ولابد لوزراء الدولة من أن يقوموا بحماية الامتيازات التى يحصل عليها الممولون حتى وإن أهدرت سيادة الشعوب الممتنعة أثناء ذلك"(٢٤).

وقد جعلت معدلات النمو المذهلة للاقتصاد الأمريكى أثناء القرن التاسع عشر – التى ليس لها مثيل فى التاريخ حتى الآن – جعلت من أمريكا قوة اقتصادية عظمى من قبل أن تأخذ هذا الدور عسكريًا وسياسيًا. ومع معدلات نمو سنوى بمقدار ٣,٩ بالمائة فى المتوسط فيما بين ١٧٧٤ و ١٩٠٩- أصبحت الولايات المتحدة أكبر منتج للسلع والخدمات فى العالم مع بداية الحرب العالمية الأولى. وكان ناتجها السنوى الإجمالى أكبر من الناتج السنوى الإجمالى للقوى الأوروبية الثلاث – المملكة المتحدة وألمانيا وفرنسا – مجتمعة. ورغم أن نسبة ضئيلة فقط من الاقتصاد الأمريكى حينذاك (واليوم) هى التى كانت ترتبط بالتجارة والاستثمار الخارجيين، كانت الصادرات الأمريكية دائمًا جزءًا مهمًا من التجارة العالمية إذ مثلت ١٣% من إجمالى الصادرات بالعالم فى ١٩١٣ ووصلت إلى ٢٠% فى ١٩٥٠. ولما كانت الولايات المتحدة هى المستورد الأساسى لرأس المال فى القرن التاسع عشر، فقد أصبحت فى ١٩١٨ أكبر مُصدر لرأس المال فى العالم، وهو الموقع الذى ظلت تحتله حتى ١٩٨١[٢٥].

وبالطبع كان تأثير الطفرة الاقتصادية الأمريكية جوهريًا على العالم بأسره – ليس فيما يتعلق بالتجارة فحسب. فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل العقد الأول من القرن العشرين خلق الارتباط بين نيويورك ولندن أول سوق رأسمالية عالمية حقيقية، إذ ربطت رأس المال الأمريكى فى كل أنحاء العالم من خلال الشركات البريطانية والأجنبية الأخرى. فى الفترة بين ١٨٩٧ و١٩١٤ تضاعف إجمالى الاستثمار الأمريكى بالخارج خمسة أضعاف، وارتبط جزء كبير من هذه الاستثمارات بالعالم الثالث من خلال الشركات الأوروبية المنهمكة فى الاستغلال الاستعمارى، ومن خلال الاستثمارات المباشرة فى المكسيك وكوبا وأمريكا الوسطى – وبدرجة أقل فى باقى أمريكا اللاتينية[٢٦]. ورغم أن الحجم النسبى للاستثمارات الأمريكية فى العالم الثالث لم يصل مرة أخرى أبدا إلى

مستويات ما قبل الحرب العالمية الأولى، فإن هذا النموذج اتسع اتساعًا كبيرًا بعد الحرب العالمية الثانية ليشمل عددًا أكبر من الدول والصناعات والمنتجات. وفى أواخر الأربعينيات، عندما كانت الولايات المتحدة تنتج نصف السلع المصنعة فى العالم بالكامل، أصبح من المنطقى أن نتحدث عن نظام عالمى رأسمالى أمريكى، تتأثر فيه جميع القرارات الاقتصادية الكبرى بالسوق الأمريكية وتؤثر فيها.

لكن رغم انتعاشها اقتصاديا وماليا أثناء فترة الحرب الباردة، أثبتت الولايات المتحدة أنها إمبريالية اقتصادية مترددة. ففى جميع العقود - ربما باستثناء السبعينيات - كان للسوق الداخلية دائمًا اليد العليا فى اجتذاب رأس المال: فقد كان لها كل ما لم يكن لبقية العالم (وخاصة العالم الثالث) من ثراء وتحرك اجتماعى وجغرافى واستقرار سياسى. وحتى رغم أن الأمل فى مقابل أفضل كان يجعل رأس المال الأمريكى يأتى إلى العالم الثالث، كان القليل جدًا من هذه الاستثمارات والروابط التجارية يعود بالربح الوفير. أثناء الحرب الباردة كانت الحكومة تريد دائما من الشركات الخاصة أن تزيد من استثماراتها بالخارج - وخاصة فى العالم الثالث - لكى تخلق التأثير و"التنمية" -لكن نجاحها فى ذلك كان محدودًا. وكان من أهم أسباب التفات واشنطن إلى المساعدات المباشرة وغير المباشرة للعالم الثالث فى الخمسينيات والستينيات هو افتقادها الرغبة للاستثمار فى جانب الأعمال الأمريكى[٢٧].

كانت مسألة التعريفات الجمركية مسألة شائكة بالقدر نفسه بالنسبة لهؤلاء الذين أرادوا أن يدرجوا الرأسمالية الأمريكية تحت شعار الحرب الباردة. فكما رأينا، كان مفهوم تبادل السلع على نحو غير مقيد مكونًا أساسيًا فى أيديولوجية أمريكا. لكن فى التاريخ الأمريكى كان المفهوم الواسع عن *التجارة الحرة* مصطلحا داخليًا: فقد كان من الجيد للتجارة داخل الولايات المتحدة ولدخول أمريكا إلى

الأسواق الخارجية. لكنه لم يكن يُطبق بوجه عام على دخول الصادرات الأجنبية إلى الولايات المتحدة؛ وقد جادلت الولايات المتحدة بأن الواردات الخارجية تهدد الحريات الأمريكية، لأن المنتجات التى أنتجها عمال "غير أحرار" بالخارج قد ذهبت بفرص عمل مواطنيها وأرباحهم، واستخدمت بدائل استيراد كبرى وتعريفات جمركية مانعة – أولا على النسيج ثم على الصلب والمنتجات ذات الصلة – لكى تدفع قدمًا باقتصادها فى القرن التاسع عشر (وهى الإجراءات نفسها التى حاول صندوق النقد الدولى أن ينكرها على دول العالم الثالث اليوم)[٢٨]. وأثناء الحرب الباردة كـــان غالبية أعضـــاء الكونجرس يدعمون هذه الإجراءات حتى حوالى عام ١٩٨٠، رغـــم محاولات الإدارات المتعاقبة أن تُدخل دول العالم الثالث إلى الأسواق الأمريكية.

أثناء الحرب الباردة لم يكن الموضوع هو أهمية العالم الثالث للاقتصاد الأمريكى وإنما أهمية الولايات المتحدة لمعظم اقتصادات العالم الثالث؛ وحتى حينذاك لم يكن المهم هو التجارة المتبادلة والاستثمارات الخارجية قدر ما هو المنتجات وأنماط الإنتاج. فقد رأى الناس فى العالم الثالث أن الولايات المتحدة هى منشأ السلع المتقدمة ومقر الشركات المنتجة وفيها تقوم الماكينات بأعباء الإنتاج. وبالنسبة للأمريكيين الذين كانوا يسافرون أو يعملون بالخارج، فقد كان انتشار المنتجات الأمريكية والإعجاب الذى تلاقيه المستويات المعيشية والتكنولوجيا الأمريكية لدى الآخرين تأكيدًا على تفوق النزعة الأمريكية، كما خلقَ آمالا أن يُطبق الحلم الأمريكى محليًا. أما بالنسبة لهؤلاء "المحليين" أصحاب المكانة الذين لم يعتقدوا فى محاكاة الحلم الأمريكى فى أوطانهم، فقد كانت هناك طريقة أخرى. ففى منتصف الستينيات، ألغى الكونجرس جذور العنصرية الموجودة فى نظام الهجرة إلى الولايات المتحدة، وأحل المهارات العملية محل السلالة بوصفها مواصفات أساسية للتقدم للوظائف، مما أدى إلى تدفق مهاجرين جدد من أمريكا اللاتينية وآسيا.

وبالنمط نفسه الذى وضع فى الزراعة فى القرن التاسع عشر، كانت البطالة جزءًا من السبب فى مجىء هؤلاء المهاجرين إلى الولايات المتحدة، بما أن الاستيراد قد تفوق على الإنتاج المحلى(٢٩).

وقد دفعت أمنية جعل العالم مكانًا آمنًا للرأسمالية – وقلة اهتمام الرأسماليين الأمريكيين أن يساهموا شخصيًا فى هذه العملية – دفعت الإدارات الأمريكية فى فترة الحرب الباردة لكى تبدأ برامج مساعدات مكثفة من أجل العالم الثالث بدءًا من منتصف الخمسينيات. كانت تجربة اليابان وأوروبا الغربية فيما بعد الحرب هى ما ظل يكوّن تلك المبادرات؛ فقد ارتبطت المساعدات بمدى قبول المتلقى لدخول السوق وتصدير الأرباح، وكذلك بإعادة البناء الإدارى وتنحية الشيوعيين والاشتراكيين اليساريين من الحكومة. وكان الهدف من المعونة – الذى كان يتم توضيحه للمتلقين بقدر من الصراحة – هو إعادة تشكيل الدول والمجتمعات المستقبلة للمساعدة. وكما أوضحت الوكالة الأمريكية للتنمية العالمية: "إن المجهودات الناجحة من أجل التأثير على الاقتصاد الصغير والسياسات القطاعية سيكون لها تأثير أكبر على التنمية من تأثير رأس المال المضاف أو المهارات التى تمولها المساعدات"(٣٠) أو بعبارة أخرى فإن تركيبة المجتمع هى ما يهم وليس رأس المال أو التدريب.

كان تعظيم أهمية السوق فى الخمسينيات صيغة متطرفة نوعًا من العنصر الرأسمالى فى أيديولوچية السياسة الخارجية الأمريكية، وقد حدث بناء على سببين: الأول هو الحملات السياسية لليمين ضد امتداد الصفقة الجديدة إلى الدولة الفيدرالية الأمريكية، والثانى هو التحدى الجمعى العالمى، الذى أصبح فى منتصف الخمسينيات أكثر وضوحًا من أى وقت مضى فى العالم الثالث ومن الاتحاد السوفيتى. كتب وزير الخارجية الأمريكى "چون فوستر دالاس" ***John Foster Dulles*** فى ١٩٥٤ يقول: "لقد أصبحت مقتنعا أنه سيكون من الصعوبة بمكان وقف الشيوعية فى معظم

أنحاء العالم، لو لم نستطع أن نحاكى المجهود الشيوعى المكثف لزيادة المقاييس الإنتاجية"[٣١]. كل من الحملة الداخلية والتحديات العالمية أدى إلى إعادة التأكيد على موضوع السوق فى السياسة الخارجية الأمريكية، ولكن كأيديولوچية أكثر منها ممارسة استغلالية.

تدريجيا، أثناء الجزء الأول من الحرب الباردة، تحملت الولايات المتحدة مسئولية منظمة عن الاقتصاد العالمى، محاولة أن تحدد شكله فيما يخص كلا من أوروبا والعالم الثالث، وامتزجت الأيديولوچية بالاستراتيــچية في هذه المهمة؛ فقد كان على العالم الثالث أن يختار السوق، جزئيا لأن الدولة التابعة كان عليها أن تدعم المراكز الإمــبريالية – أوروبا الغربية واليابان – من خلال التجارة وبالتالى تحتوى الشيوعية *وأن* تحد من الحاجة إلى زيادة الدخول إلى الأسواق الأمريكية. • كانت المعونات للعالم الثالث هى الحل لجميع هذه التحديات. فى الفترة ما بين ١٩٥٦– ١٩٦٠، ورغم الخوف من التقدم السوفيتى – أقل قليلا من ٩٠% من كل المساعدات الرسمية للعالم الثالث كانت تأتى من الدول الرأسمالية المتقدمة وبين ٦٠ و ٧٠% من هذه النسبة كان مصدره الولايات المتحدة[٣٢]. ومع حصول عدد متزايد من دول العالم الثالث على استقلالها فى الخمسينيات وأوائل الستينيات، كان وجــود مثــل هــذه المعــونات يطرح أسئلة عن المبادئ والأولويات أمام حكام تلك الدول.

على الجانب الأمريكى – وراء قضايا الاستراتيچية والتحالفات – كانت توجد قناعة بأن ما نجح فى الولايات المتحدة سينجح أيضا فى العالم، ودونما أدنى إشارة سخرية بشأن ممارساتهم فى التعاريف الجمركية والحظر التجارى، فإن "تعليم التنمية العالمية" كان يعنى تعليم العالم كيف يفتح أسواقه ويشجع نمو رأس المال المحلى الخاص؛ فالتنمية كانت مسألة اختيار والنموذج كان الولايات المتحدة

ومؤسساتها الحرة. وفى المعارض الأمريكية بالخارج كانت المنتجات تثبت نجاح أمريكا وتظهر – حسب تعبير أحد المعلقين "الحرية التى تقدمها غسالات الملابس وغسالات الصحون والمكانس والثلاجات والسيارات"[٣٣]، واتضح للمعلقين الأمريكيين أنه مثلما تحمل التجارة المنتجات فإن المنتجات تحمل الأفكار.

الحداثة والتكنولوچيا والعولمة الأمريكية

مع توسع التعليم العالى فى أمريكا فيما بعد الحرب والزيادة السريعة فى أعداد الغرباء الذين أتوا للدراسة فى الولايات المتحدة، لم يكن مستغربًا أن يُبذل الكثير من المجهود لتقديم نموذج نظرى للنزعة الأمريكية يضاهى نموذج الشيوعية؛ وقد أكدت السلطات الأكاديمية والحكومة على الحاجة إلى مثل هذا النظام فى التعليم فى الداخل وفى العمل فى الخارج. كما أكد مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية فى ١٩٥٧ فإن نخب العالم الثالث كانوا يبحثون عن شكل جديد وواضح من أجل دولهم ومجتمعاتهم، وكانت مهمة علماء الاجتماع الأمريكيين أن يخرجوا عليهم به [٣٤]. وقد شعروا أن الحاجة ملحة؛ فبدلا من النظرية الماركسية القاطعة عن التغير الاجتماعى، كانت التجربة الغربية عبارة عن سلسلة مهلهلة من العمليات الاجتماعية غير البطولية، لها القليل من المرجعيات الملموسة التى يمكن أن تشعل حماسة المفكرين فى العالم الثالث. ومن أجل التعلم كان على المرء أن يلاحظ النظم السياسية فى "المناطق النامية" ويقارنها بالتنمية فى الغرب. والنتيجة – كما قال "جابريل ألموند" ***Gabriel Almond*** الأستاذ بجامعة برنستون ***Princeton***، لن تكون مجرد أداة نظرية وصفية لكن "خطوة كبرى للأمام نحو طبيعة العلوم السياسية كعلم"[٣٥].

ما أصبح يُعرف باسم "نظرية التحديث" – كمؤسسة فكرية – بها العديد من الصفات الجبرية مثل الماركسية، والتي كانت تقارن نفسها بها عن وعي. بل يمكن القول إن كليهما تمثل شكلا من "الحداثة العالية" التي تؤكد – على نحو قطعي – وحدة جميع أنماط التنمية الحديثة التي تتمركز حول الصناعة والتكنولوچيا. وقد أكد عالم الاجتماع بجامعة هارڤارد "تالكوت پارسونز" ***Talcott Parsons***، الذي ألهم كتابه "*بنية الفعل الاجتماعي*" ***The Structure of Social Action*** الصادر في ١٩٣٧، معظم منظري الحداثة فيما بعد الحرب – أكد أن الانتقال المتكامل والمستقر نحو المجتمع الصناعي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التغيير في القيم السياسية والثقافية. لكن – على خلاف ماركس – كان پارسونز يعتقد أن الفرص التي يحصل عليها الأفراد لكي يتكيفوا مع تركيبة المجتمع هي ما يحدد مجرى التاريخ وليس التطورات الاقتصادية فحسب. وبالنسبة له كما لـ"دانييل لرنر" ***Daniel Lerner***، الأستاذ بمعهد تكنولوچيا ماساتشوستس ***Massachusetts Institute of Technology (MIT)*** وبالنسبة لـ"والت وايتمان روستو" ***Walt Whiteman Rostow*** – الأستاذ بجامعة هارڤارد الذي أصبح كتابه "*مراحل النمو الاقتصادي: مانيفستو غير شيوعي*" ***The Stages of Economic Growth: A Non-Communist Manifesto*** الصادر في ١٩٦٠ مرجعًا لنظرية الحداثة – كان شكل التحول الذي يصفونه قد تم بالفعل – في أمريكا. بيد أنه كان هناك الكثير من "التحديثات غير الناجحة" ***unsuccessful modernizations*** في ألمانيا والاتحاد السوڤيتي والصين – لتؤكد أهمية البحث عن نظرية كبرى تمهد الطريق من "التقليد" إلى "الحداثة".

كانت أول محاولة كبرى لروستو للتأثير على صناعة السياسة هي كتاب كتبه في ١٩٥٧ مع زميله في معهد تكنولوچيا ماساتشوستس "ماركس ماليكان" ***Max Millikan***: "*اقتراح: مفتاح سياسة خارجية مؤثرة*" ***A Proposal: Key to an Effective Foreign Policy***. وفيه يقولان إن التحديات العالمية التي تواجه الولايات

المتحدة كبيرة ومباشرة. كتبا: "إننا فى خضم ثورة عالمية كبيرة، فقد بقى معظم سكان العالم غير فاعلين سياسيا على مدار قرون. وبقى المجتمع خارج أمريكا وأوروبا الغربية – وحتى فى أجزاء من الأخيرة – حتى وقت قريب – قائمًا حول شكل الحياة الريفية ضعيفة الإنتاجية المتركزة فى قرى منعزلة. وبدت بعيدة جدًا إمكانية التغير بالنسبة لمعظم الناس". لكن الحربين العالميتين وإزالة المستعمرات وتحسين الاتصالات كلها عوامل منحت "الشعوب غير المبالية فى السابق" فرصة لتحسين حظهم. للأسف:

> **الخطر يكمن فى أن أعدادًا متزايدة من الناس سيصبحون مقتنعين أن طموحاتهم الجديدة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال التغيير العنيف والتخلى عن المؤسسات الديمقراطية. هذا الخطر يتصاعد فى وجود الشيوعية – ليس بسبب أى صفات أصيلة فى أيديولوچيتها، ولكن لأن الشيوعيين قد فهموا فرصهم فى استغلال ثورة زيادة التوقعات بتصوير الشيوعية على أنها الطريق إلى الفرص الاجتماعية أو التحسن الاقتصادى أو الكرامة الفردية وتحقيق الاحترام القومى.**

ولكن – حسب رأى روستو وميليكان – فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تدحض خطر الشيوعية فى العالم الثالث من خلال التدخل الإيجابى. وكتبا يقولان "إن المجتمع الأمريكى يكون فى أفضل حالاته ونحن نصارع المشكلات الإيجابية لبناء عالم أفضل. وقد قدمت قارتنا مثل هذا التحدى على مدار القرن التاسع عشر.... وتكمن فرصتنا الكبرى فى أننا قد طورنا الأساليب الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية لتحقيق الرغبات العامة من أجل التغيير على نحو أكثر نجاحًا من أي أمة أخرى، بدون قهر أو خلل في النظام الاجتماعي". وقد أراد عالما الاجتماع أن "يعطيا معنى جديدًا وحيوية للشعور الأمريكي التاريخي بالمهمة- مهمة رؤية مبادئ الاستقلال الوطني والحرية الإنسانية تمتد في أرجاء العالم"[٣٦].

فقد ذهبت محاولة الولايات المتحدة لفهم أسباب التغير الاجتماعي والسياسي في العالم الثالث، ذهبت لأبعد من مجرد الاعتذار وبناء التراتبيات العالمية. في أفضل أحوالها، كانت "النزعة إلى التنمية" ***Developmentalism*** مقصودًا بها صيحة لإيقاظ أمريكا لتأخذ المشكلات العالمية من جوع وابتعاد اجتماعي مأخذ الجد وتوظف مواردها الطائلة لتحسين ظروف العالم. ولما كانت معظم البرامج الأمريكية للعالم الثالث قد صممت لتصاحب حملات الإصلاح الاجتماعي ونشر الديمقراطية الأمريكية القائمة في الستينيات، فإنها كانت تهدف إلى تحسين التعليم والرعاية الصحية ولكي تبين أن التدخل من أجل التنمية هو *البديل* عن التدخل العسكري. وكما استنتج ماليكان وروستو "إننا نحتاج لذلك التحدي عن تطوير العالم ليبعد عنا شبهة الرفاهة السمجة"[٣٧].

وقد شهدت الولايات المتحدة في الستينيات إدارات استجابت بشغف إلى ذلك التحدي وكان "جون ف. كينيدي" ***John F. Kennedy*** وخليفته "ليندون ب. جونسون" ***Lyndon B. Johnson*** أن التنمية العالمية هي جزء مكمل لاستراتيجية الأمن القومي الأمريكي. واعتقد كينيدي – الذي عين والت روستو رئيسًا لمجلس تخطيط السياسات بوزارة الخارجية (وخدم بعد ذلك مستشارًا للأمن القومي في إدارة جونسون) – حسبما أعلن أمام الكونجرس في ١٩٦١ أن الأمريكيين لن يتهربوا من "التزاماتهم الأخلاقية باعتبار أمريكا زعيمًا حكيمًا... ولا من التزاماتهم الاقتصادية باعتبارهم أغنى شعب في عالم يعج بالفقراء....ولا من التزاماتهم السياسية باعتبارهم قلعة كبرى ووحيدة للحرية.

إن الفشل فى تحقيق هـذه الالتزامـات الآن سـيكون كارثيًا، وسيكون على المدى البعيد أكثر تكلفـة. إذ إن الفقر والفوضى المنتشرين قد أديا إلى انهيـار البنـى السياسية والاجتماعية القائمة والتى سـتغرى بنمـو الشمولية فى كل مكان ضعيف وغير مـستقر... إننـا نعيش لحظة مهمة جدًا فى التـاريخ. فكـل النـصف الجنوبى من العالم – أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط وآسـيا – منهمـك فـى محـاولات تحقيـق الاستقلال وتحديث الأساليب القديمة للحياة(٣٨).

كان كينيدى ومستشاروه يرون أن أهم ما يمكن لأمريكا أن تفعله لتجنب الانهيار فى العالم الثالث سيكون من خلال نجاحها التكنولوجى. المال فى حد ذاته لا يمكن أن يقوم بالمهمة – فقط التكنولوجيا وما يصاحبها من معرفة يمكن أن تعبر بالعالم الثالث فترة اللايقين التى تطل فيها الشيوعية برأسها مهدّدة. كما أن استقبال دول العالم الثالث للتكنولوجيا الأمريكية كان يوحى بتقبل الدور الأمريكى الرائد فى دفع العالم نحو الحداثة. فى زمن كان فيه بعض الأمريكيين قد بدأوا يتشككون فى أن التفوق التكنولوجى الأمريكى سوف يبقى، كان هذا التقبل قد بدأ ينتعش من جديد. وكما قال هنرى كيسنجر ***Henry Kissinger*** الأستاذ بجامعة هارفارد، الذى تداخلت وجهات نظره الأولى عن التنمية مع وجهات نظر روستو وميليكان، فإن "الاتحاد السوفيتى قد بدأ من موقف أدنى كثيرًا فى معظم المجالات ولكنه استطاع أن يلحق بنا ويتفوق علينا فى أمور شتى". كانت وصفة النجاح التى وضعها كيسنجر فى الستينيات هى المزج بين الزيادة الكبيرة فى المساعدات الخارجية الأمريكية والمساعدة فى بناء "مؤسسات سياسية مستنيرة" فى الدول التى تستقبل

المعونات، وقد لاحظ كيسنجر أن "المساعدة الاقتصادية هى شكل من أشكال التدخل" ولذا فإنه اعتقد أنه "ألا نقدم شيئًا سوى الخبز معناه أن نترك الساحة لهؤلاء الذين يستطيعون تحديد أهدافهم بدقة ومقدرة كافية"[٣٩].

كان لدى كينيدى وجونسون ما هو أكثر من الخبز ليقدمانه. وقُصد من مبادرات مثل "فيلق السلام" **_Peace Corps_** وتحالف من أجل التقدم **_Alliance for Progress_** أن تحرك التنمية السياسية والاقتصادية. وفى إعلانه عن فيلق السلام – وهو منظمة كانت فى ١٩٦٥ قد أرسلت أكثر من ١٣,٠٠٠ أمريكيًا للعمل بصفتهم متطوعين فى برامج التنمية فى العالم الثالث – وعد كينيدى بأن "شبابنا وفتياتنا الذين وهبوا أنفسهم للحرية – قادرين تمامًا على تجنب جهود بعثات السيد خروشوف المكرسة للقضاء على هذه الحرية"[٤٠]. أما التحالف من أجل التقدم، والذى أقيم لتقديم المساعدات الاقتصادية والتقنية والتعليمية لأمريكا اللاتينية فكان له هدف مشابه. يقول مستشار كيندى المؤرخ بجامعة هارفارد "آرثر شلزنجر" **_Arthur Schlesinger_**، بعد رحلة إلى أمريكا اللاتينية تزامنت مع بداية التحالف فى ربيع ١٩٦١، إن الإدارة عليها أن تنظم "ثورة للطبقة المتوسطة حيث عمليات التحديث الاقتصادى تحمل الطبقة المتوسطة المدنية الجديدة إلى القوة والإنتاج، وتحمل معها ضروريات المجتمع التقنى الحديث مثل حكومة دستورية وإدارة جماهيرية أمينة ونظام أحزاب مسئول ونظام أراضٍ معقول ونظام ضرائب كفء"[٤١]. أو بعبارة أخرى فإن أمريكا اللاتينية لن تتطور إلا إذا حذت حذو الولايات المتحدة.

فى بعض مناطق العالم الثالث، حيث كان الشيوعيون أو اليساريون قد تجاوزوا محاولات اكتساب السلطة السياسية، تعين اقتران التنمية المدنية بالتنمية العسكرية، وكان لابد من وجود برامج مساعدات أمريكية تهدف إلى إقامة جيش

"حديث" قادر على خوض الحروب التى تبعد الخصوم. فى هذه الحالة سوف يُمكِن مزيج التكنولوجيا والتدريب الجنود من السيطرة على الأرض بينما تتمكن قوى التحديث السياسية والاقتصادية من السيطرة على المجتمع، مبعدة إياه عن خطر تمكُن الشيوعية. وفى الوقت نفسه ومن خلال التعليم الأمريكى سيصبح الجنود أنفسهم جزءًا مهمًا من الطبقة المتوسطة التى تقوم بالتحديث والتى رأى شلزنجر أنها آخذة فى الظهور. بالنسبة للكثير من القادة العسكريين الشباب فى دول العالم الثالث لم يكن دعم الولايات المتحدة للجيوش هو وحده ما يهم؛ بل كان افتتانهم بالتكنولوجيا الأمريكية يلعب دورًا مهمًا فى تعريف العلاقة. فبعد أن أخبر كيندى الجنرال جوزيف ديزيريه موبوتو ***General Joseph Désiré Mobutu***، رئيس الكونغو آنذاك، أنه "ليس ثمة أحد فى العالم قد قام بدور أكبر مما قام به الجنرال لتحقيق الحرية ضد الشيوعيين"، كانت مكافأة موبوتو حسب طلبه أن يحصل على تدريب لمدة ستة أسابيع على المظلات فى قلعة بينينج ***Fort Benning*** ومدرسة الحربية الخاصة ***Special Warfare School*** بقلعة براج ***Fort Bragg***، وتسليمه طائرة قيادة حربية ليستخدمها فى الكونغو[٤٢].

كانت مشكلة نظرية التدخل المحدود التى صاحبت أفكار التحديث هى أن العدو العالمى، ألا وهو الشيوعية، عدو يزداد عدوانية ونشاطًا، بينما هناك شكوك على الجانب الأمريكى عن التورط العسكرى المباشر، حتى وإن كان ذا طبيعة محدودة. وفى الحرب على ڤيتنام اتضحت هذه المشكلة لصناع السياسة الأمريكيين منذ بداية الستينيات. وقد قال روستو – والذى كان يرى أن ڤيتنام دولة مناسبة لتوضيح ملاءمة التحديث للسياسة الخارجية – قال لكيندى فى نوفمبر ١٩٦١ إنه:

> **بدون التزام القوات، سيظن الشيوعيون (الذين يقرأون عن مخاوفنا من الرجل الأبيض فى آسيا...) أن لـــدينا**

الكثير من المساحة للمراوغة والتسلل المستمر... ولو أننا تحركنا بدون غموض – بدون ذلك الشحوب المرضى فى مواقفنا تجاه كوبا ولاوس – أعتقد أننا نستطيع أن نوحد الدولة والعالم الحر؛ وسوف تكون هناك أكثر من مجرد فرصة أن يتراجع الشيوعيون وتذهب ريحهم. وسوف نقبل ذلك بكل سرور، لأن القوى الأساسية فى آسيا فى صفنا، لو لم نستسلم واستطعنا استغلالها بشدة[٤٣].

وقد تجسد التأكيد على التكنولوچيا كوسيلة للتدخل الناجح بالخارج فى وزير الدفاع فى عهدى كيندى وجونسون "روبرت س. مكنمارا" ***Robert S. McNamara***. لقد جاء مكنمارا إلى البنتاجون بعد أن كان يعمل فى مؤسسة فورد للسيارات حيث كان قد صار مديرًا وهو فى الثلاثين من العمر، ولذا كان يعتقد أن الميزة التى تتفوق بها الولايات المتحدة على الشيوعية هى المعرفة وأساليب تفعيلها كأدوات للسياسة. وهذا يعنى، مثلا، طلب الأسلحة والخطط الملائمة وفقًا للظروف. ومعناه أيضا ربط العلوم الاجتماعية بالعلوم العسكرية: وكان برنامج القرى الاستراتيچى ***Strategic Hamlet Program*** فى ڤيتنام محاولة لإزالة السكان المدنيين من منطقة ليكونوا أقل عرضة للدعاية الشيوعية ويعطوا القوى المعادية لشيوعية الفرصة أن تسحق أعداءها عسكريًا بدون التضحية بخسائر فى الأرواح من المدنيين. ولكن مكنمارا رأى أن البرنامج له أهداف أكبر من ذلك. وراح يشرح لكيندى أن "التحليل العميق" يظهر أن بناء القرى قد أعطى "الأفراد هوية بصفتهم مواطنين فى مجتمع"، ورقى الاتجاهات العامة للتنمية من خلال المركزية وتوحيد المعايير[٤٤].

وفى الستينيات والسبعينيات كانت أعداد طلاب العالم الثالث الذين يأتون إلى الولايات المتحدة للدراسة تتزايد. وكانت الإدارات المتعاقبة للولايات المتحدة على دراية كاملة بأن هؤلاء الطلاب حين يعودون إلى أوطانهم سيشكلون مصدرًا أساسيًا للولايات المتحدة في سعيها للتأثير فى العالم الثالث وإصلاحه. ولما كان الكثير من الطلاب العائدين إلى أوطانهم قد عرفوا بثراء أمريكا ومنتجاتها وفرص التعليم والعمل فيها واتصالاتها وسهولة الانتقال فيها وثقافة شبابها فقد أرادوا أن يحققوا الحداثة في بلدانهم، وإن لم يكن على نحو معروف لمعلميهم ومستشاريهم الأمريكيين- كما اتضح فيما بعد. وأصبح هدف الكثير منهم تأسيس حداثة تستطيع – من حيث المادة – أن تقدم الإمكانات نفسها التى شهدوها فى نيويورك أو كاليفورنيا أو أوهايو، ولكن بشكل يمكن أن يتصالح مع الاتجاهات الاجتماعية والأيديولوچية السائدة في دولهم وثقافاتهم. وفى بعض الأحيان انقلب الطلاب الزائرون على الرسالة الأيديولوچية الأمريكية السائدة وبدأوا يميزون أنفسهم بأساليب مختلفة من نقد الحداثة الأمريكية وخاصة الدور الأمريكى بالخارج.

جزء كبير من انتقادات السياسة الخارجية الأمريكية التى ألهمت هؤلاء الطلاب (وكثيرين ممن لم يطأوا أمريكا) جاء من داخل الولايات المتحدة نفسها. فى الستينيات، كنتيجة للحرب الفاشلة فى ڤيتنام وثورات الحقوق المدنية بالداخل، تعرض الكثير من المعتقدات الأيديولوچية الرئيسية فى الفكر الأمريكى عن العالم الثالث للهجوم. ورغم تعدد خلفيات النقد ونواياه، فإن معظم الانتقادات القوية جاءت على لسان زعماء الحقوق المدنية الذين وجدوا شبهًا كبيرًا بين كفاحهم وكفاح زعماء العالم الثالث المعارضين للسياسة الخارجية الأمريكية. وقد تحدث مارتن لوثر كنج الابن *Martin Luther King, Jr.* فى ١٩٦٧ عن إخبار الشباب الغاضب من أحياء اليهود الأفريقية الأمريكية

> **إن أسلحة المولوتوف المختلفة والبنـادق لـن تحـل مشكلتهم...ولكنهم تساءلوا – وهم على حق – مـاذا عن فيتنام؟ وتساءلوا ألم تستخدم أمتنا جرعات مكثفة من العنف لتحل مشكلاتها، ولتفعل مـا أرادتـه مـن تغيير...وعرفت أننى لن أستطيع أن أرفع صوتى ثانية ضد عنف المقهورين فى الأحيـاء اليهوديـة دون أن أتحدث أولا بوضوح لأكبر متعهد للعنـف فـى العـالم اليوم – حكومتى[٤٥].**

قبل ذلك بثلاث سنوات كان مالكولم إكس ***Malcolm X*** قد عنف الولايات المتحدة بوصفها قوة استعمارية دوليًا وداخليًا. يقول مالكولم: "ليس هناك نظام أكثر فسادًا من نظام ينصب نفسه نموذجًا للحرية وللديمقراطية ويمضى ليخبر الناس فى أرجاء الأرض كيف يقيمون دولهم من الداخل، فى حين أن هناك فى دولتنا هذه من يتعين عليه استخدام الرصاص حتى يستطيع أن يدلى بصوته فى الانتخابات"[٤٦].

وأدى امتداد الديمقراطية فى أمريكا، الذى بدأ فى منتصف القرن العشرين، إلى تفرع النقاش حول سياسات أمريكا تجاه العالم الثالث إلى اتجاهين مختلفين. فى داخل نخب السياسة الخارجية كانت الإجابة هى تكثيف الارتباطات بالخارج من خلال الحرب الباردة متعهدين ببسط الحريات الأمريكية هناك وفى الداخل. لكن بالنسبة للكثير من الأقليات كانت بداية النجاح فى المعركة من أجل المكانة والمساواة بالداخل تعنى تعاطفًا مع من يحاربون قوة الولايات المتحدة بالخارج لنفس الأسباب. ورغم أن هذا النقد الملح كان دائمًا صوتًا للأقلية وغير مؤثر سياسيًا بالمرة، فإنه فتح وجهات نظر عن أمريكا التى كانت تركز على حل مشكلاتها الداخلية، بينما تنخرط فى حوار مع الدول الجديدة فى العالم الثالث.

أما بالنسبة للسياسة الخارجية الرسمية، فقد أصبحت الحرب الباردة العالمية رمزًا جيدًا لأهداف أمريكا. وكانت نظرة كونية تتلاءم مع الأيديولوچية والقوة الأمريكية فى أواخر القرن العشرين، بينما تتماثل مع عدوها الشيوعى، وهو العدو الذى كان أيضا يطرح نفسه باعتباره شعبيًا وحداثيًا وعالميًا. لقد قدمت الحرب الباردة إجابة متطرفة عن السؤال الذى كان فى مركز السياسة الخارجية الأمريكية منذ أواخر القرن الثامن عشر: فى أى المواقف ينبغى أن تتبع الميول الأيديولوچية بالتدخل؟ وكان امتداد الحرب الباردة إلى العالم الثالث يتم تعريفه بالإجابة التالية: *فى أى مكان* يمكن أن تمثل فيه الشيوعية تهديدًا.

هوامش الفصل الأول

(١) William Jennings Bryan, "Imperialism," in *Under Other Flags: Travels, Lectures, Speeches* (Lincoln, NB: Woodruff-Collins Printing Co., 1904).

(٢) جفرسون حيث ورد فى Bradford Perkins, *The Cambridge History of American Foreign Relations, vol. I, The Creation of a Republican Empire, 1776-1865* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), p. 93.

(٣) Michael H. Hunt, *Ideology and US Foreign Policy* (New Haven, CT: Yak-University Press, 1987)

(٤) جفرسون إلى جون آدمز، ٢٨ أكتوبر ١٨١٢، فى
Joyce Appleby and Terence Ball, eds., *Thomas Jefferson: Political Writings* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), p. 190.

(٥) جفرسون إلى مارك دو لافايت، ٣٠ نوفمبر ١٨١٣، المصدر السابق ص.١٩١-١٩٢
Jefferson to the Marquis de Lafayette, 30 November 1813, ibid., pp. 191-192.

(٦) لقد جعلت مقالات الكونفيدرالية فى ١٧٨١ لكندا مكانا فى الدولة الجديدة.

(٧) يجادل فريدريك هوكسك على نحو مقنع بأن الإبادة الجماعية ضد الأمريكيين الأصليين كانت نتيجة للطمع الأمريكي فى الأرض والموارد كما كانت نتيجة للأيديولوجية التى جعلت منهم أعداء، انظر:
Frederick Hoxie et al, eds., *Native Americans and the Early Republic* (Charlottesville, VA: University of Virginia Press, 1999).

(٨) Matthew Frye Jacobson, *Barbarian Virtues: The United States Encounters Foreign Peoples at Home and Abroad, 1876-1917* (New York: Hill & Wang, 2000), p.83.

(٩) Adams, 4 July 1865, cited in *The Cambridge History of American Foreign Relations* (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), vol. III, pp. 149-150.

(١٠) كما يلاحظ فراى جاكوبسون، فإن ووكر قد تم عزله، لا على يد العصابات فى نيكاراجوا وإنما على يد كورنيليوس فاندربيلت حيث كان ووكر قد تخطى أطماعه فى الموارد.
(*Barbarian Virtues*, p. 39).

(١١) *Arthur S. Link, Woodrow Wilson: Revolution, War, and Peace (Arlington Heights, IL: Harlan Davidson, 1979), p. 117.*

(١٢) *Richard Wright, Black Boy (New York: Library of America, 1991 [1943/1944])*

(١٣) *Roosevelt, State of the Union Address 1938, The Public Papers and Addresses of Franklin D. Roosevelt, vol. VII (New York: Random House, n.d.).*

(١٤) *Roosevelt, speech to the Foreign Policy Association, 21 October 1944, in Vital Speeches, 11 (1 November 1944), p. 38.*

للمزيد عن الروابط الواقعية بين الحربين العالميتين انظر

John Fousek, To Lead the Free World: American Nationalism and the Cultural Roots of the Cold War (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2000), especially pp. 35-43.

(١٥) *Lars Schoultz, Beneath the United States: A History of US Policy Toward Latin America (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 386.*

(١٦) *Eric Foner, The Story of American Freedom (New York: Norton, 1998), p. 134,*

فى الخمسينيات ألف أجيونالدو، المتوفى فى ١٩٦٤، كتابا يمتدح فيه الحرية الأمريكية

Aguinaldo with Vicente Albano Pacis, A Second Look at America (New York: R. Speller, 1957).

حتـى سـنة *As late as 1952 the Philippines were still the largest recipient of US aid in the Third World.*

(١٧) فيلم عن الجيش الأمريكى، ١٩٤٥، ورد فى كتاب

John W. Dower, Embracing Defeat: Japan in the Wake of World War II (New York: Norton, 2000), p. 215.

(١٨) *Paul G. Hoffman, Peace Can Be Won (New York: Doubleday, 1951), p. 130*

(١٩) *Robert E. Wood, From Marshall Plan to Debt Crisis: Foreign Aid and Development Choices in the World Economy (Berkeley, CA: University of California Press, 1986), p. 1.*

(٢٠) *Major Speeches and Debates of Senator Joseph McCarthy Delivered in the United States Senate 1950-1951 (New York: Garden Press, 1975).*

(٢١) مارشال حيث ورد فى

Joyce and Gabriel Kolko, The Limits of Power: The World and United States Foreign Policy, 1945-1954 (New York: Harper & Row, 1972), p.558.

(٢٢) *Official Proceedings of the Democratic National Convention Held in Kansas City, Mo., July 4, 5 and 6, 1900 (Chicago, IL: McLellan Printing Co., 1900), pp.205-227.*

(٢٣) "بيان طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي، اجتماع المؤتمر الوطني في بورت هورن، ميتشجن، ١١-١٥ يونيو ، ١٩٦٢" على موقع

http://www.coursesa. matrix.msu.edu/~lhst306/documents/huron.html.

(٢٤) *Jacobsen, Barbarian Virtues, p. 46*

(٢٥) *Stanley L. Engerman and Robert E. Gallman, eds.. The Cambridge Economic History of the United States, vol. II (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp. 4-6;*

و

Robert E. Upsey, "US Foreign Trade and the Balance of Payments, 1800-1913," ibid., pp. 685-732.

انظر أيضا:

Irving B. Kravis, "Trade as a Handmaiden of Growth: Similarities between the Nineteenth and Twentieth Centuries," Economic Journal, 80 (1970): 850-872.

(٢٦) *Lance E. Davis and Robert J. Cull, "International Capital Movements, Domestic Capital Markets, and American Economic Growth, 1820-1914," in Engerman and Gallman, eds., Cambridge Economic History of the United States, vol. II, pp. 733-812.*

(٢٧) يبدو أن أهمية وجود سوق أجنبية جديدة هي لتقديم "مرونة سعرية" أعلى للبضائع الأمريكية؛ فعندما يؤدي استخدام التكنولوجيا إلى زيادة الإنتاج، فإن تصدير الفائض يؤدي إلى تجنب انخفاض الأسعار في الداخل. انظر

Lipsey, "US Foreign Trade," pp. 700-732.

(٢٨) *Bennett D. Baack and Edward John Ray, "Tariff Policy and Comparative Advantage in the Iron and Steel Industry, 1870-1929," Explorations in Economic History, 11 (1974): 103-121.*

(٢٩) حول قوانين الهجرة الجديدة وعلاقاتها بالحرب الباردة انظر

Foner, Story of American Freedom, pp. 281-282.

(٣٠) *Wood, From Marshall Plan to Debt Crisis, p. 124*

(٣١) دلز *Dulles* إلى جاكسون *C.P. Jackson* ، ٢٤ أغسطس ١٩٥٤، أوراق جاكسون حيث وردت في *H. W. Brands, The Specter of Neutralism: The United States and the Emergence of the Third World, 194 7-1960 (New York: Columbia University Press, 1989), p. 108.*

(٣٢) *Wood, From Marshall Plan to Debt Crisis, p. 70.*

(٣٣) *Foner, Story of American Freedom, p. 271. See also Robert W. Haddow, Pavilions of Plenty: Exhibiting American Culture Abroad in the 1950s (Washington, DC:*

Smithsonian Institution Press, 1997) and Karal Ann Marling, As Seen on TV: The Visual Culture of Everyday Life in the 1950s (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

(٣٤) *Social Science Research Council Annual Report 1956-1957 (Washington, DC: SSRC, 1957), pp. 19-20.*

(٣٥) *Gabriel Almond, "Introduction," in Gabriel Almond and James S. Coleman, eds.. The Study of Developing Areas (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1960), pp. 3-4.*

(٣٦) *Max F. Millikan and W.W. Rostow, A Proposal; Key to an Effective Foreign Policy (New York: Harper & Row, 1957), pp. 2-8.*

(٣٧) المصدر السابق ص. ٨

(٣٨) *Public Papers of the Presidents of the United States (hereafter PPP-US), John F. Kennedy, vol. I (Washington, DC: US Printing Office, 1962), pp. 204-206, John F. Kennedy, special message to Congress on foreign aid, 22 March 1961.*

(٣٩) *Henry A. Kissinger, The Necessity for Choice: Prospects of American Foreign Policy (London: Chatto & Windus, 1960).*

يكرس كيسنجر فصلا حول آرائه فى كتابه *On Political Evolution: The West, Communism and the New Nations* "(عن التطور السياسى: الغرب والشيوعية والأمم الجديدة) حيث يربط بين منهج نظرية التحديث بقدر من التشاؤم حول قدرة أمريكا على مواجهة تحولات العالم الثالث. وكتب يقول "إن أى روسى يرى نمو الإمبراطورية الشيوعية فى الأعوام الخمسة عشر السابقة لن يصل إلى استنتاج أن تنظيمها السياسى كان خاطئا من الأساس". فلو أن القضية هى القدرة النسبية على زيادة التنمية الاقتصادية فإن النتيجة تكون محسومة [فى صالح الشيوعية]."

(٤٠) وردت العبارة فى .

Gerard T. Rice, The Bold Experiment: JFK's Peace Corps (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1985), p. 15.

انظر أيضا

Elizabeth Cobbs Hofman, "Decolonization, the Cold War, and the Foreign Policy of the Peace Corps," in Peter L. Hahn and Mary Ann Heiss, eds., Empire and Revolution: The United States and the Third World since 1945 (Columbus, OH: Ohio State University Press, 2001), pp. 123-153.

(٤١) شلزينجر *Schlesinger* إلى كينيدى، ١٠ مارس ١٩٦١ ، حيث وردت فى :

Michael E. Latham, Modernization as Ideology: American Social Science and Nation-Building in the Kennedy Era (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2000), p. 81.

(٤٢) مذكرة الحوار بين كينيدى وموبوتو، ٣١ مايو ١٩٦٣، فى العلاقات الأجنبيـــة للولايـــات المتحدة واختصارها هنا *FRUS* ١٩٦١– ١٩٦٣ *vol. XX, pp. 858-863.*

(٤٣) روستو إلى كينيدى، ١١ نوفمبر ١٩٦١،

FRUS, 1961-1963, vol. I, pp.574-575.

(٤٤) روستو إلى كينيدى، ١١ نوفمبر ١٩٦١،

FRUS, 1961-1963, vol. I, pp.574-575.

(٤٥) مارتين لوثر كينج الابن *Martin Luther King, Jr.*، خطاب فـــى كنيـــسة ريـــفـــرسايد، نيويورك ، ٤ أبريل ١٩٦٧ فى

speech at Riverside Church, New York City, 4 April 1967, in I Have a Dream: Writings and Speeches that Changed the World (San Francisco, CA: Harper, 1992), pp. 138-139.

(٤٦) مالكوم، خطاب فى بالم جاردنز، نيو يورك، ٨ أبريل ١٩٦٤، فى

Malcolm X Speaks (New York: Pathfinder Press, 1965), p. 50.

الفصل الثانى

إمبراطورية العدالة: الأيديولوچية السوفـــيتية والتدخلات الخارجية

مثل الولايات المتحدة، تأسس الاتحاد السوفيتى على أفكار وخطط لتحسين الإنسانية، وليس على مفاهيم الهوية والأمة. وتخيل مؤسسو كليهما أنها تجارب كبرى يتوقف على نجاحها مستقبل الإنسانية. وهما بصفتهما دولتين، كان لهما فكر خلاصى ***universalist*** تجاه العالم واعتقد معظم زعمائهما أن الأصدقاء والأعداء على الساحة الدولية يمكن تحديدهم وفقًا لقربهم أو بعدهم عن الفرضيات الأيديولوچية التى قامت عليها دعائم كل من هاتين القوتين. وأثناء الحرب الباردة، أصبح الزعماء السوفيت والأمريكيون يُعرِّفون مدى قرب دولة ما على أساس قربها من القوة العظمى الأخرى فى سياستها الخارجية وأجندة سياستها الداخلية.

تاريخيًا، يمكن اعتبار القرن العشرين محاولة مستمرة من دول أخرى لإشراك روسيا وأمريكا فى أشكال من التفاعل العالمى المبنى على مبادئ السيادة. وقد تكللت تلك الجهود ببعض النجاحات لكنها منيت بالكثير من الفشل. وارتبطت النجاحات أساسًا بأزمات النظام العالمى التى كانت تهدد موسكو أو واشنطن بشكل مباشر. بالنسبة للولايات المتحدة – فكما رأينا – كان الكساد العظيم، والحرب العالمية الثانية، ونهاية حرب فيتنام، كلها عوامل أدت بالولايات المتحدة إلى التكيف مع مصالح غيرها من الدول. أما بالنسبة لروسيا فقد أدت الفترة بين ثورتى ١٩٠٥

و ١٩١٧، ونتائج الهجوم الألماني في ١٩٤١، وفترة حكم جورباتشوف/يلتسين إلى مثل هذا التكيف. ولكن الفترات التي حاولت فيها كلا القوتين أن تتدخل من جانب واحد ضد أعراف التفاعل الدولي وقواعده كانت أكثر كثيرًا. أخذًا في الاعتبار الشكل الذي اتخذته السياسة الأمريكية والسياسة الروسية – على الأقل في الحقبة السوفيتية أثناء القرن العشرين – فمن المنطقي أن نفترض أن المشروعين – وأحدهما عــن سيادة الدولة والآخر عن السيطرة الأيديولوجية العالمية – لا يمكن التوفيق بينهما، حتى وإن أصبحت كلتا القوتين العظميين في الحرب الباردة تتقبل التحالفات والمنظمات العالمية، على الأقل من حيث الشكل.

ورغم أن هذا الفصل من الكتاب سوف يحاول أن يبرهن على أن معظم الدوافع التدخلية في السياسة الخارجية السوفيتية كانت خاصة بهذا الشكل من الدولة الروسية تحديدًا، فإنه ينبغي القول إن الشيوعيين – عندما أمسكوا بزمام السلطة في روسيا صاروا خلفاء لإمبراطورية توسعية قديمة – بالأسلوب نفسه الذي خرج به الثوار الأمـــريكيون من تحـــت عباءة الإمبراطورية البريطانية. وفي كلتا الحالتين كانت الأيديولوجيات التي تبرر التدخل قد نبعت من الاهتمامات والمخاوف التي تكونت في القرون السابقة، تحت أنظمة حكم مختلفة. وكان ذلك يعني بالنسبة للشيوعيين الروس أنهم لم يرثوا فضاء متعدد الثقافات لا يتحدث فيه باللغة الروسية إلا أقل من نصف عدد السكان فحسب؛ وإنما ورثوا أيضًا دولة كان القياصرة فيها يحاولون على مدار جيلين، على الأقل، اتباع سياسة تحديث الرعايا غير الروس وتحويلهم إلى الروسية، وكان الكثير من الروس في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين – بمن فيهم بعض من تحولوا إلى الشيوعية – يعتقدون أن بلادهم قد منيت بقَدَر معين لكي تزيل الأحراش الآسيوية وتدفع قبائل الشرق إلى التحضر.

فى العقد الأول من القرن العشرين قام "ڤلاديمير إيليتش أوليانوف" *Vladimir Illich Ulianov* – المعروف بـــ"لينين" *Lenin* – بتأسيس حزب يؤمن بشكل من الحداثة الماركسية يدفع عن روسيا الأوروبية التخلف ويضع الآسيويين فى الإمبراطورية الروسية على طريق التنمية الحديثة. وقد وضع البولشـــفيك – الذين عرفوا فيما بعد باسم الحزب الشيوعى لكل روسيا *All- Russia Communist Party* والحزب الشيوعى للاتحاد السوڤيتى *Communist Party of the Soviet Union* – تحرير القدرات الإنتاجية للشعب فى القلب من العملية السياسية. كان التحرر بالنسبة لـــ"لينين" كماركسى يعنى تحول الشعب من فلاحين إلى عمال ولكن بدون القهر الذى أوقعه النظام الرأسمالى على الـــپروليتاريا الصناعية فى الدول الأوروبية الأخرى. واعتقد البولشفيك أن باستطاعة الـــپروليتاريا الروسية الصغيرة أن تحرر نفسها من المرحلة الرأسمالية للتنمية لو أن الطليعة الثورية – الحزب الشيوعى – قامت بقيادتها. كان الحزب يمثل الـــپروليتاريا ويقوم بتوجيه التنمية التاريخية فى روسيا وانتقالها من مجتمع فلاحى إلى مجتمع العمال الصناعيين.

وفى حين هناك العديد من مواطن الاتفاق بين الأيديولوچيات الأمريكية والروسية من حيث الخلفية والمشروع، كان ما يفصل بينهما هو تعريفاهما المختلفان عن معنى الحداثة. فبينما كان الكثير من الأمريكيين يرحبون بالسوق، كانت النخب السوڤيتية ترفضها. وحتى مع إدراكهم أن السوق كانت هى الآلية التى ارتكز عليها جل التوسع فى أوروبا، كان أتباع لينين يرون أن السوق تمر بمرحلة تفوق الفعل الجمعى الطبقى عليها من أجل تحقيق المساواة والعدالة. وأتت الحداثة على وجهين: وجه رأسمالى ووجه جماعى أو مشاعى؛ وهو ما يعكس ثورتين: ثورة من أجل الرأسمالية والإنتاجية وثورة من أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعى للفقراء. كانت الشيوعية، إذن، هى أعلى مراحل الحداثة، وقد مُنحت للعمال الروس لكى يقودوا الطريق إليها.

الإمبراطورية الروسية وثوراتها

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ظلت هناك – لفترة – نظرة شائعة بأن روسيا كانت دولة أوروبية عادية قبل التجربة الشيوعية (وأنها ستعود إلى سابق وضعها بعد نهاية الشيوعية). قطعًا، ينم الجزء الأول من هذا الحكم عن خطأ واضح. فالإمبراطورية الروسية، حتى نهاية تطورها، لم يكن يجمعها بالقوى الأوروبية الأساسية الكثير من السمات المشتركة فيما يخص الأيديولوچية أو بنية الدولة. فالنخب الروسية فى القرن التاسع عشر، فيما قبل الثورة، عكفوا على تجنب ما اعتبروه استبعاداً لروسيا من القارة على مدى دهور من خلال إعادة خلق ثقافة أوروبية فى ظروف أحدث وأفضل. فما كان يراه الأوروبيون تخلفاً، كان فى الواقع – كما قال الكثيرون – فرصة بكراً لخلق حضارة مسيحية أصيلة غير ملوثة فى الشرق، تصبح، مع الوقت، بمثابة المخلص لقارة منهارة ومنحطة. وفى الوقت نفسه بقيت روسيا دولة أوتوقراطية حيث كان الكثير من موروثات النخبة يقوم على التوسع الإقليمى القارى المستمر وخاصة فى القرن التاسع عشر، تجاه الشرق والجنوب.

بدأ التوسع الإقليمى الروسى فى القرن السادس عشر وكان على أشده فى أوائل القرن الثامن عشر أثناء حكم بطرس الأكبر. بعد الحروب النابوليونية انتهى إشراك روسيا لجيرانها فى الغرب وتحولت خططها الإمـــبريالية نحو القوقاز والصرب وآسيا الوسطى. فى نهاية القرن التاسع عشر كان أقل من نصف مواطنى الإمبراطورية من الروس وحوالى ثلثيها فقط من السلافيين. أما الباقون، الذين يسكنون حوالى ثلاثة أرباع ما أعلن أنه أراض روسية، فكانوا يتكونون من نحو سبعين مجموعة عرقية تمتد من الحدود النرويجية حتى الحدود الكورية. كان الأكثر والأفضل

تنظيما من بين هذه المجموعات خارج روسيا الأوروبية هم مسلمو آسيا الوسطى ومنطقة القوقاز. ورغم أن معظم الفتوحات الباكرة فى آسيا كانت قد تمت بالقوة، فإن المساحات الشاسعة بين المركز والدول التابعة وعدم وجـود مـدراء إمـبرياليين مؤهليـن كـان معنـاه أن الإمبـراطورية فى معظم أماكنها سوف تدار بواسطة النخب المحلية بالإنابة عن سان بطـرسبورج ***St. Petersburg***. بل إن العرش قدم فى بعض الأحيان الدعم المالى لاعتناق الإسلام باعتباره وسيلة لـ"تحضر" الأجزاء الكافرة من الإمبراطورية .

بيد أنه قرب منتصف القرن التاسع عشر، حين تزامنت مفاهيم التفرد الروسى مع الاتصالات المتقدمة لتخلق نخب إمـبريالية أكثر ثقة بنفسها، بدأ الاستقلال الثقافى للمناطق البعيدة يقع تحت الضغط. فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر حين كان الهجوم الأخير لهزيمة القوقاز على أشده، أعلن المجلس الإمبراطورى أن المنطقة سوف "ترتبط بروسيا كما يرتبط عضو بالجسد، والشعوب التى تعيش هناك سوف نجعلها تتحدث وتفكر وتشعر كما الروس"[1]. مثل هذه المهمة كانت تعنى أن التوسع أصبح جزءًا ضروريًا فى الدولة الإمـبريالية، حتى بالنسبة لمن كانوا يريدون الإصلاح فى الداخل. وكما عبر وزير الخارجية الليبرالى ألكساندر جورشاكوف ***Aleksandr Gorchakov*** عن المأساة فى ١٨٦٤: "إن الموقف الروسى فى آسيا الوسطى يشبه الموقف فى جميع الدول المتحضرة التى تحتك بشعوب نصف همجية غير مستقرة تفتقر إلى التنظيم الاجتماعى المستقر. فى مثل هذه الحالات، كانت المصالح الأمنية والتجارية تتطلب أن تمارس الدولة المتحضرة سلطة معينة على جيرانها الذين يفتعلون المشكلات بسبب عاداتهم الهمجية الطائشة". لكن مهام الحكومة المتحضرة امتدت، وفقًا لكلام جورشاكوف، لأن تأثير هذه "السلطة" كان يعنى أن أنصاف الهمج سوف يغيرون من سلوكياتهم ويصبحون أكثر تحضرًا، مما سيعرضهم هم إلى حملات من جيرانهم. "ولذا فعلى الدولة أن تقرر:

إما أن تترك هذه المهمة الدائمة وتترك حدودها الخارجية للفوضى ...أو أن تخترق الدول الهمجية اختراقًا أعمق". وعندما اختير الطريق الثاني قال جورشاكوف "إنه لمن الصعب جدًا التوقف ثانية"(٢).

ولما ووجهت روسيا بالمقاومة لمشروعها فى نشر الحضارة، تحولت حروبها فى آسيا فى منتصف القرن التاسع عشر إلى الإبادة الجماعية. فى القوقاز قُتل أو نُفى أعداد كبيرة من المسلمين العزل واغتصب المهاجرون السلافيون قراهم وحقولهم. وفى ستينيات القرن التاسع عشر واجهت الإمبراطورية الروسية سؤالا كان على الولايات المتحدة أن تتعامل معه فى الجيل نفسه: أى من هذه الشعوب يمكن إدماجه فى الدولة وأى منها يمكن السيطرة عليه فحسب أو – فى أسوأ الأحوال – إبادته؟ وبسبب رؤية النخبة الروسية لمهمتها، كانت إجابتها عن هذا السؤال هو القيام بحملة كبرى للتحويل إلى الروسية ***Russification***، حيث حاولت أن تعطى أكبر عدد ممكن من سكان الإمبراطورية الفرصة لكى يصبحوا روسًا ومن ثم تساعد على نشر الحضارة. كانت أفضل السبل إلى إقناع الآخرين بالتفوق الروسى هو السماح لهم بالمشاركة فى المشروع الأخلاقى والمادى لتوسيع الإمبراطورية. وعلى حد قول الكونت كونستانتين فون دير باهلن ***Count Konstantin von der Pahlen*** فى أوائل القرن العشرين وهو فى رحلة تفتيش فى المناطق الشاسعة التى سيطرت عليها الإمبراطورية : "إن فتح روسيا لتركستان زاد من أعداد عامة الناس زيادة كبيرة(٣). كان الكونت يعتقد أن رؤية مزايا الحكم الروسى ستساعد المسلمين فى أن يصبحوا جزءًا من المشروع الإمبريالى وينقذوا أنفسهم من الإبادة التى قد يؤدى إليها عدم الإذعان.

تدريجيًا، فى القرن التاسع عشر، أصبح مشروع بناء أكبر دولة فى العالم مساحة وحدودًا مرتبطًا بالنقاش حول الإصلاح فى الداخل، وكثيرا ما تركز هذا

النقاش حول مصير الفلاحين الروس، وكان معظمهم أقنان أرض حتى صدور "مرسوم التحرير" *Edict of Emancipation* لألكساندر الثاني *Alexander II* في ١٨٦١. كان أقنان الأرض الروس أشبه بالعبيد الأمريكيين في القرن التاسع عشر منهم للفلاحين الأوروبين، بل قد يكون من المنطقي الحديث عنهم باعتبارهم شكلا مـن الاستعمـار الـداخلي في الإمبراطورية كما يقول المؤرخ دومينيك ليـڤين *Dominic Lieven* [٤]. فالأقنان – بدون حق للملكية ومع التزامهم بتقديم الخدمات للسيد – وقفوا في منتصف القرن التاسع عشر عقبة في طريق تطوير القوى العاملة التي كان الاقتصاد الرأسمالي الحديث يحتاج إليها. لكن حتى بعد التحرر، كان المصلحون يرون أن التقاليد الموجودة في الريف الروسي "المتخلف" تقف حاجزًا أمام إقامة دولة حديثة. البعض رحب بالسوق الرأسمالية باعتبارها وسيلة للإصلاح. فالسوق – كما كتب لينين وهو منفي إلى سيبريا لنشاطاته الثورية في ١٨٩٧

> **تقدمية في جميع النواحي، حيث يكسر الإنتاج اليـدوي الروتيني المفكك محدود النطاق، الذي بقي دون تغييـر لزمن طويل؛ وحيث تزيد من إنتاجية العمل الاجتماعي، وبالتالي تحقق إمكانية المـستوى المعيـشي الأفـضل للعامل؛ كما أنها تخلق الظـروف التـي تحـول هـذه الإمكانية إلى ضرورة – أي تحويل "العامـل المـستقر" الضائع فـي "الغابـات الخلفيـة"، المـستقر جـسمانيا وأخلاقيا، إلى عامل كثير الحركـة، وتحـول الأشـكال البدائية من العمل وما بها من عبودية مطوَرة وأنمـاط مختلفة من الاعتمادية إلى الأشكال الأوروبية للعمل.**

وأضاف لينين الشاب: "ليس الأسلوب الأوروبي في الفكر أو الشعور أقل أهمية من البخار والفحم والميكنة... من أجل الاستخدام الصحيح للماكينات" [٥].

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان أفراد النخب الفكرية والاقتصادية يتهمون الزعماء السياسيين والعسكريين بأنهم لم يأخذوا مشروع الإصلاح بالجدية الكافية، وأنهم من ثم قد أحبطوا جميع أفراد الشعب "الجدد" فى الإمبراطورية سواء كانوا آسيويين أو رقيق أرض مُحرَرين. وفى حين كان الثوريون من أمثال لينين أقلية محددة ومعزولة إلى حد ما، فإن النقاش بين "المستغربين" ***Westernizers*** و"أنصار السلافيين" ***Slavophiles*** أظهر شعورًا واسعا بأن الإمبراطورية قد فقدت وجهتها. كانت المجموعتان تعتقدان أن جزءًا من أهداف روسيا هو أن تحقق مهمتها تجاه غير الأوروبيين، لكن المجموعة الأولى كانت ترى أن الخلاص يكمن فى التعلم الانتقائى من الغرب، بينما كانت الأخرى ترى أن مستقبل روسيا يكمن فى تبنيها صورة مثالية عن الماضى. وبينما تقبل البعض الرأسمالية على أنها شر لابد منه، كان كثير منهم يرون تعارضًا بين تقوية الدولة – الأمر الذى حاولوا القيام به – ونمو الأسواق الحرة. وعندما بدأت روسيا التصنيع، أصبح هذا التناقض أشد حدة، وخلق شعورًا أوسع بأن النخب التقليدية قد خذلت الإمبراطورية(٦).

وقد وحَّد رد الفعل للأزمة المحدقة – الذى كان موجودًا من قبل أن تخسر الإمبراطورية حروبها فى ١٩٠٤- ١٩٠٥ و ١٩١٤- ١٩١٧ – بين الكثير من المستغربين وأنصار السلافيين فى الإيمان من جديد بالمهمة الخاصة لروسيا. ورغم اعتقادهم فى الحاجة إلى إنشاء روسيا جديدة تمثل النخبة الحقيقية الموجودة فيها – المفكرون – فقد أكد الكثير من السياسيين والكتاب على حقيقة أن دولتهم لابد من أن تضع التكنولوجيا والتقدم فى خدمة الشعب وبالتالى تقيم نظامًا اجتماعيًا أكثر عدلا؛ وتحولت مجموعة كبيرة من الإصلاحيين إلى معاداة الرأسمالية مدعية– مثلما فعل الفيلسوف "نيكولاى بردياييف" ***Nikolai Berdiaev*** أنه "أن تكون برجوازيا فذلك يعنى أن تكون عبدًا للمادة وعدوًا للخلود. إن الحضارات الأوروبية والأمريكية التامة صعدت من النظام الصناعى الرأسمالى، الذى لم يمثل التطور

الاقتصادى العاتى فحسب، وإنما الظاهرة الروحية لخنق الروحانية"[٧]. ولا عجب أن يرى "سيرچى بولجاكوف" *Sergei Bulgakov*، وهو ماركسى روسى أصبح فيما بعد قسًا أورثوذكسيًا، أن المفكر الروسي يمكن تعريفه بأنه "ذلك الذى يعيش فى عالم آخر يحلم بإمبراطورية قادمة للعدالة"[٨].

كانت حروب التوسع التى بدأت النخب التقليدية تخسرها فى بداية القرن العشرين هى ما أعطى النظرة الإصلاحية عن دور الإمبراطورية الفرصة فى السياسة الروسية – ودفع بعناصرها الأكثر تطرفًا إلى المقدمة. وكانت الحروب فى القوقاز فى أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر قد أخذت بالفعل سدس دخل الدولة. وعندما واجه المشروع الإمبريالى الروسى التوسعية اليابانية والألمانية لم يكن لديه إمكانات أو موارد متاحة للتنافس. وفيما بين ١٩٠٥ و ١٩١٧ بدأت الشرعية فى المناقشات السياسية تتحول إلى من يستطيعون تقديم شكل أكثر شمولا وتمثيلا للمهمة الروسية. من ضمن هؤلاء كان البولشـفيك *Bolsheviks* – وهم حزب ثورى كان يمزج الديمقراطية الراديكالية بالإنجازات النخبوية، ويَعِد الروس بدور جوهرى فى إعادة تنظيم العالم فى المستقبل.

ومن غير الإنصاف لحزب لينين أن نرى – شأن كثير من المراقبين الغربيين – أن سياساته كانت استمرارا مباشرا لأيديولوچية التوسع الروسية: روسيا الخالدة متنكرة فى زى العالمية الـبروليتارية. والكثير من الرطانة القومية للحزب – قبل الثورة وبعدها – كانت مجرد بروپاجندا، وكانت مضللة فيما يخص الأهداف العالمية الحقيقية لحزب. لم يكن لدى لينين وقت للاستثنائية الروحانية الروسية التى قال بها "بردياييف" *Berdiaev*، ولذا يقول لينين: "الماركسية هى المادية. ولذلك فإنها تعادى الدين بلا هوادة"[٩]. كما أكد زعيم البولشـفيك – وقد تأسس حزبهم كحزب منفصل عام ١٩١٢ – أكد العداء تجاه مسألة التحول إلى الروسية وقهر

الأقليات: "العدالة الكاملة فى الحقوق لجميع الشعوب؛ حق الشعوب فى تقرير المصير؛ وحدة عمال جميع الشعوب" كانت تلك من ضمن الشعارات التى أطلقها لينين عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التى قسمت ظهر الإمبراطورية الروسية ومنحت البولشفيك، أصحاب التنظيم الجيد، الفرصة لكى يصلوا إلى السلطة من خلال انقلاب فى نوفمبر ١٩١٧. ولكن لينين حذر أيضًا من أنه

> **فى هذا الموقف فإن طبقة البروليتاريا فى روسيا تواجه مهمة مضاعفة، أو بالأحرى مهمة ذات وجهين: أن تحارب القومية بجميع أنواعها، وعلى رأسها القومية الروسية العظمى؛ أن تدرك – ليس الحقوق المتساوية لجميع الشعوب بوجه عام فحسب – وإنما أيضًا المساواة فى الحقوق فيما يخص السياسة، أى حقوق الأمم فى تقرير مصيرها، حقها فى الانفصال. وفى الوقت نفسه، مهمتها، لكى ينجح الكفاح ضد جميع أنواع القومية فى جميع الشعوب، أن تحافظ على وحدة كفاح البروليتاريا والمنظمات العمالية مدمجين جميع هذه المنظمات فى رابطة عالمية واحدة رغم المحاولات المستميتة للبرجوازية من أجل الحصرية القومية[١٠].**

وقد شارك البولشفيك النخب فى الإمبراطورية الروسية فى قناعتهم بأن دولتهم سوف تصبح مركز حضارة العالم الجديد والتى سوف تكون حديثة وعادلة فى الآن نفسه. كان لينين يعتقد أن روسيا – وقد كانت أول دولة يحدث على

أرضها ثورة اشتراكية – باستطاعتها أن تقوم بالكثير لمساعدة الثوريين في الدول الأخرى؛ باستطاعتها أن تصبح منطقة القاعدة والمرشد المحورى للثورات في الدول الأوروبية الأكثر تقدما، والتي اعتقد لينين بقرب لحاقها بروسيا. وعلى الرغم من التخلف الاجتماعي والتكنولوچـي في بلاده، اعتقد لينين أن تنظيم الـبروليتاريا من خلال الحزب الشيوعي سوف يمنح روسيا التميز والفرصة لتعليم الدروس المستفادة من ثورة أكتوبر للأحزاب الـبروليتارية الأخرى. قال لينين في مايو عام ١٩١٨؛ "إن الانتظار حتى تقوم الطبقات العاملة بثورة على المستوى العالمي يعني أن يظل الجميع معلقين في الهواء"(١١). وقد أثبت تدخل القوى الإمـبريالية الرئيسية ضد الدولة السوفيتية في الحرب الأهلية التي أعقبت ثورة أكتوبر أثبت للبولشـفيك مدى أهمية مكانتهم في الجبهة المعادية للإمـبريالية.

وعندما سيطر البولشـفيك على المدن الرئيسية – وإن حدث ذلك ببطء – لكي يوسعوا أراضيهم من خلال الحرب الأهلية ويقيموا دولتهم، وجدوا أنفسهم الورثة ليس لروسيا فحسب، وإنما لإمبراطوريتها كلها. في أعقاب ثورة ١٩١٧ مباشرة انفصلت جميع الجنسيات الكبرى في الإمبراطورية لتكوّن إداراتها الخاصة. لكن حين كانت تتصارع مبادئ السيادة القومية مع الحاجات الاستراتيـچية للدولة السوفيتية الجديدة – التي كانت تمثل حاجات الـبروليتاريين، ليس بداخل روسيا فحسب وإنما في العالم كله – انحاز الحزب الشيوعي للأخيرة. ففي حالة أوكرانيا أخبر لينين برلمانها (الرادا ***Rada***) في إنذار نهائي في ديسمبر ١٩١٧، أنه "حتى لو حصل الرادا على اعتراف بأنه الجهاز الوحيد لسلطة الدولة العليا للجمهورية الأوكرانية البرجوازية المستقلة، فسوف نضطر إلى إعلان الحرب عليها دون أدنى تردد، بسبب موقفها الخائن للثورة ومساندتها ....لأعدى أعداء الاستقلال القومي لشعب روسيا، أعداء السلطة السوفيتية وأعداء الجماهير العاملة والمستَغلَة"(١٢). في ١٩٢١ – وقد انتصر الشيوعيون في الحرب الأهلية لجميع الأسباب العملية –

قاموا بغزو چورچيا واحتلالها وهى مستعمرة روسية سابقة، صعد فيها نظام اشتراكى إلى السلطة من خلال ثورة كان قام بها قبل عدة سنوات. وأعلن چوزيف فساريونوفيتش دزوجاشـڤيلى ***Josif Vissarionovich Dzhugashvili*** ***Ио́сиф Виссарио́нович Джугашви́ли*** وهو بولشـڤيكى چورچى محنك كان يسمى نفسه "ستالين" أسوة بالزعيم الكبير – أعلن أن النظام الاشتراكى فى "تبليسى" كان "وسيلة للتأثير البرجوازى على الـبروليتاريا" وأنه "نظرًا للعداء الصريح من الدول الرأسمالية تجاه الدول السوڤيتية، فإن العزلة التامة لچورچيا السوڤيتية، أو لأى دولة سوڤيتية أخرى غير مفهوم من وجهة النظر العسكرية والاقتصادية. إن الدعم الاقتصادى والعسكرى للدول السوڤيتية شرط لا يمكن للتنمية فى هذه الدول أن تتحقق دونه"[١٣].

وقد مارس ستالين ***Stalin*** باعتباره المفوض السوڤيتى الجديد للجنسيات، تأثيرًا كبيرًا على السياسة الشيوعية تجاه غير الروس فى "الإمبراطورية الحمراء". وكان يعتقد – وهو چورچى تحول إلى الروسية – أن الحداثة لا يمكن أن تطول الشعوب الأكثر تخلفًا فى الاتحاد إلا من خلال امتداد تأثير الطبقة الروسية العاملة. وكان ستالين – وهو ماركسى فظ وإن كان قد كرس نفسه للماركسية – يرى أن التنمية هى مجموعة من التراتبات، تتشكل من خلال قربها أو بعدها عن بروليتاريا واعية طبقيًا، يديرها حزب شيوعى. وقد شعر، شأن بعض الإمبرياليين فى القرن التاسع عشر، أن روسيا باعتبارها دولة على حدود أوروبا، فى موقع أفضل من الشعوب المتقدمة الأخرى للتعامل مع غير الأوروبيين. وحين كان لينين يرقد على فراش الموت فى ١٩٢٢، كان يشعر – وهو من أقر إدماج المستعمرات السابقة فى الاتحاد السوڤيتى وسحق قياداتها القومية على نحو وحشى – أن مركزية ستالين قد تتصارع مع العقيدة الماركسية للحزب. وقد كتب لينين فى تعليق له على تحويل چورچيا إلى الاتحاد السوڤيتى أن: "اندفاع ستالين وافتتانه بالإدارة فى حد ذاتها" قد

يمنـــع عمليات التطور الاجتماعي الطبيعي نحو الاشتراكية، ليس في المستعمرات فحسب وإنما بداخل روسيا نفسها. وتنبأ الزعيم، بكثير من المبالغة، أن "تلك النسبة المتناهية الصغر من العمال السوفيت والمتحولين إلى السوفيتية، المتعصبين للوطنية، سوف يغرقون في جَزَر رعاع روسيا العظيمة كما تغرق الذبابة في الحليب"(١٤).

بيد أنه على المدى القريب أثبت البولشـــفيك الروس الشباب الذين شرعوا في إعادة تكوين الأجزاء الأسيوية من الاتحاد السوفيتي، أن الأب المؤسس كان على خطأ. فلم يدفعهم التعصب الوطني قدر ما دفعهم تكريسهم أنفسهم الكامل للمبادئ الشيوعية عن العدالة الاجتماعية والتطور التكنولوجـــي. كانت رسالتهم مختلفة عن رسالة الزعماء الاستعماريين السابقين، في التأكيد على أن الشعوب المستعمرة لديها حقوق، وأن أشدهم فقرًا وبؤسًا – من ثم استغلالهم من قبل سلطات الاستعمار ومن قبل النخب المحلية معًا – هم الحلفاء الطبيعيون للنظام الجديد. ومن خلال التغيير الاجتماعي العميق فحسب – الذي تحفزه روسيا وتقوم به الأقليات نفسها – تستطيع الشعوب أن تصبح تروسًا في الآلة الكبرى التي تنتج الاشتراكية السوفيتية. وكما سيحدث فيما بعد في كل مكان آخر بالعالم الثالث – فإن الوصفة الشيوعية للتغيير كانت لتشق المجتمعات المتكاملة إلى جزأين – مجموعة صغيرة من التابعين المحليين المهتمين الذين يريدون لدولهم أن تتحرك سريعًا تجاه الهدف الواحد من ناحية؛ ومجموعات كبيرة من المترددين أو المقاومين الذين يدينون بالولاء لمجتمعاتهم أو لمبادئ أخرى. ولم يمكن احتمال أي من تلك المجموعات في الاتحاد السوفيتي. وفي منتصف العشرينيات كان كل من يعارضون الشيوعية – من فوضويين، واشتراكيين يساريين، وليبراليين، ومناصرين للقيصرية – قد نُفوا أو سُجنوا أو أُعدموا؛ بينما كان المترددون قد تعلموا أن يحتفظوا بشكوكهم لأنفسهم. لم تستمر المقاومة المسلحة إلا بين صفوف المسلمين في آسيا الوسطى

حتى الثلاثينيات، في مجموعات أسماها البولشـفيك "البسماشي" *Basmachi*، وقد أخذ المقاتلون المعادون للسوفيتية في أفغانستان اسمهم وسمعتهم الشرسة كرمزين للشرف بعد جيلين لاحقين[٤٢].

الكومنتيرن والعالم الثالث(*)

لم يكن على الشيوعية أن تتسع في الاتحاد السوفيتي وحده لكي تفي بوعدها بالعدالة الاجتماعية للجميع. فقليل جدًا من أتباع لينين رأوا اختلافًا حادًا في النشاط السياسي بين الإمبراطورية الروسية السابقة وبين الدول خارجها – فبالنسبة للينين كان الهدف الأساسي من ثورته هو أن يمهد الطريق إلى الثورات الأخرى؛ أولا في الدول الرأسمالية المتقدمة في أوروبا، ثم في الأراضي المستعمرة وفقًا لما تسمح به ظروفها الاجتماعية. ولكي يساعد البولشـفيك على قيام مثل هذه الثورات ويدعمونها، أسسوا في ١٩١٩ الدولية الشيوعية *Communist International* أو الكومنتيرن *Comintern*، وهي منظمة عالمية كان مقرها موسكو، دعيت لعضويتها كل الأحزاب العمالية من جميع أنحاء العالم. كان هدف لينين من الكومنتيرن هو أن "يبلشف" الأحزاب الاشتراكية الرئيسية، ولكن في معظم الحالات حدث العكس؛ ففي اندفاع مساندي لينين لكي يشتركوا في الدولية الجديدة، وجدوا أنفسهم مهمشين ومبعدين دائمًا عن المنظمات الرئيسية ومضطرين إلى تأسيس أحزاب شيوعية جديدة، أو – كما أراد السوفيت اعتبارها – فروع محلية جديدة من الكومنتيرن.

منذ بدايتها في القرن التاسع عشر، والماركسية تركز تحليلها وتوقعاتها على أوروبا وأمريكا، وكان لديها القليل من الوقت والاهتمام بتلك الدول التي لم تكن الرأسمالية قد نصبت نفسها فيها أداة أساسية للاستغلال بعد. شأن أنصاره في

(*) *The Comintern: Communist International, also known as the Third International*

روسيا، كان كارل ماركس يرى أن العالم منظم وفقًا لتراتبية للتطور، حيث وجود طبقة عاملة صناعية هو العنصر المميز الأساسي - وأن الدول التى بها بروليتاريا ستكون أولى الدول التى تتجه نحو الاشتراكية من خلال عملية نشأت عن أشكال معينة من الاستغلال الرأسمالى الذى عاشه العمال الأوروبيون والأمريكيون وتمردوا عليه في النهاية. واعترف ماركس أن آسيا وأفريقيا قد مرتا بتطور مختلف عن ذلك الذى مرت به أوروبا - وأنه من وجهة نظر تاريخية، قد بدأت رحلة هذه القارات نحو الرأسمالية للتو. وتميز ما أسماه ماركس بنمط الإنتاج الآسيوى بوجود مجتمعات فلاحية منعزلة ترتبط بدولة استبدادية وغير كفء - وهو النظام الاجتماعى الذى يدفع الناس إلى "حياة راكدة وبلا كرامة". ووفقًا لهذه الظروف كانت الإمبريالية وسيلة للتقدم، رغم تعاطف ماركس مع ضحاياها. واستنتج أثناء سحق بريطانيا للتمرد فى الهند عام ١٨٥٣، أن "إنجلترا لديها مهمة مزدوجة فى الهند: مهمة تدميرية ومهمة إحيائية - إبادة المجتمع الآسيوى القديم وإرساء دعائم المجتمع الغربى فى آسيا"[١٦].

وكماركسى غير أرثوذكسى بالمرة بدأ تفكير لينين - وخاصة قرب نهاية حياته - يمنح دورًا تكتيكيًا أكبر لـ"مجتمعات ماركس نصف البربرية". وفى أهم أعماله *"الإمبريالية: أعلى مراحل الرأسمالية"* ***Imperialism: The Highest Stage of Capitalism*** والذى كتبه قبل ثورة ١٩١٧ مباشرة، جادل لينين بأن الصراع الشديد بين الدول الأوروبية حول الممتلكات الاستعمارية فى أواخر القرن التاسع عشر قد غير الرأسمالية كنظام وعجل بتآكلها.

لقد أضاف رأس المال المالى إلى الدوافع "القديمة" العديدة للسياسة الاستعمارية البحث المستميت عن مصادر المواد الخام، وتصدير رأس المال، ومجالات

التأثير؛ أى مجالات الصفقات المربحة والامتيازات وأرباح الاحتكار وهكذا، أى الجوانب الاقتصادية بوجه عام. فمثلا عندما كانت مستعمرات القوى الأوروبية تمثل فقط عُشر أراضى أفريقيا (كما كان الحال فى ١٨٧٦)، استطاعت السياسة الاستعمارية أن تتطور - بأساليب مختلفة عن أساليب الاحتكار - بـ"الاغتصاب المجانى" للأراضى. لكن عندما تم اغتصاب تسعة أعشار أفريقيا (نحو عام ١٩٠٠) وكان العالم كله قد تم تقسيمه بالفعل، تم التوجه لا محالة إلى حقبة احتكار امتلاك المستعمرات، ومن ثم إلى الكفاح المكثف لتقسيم العالم وإعادة تقسيمه[١٧].

لقد أعطت شدة المنافسة الإمبريالية الرأسمالية احتمالات جديدة ومعانى جديدة لكفاح شعوب العالم الثالث ضد الإمبريالية، كما قال لينين، خاصة أن الثورات الأوروبية التى توقعها بعد الحرب العالمية الأولى لم تتحقق. وفى حين لم يعارض لينين صراحة أبدًا اعتقاد ماركس فى مراحل التنمية، لكنه كان يرى أن الثورة الروسية قد أظهرت أن بعض هذه المراحل قد تكون قصيرة للغاية، وبدأ فى إحضار اشتراكيى العالم الثالث إلى موسكو بالفعل فى أعقاب الانقلاب الشيوعى فى ١٩١٧ مباشرة. فى نوفمبر ١٩١٩، وفى خطاب ملىء بالمبالغات التبشيرية، أبلغ لينين مثل هذا الجمع أن مهمتهم كانت "دفع جماهير العمال نحو النشاط الثورى، نحو العمل المستقل ونحو التنظيم، بغض النظر عن المستوى الذى وصلوا إليه؛ وأن يترجموا المبدأ الشيوعى الحق، الذى أريد به الشيوعيون فى الدول الأكثر تقدمًا، إلى لغة جميع الشعوب"[١٨]. وبعد ذلك بعامين استنتج لينين فى يأس أن "قدر

الحضارة الغربية كلها يعتمد الآن على استقطاب جماهير الشرق نحو الأنشطة السياسية" [١٩].

أول فرصة للبولشــفيك لتنفيذ وعودهم خارج حدودهم كانت فى منغوليا، حيث فقدت الصين سيطرتها على الحكومة بعد ١٩١١. وبدأت مجموعة صغيرة من الثوار المنغوليين – الذين بدأوا يحتكون بالبولشــفيك الذين هربوا إلى هناك أثناء الحرب الأهلية الروسية – بدأوا يرون أن الشيوعية تجمع ما بين الاستقلال والحداثة، وبالتالى فهى وسيلة مثالية لاجتياز ماضى منغوليا البوذية. وفى ١٩٢٦ احتل الجنود الروس والبولشــفيك المنغول أورجا ***Urga*** – المقر الشتوى لآخر البوذيين الأحياء وجعلوا منها عاصمة الجمهورية الشعبية المنغولية تحت اسم البطل الأحمر أولان باتر ***Ulaanbaatar***. أصبحت منغوليا مختبرًا للسياسية الشيوعية فى العالم الثالث باعتبارها أول جمهورية شعبية: أساليب التعليم، الأعمال الثقافية، الجماعية، والــبروباجندا المعادية للدين التى سوف تظهر فيما بعد فى دول أخرى فى قارات أخرى كان قد قدمها المستشارون السوفيت فى منغوليا، الذين كانوا يديرون الدولة نيابة عن الزعماء الشيوعيين. وكان المستشارون السوفيت الشباب فى عجلة من أمرهم لأن الدعم الذى يقدم إلى منغوليا هو استنزاف للموارد النادرة بالداخل. وراح ممثل الكومنتيرن يوجه الزعماء فى أولان باتر (عاصمة منغوليا):

> لابد أن نكون قد بنينا الاشتراكية فــى منغوليــا فــى غضون عشرة أعوام. ولكى نحقق التوجيهات...لكــى نتوقف تمامًا عن استيراد الــدقيق مــن دول الاتحــاد السوفيتى فمطلوب على نحو عاجل تطوير الزراعــة. كما هو مطلوب أن نحقق خطة إنتاج اللحوم. وبما أن الموقف الخارجى فى منغوليــا غيــر مــستقر، فمــن

الضرورى أن نقتل رءوس الإقطـــاع وأشـــرافه أو أن
نقبض عليهم أو نزج بهم فى السجون»[٢٠].

وأصبح الكومنترن هو الوسيلة التى يستعملها الشيوعيون لإشعال التمرد ضد النزعة الاستعمارية. كانت الثورة الروسية بالنسبة للكثيرين فى العالم الثالث، الذين عارضوا الهيمنة الأجنبية، حادثة متفردة: فالبولشـــفيك لم يريدوا إنشاء دولة جديدة لهم تطيح بالقهر الاستعمارى والهيمنة الإثنية فحسب وإنما وعدوا أيضا بدعم جميع الحركات التى كان لها الهدف نفسه على المستوى العالمى. والأهم من كل ذلك – كما سنرى فى الفصل التالى من الكتاب – أن الشيوعيين كان لديهم أسلوبهم فى كيفية الإطاحة بنظام سابق ونمط للدولة الجديدة التى تتصف بالعدل والحداثة فى آن واحد. لقد وجد الكثير من المنظمين والمفكرين الشباب فى صورة ثورة أكتوبر التى نشرها مروجو الكومنترن فى العالم، صورة جذابة للغاية كمستقبل لدولهم. ولا عجب إذن أنه فى مطلع العشرينيات كانت قد أنشئت أحزاب شيوعية فى معظم الدول الكبرى فى العالم الثالث – الصين والهند وإندونيسيا وتركيا وإيران – جميعهم شهدوا إنشاء أحزاب شيوعية فى ١٩٢٠ أو ١٩٢١. وكان زعماء تلك الأحزاب – الذين لم يكن قد قُبض عليهم أو أُطلق عليهم الرصاص من قبل نظم الحكم فى بلادهم – يجتمعون فى موسكو فى اجتماعات الكومنترن – كما كان يفعل الزعماء الشيوعيون الأوروبيون. ولا تظهر تسجيلات اللقاءات مدى تنوع الحركات الشيوعية الباكرة فحسب، وإنما تظهر أيضا مدى صعوبة المقابلات بين الروس والماركسيين من خلفيات أخرى.

وقد توقع السوفيت المعارضة (ولم يتوقعوا أى تنازلات) من ماركسيى أوروبا الغربية الذين حضروا اجتماعات الكومينترن الأولى؛ وما أدهشهم أكثر كان قابلية ماركسيى العالم الثالث ورغبتهم أن يبحثوا عن مواقف مستقلة فى فهم التطور

الاجتماعى والمنهج السياسى للشيوعية. وبينما لم يقدم هؤلاء الزعماء نقدًا موحدًا للاشتراكية السوفيتية بحال من الأحوال، وصفوا بعض الصعوبات التى قد يستحيل على الأجيال اللاحقة فى الكرملين تجنبها فى سياسات العالم الثالث. فانتقد مثلا الشيوعى الهندى الشاب ماهابهندرا ناث روى ***Mahabhendra Nath Roy*** لينين فى اجتماع الكومينترن الثانى لرفضه أن يعطى الأحزاب الشيوعية فى العالم الثالث دورًا قياديًا فى الثورات المعادية للاستعمار فى بلادهم. وفى حين اتفق مع الزعيم السوفيتى أن على الشيوعيين أن يتحالفوا مع البرجوازية المحلية (أو "الوطنية") فى بلادهم ضد القوى الاستعمارية، كان روى يعتقد أن على الشيوعيين أن يقوموا بدعاية مستقلة وبتعيين أشخاص من كل الطبقات الاجتماعية فى حزبهم، وهم الذين سوف يمثلون "طليعة الطبقات العاملة"، حتى فى المناطق التى تكون فيها هذه الطبقة صغيرة جدًا بالنسبة لجماهير الفلاحين. وزعم روى أن التحالف مع الاتحاد السوفيتى من شأنه أن يساعد دول العالم الثالث على أن تتجنب التطور الرأسمالى تمامًا، كما كان يرى إمكانية أن تمسك الأحزاب الشيوعية بزمام القوة قبل أن تنضج الطبقة العاملة تمامًا، على الأقل فى بعض الجوانب ومن ثم ضرورة القيام بكلا الأمرين: "الإصلاحات البرجوازية البسيطة – مثل تقسيم الأرض" وبناء قوة بروليتارية فى الوقت نفسه[٢١].

الأسوأ من وجهة النظر السوفيتية، كان النقد الذى وجهه الشيوعى ميرسيد سلطان جالييف ***Mirsaid Sultan Galiev***. ولد جالييف فى ١٨٩٢ فى مجموعة إثنية كانت تستعمرها روسيا، وجادل بأن المعنى الأول والأهم للثورة هو تحرير الشعوب المستعبدة. وبصفته مؤسسًا لـ"منظمة التتار العسكرية للاشتراكيين العالميين" بدأ جالييف فى ١٩١٤ يحث الجنود التتار والباشكير فى جيش القيصر على الثورة بما أن سبب الحرب هو أن "الروس لم يقنعوا بهزيمة التتار والبشكير والتركمانستان ودول القوقاز ...إلخ فأرادوا أيضًا أن يهزموا الأتراك

والإيرانيين"[٢٢]. وانضم جاليف إلى البولشـــفيك فى باكو فى ١٩١٧، وسرعان ما أصبح أبرز زعيم حزبى ذى خلفية إسلامية. وبوصفه نائبًا لستالين مفوضًا للجنسيات كان الشيوعى البشكيرى يجادل أن "جميع الشعوب المسلمة المستعمرة شعوب بروليتارية" بدون تناقضات طبقية قوية، وأن تحرير المستعمرات شرط ضرورى لقيام الثورات فى الغرب. وأكد أنه "ما دامت الإمـــبريالية العالمية الشرقية باقية كمستعمرة، وتعطى لنفسها الحق فى استغلال جميع ثرواته الطبيعية فسوف تحقق نتائج جيدة فى كل المصادمات الاقتصادية مع الطبقات العاملة، لأنها ستكون قادرة تمامًا على أن تغلق أفواههم بموافقتها أن تشبع حاجاتهم الاقتصادية"[٢٣]. وعندما سطع نجم ستالين فى الحكومة هوى نجم جاليف. فقد طرد من الحزب فى ١٩٢٣، واتهم بالسعى لتنظيم دويلة منفصلة مناهضة للاستعمار، والادعاء بوجود دور تقدمي للإسلام فى تحرير الشعوب الآسيوية[٢٤].

وعندما زادت سيطرة ستالين على الحزب السوفيتى فى العشرينيات، اختنقت الأصوات المنشقة من العالم الثالث سواء فى داخل الاتحاد السوفيتى أو فى داخل الكومنترن. وطُرد روى من وضعه القيادى فى المنظمة الشيوعية الدولية فى ١٩٢٨ لمســاندته لــدور أكثر استقلالية للحزب الشيوعى الصينى ***Chinese Communist Party (CCP)*** فى التحالفات القومية التى أمره ستالين أن ينضم إليها. وفى معركته الأخيرة والحاسمة مع تروتسكى ***Trotsky***، أثار ستالين فى ١٩٢٦- ٢٧ قضية حاجة الحزب الشيوعى الصينى أن ينضم إلى الحزب الوطنى الصينى – ***Guomindang***، فى معارضة الإمـــبريالية الخارجية وإنشاء دولة صينية جديدة. فعلى عكس مفهوم تروتسكى عن الثورة الدائمة – حيث مرحلة التطور الرأسمالى يمكن أن تكون فترة قصيرة جدًا بين الثورتين البرجوازية والاشتراكية، كان ستالين يرى أن هذه التحولات فى جميع الأحوال عمليات نشأ فيها نظام اجتماعى رأسمالى كامل من قبل أن تنجح الطبقة العاملة فى تحدى البرجوازية من أجل السلطة. ولما واجهته

المطالب الصينية بإنشاء قواتها المسلحة الشيوعية الخاصة بها، أعلن الزعيم السوفيتي "إننا نحتاج إلى هذا الحق [حق الحزب القومي الصيني]، ففيه أناس قادرون لازالوا يوجهون الجيش ويقودونه ضد الإمبرياليين"(٢٥). ورغم أن ستالين قد كسب المعركة السياسية في روسيا، كانت نصيحته للشيوعيين الصينيين كارثية لهم. في أبريل عام ١٩٢٧، اجتاح جيش الحزب الوطني الصيني بزعامة شيانج كاي شيك الحزب الصيني واعتقل أو قتل زعماءه السياسيين الأساسيين، ولم يعد للشيوعية كقوة سياسية رئيسية في الصين وجود لنحو عقد كامل. لكن أناسًا مثل روى – الذي زعم أن ما طالب به للصينيين لم يكن أكثر مما طالب به لينين لروسيا في ١٩١٧ – لم يجنوا أي ثمرة من كونهم على حق.

في ثلاثينيات القرن العشرين عندما اختفى المعارضون الحقيقيون، أو المتخيلون، لستالين في معسكرات الاعتقال أو ساحات القتل، راحت الشيوعية السوفيتية تنسج مجموعة من الأساطير حول ثورة أكتوبر لتساعد ستالين في الاستحواذ على السلطة وإرساء نظرته الديماجوجية عن القوانين الماركسية للتطور التاريخي. هذه الأساطير كانت تزعم أن ثورة ١٩١٧ كانت ثورة عمال قامت بها أكثر المجموعات البروليتارية الصناعية تقدمًا تحت قيادة الحزب الشيوعي. وبما أن التأكيد كان على "*المتقدمة*"، فلم تكن الأرقام تهم – بل الدور "الموضوعي" لصناع الثورة في بطرسبورج في تمثيل الطبقة العاملة ككل. وقد قاموا بالثورة ضد دولة برجوازية بدأت تظهر تاريخيا منذ ١٩٠٥ ثم أصبحت تحكم منذ فبراير ١٩١٧. بهذه الطريقة استطاع ستالين أن يؤكد أن البولشفيك قد اتبعوا "بأسلوب طبيعي" قوانين التطور بإحلالهم نظامًا بروليتاريا محل نظام برجوازي (حتى وإن لم يدم النظام البرجوازي لأكثر من ثمانية أشهر). أما السبب في وجود فترة انتقالية قصيرة كهذه في روسيا فلم يكن الثورة الدائمة، وإنما القدرات التنظيمية للشيوعيين الروس بقيادة لينين وستالين. وبتأسيسه هذه الأساطير كجزء لا يتجزأ مما أصبح

يعرف الآن بالماركسية اللينينية، أكد ستالين على دوره ودور الحزب، لكنه أيضا أطاح بالسلم الذى كان يمكن أن يساعد شيوعيى العالم الثالث لكى يصعدوا بسرعة نحو الاشتراكية. وقال ستالين بنبرة اتهام بعد الأزمة الصينية "لا يمكن للمرء أن يعبث بقوانين التطور التاريخى"(٢٦).

كان التحول الداخلى الأكبر فى الاتحاد السوفيتى تحت حكم ستالين – وفى أسس دعاوى الشيوعيين بتحديث روسيا – هو جماعية الزارعة. فلمدة سبع سنوات – بين ١٩٢٩ و ١٩٣٦ – اندلعت حرب فى الجمهوريات السوفيتية بين المسئولين الشيوعيين والمقاومة الفلاحية مما أدى إلى المجاعة والخراب، وتحركت جبهة القتال يمنة ويسرة – فى مارس ١٩٣٠، أرغم ٥٨% على الجماعية، وفى يونيو ١٩٣٠ كان أكثر من نصفهم قد هرب. تدريجيا وباستخدام الإرهاب – من مصادرة للأراضى والإمدادات والاعتقالات الجماعية والإعدام – أدار البولشـفيك دفة المعارضة. وكان هدف ستالين بسيطا: كان يريد أن يخلق دولة حديثة عن طريق إزالة المستعمرة الداخلية للعبيد بداخل روسيا الإمـبريالية، والسبيل الوحيد لتحقيق هذا الهدف فى فكر ستالين وأنصاره هو القضاء على "العقلية الفلاحية" الفردانية والمحلية وأن يتم وضع الزراعة، شأن بقية الاقتصاد، تحت حكم الدولة المركزية. كان ذلك بالنسبة للستالينيين هو أكبر ثورة على الإطلاق ونموذجا لكيفية حدوث التحول الاشتراكى فى كل مكان آخر. فأن يخلق الفلاحون الفائض الذى تتحكم فيه الدولة، وهو الفائض الضرورى لبدء الاقتصاد الصناعى، لهو أسلوب يجعل الدول والمجتمعات المتخلفة تطمح إلى الحداثة(٢٧).

ورغم أن الكومنتيرن حاول تجميل سياساته العامة عدة مرات فيما بين ١٩٢٨ و١٩٤١ – من "الفترة الثالثة" الديمقراطية المعادية للاشتراكية بين ١٩٢٨ و١٩٣٣، إلى تحالفات "الجبهة الشعبية" بين ١٩٣٤ و١٩٣٩؛ إلى دفاعها المستميت

عن تحالف ستالين مع هتلر – فإن سياساته تجاه العالم الثالث بقيت مستقرة نسبيًا؛ فأثناء فترة ما قبل الحرب رفض ستالين فكرة أن أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية لديها أى قدرات قصيرة المدى للاشتراكية، لأن الظروف التاريخية لإنشاء أحزاب شيوعية بروليتارية لم تكن موجودة هناك بعد. ورغم أن الزعيم السوفيتى ستالين لم يفقد الأمل أبدًا فى إيمان لينين بتحرك "الدول المتخلفة" بسرعة نحو الاشتراكية، فإنه كان يرغب دائمًا فى استخدام فكرة "عدم تجاهل المراحل" ليشرح التراجع الشيوعى فى العالم الثالث – ذلك التراجع الذى انبثق عن سياسات كان هو من صممها. على كلٍ، فإن تأثير الكومنتيرن فى العالم الثالث انهار فيما بين ١٩٢٨ و١٩٤٣، حيث تمت تصفية العديد من الأحزاب الأساسية سياسيًا، أو جسديًا، على يد معارضيها. ففى الهند مثلا فى أوائل الثلاثينيات – بعد أن أعلن المؤتمر السادس للكومنتيرن الحرب على "الغاندية" بسبب "المفاهيم الدينية وأساليب الحياة الرجعية والمتخلفة اقتصاديًا" – تقلص الحزب الشيوعى إلى عشرين عضوا (أى نسبة ٠,٠٠٠٠٠٦ من تعداد السكان كما أشار المؤرخ "كن بوست" ***Ken Post***)[٢٨].

اكتسب الكومنتيرن والمنظمات التى سيطر عليها أهميتهم من خلال الزعماء المستقبليين الكثر المقاومين للغرب فى صفوفه. وكان عمل الشيوعيين من أمثال "هو شى منه" ***Ho Chi Minh*** الـڤيتنامى أو لويس كارلوس برستس ***Luis Carlos Prestes*** البرازيلى للكومنتيرن يؤكد تكريسهم أنفسهم مدى الحياة لرؤية الاشتراكية وهى موحدة وعالمية. وبالنسبة للمناهضين للاستعمار مثل "تان مالاكا" ***Tan Malaka*** الإندونيسى، الذى خرج من الحزب الشيوعى ليؤسس نظامًا وطنيًا إندونيسيًا بدعم من اليابان، أو جواهرلال نهرو ***Jawaharlal Nehro***، الهندى الذى أوفد إلى مؤتمر بروكسل للجنسيات المقهورة فى فبراير عام ١٩٢٧ والذى تم تنظيمه وفقًا لأوامر الكومنتيرن فإن التعامل بين الشيوعية والاتحاد السوفيتى قد قدم أفكارًا ذكية عن كيفية إقامة حركاتهم ودولهم. أما آلاف النشطاء الذين درسوا فى مدارس الاتحاد

السوفيتى وجامعاته – مثل جامعة صن يات سن *Sun Yat-sen* بموسكو التى تم إنشاؤها أساسًا للطلبة الآسيويين – فقد انبهروا باهتمام زملائهم السوفيت بقضيتهم وإيمانهم المطلق بها. حتى غير الشيوعيين أو أولئك الذين تركوا الشيوعية فيما بعد ظلوا يعتقدون أن الاتحاد السوفيتى دولة تقدمية ونموذجًا يحتذى. وقد وجد الزعيم الأمريكى الأفريقى دو بواس *W.E.B.Du Bois* الذى زار موسكو لأول مرة فى ١٩٢٨، أن "روسيا كانت ضحية مجموعة كبيرة من الأكاذيب الملفقة. وأنه سواء نجحت الحكومة الروسية الحالية أم لم تنجح، فإن ما تريده لابد أن يتحقق وسوف يتحقق لو استمرت دول العالم فى التقدم"[٢١]. أما داخل الاتحاد السوفيتى نفسه فقد غرقت جميع محاولات تشكيل السياسات التى تعكس شكل الدولة متعددة الأجناس – غرقت فى الدماء بمعنى الكلمة، أثناء حملات ستالين. تم القضاء على معظم زعماء الأقليات فى الدولة السوفيتية فيما بين ١٩٣٥ و ١٩٤١ ليحل محلهم خليط من الروس والستالينيين المحليين. أما ستالين– ذلك الرجل الذى أسماه الزعماء الجدد "المدير *vozhd* (boss)"، فقد أعطى دائرته الداخلية فى نوفمبر ١٩٣٧ درسًا فى آرائه عن دور الإثنية:

> لقد ارتكب القياصرة الروس العديد من المساوئ، فقد نهبوا الناس واستعبدوهم، وأشعلوا حروبًا واستحوذوا على أراضٍ لصالح ملاك الأرض. ولكنهم فعلوا شيئًا واحدًا حسنًا – لقد جمعوا دولة كبرى حتى "كامشاتكا" وقد ورثنا نحن هذه الدولة ...ووحدناها بحيث لو انفصل أى جزء عن الدولة الاشتراكية الواحدة فإن ذلك لن يضر بالدولة فحسب وإنما سيكون الجزء غير قادر على البقاء مستقلا، وسوف يرزح تحت وطأة الخضوع للقوى الخارجية. ولذا فإن أى شخص أيًا كان، يحاول أن يحطم وحدة هذه الدولة الاشتراكية

أو يحاول فصل أيٍ من أجزائها أو جنسياتها – سيكون عدوًا لدودًا للدولة ولشعب الاتحاد السوفيتي. ولسوف نحطمن جميع أمثال هذا العدو حتى وإن كان بلشفيًا قديمًا؛ ولسوف نحطمن عائلته وأقاربه. سوف نحطم بلا هوادة أو رحمة أي إنسان يحاول بأفعاله أو أفكاره – نعم أفكاره – أن يهدد وحدة الدولة الاشتراكية[٢٠].

ظهرت قسوة الستالينية السوفيتية وعدم قدرتها على العمل مع أى أحزاب يسارية أخرى بوضوح جلي فى الحرب الأهلية الإسبانية ، وهو التدخل الأجنبى السوفيتى الأساسى بين حرب ١٩٢٠ –٢١ ضد بولندا ومعاهدة هتلر – ستالين، وكانت الأحداث الإسبانية ذات أهمية شديدة لفهم التدخلات السوفيتية فى العالم الثالث: فلم يكن ذلك أول تدخل بعيد المدى تديره موسكو فحسب، بل إنه قدم التجربة الشخصية التى اكتسب منها الكثير من زعماء فترة الحرب الباردة الخبرة لتخطيط مخططاتهم بالخارج أو تنفيذها. فرغم أن معظم الجمهوريين الإسبان كانوا يرون أن دولتهم قد هزمت على يد جيوش "فرانكو" جزئيا بسبب الطائفية الشيوعية والخيانة السوفيتية، فإن دروس موسكو كانت جد مختلفة، فقد رأى ستالين وزملاؤه أن الفشل فى إسبانيا ناشئ عن "إهمال" و"اندفاع" الجمهوريين الإسبان أنفسهم، بمن فيهم العديد من أعضاء الحزب الشيوعى. فلو أريد لكفاح "منعزل"، مثل هذا الذى وقع فى إسبانيا، أن ينجح فى المستقبل، فلابد أن يديره ضباط سوفيت، حتى وإن كان الهدف دفاعيا وليس هجوميا؛ وكان ستالين يرى أن مثل تلك المحاولات لن تكون لديها الفرصة للنجاح إلا إذا تم تطبيق التجربة السوفيتية على الوضع المحلى.

نحو عام ١٩٤١، كان نظام ستالين فى موسكو قد أزال الكثير من التأكيد الشيوعى على الثورة فى العالم الثالث. ومع سحقه لآمال الأقليات السوفيتية من أجل الاستقلال، ركز ستالين على بناء دولة سلطوية غير رأسمالية يكون للحزب

دور مركزي فيها. وفي حين ظل الكثير من الزعماء المناهضين للاستعمار في القارات الأخرى يرون أن الدولة السوفيتية والحزب السوفيتي أمل لهم – كما سنرى في الفصل القادم – فإن التدخل المباشر لموسكو في شئون العالم الثالث تضاءل كثيرًا في منتصف الثلاثينيات، عندما بدأ ستالين يركز على الحرب القادمة في أوروبا. وإلى أن صحح له هتلر هذا المفهوم في يونيو ١٩٤١، كان ستالين يعتقد أن الحرب العالمية الثانية ستكون بين "مجموعتين من الدول الرأسمالية (الفقيرة والغنية فيما يخص المستعمرات والمواد الخام وما إلى ذلك) – من أجل إعادة تقسيم العالم.... ولا نرى غضاضة في أن يقتتلا وتضعف كل منهما الأخرى....في المرة القادمة سوف نكون مع الجانب الآخر"[٣١]. لقد توقع الزعيم السوفيتي أن تثور المستعمرات سوف تثور أثناء الحرب الدائرة بين الإمبرياليين، ولكنه لم يعتقد أن أي دولة خارج أوروبا لديها القدرة أن تدافع عن مثل هذه الثورة ما لم يقم الاتحاد السوفيتي بمساعدتها وتوجيهها.

تعريف التدخل: إيران والصين وكوريا

كان الهجوم الألماني في ١٩٤١ يعني إعادة توجيه كاملة للسياسة السوفيتية الخارجية ولتوجيهات ستالين للشيوعية العالمية. كان نظام ستالين يحارب أعداءه في الداخل والخارج من أجل البقاء، وكان يحتاج إلى إنفاق جميع موارده على الحرب ضد هتلر، وكل من بداخل الاتحاد السوفيتي ممن كانوا يرون في الهجوم الألماني فرصة رحبوا بها لتخليص أنفسهم من إرهاب ستالين. كذلك كان يحتاج إلى حلفاء وبذل الكثير من الجهد لتطوير العلاقة مع بريطانيا والولايات المتحدة وتحسينها لتصبحا تحالفًا قويًا في زمن الحرب. ورغم أنه لم يتخيل أبدًا أن مثل هذا التحالف قد يبقى بعد الحرب، كان ستالين يعتقد أن القوتين الرأسماليتين تحتاجان

إلى التفاهم مع الاتحاد السوفيتى فى زمن الحرب وربما أثناء المرحلة الأولى من إعادة البناء بعدها.

بدأ التخطيط السوفيتى لعالم ما بعد الحرب حالما توقف الهجوم الألمانى فى ١٩٤٢. وقد أراد ستالين أن يمد النفوذ السوفيتى فى أوروبا – حول الحدود الغربية بالأساس – وكذلك فى أوروبا الوسطى وفى ألمانيا نفسها إن أمكن. ولكن كان على الزعماء السوفيت أن يتوخوا الدقة فى تنبؤهم بالنتائج الدقيقة للحرب. كان ستالين بدءًا من ١٩٤٢ يتوقع ألا تكسب ألمانيا الحرب، ولكنه توقع أن تسعى القوى الرأسمالية للسلام معها بعد انهيار نظام هتلر. ولخوفه من أن مثل هذا السلام المنفصل قد يجعل لألمانيا الحرية فى أن تستمر فى حربها على الاتحاد السوفيتى، احتاج ستالين أن يحد من الاحتكاك بحلفائه، وبالتالى يحد من رغبتهم فى أن يلقوا به إلى الذئاب وفى الوقت نفسه أن يحد من فرص هجوم اليابان على الاتحاد السوفيتى فى الشرق، وهو الهجوم الذى كان ستالين يعرف أنه يعنى نهاية الدولة السوفيتية. كان على موسكو إذن أن تدحض أى أطماع ثورية ناشئة عن الحرب. وأمرت الأحزاب الشيوعية فى العالم الثالث ألا تنخرط فى الدعاية المعادية للإمبريالية، وإنما أن تدعم مجهود الحرب لدى الحلفاء. فى ١٩٤٣، تم حل الكومنتيرن رسميا – قربانًا للندن وواشنطن – لكن جهازه ظل متماسكا ثم أصبح لاحقًا قلب الإدارات العالمية للحزب الشيوعى السوفيتى كما أصبح يلعب دورًا رئيسيا فى تطوير سياسات الحزب تجاه العالم الثالث[٣٢].

قرب نهاية الحرب وبعد أن اقتنع ستالين أخيرًا أن حلفاءه لا ينوون إقامة سلام منفصل، بدأ يختار بين وجهات النظر الماركسية المختلفة التى قدمها له التخطيط السوفيتى لزمن الحرب. أما وقد فتحت الانتصارات السوفيتية على الجبهة الشرقية شهيته، فقد رأى إنشاء حزام أمني على الحدود الغربية يتكون من الدول

التي تعتمد في سياساتها الخارجية على الاتحاد السوفيتي. لكنه توقع أيضًا أن تتحرك ألمانيا ما بعد الحرب – وهي الهدية الكبرى لنمو مستقبل أوروبا –نحو الاشتراكية ونحو تكوين تحالف مع موسكو. ومن خلال مهاجمة اليابان الضعيفة سوف يستطيع الاتحاد السوفيتي تأمين تأثيره على مستعمرات ما بعد الحرب في الصين وكوريا، وسوف يستطيع، في كل مكان آخر في المستعمرات، أن يحقق مزاعمه في إعادة التقسيم التي ستلي الحرب. أسس ستالين وجهات نظره المتفائلة هذه على المنافسة المستمرة بين القوى الاستعمارية الرئيسية – بريطانيا والولايات المتحدة – في المعركة التالية من أجل الغنائم. وبينما يستمر الإمبرياليون في التنافس، سوف يستطيع السوفيت – من خلال مزيج من الدبلوماسية والقوة – أن يصبحوا قوة اشتراكية عالمية.

تدريجيًا، فيما بين ١٩٤٤ و ١٩٤٧، اتضح لستالين أن توقعاته بشأن التنافس الإمبريالي الشديد على إعادة تقسيم العالم بعد الحرب كانت خاطئة. فبدلا من تنافس القُوى، كانت الدول الأوروبية، بما فيها بريطانيا، تريد حماية أمنها ومصالح الرأسمالية العالمية من الولايات المتحدة، وكان عسيرًا على الزعماء السوفيت أن يروا هذا العالم الرأسمالي الجديد أحادي القطب. لم يكن ذلك يتفق مع أي خريطة ماركسية قُدمت أثناء الحرب، وكان لابد من شرحها باعتبارها ظاهرة مؤقتة، سببها حاجة الرأسماليين بأوروبا الغربية إلى استيراد رأس المال والتكنولوجيا الأمريكيين، واتضح لستالين أن عالمًا تحكمه الولايات المتحدة سوف يمثل خطورة أشد على الاتحاد السوفيتي من نظام يمكن فيه إغراء القوى الإمـبريالية ضد بعضها البعض. واعتقد ستالين أن ظهور الهيمنة الرأسمالية معناه أن هناك استراتيـجية مدبرة لخنق الدولة الاشتراكية.

كان فرض النظم الشيوعية فى دول أوروبا الشرقية الواقعة تحت السيطرة العسكرية السوفيتية بين ١٩٥٤ و ١٩٤٨ استجابة لوجهات النظر الجديدة الأكثر تشاؤما عما يمكن أن يبدو عليه عالم ما بعد الحرب. وفى عمليات شكلت فيما بعد دروسا مهمة فى الفكر السوفيتى عن العالم الثالث، ساعدت موسكو فى وضع استراتيــجيات للسيطرة الشيوعية فى پولندا وتشيكسلوفكيا ورومانيا وبلغاريا، بينما ساعدت على إقامة دولة اشتراكية منفصلة فى ذلك الجزء من ألمانيا الذى احتلته الجيوش السوفيتية. وقد أوضح ستالين للشيوعيين فى أوروبا الشرقية أن خططهم السياسية لن تنجح إلا إذا ساندها الاتحاد السوفيتى وجيشه الأحمر. متشككا فى الخصائص السياسية للزعماء الشيوعيين المحليين، قال ستالين لدائرته الداخلية إن الخطوات السوفيتية تتخذ من أجل الأمان وليس من أجل الثورة الاشتراكية – تماما مثلما حدث فى المقاطعات المجاورة لروسيا بعد ١٩١٧، حين كانت هناك حاجة إلى الشيوعيين والجيش السوفيتى لإرساء النظام، إلى أن يستطيع المجتمع المحلى والحزب البدء فى المسار الثورى الحقيقى – المصمم – طبعًا – وفقًا للنموذج الروسى. فى الوقت نفسه بدأ الشيوعيون المحليون يقيمون دولا جديدة بنفس الأسلوب الذى عرفوه هم ومستشاروهم السوفيت: من خلال الإرهاب والقضاء على المعارضة المستقلة كلها.

لقد أخطأ تغير وجهات النظر فى السياسة الخارجية السوفيتية فى أوروبا فى فترة ما بعد الحرب مباشرة أهدافه فى العالم الثالث أيضا، فى اتجاه دولة مثل تركيا – حيث لم يجد ستالين أى أمل لقيام ثورة بسبب هيمنة القومية البرجوازية التركية فى دولة متعددة الإثنيات – كانت الأهداف السوفيتية تحكمها المصالح الأمنية وعلى رأسها السيطرة على مدخل البحر الأسود؛ وقد وعد ستالين بأن "يدفع بالأتراك إلى

داخل آسيا" وكان بالفعل قد تساءل فى خطاب بليغ فى ١٩٤٠ : "وما تركيا؟ دولة بها مليونا چورچــى ومليون ونصف المليون أرمنى ومليون كردى"[٣٣]. وفى ١٩٤٥ طالب السوفيت بقواعد بحرية فى هرمز و"إعادة ضبط" الحدود فى شرق تركيا. ولما وُوجه ستالين بعزم تركيا أن تدافع عن ممتلكاتها – بدعم من الولايات المتحدة – أدرك فى خريف ١٩٤٦ أن الضغوط المستمرة على أنقرة لن تحقق هدفها. أما الدرس الذى خرج به السوفييت وقتئذ فهو أن القوميين الأتراك كانوا يخططون لإنشاء "كتلة شرقية معادية للسوفيت" كرد فعل "للأزمة السياسية والاقتصادية فى تركيا نفسها واعتمادها بدرجة كبيرة على المساندة الأمريكية سياسيا وعسكريا"[٣٤]. أما أن تكون الأزمة التركية قد ثارت أساسا بفعل السياسات السوفيتية فهو الأمر الذى لم يجد مكانا فى تحليلات موسكو[٣٥].

كما امتدت شهية ستالين للتأثير السوفيتى فى العالم الثالث إلى مستعمرات قوى المحور المهزومة فى كل من أفريقيا وآسيا. واعتقد القادة السوفييت أن تريـــپوليتانيا *Tripolitania* (طرابلس)، النصف الغربى من المستعمرة الإيطالية السابقة ليبيا، هو نقطة ملائمة جدا للتوسع السوفيتى – فهناك "سوف نستطيع أن نقيم دولة قوية فى حوض المتوسط "، حسبما قال "مكسيم ليتڤينوڤ" *Maksim Litvinov* أمام المكتب السياسى *Politburo* فى يونيو ١٩٤٥[٣٦]. ووفقًا لمنظور عن عالم يحكمه التنافس الإمبريالى فيما بعد الحرب، أخبر المفوض السابق للشئون الخارجية القيادة أن "الوجود السوفيتى فى شمال أفريقيا أو شرقها لن يلقى معارضة من قبل الولايات المتحدة؛ بل على عكس، سوف يلقى تشجيعا باعتباره وسيلة لإضعاف النفوذ الإنجليزى"[٣٧]. ومع انحياز الولايات المتحدة إلى بريطانيا لدحض الدعاوى السوفيتية، حمل ستالين على "مولوتوف" *Molotov* أن يوصل إلى اجتماع وزراء خارجية الحلفاء الجملة السخيفة بأن "الحكومة السوفيتية تعتبر مستقبل تريـــپوليتانيا ذا أهمية أساسية بالنسبة للشعب السوفيتى، وأن عليهم أن يؤكدوا مطالبهم ببسط

وصايتهم على هذه المنطقة"[٣٨]. ولكن مرة أخرى، فى أواخر ١٩٤٦، عاد ستالين واستنتج أن وجود دور مباشر له في شمال أفريقيا أمر بدأ يتسرب من يديه بسبب السياسات الأمريكية القوية. وبينما وَجَّه دبلوماسييه لكى يتخلوا عن المطلب السوفيتى، كان يتوقع منهم أن يخبروا البريطانيين والأمريكيين أن "تلك الأيام – التى كان الاتحاد السوفيتى يعتبر نفسه دولة غير مؤثرة فيما يخص جميع أنواع الوصاية على الأرض – قد خلت". ومبررا تراجعه أردف:

ينبغى علينا ألا نكون أكثر يسارية من قادة تلك المناطق. هؤلاء القادة – فى مجملهم – فاسدون ولا يعبأون باستقلال أراضيهم قدر ما يهمهم الحفاظ على المزايا التى يحصلون عليها من سكان هذه الأراضى. ولم يأن الأوان بعد لنا أن نصطدم ببقية العالم – بمن فيهم أولئك القادة الفاسدين أنفسهم – حول مصير تلك المناطق ومستقبلها"[٣٩].

فى إيران – أكبر جيران السوفيت شمالا – ارتبطت مشكلات ستالين بشأن سياسة ما بعد الحرب تجاه العالم الثالث – بمخاطر أكبر كثيرًا من تلك الموجودة بمغامرته الليبية. فى ١٩٤١ احتل الاتحاد السوفيتى – بالاتفاق مع حلفائه الغربيين – الجزء الشمالى من إيران ليبعدها عن سيطرة ألمانيا، بينما أخذت بريطانيا الجزء الجنوبى. فى الوقت نفسه، خطط البريطانيون لخلع الإمبراطور الإيرانى – الشاه – ووضعوا محله ولى العهد الشاب محمد رضا بهلوى ***Mohammad Reza Pahlavi***. وفى داخل إيران – كانت التجربة المريرة عن الاحتلال الأجنبى قد فتحت الباب على مصراعيه للجماعات والأفكار السياسية الجديدة والتى لم تتحد الملكية السلطوية التقليدية فحسب، وإنما تحدت أيضًا الأسس الاجتماعية والدينية لقوة الشاه.

وأصبح حزب الشعب (توده) *Tudeh* الذى يقوده الشيوعيون، هو الجماعة السياسية الأكبر والأفضل تنظيمًا فى البلاد، كما أصبح صوت الحركة المتنامية للاتحادات التجارية الصناعية والزراعية. وبدأ زعماء الأقليات الإثنية - الكرد والعرب والأذريون - يطالبون بالحكم الذاتى أو بالاستقلال. وفى "قم" - المركز الدينى الأساس بإيران - بدأ رجال الدين الشباب ومن ضمنهم روح الله الخومينى - يطالبون بمقاومة القوى الأجنبية وعميلها: الشاه [٤٠].

أشعل الإحساس بالمهانة الوطنية بسبب احتلال القوى الكبرى، المنافسة السياسية فى طهران. وأظهرت انتخابات المجلس القومى فى ١٩٤٣ دعمًا قويًا للمرشحين الليبراليين واليساريين، رغم أن معظم النواب لم يكونوا ينتمون إلى أى حزب. ورغم أن الشاه الشاب نجح بمساعدة بريطانيا فى أن يُعين رؤساء وزراء محافظين على مدى العامين التاليين، فإن المبادرة السياسية فى المجلس ذهبت تدريجيًا للقوميين الليبراليين مثل أحمد قوام ومحمد مصدق.

ورغم أن حزب الشعب (توده) أكد فى رسائله إلى موسكو الأهمية المباشرة للثورة فى إيران، فإن ستالين كان يعارض وجهة النظر هذه بشدة. وكانت مشاغله دفاعية - أن يمنع الإمبرياليين من الوصول إلى مصادر البترول فى شمال طهران، وأن يؤمن معاهدة مع القوميين البرجوازيين اليساريين فى طهران. فى ١٩٤٤ حين أثار المطلب السوفيتى بتخصيص مساحة ٢١٦ ألف كيلو متر مربع فى الشمال من أجل التنقيب عن البترول فى مشروع سوفيتى/إيرانى مشترك - أثار الوطنيين على اختلافهم فى إيران، تحول فكر ستالين إلى استخدام الانفصاليين الإثنيين فى الشمال بدلا من الشيوعيين الإيرانيين للوصول إلى أهدافه[٤١]. تزعم ستالين عرضًا طرحه زعيم الحزب فى أذربيجان السوفيتية، "مير باجيروف" *Mir Bagirov* يوجيه أن "ينظم حركة انفصالية فى جنوب أذربيجان والأقاليم

الأخرى شمالى إيران"، وأن "ينشئ حزبا ديموقراطيا فى جنوب أذربيجان تحت اسم "الحزب الديمقراطى الأذربيجانى" يقوم على أساس إصلاح الفرع الأذرى من حزب الشعب بإيران واجتذاب مناصرى الحركة الانفصالية من جميع طبقات المجتمع"[٤٢]. ربما يكون باچيروف الأذرى الوطنى، قد طمح إلى توحيد أذربيجان السوفيتية والإيرانية، ولكن ستالين كان ينوى أن يستخدم التهديد بالدعم السوفيتى لتفكيك إيران للضغط على البرجوازية الإيرانية لعقد صفقة مع موسكو من أجل البترول والنفوذ[٤٣]. وثارت ثائرة الشيوعيين بطهران وكتبوا لستالين فى سبتمبر ١٩٤٥ "لو أن أعداء الاتحاد السوفيتى قد وضعوا خطة ضده، فلن يكون بوسعهم أن يخترعوا ما هو أفضل مما يحدث الآن"[٤٤].

لكن ذلك لم يثبط من عزم ستالين وباچيروف. فطوال عام ١٩٤٥ وأوائل عام ١٩٤٦ واصل السوفيت التوجيه والبناء لنظام الحكم الذاتى فى أذربيجان الإيرانية، قاعدته فى تبريز، بينما راحوا يحذرون توده ضد أى محاولات للقيام بثورة[٤٥]. حتى فى أذربيجان والمناطق الكردية – حيث قام السوفييت بدعم الحزب الديمقراطى الكردستانى ***The Democratic Party of Kurdistan*** – وحذر باچيروف رفاقه جنوب الحدود: "لقد أخبرتكم مرارا أننا لا نريد أن نشعل حربا أهلية أو صراعا طبقيا بين الأذريين. جميع القوى... لابد أن تستخدم ضد من يعوقون معركتنا من أجل استقلال أذربيجان وشمال كردستان"[٤٦]. وقد أعجب السوفيت إلى حد ما بالنظام الوطنى الكردى فى ماهاباد أكثر مما أعجبوا بالاشتراكيين فى بيشفارى وخاصة لأن رئيس الحزب الديمقراطى الكردستانى قاضى محمد – وهو قاض إسلامى مثقف متفتح العقل – أدرك أن استخدام الشعارات الأصولية سوف يساعد على جذب المساندة السوفيتية، وحصل على مساعدة الأكراد الذين درسوا فى طهران لكى يضعوا قائمة للاستخدام الرسمى[٤٧].

بدأت النخبة الإيرانية تدرك فى أوائل عام ١٩٤٦ أن هناك خطرًا حقيقيًا من أن تقسم دولتهم، وأنه قد يكون هناك صراع عسكرى وشيك مع الاتحاد السوفيتى. ولجأ المجلس إلى تعيين أحمد قاوام رئيسًا للوزراء، وهو مالك أراض ثرى يبلغ من العمر ٧٦ عامًا من شمالى إيران ذو تاريخ فى الأصولية السياسية. كان قاوام يريد أن يصلح السياسة والشئون الاجتماعية فى إيران وأن يهزم التحديات الموجهة إليه من الانفصاليين فى الشمال ومن توده ومن اليمين الملكى. وقد كرهه البريطانيون حيث كان قد اصطدم بهم فى عدة مواقف أثناء عمله السياسى الطويل، كما أنه لم يكن موضع ثقة من الأمريكيين الذين رأوا فيه سياسيًا متقلبًا متآمرًا من طراز قديم[٤٨]. أما الروس فقد رأوه "برجوازيًا ديمقراطيًا ووطنيًا"، يدرك أنه لابد من أن يبحث عن الدعم لخططه الإصلاحية إما من الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى. وقد علقت موسكو أن قاوام يريد حلا وسطا لصفقات البترول السوفيتية وقد يساند - "الإصلاحات" فى أذربيجان، لكنه إذا منح الحكم الذاتى للأذربين فلن يبقى فى السلطة[٤٩].

أظهرت المفاوضات السوفيتية الإيرانية فى فبراير ومارس حدود منهج ستالين بالنسبة للعالم الثالث. أراد ستالين ووزير خارجيته مولوتوف ***Molotov*** أن يوافق قاوام على صفقات البترول - مع سلسلة من "الحقوق" ذات الصلة - ونوع من الحكم الذاتى للأذربين. وكأن أيًا من هذه الإجراءات سيعطى موسكو السيطرة على شمال إيران، وهو الأمر الذى ترك مولوتوف حرًا فى "مرونته" بالنسبة لمسألة أذربيجان. وقد رأى مولوتوف أنه بالإمكان إيجاد نوع من الحل الوسط، حيث يمكن الإبقاء على قوة عسكرية وسياسية فى الشمال مع حكومة طهران. بيشفارى ***Pishevari*** "قد يمرض أو يموت"[٥٠]. ولكن حل مسألة أذربيجان ووجود جدول زمنى لانسحاب القوات السوفيتية، كلاهما يعتمد على منح قاوام لموسكو الصفقات الاقتصادية التى أرادها ستالين[٥١].

لم يتقبل "قاوام" منطق ستالين ومولوتوف للحرب الباردة، واقترح حلا وسطا – في مقابل الالتزام السوفيتي بالانسحاب – يقترح على المجلس حكما ذاتيا محدودًا للأذريين، ومحادثات كاملة مع موسكو عن العلاقات السياسية والاقتصادية. ولكن مولوتوف لم يقتنع. قال إن "الحكومة السوفيتية تريد أن تسهل مسألة البترول"، ولو لم يكن قاوام في موقف يسمح له بمنح امتيازات البترول فسوف يناقش السوفييت هذه القضية مع حكومة تبريز(٥٢). ثم قدم مولوتوف مقترحاته الشخصية: خطة حكم ذاتي محدود لأذربيجان – التي كانت تعبيرًا واضحا عن عدم اكتراث موسكو بمصير نظام بيشفاري برمته – وبداية المفاوضات بين إيران والاتحاد السوفيتي حول امتياز في شمال إيران لصالح شركة مشتركة لتنقيب البترول وإنتاجه، تملك موسكو ٥١% منها. وكتب مولوتوف: "سوف تنسحب الجيوش السوفيتية تماما من إيران حالما تزيل الحكومة الإيرانية جميع الإجراءات العدائية والعنصرية في علاقتها مع الاتحاد السوفيتي، وتنشئ شروطا سلمية في شمال إيران وتضع سياسة صداقة مع الاتحاد السوفيتي" (٥٣).

ولا عجب مع وجود مثل هذه المطالب وهذه الاستراتيــجية للتفاوض أن يستدير "قاوام" نحو الأمريكيين طلبا للمساعدة وللخداع أو البراعة الدبلوماسية لبعض الوقت. وعندما زاد ضغط الولايات المتحدة على السوفييت من أجل انسحاب الجيش الأحمر من شمال إيران، وعد رئيس الوزراء الإيراني ستالين بإبرام معاهدة بشأن امتيازات البترول لتسهيل الانسحاب السوفيتي. كذلك أشرك ثلاثة من أعضاء حزب توده في حكومته الجديدة بعد أن غادر آخر الجنود السوفيت في أواخر مايو ١٩٤٦. ولما واجه ستالين الغرب، وقد ظل يعتقد أن قاوام والقوميين البرجوازيين لابد أن يعقدوا اتفاقا مع موسكو لدرء الضغوط الغربية، قرر أن يسقط النظام الانفصالي الأذربيجاني، مما أوهن عزم القيادة في تبريز. وكما أخبر بيشفاري باجيروف في اجتماع سري في أبريل ١٩٤٦:

أما وقد قلبنا علينا حكومة الشاه فليس باستطاعتنا أن نقدم لها فروض الطاعة...أيا كانت رغبتى فى فعل هذا الشىء فإنى لن أفعله. إننى على استعداد أن أموت فى ميدان المعركة من أجل الشعب ولكنى لا أستطيع أن أبيعه.... بمساعدتكم سرنا نحن الديمقراطيين والقادة فى طريق انتهاك دستور إيران وكسره وتكذيبه..... وبعد كل ذلك كيف لقاوام أن يسامحنا؟ وحتى فى أثناء عملنا...كانت هناك لحظات ساورتنى الشكوك فيكم وما إذا كنتم سوف تستمرون فى مساعدتنا حتى النهاية.... والآن لم أعد أصدقكم مطلقا. أكرر، رفاقى، أنا لم أعد أصدقكم على الإطلاق[٥٤].

لكن ستالين لم يسمح لزعماء الأذريين أن يسقطوا بدون أن يلقى عليهم محاضرة أخيرة عن الماركسية وكتب فى مايو ١٩٤٦ لبيشفارى:

إنك تريد أن تحاكى لينين [بالدعوة إلى الثورة]. وهو أمر حسن وجدير بالثناء، بيد أن الموقف فى إيران اليوم مختلف تماما. فليس هناك أزمة ثورية عنيفة فى إيران. هناك القليل من العمال وليسوا منظمين تنظيما جيدا...وقد قررنا أن نسحب الجيوش من إيران والصين، لكى نأخذ هذه الأداة من أيدى البريطانيين والأمريكيين ونطلق العنان لحركة التحرر فى المستعمرات، ومن ثم نجعل سياستنا التحررية أكثر كفاءة وتبريرًا.

وأكد ستالين أن قاوام بقى برجوازيا تقدميا. فينبغى أن يكون الهدف الشيوعى في تبريز وطهران وموسكو "انتزاع الامتيازات من قاوام وتدعيمه وعزل الناطقين بالإنجليزية"(٥٥). ولكن بالقرب من نهاية عام ١٩٤٦ استعادت جيوش الشاه جميع المناطق الشرقية، حيث أوقعوا انتقامًا فظيعًا على الانفصاليين الأكراد والأذريين. وعلى نحو مريح لستالين، توفي جعفر بيشفارى فى حادث سيارة بعد أن هرب إلى الاتحاد السوفيتى. أما وقد ذهب كل من النظام الأذرى والجيش الأحمر فى ١٩٤٧، فلم يجد المجلس سببا فى التصديق على معاهدة البترول السوفيتية. وأُخرج الشيوعيون عنوة من حكومة طهران، وفصل الشاه أحمد قاوام فى ديسمبر ١٩٤٧. وبعد ذلك بعامين تم حظر الحزب الشيوعى (توده) وسيق زعماؤه إلى المنفى أو إلى تحت الأرض، إذ راح الشاه يقترب من الولايات المتحدة.

لقد ساعدت أفعال ستالين فى إيران، والنظرة الديماجوجية للتنمية الاجتماعية والسياسية التى قامت عليها، على هزيمة اليسار الإيرانى. ورغم أن مناقشة وجهات نظر الزعيم مناقشة مفتوحة فى الحزب السوفيتى كانت أمرًا انتحاريًا، فإننا نعرف أن بعض الزعماء فى موسكو وباكو كانت تساورهم الشكوك بشأن نتائج سياسات ستالين، وتساءلوا إن كان الاتحاد السوفيتى يمكنه أن يكون أفضل فى منافسته مع القوى الإمـــبريالية. ولكن بالنسبة للغالبية العظمى من المسئولين السوفييت، كانت المشكلة الإيرانية نتاج سياسات الغرب العدوانية ضد الاتحاد السوفيتى وضد الاشتراكية. وقد ورد فى أحد التقارير المخابراتية أنه "فى كل مناطق الشرق الأدنى والأوسط يمكن ملاحظة النشاط الأمريكى المكثف، ومنها نبعت رائحة البترول والقواعد العسكرية البحرية والجوية والاستعداد لحرب عدوانية. وخلف الأحاديث عن القروض الدولارية و"المساعدات الطارئة" والأنشطة المقننة للعسكريين والمدنيين – خلف ذلك كله يتخفى التوغل المتزايد للإمبريالية الأمريكية فى هذه الدول بهدف تحويلها إلى منصات إطلاق عسكرية استراتيجية" (٥٦).

كانت الصين – لعنة ستالين القديمة – هى الدولة الكبرى الوحيدة فى العالم الثالث المتاخمة للاتحاد السوفيتى حيث لم يغامر الزعيم بتحطيم وجهات نظر الشيوعيين المحليين من أجل الأمن السوفيتى. والسبب الأساسى فى نجاح الشيوعيين الصينيين فيما فشل فيه الإيرانيون، كان عزم ماوتسى تونج ألا يخاطر بمستقبل حزبه باتباع كل التعليمات الصادرة عن موسكو. وفى حين كان ماو مقتنعًا بعبقرية ستالين الاستراتيجية وبالحاجة إلى محاكاة التجربة السوفيتية فى الصين على نحو ملموس، فإنه اختار أن يتجاهل أوامر رئيسه بإقامة سلام مع القوميين الصينيين والحزب القومى الصينى (***Guomindang***) ***Chinese Nationalist Party*** ***GMD*** بزعامة شيانج كاى شيك ***Chiang Kai-shek*** بعد أن هاجم الأخير القوات الشيوعية فى ١٩٤٦. وكما فى إيران، حاول ستالين أن يتفاوض بشأن اتفاقية مع الحكومة القومية فى الصين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بهدف إبعاد النفوذ الإمبريالى وتأمين السيطرة السوفيتية على مناطق الحدود، لكن – كما فى إيران – استدارت الحكومة إلى الولايات المتحدة لتنجح فى مقاومة الضغوط السوفيتية. لكن – بخلاف حكومتى تركيا وإيران – كان نظام شيانج فى الصين قد أضعفته الحرب، ولكى يجعل الأمور أسوأ راح يحارب جميع أعدائه فى الداخل دفعة واحدة فى فترة ما بعد الحرب. ونتيجة لذلك استطاع الشيوعيون أن يجتازوا الهجوم العسكرى الضارى الأول، بل استطاعوا أن يحولوا الموقف على أرض المعركة لمصلحتهم. فى ١٩٤٨، حين اتضح أن حزب القوميين الصينيين ***Guomindang*** لن يستطيع هزيمة قوات ماو وأن الأمريكيين لا يرغبون فى تخليص حكومة شيانج من مأزقها الاقتصادى والعسكرى، بدأ ستالين برنامجًا مهمًا لدعم الشيوعيين الصينيين. وعندما انكسرت جيوش الجوميندانج بدت الشيوعية أخيرًا قادرة على التقدم نحو العالم الثالث.

ولكن حتى فى انتصاره، كان تمسك ستالين الديماجوجى بالأنماط الماركسية للتنمية يظهر بوضوح. فى ١٩٤٨ - ١٩٤٩، حين كانت قوات ماو تعد العدة للاندفاعة الأخيرة نحو الجنوب، حذر ستالين الشيوعيين الصينيين ألا يضعوا الاشتراكية على أجندتهم:

> **بعض النواب من أحزاب [المعارضة] لابد من إشراكهم فى الحكومة الديمقراطية للصين الشعبية ومن ثم يجب إعلان مثل هذه الحكومة ائتلافا... ولابد من أن يوضع فى الاعتبار أنه بعد انتصار جيوش التحرير الشعبية فى الصين - على الأقل فى فترة ما بعد الانتصار التى قد يصعب تحديدها الآن - ستكون الحكومة الصينية حكومة وطنية ثورية - ديمقراطية وليس حكومة شيوعية - من حيث السياسة. وهذا يعنى أن تأميم الأراضى وإلغاء الملكية الخاصة للأراضى ومصادرة الملكيات من الجميع، كبارًا وصغارًا؛ برجوازيين صناعيين أو تجاريين؛ من ملاك الأراضى الكبار والمتوسطين والصغار الذين يعيشون مع العمال المستأجرين - لا يمكن أن توضع موضع تنفيذ بعد[٤٧].**

وحتى أثناء زيارة ماوتسى تونج المنتصر لموسكو فى ١٩٤٩- ١٩٥٠، أصر ستالين أن يعامل الشيوعيين الصينيين باعتبارهم ممثلى "حكومة قومية ثورية- ديمقراطية أكثر منها حكومة شيوعية". وفى تشككه من إمكانية تطبيق الزعامة الشيوعية فى بكين على المدى البعيد، كان هدف ستالين أن يحصل على معاهدة تفيد الأمن السوفيتى، وليس تحالفا بين دولتين تحت الزعامة الشيوعية. احتاج الأمر

إلى تدخُل منسق وشجاع من مستشاريه لإقناعه أن يمنح الصينيين شيئًا من الاعتراف بهم ثوارًا من رأس الحركة الشيوعية في العالم. لكن حتى بعد توقيع المعاهدة الصينية السوفيتية للصداقة والتحالف والمساعدات المتبادلة ***Sino-Soviet Treaty of Friendship, Alliance and Mutual Assistance***، في ١٤ فبراير عام ١٩٥٠، ظل ستالين يحتفظ بشكوكه في مصداقية الزعماء الشيوعيين الصينيين. وراح يقول لزمرته إنهم لو كانوا شيوعيين حقيقيين ما بقوا طويلا في السلطة في بلد على مستوى الصين من التطور. ولو بدت حكومة بكين في أمان، فذلك في حد ذاته دليل على طابعها غير الماركسي.

كانت الحرب الكورية، مغامرة ستالين الأخيرة في العالم الثالث، دليلا على مدى انحدار الرئيس في طريق الرطانة النظرية في سنواته الأخيرة. كان يرى أن الاشتراكية في الجزء الشمالي من كوريا غير قابلة للتطبيق على المدى البعيد، رغم أن الجمهورية الشعبية الديمقراطية الكورية تحت حكم "كيم إيل سانج" ***Kim Il Sung*** تجاور الاتحاد السوفيتي وتأخذ منه المساعدات، فأعلن في بداية عام ١٩٥٠ أن "الجنوب يعتزم البدء في هجوم على الشمال إن آجلا أو عاجلا، ومن المهم منع هذا الاعتداء"؛ وقد أعطى ستالين لـ"كيم" إشارة البدء بالهجوم على النظام الذي تدعمه الولايات المتحدة في كوريا الجنوبية، كما أشار إلى "تقوية المعسكر الاشتراكي في الشرق: انتصار الثورة الصينية، توقيع التحالف بين الاتحاد السوفيتي وجمهورية كوريا الشعبية، وامتلاك الاتحاد السوفيتي للقنبلة الذرية"، وكذلك "الضعف الملحوظ للمعسكر الرجعي: الهزيمة المخزية للتدخل الأمريكي في الشئون الصينية ومشكلات الغرب في الجنوب الشرقي من آسيا، وعدم قدرة النظام في كوريا الجنوبية وحكامه الأمريكيين على تحسين الموقف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كوريا الجنوبية". كما أن المساندة غير المباشرة لحرب "كيم"، كانت تعني بالنسبة لستالين أسلوبًا للانتقام من "السلوك غير الأمين والغادر والمتعجرف

للولايات المتحدة فى أوروبا والبلقان والشرق الأوسط وخاصة قرارها تكوين حلف شمال الأطلنطى "*NATO*"[٥٨].

كان التشاؤم، وليس التفاؤل، حول مستقبل الثورة الكورية هو ما دفع ستالين أن يقبل خطة كيم لإعادة الوحدة عن طريق القوة العسكرية؛ وكما أدرك الكثير من الشيوعيين المسئولين عن السياسة الخارجية السوفيتية، فقد أظهرت الحرب الكورية أن ستالين لم يكن لديه أى أمل فى أن العمليات الاجتماعية فى العالم الثالث وحدها سوف تقود نحو الاشتراكية. حتى فى أفضل الظروف الجغرافية والسياسية – مثل تلك الموجودة فى كوريا الشمالية – فإن الهدف الأساسى للشيوعية فى العالم الثالث ينبغى أن يكون خدمة الأغراض السوفيتية فى الحرب العالمية الباردة، لأن الظروف المطلوب توافرها لديهم لكى يستطيعوا تحقيق تحول اجتماعى ناجح ضئيلة للغاية وكأنها غير موجودة. وكأنما ستالين – وقد بدأ الصعود نحو الاشتراكية فى إحدى الدول – أطاح بالسلم عن عمد لكى تتبعه بقية الدول.

إعادة اكتشاف السوفييت للعالم الثالث (١٩٥٥– ١٩٦٠)

كانت آخر تعليقات ستالين المتعمقة عن مشكلات العالم الثالث فى تعليماته السرية للحزب الشيوعى الإندونيسى ***Indonesian Communist Party (PKI)*** بدءًا من يناير ١٩٥١. فبعد أن انتقد ستالين الحزب الإندونيسى بسبب "يساريته" أثناء التمرد الفاشل فى ١٩٤٨ ضد حركة الاستقلال الوطنى بزعامة "سوكارنو" ***Sukarno***، وأثناء إعادة الإنشاء التدريجية التى تلت ذلك تحت الوصاية الصينية، راح يبين استحالة الثورة الشيوعية الإندونيسية، وأن حتى اتباع النمط الصينى لن يفلح:

أخيرًا وجدوا [أى الصينيون] مخرجًا، عندما تحركوا نحو "منشوريا" ووجدوا [قاعدة] قوية فى الدولة السوفيتية الصديقة. وبعد أن استطاع الرفاق الصينيون أن يجدوا القاعدة الصلبة فى "منشوريا" وبدأوا يستندون إلى الاتحاد السوفيتى، بدأ العدو يفقد فرصته فى محاصرتهم ووجد الشيوعيون الصينيون فرصة فى إشعال هجوم مخطط ضد جيش "شيانج كاى شيك" من الشمال إلى الجنوب. فهل نفترض أن الرفاق الإندونيسيين – بعد أن اكتسبوا مساحة حررتها العصابات – ستكون لديهم الفرصة، كما فعل الرفاق الصينيون، أن يستندوا إلى حدود وإلى قاعدة خاصة بهم ومن ثم يحرمون العدو فرصة أن يطوقهم؟ لا، لا نستطيع أن نقول ذلك. فإندونيسيا عبارة عن مجموعة من الجزر تحيطها البحار ولن يستطيع الرفاق الإندونيسيون أن يستندوا إلى أى شيء[٥٩].

بدت خطة ستالين للعالم الثالث – بالنسبة للشيوعيين السوفييت الذين تسلموا السلطة بعد وفاته فى مارس ١٩٥٣ – هزيمة للنفس. ورغم الخلافات الجدية حول مستقبل الاشتراكية، فقد اتفق الجميع على إنهاء التدخل المسلح، كالذى فى كوريا، وعلى تأكيد العلاقات بين الحكومات التى يمكن بناؤها ليس مع النظم الاشتراكية المعلنة – مثل الصين – فحسب؛ وإنما مع النظم الراديكالية البرجوازية ("الجاكوبيين" *"Jacobins"* وفقًا لمصطلح الكومنتيرن) أيضًا؛ مثل نظام سوكارنو فى إندونيسيا وجمال عبد الناصر فى مصر ونهرو فى الصين. وقد أكد الزعيم

الجديد للحزب " نيكيتا سيرغيفيش كريشوف (خروشوف)" *Nikita Khrushchev* (بالروسية: *Ники́та Серге́евич Хрущёв*) سياساته الجديدة بالقيام برحلة إلى بكين في ١٩٥٤ وكانت هي زيارته الكبرى الأولى للخارج، وبقيامه بالسفر إلى الهند وبورما وأفغانستان في العام التالي. وأثناء زيارة السكرتير الأول الجديد للحزب الشيوعي السوفيتي (الذي أعيد تسميته ليصبح الحزب الشيوعي السوفيتي *Communist Party of the Soviet Union (CPSU)* في ١٩٥٢) أكد الرغبة السوفيتية في التعاون مع "التنمية الوطنية" للدول غير الاشتراكية في العالم الثالث في الأمور الاقتصادية والعسكرية. وذكر السوفييت أن العدو المشترك هو الاستعمار والإمـبريالية على المستوى العالمي.

بالنسبة لخروشوف – وهو ابن فلاح ذكي غير متعلم، شق طريقه إلى أعلى عبر منحدر الستالينية الزلق بحماسته غير المحدودة للعمل الشاق – كانت زيارة الهند هي مجرد البداية لحملة أوسع لكسب النفوذ في العالم الثالث. وحين أحكم قبضته على السلطة في الدولة السوفيتية، هاجم خروشوف سياسات ستالين نحو آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في اتجاهين مختلفين. فالزعيم ستالين قد أهمل العالم الثالث بتركيزه الضيق على الحركات الوطنية البرجوازية التي كانت تسعى بنفسها إلى الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي، وبعدم محاولته "بنشاط" أن يكوِّن علاقات مع دول أخرى. ومن ناحية أخرى فشل ستالين أن يرى أن الانتقال إلى الاشتراكية قد يأخذ أشكالا مختلفة، وأن أحزاب العمال في العالم الثالث تحتاج إلى مساعدة أكبر، حتى وإن لم تكن لدى بعض هذه الأحزاب الفرصة لاكتساب سلطة خاصة بها على المدى القصير؛ وكان خوف خروشوف الشديد هو أن سياسات ستالين قد جعلت الاتحاد السوفيتي لا يلحق بالقطار المغادر بعيدا عن الإمبراطوريات الاستعمارية نحو إقامة دول مستقلة. في المؤتمر العشرين للحزب

الشيوعى، ١٩٥٦، أعلن خروشوف– بعد أن أدان بقوة السلوك العام لستالين باعتباره "وضيعًا" و"وحشيًا" و"إرهابيًا" – أن

> **الفترة الجديدة التى توقعها لينين فى تاريخ العالم، عندما تساهم شعوب الشرق مساهمة نشطة فى ترتيب أقدار العالم بأسره وتصبح عنصرًا جديدًا وقويًا فى العلاقات الدولية قد جاءت.... ولكى تخلق اقتصادًا وطنيًا مستقلا وترفع من المستويات المعيشية لشعوبها فإن هذه الدول – رغم أنها ليست جزءًا من النظام الاشتراكى العالمى – تستطيع الاستفادة من إنجازات هذا النظام. وليست الآن بحاجة إلى أن تتسول الآلات والمعدات الحديثة من هؤلاء الذين قمعوها فى السابق؛ فبوسعها أن تحصل على هذه الأدوات من الدول الاشتراكية(٦٠).**

والمعهود فى نظام خروشوف أن القيادة الجديدة – بينما تدين ستالين – كانت عاجزة عن أن تبتعد عن التزمت فى الرأى الذى غرسه الزعيم ستالين فى الأيديولوجية السوفيتية وورثها إياه. كان ذلك يعنى بالنسبة لسياسات العالم الثالث أن التفكير الضيق بشأن "مراحل التطور" لازال موجودًا، شأن المركزية السوفيتية فى آراء موسكو عن العالم الخارجى. أما ما طاله التحسن فعلا فهو المعرفة السوفيتية بالعالم الثالث من خلال تنقيح كامل للمؤسسات التى توفر المعلومات التى تتصرف على أساسها القيادة. وأعلن معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم، فى نقده لنفسه بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى، أن عمله "قد أضير بشدة بالفشل فى فهم طبيعة المتناقضات الموجودة بين قوى الإمبريالية وعمق تلك

المتناقضات ورد الفعل الداخلي من ناحية، والمتناقضات فى التقدم القومي في الدول الشرقية غير الاشتراكية من ناحية أخرى[٦١]. وامتد عمل المعهد، وأنشئت معاهد جديدة لدراسة أفريقيا وأمريكا اللاتينية في ١٩٦٠ و١٩٦١ على التوالى. وأعيد ترتيب الخدمات المخابراتية السوفيتية وتم إعطاء كل من اللجنة الأمنية للدولة (*Komitet Gosudarstvennoi Bezopasnosti, KGB*) *Committee for State Security* (***Комитет государственной безопасности***) والمخابرات العسكرية (إدارة المخابرات الرئيسية *Chief Intelligence Directorate of the General Staff* ***Гла́вное Разве́дывательное***) (*Glavnoie Razvedivatelnoie Upravleniie*) ***Управле́ние***)- تم إعطاؤها مذكرات جغرافية تخص جمع المعلومات عن العالم الثالث. والأهم من هذا وذاك، أن اللجنة المركزية أعادت ترتيب عملها الدولى، وأنشأت إدارتين جديدتين: الإدارة الدولية (*Mezhdunarodnyi otdel, MO*) وإدارة العلاقات مع الأحزاب الشيوعية والعمالية بالدول الاشتراكية (والتى سميت فيما بعد إدارة العلاقات الدولية). وكلتا الإدارتين كانتا تحت سلطة عضو الكومنتيرن المخضرم " بوريس بونوماريف" ***Boris Ponomarev*** الذى كان أيضا عضوا فى السكرتارية[٦٢].

من بين جميع المهام الكبرى التى أرادها خروشوف للاتحاد السوفيتى فى العالم الثالث، كان بناء التحالف مع الصين هو الأشد أهمية. ليس السكرتير الأول فحسب وإنما كل قيادة الحزب كانت مقتنعة بأن التحول الاشتراكى لأكبر دولة من حيث عدد سكانها هى مهمة لابد للاتحاذ السوفيتى من أن ينخرط فيها - فهذا ليس من شأنه أن يؤكد نظرتهم الماركسية العالمية فحسب، وإنما يؤكد المركزية العالمية للتجربة السوفيتية فى بناء الاشتراكية. كان برنامج المساعدات الذى تم تفعيله وفقا لمعاهدة الصداقة الصينية السوفيتية جزءا من مشروع مارشال الخاص بالاتحاد السوفيتى - ففى مايو ١٩٥٣، أى بعد شهرين من وفاة ستالين، وافقت موسكو أن

تزيد مساعداتها إلى الصين سبعة أضعاف فى عامين، ووصلت التكلفة الكلية للمشروع فى ١٩٦٠ إلى حوالى عشرين مليار روبل فى أسعار التصدير، ما قدره المؤرخ "سيرجى جونشارينكو" ***Sergei Goncharenko*** بنحو سبعة بالمائة من الدخل القومى السوفيتى فى تلك الفترة. كانت محاولة مكثفة لدمغ الصين بالاشتراكية السوفيتية – فى كل إدارة من أى وزارة؛ فى كل مصنع كبير، فى كل مدينة، جيش أو جامعة، كان هناك مستشارون أو متخصصون أو خبراء سوفيت، يحاولون العمل مع الصينيين لـ"تحديث" دولتهم والاتجاه بمجتمعهم نحو الاشتراكية. وقد غيرت إنجازاتهم الاقتصاد الصينى إلى الأبد؛ وما لم يدركه الخبراء السوفيت ورفاقهم الصينيون آنذاك هو أن تلك الإنجازات قد وضعت أسس الثورة الرأسمالية الصينية التى وقعت فى الثمانينيات والتسعينيات(٦٣).

ونتيجة التعاون اللصيق المتزايد، كان خروشوف يرى مجتمعًا اشتراكيًا عالميًا مستقبليًا – مركزه الاتحاد السوفيتى – يضاهى الكثير من الأعمال الموجودة بالاقتصاد العالمى الرأسمالى (باستثناء الرأسمالية طبعا). فشبكات التوزيع العالمية سوف تقدم خطوط إنتاج محددة وموحدة من برلين إلى شنغهاى؛ وسوف تتقاسم الدول الاشتراكية الأبحاث والتدريب فيما بينها، كما ستتقاسم الابتكارات الجديدة فى التكنولوجيا والدفاع والتخطيط وسيتم تحديد المسائل الأيديولوجية فى مؤتمرات دولية. لكن المشكلة فى حالة الصين، هى أن تقبل النموذج السوفيتى – وهو أساس مشروع خروشوف – قد بدأ بشأنه جدال كبير فى أواخر الخمسينيات. كان ماوتسى تونج يريد اشتراكية "أكثر وأسرع وأفضل وأرخص"؛ وعندما قام بوضع خطة "القفزة الكبرى للأمام" (***The Great Leap Forward***) فى ١٩٥٨، كان ذلك ابتعادًا تامًا وحاسمًا عن النصائح السوفيتية بتوخى الحذر والعمل وفقًا لمراحل. وفى الوقت نفسه، وبسبب صراعها مع الهند ونقدها لحالة التهدئة بين الاتحاد السوفيتى

والولايات المتحدة، انفصلت الصين عن المفهوم الرئيسى القائل بأن موسكو هى التى تحرك "المعسكر الاشتراكى" فى العلاقات الدولية.

فى ١٩٥٩ كانت العلاقات الصينية السوفيتية فى أزمة. وكان للدبلوماسية الشخصية التى انخرط فيها خروشوف عندما زار بكين أثر ضئيل. فقد رأى ماوتسى تونج أن الشعار السوفيتى "التنافس السلمى" مع الغرب خيانة طبقية؛ وأن سياسات التحالف بين موسكو والأنظمة غير الاشتراكية فى العالم الثالث موجهة ضد الصين. حاول خروشوف أن يدافع عن منهجه الجديد باعتباره تكتيكا فقال: نهرو قد يلجأ إلى الولايات المتحدة. إنه من رفاق السفر الذى قد يأتى معنا لو اقتضت مصلحته. وعندما ساعدنا عبد الناصر كنا نعرف أنه قد ينقلب علينا، ولو لم نعطه هذا العون لكان انتهى به الأمر فى أحضان أمريكا[٦٤]. ولكن ماو لم يهدأ، وفى صيف ١٩٦٠ كان رد فعل خروشوف على الانتقادات المزعجة المستمرة الآتية من بكين أن سحب فجأة معظم الخبراء السوفيت من جمهورية الصين الشعبية. وفشل خروشوف ومن يعملون معه فى أن يفهموا أن القضية الحقيقية بالنسبة لماوتسى تونج كانت هى مستقبل الثورة الصينية، فلو أن الصين طبقت نصيحة السوفيت، لما كان التقدم السريع نحو الاشتراكية التى كان ماو يتخيلها ممكنًا. وفى عام ١٩٦٢ نعت خروشوف الصينيين بأنهم فلاحون مهملون وناكرو جميل ومتعصبون، ورغم أن البقايا الأخيرة للتحالف لم تنته حتى ١٩٦٥، فإن الجدال الساخن على الملأ بين موسكو والصين أقنع السوفيت بما ستجلبه لهم المواجهات مع الاشتراكية الصينية من مشكلات فى المستقبل.

قدمت الصعوبات مع الصين للقادة السوفيت قضايا أمنية جديدة وتنافسًا متزايدًا على النفوذ فى العالم الثالث. كما وجهت لهم تحديًا كبيرًا لأيديولوجيا السياسة الخارجية السوفيتية. لقد أُثنى على العلاقة مع الصين باعتبارها دليلا على

إمكانية تطبيق الاشتراكية فى العالم الثالث، وحتى ١٩٥٨ كان الخبراء الصينيون قد ساعدوا جمهورية الصين الشعبية حتى شمالى فيتنام وشمالى الكوريتين باعتبار ذلك التطبيق الأمثل للنظرية السياسية الماركسية فى الدول "الشرقية". وعندما بدأ التحالف يتصدع، كان على موسكو أن تفسر الخطأ الذى وقع وأن تتبين الطريق الآتى. فمن ناحية، قيل إن تحطم المكاسب التى حصلت عليها الصين كان يرجع إلى خطأ فى تفكير "عصابة ماو" التى صعدت إلى السلطة بسبب افتقار الحزب الصينى إلى "التجربة الـبروليتارية". ومن ناحية أخرى، دفعت خيبة الأمل الشديدة والفشل الذريع غير المبرر العديد من القادة السوفيت إلى وضع تفسيرات عنصرية: فالمجهود السوفيتى فى الصين قد فشل بسبب المراوغة والأنانية الفطرية الموروثة لدى الصينيين.

تمامًا مثل الولايات المتحدة فى الخمسينيات، لم يبذل الاتحاد السوفيتى فى الستينيات أية محاولات للتعلم من أخطائه فى الصين. بل على العكس، أصبح التحالف السابق منطقة محرمة بالنسبة للسياسة الخارجية السوفيتية، نادرًا ما تمس فى النقاش الرسمى أو غير الرسمى. بل أصبح المستشارون الكثر – الذين خدموا فى الصين والذين كان يمكن لخبرتهم أن تفيد السياسة الخارجية السوفيتية فيما يخص العالم الثالث – هم "الجيل الضائع" فى الشئون الخارجية؛ إذ نادرًا ما سُمح لهم بالاقتراب من أى شكل من أشكال العلاقات الدولية ثانية. كان المسئولون عن تطبيق ما تصوره خروشوف محاولة كاملة المعالم للتنافس مع الولايات المتحدة فى الدول حديثة التحرر فى أفريقيا وآسيا من الشباب أصحاب الخبرة الضئيلة جدًا فى الخارج. *ولم تكن* التجربة الصينية هى المرجع لديهم، بل كان المرجع هو النجاحات التى حققها الاتحاد السوفيتى فى التكنولوجيا والإنتاج فى الخمسينيات. كانت الحداثة السوفيتية هى الوسيلة إلى اجتذاب الناس نحو الشيوعية فى الخارج، كما كانت الاشتراكية – وهى خالية من القيود التى وضعها ستالين – تظهر قدراتها

الإنتاجية كاملة. المشروعان اللذان أشعلا الحماسة السوفيتية لمساعدة العالم الثالث كانا حملة الأرض العذراء وبرنامج الفضاء؛ وقد بدأت محاولة زراعة ٣٢ مليون فدانًا من الأراضي البكر في كازاخستان وجنوب غربي سيبريا في ١٩٥٤ علامة على بداية مرحلة من النمو الجديد المكثف التي زعم الاتحاد السوفيتي أنه دخلها. وزعمت قيادة كازاخستان، باستخدامها كميات كبيرة من الري والمخصبات الكيمائية لزراعة المساحات الجرداء، أنها قد صممت طرقًا جديدة لزيادة الإنتاج الغذائي. وكان انطلاق أول سفينة فضاء، "سبوتنيك" ***Sputnik*** في ١٩٥٧، وصعود أول إنسان إلى الفضاء "يوري جاجارين" ***Iurii Gagarin*** في ١٩٦١، قد أقنع معظم السوفيت بأن لهم اليد العليا على الغرب في العلم والتكنولوجيا. فالمعرفة السوفيتية بالزراعة والصناعة سوف تحدث ثورة في الإنتاج في داخل البلاد وسوف تسمح للدول المتجهة نحو الاشتراكية بأن تتحرك أسرع وبأقل التنازلات للغرب. وفي خطابه في الأمم المتحدة في ١٩٦٠ رأى خروشوف أن الارتباط بين التحرر الوطني في العالم الثالث والقدرات الإنتاجية للاشتراكية هو رمز للمستقبل:

> **الجميع يعرف أن اقتصادات المستعمرات... تخضع الآن لجشع مصالح الاحتكارات الخارجية، وأن التصنيع في هذه الدول يُعاق عن عمد. تخيل لو أن الموقف تغير وأصبحت هذه الدول والمناطق مستقلة وقادرة على استغلال مواردها الطبيعية الغنية الاستخدام الأمثل والتقدم نحو التصنيع وبدأ أهلها يعيشون حياة أفضل. فسوف يكون لذلك - بلا شك أثر مفيد، ليس على التنمية الاقتصادية في دول الشرق فحسب، وإنما على اقتصادات الدول المتقدمة صناعيا في الغرب أيضا[٦٥].**

وأكد خروشوف لمستمعيه داخل الحزب وفى الحركة الشيوعية العالمية، مثل اللقاء المغلق عن النظرية السياسية والدعاية فى يناير ١٩٦١، نفس الفكرة بعبارات أيديولوجية:

يزعم السياسيون البرجوازيون والتعديليون أن حركة القومية-الليبرالية تتطور بمعزل عن الكفاح من أجل الاشتراكية الذى أثارته الطبقة العاملة، وبمعزل عن دعم الدول الاشتراكية، وأن المستعمرين أنفسهم يمنحون الحرية لشعوب مستعمراتهم السابقة. والهدف من هذه الادعاءات هو عزل الدول المستقلة حديثًا عن المعسكر الاشتراكى ومحاولة إثبات أن هذه الدول ستمثل "القوة الثالثة" على الساحة الدولية بدلا من معارضة الإمبريالية. لا حاجة للقول إن هذا هراء محض. الحقيقة التاريخية هى أنه قبل انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظيمة فشلت الشعوب فى محاولاتها أن تكسر أغلال الاستعمار . وأثبت التاريخ أنه حتى انتصار الاشتراكية فى جزء من العالم على الأقل لم يكن هناك طرح لمسألة القضاء على الاستعمار[٦٦].

فى أوائل الستينيات تقريبًا كانت الأيديولوجية السوفيتية قد وصلت إلى مرحلة كان فيها التنافس من أجل النفوذ فى العالم الثالث جزءًا مهمًا من وجود الاشتراكية. وشأن النخب فى الولايات المتحدة، كانت النخب السوفيتية ترى أن مهمتها جزء من التقدم العالمى التاريخى نحو هدف محدد، وأن دورهم فى هذه

العملية لا يرتبط بالنظرية السياسية الماركسية/اللينينية فحسب، وإنما بالاستثنائية الروسية وتجارب الزعامة السوفيتية منذ ١٩١٧. ورغم العوائق والارتدادات، كانت النخب السوفيتية تعتقد اعتقادًا راسخًا أن الاشتراكية لابد من أن تحل محل الرأسمالية كنظام عالمى رئيسى فى غضون جيل. وكان خلفاء ستالين يعتقدون أن الانتقال يمكن أن يحدث دون حرب عالمية، فقط لو اقتنع الإمبرياليون أنهم لن ينجحوا فى تدخلاتهم ضد الثورة الاجتماعية خارج حدودهم. ودور الاتحاد السوفيتى هو أن يساعد فى جعل العالم مكانا آمنا للثورة ومن ثم يساعد على تقدم البشرية.

هوامش الفصل الثانى

(١) ورد فى

Andreas Kappeler, Russland als Vielvölkerreich: Emstehung, Geschichte, Zerfall (Russia as a Multiethnic Empire: Formation, History, Collapse) (Munich: C.H. Beck, 1992), p. 146.

(٢) ورد فى المصدر السابق ، ص. ١٦٣.

(٣) ورد فى:

Dominic Lieven, Empire: The Russian Empire and its Rivals (London: John Murray, 2000), p. 218.

(٤) المصدر السابق ص. ٢٥٧.

(٥) *Lenin, "The Heritage We Renounce," in Collected Works, 4th English edition. (Moscow: Progress, 1972), vol. II, pp. 493-534.*

(٦) أشمل وأعم توغل إلى الآن فى أسباب الثورة الروسية هو كتاب ريتشارد بايبس

Richard Pipes, The Russian Revolution 1899-1919 (New York: Knopf, 1990).

للرؤية المقارنة عن الأسباب البنيوية انظر

Theda Skocpol, States and Social Revolutions: A Comparative Analyse of France, Russia and China (Cambridge: Cambridge University Press, 1979),

(٧) *Nikolai Berdiaev, "Materialism Destroys the Eternal Spirit," on http:// www.cjd.org/paper/roots/rmateri. html.*

(٨) *S.N. Bulgakov, "Geroizm i podvizhnichestvo" (Heroism and Martyrdom), in Vekhi: sbornik statei o russkoi intelligentsii (Landmarks: A Collection of Articles about the Russian Intelligentsia) (1909, Moscow: Novosti, 1990), p. 33;*

انظر أيضا الرؤية الرائعة لروبرت إنجليش

Robert English, Russia and the Idea of the West: Gorbachev, Intellectuals, and the End of the Cold War (New York: Columbia University Press, 2000), p. 23.

(٩) *Lenin, "The Attitude of the Workers Party to Religion," May 1909, in Collected Works, vol. XV, pp. 402-413.*

من الطريف أن مقال لينين قد كتب جزئيا ردا على كتاب:

Anatoli Lunacharskii's Marxism and Religion (1907),

الذى قارن فيه بين النضال من أجل دكتاتورية البروليتاريا وبين النضال من أجل مملكة الرب – وقد انحنى الرجال الثلاثة: أوين وباكونين وماركس على معلف البروليتاريا حديثة الولادة.

(١٠) *Lenin, "The Right of Nations to Self-Determination," in Collected Works, vol. XX, pp. 393-454.*

هذا المقال قد كتب ما بين فبراير ومايو ١٩١٤ وقد تم وضعه فى مسلسل فى جريدة

Posveshchenie (see nos. 4-6, April-June 1914).

(١١) *Lenin, "Report on Foreign Policy, Delivered at a Joint Meeting of the All-Russia Central Executive Committee and the Moscow Soviet," 14 May 1918, in Collected Works, vol. XXVII, pp. 365-381.*

(١٢) *Lenin, "Manifesto to the Ukrainian People, with an Ultimatum to the Ukrainian Rada," 3 December 1917, in Collected Works, vol. XXVI, pp. 361-363.*

(١٣) *Stalin, "The Immediate Tasks of Communism in Georgia and Transcaucasia: Report to a General Meeting of the Tiflis Organisation of the Communist Party of Georgia," 6 July 1921, in Works (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1933), vol. V, pp. 90-102, quote on pp. 95-96, originally published in Pravda Gruzii, 108 (13 July 1921),*

(١٤) *Lenin, notes dictated 20 December 1922, in Collected Works, vol. XXXVI, pp.593-611*

(١٥) *Reinhard Eisener, "The Emergence of the Ferghana Basmacis," on http://www - yeniturkiye.com.*

(١٦) *Karl Marx, "The Future Results of the British Rule in India," New York Daily Tribune, 22 July 1853.*

(١٧) *Lenin, Imperialism: The Highest Stage of Capitalism: A Popular Outline (1917; London: Pluto, 1996)*

(١٨) *Lenin, "Address to the Second All-Russia Congress of Communist Organisations of the Peoples of the East," 22 November 1919, in Polnoe sobranie sochinenii (Collected works) (5th edn; Moscow: Gos. izd-vo polit. lit-ry, 1960-70), vol. XXXIX, pp. 318-331.*

(١٩) *Lenin, "Letter to the Propaganda and Action Council of the Peoples of the East," December 1921, in V. I. Lenin, ibid., vol. XXXIXIV, p. 282.*

(٢٠) تشيرتو موورديوك إلى زعماء الحزب الثورى المنغولى، حيث ورد فى

Babaar, Twentieth-Century Mongolia, ed. C. Kaplonski, trans. D. Suhjargalmaa et al. (Cambridge: White Horse Press, 1999), p. 304. For an overview, see Irina Morozova, The Comintem and Revolution in Mongolia (Isle of Skye: White Horse Press, 2002).

(٢١) انظر:

Kai Schmidt-Soltau, Eine Welt zu gewinnen! Die antikoloniale Strategie-Debatte in der Kommunistischen Internationale zwischen 1917 und 1929 unter besonderer

Berücksichtigung der Theorien von Manabendra Nath Roy (A World to Gain! The Debate over Anti-Colonial Strategy in the Communist International between 1917 and 1929, with Particular Attention to the Theories of Manabendra Nath Roy) (Bonn; Pahl Rugenstein, 1994).

(٢٢) *Sultan Galiev* حيث ورد في:

Ayse Azade Rorlich, "Mirsaid Sultan Galiev and National Communism," علـــى موقـــع *http://www.yeniturkiye.com*

(٢٣) *Zhizn natsionalnostei (Nationalities Life), 38 (5 October 1919)*

(٢٤) تم إلقاء القبض على السلطان جاليف في ١٩٢٨ وقتل رميا بالرصاص في الـــسجن فـــي ١٩٤١. للمزيد انظر:

Rorlich, "Galiev and National Communism." انظـــر أيـــضا *Alexandre Bennigsen and Chantal Lemercier-Qelquejay, Sultan Galiev, le père de la révolution tiers-mondiste (Paris: Fayard, 1986)*

و

Les mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, 2 vols. (Paris: Mouton, 1960, 1964);

Alexandre Bennigsen and S. Enders Wimbush, Muslim National Communism in the Soviet Union: A Revolutionary Strategy for the Colonial World (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1979), pp. 191-254;

Helene Carrere d'Encausse and Stuart R. Schram, Marxism and Asia: An Introduction with Readings (London: Alien Lane, 1969), pp. 178-180.

وقد نشرت كتابات جاليف مؤخرا في تاترستان، انظر

Siatei, vystupleniia, dokumeny (Articles, Speeches, Documents) (Kazan: Tatarskoe knizhnoe, 1992) and Izbrannie trudy (Selected Works) (Kazan: Gazyr, 1998); see also B.F. Sultanbekov and D. R. Sharafutdinov, comps., Neisvesinyi Sultan-Galiev: rassekrechennye dokumenty i materialy (The Unknown Sultan Gailiev: Declassified Documents and Materials) (Kazan: Tatarskoe knizhnov, 2002).

(٢٥) *Ken Post, Revolution's Other World: Communism and the Periphery, 1917-39 (Houndsmills: Macmillan, 1997), p. 79.*

(٢٦) *Yang Kuisong, Zhong-gong yu Mosike de guanxi, 1920-1960 (The Relations Between the Chinese Communists and Moscow, 1920-1969) (Taibei: Dongda, 1997).*

من أهم ما كتب لفهم النظرة الستالينية عن العالم كتابا:

History of the Communist Party of the Soviet Union (Bolsheviks): A Short Course (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1939) and Joseph Stalin, Foundations of Leninism (New York: International Publishers, 1932).

(٢٧) أفضل ما كتب حول هذه الجريمة هو كتاب

Robert Conquest, The Harvest of Sorrow: Soviet Collectivization and the Terror-Famine (London: Pimlico, 1986, 2002),

وانظر أيضا:

Lynne Viola, Peasant Rebels under Stalin: Collectivization and the Culture of Peasant Resistance (Oxford: Oxford University Press, 1996), Anne Applebaum, GULAG: A History of the Soviet Camps (London: Allen Lane, 2003), and for harrowing testimony, Viktor Danilov et al., eds.-in-chief, Tragediia sovetskoi derevni: kollektivizatsiia i raskulachivanie: dokumenty i mate-rialy, 1927-1939 (The Tragedy of the Russian Village: Collectivization and De-Kulakization, 1927-1939), three vols. to date (Moscow: ROSSPEN, 1999-).

(٢٨) *Post, Revolution's other World, p. 136*

(٢٩) *The Labor-Defender (November 1928), quoted from The Complete Published Works of W. E. B. Du Bois (Millwood, NY: Kraus-Thomson Organization, 1982), vol. II (1910-1934), p. 302.*

وقد تقدم دو بوا أخيرا لإعجابه بالاتحاد السوفيتي بطلب انضمام إلى الحزب الشيوعي الأمريكي في ١٩٦١ وكان عمره يناهز الواحد والتسعين عاما.

(٣٠) *Georgi Dimitrov, diary entry for 7 November 1937, in Ivo Banac, ed., The Diary of Georgi Dimitrov, 1933-1949 (New Haven, CT: Yale University Press, 2003), p. 65.*

(٣١) *Georgi Dimitrov, diary entry for 7 September 1939, ibid., p. 115*

(٣٢) عرفت المنظمات الشيوعية الجديدة في بادئ الأمر باسم إدارة الاستخبارات العالمية، ثم (من ١٩٤٦) باسم إدارة السياسة الخارجية، ومن ١٩٥٨ باسم الإدارات الدولية. انظر:

Iurii A. Poliakov, "Posle rospuska kominterna" (After the Dissolution of the Comintern), Novaia i noveishaia istoriia, 1 (2003): 106-116

(٣٣) *Georgi Dimitrov, diary entry for 25 November 1940, in Banac, ed.. Diary of Dimitrov, p. 137*

(٣٤) تقرير إلى اللجنة المركزية من جمعية روسيا للعلاقات الثقافية مع تركيا (١٩٤٦) مقتبس من كتاب:

Artiom Ulunian, "Soviet Cold War Perceptions of Turkey and Greece, 1945-1958," Cold War History, 3.2 (January 2003):40.

(٣٥) وفقا للجنة المركزية، فإن "المبرر وراء الاقتراحات المعروضة على الحكومة السوفيتية كان هو التجربة التاريخية التي استمرت لعدة قرون والتي أوضحت مدى أهمية سيطرة قوى البحر الأسود على الوصول إلى المضايق. ولذا فإن الدفاع المشترك بين روسيا وتركيا عن

المضايق، كما كان الحال أثناء الحروب النابوليونية، هو أمر يتوافق تماما مع مصالح كلا الدولتين ومن شأنه أن يوفر أمنا حقيقيا لممتلكاتهما فى البحر الأسود.

K..V. Bazilevich, "On 'the Black Sea Straits': The History of the Question,"

تفاصيل من محاضرة عامة تم إلقاؤها فى موسكو فى ١٨ أكتوبر ١٩٤٦ وقد استشهد بها أولونيان *Ulunian, "Soviet Cold War Perceptions of Turkey and Greece," 40.*

(٣٦) ليتفينوف إلى مولوتوف، ٢٢ يناير ١٩٤٥

Arkhiv vneshnei politiki Rossiiskoi Federatsii (Foreign Policy Archives of the Russian Federation; hereafter AVPRF),

أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية وسيرمز لها هنا بـ *AVPRF*

f. 0431/1, op. 1, pa. 5, d. 33, pp. 8-19; see also Sergei Mazov, "SSSR i sudba byvshykh italianskikh koloniov (1945-1950 gg.)" (The USSR and the Fate of the Former Italian Colonies), in N. Komolov, ed., Rossiia i Italiia (Moscow: Nauka, 1998), pp. 211-241,

ونسخة مختلفة قليلا فى

Cold War History, 3.3 (April 2003); Apollon Davidson and Sergei Mazov, eds., Rossiia i Afrika. Dokumenty i materialy. XVIII v. - 1960 (Russia and Africa. Documents and materials. The Eighteenth Century - 1960), vol. II, 1918-1960 (Moscow: IVI RAN, 1999).

(٣٧) ليتوتوف إلى مولوتوف *AVPRF, f. 0431/1, op. 1, pa. 5, d. 33, pp. 17-18.*

(٣٨) *AVPRF, f. 0431/1, op. 1, pa. 5, d. 33, p. 45.*

وبعد ذلك بكثير اعترف مولوتوف بأنها كانت "مناقشة صعبة"

(Feliks Chuev, Sto sorok besed s Molotovim [One Hundred and Forty Conversations with Molotov] [Moscow: TERRA, 1992],p.103).

(٣٩) *AVPRF, f. 0431/1, op. 1, pa. 5, d. 33, p. 45.*

وبعد ذلك بكثير اعترف مولوتوف بأنها كانت "مناقشة صعبة"

(Feliks Chuev, Sto sorok besed s Molotovim [One Hundred and Forty Conversations with Molotov] [Moscow: TERRA, 1992],p.103).

(٤٠) للمزيد عن الخوميني انظر:

Hamid Algar, "Religious Forces in Twentieth-Century Iran," The Cambridge History of Iran, vol. VII, From Nadir Shah to the Islamic Republic (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), p. 752.

ألف الخوميني كتابه كشف الأسرار فى ١٩٤٤ حيث جادل بأن الرسل مع انشغالهم الشديد بالتأمل فى الله حاربوا ليصنعوا التحولات فى الحياة الاجتماعية والسياسية للبشر. كما قام فى الكتاب نفسه بإدانة حكم القوى الأجنبية وعملائها مثل الشاه.

(٤١) *Beria to Stalin, 16 August 1944, Arkhiv Prezidenta Rossiiskoi Federatsii*

أرشيف رئاسة الفيدرالية الروسية ويرمز لهاهنا بـ *APRF* *f. o, op.6,pa.37,d.37,pp.15-18*

(٤٢) *VKP(b) CC, Politburo to Mir Bagirov, 6 July 1945, quoted from Fernande Beatrice Scheid, "Stalin, Bagxirov and Soviet Policies in Iran, 1939-1946" Ph.D. dissertation, Yale University, 2000, pp. 259-60.*

(٤٣) *See Natalia I. Yegorova, The "Iran Crisis" of 1945-46: A View from the Russian Archives, CWIHP, Working Paper 15 (1996), p. 11. For Bagirov's aims, see Scheid, "Stalin, Bagirov," p. 253.*

(٤٤) *Tudeh CC to VKP(b) CC, (11?) September 1945, Rossiiskii gosudarstven-nyi arkhiv sotsialno-politicheskoi istorii (Russian State Archive of Socio-political History; hereafter),*

أرشيف الدولة الروسية للتاريخ الاجتماعي السياسي *RGASPI* ، *f. 17, op. 128, d. 819, p. 182*

انظر أيضا تقرير ممثلي حزب توده، ١١ أكتوبر ١٩٤٥

RGASPI ، *f. 17, op. 128, d. 819.*

تلقى السوفيت تقارير مفصلة من *Ardasher Ovanessian* عضو المكتب السياسي للتوده حول ردود الأفعال السياسية لدى الشيوعيين الإيرانيين تجاه سياسات ستالين نحو إيران، انظر الرسائل المؤرخة فيما بين ٢١ سبتمبر و ٥ أكتوبر ١٩٤٥ في أرشيف الدولة الروسية للتاريخ السياسي الاجتماعي *RGASPI*

f, 17, op, 128, d. 819, pp. 32-88.

(٤٥) في أغسطس ١٩٤٥ قام الضباط المقربون من حزب توده بتمرد وبدا أنهم كانوا مستعدين للسير إلى طهران ولكن الثورة انهارت بعد أن أعلن السوفيت عن سخطهم للشيوعيين الإيرانيين.

(٤٦) . باجيروف إلى أتاكيشييف، ١٥ نوفمبر ١٩٤٥، وردت في:

Scheid, "Stalin, Bagirov,"p.285.

(٤٧) *William Eagleton Jr., The Kurdish Republic of 1946 (Oxford: Oxford University Press, 1963), pp. 43-62,103; for Qazi Mohammad see pp. 34-35.*

(٤٨) للرأي البريطاني حول قاقام انظر:

Sir Clarmont Skrine, World Warm Iran (London: Constable, 1962), pp. 231-237

(٤٩) الملاحظات السوفيتية عن قاقام في الأرشيف السياسي للفيدرالية الروسية واختصاره هنا

AVPRF, f. 94, op. 37e, pa. 362a, d. 1, pp. 10-13.

(٥٠) تسجيل المحادثة بين قافام ومولوتوف، ٢٣ فبرايـر ١٩٤٦ فـى الأرشـيف الـسياسى للفيدرالية الروسية. *AVPRF, f. 94, op.37e,pa. 362a, d.1,p.27.*

(٥١) التسجيلات الكاملة للمحادثات موجودة فى مجموعة خاصة فى أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية

AVPRF: "Sovetsko-iranskie peregovori v Moskve i Tegerane v fevrale-aprele 1946g - kratkaia spravka," AVPRF, f. 094, op. 37e, pa. 362a, d. 1.

لرد فعل التوده حول المحادثات انظر سجل الحوار مع *Ardasher Ovanessian* عـضو المكتـب السياسى للتوده فى ١٥ فبراير ١٩٤٦

15 February 1946, RGASPI, f. 17, op. 128, d. 848, pp.11-12.

(٥٢) تسجيل المحادثة بين قافام ومولوتوف، ٢٥ فبرايـر ١٩٤٦ فـى الأرشـيف الـسياسى للفيدرالية الروسية. *AVPRF, f. 094, op. 37e, pa. 362a, d. 1, p. 37.*

(٥٣) المصدر السابق ص. ٤٠-٤٢

(٥٤) تسجيل المحادثة بين باجيروف بيشيـفـارى،٤-٥ أبريل ١٩٤٦، وردت فى *Stalin, Bagirov," p. 335*

(٥٥) ستالين إلى بيشيـفـارى، ٨ مايو ١٩٤٦، وردت فى: *Yegorova, "Iran Crisis," pp.23-24.*

(٥٦) ملخص المخابرات إلى المكتب السياسى ٢٣ يونيو ١٩٤٧ ورد فى *Scheid, "Stalin, Bagirov," p. 353.*

(٥٧) *Stalin to Mao, 20 April 1948, APRF, f. 39, op. 1, d. 31, p. 28*

(٥٨) *Stalin's remarks to Kim Il Sung during conversations in Moscow, April 1950, quoted from DPRK Report (Moscow), no. 23 (March-April 2000).*

(٥٩) *RGASPI, f. 558, op.ll, d. 313, pp. 13-14,*

ورد فى المسودة التى لم تنشر لكتاب لاريزا إفموفـا

Larisa Efimova, "Stalin and the Revival of the Communist Party of Indonesia,"

بالنسبة للمقترحات الإندونيسية حول "الإطاحة بهيمنة الرجعيين فى الـداخل الـذين يخـدمون الإمبرياليين" و"استبدالهم بحكومة ائتلافية ديمقراطية" صاح ستالين: "خطأ!". وكان هذا نفس رد فعله حول الدعوة إلى "الاتحاد مع الاتحاد السوفيتى والصين ودول الديمقراطية الشعبية."

(٦٠) *Khrushchev, "Speech to a Closed Session of the CPSU Twentieth Party Congress," 25 February 1956, in Thomas P. Whitney, ed., Khrushchev Speaks! (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1963), pp. 259-265.*

(٦١) *Sovetskoe vostokovedenie, 1 (1956): 6-9*

(٦٢) عند الإشارة إلى هذين القسمين من اللجنة المركزية سأستعمل اختصار *MO* لكل منهمـا لأنهما كانتا تمثلان في الواقع وحدة واحدة تحت حكم بوناماريوف

(٦٣) *See Odd Arne Westad, ed., Brothers in Arms: The Rise and Fall of the Sino-Soviet Alliance, 1945-1963 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1998).*

(٦٤) تسجيل المحادثة بين خوروشوف وماو، ٢ أكتوبر ١٩٥٩

APRF, f. 52, op. 1, d. 499, pp. 1-33.

(٦٥) تسجيل المحادثة بين خوروشوف وماو، ٢ أكتوبر ١٩٥٩

APRF, f. 52, op. 1, d. 499, pp. 1-33.

(٦٦) خطاب خوروشوف، ٦ يناير ١٩٦١ في

Whkney, ed., Khrushchev Speaks!, pp.52-61.

الفصل الثالث

الثوريون: السياسات والتحولات المعادية للاستعمار

منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٢٠ وقع أكثر من ٤٥٠ مليون نسمة فى أفريقيا وآسيا تحت الحكم الاستعمارى المباشر[١]. وكانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا والبرتغال - أى القوى الاستعمارية الأوروبية القديمة - قد تبعتها إيطاليا وألمانيا حديثتا التكوين وكذا بلجيكا والولايات المتحدة وإن كانت الأخيرة على نحو متردد إلى درجة ما. حتى اليابان التى كانت هى نفسها ضحية للتوسع الإمبريالى فى بداية الحقبة - انضمت إلى نادى المعتدين. ورغم أن القدرة على التوسع كانت ناشئة عن التغيرات فى التكنولوجيا والتنظيم والاتصالات التى حدثت فى القرن التاسع عشر، فإن الدوافع كانت مختلفة من البحث عن أسواق ومواد خام إلى التعصب الدينى إلى الكرامة الوطنية. فى بداية القرن العشرين توقف معظم الناس فى الدول الرأسمالية عن السؤال عن الدوافع: فقد أصبحت الإمبريالية بالنسبة لهم هى النظام الطبيعى للأمور - تمامًا مثلما أصبحت الحرب الباردة بعد ذلك بجيلين[٢].

ورغم الدفاع المستميت الذى وضعه الكثير من مناطق العالم الثالث، فغالبًا ما كان الأمر يتطلب عقودًا بعد الهجوم حتى تستطيع الدول الضحايا أن تنظم مقاومة شاملة للحكم الاستعمارى. وكانت الغزوات وعمليات الاحتلال مخيفة فى وحشيتها - إحدى التقديرات الحديثة تجد أن أعداد الوفيات المباشرة وغير المباشرة الناتجة عن الحروب الاستعمارية تقدر بنحو خمسة ملايين ونصف

المليون نسمة. وكذلك، فكما بيّن مايك ديــفز ***Mike Davis*** فإن المجاعات التى نشأت عن القحط والجفاف فى العالم وصلت إلى معدلات كارثية فى آسيا وأفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر، الأمر الذى يعود جزئيًا إلى أن الهجوم كان يضعف البنى الاجتماعية التى كان من الممكن أن تخفف من وطأة المعاناة. كانت المناطق المستعمرة الجديدة شديدة الاتساع، وأعداد السكان عادة – حتى قبل المقاومة – ضئيلة ومتناثرة. وعندما بدأ المحتلون يفرضون شكلا ما من أشكال النظام، فإن المستعمرات التى أنشأوها لم تتوافق مع المستَعمرين لا من حيث الدولة أو الهوية أو التنظيم مما أتاح فرصًا كبيرة لمبدأ "فرّق تسُد". كذلك قامت الأشكال المختلفة من الحكومات المستعمَرة بهجمات مضادة كما سبق أن رأينا فى حالتى أمريكا وروسيا، من الاندماج الثقافى المفروض بالقوة إلى الإبادة والإبادة الجماعية(٣).

بدأت فترة المقاومة الناجحة ضد الحكم الاستعمارى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهو نفس الوقت الذى ولدت فيه الحرب الباردة. وفى العشرينيات والثلاثينيات كان الصراع بين الإمبراطوريات ومعارضيها يمثل ساحة للقتال بين الأفكار عن الثورة الاجتماعية أو التنمية الرأسمالية. ومع استكمال قوى أوروبا عملية التدمير الذاتى لنفسها فى الحرب العالمية الثانية، كانت معظم الحركات الثورية فى العالم الثالث قد نضجت. وكانت الثورات التى وقعت بعد الحرب العالمية الثانية هى ما منحت معظم دول العالم الثالث الحرية، حين كانت الحرب الباردة قد أصبحت نظامًا عالميًا مكتمل المعالم. أو بعبارة أخرى فإن تكوُّن الحركات الثورية المعادية للاستعمار ودول العالم الثالث الجديدة يرتبط زمنيًا بصراع الحرب الباردة وأيديولوجياتها. ورغم أن عمليتى التحرر من الاستعمار والصراع بين القوى الكبرى قد تبدوان أمرين منفصلين من حيث المنشأ، فإن تاريخ أواخر القرن العشرين لا يمكن فهمه بدون استكشاف الروابط التى تربطهما معًا.

الكولونيالية وآثارها

كان أحد أهم أهداف الاستعمار تدمير وجهات النظر العالمية القائمة لدى الشعوب المستَعمرة. وكان ادعاء التفوق العرقى الموجود فى المشروع الإمبريالى يعنى أن الخاضعين للاستعمار ينبغى أن يروا أنفسهم كأنهم أقل قيمة ممن فوقهم وأن يعتقدوا أن ثقافاتهم الأصلية محكوم عليها بالزوال؛ وإثبات هذه الفرضية يكمن فى استيلاء الدول الأوروبية على هذه المستعمرات نفسها: فلأن المستعمِر لديه فائض في الأسلحة والتكنولوجيا والتنظيم، نجح فى السيطرة على العالم، وممتلكاته هذه – فى المادة وفى الأراضى – تظهر مدى تفوقه. وكأن القوة وحدها لا تكفى، فتعرض المستَعمَرون أيضًا للكثير من الدعاية – من خلال البعثات المسيحية فى الغالب – عن عدالة النظام الجديد وإفلاس مثلهم ومعتقداتهم.

مازالت درجة نجاح هذا التدمير المتعمد للثقافات الأصلية فى العالم الثالث موضع نقاش ساخن. وكثيرًا ما كان حرمان جماعة ما من هويتها السابقة تماما يستدعى إبادة جماعية، كتلك التى حدثت بالنسبة للهنود الأمريكيين أو للسكان الأصليين لأستراليا ***Australian Aborigines***. وفى معظم الحالات بدأ فى نهاية القرن التاسع عشر – على الأقل على مستوى النخبة – ظهور هجين من الأصليين والمستعمرين، مع تغير حداثى واضح. وقد أثمر التعاون المبدئى بين الحكام غير الأوروبيين وبين التعليم الاستعمارى عن ظهور مجموعات كرست نفسها لمعايير الحداثة، مثل التكنولوجيا والتنظيم، تمامًا مثل السلطات الاستعمارية نفسها. وقد كان حكم المستعمرات دون هذه الوساطات مستحيلا؛ بما أن أعداد الحكام الأجانب كانت جد ضئيلة مقارنة باتساع رقعة الأرض التى يُفترض أن يحكموها. وبعد ذلك، كما سنرى، ظهرت أول منظمات قومية من هذه المجموعات من الوسطاء – أو بالأحرى من أبنائهم وبناتهم.

تنوعت بشدة أنماط المشاريع الاستعمارية التى ظهرت أثناء القرن التاسع عشر. فبينما سَعِد البريطانيون بأن يحكموا من خلال أنماط تنظيمية غير أوروبية ومن ثم سمحوا بظهور مختلف الأنظمة المحلية؛ كان الفرنسيون (والأمريكيون فيما بعد) أكثر رغبة فى الإدماج، إذ حاولوا نشر ثقافتهم ومؤسساتهم لدى الشعوب التى احتلوها. كما لعب وجود المستعمرين الأوروبيين أو غيابهم دورًا حاسمًا فى تشكيل النظم الاستعمارية – حيث كان استحضار هذه المجموعات أو السماح لها بالبقاء والاستقرار قد أشعل الصراع بين المركز الإمبريالى والشعوب المستعمرة، كما أظهرت حالتا جنوب أفريقيا والجزائر. وأخيرًا، فلم يكن لدى القوى الاستعمارية الصغيرة، كبلجيكا والبرتغال، لا الأدوات ولا الموارد لفرض حكم قوي أو أى جوانب أخرى للحداثة على الأراضى* التى وقعت تحت سيطرتها. ولذا فقد بقى حكمها استغلاليًا لدرجة كبيرة – أشبه بالإمبراطورية الإسبانية الزائلة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، منه للإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولذا كانت التنظيمات الحكومية التى استعمرت الشعوب مختلفة الأنواع كما أدت إلى مختلف الاستجابات مع تشكُّل المقاومة المعادية للاستعمار. كانت السمات العامة لهذه التنظيمات هى الافتقار إلى الشرعية المحلية والخوف من أن تدمر، وتفضيل المشاريع الكبيرة. وكانت الحكومة المستعمِرة دائمًا هى ممثل المركز الإمبريالى والمستعمِرين ولم تكن أبدًا تمثل أى جماعة من السكان الأصليين مهما أبدت التعاون معهم. والحال هكذا، أصبحت الحكومة دخيلة على السكان الأصليين – حتى على مستوى النخبة. وأدى "اغتراب" الحكومة إلى الحاجة الدائمة إلى الشرطة على جميع المستويات، حتى فى أكثر المستعمرات رغبة فى التكامل. كما أدى الافتقار إلى المعرفة على المستوى المحلى، وتوفر العمالة ووفرة الموارد إلى افتتاح (وليس دائمًا استكمال) مشاريع عملاقة، الهدف منها توصيل المواد الخام إلى

الإمبراطورية، وإظهار مدى تفوق الدولة المستعمِرة وريادتها وكفاءتها للسكان الأصليين. لا عجب إذن في أن المستعمَرين كانوا يصفون وجودهم بأنه عيش بداخل سجن كبير.

توافقت ذروة الحقبة الاستعمارية، أي حول عام ١٩٠٠، مع فترة إصلاح داخل العديد من القوى الإمبريالية نفسها. ومع تصاعد النقد بشأن استغلال العمال في الداخل؛ ونقص الصحة والتعليم؛ وزيادة الفساد واللامساواة في خدمات الدولة؛ تصاعد أيضًا الهجوم على مقاييس إدارة المستعمرات. وكانت النتيجة زيادة خدمات التعليم والصحة المتاحة لغير الأوروبيين من ناحية، وامتداد الدولة الاستعمارية في المناطق التي لم يكن لديها سوى القليل من السيطرة عليها من ناحية أخرى. وأنشئت معاهد تعليمية جديدة كاملة في المراكز الإمبريالية لتدريب نوعية أفضل من الحكام الاستعماريين بما في ذلك أعداد متزايدة من الشباب من نخب السكان الأصليين(٤). وعند وصولهم إلى أفريقيا أو آسيا كان يعهد لهؤلاء الممثلين للمشروع الاستعماري بالتوغل في المناطق الجغرافية أو مناطق المجتمع التي كان النظام الاستعماري الأساسي يصلها بالكاد. وبدلا من مسألة المواد الخام والتجارة، كانت الشعارات الجديدة للإمبريالية نحو عام ١٩٠٠ هي التقدم والتنمية، لكل من القوى الإمبريالية والمستعمرات في الآن نفسه.

معظم الشركات التي أنشأتها أو دعمتها السلطات نحو نهاية فترة الاستعمار راحت تتزايد على نطاق أوسع من ذي قبل، جزئيا لأن اتساع المناطق المستعمَرة الجديدة كان يدعو إلى "التفكير الكبير"، وجزئيا لأن الكثير من التعقيدات الاجتماعية والبيئية الموجودة في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها لم تكن معروفة لدى رءوس الإدارة الأجنبية. فمشاريع مثل قناة بنما أو قناة السويس؛ أو خطة ري الجزيرة بالسودان؛ أو سد "كابورا باسا" بموزنبيق؛ كانت في حاجة إلى أعداد هائلة

من العمال، واجتذبت عشرات الآلاف منهم إلى اقتصاد جديد؛ وفى بعض الحالات، كما فى المشاريع الزراعية الكبرى التى بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر فصاعدًا، كان لابد من استيراد العمالة من مستعمرات أخرى لتعويض نقص العمالة لدى السكان الأصليين. وفى معظم الحالات كانت هذه الزراعات التى تعتمد على محصول واحد يدر المال، مثل الشاى أو السكر أو التبغ، تحل محل أنماط الزراعة بل وتغير ديموغرافية بعض المستعمرات، مثل جلب الهنود مثلا إلى فيجى والصينيين إلى مالايا (حيث أصبح المهاجرون الجدد يمثلون حوالى نصف عدد السكان).

وأيا كانت نوعية الحكومات الموالية للاستعمار وأشكالها، فإن حقيقتها التى عرفها المستعمَرون هى أنها كانت قد أقيمت أساسًا لكى تمثل مصالح القوة الإمبريالية، وفى بعض الأحيان مصالح المستعمِر وليست مصالح الشعوب المستعمَرة نفسها. ورغم المزايا التى كانت تعطى أحيانًا للنخب المحلية فإن الحكومة المستعمِرة لم تكن أبدًا لتصبح حكومتهم على نحو تام – فقد ظلت تمثل قوة خارجية تقوم شرعيتها المحلية على القوة – وليس على القبول. بعد ١٩٠٠ عندما بدأت أعداد كبيرة من الشباب تسافر من أفريقيا أو آسيا أو الكاريبى إلى المراكز الإمبريالية – فى الغالب من أجل التعليم – راحوا يقارنون بين افتقارهم وافتقار آبائهم للتأثير فى بلادهم وبين التوسع التدريجى للمشاركة الشعبية فى الحكومات بداخل الدول الإمبريالية. فلماذا يبقون بلا أى حقوق سياسية فى بلدانهم مع أن العمال الأوروبيين يمكنهم أن يدلوا بأصواتهم وينظموا الأحزاب ويطمحوا إلى أن يكون لهم تأثير سياسى؟ وقد سجل الشباب المسافرون من العالم الثالث إعجابًا بما فى العواصم الإمبريالية من ثراء وطاقة، وبدأت تساورهم الشكوك فى أن بعض ما فى هذه الدول الأوروبية من رخاء وسعة يعود إلى الاستغلال الإمبريالى. ولكنهم كانوا يأسون للظروف الموجودة فى مجتمعاتهم التى رأوا أنها

تعوق التقدم الحداثي. كتب أحد مؤسسي الحركة الوطنية الإندونيسية "سلطان سجارير" ***Sultan Sjahrir*** في مذكراته "*خارج المنفى*" ***Out of Exile*** يقول:

> **إن الغرب يمثل بالنسبة لي حياة قوية ديناميكية نشطة. إنه نوع الحياة التي أحب، وأنا على قناعة تامة بأن الشرق لن يتحرر من العبودية والخضوع إلا إذا استغل هذه الديناميكية الموجودة في الغرب. إن الغرب يعلم الشرق الآن أن ينظر إلى الحياة باعتبارها نضالا وكفاحًا، كحركة نشطة لابد أن يخضع لها مفهوم السكون... النضال والكفاح يعني النضال ضد الطبيعة، وجوهر الكفاح يعني أن يحاول الانسان أن يُخضع الطبيعة وأن يحكمها بإرادته(٥).**

وفي أعلى درجات السلم – التي تم التوصل إليها بعد كفاح مستمر – كانت توجد العواصم الإمبريالية؛ حيث تكونت كل قوة الإمبريالية وديناميكيتها لتصنع نظاما من القوة والاستقرار والبقاء. يقول الكاتب الهندي "نيراد شودري ***Nirad Chaudhury*** أثناء سيره ذات مرة نحو حديقة هايد بارك بلندن في العشرينيات إن "لدى شعور قوي بالقوة والصلابة لدرجة أنني لو كان بيدي مطرقة لرحت بلا وعي أطرق بها المنازل؛ وبنوع من نفاد الصبر، الذي عادة ما تصنعه صفوف الطوب اللبن الذي تبني بها بيوتنا"(٦). فالتوسع الأوروبي، والأيديولوجيات التي أفرزها، زكت أفكار التغيير والمقاومة معًا وبقدر متساو.

أما بداخل المستعمرات نفسها فقد استمرت المقاومة ضد الاحتلال الاستعماري من لحظة الغزو حتى نهاية الإمبراطوريات الاستعمارية. وبعد انحسار صدمة الهزائم الأولى اندلعت الثورات وحملات العصيان وراحت تزداد تنظيمًا مع

الوقت. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدًا كان معنى انتشار التكنولوجيا أن تصبح المجموعات غير الأوروبية قادرة على الدفاع عن نفسها بشكل أفضل ضد الإمبريالية. كانت المشكلة دائمًا هى غياب المقاومة الموحدة – فقد كان هناك احتمال دائم أن تقوم القوة الاستعمارية بحشد إحدى المجموعات الإثنية أو الدينية ضد أخرى، بما أن الساعين إلى القوة فى العالم الثالث كانوا دومًا مدركين للقيمة الاستراتيجية لوجود أجانب مسلحين تسليحًا جيدًا بجانبهم. كما كان هناك دائمًا انقسام بين الريفى والحضرى وبين النخب الأصلية وعامة الناس، وكل من هؤلاء له تجاربه المختلفة مع عملية الاستعمار . وفى حين كانت المعركة ضد الاستعمار، بالنسبة لمعظم المجموعات، تمثل صراعا يائسا لتجنب المصادرة أو السرقة أو دفع المزيد من الضرائب، ومن ثم لحماية الحد الأدنى من القيمة المضافة التى كانت تمثل بالنسبة للفلاحين الفرق بين الحياة والموت، فإن الكثير من النخب، كما رأينا، بدأت تنجذب إلى أخلاقيات التقدم الموجودة بداخل المشروع الاستعمارى[٧].

تلك الانشقاقات فى المجتمع المستعمَر خلقت ما أسماه كارل دويتش *Karl Deutsch* "الحراك الاجتماعى" – أى إنشاء التنظيمات والحركات والهويات – وكان الأمر صعبا، على الأقل إلى أن بدأت أجزاء من النخب تدعو إلى الشرعية لكى تتحدى الحكومة الإستعمارية. فى دول العالم الثالث التى تجنبت الاستعمار الرسمى، كانت الانقسامات واضحة كما كانت فى الإمبراطوريات نفسها، لكن فى هذه الحالات كانت النخب الأصلية تدعو مواطنيها إلى التحمل لكى يقاوموا العدوان الاستعمارى. ربما يكون ذلك التحمل هو ما مكن المجموعات المختلفة فى دول مثل اليابان وتايلاند وأفغانستان وأثيوبيا أن يبدأوا التحديث الدفاعى، الذى صاحبته بعض المهارات القتالية، مما أبعدهم عن قبضة القوى الاستعمارية. كذلك كان للصين فى أوائل القرن العشرين الحد الأدنى من التماسك الاجتماعى والقدرة العسكرية لتجنب الانسياق التام، رغم أن المساحات الواسعة التى وقعت تحت السيطرة الإمبريالية

فى المستعمرات الأجنبية أو حولها أو فى منشوريا، كانت تعنى أن أكبر دولة على وجه الأرض من حيث عدد السكان ظلت فى وضع شبه استعمارى.

وبينما كان أكثر من نصف آسيا تحت الحكم الاستعمارى المباشر نحو عام ١٩٠٠، وكذا أكثر من ٩٠% من أفريقيا فإن أقل من ٣٠% من أمريكا اللاتينية كان مستعمرًا بشكل رسمى. أما من حيث الاقتصاد، فقد كان معظم القارة واقعًا تحت سيطرة رأس المال الأوروبى والأمريكى؛ وقد تنوعت أشكال ذلك من سيطرة اقتصادية كاملة- كما فى حالة أمريكا الوسطى- إلى التأثير الاستثنائى كما فى المكسيك والبرازيل وبوليــفيا. ورغم أن دول أمريكا الجنوبية الكبرى حققت نموًا اقتصاديًا كبيرًا فى الجزء الأول من القرن العشرين فإن اقتصاداتها وتجارتها أصبحت أكثر ارتباطًا بالولايات المتحدة، وبأسلوب سمح للحكومة الأمريكية أن يكون لها تأثير كبير على سياسات تلك الحكومات وقراراتها؛ وقد اتخذت المقاومة لدى الكثير من الأمريكيين اللاتينيين ضد عملاق الشمال شكل معاداة الاستعمار، رغم عدم وجود إمبراطورية أمريكية رسمية ليقاوموها.

لقد خلقت الإمــبريالية الجديدة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عالمًا أصبحت فيه الخطوات التى تتخذها الدول الأوروبية الرئيسية، لها بالفعل نتائج وتداعيات كونية. ولما أصبحت أفكار الإصلاح والتقدم جزءًا لا يتجزأ من القيم الاستعمارية، أصبحت أعداد أكبر من النخب المحلية تنجذب إلى الحكومات التى يقيمها الإمبرياليون، فى حين بدأ الجور السياسى للمشاريع الاستعمارية يظهر ويتضح فى ضوء أشد حدة من ذى قبل. وكرد فعل لهذا التناقض، أصبحت الأنظمة الاستعمارية كما أشار عالم الأنثربولوجيا جيمس سكوت *James Scott*، مواقع للتجارب فى الهندسة الاجتماعية، أشبه بطرق عديدة بالأنظمة الثورية التى تبعتها. واتحدت أيديولوجية الاستعمار الرفاهى ***welfare colonialism*** بالقوة الموجودة فى الحكم الاستعمارى، وشجعا معًا الخطط الطموحة لإعادة تشكيل

مجتمعات العالم الثالث، من خلال المشاريع الكبرى ومن خلال السياسات العامة لإعادة التوطين واستخدام الميكنة[٨].

الثورات المناهضة للكولونيلية

كانت الحرب العالمية الأولى هي نقطة انطلاق حركات المقاومة الحديثة ضد الحكم الاستعماري والقهر الاستعماريين. وقد لاحظ الظلم الذى كانت تمارسه القوى الأوروبية على الرقيق في الدول الأوروبية نفسها- وفي المستعمرات بدرجة أقل- أعداد كبيرة من الجنود غير الأوروبيين (١,٤مليون فى الهند وحدها)، وتسبب ذلك في القضاء على أى إيمان لديهم أو لدى النخب الأصلية فى التفوق الأوروبى. كانت الحرب الكبرى أزمة حادة في النظام الاستعمارى، خاصة وأنها جاءت في نهاية فترة توسع إمبريالى كبير اجتاح فيه الأوروبيون نحو ٨,٦ مليون ميل مربع فى أفريقيا وآسيا باسم "التقدم" و "الإنسانية". ولا عجب فى أن أعضاء النخب الأصلية – وهم عادة ما يظهرون من داخل النظم الاستعمارية – كانوا يعتقدون أن الوقت قد حان لبناء بديل غير أوروبى للحكم الاستعمارى. ومع انهيار تقدير أوروبا لذاتها، كان أولئك الزعماء يريدون إخضاع الحداثة لهم.

وكما كان الحال أثناء الحرب الباردة، كان بعض زعماء العالم الثالث يرون فى الحرب الأوروبية فرصة للحصول على دعم عدو عدوهم. وبرزت ألمانيا ومن بعدها الاتحاد السوفيتى، خيارات لذلك، وكذلك كانت الولايات المتحدة لمدة قصيرة، بسبب خطاب الرئيس وودرو ويلسون ***Woodrow Wilson*** عن تقرير المصير والديمقراطية. وقد قام أحد زعماء مناهضة الاستعمار الذى كنا قابلناه بالفعل، وهو الشاب م.ن.روى ***M.N.Roy***، بتوبيخ الأمريكيين لأنهم لا يفهمون سبب تفضيل بعض المؤيدين لاستقلال الهند التحالف مع ألمانيا.

إن بوسع ألمانيا أن تكون بالنسبة للهند ما كانته فرنسا بالنسبة للمستعمرين الأمريكيين. لقد توجه المستعمرون الثوار فى أمريكا الشمالية إلى فرنسا فى بحثهم عن المساعدة لأن فرنسا، رغم السلام الظاهرى، هى العدو الرئيسى لإنجلترا. فى هذا الصراع الحالى، كان الشعب الهندى يرى أن ألمانيا هى حليف تتطابق مصالحه مع مصالح الهند وتتوافق معها. وبالأسلوب نفسه الذى أرسل به أجدادهم بعثة فرانكلين *Franklin* إلى فرنسا لكى يبرموا التحالف، حاولنا نحن أن نصل إلى اتفاق مع القوة التى سوف تخدم مصالحنا وحاجاتنا. فإذا لمتمونا لأننا نمارس حقنا المشروع بأفعالنا هذه فإنكم إذن تدينون سلوك أعظم الوطنيين عندكم: واشنطن *Washington* وجيفرسون *Jefferson* وأدامز *Adams*[4].

بعد الثورات الروسية فى ١٩١٧، وخاصة بعد خيبة الأمل المريرة التى منى بها الكثير من زعماء معاداة الكولونيالية، وعندما رفضت القوى المنتصرة أن تطبق شعارات تقرير المصير فى مؤتمرات السلام التالية للحرب، أصبح الاتحاد السوفيتى محور اهتمام العالم الثالث، فالبولشفيك لم يلعنوا الاستعمار ويقدموا التحالفات لمن يقاومونه فحسب وإنما قادوا الطريق إلى شكل غير استغلالى للمجتمع المدنى، حسبما لاحظ جواهرلال نهرو *Jawaharlal Nehru* ابن بلد روى فى ١٩١٩،

اليوم قد تحقق شبح الشيوعية وراح يمسك بالعالم الغربى فى قبضته. وقد أنهت روسيا والمجر سيطرة الرأسماليين وأصحاب الملكيات التى استمرت لأزمنة

طويلة... وسببت الكثير من التجاوزات للبولشـفيك في روسيا... ولكن لو صح هذا الأمـر لأصـبح مـن الصعب أن نتخيل كيف أن ملايين البشر يفضلون هـذا الإرهاب والامتهان ويسعون جاهدين وبكامل إرادتهـم إلى إيجاده... إننا شعب مجتمعي، وعندما يحين الوقت ربما يوجد شكل من أشكال الشيوعية يتوافق مع نبوغ الناس ويكون أفضل من حكم الأغلبية. فلنستعد لـذلك الوقت وليفكر زعماؤنا بالأمر[١٠].

بالنسبة للهند والعالم الثالث ككل، قد يرمز كل من روى ونهرو إلى الاتجاهين الأيديولوجيين الأساسيين للمقاومة المعادية للاستعمار – الشيوعية والأهلانية *Nativism* (رغم أن الأهلانية في حالة نهرو تلونت بدرجة ملموسة من حب الإنجليز مع مر السنين). كما أنهما يمثلان الجيل والخلفية التي خرج منهما الكثير من الزعماء المعادين للكولونيلية. ولد روى في ١٨٨٧ ونهرو في ١٨٨٩، وكلاهما ينحدر من أسرة عريقة في مجتمعه، وبدأ يفكر في نفسه كزعيم لشعبه[١١].

درس ماهابهندرا ناث روى *Mahabhendra Nath Roy* في البداية في مدرسة إنجليزية محلية ثم في معهد البنغال الفني بكلكتا[١٢]، وانضم إلى جماعة ثورية بنغالية وهو في الثامنة عشرة، وفي ١٩١٥ هرب خارج البلاد بحثًا عن الدعم الألماني للاستقلال الهندي. وفي الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩١٨ عاش في الولايات المتحدة، حيث تزوج إحدى خريجات جامعة ستانفورد وبدأ يهتم بالماركسية. في ١٩١٨، وبسبب تحرش الشرطة، سافر إلى المكسيك حيث ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي المكسيكي وأصبح موفده إلى المؤتمر الأول للكومنتيرن ثم بعد ذلك– كما رأينا– أصبح عنصرا فاعلا أساسيا في الدولية الشيوعية. كان روى يرى أن

العنصر الأساسى فى الثورة الهندية هو التغير الاجتماعى السريع ويعتقد اعتقادًا راسخًا أن الاستقلال الهندى سيفرغ من محتواه إن لم توجد ثورة اشتراكية.

أما نهرو فقد جاء من خلفية أكثر ثراء. درس فى كلية هارو ***Harrow*** وترينتى ***Trinity*** بجامعة كمبردج وأصبح محاميًا وعمل بالمحكمة العليا فى بلدته "الله أباد". وفى ١٩١٨ التحق بالمجلس الوطنى الهندى الذى كونه مع المهاتما غاندى ***Mahatma Gandhi*** بداخل حزب الاستقلال الهندى الرئيسى. أما وقد سجنه البريطانيون مرات عديدة فقد بقى نهرو معجبًا بالاتحاد السوفيتى، حتى وإن طالب، بوصفه أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال، بتغيير داخلى يقوم على الإصلاح، وسياسة خارجية غير منحازة. بالنسبة لسياسة التنمية كان نهرو برجماتيكيًا يؤمن بتدخل الدولة ويقول إن:

> **فكرة وجود الشركات الخاصة غير المقيدة هى فكرة عفا عليها الزمن... لابد للدولة أن تكون فى الصورة بشكل أفضل، فمع محدودية مواردنا لا نستطيع أن نسمح للناس أن يذهبوا فى أى اتجاه يشاءون. علينا أن نخطط، ولابد للتخطيط من أن يقوم على القطاعين العام والخاص، مع ترك مساحة واسعة للشركات الخاصة. الخطة هى خطة قومية لجميع أنشطتنا العامة والخاصة.**

كان الوطنيون والماركسيون فى حركة المقاومة منقسمين فى وجهات نظرهم عن ماضى البلاد كما عن مستقبلها. وفى حين لم يجد الماركسيون- بوجه عام- ما يستحق الإعجاب فى فترة ما قبل الاستعمار، وألقوا باللوم على "خيانة" النخب الأصلية التى يسرت للدولة الإمبريالية مسألة الاحتلال، كان الوطنيون يعتقدون

أن تاريخهم ودينهم سلاحان ضد الاستعمار، وسيقومان أيضًا بتحديد الوجهة المستقبلية للشعوب بعد أن تكسب معركة الاستقلال. كان الكثير من الزعماء المناهضين للكولونيالية يرون أن ذلك الماضي يعكس المستقبل المتخيل. ورأى الوطنيون أن إعادة بناء القوة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لبلدانهم هو الهدف الجوهري الذي يمكن تحقيقه عن طريق احترام التقاليد الأصلية والزعامة القوية. ورأى الشيوعيون أن الدولة القوية نتاج الثورة الاجتماعية وأرادوا أن يقلدوا النماذج الموجودة لدى القوة غير الرأسمالية الناجحة الوحيدة، وهي الاتحاد السوفيتي، تقليدا مباشرا.

كلتا النزعتين الفكريتين كانتا حديثتين، بمعنى أن زعماءهما أرادوا أن يقوموا بتطويع التكنولوجيات الجديدة والأساليب التنظيمية الحديثة لخدمة أغراضهم. وحتى من رأوا أن كلمة الله هي الرسالة الأساسية للتحرر- شأن المقاومة الإسلامية المعادية للكولونيالية - لم يريدوا العودة إلى المجتمع دون التقدم المادي الموجود لدى المراكز الاستعمارية. وفي الكثير من الحالات - تمامًا كما في حقب التغير الاجتماعي المكثف في أوروبا وأمريكا في القرن التاسع عشر، أصبحت صور الماضي المثالي هي إطار تصور مجتمعات جديدة وحديثة تمامًا، حيث أظهرت العودة إلى "الجذور" (أو الكتب المقدسة) انشغالا جديدًا بالعدالة الاجتماعية والتنظيم "القومي"، أو التفرد العرقي. ومن دواعي السخرية أن من عملوا من أجل الثورة في المستعمرات كانوا يُدعمون بالصور الأوروبية عن الاستشراق، التي كانت تريد أن تفرض "تقليدًا" على المجتمعات المحتلة لكي تفصلها عن حضارتها التي يفترض أنها أكثر تقدمًا. وفي النهاية، كان يمكن قلب هذه التقاليد المتخيلة ضد الطغاة ومساعدة الحركات الثورية في تجنيد مناصرين على أساس مفاهيم الهوية والشعب.

إن صفة الماركسيين والوطنيين المستخدمة هنا هى مجرد إشارة مجردة وغير دقيقة إلى الحركات التى ظهرت فى مختلف القارات ولدى مختلف الثقافات. ورغم أن الماركسية الصينية كانت تتشابه مع الماركسية، فى كوبا مثلاً، فقد كان هناك الكثير أيضًا من جوانب الاختلاف. الأسوأ من ذلك من وجهة النظر التحليلية، أن النزعتين بوجه عام كانتا موجودتين لدى نفس الشعب فى نقاط مختلفة من حياته؛ فقد كان نهرو مثلا هندوسيا وأصبح متحدثا باسم عالمية العالم الثالث فى باندونج، بينما كان روى شيوعيًا وأصبح فيما بعد مناديًا بالفردانية والنزعة الإنسانية. وأخيرًا فقد كان هناك دائما ذلك التوازن غير اليسير الذى ظل موجودًا لأجيال بين معارضى الكولونيالية ومؤيديها. وبناء على المواقف الشخصية، كان الزعماء المحليون ينتقلون من تمثيل القوة الاستعمارية فى مواجهة المستَعمَرين إلى تمثيل شعوبهم فى مواجهة العواصم الكبرى– أو بالعكس. فهل كان هؤلاء مؤيدين أم معارضين ... ثوريين أم مناهضين للثورة؟ فى الوضع الكولونيالى لم تكن الهويات الأيديولوجية والتنظيمية واضحة تماما مثل إطار الحكومة الخاضعة للاستعمار نفسها[١٢].

لم يكن إعلان المرء نفسه ثوريًا يحتاج إلى شجاعة كبيرة فحسب، وإنما إلى إيمان قوى بامتلاك بديل سوف يختاره الشعب ويفضله على الحقيقة الاستعمارية القائمة، وكان ذلك افتراضًا خاسرًا فى معظم الحالات، حيث انتهى الأمر بمعظم الثوريين فى مختلف أماكن التمرد على الدولة القائمة (سواء كانت استعمارية أم لا) إما بالموت أو السجن. ويبدو أن الدافع لديهم كان– كما هو الحال فى معظم المحاولات الإنسانية– مزيجًا من الشد والجذب: فهم شهود على عنف الدولة أو على

الإهانات المتكررة الموجهة لهم أو لأقاربهم أو أصدقائهم بما أنهم كانوا ينتمون إلى المجموعة الإثنية أو الطبقة "الخاطئة" مما دفعهم إلى المعارضة المنظمة؛ وقد أدت التدخلات الإمـــبريالية الوحشية فى شئون إحدى دول العالم الثالث إلى اجتذاب حتى أولئك الذين كانوا يفضلون الثقافة الأوروبية على الدور الذى يلعبه الثوريون. لكى يقتنـــع شخص مـــا بأن يـــواجه دولة عاتية قادرة على إحداث دمار هائل له أو لأسرته أو لمحيطه ككل، فإن الشعور بأن لا مفر من ذلك- كما قال جيف جودوين ***Jeff Goodwin*** عالم الاجتماع، لابد من أن يكون هو المسيطر، وهو الذى يلعب دورا أساسيا. لكن كانت هناك أيضًا -كما رأينا- جاذبية الأيديولوچيات الثورية والفهم المتزايد، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، بأن النخب المحلية ستكون أفضـــل من الأجانب فى حل العديد من المشكلات التى كانت تواجه مجتمعات العالم الثالث.

تلك الدوافع مجتمعة دفعت الكثير من الزعماء الذين ولدوا فى بداية القرن إلى اللجوء إلى الثورة كأداة لتغيير دولهم (والعالم). فى الوسط الاستعمارى، كانت بعض أشكال التغيير الثورى ضرورية من أجل القضاء على الاستعمار، وكانت السيطرة الإمـــبريالية بطبيعتها تلغى أى تغيير مشروع للحكومة، و- حتى بعد الحرب العالمية الأولى- لم تقدم أى فرص للزعماء الأصليين لكى يصعدوا إلى قمة الزعامة السياسية المحلية. لكن حتى فى الدول التى لم تكن مستعمرة، مثل الصين ومعظم أمريكا اللاتينية- فإن الخطاب عن معاداة الإمـــبريالية كان يرصع الأفكار والمفاهيم الرئيسية لدى من أرادوا تغييرًا من مجتمعاتهم ودولهم. وقد قال ماوتسى تونج ***Mao Zedong***، المدرس ذو الخمسة والعشرين عامًا والذى لم يكن قد أصبح ماركسيا بعد، فى ١٩١٩، إنه "منذ النداء العظيم للثورة العالمية، وحركة تحرير البشرية ماضية بكل عزم، وأصبح علينا اليوم أن نغير مواقفنا القديمة تجاه قضايا لم نكن نناقشها فى الماضى، عن أساليب لم نكن نستخدمها ونحو العديد من الكلمات

التى كنا نخشى أن ننطق بها". وراح يحض أهل بلدته "فلتكن لديك الجرأة أن تفعل المستحيل. لا تجبن عن قول ما لا يقال، فلا توجد قوة بوسعها أن توقف مثل هذا الجزر العاتى"(١٤).

سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة كانت الحاسمة فى مستقبل "هوشى منه" ***Ho chi Minh*** الذى كان يصغر ماو بثلاث سنوات. فقد ذهبت مطالبته بدعم الولايات المتحدة للحريات والاستقلال السياسى فى ڤيتنام فى مؤتمر السلام بــڤرساى سدى، وخاب أمل الشاب ذى الثلاثين عامًا، الذى كان يعمل منسق أفلام ويعيش فى باريس بسبب دبلوماسية ويلسون، واتجه إلى الماركسية لحل مشكلات بلاده(١٥). وراح يشرح لاجتماع الحزب الاشتراكى الفرنسى فى تورس عام ١٩٢٠ "إن أفعى الرأسمالية الغربية راحت منذ زمن تمد مجساتها الرهيبة فى شتى أرجاء العالم، حيث وجدت المجال فى أوروبا محدودًا، والــبروليتاريا الأوروبية لا تكفى لإشباع شهيتها النهمة"(١٦)، وانتقد الاشتراكيين الفرنسيين لأنهم لم يقوموا بما يكفى من أجل تحرير المستعمرات. صوت "هو" للحزب لكى ينضم للدولية الشيوعية، ثم أصبح لاحقًا عميلا متجولا للكومنتيرن فى العديد من دول أوروبا وآسيا قبل أن يتزعم حركة المقاومة الــڤيتنامية ***Vietminh*** "ڤيتمنه"(*) التى كانت الشيوعية تقودها فى الأربعينيات.

مثل "هو شى منه"، قضى الزعيم الإندونيسى سوكارنو ***Sukarno*** فترة فى السجن لجهوده فى تحرير بلاده من الحكم الاستعمارى. وأثناء محاكمته فى ١٩٣٠ شرح سوكارنو، ذو التسعة والعشرين عامًا، أسباب عدم اعتناقه للماركسية، وقال للقضاة الذين قاموا بمحاكمته: "إننا نقوى ونغذى الشعور بالحرية؛ ولكننا لا نفعل

(*) ڤيتمنه (بالڤيتنامية: ***Việt Minh***، اختصارا لعبارة "***Việt Nam Độc Lập Đồng Minh Hội***"، وتعنى "اتحاد استقلال ڤيتنام") (المترجمة).

ذلك من خلال الوعى الطبقى إنما خلال الوعى بالوطن والوطنية... فى الدولة المستَعمَرة ليست القضية قضية مقاومة العامل للرأسمالى وليست قضية صراع طبقى. بل هو الصراع بين الأبيض والأسود وبين الشرق والغرب وبين المستعمِر والمستعمَر"[١٧]. وبالنسبة لوطنىٍّ مثل سوكارنو، كانت القيم "القديمة" – بما فيها الإسلام – هى ما سيقود دولته الجديدة بعد التحرر. وفى محاكمته، كانت نقطة الدفاع المحورية للرئيس المستقبلى لإندونيسيا، هى أن أفضل ما فى التقاليد الإندونيسية كان يتفق مع القيم الأوروبية للديمقراطية والليبرالية، وقال إن الهولنديين بمحاكمتهم له إنما يحاكمون نظامهم السياسى، أكثر مما يحاكمون حركته الثورية.

وكما فى آسيا وأفريقيا، وجه الثوريون فى أمريكا اللاتينية فى فترة ما بين الحربين خطابهم ضد القوى الخارجية، وليس ضد مشكلات مجتمعاتهم فحسب. وأدت حقيقة أن معظم دولهم *ليست* مستعمرات بشكل رسمى، إلى الحاجة إلى تعريف معنى "المستعمِر الأجنبى وتحديده". وبالنسبة للزعيم الثورى فى نيكاراجوا "أوجستو سيزار ساندينو" ***Augusto César Sandino*** – وكان وطنيًا مثل سوكارنو وليس ماركسيا – كانت سيطرة الولايات المتحدة اقتصاديًا وتدخلاتها العسكرية المتكررة هى المسئولة عن أزمة بلاده. وبلغة الثورة الرنانة فى أمريكا اللاتينية، أعلن ساندينو عن رغبته فى أن يحارب تأثير الولايات المتحدة حتى الموت (وهو ما حققه بالفعل فى ١٩٣٤ عندما قضى عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين على يد ديكتاتورية "سوموزا" ***Somoza*** المدعومة من قبل الولايات المتحدة):

> **لست مريم المجدلية، لأركع على ركبتى طالبًا العفو من أعدائى، أعداء نيكاراجوا، لأننى لا أعتقد أن هناك على الأرض من له الحق أن يكون نصف إله. سوف**

أنتظركم، واقفًا بصلابة على قدمى على رأس جنــودى الوطنيين، غير عابئين بعددكم؛ ولكن تذكروا أنه عندما يحدث هذا بالفعل فإن تحطم هيبتكم سوف يهز مبنـــى برلماناتكم فى واشنطون بعنف، وسوف تصبغ دمـــاؤكم قبة بيتكم الأبيض الشهير، الوكر الذى تخططون فيــه لجرائمكم(١٨).

تشكلت التجارب الشخصية للعديد من هؤلاء الذين أصبحوا زعماء لثورات العالم الثالث من خلال وجودهم لفترات طويلة فى السجون أو فى المنفى. وتشكَّلَ الكثير من مفاهيمهم بشأن الأساليب التنظيمية التى كانوا يريدون استخدامها أو الدول التى كانوا يريدون إنشاءها من خلال القراءة أو التحاور مع أناس بعيدًا تمامًا عن أوطانهم. وكان شعورهم بالمسئولية عن مجتمعاتهم يزداد قوة بتضحياتهم الشخصية التى كان عليهم القيام بها، وبرؤيتهم للكثير من أفراد أسرهم أو أصدقائهم يُعذبون أو يُقتلون من أجل القضية المشتركة التى يدافعون عنها. وفى الكثير من الحالات، كان الشعور بالهدف وبالضرورة الذى خلقته مثل تلك التجارب، يدفع الزعماء الثوريين فى العالم الثالث إلى المخاطرة لاكتساب القوة أو لتأمين التنمية السريعة فـــى دولهم الجديدة. كانوا مؤمنين بمهمتهم إيمانًا شديدًا، مدركين أن نجاحهم فيها، أيًا كان الثمن النهائى، لن يكون زهيدًا.

بالنسبة للكثير من الزعماء الثوريين، كان العنف الذى انتهجته القوى الأوروبية ضدهم أو ضد بلدانهم مبررًا لرغبتهم فى استخدام العنف لتخليص العالم الثالث من الحكم الأجنبى(١٩). وذهب فرانز فانون ***Frantz Fanon*** المارتينيكى، الذى تدرب بوصفه طبيبًا نفسانيًا قبل أن يصبح داعمًا أساسيًا للنضال الجزائرى من أجل التحرر، إلى درجة أن قال إن "العنف هو قوة تطهر. إنه يحرر السكان

الأصليين من عقدة الدونية ومن اليأس وعدم الفعل؛ إنه يجعلهم لا يخافون ويعيد إليهم احترامهم للذات"[٢٠]. كما هاجم مواطنه "إيمى سيزار" ***Aimé Césaire*** أيضًا المحاولات الأوروبية لغزو الأرضية الأخلاقية العالية فى صراعهم مع الحركات الثورية بالعالم الثالث:

> **إنهم يتحدثون معى عن التقدم وعن "الإنجازات" وعن شفاء الأمراض وتحسن مستويات المعيشة. إننى أتحدث عن مجتمعات أفرغت من محتواها، وأُعيقت فيها الثقافة وقُوضت المؤسسات وصودرت الأراضى وتحطمت الأديان وحُطمت الإبداعات الفنية الرائعة ومُحيت تمامًا أى إمكانات غير عادية. إنهم يلقون على رأسى بالحقائق والإحصاءات وقياسات للطرق والقنوات وخطوط السكك الحديد...إننى أتحدث عن ملايين الرجال الذين أُبعدوا عن أراضيهم وعاداتهم وحياتهم – أُبعدوا عن الحياة، عن الحرية، عن الحكمة...إننى أتحدث عن ملايين الرجال الذين غُرس بداخلهم الخوف بخبث وعُلموا أن تكون لديهم عقدة نقص، عُلموا أن يرتعدوا، أن يركعوا، أن ييأسوا وأن يتصرفوا كخدم[٢١].**

حتى أولئك الذين رفضوا الثورة الاشتراكية وكانوا يريدون أن يروا أشكالا من التنمية الرأسمالية تسيطر على بلادهم – زعماء مثل "سينجمان رى" ***Syngman Rhee*** (المولود فى ١٨٧٥) فى كوريا، ومصطفى كمال (المولود فى ١٨٨١) فى تركيا، أو شاه إيران محمد رضا بهلوى (المولود فى ١٩١٩) – أكدوا على حاجة

مواطنيهم إلى نفض شعورهم بالدونية وبناء ثقة جديدة بالنفس، تقوم على فهم إنجازات الماضى فى بلادهم وفهم نقاط الضعف فى سلوكياتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية، التى أدت ببلادهم إلى الوقوع فى شراك الحكم الأجنبى. أما فيما يخص التوجهات المستقبلية التى أرادوا أن يأخذوا دولهم إليها، فقد كان أولئك الزعماء الوطنيون المعادون للاشتراكيـــة ثـــوريين شأنهم شـــأن معـــارضيهم الاشتراكيين أو الماركسيين. مصطفى كمال - الذى عُرف فيما بعد باسم "أتاتورك" ***Atatürk*** (أى أبو الأتراك)- الـــجنرال الذى ترأس أول دولة تركية علمانية حديثة ورأى اسم أول حزب انضم إليه حزب شباب الأتراك ***The Young Turks*** يستخدم للدلالة على جيل جديد من النخب القائمة بالتحديث- وقال إن على المرء فى تركيا الجديدة أن "يقيس الزمن لا من خلال العقلية المتراخية للقرون الماضية، لكن من خلال مفاهيم السرعة والحركة الموجودة فى قرننا هذا".

> **علينا أن نرفع من شأن دولتنا إلى مستوى أكثر الأمم رخاء وحضارة فى العالم. علينا أن نهب أمتنا أوســع السبل والموارد للرفاهة. علينا أن نرفع ثقافتنا القومية فوق المستوى المعاصر للحـــضارة. علينـــا أن ننجــز مهامًا جسامًا فى وقت أقصر...لأننا نحمل شعلة العلوم الإيجابية[٢٢].**

منحت المرحلة الكولونيالية الأخيرة العالم الثالث مجموعة من العمليات العميقة للتغيير حُملت جميعها إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لإعادة بناء الدول التى تحررت من الاستعمار. ويمكننا القول إن الحكم الاستعمارى قد خلق قوميات العالم الثالث من خلال تقديم الفاعل - أى الأمة، والمفعول به - أى الدولة الحديثة. ووجدت الكثير من معالم الدول التى عانت الاستعمار فى الأنظمة التالية،

وخاصة تفضيل المشاريع الكبرى، وحشد الجماهير والمفهوم الجوهرى بأن التنمية الاقتصادية المستمرة أمر ممكن ومرغوب. ولكن فى حين علّمت الإمبراطوريات النخب المحلية أن تفكر بشكل أفضل، فقد تركت لهم إرثًا من الاقتصادات المهلهلة أحادية الجانب، والطبقية الاجتماعية الصارمة والعنصرية. و – كأنها دائرة مفرغة – فقد أعيقت دومًا فاعلية الدول الجديدة وشرعيتها التى كان عليها أن تتعامل مع هذه المشكلات، أعيقت بسبب تجذرها فى النظام الكولونيالى أساسًا[٢٣].

خلق دول جديدة

كما قامت الحرب العالمية الأولى بالمساعدة فى خلق حركات مقاومة محلية ضد الحكم الكولونتالى فى العالم الثالث، كذلك ساعدت الحرب العالمية الثانية فى تحطيم النظام الاستعمارى. وفى حين يمكن الجدل بأن الكثير من التبريرات الأيديولوچية والاقتصادية لحيازة المستعمرات وقعت تحت ضغوط كبيرة فى العواصم الاستعمارية فى سنوات أزمة ما بين الحربين، فلا شك أن الحرب الثانية فى أوروبا هى التى حطمت كلا من الإرادة والمقدرة لدى النخب الأوروبية على الاحتفاظ بممتلكاتهم الاستعمارية. بدأت عمليات التحرر من الاستعمار – والتى أرغمت عليها الدول المستعمِرة فى بعض الحالات من خلال حروب دموية؛ وفى حالات أخرى من خلال انسحابات بسيطة وسريعة – فى الأربعينيات واستمرت حتى السبعينيات. لكن فى السنوات التالية مباشرة للحرب مباشرة، حين أصبحت الحرب الباردة هى الملمح العالمى السائد، ازداد _اتجاه_ التطورات المستقبلية وضوحًا: فحقبة الحكم الكولونتالى فى العالم الثالث كانت منقضية بسرعة لا محالة.

من وجهة نظر النخب المستعمَرة، كان انخراط الأوروبيين للمرة الثانية فى نفس الجيل فى حرب شعواء دليلا أكبر على عدم صلاحيتهم لحكم الآخرين. ولكن

فى بداية الحرب العالمية الثانية، وبالإضافة إلى الإهانات المتكررة التى ألحقها الأوروبيون بأنفسهم، كانت هناك أيضًا الهزائم التى منيت بها الإمبراطوريات الغربية على يد اليابان– القوة غير الغربية الوحيدة التى استطاعت أن تؤسس قوة عسكرية قوية ومستقلة. وأقنع سقوط سنغافورة – قلعة القوة الإمـــبريالية البريطانية – وما تلا ذلك من استحواذ اليابان على كل الممتلكات الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا وأمريكا وهولندا فى جنوب شرق آسيا فى اجتياح واحد كبير فى بداية عام ١٩٤٢ – أقنع الكثير من الآسيويين بأن الاستعمار الأوروبى أصبح فى نزعه الأخير، أيًا كانت نتيجة الحرب. ورغم النظرة العامة فى آسيا عن اليابان باعتبارها طاغية استعمارية فى أسوأ الأشكال الأوروبية، كانت توجد لدى بعض الوطنيين الفكرة الساذجة بعض الشيء، بأن اليابان سوف تمنح الاستقلال للمستعمرات لو أنها كسبت الحرب ضد الغرب. الفكرة التى كانت أكثر انتشارًا هى فكرة الاعتزاز بأن اليابانيين هم آسيويين أيضًا، وأن انتصاراتهم على الأوروبيين تظهر ما يمكن أن تحققه الجيوش والتنظيم والتفانى الآسيوى. وكان معظم القوميين الآسيويين، خاصة الوطنيين منهم، يرون أن التوسع اليابانى حليف قوى آخر أمام القوة الاستعمارية التى تطغى عليهم، عملا بالمثل القائل إن "عدو عدوى صديق لى". وعندما اندلعت الحرب، ذهب الزعيم الهندى سوباس شاندرا بوس ***Subhas Chandra Bose***، وكان زعيمًا بارزًا فى البرلمان الوطنى الهندى مثل غاندى ونهرو، ذهب أولا إلى ألمانيا، ثم فى ١٩٤٣ إلى اليابان حيث أنشأ حكومة فى المنفى وضم أربعين ألف جنـــدى هنـــدى قـــوى للحرب فى صف اليابانيين ضد البريطانيين فى بورما وشرق الهند.

توفى بوس إثر حادث تحطم طائرة فى تايوان فى أغسطس ١٩٤٥، عندما كانت الإمبراطورية اليابانية تتحطم هى الأخرى تحت وطأة الجبروت العسكرى الأمريكى. لكن بالنسبة للقوميين الآسيويين الآخرين، سواء كانوا وطنيين أو ماركسيين،

كان أغسطس من عام ١٩٤٥- عندما تم القضاء على القوة اليابانية، وبدت القوى الأوروبية عاجزة عن أن تبعث الروح فى إمبراطورياتها من جديد- هو الفرصة. فقد رحب سوكارنو، الذى كان قد قضى سنتين فى سجن هولندى وأكثر من ثمانى سنوات فى المنفى بعد محاكمته، رحب باليابانيين باعتبارهم فاتحين، وعيّن نفسه كبير مستشاريهم فى الشئون الإندونيسية. فى السابع عشر من أغسطس عام ١٩٤٥، وعلى أعتاب منزله بجاكرتا، أعلن سوكارنو استقلال إندونيسيا من جانب واحد. بعد ذلك بأسبوعين أعلن "هو شى منه" استقلال فيتنام فى هانوى. وبدأ إعلانه الاستقلال بالاقتباس من الإعلان الأمريكى للاستقلال عام ١٧٧٦:

"خلق الناس متساوين، وقد منحهم خالقهم حقوقا متساوية؛ منها حق الحياة والحرية والسعى إلى السعادة"... ويعنى ذلك بالمعنى الأشمل أن جميع الناس على الأرض متساوون منذ أن يولدوا، ولهم الحق جميعا فى أن يعيشوا وأن يكونوا سعداء وأحرارا"[٢٤].

كان ذلك أداء مذهلا بالنسبة لثورى ماركسى. لكن بعد ذلك كان "هو" وكل الثوار الآخرين ضد النظام الاستعمارى يعرفون أن الدولة الوحيدة التى بوسعها أن تساعد أعداءهم فى فترة ما بعد الحرب هى الولايات المتحدة، التى كانت هى والاتحاد السوفيتى، المنتصر الرئيسى فى الحرب العالمية الثانية فى كل من آسيا وأوروبا.

النقلتان الأساسيتان فى القوة من الحكم الاستعمارى إلى حكم السكان الأصليين كانتا أثناء العقدين الأولين من الحرب الباردة. وفى حالتى "سوكارنو" و"هو شى منه"- كما فى حالة العديد من زعماء الاستقلال الآخرين، لم يكن

الطريق إلى الحرية ممهدا- فكثيرا ما حاولت القوى الاستعمارية أن تبعث من قبورها لكى تعيد تأكيد نفسها فى فترة ما بعد الحرب مباشرة- كما سنرى فى الفصل التالى. وقد حاولت فرنسا، أكثر الإمبراطوريات رغبة فى الاندماج، ربما لذلك السبب نفسه، أن تتشبث بمستعمراتها بالقوة. وفى نفس يوم احتفالها بتحررها من ألمانيا- الثامن من مايو عام ١٩٤٥- أطلقت القوات الفرنسية النار على مظاهرة تحرر سلمية فى مدينة سطيف بالجزائر متسببة فى قتل مئات المدنيين(٢٥). وعند انسحاب آخر الجنود الفرنسيين من شمال أفريقيا، فى ١٩٦٢، كان قد قتل أكثر من نصف مليون نسمة جلهم من الجانب الجزائرى. فى ڤيتنام، ظل الفرنسيون يحاربون ضد قوات "ڤيتمنه" حتى ١٩٥٤.

بالنسبة للـڤيتناميين والجزائريين وكل من هاجموا النظام الاستعمارى بعد ١٩٤٥، كان وجود قوتين عظميين، كلتاهما حريصة على إبعاد نفسها عن الاستعمار الأوروبى، قد فتح احتمالات جديدة بالدعم والمساعدة. فى اختلافها التام عن نظام القرن التاسع عشر للدول وعن عملية التوسع الاستعمارى، كانت الحرب الباردة ثنائية القطبية إلى درجة المقصورية، بمعنى أنه لو كان أعداء طرف ما يحصلون على الدعم من إحدى القوتين العظميين، فهناك فرصة لحصول هذا الطرف على الدعم من القوة العظمى الأخرى. وكما سنرى، فإن وجود داعمين أقوياء فى الخارج كان عنصرا رئيسيا لعدم الاستقرار بداخل دول العالم الثالث- فقد ساعد على خلق تمرد وثورات بعد زوال الاستعمار. لكن فى تلك الحالات القليلة نسبيا، حيث كان الطريق إلى الاستقلال حربا طويلة ومفتوحة، كانت المساعدة العسكرية -غالبا من الاتحاد السوڤيتى وحلفائه- أمرا حيويا أثناء الخمسينيات والستينيات.

كان التحرر فى الغالبية العظمى من المناطق المستعمرة وخاصة فى أفريقيا عملية سريعة بشكل مذهل. فى غضون خمس سنوات من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٢ فقط نشأت خمس وعشرون دولة جديدة، بعد بضع سنوات فقط من التحضير فى معظم الحالات. وكثيرًا ما انتقلت النخبة التى ظهرت بعد الاستعمار مباشرة إلى الدولة التى كانت القوة الاستعمارية قد أنشأتها، وأصبحت الحكومة- على حد تعبير المؤرخ ديــفيد أبرنيثى ***David Abernethy***، وهى المأوى الذى أنشأه المستعمرون- أصبحت لأول مرة متاحة لأناس جدد يشغلونها[٢٦]. كانت المؤسسات والممارسات المنقولة من العاصمة أثناء فترة الاستعمار فى قلب هذه الدولة الجديدة بعد الاستقلال، غالبًا مع وجود هيئة بيروقراطية من السكان الأصليين موروثة من الماضى كما كانت الحال فى الهند أو نيــچيريا. الكيان الذى حاول الزعماء الجدد أن يملأوه بالمحتوى الذى أرادوه، كان بناء استعماريًا: بحدوده وعاصمته ولغته الرسمية. لقد كان من البداية كما قال عالم الاجتماع الفرنسى برتراند بادى ***Bertrand Badi*** "دولة مستوردة".

لم تكن مشكلة الزعماء الجدد تكمن فى شعورهم بأن الإمبراطوريات كانت ظالمة فحسب، وإنما فى شعورهم بأنهم فشلوا فى استحضار الحداثة التى كانت تريدها النخب المحلية للعالم الثالث. ومن ثم كانت الدولة الاستعمارية، التى ورثوها، رمزًا لفشل الكثير منهم، ومقلصة للبرامج الجديدة الجريئة التى كانوا يتخيلونها. كان هناك أيضًا الشك- وكان فى محله فى بعض الحالات- أن البيروقراطية الاستعمارية لازالت تخدم سيدين؛ أى أن المسئولين الذين تم تعيينهم من قبل النظام القديم يخدمون بوصفهم وكلاء للمصالح السياسية والاقتصادية للعاصمة السابقة. وبما أن القوة الاستعمارية حاولت كثيرًا أن تبقى على بعض استثماراتها الرئيسية- وخاصة فى استغلال المواد الخام- بعد إزالة الاستعمار ، كانت إعادة بناء وظائف الدولة على رأس قائمة الأولويات فى جميع دول العالم الثالث الجديدة.

الحماسة اللامحدودة لدى الجيل الأصغر من سكان المدن كانت هى رأس المال الأساسى الذى حاول زعماء ما بعد الاستعمار استغلاله. يتذكر أحد المفكرين الكينيين الشباب فيقول "كان يوم الاستقلال يومًا لا ينسى. عندما رأيت العلم انخرطت في البكاء. كان ذلك ما انتظرناه وحاربنا من أجله لسنوات طويلة وعصيبة. لأول مرة فى حياتى أشعر أنى إنسان مكتمل الآدمية، فلن يحكمنا الغرباء بعد اليوم، بل سنقوم نحن بحكم أنفسنا"[٢٧]. قليلون جدًا من مؤيدى الاستقلال كان لديهم شك فى أنهم سيكونون أفضل فى جميع الأمور بعد خروج الأوروبيين. وكثير من المراقبين فى الخارج كانوا يتفقون مع هذا الاستنتاج، على الأقل من حيث التنمية على المدى البعيد، وخاصة فى تلك الدول الجديدة، حيث يمكن حصاد الكثير من الموارد الطبيعية على أيدى جيل من الشباب الكثر الراغبين في العمل الشاق تحت رئاسة السلطات الجديدة وإرشادها.

وكما رأينا، بقيت إقامة دولة قوية هى الهدف الأساسى لدى النخب فيما بعد الاستعمار ، أيًا كانت خلفياتها السياسية أثناء الكفاح لنيل الاستقلال. التأكيد على الدولة يعود سببه إلى الشعور بأنه فقط من خلال حشد القوة العاملة والموارد، تستطيع دول العالم الثالث أن تبتعد عما كان يسمى فى الخمسينيات بـ "التخلف"- وهو موقف اقتصادى واجتماعي توصف به الدول فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بأنها أقل إنتاجية، ومن ثم لديها ماديات أقل لتقدمها لمواطنيها، من تلك الموجودة في الدول الأوروبية. وكما قال الزعيم الجديد للمستعمرة البريطانية السابقة ساحل الذهب ***Gold Cost*** "كوامى نكروما" ***Kwam Nkromah*** لمواطنيه "حالما حصلنا على الحرية فإن أمامنا مهمة كبرى،

> **إن المناطق التى كانت خاضعة للاستعمار متخلفة فى التعليم والزراعة والصناعة، ويتطلب الاستقلال**

الاقتصادى، الذى لابد أن يحدث ويحفظ الاستقلال السياسى، مجهودًا كبيرًا من الناس، وتحريكًا كاملا للموارد الفكرية وموارد القوة العاملة. وعلى الإقليم الذى كان تابعًا فى يوم ما أن ينجز فى جيل واحد ما أنجزته الدول الأخرى فى ثلاث مائة سنة أو أكثر لو أراد الحياة والبقاء. ما لم يندفع كالصاروخ فسوف يتخلف، ومن ثم يخاطر بكل ما حارب من أجله(٢٨).

الاندفاع "كالصاروخ" إلى الحداثة الذى أراده نكروما للدولة الجديدة- والتى أسماها"غانا"، وكان اسمها ساحل الذهب- أصبح أمرًا محيرًا، ليس فى غرب أفريقيا وحسب، وإنما فى العالم الثالث بأسره. فبينما كان نصيب الفرد من الناتج المحلى يعادل فى أوروبا الغربية خمسة أضعاف نصيب الفرد من الناتج المحلى فى أفريقيا وآسيا فى الخمسينيات، اتسعت الهوة فى السبعينيات- قرب نهاية عملية إزالة الاستعمار لتصل إلى ٨ : ١ بالنسبة لأفريقيا و ٨,٥ : ١ فى آسيا(٢٩). وثبت أن الكفاح من أجل التنمية معركة متصاعدة بالنسبة لكثير من دول العالم الثالث، لأنها أساسًا كانت مجبرة أن تتنافس فى إطار نظام عالمى يتحرك لخدمة مصالح المراكز الاستعمارية السابقة. وبناء عليه وجد زعماء العالم الثالث أنهم يحتاجون إلى المزيد من الجهد فى بلدانهم ليخترقوا ما أصبحوا فى أواخر الستينيات يسمونه بـ"حاجز التنمية".

ومع تلاشى التفاؤل المبدئى للسنوات الأولى من الاستقلال، فهم الكثير من زعماء العالم الثالث أن عليهم اتباع منهج جذرى للوصول إلى مآربهم. فبداخل الدولة، سوف يحتاج رجال الاستعمار القديم فى مواقع المسئولية أن يُستبدلوا برجال "جدد" جديرين بالثقة من الناحية السياسية، بينما الزعماء والسياسيون سوف يحتاجون

إلى المزيد من السلطة على جميع المستويات. وفى المجتمع ككل، احتاجت الدولة إلى الحصول على دور متزايد فى تنظيم الإنتاج لكى تقوم بالاستفادة من الموارد النادرة المتاحة. وبما أن الاستثمارات الأجنبية التى أرادتها الكثير من حكومات العالم الثالث الجديدة لم تتحقق بوجه عام- غالبًا لأن الأنظمة الجديدة كانت مشغولة بتأميم الاستثمارات الأجنبية الموجودة بالفعل، وهو سبب وجيه- فإن التخطيط الاقتصادى كان يتجه نحو الاكتفاء الذاتى وبدائل المستورد. وتبعـًا لنكروما والذى كان قد تعلم من الحنكة السياسية من هارول لاسكى ***Harold Laski*** بمدرسة لندن للاقتصاد،

> **إن الرأسمالية هى نظام معقد تمامًا بالنسبة لشعب حديث الاستقلال. ومن هنا تأتى الحاجة إلى مجتمع اشتراكى. لكن حتى النظام القائم على العدالة الاجتماعية والدستور الديمقراطى قد يحتاج إلى دعم، خلال الفترة التالية للاستقلال، بواسطة إجراءات طوارئ سلطوية. فدون انضباط لا يمكن للحرية الحقيقية أن تحيا(٣٠).**

السبب الرئيسى لعودة الكثير من أنظمة العالم الثالث إلى الراديكالية فى الستينيات كان اكتشاف زعمائها مدى الفقر المدقع الذى يرزح تحته معظم مواطنيهم. هؤلاء الذين لم يقضوا وقتًا فى مناطق ريفية خلال الحرب من أجل الاستقلال- نكروما مثلا مقارنة بهو شى منه- اكتشفوا مدى الإملاق فى الريف وهم يجوبون البلاد فى سياراتهم الرسمية بعد الاستقلال. فمن ناحية، كانوا قد أمضوا معظم حياتهم فى المدن أو فى المنفى أو فى السجن ولذا فقد هالهم ما رأوا ووجدوا حاجة فى أن يُحسِّنوا من حظ مواطنيهم. لكن العدالة الاجتماعية كانت أيضًا، بالنسبة لمعظم

الزعماء، وعذا موجوذا بداخل عملية التحرر من الاستعمار نفسها؛ فقد طلبوا دعم الفلاحين لخلق أمة- وظنوا أنهم حصلوا عليه- وكان عليهم الآن أن يفوا بوعودهم في حياة أفضل.

وبسبب التوزع العالمي للقوة، وبسبب الانقسام الأيديولوجـــي للحرب الباردة، كان هناك نموذجان للتنمية عند إنشاء الدول الجديدة. أحدهما تمثله الولايات المتحدة، وهو يعد بنمو حضري مكثف في القطاعين العام والخاص واستيراد المنتجات الاستهلاكية المتقدمة وأحدث التكنولوجيا من خلال الانضمام إلى السوق الرأسمالية العالمية والتحالف مع الدولة الأقوى في العالم. والآخر نموذج الاتحاد السوفيتي، وهو يقدم نموًا تدفعه السياسة من خلال خطة مركزية وتعبئة شعبية مع التأكيد على الصناعات الثقيلة ومشاريع البنية التحتية الكبرى وجماعية الزراعة بعيدًا عن الأسواق العالمية. النموذج الأمريكي كان ملطخًا بارتباط الرأسمالية الأمريكية برأسماليـــة الطغـــاة المستعمرين. أما النموذج السوفيتي فقـــد عانى من صورة الاتحاد السوفيتي كقـــوة عظمى "ثـــانوية"، واعتبـــار منتجاتـــه وتكنولوجيته من الدرجة الثانية. غير أن كليهما كان يقدم طريقًا للحداثة من خلال التعليم والعلوم والتقدم التكنولوجـــي.

وكما رأينا، فبينما تطوّر التحالف السياسي بين الاتحاد السوفيتي مع العالم الثالث ببطء، أصبح النموذج السوفيتي للتنمية مؤثرًا في أنظمة العالم الثالث التي اندفعت نحو اليسار في السنوات الأولى بعد الاستقلال. كان السبب الرئيسي للميل إلى اليسار هو الشعور بأن النمط السوفيتي هو الأكثر توافقًا مع مبادئ مركزية الدولة والعدالة التي كانت لديهم من أجل تنمية دولهم الجديدة، مع الاعتقاد المصاحب بأن الاتحاد السوفيتي يتقدم أسرع من الولايات المتحدة. ورغم أن عدد الدول الخاضعة للزعامات الماركسية بقيت أقلية صغيرة وإن كانت متنامية – فإن

الدول من زامبيا إلى الجزائر، ومن سوريا إلى إندونيسيا، كان يترأسها زعماء يؤمنون بالتعلم من التجربة السوفيتية، فقد قال نهرو رئيس الهند، بينما كان يحارب الحــزب الشيــوعى فـــى بلاده من أجل الاستقلال، أمام وفد سوفيتي زائر في عام ١٩٤٧:

> **لسنوات كثيرة ماضية ونحــن ننظــر إلـــى الاتحــاد السوفيتى باهتمام كبير لعدة أسباب لعل أهمهـــا هـــو الإنجازات الكبرى التى حققها فى ربع القرن الأخير أو نحو ذلك... لقد كنتم روادًا فى العديد مـــن المجـــالات وقد قمتم بتحويل مسارات بلادكم أمام أعيننا بـــصورة أدهشت البشرية. وحتمًا عندما نريد أن نحدث تغيرات كبرى بالهند فسوف نتعلم منكم. إننا نريد أن نعرف ما فعلتموه وكيف فعلتموه، وكان مـــن ضـــمن الأشـــياء الكثيرة التى أنجزتم ازدهار العلم فى الاتحاد السوفيتى وتطبيقه، لتحسين حياة البشر الذين يعيشون فى تلـــك المناطق الشاسعة[٣١].**

العلم والتعليم كانا في قلب مشروع بناء دول حديثة بالعالم الثالث، خاصة وأن أربعة وثلاثين من الرؤساء التنفيذيين الجدد كانوا قد تعلموا وتدربوا في جامعات بالعواصم الإمبراطورية السابقة[٣٢]. ومن خلال البرامج الحكومية مرت الدول الاستعمارية السابقة بثورة في مجال التعليم، حيث تعاظمت نسبة الالتحاق بالمدارس الثانوية بينما ارتفعت أرقام التعليم العالى لأكثر من سبعة أضعاف في المتوسط من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٠. حتى أشد الدول فقرًا كانت ترسل الألوف من الطلاب للدراسة بالخارج في الولايات المتحدة أو أوروبا أو الاتحاد السوفيتي. لكن

فى كثير من الحالات كان يبدو أن الاستثمار فى التعليم لا يأتى بمردود من حيث التنمية الاقتصادية، وكثيرًا ما عاد الطلاب ذوو الإمكانات العالية إلى وظائف حكومية ضئيلة الأجور أو إلى البطالة. وبينما لم يكن هناك اتجاه واضح من حيث الأفكار السياسية عما اكتسبه جيل ما بعد الاستعمار هذا من الخارج- فبعض الذين سافروا إلى غرب أوروبا أو الولايات المتحدة عادوا ماركسيين بينما بعض من ذهبوا إلى الاتحاد السوفيتى أصبحوا ينتقدون الشيوعية السوفيتية- فهناك ارتباط واضح بين الراديكالية والعودة إلى البطالة أو الوظائف زهيدة الأجر فى الوطن. الكثير من الأنظمة الراديكالية فى الستينيات والسبعينيات وخاصة فى أفريقيا كان يشعلها آراء المفكرين الساخطين الذين يمتلكون الكثير من الوقت.

كان بناء الصناعة طموحًا كبيرًا آخر لدى أنظمة ما بعد الاستعمار ، وهو طموح كانت تبدو فيه الفروق بين الدول المختلفة أشد وضوحًا. فمنذ الستينيات بدأت تظهر فجوة كبيرة بين دول العالم الثالث القليلة التى كان لديها بعض قواعد للصناعات المحلية ورأس المال، والتى كانت تستهدف الأسواق العالمية وتستطيع دخولها، والتى قامت بسياسات صناعية وتجارية وتكنولوجية منتظمة تهدف إلى التصدير- بين هذه الدول والدول الأخرى التى لم يكن لديها ذلك. وفى حين بدأت بعض اقتصادات شرق آسيا وجنوب شرق آسيا تنمو سريعًا، كان النمو فى الدول التى أكدت على الاكتفاء الذاتى وإحلال الاستيراد، وخاصة فى أفريقيا، أبطأ كثيرًا. بالطبع هناك الكثير من الأسباب، بالإضافة إلى خيارات السياسة الداخلية، التى أدت إلى نمو بعض الاقتصادات أسرع من غيرها- القليل من هذه الأسباب- مثل توفر الدعم الأمريكى، اعتمد إلى درجة كبيرة على الحرب الباردة- لكن القضية التى تهمنا هنا هى أنه فى أواخر الستينيات، كان هناك شعور متزايد فى الكثير من دول العالم الثالث بأن الزعماء الأول بعد الاستعمار فشلوا فى جهودهم التنموية. وقد

ساهم هذا الجدل في المزيد من عدم الاستقرار السياسي، بل وفي بعض الحالات، أدى إلى رفض كامل للمؤسسات السياسية التي أنشئت عند الاستقلال.

كانت أكثر النقاط إثارة للجدل في صناعة السياسة في دول ما بعد الاستعمار هي الإصلاح الزراعي. فالوعد الرئيسي الذى أعطته النخب التي قادت حركات التحرر للفلاحين لدفعهم للكفاح "الوطني" كان حصولهم على الأرض عند كسب الصراع. ومن ثم كان الإصلاح الزراعي يمثل قضاء الديون السياسية كما كان يمثل البحث عن زيادة الإنتاجية والعدالة الاجتماعية والقضاء على فقر الفلاحين. لكن في الكثير من الحالات اتضحت صعوبة الوفاء بالوعود بدون آثار كارثية على الاقتصاد. في شمال فيتنام، حيث صودرت أراضي معظم الفلاحين الذين لم تكن ممتلكاتهم تعد أكثر من بضع أفدنة في ١٩٥٥ – ١٩٥٦، كانت النتيجة سيلا من اللاجئين إلى الجنوب، وفقدان الإنتاجية في الحكومة الشيوعية. في مصر بدأ إصلاح أكثر اعتدالا في ١٩٥٢، لم يطل سوى ١٢% فقط من الأراضي المزروعة– مازالت له آثار ملموسة، حيث خفض الناتج التجاري من الزراعة إلى نحو الـــ ٥٠% وذلك لأنه قضى على المزارع الأكبر والأكثر إنتاجا. بيد أن الآثار الاقتصادية بالنسبة لمعظم نظم العالم الثالث نفسها كانت أقل أهمية من الآثار السياسية، فقد رأى الزعماء الجدد أن الإصلاح الزراعي أمر جيد، لأنه حطم "الإقطاع" وأمَّن دعم فقراء الفلاحين للحكومة الجديدة وللدولة التي أنشأتها(٣٢).

وفي حين يمكن الجدل بأن معظم قوانين الإصلاح الزراعي قد أتت بالنفع بوجه عام مع الزمن– على الأقل في تلك الحالات التي لم تُمحَ فيها كرامة الفلاحين وشعورهم بالملكية بسبب أشكال الجمعانية وانعدام الاستثمار– فمن الأصعب رؤية نفع طويل الأمد من خلال السياسات القومية في معظم النظم الجديدة. فأسطورة أن "أمة" جامعة توجد في الحدود العشوائية التي رسمتها قوى الاستعمار، أدت إلى

بؤس شديد لمن لم يجدوا أنفسهم جزءًا من ذلك الكيان. ففى العراق لم يجد الأكراد أو المسلمون الشيعة مكانًا في الدولة البعثية الجديدة. وفي الجزائر قاوم البربر تعريب نظام ما بعد الاستعمار . أما في زيمبابوى فقد أرغمت قبائل النديبيلى *Ndebele*، وهم أقلية، على القبول بدولة تقوم على مصالح الأغلبية الشونا *Shona*. أما في رواندا وبوروندى- أفشل الدول التى أنشئت في العالم الثالث بعد الاحتلال- فقد أدت مشاريع الدولة المختلفة وبناء الأمة إلى حروب طاحنة بين مجموعات السكان الرئيسية- الهوتو *Hutu* والتوتسى *Tutsi*.

دفعت الحاجة إلى خلق دولة مؤثرة ومتكاملة- التى حلت في بعض الأحيان محل "الأمة" غير الموجودة – دفعت الكثير من زعماء العالم الثالث إلى إضرام التوتر العرقى القديم وتصعيده بدلا من إطفائه. وأدى امتداد يد الدولة لأبعد مما كان موجودًا أيام الاستعمار إلى المقاومة- في الغالب على يد الفلاحين- ضد الهجمات على هوياتهم- وأحيانًا على دياناتهم. لكن بالنسبة لمعظم النظم الجديدة كان هذا الامتداد الوحشى ضرورة للوصول إلى الحداثة التى أرادوها. وشعر الزعماء بأن الظروف كانت ضدهم عند الاستقلال بسبب قلة الاتصالات والأمية وما رأوه من كراهية خلفها الاستعمار. كانوا يخشون- وعلى حق في بعض الأحيان- أن القوى الاستعمارية قد تستخدم أساليب انفصالية لتحطم حكوماتهم. كان خلق أمة بمثابة اختبار قوة عليهم أن يكسبوه. وكان چوليوس نيريرى *Julius Nyerere* مؤسس الاتحاد القومى الأفريقى التنجانيقى *Tanganyika African National Union* *(TANU)* ، وأول رئيس لتنزانيا المستقلة، يقول إنه بينما تحاول بعض الشعوب الوصول إلى القمر، مازال اتحاده يحاول الوصول إلى القرى[٣٤].

الحرب ضد تأثير الدين في حياة الناس كانت قضية رئيسية بعد الاستعمار . فبينما كان العلم والنظام هما أساس الدولة "الصحيحة"، كان "الدين" و "القبلية" هما

شرور الماضى. كان الدين– فى شكليه كعقيدة "مستوردة" أو "محلية"– عدوًا لدودًا، لأنه كان ينافس الدولة الجديدة على ولاء مواطنيها. كانت الدولة التركية الجديدة لمصطفى كمال أتاتورك عدوانية فى علمانيتها لدرجة رفضها لحق المسلمين ارتداء الحجاب خارج المساجد والمدارس. كما رأى ماوتسى تونج أن المعتقدات الدينية فى الصين هى رمز تخلفها. أما بالنسبة لزعيم الحزب الأفريقى لاستقلال غينيا ***(PAIGC) Partido Africano da Independência da Guiné e Cabo Verde*** أميلكار كابرال ***Amílcar Cabral*** فإن تأثير الدين كان مسألة قوة– وكانت ممارسته هى محاولات من قبل الزعماء الإقطاعيين والبرجوازية الصغيرة لكى "يعيدوا بناء سيطرتهم الثقافية والسياسية الكاملة على الناس"(٣٥).

وقد رأى زعماء ما بعد الاستعمار أن المعركة من أجل كسب السيطرة الأيديولوجية على أفراد الشعب تزداد صعوبة بسبب استمرار الاعتماد الاقتصادى على الغرب، من خلال السيطرة الخارجية على استغلال المواد الخام أو القروض الخارجية أو المساعدات التنموية. وفى الكثير من الحالات، مثل (معادن) الكونغو و(بن) نيكاراجوا و(بترول) إيران، كانت الشركات الأوروبية والأمريكية الكبرى تتعلق بالمكاسب الكبرى التى كانت تجلبها من وراء استخراج ثروات العالم الثالث، من خلال محاولتها شراء التحالف السياسى والاقتصادى للنظم المحلية. كان تأميم هذه الأعمال أو الشركات– كما كان يحدث كثيرًا– له دلالة سياسية، ولكنه كان يؤدى إلى انهيار حاد فى كل من الإنتاجية والربحية، بما أن دول العالم الثالث كانت تفتقر إلى المهارات التكنولوجية والمعرفة بالأسواق العالمية التى كانت ضرورية لإنجاح الشركات المؤممة. وفى منتصف السبعينيات كانت معظم أنظمة العالم الثالث قد أصبحت مدينة بديون كبرى إلى مؤسسات الإقراض العالمية وإلى البنوك التعاونية– فقد استدانت دول مثل مصر وتنزانيا مبالغ أكبر من نصف الناتج السنوى الإجمالى. ولما كانت القروض تأخذها الدولة، ولما كان دخل الدولة

ضروريًا لكل من الوظائف والرفاهة فى معظم دول العالم الثالث، فقد أضعفت الكثير من النظم نفسها سياسيًا، لأنها كانت تسحب الأموال من ميزانياتها إلى سداد الديون مباشرة.

وهكذا فإنه أثناء الحرب الباردة، كان توفر المساعدات من إحدى القوتين العظميين أو حلفائها يمثل إنقاذاً ترحب به الكثير من دول العالم الثالث. لكن القليل جدا من المساعدات جاءت بغير شروط- وفى حالة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة لم يحدث ذلك قط. وفى حين أصبح بعض زعماء العالم الثالث خبراء فى التلون السياسى، وفقا لمنشأ هذه المساعدات، فالكثير منهم كان يشعر أن الدول الأجنبية التى تمنح المساعدات سوف تتدخل فى الشئون الداخلية، وفى الاتجاه العالمى الذى تتحرك فيه الدولة. كان "الخبراء" الذين يأتون مع المساعدات فى الغالب يمثلون موضع رفض، لأنهم كانوا يخلقون أجواء اجتماعية ليس للدولة المستقبِلة سوى القليل من السيطرة عليها، حتى وإن أتوا من دول للنظام علاقات وثيقة بها، مثل السوفيت فى أنجولا والأمريكان فى إيران. ثم إن المساعدات بدت أنها حل سريع لبعض الدول بما أنها أخرت حاجة زعماء العالم الثالث أن يبدأوا فى تفحص دوافعهم الأيديولوجية فى التنمية الداخلية أو النظام الحكومى.

أدت الصعوبات فى إنشاء دول قوية إلى زيادة عدم الاستقرار السياسى فى العالم الثالث فى العقدين الأولين بعد الاستقلال. وجاءت المعارضة للحكومات الأولى بعد الاستقلال أساسًا من اليسار- وإن لم يكن اليسار وحده- وكثيرًا ما جاءت من قِبل الحركات الماركسية أو التى تثيرها الماركسية. وأسهمت مشكلات التنمية الداخلية كثيرًا فى هذه العملية. السبب الآخر هو الصراع من أجل إنهاء احتلال بعض المناطق، مثل المناطق التى حكمتها البرتغال فى أفريقيا أو زيمبابوى أو جنوب أفريقيا- وكانت العالمية الموجودة فى الماركسية تجذب الكثير من

الشباب فى الدول المستقلة. وفى الوقت نفسه ذكرت المقاومة الـڤيتنامية للتدخل الأمريكى الكثيرين بثوراتهم المناهضة للاستعمار، وساعدت فى جعل الأشكال الداخلية للرأسمالية الغربية أكثر تغيرًا من ذى قبل. وكان هناك المزيد من الدعم السوڤيتى لبعض الحركات، إذ حولت موسكو اهتمامها إلى العالم الثالث.

ورغم الأسباب الواضحة لعدم الرضا، فمن الخطأ الكامل أن نرى أن وجود جيل جديد من ثوار العالم الثالث باعتباره انفصالا عن الاتجاه اليسارى العام فى الستينيات. فكما أشار المؤرخ چيرمى سورى ***Jeremi Suri***، فإن عقد الستينيات قد شهد الكثير من الثورات المختلفة ضد الأنظمة القائمة على المستوى العالمى، وكانت تلك الثورات فى الكثير من الأحيان، تدعم بعضها بعضًا على المستوى الأخلاقى والفكرى. وقد أسهم الاتجاه اليسارى العام لدى المثقفين فى أوروبا والولايات المتحدة فى الستينيات فى إقناع الثوار الأفارقة والآسيويين والأمريكيين اللاتينين بعدالة قضيتهم. ومع الطفرة الهائلة فى مجال الاتصالات والسفر أثناء ذات العقد، بدأت تختلط مناهج الشمال والجنوب ونقاشاتها على نحو لم يكن يأبه كثيرًا بالمواقف الاجتماعية والاقتصادية التى يتحرك فيها المثقفون. وكثيرًا ما جلب طلاب العالم الثالث أفكارًا جديدة وكبيرة إلى أوطانهم، حيث وجدوا تأكيدًا على إيمانهم لدى المتطوعين فى مجال المساعدات من العالم الأول.

باندونج وحركة عدم الانحياز

بالنسبة لدول العالم الثالث الجديدة، كان هناك الكثير من المشكلات فى الشئون العالمية قدر ما كان هناك مشاكل فى خلق استراتيـچيات تنموية داخلية ناجحة. بدايةً، سيطرت الصعوبات الداخلية على أجندة السياسات، فالقليل فقط من هذه الدول كان لديها سياسة خارجية واضحة عندما أنشـئت. بيد أنه كان هناك

توجهات ومشاعر نحو السياسة الخارجية، كانت قد وجدت أثناء الصراع ضد الاستعمار . فى بعض الأحيان كان هناك روابط قائمة على الأيديولوچيات مع الدول الأخرى من خلال السياسة أو الثقافة. فى معظم الدول الجديدة كان هناك الشعور بعالمية العالم الثالث، وهو شعور قد خلقته المؤسسة الاستعمارية نفسها (أو، كما فى حالة أمريكا اللاتينية، شعور بمواجهة نفس المشكلات مع الولايات المتحدة). فى روايـــة الكاتب چورچ لامينج **George Lamming** التى كتبهـــا فى ١٩٥٣ *"فى قلعة جلدى"* ***In the Castle of My Skin*** يوضح كيف أن واحدًا من جزيرته، بعد أن شهد المظاهرات المعادية للاستعمار فى كل مكان آخر فى الكاريبي، بدأ يفكر أن إنجلترا الصغيرة (جزر الباربادوس) هى جزء من شيء كبير اسمه الاستعمار"[٣٦]. فلو أن الثوريين الذين هزموا مؤسسة الاستعمار كانوا مختلفين، فإن لديهم على الأقل نفس المشاكل التى خلفها الإمبرياليون وراءهم.

كون الدول الجديدة قد أتيحت لها عضوية أشكال مختلفة من المنظمات التى كانت القوى الاستعمارية السابقة قد أنشأتها، مثل الكومنولث البريطانى أو الاتحاد الفرنسي، هو أمر لم يحد من تماسك العالم الثالث بوجه عام. وفى حين نجح الكومنولث- بعد صعوبات مبدئية- فى إنشاء منتدى للنقاش بين العاصمة والمستعمرات السابقة، فإن النسخة الفرنسية فشلت فى ذلك لأنها أنشئت فى ١٩٤٦ فى محاولة صريحة لتجنب الاستقلال الكامل من خلال الموافقة على السلطة المحدودة فحسب؛ وانتهت المنظمة التالية لها، الجمعية الفرنسية ***La Communauté*** التى أنشئت مع الجمهورية الخامسة فى ١٩٥٨، انتهت أثناء السبعينيات، مرة أخرى بسبب محاولات فرنسا أن تحتفظ بحق التدخل فى الشئون الداخلية أو الإقليمية للمستعمرات السابقة. بعض الدول الجديدة- مثل غينيا فى غرب أفريقيا وبورما- رفضت أن يكون لها أى علاقة مع القوى الإمـــبريالية داخل المنظمات أو خارجها على شاكلة الكومنولث.

ازداد الشعور بالجماعية لدى دول العالم الثالث من خلال محاولات زعماء الاحتلال السابقين أن يجعلوهم يختارون من يناصرونه في الحرب الباردة، كما فعل رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان ***Harold Macmillan*** في خطابه الشهير"رياح التغيير" في كيب تاون ***Cape Town*** في ١٩٦٠. فكثير من زعماء العالم الثالث رأوا أن مثل هذه الجهود تهدف إلى الحد من استقلالهم، ومن ثم قاوموها بضراوة رغم تحيزاتهم السياسية. في السنوات التالية للحرب العالمية مباشرة، بدأ البعض يخشى أن تكون بلاده أداة مستقبلية للحرب الباردة، كما أوضح الزعيم التونسي "الحبيب بورقيبة" في ١٩٤٦: "إن شمال أفريقيا من أفضل [الأصول الثابتة] في عيون العالم الأنجلوساكسوني: فهي مفتاح لوسط البحر المتوسط وقاعدة مثالية للعمليات ضد أوروبا الآخذة في التحول إلى البلشفية. ليس لجمال عيوننا إذن أن يزداد الأنجلوساكسونيون انشغالا بمصيرنا"[٣٧].

في الجزء الأول من القرن العشرين كانت هناك عدة محاولات لتكوين روابط عالمية بين الحركات المعادية للاستعمار- بعضها كما رأينا من خلال الكومنتيرن، وبعضها من خلال مؤتمرات التجمعات الأفريقية أو التجمعات الآسيوية[٣٨]. كان المؤتمر الأول الذي جمع الدول الأفريقية قد عقد في لندن في ١٩٠٠، ثم عقدت أربعة مؤتمرات أخرى فيما بين ١٩١٩ و ١٩٢٧، في وجود أمريكيين أفارقة بارزين مثل و.إ.ب.دي بواس ***W.E.B Du Bois*** بوصفهم منظمين أساسيين.المؤتمر الأفريقي الخامس الذي عقد بمنسشتر في إنجلترا في ١٩٤٥ ضم تسعين وفدا، ستة وعشرين من جميع أنحاء أفريقيا بمن فيهم نكروما ***Nkrumah*** وهاستنج باندا ***Hasting Banda*** (الذي أصبح رئيسا لمالاوي)، وجومو كينياتا ***Jomo Kenyatta*** (الذي أصبح رئيسًا لكينيا). أكد المؤتمر أن تحرير أفريقيا والمستعمرات الكاريبية والأفارقة الأمريكيين جزء من الصراع نفسه. كما أكد أن صراعات التحرر الأفريقي مرتبط بعضها ببعض، ولابد من أن يساندها كلها جميع

الأفارقة حتى يتحقق الاستقلال التام لكل الأراضي المستعمرة في كل مكان. ورغم انعقاده خارج أفريقيا، كان مؤتمر مانشستر يمهد إلى مؤتمر كل الشعوب الأفريقية في أكرا في ١٩٥٨، وتأسيس منظمة الوحدة الأفريقية في ١٩٦٣.

كان لمؤتمر آسيا- أفريقيا في أبريل ١٩٥٥ في باندونج بإندونيسيا جذوره في المبادرة التي أخذها زعماء خمسة دول آسيوية- إندونيسيا والهند وباكستان وبورما وسري لانكا؛ ولكن أثناء التحضير له تحول المؤتمر إلى أكبر تجمع يعقد أثناء حقبة الاستعمار لزعماء العالم الثالث، وأشدها تأثيرًا. جزء من أهمية باندونج يعود إلى التوقيت الذي عقد فيه؛ فقد جاء بعد الانسحاب الفرنسي من الهند الصينية مباشرة، وفي وقت كانت فيه عدة دول أفريقية تبدو متجهة نحو الاستقلال، تحين المؤتمر لحظة من الآمال والتوقعات الكبرى في الصراع ضد الاستعمار. كما جاء في نقطة من الحرب الباردة كان الاتحاد السوفيتي فيها- بعد وفاة ستالين ونهاية الحرب الكورية- كان منخرطا في جهود السلام وخفض حدة التوتر. تلك التغيرات الأخيرة سمحت للصين- وكانت حليفًا قويًا للسوفيت حينذاك- أن تشارك في المؤتمر، مع زعماء كان ماو قد نعتهم من قبل بأنهم خدم الإمبريالية. كذلك فإن التفاؤل الجديد في العلاقات بين القوى العظمى كان له نصيب في أجندة المؤتمر- فكما قال نهرو وسوكارنو، كانت الدول الممثلة في باندونج، وتعداد سكانها يتجاوز مليارًا ونصف المليار نسمة، عليها مسئولية أن تجعل القوى الأوروبية تجد معنى في علاقاتها بعضها ببعض.

كان الكاتب الأمريكي الأفريقي، والعضو السابق في الحزب الشيوعي، ريتشارد رايت ***Richard Wright*** من بين من شهدوا افتتاح المؤتمر.

> **عندما صعدت إلى بهو الصحافة ونظرت إلى الجمع الغفير من الموفدين، وكثير منهم يرتدي زيه القومي**

الفخم، سرعان ما شعرت أن هناك حلقة مهمة من حلقات التاريخ تصنع الآن. في الأيام الباكرة والعصيبة للثورة الروسية، كان لينين يحلم بمثل هذا التجمع، تكتل من مظاليم العالم يأتون لمساعدة السوفيت... (ولكن) من وجهة النظر الستالينية الصارمة فإن اجتماعًا مثل هذا لم يكن واردًا، لأنه من الواضح أن الشيوعيين لا سيطرة لهم هنا... كل دين طلعت عليه الشمس، كل جنس من أجناس البشر على الأرض، كل رأى سياسى؛ مليار ونصف المليار من البشر من مساحة ١٢,٦٠٦,٩٣٨ ميل مربع يتم تمثيلهم هنا الآن"[٣٩].

صورة شعلة الحضارة وهى تنتقل إلى قارات جديدة خارج أوروبا كانت موجودة لدى زعماء العالم الثالث فى باندونج. نهرو تحديدًا تحدث عن المسئولية والتضحية بأسلوب يعطى المصداقية للسنوات التى قضاها فى المدرسة البريطانية ولمنصبه الجديد رئيسًا لوزراء الهند[٤٠]. لكن فى قلب جهود الزعماء المحليين بباندونج كانت تكمن محاولة لخلق أيديولوچية موحدة، من شأنها أن تحل محل نظام الحرب الباردة، على الأقل فيما يتعلق بالعالم الثالث. فى خطابه الافتتاحى للمؤتمر، عَوَّل سوكارنو هدفه فى دمج القومية والإسلام والماركسية فى أيديولوچية أخلاقية جديدة فى إندونيسيا:

ربما الآن أكثر من أى لحظة أخرى فى تاريخ العالم، يحتاج المجتمع والحكومة والسياسة أن يقوموا على أعلى أنماط الأخلاقيات والمثل. ولكن ما هى أعلى أنماط الأخلاقيات والمثل من الناحية السياسية؟ إنها

> إخضاع كل شيء لخير البشرية. لكننا اليوم في مواجهة موقف لا نجد فيه خير البشرية موضع الاهتمام الأول، فكثيرون ممن في موضع القوة يفكرون- بدلا من ذلك- في السيطرة على العالم[41].

كانت الطريقة الوحيدة- حسبما ادعى سوكارنو- لاستعادة الأخلاقيات في العلاقات الدولية، هي من خلال جهود العالم الثالث الذى عانى كثيرًا من مظالم الاحتلال، ومن ثم سوف يستطيع أن يفهم هذه الأهداف أكثر من المجتمعات الأوروبية. ولكن مثل هذه الجهود كانت تحتاج إلى وحدة العالم الثالث:

> أنا على يقين من أننا كلنا نتحد حول أشياء أهم من تلك التي تقسمنا. فنحن متحدون مثلا على كراهية الاستعمار بكل أشكاله ومتحدون على كراهية العنصرية، ومتحدون على الإصرار على الحفاظ على السلام وإقراره في العالم... نسبيا جميعنا هنا جيران. وكلنا لدينا نفس التجربة، تجربة الاستعمار . والكثير منا له نفس الديانة، والكثير منا له نفس الجذور الثقافية، والكثير منا، من يسمون بالشعوب "المتخلفة"، لدينا نفس المشكلات الاقتصادية بحيث تستطيع كل دولة منا أن تستفيد من تجارب غيرها ومساعدتهم. وأعتقد أنني يمكن أن أقول إننا جميعًا نعتز بمبادئ الاستقلال الوطني والحرية. نعم، لدينا الكثير من الخصائص المشتركة؛ لكننا لا نعرف سوى القليل عن بعضنا البعض[42].

ولكن لكي تستطيع دول العالم الثالث أن تحقق مصيرها بأن تتعرف على بعضها البعض، ومن ثم تضع العالم في شكل أفضل، كان تجنب الحرب النووية بين القوى العظمى أمرا جوهريا.

ما عسانا أن نفعل؟ بوسعنا أن نفعل الكثير! علينا أن نحشد كل القوى الروحية والأخلاقية والسياسية لآسيا وأفريقيا في جانب السلام. نعم، نحن! نحن شعوب آسيا وأفريقيا، مليار وأربعمائة ألف نسمة، أكثر من نصف تعداد العالم، نستطيع حشد ما أسميه "العنف الأخلاقي للأمم" من أجل السلام. وبإمكاننا أن نوضح للأقلية في العالم، الذين يعيشون في القارات الأخرى أننا – الأغلبية – نناصر السلام، لا الحرب، وأن كل قوة لنا سوف نضعها من أجل السلام (٤٣).

مسألة إيجاد أساليب للتعامل مع الحرب الباردة كان لها نصيب أيضًا من جلسات مؤتمر باندونج. وفي حين اتفقت الوفود على أن القوى العظمى أساسًا قد "خرجت من أوروبا"، كما قال أحد الموفدين، كذلك فهم الموفدون الآخرون أن كلا من واشنطن وموسكو هم أشكال خاصة من القوى الأوروبية، ولهما علاقة مضطربة مع الاستعمار من حيث الأيديولوجية. في خطابه الافتتاحي، اقتبس سوكارنو قصيدة لونجفيلو ***Longfellow*** *"طريق بول ريفير"* ***Paul Revere's Ride*** واعتقاده الشخصي أن الصراع العالمي ضد الاستعمار قد بدأ منذ ١٨٠ عامًا في أمريكا(٤٤). أما نهرو فقد قاوم محاولات دول العالم الثالث ذات التوجهات الغربية- بقيادة دول حلف بغداد، العراق، إيران وتركيا- لإدانة الاتحاد السوفيتي بسبب الاستعمار في أوروبا الشرقية. "مهما عارضنا ما حدث في دول أوروبا الشرقية وفي كل مكان آخر، فإنه ليس استعمارًا ... يبدو لي غريبًا أننا نناقش الشعوب على أساس من وجدنا فيهم السلطة ثم نقول بأنهم مستعمرون"(٤٥).

قد يكون اضطرار الدول الأصلية لقضاء وقت طويل في المؤتمر وهي تحاول أن تتعامل مع قضايا الحرب الباردة هو ما دفعها وقارب بينها في إصرارها على وضع مبادئ عدم الانحياز؛ وكان موقف الوفد الصيني برئاسة رئيس الوزراء شو ان لاي *Zhou Enlai* قد ساعد على رؤية عدم الانحياز والشعار الشيوعي الذي أعيد إحياؤه مرة أخرى عن التعايش السلمي باعتبارهما موضع نقاش(٤٦). وأخبر شو ان لاي المؤتمر بأن:

> **الوفد الصيني قد جاء إلى هنا للبحث عن أرضية مشتركة، لا ليخلق اختلافات... لقد عانت ولا زالت تعاني الغالبية من الدول الأفروآسيوية وشعوبها كثيرًا من ويلات الاستعمار. إذا اتحدنا لإزالة هذه المعاناة فسيكون من السهل جدًا علينا أن نحقق التفاهم والاحترام المتبادلين (٤٧).**

وفي خطابه أمام جلسة مغلقة في المؤتمر، صاغ نهرو ما اعتبره جوهر مبدأ عدم الانحياز:

> **بالنسبة لي لا يهم أي الحروب تندلع: فلن يكون لنا دور فيها إلا إذا كان علينا أن ندافع عن أنفسنا، فلو أني انضممت إلى أي من هذه المجموعات الكبيرة فسوف أفقد هويتي؛ لن تكون لي هوية ولن يكون لي رأي ... وإذا انقسم العالم كله بين تلك الكتلتين الكبيرتين فماذا ستكون النتيجة؟ ستكون الحرب هي النتيجة الحتمية. إذن فكل خطوة تتخذ للحد من هذه المساحة في العالم، وهي المساحة التي يمكن أن نطلق**

عليها "مساحة عدم الانحياز" هى خطوة خطيرة وتؤدى إلى الحرب. فهى تحد من تلــك الموضــوعية، ذلــك التوازن، تلك النظرة التى قد تستطيع الــدول الأخــرى التى لا تملك قوة عسكرية أن تمارسها (٤٨).

الصراعات من أجل التحرر التى لم تكن قد انتهت بعد، كانت تمثل جزءًا رئيسيًا من اهتمام معظم الوفود فى مؤتمر باندونج. فالكثير من حركات التحرر كانت ممثلة، ورغم أنها لم تتبن الصراع المسلح، فقد ناشد المؤتمر فرنسا بالاعتراف بحق شعوب شمال أفريقيا فى تقرير المصير والاستقلال. كما نادى بإنهاء التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين؛ لكن الوفود لم تتوافق كثيرًا بشأن الدعم الفعلى للمناطق التى كانت تحت سيطرة الاستعمار .

كذلك لم يمض الاجتماع وقتا طويلا ليناقش معنى "الحرية" بالنسبة للحقوق السياسية للمواطنين فى الدول الممثلة. وبدلا من ذلك استخدم نهرو الحريات الشخصية البسيطة فى الكثير من دول العالم الثالث بوصفها نوعًا من الجدل ليتجنب انتقاد الافتقار إلى الحريــة فــى الدول الاشتراكية- " إذا تفحصنا حال الحرية، حال الحرية الفردية أو الوطنية، حال الحريات الديمقراطية أو حال الديمقراطية نفسها فى الدول الممثلة هنا، حسن، أشعر أن الكثير منا يفتقر إليها بشدة"(٤٩). ولمعرفته الكاملة بأن شرعية الكثير من الحكومات الممثلة فى باندونج محدودة، لم يشأ نهرو أن يجعل المناقشات بشأن الديمقراطية تطغى على الوحدة الهشة التى صنعها هو والمنظمون الآخرون للمؤتمر، وكانت هذه اللفتة لتلازم حركة عدم الانحياز طوال وجودها.

ركز البيان الختامى للمؤتمر، الذى أقرته الدول التسع وعشرون الممثلة، على التعاون الاقتصادى والثقافى. وكانت هناك آمال عريضة بأن تقوم دول العالم

الثالث الأكثر تقدمًا من حيث التكنولوجيا بمساعدة نظيراتها لتصل إلى أهدافها التنموية، حتى يمكن الحد من الاعتماد على "القوى الخارجية". وأكد البيان تحديدا على تعاون العالم الثالث في تصدير المواد الخام؛ واقترح، مثلا، أن يتم تبنى "سياسات عامة" فيما يخص "الأمور المتعلقة بالبترول"- وهى المبادرة التى أدت إلى إنشاء الأوبك *OPEC* فى ١٩٦٠. ولكن الدلالة الأهم للبيان كانت فى المبادئ العشر الأساسية التى أدرجت فى آخره، والتى أريد بها أن تحكم العلاقات بين دول العالم الثالث.

١- احترام حقوق الإنسان الأساسية واحترام أهداف ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

٢- احترام سيادة أراضى جميع الدول ووحدتها.

٣- الاعتراف بالمساواة بين جميع السلالات وبين جميع الأمم كبيرها وصغيرها.

٤- الامتناع عن التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى.

٥- احترام حق كل شعب فى الدفاع عن نفسه، وحده أو على نحو جماعى، وفقًا لميثاق الأمم المتحدة.

٦- أ. الامتناع عن استخدام ترتيبات الدفاع الجماعى لخدمة المصالح الخاصة لأى دولة من القوى الكبرى.

ب. امتناع أى دولة عن ممارسة أى ضغوط على غيرها من الدول.

٧- الامتناع عن أى فعل أو تهديد بالعدوان أو استخدام القوة ضد وحدة أراضى أى دولة أو استقلالها السياسى.

٨- تهدئة أى صراعات عالمية بالطرق السلمية كالمفاوضات والتصالح والتحكيم القضائى وكذلك بالطرق السلمية التى تختارها الأطراف توافقا مع ميثاق الأمم المتحدة.

٩- زيادة المصالح المشتركة والتعاون.

١٠- احترام العدالة والالتزامات الدولية[٥٠].

وفى خطابه الختامى بالمؤتمر، دعا نهرو القوى العظمى إلى احترام مبادئ إعـلان باندونج وبدء صياغة قواعد مشابهة للتعامل فيما بينها. وقال نهرو رئيس وزراء الهند:

> **إن لدينا هذه الفرصة العظيمة، هذه الفرصة الفريدة للقيام بدور بناء وسلمى فى العالم اليوم بأسلوب ودى. ولا يعنى ذلك أننا نحب كل شىء يحدث فى الاتحاد السوفيتى أو فى أمريكا- ولكن- علينا ألا نزيد من مشاعر الكراهية، فلو قمت بفعل الأشياء بالأسلوب الصحيح، سوف يستجيب لك الناس وسوف تحصل على نتائج جيدة... [حتى] وإن لم تكن النتائج سريعة...إننى أؤكد إذن أن السياسة التى سوف ينتهجها هذا المؤتمر هى سياسة التعايش السلمى[٥١].**

فى حين خلق مؤتمر باندونج شعورا جديدا بالتقارب بين الدول الأفريقية والآسيوية، أثار المؤتمر مخاوف كبرى فى كل من واشنطن وموسكو. وقد مثل الاجتماع بالنسبة لإدارة أيزنهاور انجراف الدول المحايدة نحو اليسار، فى حين عبث وزير الخارجية جون فوستر دالاس *John Foster Dulles* بفكرة مؤتمر

"عكس باندونج" تحت رعاية الولايات المتحدة، تكون لدول العالم الثالث الغربية التوجهات اليد العليا فيه. وبوجه عام استنتج وزير الخارجية أن مقدرة دول العالم الثالث التي تم اكتشافها أخيرًا على العمل في وحدة، كانت تعني أن "ساحة المعركة بين العالم الحر والعالم الشيوعي قد بدأت تتغير"[٥٢]. في موسكو رحب خروشوف *Khrushchev* بالاتجاه السياسي العام للمؤتمر، لكن الكثير من معاونيه انتابهم القلق من أن التنظيم العالمي المستقل لزعماء العالم الثالث سيجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لكل من الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية المحلية لكي تحظى بالتأييد. بعبارة أخرى، فإن عدم الانحياز أمر حسن لو أنه كان يعني الانفصال عن الإمـبريالية، وكان سيئًا لو أنه كان يعني الاحتفاظ بالحكم البرجوازي كما هو الحال في الدولة المضيفة، حيث كان تأكيد سوكارنو على وحدة العالم الثالث تهميشًا للحزب الشيوعي الإندونيسي[٥٣].

ازدادت المخاوف السوفيتية في صيف ١٩٥٦، عندما التقى نهرو بالرئيس المصري جمال عبد الناصر والزعيم اليوغوسلافي جوزيف بروز تيتو *Josep Broz Tito* في جزيرة بريوني بالبحر الأدرياتيكي[٥٤]. ورغم أن خروشوف كان يبذل أقصى ما في وسعه حتى يغري تيتو بالعودة إلى الحركة الشيوعية العالمية (وكان ستالين قد أخرجه منها في ١٩٤٨) فإن زعيم الحزب السوفيتي كان يعرف أن اليوغوسلاف قد بدأوا طريقًا يتيح لهم الاستقلال السياسي والأيديولوجـــي عن موسكو. وكما جاء على لسان أحد كبار المساعدين "فكرة أن يكون هناك مجموعة من الزعماء أمثال تيتو يقودون العالم الثالث فكرة غير مستبعدة لدى الكرملين"[٥٥]. بيد أنه من وجهة نظر العالم الثالث، كان لقاء بريوني العلامة الأولى والقصوى على مدى تطور العلاقات الشخصية بين الزعماء: فعندما توقف الزعيم المصري الشاب في نيودلهي في طريق عودته من باندونج، لم يتحدث مع نهرو في الشئون الدولية فحسب وإنما تحدثا عن قضايا الحكم والشرعية. وفي حديثه عن اللقاء،

أشار رئيس الوزراء الهندى بشيء من الندم إلى سؤال ناصر "ما هذه الديمقراطية تحديدا؟" .

فى معظم الدول العربية حيث كان هناك برلمانات وما شابه، هناك فساد كامل... فماذا عليه أن يفعل إذن؟ صحيح تماما أن الحكومة المصرية حاليا تتكون من عشرة أعضاء من المجموعة الثورية، باستطاعتهم أن يفعلوا ما يشاءون، وفقا للمنطق طبعا، لأن الجيش يدعمهم. وكان عبد الناصر يدرك أن هذه ليست الحالة المثلى للأمور وأراد أن يغيرها. لكنه لم يعرف ما التغير الذى عليه أن يقوم به دون أن يعيد كل شرور الماضى... العقيد ناصر ظن أنه عندما تأتى الأحزاب سوف تشتريها القوى الخارجية وتمولها كما كانت تمولها فى الماضى، كذلك كانت الصحف تمول من قبل القوى الخارجية وكذا الأفراد[٥٦].

أحد الإحباطات الكبرى فى الفترة التالية لباندونج كانت عدم وجود الكثير من التعاون التجارى والاقتصادى بين دول العالم الثالث. ورغم الكثير من المحاولات السياسية من قبل الحكومات لاستمرار هذا التبادل، هناك ثلاثة أسباب تعلل عدم إتيان هذه الجهود ثمارها. السبب الأول هو التشابه، وليس التكامل بين اقتصادات معظم العالم الثالث. فما كانت تلك الدول تريد أن تستورده كان موجودا فى الدول الصناعية وليس فى دول العالم الثالث الأخرى. ثانيا: قليل من الأموال كان يمكن الحصول عليه من أجل التجارة مع دول الجنوب، بما أن كل البنوك الدولية الرئيسية كانت تركز على التجارة مع الدول الرأسمالية فى الشمال. وثالثا لأن

الحكومات نفسها كانت تمنع تجارة الجنوب - الجنوب، بإصرارها على تبادل الاتفاقيات، لكي لا تهدر احتياطيها المحدود من العملة الصعبة. تلك الأسباب مجتمعة وغيرها، جعلت للروابط الاقتصادية بين دول العالم الثالث تأثيرًا محدودًا على علاقاتها أثناء الحرب الباردة.

أصبحت قضية التأكد من أن دول العالم الثالث لديها القوة الضرورية للدفاع عن نفسها ضد العدوان والقدرة على مساعدة غيرها على تحرير دولها، قضية محورية بعد أزمة السويس في ١٩٥٦، والتي سوف نتحدث عنها أكثر في الفصل التالي. كان قرار عبد الناصر في يوليو بتأميم قناة السويس قد نوقش بالفعل أثناء لقاء بريوني، ورغم أن هذا الحدث والتوقيت الذي تم فيه بدا أن له علاقة بكون البريطانيين والأمريكيين قد خلفوا وعدهم السابق بتمويل سد أسوان، فلا شك أن تأميم القناة واستعادتها كان مسألة كبرياء قومي بالنسبة للقيادة المصرية. لقد غضب المصريون أن يأتي قرار الغرب بشأن سد أسوان كرد فعل لصفقات الأسلحة التي عقدها ناصر مع الكتلة الشرقية. وأكد الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي الذي تلا تأميم القناة، أكد للعديد من زعماء العالم الثالث الحاجة إلى الاستعداد لمواجهة التدخل الإمبريالي المستقبلي، بالحصول على السلاح من الاتحاد السوفيتي وحلفائه- إذا دعت الضرورة.

أشعل التدخل في السويس أيضا المزيد من التدخل المصري المباشر في كفاح التحرر في شمال أفريقيا في أواخر الخمسينيات. وكما قال المؤرخ ماثيو كونيللي ***Matthew Connelly*** مثلت حرب الجزائر- جزئيًا بسبب أبعادها العالمية- "ثورة دبلوماسية"، حيث إن حركة تحرير، (جبهة التحرير الوطني ***Front (FLN) de Libération Nationale***)، أصبحت تُعامل على أنها الحكومة الحقيقية من قبل الكثير من دول العالم الثالث، وحتى في أوروبا بدأ النقاش بشأن الاستعمار وسيطرة

الدولة يتحول عن تأكيده السابق لمسألة القوة والعقلانية والتقدم، إلى تأكيد جديد على تقرير المصير وحقوق الإنسان. وفي الوقت الذى شك فيه السوفيت في التدخل المباشر- لأن موسكو لم تثمن فرص جبهة التحرير الجزائرية غاليا، ولأنها أرادت أن تخطب ود فرنسا على نحو أكثر حيادية فى أوروبا- وجد أحمد بن بيللا وغيره من زعماء الجبهة أن الدعم يأتيهم من مصر وأصدقائها الجدد فى حركة عدم الانحياز، بما في ذلك يوغوسلافيا.

فى ١٩٦٠ أصبحت الحرب فى الجزائر علامة أساسية على وحدة العالم الثالث، كما أصبحت بالنسبة للكثير من زعماء العالم الثالث علامة واضحة على أن الغرب لا يريد أن يقبل التحرر الكامل لقاراتهم من السيطرة الإمــبريالية. وكما شرح ناصر لتيتو فى بريوني، كانت هناك دائمًا المناطق الأفضل فى أفريقيا وآسيا- مثل الجزائر وجنوب أفريقيا ومالايا- التى أراد الإمبرياليون أن يتمسكوا بها. أثناء الستينيات، كانت المهمة الأساسية للدول حديثة التحرر أن تظهر الوحدة مع الدول التى لازالت "حبيسة الإمــبريالية". بالنسبة لزعماء مثل ناصر وسوكارنو ونهرو كانت مسألة مستقبل المناطق التى لازالت واقعة تحت السيطرة الاستعمارية هى قضية العالم الثالث نفسه أولا وأخيرًا- فقد يرحبون بالدعم من أى مكان، ولكن وحدة العالم الثالث وتماسكه مع المقاومة المحلية هما ما سيطردان الإمبرياليين خارج البلاد؛ وكان لفكرة التماسك مع المظاليم صداها لدى الجيل الأصغر من الأوروبيين، وخاصة في صفوف المثقفين والطلاب الذين كانوا متعطشين لتعويض الماضى الاستعمارى لأوروبا وظنوا أن بوسعهم أن يفعلوا ذلك من خلال التوحد مع العالم الثالث، والذى بدا بالنسبة لهم جديدًا ومثيرًا وقويًا واشتراكيًا. وفى مقدمته لكتاب فانون ***Fanon***: "معذبو الأرض" ***The Wretched of the Earth*** كان الفيلسوف الفرنسى چين پول سارتر ***Jean Paul Sartre*** يرى أوروبا- من خلال

عدسات الحرب الجزائرية- بأنها "قارة بدينة شاحبة". وقال بأن المستقبل ينتمى إلى العالم الثالث(٥٧).

أثناء الستينيات ربطت فكرة العالم الثالث باعتباره المستقبل- فى الأمور السياسية والأخلاقية إن لم يكن فى الأمور الاقتصادية- ربطت اليسار الجديد الأوروبى والأمريكى بسياسات أفريقيا وآسيا و- على نحو متزايد- أمريكا اللاتينية. سُمى المنهج بـ"مناصر العالم الثالث" (*tiermondiste*) وأدى إلى عولمة كل من صراعات التحرر والمناقشات حول التنمية. بيد أن مهمته الأساسية كانت أن يعكس الانتقادات التى يوجهها شباب الغرب إلى دولهم باعتبارها غير ديمقراطية وعنصرية ونخبوية. كانوا يبحثون فى العالم الثالث عن الشعور بوحدة الهدف والتحشيد من أسفل وعن الفعل الجذرى أولا وأخيرًا. كان استقرار دول الشمال فى الحرب الباردة يقززهم- حتى السوفيت انتقدوهم لأنهم يتصفون بالبطء والبلادة والمحايدة الشديدة، وخاصة فيما رأوه فشلا فى مساعدة حركات التحرر بالعالم الثالث بشكل مؤثر. وقد جعل بيان ميناء هيرن ***Port Huron*** الذى أصدرته جماعة الطلاب الأمريكيين من أجل مجتمع ديمقراطى ***US Students for a Democratic Society*** فى ١٩٦٢، جعل من العالم الثالث نموذجا يُحتذى: "فى حين عجلت الأسلحة بفرصة الإنسان لتدمير نفسه، فإن الدافع الموازى للحياة والإبداع يتضح بشدة فى مشاعر الثورة الشديدة الواضحة لدى الكثير من الشعوب الآسيوية والأفريقية واللاتينية. ويقف الفتور والتجمد الأمريكى فى تناقض محرج أمام روح المبادرة الفردية والطموح والحس الاجتماعى بالعضوية الموجودين فى هذه الثورات"(٥٨).

بعد أن أنشئت الدولة الجزائرية الجديدة فى ١٩٦٢ أصبحت عاصمتها الجزائر بؤرة للراديكاليين فى العالم الثالث وبؤرة حركات التحرير الأفريقية،

وكانت كلها قد أنشئت لها مكاتب هناك. وفى بعض الحالات قدمت الحكومة الجزائرية الجديدة بقيادة بن بيللا أسلحة وتدريبات عسكرية لهذه الحركات. وعندما سارت قوات جبهة التحرير منتصرة فى قاعدتها الخارجية الأساسية فى المغرب عام ١٩٦٢، كان نلسون مانديلا هناك لكى يراهم. وعندما دخلت نفس هذه القوات إلى الجزائر منتصرة كان ياسر عرفات يحتفل مع الجماهير. وقد حصل كل من حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى *ANC* وفتح على دعم كبير من الجزائر، وكذا حركات التحرر فى أنجولا وغينيا بيساو. وأصبح بن بيللا متحدثًا أساسيًا عن وحدة العالم الثالث. فى اللقاء التأسيسى لمنظمة الوحدة الأفريقية *OAU* فى أديس أبابا ١٩٦٣، وصف الصحفيون تعهده بأن يشارك فى جهد شامل من أجل تحرير أفريقيا:

> **لقد نحى أوراقه جانبًا وراح يضرب المنصة بكلتا يديه، وهو شاحب، وبصوت متسارع الأنفاس، وجه الزعيم الجزائرى دعوة مفعمة بالعاطفة لمساعدة الثوار الأنجوليين، مذكرًا الجميع بأن تجربة الجزائر أظهرت أن التضحية المشتركة وحدها هى ما سوف تفتح أبواب الحرية. وكان ذكره للتوانسة والمغاربة والمصريين الذين استشهدوا من أجل الجزائر قد أثار رد فعل عاطفى... لم أشعر قط أن لدى هذا الشعور العميق بالوحدة الأفريقية إلا عندما استمعت إلى بن بيللا، وعينيه ملؤهما الدموع وهو مفعم بالعاطفة ويحث مستمعيه أن يهبوا لمساعدة من يموتون فى جنوب خط الاستواء[٥٩].**

ومع الهند وإندونيسيا ومصر وغانا ويوغوسلافيا أصبحت الجزائر عضوًا رئيسيًا فى حركة عدم الانحياز *(NAM)* التى تأسست فى بلغراد فى ١٩٦١ على مبادئ تقرير المصير والمساعدات الاقتصادية المتبادلة والحيادية التى كان قد تم تحديدها فى باندونج. وشاركت خمس وعشرون دولة فى المؤتمر الأول، ومع ثانى اجتماع على مستوى رؤساء الدول الذى عقد فى القاهرة فى ١٩٦٤، كان هذا الرقم قد تضاعف[٦٠]. كان المحتوى السياسى الأهم بالنسبة لاجتماع بلجراد هو تأكيد وحدة الدول الأعضاء، وتحذير القوى الكبرى من نشر الحرب الباردة فى العالم الثالث، وتوجيه النداء إلى كافة الدول لاستبعاد الحرب كوسيلة لإنهاء النزاعات الدولية. واختُتمت ديباجة بيانه الأول بالقول: لوعيها بأن الاختلافات الأيديولوجية جزء ضرورى فى نمو المجتمع الإنسانى، فإن الدول المشاركة ترى ضرورة امتناع الشعوب والحكومات عن أى استخدام للأيديولوچية بغرض إشعال الحرب الباردة أو ممارسة الضغوط أو فرض إرادتها"[٦١]. وفى اجتماعهم فى بلجراد فى ذروة أزمة برلين فى ١٩٦١، أرسل جميع رؤساء الدول الحضور رسائل شخصية متماثلة لخروشوف وكينيدى حيث حذروا من خطر الحرب ودعوا إلى حل سلمى. وكان إلقاء العالم الثالث محاضرات على القوى العظمى عن إرادة العلاقات الدولية علامة واضحة على أن العالم الثالث قد بدأ ينضج.

ورغم النمو المؤسسى المستمر لحركة عدم الانحياز، شهد عام ١٩٦٢، وهو العام الذى حصلت فيه الجزائر أخيرا على الاستقلال، شهد بداية تحلل روح باندونج. كانت الحرب على الحدود الصينية الهندية ضربة قاضية لوعد باندونج بالمفاوضات السلمية، وأزالت الكثير من سلطة الهند بوصفها محاكم غاندى فى النزاعات الدولية. وكانت حربها مع دولة مؤسسة أخرى لحركة عدم الانحياز وهى باكستان حول مسألة كشمير بعد ثلاث سنوات كانت تعنى أن موسكو وواشنطن لابد أن تتدخلا باعتبارهما وسيطى سلام، وأن الهند تتجه إلى السوفيت للحصول على حاجاتها الأمنية. كانت أزمة الشرق الأوسط فى ١٩٦٧ ضربة أخرى لفكرة

عدم الانحياز فبينما كان عبد الناصر يأمل أن وحدة العالم الثالث ستقوى من شوكته، كان عليه أن يلجأ إلى دعم السوفيت عندما هاجم الإسرائيليون جيوشه. وفى نهاية الستينيات كان كل من بدأوا باندونج قد ابتعدوا عن الساحة، فقد توفى نهرو فى ١٩٦٤، وأطيح سوكارنو وبن بيللا ونكروما فى انقلاب عسكرى فى ١٩٦٥ و١٩٦٦، وتوفى عبد الناصر فى ١٩٧٠ ولم تتحقق آماله فى الوحدة العربية ووحدة العالم الثالث. فى ذلك العام نفسه استطاعت حركة عدم الانحياز أخيرا أن تنظم مؤتمرها الثالث فى عاصمة زامبيا، لوساكا، لكن فى غياب التفاؤل الأول.

فى أواخر الستينيات أدى الافتقار إلى التمثيل والصعوبات الاقتصادية التى سببت عدم الاستقرار السياسى داخليا، إلى إحباط ما تعهدت به منظمة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية من أجل مساندة حركات التحرر. وبدأ زعماء بعض هذه الحركات مثل أميلكار كابرال ***Amílcar Cabral*** زعيم الحزب الأفريقى لاستقلال غينيا (***PAIGC***) يدّعون أن الكثير من الأنظمة الجديدة أدوات للاستعمار الجديد "***neocolonialism***"، تهتم بعلاقاتها الطيبة مع الممولين والمستثمرين الأوروبيين والأمريكيين أكثر مما تهتم بحشد الجماهير من أجل الفعل الثورى فى الداخل أو الخارج. وفى خطابه فى جنازة الزعيم الغانى المخلوع كوامى نكروما فى غينيا عام ١٩٧٢، اقتبس كابرال من كتاب نكروما "*الاستعمار الجديد- آخر مراحل الإمبريالية* ***Neocolonialism- the Last Stage of Imperialism***"، وكان قد نشر قبل خلعه بعام واحد، شهادة أن أبا القومية الأفريقية قد تحول إلى الماركسية فى سنواته الأخيرة. وتساءل كابرال "كم من خيانات الجيش لغانا يرتبط بقضايا الصراع الطبقى وتناقضات البناء الاجتماعى ودور الحزب و... القوات المسلحة"[٦٢]. وكانت إجابته واضحة: تلك هى الأمور المهمة، وقد اكتشفها نكروما متأخرا جدا

رغم هيئته البطولية. فقط من خلال أدوات الماركسية اللينينية يستطيع الجيل الجديد من زعماء العالم الثالث أن يقيموا دولاً مستقلة وعالمية وقادرة اقتصاديا فعلا [٦٣].

وفي أواخر الستينيات لم يعد الضوء يسلط على أيديولوجيات جيل باندونج من النخب المحلية الراديكالية. فإما أنهم قد أخرجوا على يد القوات المسلحة التي كانوا هم أنفسهم حريصين على إنشائها- كما حدث في غانا وإندونيسيا والجزائر- واستبدلوا بدكتاتوريات سلطوية غير أيديولوجية في الغالب؛ أو أن أنماطهم المحلية من الاشتراكية وقعت تحت ضغط من جيل أحدث وأكثر راديكالية، له مبادئه الماركسية مثلما حدث في تنزانيا في عهد چوليوس نيريري ***Julius Nyerere***. في بعض الدول كما سنرى في الفصول القادمة تم تحويل جزء من العسكرية نفسها إلى الاتجاه الماركسي. كان هذا التحول إلى الماركسية ممكنًا في بعض دول العالم الثالث بسبب الفشل العملي لمنهج مناصرة العالم الثالث ***"tiermondiste"*** (الذي بقي رغم ذلك قائمًا في أوروبا وبدرجة أقل في أمريكا أثناء السبعينيات)، ولأن نظرية الماركسية تقدم الخصائص نفسها التي يفتقر إليها هذا المنهج المناصر للعالم الثالث، وهو منهج غير منظم يعتمد على الكاريزما الشخصية. وفي نظر الكثيرين من جيل ما بعد الاستقلال كانت الماركسية، في شكلها اللينيني، قيمة كبرى لأنها منظمة ومحددة، وفوق هذا وذاك قائمة على أسس علمية.

التحول إلى الماركسية لدى بعض نخب العالم الثالث وفي حركات التحرير في العالم الثالث كان له تداعيات واضحة للحرب الباردة. وفي حين كانت إعادة اكتشاف السوفيت للعالم الثالث في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات قائمة على تحالفات محدودة، ولكنها مهمة استراتيــچيا، مع القوى القومية، فإن بعض العلاقات الجديدة التي كانت تتطور بين موسكو والعالم الثالث بداية من ١٩٧٠ فصاعدا كانت تقوم على نظرية سياسية واحدة، ومن ثم عمدت إلى أن تكون أكثر شمولا وتغلغلا.

لم تكن التطورات الأيديولوچية الأوسع فى العالم الثالث بالطبع هى الخلفية الوحيدة لهذا التحول؛ فكما سنرى، لعبت الحرب الأمريكية فى ڤيتنام والآثار الدولية للثورة الكوبية أيضا أدوار مهمة؛ لكن خيبة الأمل الأعم فى المناهج التى اختارها الزعماء الأوائل بعد الاستقلال على الصعيدين الداخلى والخارجى كانت سببا رئيسيا وراء تحـــول الكثيـــر من الزعماء الجدد، وخاصة فى أفريقيا، نحو النموذج السوڤيتى فى السبعينيات.

هوامش الفصل الثالث

(١) بلغ تعداد السكان فى الدول المُحتلة عند اندلاع الحرب العالمية الثانية نحو ٨٠٠ مليون نسمة
(Mary Evelyn Townsend, European Colonial Expansion Since 1871 [Chicago, IL;J. P. Lippincott, 1941], p.19).

(٢) من الدراسات الجيدة عن الاستعمار فى أفريقيا وآسيا فى القرن التاسع عشر دراسة
Thomas R. Metcalf, Ideologies of the Raj (Cambridge: Cambridge University Press, 1994), John D. Hargreaves, West Africa Partitioned (Houndsmills:Macmillan, 1974, 1985), Ronald Oliver and G.N. Sanderson, eds., The Cambridge History of Africa, vol. VI, From 1870 to 1905 (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), and Nicholas Tarling's aptly titled Imperialism in Southeast Asia: A Fleeting Passing Phase (London: Routledge, 2001).

ولنظرة عامة ثاقبة انظر:

David B. Abemethy, The Dynamics of Global Dominance: European Overseas Empires, 1415-1980 (New Haven, CT: Yale University Press, 2000), especially pp. 81-104.

(٣) كذلك يساند ديفيد وجهة النظر بأن ظروف المجاعة جعلت التوغل الاستعمارى أسهل فى أجزاء من العالم الثالث ، للمزيد من التفاصيل حول هذه الجدلية انظر

Mike Davis, Late Victorian Holocausts: El Nino and the Making of the Third World (London: Verso, 2001), pp. 117-210

إن الافتقار إلى مقاومة قوية ومنظمة فى الفترة الأولى من الاستعمار ليس بالطبع هو نفسه الافتقار إلى المعارضة، التى كانت فى بعض الحالات ناجحة جدا شأنها فى الشيشان والماورى *Maori* فى الأربعينيات والزولو فى أسندلوانا *Isandlwana* فى ١٨٧٩ والإثيوبيين فى أدووا *Aduwa* فى ١٩٨٦.

(٤) إحدى هذه الجامعات هى كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية حيث أقوم بالتدريس. لقد أنشئت فى ١٨٩٥ لزيادة "التعليم والاقتصاد والكفاءة والمساواة والسيطرة" وهى الآن تقدم فرصا وفيرة للتفكر والتأمل فى الموقف فيما بعد الاستعمار.

(٥) *Sutan Sjahrir quoted from Abernethy, Dynamics of Global Dominance, p. 386*

(٦) *Nirad Chaudhury, A Passage to England (London: Macmillan, 1959), p. 19*

(٧) يعتقد المؤرخ الاستعمارى البريطانى كريستوفر بايلى أن انتشار التكنولوجيا كان السبب فى الكثير من الثورات المعادية للاستعمار فى منتصف القرن التاسع عشر – تحديدا حروب الزوسا والماورى *Xhosa and Maori* وكذا الثورات الكبرى فى الصين والهند وجامايكا والقوقاز

(See C. A. Bayly in Robin Winks, ed., The Oxford History of the British Empire., vol. V. Historiography (Oxford: Oxford University Press, 1999), pp. 54-72.

(٨) *James C. Scott, Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition have Failed (New Haven, CT: Yale University Press, 1998), p. 97.*

(٩) *M.N. Roy, "Open Letter to His Excellency Woodrow Wilson, President of the United States of America, 1917," in M.N. Roy, Selected Works (Oxford: Oxford University Press, 1987-), vol. I, p. 25.*

(١٠) نهرو، مراجعة غير مكتملة لكتاب برتراند راسل الطريق إلى الحرية
Roads to Freedom (1919), quoted from S. Gopal, gen. ed.. Selected Works of Jawaharlal Nehru, vol. I (New Delhi: Orient Longman, 1972), pp. 140-144.

(١١) *Samaren Roy, The Restless Brahmin: The Early Life of M. N. Roy (Bombay: Allied Publishers, 1970).*

(١٢) اسمه الحقيقي هو *Narendranath Bhattacharya.*

(١٣) في الاجتماع التأسيسي للحزب الشيوعي الصيني في يوليو، كان هناك على الأقل ثلاثة من كل ثلاثة عشر من الموفدين من رجال الشرطة انظر:
vol. I of Chen Yongfa, Zhongguo gongchan geming qishi nian (Seventy Years of Chinese Communist Revolution) (Taibei: Uanjing, 1998).

(١٤) *Stuart R. Schram, Mao's Road to Power; Revolutionary Writings, 1912-1949, vol. I, The Pre-Marxist Period, 1912-1920 (Armonk, NY: W. E. Sharpe, 1992), p, 318, "Manifesto on the Founding of the Xiang River Review (14 July 1919); original in Mao Zedong Zaoqi Wengao (Mao Zedong Youth Manuscripts) (Changsha: Hunan, 1995).*

(١٥) لإظهار مدى تميع الموقف الاستعماري في بداية القرن العشرين أرسل "هو" قبل ذلك بتسع سنوات، عند وصوله إلى فرنسا لأول مرة، خطابا إلى الرئيس الفرنسي يطلب منه تقدم المدراء الاستعماريين إلى مدرسة تدريبية. وكتب يقول: "إنني أريد أن أكون ذا فائدة لفرنسا بالنسبة لأبناء بلدتي، وأود في الوقت نفسه أن أساعدهم للاستفادة من فوائد التعلم والتدريب (ورد في
Sophie Quinn-Judge, Ho Chi Minh: The Missing Years [Berkeley, CA: University of California Press, 2002],p.32).

(١٦) المصدر السابق ص. ٣٢

(١٧) *Indonesia Accuses!: Soekarno's Defence Oration in the Political Trial of 1930, ed., trans.. annotated, and introduced by Roger K. Paget (Oxford: Oxford University Press, 1975), p. 78.*

(١٨) البيان السياسي، ١ يوليو ١٩٢٧ ورد في
Sandino without Frontiers: Selected Writings of Augusto Cesar Sandino on Internationalism, Pan-Americanism, and Social Questions, ed.,

نقحه وقدمه *Karl Bermann*
(Hampton, VA: Camoita Publishing, 1988), pp. 48-51.

(١٩) النموذج النقيض لذلك، كان بالطبع نموذج المهاتما غاندى، حيث قال فى كتابه تجارب مع الحقيقة *Experiments with Truth, vol. I (Ahmedabad: Navajivan, 1927)*

إن "السلام لن يأتى نتيجة التطاحن بالسلاح وإنما نتيجة العدالة التى تحياها وتمارسها شعوب غير مسلحة فى وجه الصعاب".

(٢٠) *Frantz Fanon, The Wretched of the Earth, preface by Jean-Paul Sartre (1961; New York: Grove Weidenfeld, 1991), p. 73.*

(٢١) *Aime Cesaire, Discourse on Colonialism (New York: Monthly Review Press, 1972), pp.21-23.*

(٢٢) *Kemal, "Speech on the Tenth Anniversary of the Founding of the Republic," 1 November 1932,*

على موقع *.edu/cu/tsa/ata/ onuncuyil. html.http://www.columbia*

(٢٣) انظر الملخص الرائع لآثار الاستعمار فى
Abernethy, Dynamics of Global Dominance, pp. 363—386.

(٢٤) *Ho, Declaration of Independence of the Democratic Republic of Viet-Nam, 2 http://www.mtholyoke.edu/acad/intrel/vietdec.htm September 1945, on*

(٢٥) *Boucif Mekhaled, Chroniques d'un massacre: 8 mai 1945, Setif, Guelma, Kherrata (Paris: Syros, 1995).*

قتل أكثر من مائة فرنسى مستعمر فى القتال الذى تلا ذلك، بينما تختلف تقديرات أعداد من قتلوا من الجزائريين فتتراوح ما بين ألف إلى ستة أو سبعة آلاف. فى مارس ١٩٤٧ كانت هناك ثورة مماثلة معادية للاستعمار ضد الحكم الفرنسى فى مدغشقر ، راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شخص. انظر

Solofo Randrianja, Société! et luttes anticoloniales á Madagascar: de 1896 á 1946 (Paris: Karthala, 2001).

(٢٦) *Abernethy, Dynamics of Global Dominance, p. 167.*

(٢٧) وردت فى "الاستقلال" *Independence* برنامج رقم ٢٢ فى سلسلة *BBC* قصة أفريقيا *The Story of Africa*، التى أذيعت للمرة الأولى فى ١٨ يناير ٢٠٠٢.

(٢٨) نكروما المولود فى ١٩٠٩ والذى تعلم فى الولايات المتحدة قضى عامين فى السجن البريطانى قبل أن يقود ساحل الذهب للتحرر سلميا من بريطانيا فى ١٩٥٧. والكلمات هنا مقتبسة من مذكراته الباكرة ذات العنوان البارع: غانا: السيرة الذاتية لكوامى نكرومه.

Ghana: The Autobiography of Kwame Nkrumah (Edinburgh: T. Nelson, 1957), p.x

(٢٩) *Abernethy, Dynamics of Global Dominance, p. 164.*

(٣٠) *Nkrumah, Autobiography, p. x*

(٣١) *"Response to the speech of the leader of the Soviet delegation to the Indian Science Congress," 7 January 1947, Selected Works of Jawaharlal Nehru, second series, vol. I (New Delhi: Jawaharlal Nehru Memorial Fund, 1984), pp.380-381.*

(٣٢) *Abernethy, Dynamics of Global Dominance, p. 334*

(٣٣) انظر أيضا جيمس سكوت عن النموذج التنزانى. لقد كانت خطة الإصلاح الزراعى أكثر نجاحا فى تايوان بلا شك، حيث قامت الدولة بتعويض أصحاب الأراضى بسندات قابلة للاستخدام لشراء أسهم فى الصناعة والخدمات.

(٣٤) انظر *Tom Molony and Kenneth King, eds., Nyerere: Student, Teacher, Humanist, Statesman (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2000).*

(٣٥) *Cabral, Eduardo Mondlane Memorial Lecture delivered at Syracuse University, New York, on 20 February 1970; quoted from Amilcar Cabral, Unity and Struggle: Speeches and Writings (London: Heinemann, 1980), p. 146.*

(٣٦) تتفحص أعمال لامينج الأخيرة وخاصة مجموعة مقالاته ملذات المنفى شئون السياسة والعرق والثقافة الكاريبية فى سياق دولى

The Pleasures of Exile (London: Michael Joseph, 1960),

(٣٧) ورد ذلك فى:

Matthew Connelly, A Diplomatic Revolution: Algeria's Fight for Independence and the Origins of the Post-Cold War Era (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 47.

(٣٨) فى خطابه الافتتاحى فى باندونج أشار سوكارنو إلى حادثتين: مؤتمر بروكسل فى ١٩٢٨ والاجتماع التشاورى فى نيودلهى فى ١٩٤٩.

(٣٩) *Richard Wright, The Colour Curtain: A Report on the Bandung Conference, foreword by Gunnar Myrdal (London: Dobson, 1956).*

(٤٠) يفترض أيضا أن يكون اهتمام رئيس الوزراء بالمنشآت العامة أثناء المؤتمر راجعا لنشأته. لقد أعطى تعليماته إلى السفير فى إندونيسيا "إننا لا نستطيع القيام بأدنى مخاطرة

فى نقص الترتيبات المناسبة... إننا لا نستطيع أن نجازف بوجود فوضى فى كل شىء لأن موقف الإندونيسيين حساس. سيكون الضرر الواقع على إندونيسيا بالغا لو رأى العالم أننا غير قادرين على تنظيم المؤتمر أو أننا نظمناه بشكل سيئ... قبل كل شىء، هناك حقيقة لابد من تذكرها وهى دائما ما تنسى فى إندونيسيا. هذه الحقيقة هى أهمية التجهيز السليم للحمامات والمراحيض، إلخ. فالناس قد يستغنون عن قاعات الرسم ولكنهم لا يستغنون عن الحمامات والمراحيض. (من نهرو إلى *B. F. H. B. Tyabji*، ٢٠ فبراير ١٩٥٥، وردت فى: *Selected Works second series, vol. XXVIII, p. 99).*

(٤١) خطاب سوكارنو، ١٨ أبريل ١٩٥٥، ورد فى

Let a New Asia and a New Africa Be Born! (Jakarta: Ministry of Foreign Affairs, 1955).

(٤٢) المصدر السابق.

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) صرخة تحد وليست صرخة خوف/ صوت فى الظلام، طرق على الباب/ وكلمة يتردد صداها إلى الأبد

"A cry of defiance and not of fear, / A voice in the darkness, a knock at the door, / And a word that shall echo for evermore ..."

(٤٥) الخطاب الذى ألقى فى الجلسة المغلقة للمؤتمر الأفروآسيوى، باندونج، أبريل ١٩٥٥، ورد فى

Nehru, Selected Works, second series, vol. XXVIII, p. 100

(٤٦) كان لينين هو أول من استخدم هذا المصطلح فى مقابلة فى ١٨ أبريل ١٩٢٠ مع جريدة مساء نيويورك حيث قال: "خططنا فى آسيا؟ هى نفس خططنا فى أوروبا: التعايش السلمى بين الشعوب بين العمال والفلاحين من كل الأمم"

(٤٧) *Li Qi et al., comp., Zhou Enlai nianpu (Chronology), vol. II (Beijing: Zhongyang wenjian, 1997).*

انظر أيضا:

Xiang Huaynan, Zhou Enlai chu deng shijie wutai (Zhou Enlai Begins to Ascend the World Stage) (Shenyang; Liaoning renmin, 1999).

(٤٨) الخطاب الذى ألقى فى الجلسة المغلقة للمؤتمر الأفروآسيوى، باندونج، ٢٢ أبريل ١٩٥٥ورد فى *Nehru, Selected Works, second series, vol. XXVIII, p.108.*

(٤٩) المصدر السابق ص. ١٠٠

(٥٠) ورد فى *Bandung 1955 (Colombo: Government Press, n.d.), pp. 30-31*

(٥١) الخطاب الذى ألقى فى الجلسة المغلقة للمؤتمر الأفروآسيوى، باندونج، أبريل ١٩٥٥ ورد فى. *Nehru, Selected Works, second series, vol. XXVIII, p. 124*

(٥٢) ورد فى *Connelly, Diplomatic Revolution, p. 96.*

(٥٣) ميخائيل كابيتسا *Mikhail Kapitsa* نائب وزير الخارجية السوفيتي السابق فى لقاء مع المؤلف فى ٨ سبتمبر ١٩٩٢.

(٥٤) عن الإعداد لهذا الاجتماع، انظر تسجيل المحادثات بين نهرو وكاردلج فى ٥ يوليو ١٩٥٥ فى أرشيفات سربيا والجبل الأسود واختصارها هنا *ASCG*

Arkhiv Srbije i Cme Gore (Archives of Serbia and Montenegro; hereafter ASCG), A CK SKJ IX, 42/V-13.

(٥٥) *Oleg Troianovskii* سفير الاتحاد السوفيتى إلى الأمم المتحدة الأسبق فى مقابلته مع المؤلف فى ١٤ سبتمبر ١٩٩٢.

(٥٦) تسجيل المحادثات بين نهرو وجمال عبد الناصر الأول من مايو ١٩٥٥، مقتبس من
Nehru, Selected Works, second series, vol. XXVIII, p. 219.

(٥٧) انظر:

James D. LeSueur, Uncivil War: Intellectuals and Identity Politics During the Decolonization of Algeria (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2001).

(٥٨) بيان جماعة طلاب من أجل مجتمع ديمقراطى *Students for a Democratic Society, Port Huron, 15 June 1962,* على موقع:

http://coursesa.matrix.msu.edu/~hst306/documents/huron.html

(٥٩) *Piero Gleijeses, Conflicting Missions: Havana, Washington, and Africa, 1959-1976 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002), p. 39.*

(٦٠) يبلغ اليوم عدد الدول الأعضاء فى حركة عدم الانحياز ١١٦ دولة

(٦١) بيان المؤتمر الأول لرؤساء دول حركة عدم الانحياز، بلجراد سبتمبر ١٩٦١ على موقع
http://www.nam.gov.za/background/history.htm

(٦٢) *Cabral, "Speech given on the occasion of the day dedicated to Kwame Nkrumah, 13 May 1972," in Unity and Struggle, p. 116.*

توفى نكرمه بالسرطان فى مستشفى بوخارست فى ٢٧ أبريل ١٩٧٢.

(٦٣) لأوضح البيانات عن أسباب تحوله إلى الماركسية انظر كابرال "سلاح النظرية"، خطاب تم إلقاؤه نيابة عن الشعوب والمنظمات القومية فى المستعمرات البرتغالية أمام مؤتمر الوحدة

الأول بين شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (هافانا في الفترة من ٣ إلـى ١٢ ينـاير ١٩٦٦) في جلسة ٦ يناير، ورد في:

Unity and Struggle, pp. 119-137

الفصل الرابع

خلق العالم الثالث : الولايات المتحدة تواجه الثورة

بعد الحرب العالمية الثانية تدخلت الولايات المتحدة مرارًا للتأثير فى عمليات التغيير التى كانت تحدث فى العالم الثالث؛ وفى بعض المناطق فى أوروبا (وأحيانا فى العالم الثالث نفسه) أصبح من الشائع الحديث عن أن تحل أمريكا محل القوى الاستعمارية الأوروبية فى صراعاتهم ضد الراديكالية المناهضة للاستعمار. لكن، كما سنرى، كان لتلك التدخلات جذور فى المدركات والمعتقدات الأمريكية ولم تكن مجرد محاولات مبدئية لمساعدة القوى الأوروبية المفلسة التى أنهكتها الحرب. فى قلب التدخلات الأمريكية، كانت أچندة الحرب الباردة المعادية للشيوعية، والقدرات التدخلية غير العادية التى امتلكتها الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهى الحرب التى جعلت منها لأول مرة فى تاريخها القوة الرأسمالية المسيطرة اقتصاديًا وعسكريًا وكذا أيديولوچيا.

من حيث الاقتصاد كانت سيطرة الولايات المتحدة مطلقة، انعكاسا لنموها من ناحية وبسبب الدمار الذى خلفته الحرب فى كل مكان آخر من ناحية أخرى. فى ١٩٥٠ كان الناتج الإجمالى المحلى الأمريكى أكبر منه فى كل أوروبا مجتمعة، وربما كان يساوى ما فى أوروبا بالإضافة إلى الاتحاد السوفيتى. وكان متوسط معدل النمو السنوى منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى يعادل ثلاثة أضعافه فى بريطانيا وفرنسا، ونصيب الفرد من الناتج الإجمالى المحلى كان ضعف مثيله فى

أوروبا الغربية، وإنتاجيتها تعادل تقريبا ثلاثة أضعاف متوسط إنتاجية أوروبا. ورغم أن معظم نموها الاقتصادى كان مركزًا فى الداخل، كانت الولايات المتحدة فى ١٩٥٠ أكبر مُصدر ومستثمر خارجى فى العالم[١].

خلق العالم الثالث الحديث فى ظل الهيمنة الأمريكية وراح الكثير من زعماء الدول حديثة الاستقلال يتطلعون إلى الولايات المتحدة للدعم والتوجيه. فى الوقت نفسه كانت أنظار الولايات المتحدة متجهة نحو أوروبا- فلم يكن هناك مشروع مارشال للدول التى خرجت من تحت الاستعمار، وكان الدعم الأمريكى للاستقلال مدفوعًا بالخوف من الشيوعية. لذلك فقد ساعدت سياسات أمريكا بعد الحرب على ظهور عدم المساواة الشديدة التى كانت موجودة بين الدول الرأسمالية المتقدمة والعالم الثالث على مدار الجيلين السابقين، من حيث القوة والموارد الاقتصادية. ولكن ذلك لم يحدث لأن صناع السياسة الأمريكيين لم تكن لديهم الرغبة فى تعميم نموذج التنمية – كما رأينا، وكان هذا الدافع عنصرا مهمًا فى أيديولوچيتهم فى كل من أوروبا والعالم الثالث. ولكن ما جعل أمريكا جزءا من مشكلة العالم الثالث كان مزيجا من الميول الأيديولوچية والرطانة العنصرية والأهداف السياسية والاستراتيـــچية للحرب الباردة.

لماذا كانت الولايات المتحدة تتدخل بهذا التكرار فى العالم الثالث أثناء الحرب الباردة؟ أحد الأسباب الملحوظة هو قدراتها، والسبب الآخر هو تحملها لمسئولية النظام الرأسمالى العالمى. وكثيرًا، كما سنرى، كانت التدخلات الأمريكية تعتبر، فى داخل أمريكا، تدخلات دفاعية – ضد الحركات اليسارية أو الشيوعية. ثم إن واشنطن بقيت دائما مشغولة بالحلول البنيوية للتحدى الشيوعى أو- بلغة الخمسينيات- *التنمية*، أو بالأحرى التشبه بأمريكا. كان عالم السياسة دوجلاس ماكدونالد ***Douglas Macdonald*** إذن على حق عندما سمى التدخلات الأمريكية

أثناء الحرب الباردة "تدخلات للإصلاح". لكن المأساة الأمريكية هي أنه في ظروف الحرب الباردة كانت الظروف السياسية الداخلية للعالم الثالث في حاجة إلى أن تتغير أولاً قبل أن يبدأ الإصلاح الذي كانت تريده أمريكا. مثل هذا التغيير كان يعني بوجه عام هزيمة المحاولات الأصولية للسيطرة على النظام السياسي، وكان ذلك هدف معظم التدخلات الأمريكية، حتى عندما كانت الاستراتيـجية العسكرية أو المكاسب الاقتصادية أو مجاملة الأصدقاء تلعب دورا في صنع القرار.

بوجه عام، كان الفكر الأمريكي للحرب الباردة فيما يتعلق بالعالم الثالث يتم تنفيذه ببطء. وكانت أواخر الأربعينيات فترة انتقالية. حتى وثيقة مجلس الأمن القومي ٦٨ *"NSC 68"* – أكثر وثائق السياسة الخارجية إمعانا في الفكر الأيديولوجـي في إدارة ترومان– كانت ترى أن الهدف الأمريكي "مع حلفائنا والشعوب التي كانت مستعمرة، هو محاولة خلق مجتمع دولي يقوم على مبدأ الموافقة، ولابد أن يكون إطارها مرنا. وسوف تتكون من العديد من المجتمعات القومية ذات القدرات والموارد الكبرى والمتنوعة"، ولكن الوثيقة نفسها جعلت للولايات المتحدة مسئولية خاصة لفرض النظام:

> **في عالم يتقلص، يواجه الآن خطر حرب ذرية، ليس الهدف الملائم مجرد معرفة خطط الكرملين، لأن غياب النظام لدى الشعوب أمر لم يعد يحتمل. هذه الحقيقة تفرض علينا، من أجل مصالحنا، مسئولية قيادة العالم، وتتطلب منا أن نحاول وأن نقبل المخاطر الكامنة في ذلك، لكي نحقق النظام والعدالة بوسائل تتوافق مع مبادئ الحرية والديمقراطية[٢].**

الولايات المتحدة وأولى الأزمات بعد الاستعمار:

كانت الأوضاع الثورية التى قامت فى نهاية الحرب فى العديد من أجزاء آسيا تمثل أولى أزمات تدخل الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة. حيث، كما سبق أن رأينا، لم يكن ستالين يجد أى أمل فى نجاح الثورات الشيوعية، وكان الأمريكيون يزدادون خوفا من أن تقع مثل هذه الأحداث فى أفق تلك المساحة العريضة الممتدة من كوريا إلى إيران. كانت السياسة السوفيتية تجاه حكومة "قوام" فى طهران – وخاصة الانسحاب المؤجل للجيش الأحمر من الأجزاء الشمالية من البلاد فى ١٩٤٦– قد أثارت شكوك إدارة ترومان فى الخطط السوفيتية للسيطرة على بترول الشرق الأوسط بمساعدة الراديكاليين المحليين؛ وحتى رغم أن التأكيدات الأمريكية على دعم الشاه الشاب محمد رضا بهلوى التى تلازمت مع التهديدات الدبلوماسية ضد السوفيت قد ساعدت طهران على تحمل ضغوط موسكو، بقى الخوف فى واشنطن من أن يستخدم السوفيت الثورات الوطنية المستقبلية فى المنطقة، لقطع إمدادات البترول التى قد تعيد إحياء النمو الاقتصادى فى أوروبا واليابان.

كان الموقف فى الصين يمثل تحديًا أكبر لسياسة الولايات المتحدة فى بداية فترة الحرب الباردة. فقد أدى عدم رضا أمريكا عن الموقف الداخلى فى الصين بعد أن أدت مساعدتها قوات شانج كاى شيك ***Jiang Jieshi*** فى السيطرة على الدولة فى ١٩٤٥ إلى مأساة فى صناعة القرار استمرت حتى الانتصار الشيوعى فى الحرب الأهلية فى أوائل ١٩٤٩. فمن ناحية كان الرئيس تروكان يخشى التأثير السوفيتى فى الصين وكان مستعدا لمقاومته، ومن ناحية أخرى كان يبغض الفساد وعدم الكفاءة والوحشية التى كان يراها فى نظام شانج كومينداتج ***Jiang Guomindang***، وكما كان الحال أثناء الحرب العالمية الثانية، تركزت سياسة

الولايات المتحدة تجاه الصين بعد الحرب على إرغام النظام على الإصلاح، وفقا للخطوط التى حددها المستشارون الأمريكيون، فى الوقت الذى كانت تزيد من المساعدات العسكرية للنظام نفسه وهو يغرس نفسه أعمق وأعمق فى المشكلات السياسية والاستراتيــجية. وتمثلت إحدى مشكلات الولايات المتحدة فى الصين فى أن الشيوعيين الصينيين – المعارضين الأساسيين لشانج- كانوا يمثلون كثيرًا من القيم "الحديثة" التى تروق للأمريكيين: النظام والانضباط والتضحية بالذات. فى الوقت نفسه اعتبر الحزب الشيوعى حليفا قريبا لموسكو ومن ثم خطرًا ليس على الأهداف الأمريكية فى الصين فحسب، ولكن على السياسات الأمريكية فى جنوب شرق آسيا وشرقها كذلك. وقد وضعت سياسة المساعدات الأمريكية التى اتسمت بالشيزوفرينيا تجاه نظام شانج- من زيادة كم المساعدات، فى الوقت الذى كانت تشك فى مدى استمرارية الدولة- وضعت شكلاً للمشكلات المستقبلية فى سياسة الولايات المتحدة لا سيما فى الهند الصينية.

ولكن القلق الأمريكى لم يكن يظهر تجاه الشركاء فى العالم الثالث الذين أساءوا التصرف فحسب، بل كان موجها أيضا إلى الأوروبيين الغربيين الذين لم يفهموا أن تمسكهم بالاستعمار قد يضر بمهمة الولايات المتحدة فى حربها ضد الشيوعية السوفيتية. فكما رأينا، كان هناك القليل من التعاطف فى أمريكا تجاه برامج الإمــبريالية الأوروبية حتى فى أوائل القرن العشرين. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية كانت أى محاولة لمعاداة القومية المحلية عن طريق الحكومات الأوروبية المفلسة وغير الكفء، الواقعة تحت تهديد الشيوعية فى الداخل (وبالتالى معتمدة على المساعدات الأمريكية هناك)، لم تكن ذات معنى بالنسبة لواشنطن. كانت الاستثناءات الوحيدة هى تلك الحالات التى كانت الشيوعية هى البديل الوحيد فيها عن الحكومة الاستعمارية، كما كان الحال فى المستعمرة البريطانية مالايا، حيث كانت القوى الإمــبريالية العائدة تحارب التمرد الذى يقوده الشيوعيون. ولكن

حتى في هذه الحالة، كان ينبغي أن يكون الهدف هو البناء التدريجي لبديل قومي حقيقي يحل محل الحكم الاستعماري.

كانت إدارة ترومان أقل عطاء للمخططات الإمبريالية في كل مكان آخر في آسيا. لقد أوضح تقرير مجلس الأمن القومي *NSC 51*، وهو تقرير عن سياسة الولايات المتحدة تجاه جنوب شرق آسيا تم تقديمه إلى مجلس الأمن القومي في مارس ١٩٤٩، أوضح أن "إمبريالية القرن التاسع عشر لم تعد نظاما عمليا في جنوب شرق آسيا على المدى القريب باستثناء مالايا... الاستعمار ينجح فقط في حال كون المستعمرين غير متعلمين وقيادتهم سهلة، كما هي الحال لدى بعض سكان جزر جنوب الباسيفيكي. أما عندما يكتسب المستعمرون، أو أقلية منهم، درجة من الوعي العالمي أو الطموح الشخصي، فسرعان ما تبدأ التعقيدات، ويزداد عدم الرضا والمقاومة والعصاب السياسي"، ولكن بينما عالجت الولايات المتحدة في الفلبين ، وبريطانيا في الهند وبورما – هذه الأعراض بالوسيلة الوحيدة الممكنة – وهي الاستقلال تحت حكم محلي غير شيوعي – "فإن الإمبريالية الفرنسية والهولندية كانتا تفسدان ما تفعله السياسة البريطانية المستنيرة....إذ كانت رعونة عضوين من المجتمع الأطلنطي وقصر نظرهم قد فعلت الكثير لإلغاء التقدم الذي حققه العضوان الرئيسيان في نفس المجتمع".

ورغم أن تقرير مجلس الأمن القومي *NSC 51* لم يتناول المقترحات السياسية الملموسة تناولا كافيا، فإنه فند دعاوى أن تمتنع الولايات المتحدة عن تسهيل عمليات تفكيك المستعمرات الآسيوية، لما سيترتب على ذلك من آثار محلية بداخل أوروبا. وقد وجد التقرير أن هذا المقترح

> **له جذوره في السلبية الأيديولوجية. أصبح جوهر صراعنا مع الاتحاد السوفيتي صراعا أيديولوجيا.**

والمشكلة الجوهرية فى جنوب شرق آسيا واضحة – الإمبريالية الاستعمارية ضد القومية العسكرية. فى هذه الظروف إذا حاولنا تحاشى قضية أيديولوچية واضحة فإن ذلك يعنى(١) موضوعيًا، أن نترك مجال الصراع هذا لخصومنا و(٢) ذاتيًا، أن ندمر تكاملنا الأيديولوچى– أى أن ننكر لاشعوريًا تراثنا ومفاهيمنا الفلسفية التى هى الأسباب الداخلية فى أننا، بسبب جميع مثالبنا، نعتبر عظماء ومن ثم نعتبر قوة ديناميكية فى العقل العالمى[٣].

كان الصراع فى إندونيسيا بالنسبة لإدارة ترومان نموذجا لما يمكن أن تسفر عنه المحاولات الضالة لإعادة فرض الاستعمار الأوروبى فى آسيا من فوضى. وقد تمكنت الولايات المتحدة من خلال المخابرات المركزية *CIA* أن توطد اتصالات كبيرة مع بعض زعماء التحرر الإندونيسى، بمن فيهم سوكارنو، وخاصة بعد أن حاول الشيوعيون الإندونيسيون – وفشلوا – أن يتحدوا القيادة المحلية فى سبتمبر ١٩٤٨، شعرت الولايات المتحدة أن تسليم السلطة للإندونيسيين لن يحدث سريعا بما يكفى. وعندما حاولت حكومة هولندا أن تسحق حركة الاستقلال الوطنى فى ديسمبر ١٩٤٨، أبدت المخابرات الأمريكية انزعاجًا حقيقيًا؛ فالعملية لم تضعف من هيبة الأمم المتحدة فحسب، حيث كانت الولايات المتحدة قد تزعمت إيجاد حل سلمى، لكنها كانت أيضًا ستضعف الاستقرار السياسى والاقتصادى فى كل من إندونيسيا وهولندا، بينما تمنح السوفيت أداة قوية للدعاية. بل والأدهى من ذلك:

لقد عجل الفعل الهولندى بصعود كتلة اتحاد آسيوى...قد تأخذ طريقًا استقلاليًا. وبينما هى غير

منحازة إلى الاتحاد السوفيتى، فقد تصبح معادية للولايات المتحدة لأن الولايات المتحدة تعرف فى عقول الشرق الأقصى بأنها نصيرة نظام مخز فى الصين وراعية للسيطرة المستمرة للقوى الاستعمارية الغربية فى جنوب شرق آسيا. إن كتلة اتحادية آسيوية تحت الزعامة الهندية قد تتحول إلى أداة مؤثرة فى السياسة السوفيتية، حتى وإن لم تتعاطف مع الاتحاد السوفيتى(٤).

فى حالة هولندا – وهى حليف أوروبى صغير ضئيل الشأن – سارعت إدارة ترومان بفضح أى طموحات لدى حكومتها فى تسوية المشكلة الاستعمارية بالقوة. ورغم أن الإدارة لم تشأ أن تهدد الحكومة فى لاهاى مباشرة ما دامت المفاوضات الهولندية– الإندونيسية مستمرة، فقد أدت "حركة الشرطة" التى قامت بها سلطات الاستعمار الهولندية فى ١٩٤٨، ١٩٤٩ إلى تدخل واشنطن، وفى مارس ١٩٤٩ أخبر وزير الخارجية "دين آشسون" ***Dean Acheson*** الهولنديين أنهم سيخسرون كلا من تمويل مشروع مارشال والدعم العسكرى الذى تتيحه خطط الناتو لو لم "تنته فى الحال" معارضتها للتسوية عن طريق المفاوضات(٥). فاستمرار الحرب كان مخاطرة لم تشأ الولايات المتحدة الخوض فيها. ولم يعد لدى الحكومة الهولندية خيار سوى أن تستلم وتوقع اتفاقية تعترف فيها بالنظام الإندونيسى الجديد تحت زعامة سوكارنو. وكما ورد فى تقرير مجلس الأمن القومى ٥١ *"NSC 51"* فى الشهر نفسه، "ليست إمبريالية القرن التاسع عشر هى الترياق المضاد لسموم الشيوعية فى المناطق المستعمرة الثورية، بل هى ثقافة مثالية لتكاثر فيروس الشيوعية. إن إشباع الوطنية العسكرية هو المطلب الأساسى الأول لمقاومة الستالينية"(٦).

كـــان الاستثنـــاء الوحيـــد لهذه القاعدة هو المستعمرة البريطانية مالايا، وذلك يرجع أساسا إلى اعتقاد واشنطـــن أن البديـــل الوحيد عن إعادة فرض سيطرة لندن على المدى القصير هو أن يأخذ الحزب الشيـــوعى المالايو ***Malayan Communist Party (MCP)*** بزمام السلطة. كانت الولايات المتحدة تساند الخطة البريطانية لكسب الدعم من أجل الحرب ضد الحزب الذى يحكمه المالاويون الصينيون – لدى أهل مالاى، بينما فى الوقت نفسه تعد البلاد للاستقلال. وكانت الخطة – كما كتب القنصل الأمريكى فى كوالالمبور "ممتازة فى مفهومها، ضعيفة عند التنفيذ". اشتكت الولايات المتحدة من أن بريطانيا لم تكن تريد أن ترسل الموارد الضرورية لتحقيق انتصار عسكرى[٧]. وازداد هذا القلق بعد اندلاع الحرب الكورية فى يونيو ١٩٥٠، عندما بدأت واشنطن تخاف الحزب – بل عندما وُضع موضع الدفاع عن النفس وكان جسرًا لتوسع الصين فى جنوب شرق آسيا. وكما فى إندونيسيا، حاول الأمريكيون بناء شبكات اتصال مع الوطنيين الملاويين غير الشيوعيين، حتى وإن لم يتحمسوا لبعض أولئك الوطنيين من المفضلين لدى البريطانيين مثل تنكو عبد الرحمن، الذى أصبح فيما بعد رئيسًا لوزراء ماليزيا، وكان القنصل الأمريكى فى بينانج يراه "رجلا صغيرًا وضعيفًا"[٨].

ورغم قرارها قبل الحرب أن تضمن الاستقلال، واجهت الولايات المتحدة مشكلات مشابهة فى مستعمرتها بجنوب شرق آسيا: الفلـــبين . كان أول رئيس منتخب لجمهورية الفلـــبين ، مانويل روكساس ***Manuel Roxas*** متواطئا مع نظام الاحتلال اليابانى، ورغم رغبته فى منح الأمريكيين ما كانوا يريدونه لكى ينسحبوا (بما فى ذلك الاختراق الاقتصادى والقواعد العسكرية) لم يكن مثاليا فى نظر أمريكا، وخاصة عندما بدت حكومته راعية لمصالح كبار ملاك الأراضى والكنيسة الكاثوليكية. فشلت محاولات روكساس لإخماد الجيش الشعبى المعادى لليابان بقيادة

الشيوعيين، وفي ١٩٤٧ انتشر تمرد هوك في وسط ليوزون. وفي ١٩٤٨ بدأت أجراس الإنذار في واشنطن تنخفض، وبدأت المجموعة الاستشارية العسكرية المشتركة بزعامة الولايات المتحدة تتلقى المزيد من الدعم في الأسلحة وفي المستشارين. ساعدت وفاة روكساس في أبريل ١٩٤٨ الولايات المتحدة أن تضع استراتيـچية مضادة للتمرد، بمساعدة الضابط الشاب رامون ماجاسايساي ***Ramon Magsaysay*** ، وهو حاكم عسكري سابق لزامباليس كان قد تلقى تدريبه في الولايات المتحدة. كان مفتاح استراتيـچية الولايات المتحدة هو إدراك أن المشكلات الاجتماعية كانت هي السبب الجوهري للتمرد. كتب الميـچور إدوارد لانسدال ***Edward Lansdale*** أحد كبار المستشارين العسكريين الأمريكيين في مذكراته يقول:

> **معظم أهل هوك الآن من الشباب تحت العشرين، يقودهم "رجال كبار" في أوائل الثلاثينيات. معظمهم يعتقد في صحة ما يفعله، حتى وإن كان بعض الزعماء ينتمون إلى الجانب الشيوعي؛ وهناك وضع سيئ، يحتاج إلى الإصلاح، مازال قائمًا في وسط لوزون، فالإصلاح الزراعي يبدو غير موجود سوى على الورق، وأظن أن التذمر العسكري أمر طبيعي لما لدى معظم هؤلاء من موروث عن حرب العصابات(٩).**

ومع وضع ماجاسايساي وزيرا للدفاع ، ازدادت حملة قمع التمرد الأمريكية في ١٩٥٠ بعد الانتصار الشيوعي في الصين. كان أهل هوك يأملون في أن يشنوا

هجوما ضد العاصمة مانيلا قرب نهاية العام، لكن أسر معظم زعمائهم فى العملية المخابراتية التى قادتها الولايات المتحدة وضع النهاية لخطط الهجوم- وبدلاً من ذلك بدأ جيش فليبيني معترف به، تموله وتدربه الولايات المتحدة، بدأ يذهب بالقتال إلى المناطق التى تسيطر عليها العصابات. ومدعوما بالقوات الجوية، ولأول مرة- باستخدام النابالم، حقق جيش الفلـــبين انتصارات لا بأس بها من أهل هوك فيما بين ١٩٥١ و١٩٥٣. ولكن سبب انهيار التمرد كان سياسيا أكثر منه عسكريا. فلم يستطع زعماء هوك - بمن فيهم الشيوعيون الفلـــبينيون- أن يتفقوا فيما بينهم على خطة ليتبعوها، وخرجت مانيلا متأخرا لوضع برنامج حقيقى لهزيمة معارضيها، يشمل وعوذا بالإصلاح الزراعى وإجراءات مناهضة للفساد وتحسين سلوكيات جيشها. وكذلك قدمت إغراءات لتعجز العصابات مثل منح أراض لمن يستسلم ويتعاون مع السلطات. الأهم من ذلك أن حملة ماجاسايساى الناجحة من أجل الرئاسة فى ١٩٥٣، أقنعت الكثيرين أن فترة الحكم السلطوى وحكم القلة كان على وشك أن ينتهى وبأن المقاومة النشطة ضد الحكومة لم تعد ضرورية.

كانت قراءة واشنطن - والـــبنتاجون على وجه الخصوص - لنهاية التمرد فى الفلـــبين تؤكد عملية مكافحة التمرد بقيادة الولايات المتحدة، أكثر من تأكيدها الحقائق السياسية المتغيرة. وامتدح لونسدال ورجاله لأنهم عثروا على المزيج الصحيح تماما من العصا والجزرة لهزيمة حركة عصابات شيوعية شعبية. وأكد نائب لونسدال "تشارلز بوهنان" ***Charles Bohannan***، الذى ذهب فيما بعد، مثل رئيسه، ضمن مجموعة استشارية عسكرية أمريكية فى جنوب فيتنام- أكد مواصفات الأمريكيين الذين خدموا فى هذه العملية كشروط للنجاح:

أ- كانوا آنذاك- أو قبلها- ضباطا فى الجيش الأمريكى.

ب- كانوا يعرفون ويعملون ويحاربون مع المئات من الفلــبينيين وقد كسبوا احترامهم.

ج- كانوا ضالعين فى عملهم.

د- كان لديهم دعم أمريكى عالى المستوى، وقوة تحمل وتعاون مع السلطات الأمريكية المحلية (لاحظ جيدًا، لا يمكن افتراض ذلك فى المواقف المستقبلية، لابد من أن يكون ذلك إجباريًا... [أن] السلطات الأمريكية المحلية العليا... على الأقل تتعاون مع مثل هذا الفريق).

هـ- أن يخشاهم رئيس الدولة المحلى، وأن يكونوا على أعلى مستوى من التعاون مع القائد (أى وزير الدفاع)

و- أن يكونوا قابلين للتكيف وأن يكونوا أوغادًا، وأحدهم، وهو الرئيس، محترف تجارة[١٠]

ورغم النجاحات التى كان الكثيرون فى وزارة الخارجية والبنتاجون والمخابرات يرون أن الولايات المتحدة تحققها فى جنوب شرق أسيا، كان للسياسة الأمريكية الفاشلة فى الصين أثر سلبى للغاية على النقاش السياسى الداخلى بشأن العالم الثالث. حيث انخرطت الخطابة الشعبية حول صداقة أمريكا مع نظام شانج كاى شيك وهستيريا معاداة السوفيت – انخرطت مع إدارة ترومان فى ١٩٥٠ فى نقاش أمريكى خالص حول "فقدان الصين". ولكن بينما كان أولئك المسئولون عن سياسة ترومان تجاه الصين يخرجون من وزارة الخارجية بموجب حق مكارثي، وبينما أدت الحرب الكورية كذلك إلى وجود الشعور بأن الولايات المتحدة قد دخلت حربًا ضد الشيوعية "العالمية" كانت سياسات واشنطن تجاه العالم الثالث تزداد

صلابة بشكل ملحوظ. فى مجلس الشيوخ أدان چوزيف مكارثي ***Joseph McCarthy*** كل محاولات صنع السلام مع القوميات فى العالم الثالث ووصفها بأنها ضعف: "ينبغى ألا نحارب تحت قيادة دبلوماسيين معطرين ومنمقين. لا يمكننا أن نحارب تحت زعامة من لا يملكون الولاء لقضيتنا التى نحارب من أجلها أو من ولاؤهم منقوص[١١]". ولكن حتى الــچنرال دوايت د. أيزنهاور ***Dwight D.Eisenhower*** – الذى خدم فى ١٩٥٠ رئيسيًا لما كان يراه السيناتور جامعة "معطرة" – أعلن خوفه من أن الولايات المتحدة تعانى مشكلة كبرى فى العالم الثالث. فقبل اندلاع الحرب الكورية أسَرّ الجنــرال لنفسه بالقــول" أعتقد أن آسيا قد فُقدت مع اليابان وأن جزر الفلــبين والهند الشرقية وحتى أستراليا قد وقعت تحت التهديد، الهند نفسها ليست فى مأمن!"[١٢].

حتى ١٩٥٠ كان كثير من المسئولين الأمريكيين يشعرون أن سياسات بعض القوى الاستعمارية الأوروبية كانت تمثل مشكلة تعادل مشكلة الطموحات الثورية لزعماء العالم الثالث. ومع الانتصار الشيوعى فى الصين وتحت ضغوط الرأى العام الداخلى، استبدلت هذه المواقف تدريجيًا بالتأكيد على الالتزام الأيديولوچــى والاستراتيــچية العسكرية، حيث اعتبر العالم منقسمًا إلى معسكرين. كان أفضل مثال على التخفيف التدريجى لمنهج ما بعد الحرب، هو سياسة واشنطن حول المحاولات الفرنسية لاستعادة السيطرة على الهند الصينية. وفى حين فقدت إدارة ترومان فى ١٩٤٨ الأمل فى أن تدرك فرنسا عمق المشاعر القومية فى العالم الثالث، أصبحت فيتنام فى ١٩٥٠ قضية أمن، حيث فاق التهديد الذى كانت توجهه شيوعيةً هو شى منه ***Ho Chi Minh*** العناد الفرنسى فى تقديم حكم ذاتي حقيقي للهند الصينية. ولذلك اعترفت الولايات المتحدة بــ"دولة فيتنام" ورئيسها "باو داى" ***Bao Dai*** مدركة تماما أن غالبية مواطنيه يعتبرون الإمبراطور السابق أداة فى

أيدى الفرنسيين. واعترفت واشنطن بأن ذلك كان حلاً مؤقتا، فى انتظار وطنيين "حقيقيين" – غير مصبوغين بالصبغة الشيوعية.

ولكن فى ١٩٥٢ بدأ يتضح سريعا أن صبر الفرنسيين على حرب مكلفة وغير مجدية راح ينفد، رغم الدعم العسكرى والمالى من الولايات المتحدة. يقول السفير البريطانى فى باريس "السؤال المطروح هو كم سيستمر الفرنسيون فى استنزاف أنفسهم فى قضية لا يرون الآن أنها تخصهم بالأساس" (١٣) . ولذا كانت إدارة أيزنهاور الجديدة، التى جاءت إلى الحكم فى ١٩٥٣، ترى أن الخطط العسكرية الفرنسية لدفع الـــڤيتناميين إلى وضع الدفاع من خلال سلسلة من العمليات العسكرية الكبرى هبة من السماء، بما أن انتصارات أرض المعركة سوف تقوى الإصرار الفرنسى وتشجع الوطنيين المعادين للشيوعية أن يتقدموا ويدخلوا الحكومة. ووافق الرئيس أن يخصص خمسمائة مليون دولار سنويًا لهذا الغرض. كما أرسل نائبه ريتشارد نيكسون ***Richard Nixon*** لزيارة ڤيتنام فى ديسمبر ١٩٥٣، ولدى عودته أخبر جمهورًا من مشاهدى التليفزيون ومستمعى الراديو أنه "لو سقطت الهند الصينية، فسيكون موقف تايلاند عصيبًا. وينطبق ذلك على مالايا بكل ما فيها من مطاط وصفيح، وكذا ينطبق على إندونيسيا. لو وقعت الهند الصينية تحت الحكم الشيوعى فإن جنوب شرق آسيا بالكامل سيكون مهددًا وهذا يعنى أن الأمن الاقتصادى والعسكرى فـــى اليابان سيكون مهددًا كذلك لا محالة"(١٤).

كان يمكن أن تتسع مخاوف نائب الرئيس بشأن اليابان لتشمل أوروبا أيضا، وربما لأبعد من ذلك كما سنرى لاحقا فى هذا الفصل. فى أوائل الخمسينيات كانت الولايات المتحدة قد أخذت دور راعى السوق الرأسمالية العالمية ومن ثم مدت مقاومتها الأيديولوچية العالمية ضد الشيوعية على الصعيد الاستراتيـــچـــى العالمى. كانت نظرية تتابع الأحداث وهما لا ينطبق على جنوب شرق آسيا وحدها؛

فعندما أدرجت واشنطن تحت لواء الشيوعية أي مقاومة لحكومات العالم الثالث تدين بالولاء للرأسمالية والديمقراطية والتحالف مع الولايات المتحدة، قللت عن عمد من قوتها من أجل إقامة التحالفات مع الحركات الوطنية الشعبية. كانت هذه العزلة التي فرضتها الولايات المتحدة على نفسها، عن الجمعيات ذات الطبيعة المتنوعة، هي ما جعـل الولايـات المتحدة تتدخل على نحو متكرر في العالم الثالث في ذروة الحرب الباردة.

إيران والسويس والدور الأمريكي الجديد

كانت "بديهية جـاكارتا" ***Jakarta Axiom*** في ١٩٤٨ – الفكرة القائلة بأن القومية الراديكالية في العالم الثالث من النوع المحلي قد تكون ذات أهمية على المدى البعيد للولايات المتحدة– قد ضحدت نهائيا في طهران عام ١٩٥٣. فقد كانت إدارة أيزنهاور الجديدة ترى أن السياسات المحلية للحكومة الإيرانية وخاصة تأميمها لإنتاج البترول، تمثل تهديدًا لأوضاع الولايات المتحدة في العالم الثالث، وأنه قد يكون مقدمة لانتصار الشيوعية. وأخبر وزير الخارجية جون فوستر دالاس ***John Foster Dulles*** الرئيس بأنه لو حدثت مثل هذه الثورة "سيحرم العالم الحر من أصول كبيرة يمثلها إنتاج البترول الإيراني واحتياطيه ، وليس ذلك فحسب، وإنما سيأمّن الروس هذه الأصول ومن ثم لن يساورهم أي قلق بشأن البترول. وأشار دالاس إلى أن الأسوأ من كل ذلك كان أن ايران لو خضعت للشيوعيين فلا شك أن مناطق العالم الثالث الأخرى سيحدث لها الأثر نفسه، وهي التي تملك ما يزيد على ستين بالمائة من احتياطي العالم من البترول، الذي سيكون خاضعًا للسيطرة الشيوعية"[١٥].

كان نمو صناعة بترولية تستغل الاحتياطى الضخم حول الخليج الفارسى فى الثلاثينيات قد منح منطقة الشرق الأوسط أهمية استراتيــجية جديدة تمامًا. وقد بدأت الشركات الأمريكية تستثمر فى المنطقة قبل الحرب العالمية الثانية، وفى فترة ما بعد الحرب أصبحت شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) ***Arabian American Oil Company (ARAMCO)*** ، التى كانت تديرها الولايات المتحدة الأمريكية، والتى تعمل فى المملكة العربية السعودية، أصبحت أكبر مصدر للبترول إلى أوروبا. وكان للارتباط بالأمريكيين أهمية كبرى بالنسبة لأسرة آل سعود المالكة، رغم انتشار التأثير الثقافى الأمريكى الذى كانوا – وهم مسلمون وهابيون محافظون– يحاولون احتواءه بأفضل شكل ممكن. مكنت الأموال الأمريكية النظام من إحكام قبضته على الأراضى الواسعة التى ادعى السيطرة عليها دون أن يحتاج الأمر إلى إعطاء تنازلات للجماعات المعارضة. بالنسبة لواشنطن، كانت هناك مكاسب استراتيــجية مهمة جراء التدخل الاقتصادى الأمريكى فى الخليج، وخاصة بعد أن دفعت إدارة ترومان أرامكو إلى أن تقسم إيراداتها مناصفة مع السعوديين فى ١٩٥٠. وبينما كان التأثير البريطانى فى العراق وإيران يتعرض لضغوط الوطنيين المحليين – إذ كانت هناك أعمال شغب ومظاهرات فى بغداد فى ١٩٤٨ ضــد تجديــد المعاهدة الإنجليزية العراقية – كانت واشنطن ترى أن علاقاتها مع آل سعود شراكة تؤخذ فيها الاحتياجات المحلية فى الاعتبار.

لم تكن المشكلة التى واجهتها الولايات المتحدة الأمريكية فى إيران منذ أن بدأت التدخل فى شئونها أثناء الحرب العالمية الثانية غريبة عن صراعات تفكيك الاستعمار فى كل مكان آخر. منذ العشرينيات وشركة البترول البريطانية الإيرانية ***Anglo-Iranian Oil Company (AIOC)***، التى عرفت فيما بعد بشركة البترول البريطانية ***British Petroleum***، وهى تدير الأجزاء الجنوبية من البلاد باعتبارها قوة استعمارية، وتصدر فوائد كبرى للمساهمين فيها فى لندن. وقد جعل الاحتلال

التحالفى فى فترة الحرب واعتماد الحكومة الإيرانية على الدعم الغربى بعد الحرب للتخلص من الضغوط السوفيتية، جعلا موقف الشركة السياسى أقوى منه فى أى وقت مضى، وبدت حكومة حزب العمال البريطانية الجديدة غير متحمسة مثل الحكومات السابقة لدفع الشركة لاقتسام أرباحها مع الإيرانيين. وفى الوقت نفسه، كان العمال فى حقول البترول حول عبدان يعيشون فى فقر حيث يتلقون فى المتوسط أقل من خمسين سنتا فى اليوم، وبلا إجازات أو رعاية صحية أو تأمين من الشركة. وفى القرى الفقيرة المكونة من أكواخ حيث كان الناس يعيشون بلا كهرباء أو أى شكل من أشكال الصحة، كان الحزب الشيوعى الإيرانى- توده- يحقق عودة سياسية سريعة رغم أن شرطة الشاه كانت تلاحقه.

وكما كانت الحال فى جنوب شرق آسيا، واجهت الولايات المتحدة صعوبة فى موازنة الموقف فى إيران، بين قلقها بشأن اللامبالاة البريطانية بالمطالب المحلية من جهة وبين الخوف الزائد من المخططات السوفيتية فى إيران من جهة أخرى. فإيران تشترك مع الاتحاد السوفيتى فى حدود ١٦٠٠كم، كان ترومان يرى أن ستالين قد أوضح مخططه بعيد المدى فى ١٩٤٦. وبينما لدى الولايات المتحدة نفسها اكتفاء ذاتى من البترول ومنتجاته، فقد تستغل موسكو الفوضى السياسية فى إيران لكى تسيطر على مصادر الطاقة التى كانت أوروبا الغربية واليابان تحتاجان إليها من أجل إعادة البناء. وعلى عكس ما كان يحدث فى مالايا، حيث كانت واشنطن معجبة بموقف لندن، كان العناد البريطانى فى إيران يصب مباشرة فى مصلحة الشيوعيين؛ وقال أفريل هاريمان ***Averell Harriman*** مبعوث ترومان إلى طهران إن "الموقف هنا نموذج مأساوى لغيـــاب الإدارة يصحبه تنام عالمى لفكرة القـــومية والوطنية فى الدول المتخلفة"[١٦]. كان ذلك تحديا على الولايات المتحدة أن تواجهه.

نقطة الضوء الوحيدة أمام واشنطن بالنسبة للموقف فى إيران، كانت هى الشاه الشاب محمد رضا بهلوى. عند أواخر الأربعينيات بدأ الشاه يزيح جانبا سمعته كشاب طائش وبدأ يأخذ الحكم، وهو ما كان يعتبره حقًا إلهيا، على محمل الجد. كانت الولايات المتحدة هى نموذج الإصلاح فى نظره – فقد زارها فى ١٩٤٩ وتأثر تأثرًا شديدا بالصناعة الأمريكية ومستويات المعيشة هناك، وأعجب بالنشاط الذى رآه وتأكيد الولايات المتحدة على التعليم وعلى التقدم السريع، مقارنًا ذلك بالـ"تخلف" الموجود فى بلاده. كما أعجب بالاستقبال الحافل الذى استقبل به (وخاصة بجعله الكابتن الشرفى لفريق كرة القدم بجامعة جورج واشنطن). ولدى عودته إلى طهران راح ينظر إلى الولايات المتحدة لتساعده فى التغلب على أولئك الذين كانوا مسئولين عن العلل الداخلية فى بلاده من وجهة نظره، وهم رجال الدين الرجعيون، والإقطاعيون المتعطشون للسلطة، واليساريون الدهماويون، والإمبرياليون الأجانب [١٧].

ازداد الموقف فى إيران تعقدا ووصل إلى حد الأزمة بعد أن أرغم الشاه فى ١٩٥١ على القبول باختيار المجلس لرئيس الوزراء محمد مصدق، وخططه لتأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية. ولد مصدق فى عام ١٨٨٠ فى النخبة الإقطاعية فى إيران، وتلقى تعليمه بالمدرسة القومية للعلوم السياسية بباريس، ثم فى سويسرا، وكان أول إيرانى يحصل على الدكتوراه الأوروبية. بعد الحرب العالمية الأولى أصبح نصيرًا للوطنية المحلية الإيرانية، ووصف الملكية بأنها أداة للمصالح الخارجية، وتبنى العودة إلى القيم الإيرانية الحقة. كان مصدق رجلا ذا جاذبية قوية للكثير من الإيرانيين، لأسلوبه الخطابى ولمعارضته المدروسة والواسعة لأسرة بهلوي، ومن ثم أصبحت الحكومة مركز جذب لكل من اليساريين والوطنيين المحليين. حتى أن بعض الزعماء الدينيين الشيعة أيدوه، رغم أن الإسلاميين– مثل روح الله الخميني– أدانوه هو وحكومته ووصفوه بأنه غير مخلص.

ومع أن إدارة ترومان حاولت أن تتوسط فى النزاع بشأن البترول بين الحكومتين الإيرانية والبريطانية، فإن القيادة الجمهورية الجديدة فى واشنطن اعتبرت مصدق لعبة فى أيدى الشيوعيين والسوفيت. ورغم أن جون فوستر دالاس كان على دراية بأن الخطر الاقتصادى البريطانى- الذى فرضته بريطانيا ردًا على تأميم البترول- كان هو السبب الأساسى فى الموقف الاجتماعى والاقتصادى المتردى فى إيران، فإنه لم يرغب أن يأخذ على عاتقه مسئولية بقاء مصدق فى السلطـــة. فـــوفقا لمـــا قالـــه السفيـــر الأمـــريكى الجديـــد فـــى طهران لوى هندرسون *Loy Henderson*، كان رئيس الوزراء الإيرانى "يعوزه الاتزان" و"تتملكه العواطف والتحيزات" و"ليس عاقلا بما يكفى"(١٨). وحتى رغم أن الرئيس أيزنهاور تساءل متعجبًا بصوت عال فى مؤتمر مجلس الأمن القومى فى الرابع من مارس ١٩٥٣ لماذا لم نستطع "أن نجعل بعض الناس فى هذه الدول المعدمة يحبوننا بدلا من أن يكرهوننا"، كانت إدارته على وشك تنفيذ خطة بريطانية لخلع حكومة مصدق بالتحالف مع قلة من كبار الضباط العسكريين ومع الشاه(١٩). وأعطى البيت الأبيض فى ١٤ يونيو ١٩٥٣ إشارة البدء فى عملية *AJAX* – وهى المحاولة الأمريكية الأولى بعد الحرب لخلع إحدى الحكومات الشرعية فى العالم الثالث.

فى البداية بدت الخطة خطأ كبيرًا لفريق المخابرات المركزية الأمريكية فى طهران وشركائهم البريطانيين. ورغم علاقاته مع الأمريكيين، كان الشاه يرفض المشاركة فى الإطاحة بالدستور الإيرانى. فى ١٥ أغسطس، اليوم المحدد للقيام بالانقلاب، كان الأمير رضا بهلوى فى طريقه إلى خارج البلاد "لقضاء إجازة" بدلا من مواجهة مصدق. والأسوأ من ذلك أن قوات موالية للحكومة قبضت على الكولونيل الذى كان سيقوم بالانقلاب. لعدة أيام بقيت السلطة غير محسومة، لكن فى نهاية الأمر أثمرت خطة الولايات المتحدة للتلاعب بالرأى العام من خلال هجوم مخطط على الشخصيات الدينية، ومن خلال رشوة جماعية للزعماء المحليين

وللصحافة، ومن خلال المساعدة فى تنظيم مسيرات معادية لمصدق. وبعد أربعة أيام من تزايد الفوضى فى الشوارع، انحاز الجيش للرجل الذى لقبه الشاه برئيس الوزراء الجديد، الجنرال فضل الله زاهدى، الذى كان مختبئًا فى مركز المخابرات الأمريكية *CIA* أثناء أعمال الشغب. تم القبض على مصدق. واستنتجت المخابرات فيما بعد أن العملية لم تقم على افتراضات خاطئة، بل على "مبدأ الفعل القوى الإيجابى لتحقيق الافتراضات"[٢٠].

كان الانقلاب الإيرانى محطة جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية فى العالم الثالث على مختلف الأوجه باستثناء، طبعًا، سياستها تجاه أمريكا اللاتينية. فلأول مرة تنظم واشنطن تفصيليًا خلع حكومة خارجية خارج حدودها الجغرافية، وكانت النتائج مُرضية لها – كما أوضحت سجلات المخابرات. فإيران لم يتم إنقاذها من الفوضى والتحول المحتمل إلى الشيوعية فحسب، ولكن واشنطن بيّنت لحلفائها الأوروبيين المترددين المتشككين أنه لابد أحيانًا من اتخاذ قرارات حاسمة فى مواجهة أزمات العالم الثالث. الأهم من كل ذلك – وفق ما رأى الكثيرون فى واشنطن أن إيران بعد الانقلاب قد وُضعت على الطريق الصحيح نحو التنمية الاقتصادية والسياسية تحت زعامة الشاه. لكن إدارة أيزنهاور خاب أملها فيما بعد. فدلاس لم يدرك التوازن الذى تعين على الشاه أن يقوم به لإحداث ثورة من أعلى – يقوم بها أصحاب السلطة المحليون والجيش ورجال الدين، ثم هناك الموقف الإقليمى المعقد المنذر بالخطر – ولذا فقد خاب أمله أن السلطات الإيرانية لم تسع حتى إلى سياسة أكثر جذرية. فكما قال لأيزنهاور فى منتصف ١٩٥٨ "سنظل متشائمين بشأن مستقبل الشاه ما لم يقتنع بالقيام بإصلاحات جذرية"[٢١].

فى أواخر الخمسينيات، بدأ الاضطراب فى إيران يتراجع على قائمة أولويات واشنطن مقارنة بالاضطراب الحقيقى فى العالم العربى. فى ١٩٥٢ سيطر الضباط

الثوريون المحليون على السلطة فى مصر، وألغوا الملكية ووضعوا أكبر دولة عربية من حيث عدد السكان على الطريق نحو الإصلاح الجذرى. وبعد ذلك بعامين فاز تحالف يقوده حزب البعث الاشتراكى المناصر للعرب فى الانتخابات فى سوريا. وبدا أن شكلا علمانيًا من الوطنية يزداد قوة فى المنطقة بأسرها، هدفاه الأساسيان هما مناهضة الاستعمار وإرساء دعائم الوحدة العربية. تأسس حزب البعث- وهو بالتأكيد أقوى مناصر لهذا الاتجاه السياسى- فى ١٩٤٣ فى دمشق على يد ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، وكان عفلق هو زعيمه الأيديولوچى الأساسى. كان عفلق - وهو سورى من أسرة أرثوذكسية يونانية تلقى تعليمه فى السوربون - يرى أن العرب أمة واحدة قسمها الإمبرياليون الأوروبيون تقسيمًا اصطناعيًا. وكانت مهمة حزب البعث هى أن يعيد الدولة الموحدة التى تتوافق مع عظمة الشعب العربى، وكان يدعى عفلق أن العملية الثورية ينبغى أن يترأسها قائد بعثى مناصر للعرب، يعمل فى إطار بنية تنظيمية سلطوية قوية - مستعارة جزئيًا من الأحزاب الأوروبية الشيوعية والفاشية فى الثلاثينيات، كما ادعت الأيديولوچية البعثية أنها تتجاوز التقسيمات الطبقية والدينية والثقافية وركزت فى الخمسينيات جل غضبها على الشيوعيين والإسلاميين الشرق أوسطيين الذين رأت أنهم يفسدون فكرة العروبة.

ولد الزعيم المصرى الجديد العقيد جمال عبد الناصر فى ١٩١٨، كان أبوه ساعى بريد وكان شديد الشغف بالثقافة والتاريخ العربيين. منذ أن كان فى سن المراهقة كان ناصر يرى نفسه مختارًا لكى ينقذ العرب من السيطرة الخارجية. وبعد أن استعيدت وحدة العرب، وبعد أن أصبحت القاهرة مقر الثورة العربية، أصبحت مهمة السلطة الجديدة هى المساعدة فى تحرير العالم الإسلامى وأفريقيا، وكلاهما كان يتطلع إلى مصر بحثًا عن الإلهام. كتب عبد الناصر فى ١٩٥٣ مظهرًا قراءته للأدب الأوروبى كما للأساطير العربية:

لسبب ما يبدو لى أن بداخل الدائرة العربية هناك دورًا هائمًا على وجهه يبحث له عن بطـل. ولـست أدرى لماذا يبدو لى أن هذا الدور، وقد أعياه البحـث، قـد استقر أخيرًا بالقرب من حدود دولتنا وهو يستصرخنا لنتحرك... وعندما أنظر إلى الثمانين مليون مسلم فى إندونيسيا والخمسين مليون فى الصين والملايين فـى مالايا وسيام [تايلاند] وبورما ونحـو المائـة مليـون مسلم فى باكستان وأكثر من مائة مليون مـسلم فـى الشرق الأوسـط، والأربعـين مليـون فـى الاتحـاد السوفيتى... ينتابنى الشعور بالقدرات الضخمة التـى قد تتحقق من خلال تعاون كل هؤلاء المسلمين، وهـو تعاون لا يتعدى حدود ولائهم الطبيعى لـدولهم ولكـن يمكّنهم وإخوانهم فى الإيمان أن يأخذوا السلطة بحكمة وبلا حدود... والآن أعود إلى المهمـة الحـائرة فـى البحث عن بطل ليقوم بها. ها هو الـدور وهـا هـى الأهداف وها هى خشبة المسرح. نحن وحدنا- بفضل موقعنا- من نقدِر على القيام بهذا الدور[٢٢].

لكن الحكومة العسكرية التى قادها عبد الناصر كانت تدرك أن عليها أن توحد قواها قبل أن تتحرك ضد النفوذ البريطانى فى مصر وهو النفوذ المكروه بشدة. فى سلسلة من اللقاءات بـدالاس فى مايو ١٩٥٣، أصر عبد الناصر أن الإمـبريالية البريطانية- وليست الشيوعية السوفيتية- هى ما يهدد المنطقة. وقال لوزير الخارجية إن المنافسة فى الدول العربية قائمة بين فريقين: الشيوعية والقومية.

و"إذا أنت أصررت أن تلعب، فإنك ستفسد المباراة على الآخرين" (٢٣). لقد أراد عبد الناصر أن تقف الولايات المتحدة بعيدًا بينما تهزم القومية العربية معارضيها في الداخل والخارج.

لكن لكي يهزم هؤلاء الأعداء - وخاصة بعد الانقلاب الإيراني عام ١٩٥٣- كان عبد الناصر يدرك أن عليه أن يخلق شبكة واسعة من الحلفاء. وكما رأينا كان مؤتمر باندونج حدثًا بارزًا بالنسبة له، حيث ترأس الوفد المصرى. ومن ١٩٥٥ فصاعدًا كانت علاقاته بدول عدم الانحياز قوية ومستمرة مع وجود علاقة قريبة للغاية مع تيتو رئيس يوغوسلافيا. كما وجد عبد الناصر في موسكو أيضًا حليفًا قويًا وإن كان حليفًا لابد من معاملته بمنتهى الحذر. وراح يشرح لتيتو في يوليو ١٩٥٦ حين التقاه ونهرو في جزيرة بريوني اليوغوسلافية أن شراء الأسلحة والمعدات الأخرى من السوفيت، أسلوب يزيد من الخيارات المطروحة. وبناء على السابقة الإيرانية كان يعرف أن الأمريكيين لن يساعدوا في التخلص من القواعد البريطانية في السويس ولا في عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، وهما القضيتان اللتان كانتا على رأس قائمة أولويات الزعيم المصرى. لكنه كان لازال يحدوه الأمل في أن تمده الولايات المتحدة ببعض المساعدات الاقتصادية التي كانت مصر تحتاج إليها بشدة في مشاريعها التنموية.

عند انعقاد اجتماع بريوني، كان عبد الناصر قد تدبر بالفعل الخطوة الأولى من الحملة الطويلة لدفع الإمبريالية خارج الشرق الأوسط: سوف يؤمم قناة السويس ليظهر للعرب في كل مكان أنه كان جادًا بشأن مواجهة الأوروبيين، وليرغم الأمريكيين على إعادة النظر في أمر رفضهم تقديم المساعدة- وهو الأمر الذى بلغه بعد صفقة السلاح المصرية السوفيتية. كان يعتقد أن القوى العظمى لن تأخذه مأخذ الجد إلا إذا أظهر لهم أنه رجل أفعال، وبعد تأميم قناة السويس في

٢٦ يوليو ١٩٥٦ بدأت القاهرة محادثات مع الاتحاد السوفيتي بشأن المزيد من المساعدات والأسلحة، مع التأكد من أن البريطانيين والأمريكيين كانوا يعرفون ما يحدث. كانت مصر تجازف بكل ما تملك من أجل السيطرة على أراضيها ومن أجل مكانتها في العالم العربي(٢٤).

أما بالنسبة لإدارة أيزنهاور، فقد وقعت أزمة السويس في لحظة تعسة للغاية. فانتخابات الرئاسة الأمريكية كانت قريبة في نوفمبر ١٩٥٦، وليس ذلك فحسب وإنما كانت واشنطن تعمل جاهدة لتحقيق انتصارات إعلامية من خلال القلاقل السوفيتية في بولندا والمجر. فلو أن بريطانيا وفرنسا – الدولتان الأوروبيتان الشريكتان في ملكية القناة – تدخلتا لحماية مركزهما، فإن الحليف الأمريكي سيوضع في مواجهة دفاعية مع الاتحاد السوفيتي، وسوف يفقد أيضًا أي فرصة لتخليص عبد الناصر من قبضة موسكو من خلال مناشدة القومية لديه. بعبارة أخرى فإنه على الرغم من مخاوف واشنطن المتزايدة من ميل القاهرة ناحية السوفيت، فإن أيزنهاور ودالاس لم يريدا تدخلا غير محسوب ضد نظام عربي ذي شعبية وإرادة ومقدرة عن جدارة، وُجِد ليبقى في مكانه مهما حدث لقناة السويس. حذر أيزنهاور رئيس الوزراء البريطاني الجديد، أنتوني إيدن ***Anthony Eden***، من أنه "في حال حدوث تدخل فإن شعوب الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وبدرجة ما كل آسيا وكل أفريقيا، سوف تتحد ضد الغرب إلى درجة، أخشى، أن يصعب تحاشيها في جيل كامل، أو ربما في قرن كامل، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار مقدرة الروس على إيقاع الأذى"(٢٥).

وعندما تجاهلت بريطانيا وفرنسا، ومعهما الإسرائيليون، ضغوط الولايات المتحدة وغزوا مصر في أواخر أكتوبر، وقعت واشنطن في مأزق. وفي حين تعاطف الرئيس مع أهداف الغزاة، استشاط غضبًا من الطريقة التي عامله بها

حلفاؤه البريطانيون. وتوعد أيزنهاور: "سنجعلهم يعلمون فورًا أن هناك الكثير في صالحهم في صراعهم هذا مع المصريين، ولكن لا شيء يبرر أن يتخطونا"[٢٦]. وبعد أسبوع، بعد أن أعلن وقف إطلاق النار، استخدمت الولايات المتحدة وسائل اقتصادية- من ضغوط ضد قيمة العملة البريطانية، وتخفيض حصة البترول الأمريكي إلى أوروبا- للتأكد من الانسحاب السريع للقوات الأجنبية من مصر. ورغم أنه خسر عسكريًا، ظل عبد الناصر مسيطرًا على القناة، وحاز مكانة الزعيم في عيون معظم العرب. وكان رد فعله على المحاولات الأوروبية للسيطرة على القناة يُدرس لطلاب المدارس في الشرق الأوسط كله:

> **إنني أتحدث باسم كل مصري عربي وباسم كل الدول الحرة وكل من يؤمنون بالحرية ومستعدون للدفاع عنها. إنني أتحدث باسم المبادئ المعلنة في هذه الدول في ميثاق الأطلنطي. لكنهم الآن يخرقون هذه المبادئ وأصبح من واجبنا أن نتحمل مسئولية إعادة إرسائها وتأكيدها من جديد [٢٧].**

أحد أهم الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة ترد بهذا الغضب على الغزو، كانت المحاولات السوفيتية استخدام أزمة السويس لزيادة تأثيرها في القوميين العرب، وتصوير قضائها على تمرد المجر بصورة أفضل. وقد اقترح خروشوف في نقاشات المكتب السياسي للحزب الشيوعي وكذا في اتصالاته مع واشنطن، اقترح تدخلا أمريكيًا- سوفيتيًا مشتركًا، تحت مظلة الأمم المتحدة، كما هدد بإرسال قوات سوفيتية "لفرض السلام" في الشرق الأوسط حتى وإن لم يشترك معه الأمريكيون. شعر دالاس أن الولايات المتحدة "مضطرة أن تختار بين أن تتبع خطى الاستعمار الأنجلو/فرنسي في آسيا وأفريقيا، أو أن نفصل طريقنا عن طريقهم"

لكى تواجه السياسات السوفيتية على نحو أفضل[٢٨]. وعندما قررت إدارة أيزنهاور أن تسحب البساط من تحت أفعال لندن وباريس فى مصر، كانت تعرف أنها بذلك تفسد تمامًا القدرة والرغبة لدى الدول الأوروبية فى الدفاع عن ممتلكاتها الاستعمارية فى المستقبل. فباستطاعة أمريكا أن تضعهما بوصفهما قوى غربية كبرى على العالم الثالث، بسياسة قائمة على أولوياتها الاستراتيــجية والاقتصادية.

بداية من ١٩٥٦ حتى الحرب بين العرب وإسرائيل فى ١٩٦٧، أخذ النفوذ الأمريكى المباشر فى الشرق الأوسط أبعادًا جديدة. وسرعان ما وجدت الولايات المتحدة أن أولويات الحرب الباردة لديها تؤدى إلى صراع عميق مع القومية العربية كذلك الذى كان بين القوى الأوروبية وبين القومية العربية قبل أزمة السويس. وبعد إقرار الحق (ودعم الكونجرس) لما أصبح يعرف باسم مبدأ أيزنهاور- أى رغبة الولايات المتحدة للتدخل من جانب واحد فى الشرق الأوسط لدعم أصدقائها وحلفائها ضد الشيوعية- أرسل الرئيس فى ١٩٥٨ قوات بحرية أمريكية إلى لبنان، لإنقاذ نظام الرئيس اللبنانى كميل شمعون الموالى للغرب ممن كانوا ينافسونه. فى ذلك العام نفسه بدأت ثورة العراق مخرجةً هذه الدولة- وقد كانت آنذاك حليفًا قويًا لبريطانيا وأمريكا من خلال حلف بغداد – من مدار الغرب. وبدلا من أن يرتدع النظام العراقى الجديد لعبد الكريم قاسم بسبب التدخل الأمريكى فى لبنان- قام النظام بالتحالف مع الحزب الشيوعى العراقى، وبدأ التفاوض مع موسكو بشأن العديد من القضايا بما فيها المساعدات العسكرية. فى الأردن، أرسل البريطانيون قواتهم- هذه المرة مع مباركة علنية من واشنطن- لإنقاذ عرش الملك حسين، عندما تحداه القوميون العرب فى العام نفسه. واستنتج السوفيت أن الموقف فى الشرق الأوسط بأسره ازداد تعقيدًا بالنسبة للحكام المحليين الذين وقفوا فى طريق الثورات القومية ناصرية الطابع. وقال خروشوف لرئاسة الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى إنه "فيما يبدو أنه فى كل من لبنان والأردن لم يعد الشعب يدعم

القادة. ولخوف الزعماء من الشعوب، ولعدم قـدرتهم الاعتمـاد على الجيش الذى لا يستطيع أن يساند النظام الذى لا يستجيب لمصالح هذه البلاد، قرروا أن يعتمدوا على القوات الدخيلة- الولايات المتحدة وإنجلترا"[٢٩].

ورغم تفاؤلهم للتقلبات السياسية في الشرق الأوسط، حذر السوفيت الشيوعيين المحليين أن عليهم توخى الحذر فى تحالفهم مع الثوريين الوطنيين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. وسرعان ما اتضح أن تحذيرات الكرملين فى محلها: فعند نهاية ١٩٥٩ انقلب كل من عبد الناصر وقاسم على الحزبين الشيوعيين فى مصر والعراق فى استعراض وحشى لمن يملك القوة، وحتى رغم أن الزعيم العراقى ظل يتذبذب فى علاقته مع الشيوعيين إلى أن خلعه حزب البعث العراقى فى ١٩٦٣، فإن مخاوف أمريكا من تولى الشيوعية السلطة بدت بلا أساس. ومع ذلك فإن التحالفات التى حدثت بين الأنظمة الثورية الوطنية العربية وبين السوفيت فى الستينيات ظلت تمثل لواشنطن أسبابًا للقلق.

كان السبب الرئيسى فى تطور هذه التحالفات السوفيتية العربية هو تلك العلاقة المتنامية بين أمريكا وإسرائيل. عندما أقامت الأمم المتحدة الدولة الإسرائيلية فى فلسطين ليصبح وطنًا قوميًا لليهود فى ١٩٤٨، دعمت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى هذا الاقتراح. كانت المزايا الأساسية بالنسبة لستالين تكتيكية: بما أن الدول العربية أنظمة إقطاعية رجعية، تساندها الإمـبريالية الغربية، فإن خلق دولة صهيونية فى وسطهم قد يساعد على تقوية نمو قومية عربية أصيلة؛ ولو تعرض الجناح الصهيونى اليسارى إلى خطر من جيرانه، فإنه قد يلجأ إلى السوفيت طلبًا للحماية- وقد قامت مثل هذه التحالفات فى أوروبا فى

السابق. كما كان ستالين يرى أن دعمه لإنشاء إسرائيل وسيلة لصرف الانتباه عن معاداته للسامية المتزايدة بالداخل. بالنسبة للأمريكيين، وللكثير من الزعماء الأوروبيين بعد الحرب، كانت إقامة إسرائيل كفارة عن الهولوكوست- وأسلوبًا سهلا لتعويض اليهود عن عدم القيام بما يكفى من أجل إنقاذهم من سياسة هتلر للإبادة. ولكن فى واشنطن على وجه الخصوص، كان غرس دولة أوروبية فى الشرق الأوسط يُنظر إليه باعتباره وسيلة لتصدير الحضارة والديمقراطية إلى المنطقة. فى كل من الشرق والغرب، كانت خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين تُعتبر حلا لمشكلة دقيقة، وفائدة جوهرية لهم فى الحرب الباردة، رغم علمهم – كما أشار ترومان فى فبراير ١٩٤٨- إلى أن "الموقف لن يُحل بهذا الأسلوب القائم حاليًا"[٣٠].

خلق الانتصار الصهيونى فى الحرب الأهلية فى فلسطين فى ١٩٤٨، ومشكلة اللاجئين العرب التى نشأت على أثرها، خلقا كراهية شعبية عامة ضد إسرائيل فى الشرق الأوسط كله؛ وأصبحت معاداة الصهيونية جزءًا رئيسيًا من القومية العربية فى الخمسينيات. ومع إدراك واشنطن أن العرب قد فُرض عليهم "أن يدفعوا ثمن محاولة حل مشكلة العالمية للصهيونية"، ومع انشغالها بتأمين الوصول إلى بترول الشرق الأوسط، حاولت فى البداية أن تنفض يديها من الصراع العربى الإسرائيلى[٣١]. إننا اليوم ندرك أن تلك التحالفات الوليدة بين موسكو والأنظمة القومية العربية، هى ما جعل الولايات المتحدة تدعم إسرائيل على مضض منذ منتصف الخمسينيات فصاعدا، رغم غضب أيزنهاور من تدخل تل أبيب فى أزمة السويس. الدافع للسياسة الأمريكية كان جاذبية قوة إسرائيل المتنامية واستقرارها السياسى أكثر منه الاحتياج إلى الأصوات اليهودية فى الداخل؛ فالدولة الصهيونية تستطيع، مع الزمن، أن تتعاون مع الولايات المتحدة فى إبعاد النفوذ السوفيتى عن الشرق الأوسط[٣٢].

بيد أن الشرق الأوسط كان مجرد منطقة أعدتها الأيديولوچية الأمريكية فى الخمسينيات لعالم ثالث مؤهل للتدخل. المنطقة الأخرى كانت جنوب شرق آسيا، حيث وجدت إدارة أيزنهاور أن سياسة التدخل المحدود فى سنوات ترومان ليست كافية. ومع شدة قلقه بشأن التطورات فى الهند الصينية وتحول الأنظمة الوطنية إلى اليسار فى كل مكان آخر فى المنطقة، كان الرئيس يأمل فى أن يستخدم تأثير الولايات المتحدة ليغير مستقبل المنطقة قبل أن يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يجد لنفسه موطئ قدم؛ ونتيجة لذلك تدخلت الولايات المتحدة فى بورما، حيث احتفظت بألف وخمسمائة جندى صينى – كانوا باقين من جيوش الكومينتانج المهزومة فى ١٩٤٩– لكى تتحدى الصين الشيوعية وتضغط على النظام الوطنى اليسارى فى رانجون. فى كمبوديا، دعمت الإدارة تمردًا ضد نظام الأمير سيهانوك ***Prince Sihanouk***، بسبب رغبة الأمير فى التعاون مع اليسار فى الداخل ومع جمهورية الصين الشعبية. فى لاوس وجنوب ڤيتنام دفعت الولايات المتحدة الفاتورة كاملها لبناء الجيوش، لكى تواجه التأثير المتنامى للقوى اليسارية. لكن كان فى إندونيسيا– أكبر دول جنوب شرق آسيا وأشدها تأثيرًا– أن بدأت إدارة أيزنهاور أشد برامجها التدخلية طموحًا، فى محاولة لتغيير الوجهة السياسية المستقبلية لأكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان.

كما رأينا، حاولت الولايات المتحدة أن تتعاون مع أول نظام إندونيسى وطنى بعد الاستعمار ، بزعامة سوكارنو ***Sukarno***. ولكن فى منتصف الخمسينيات اضطربت العلاقة، لأن واشنطن أصبحت أقل تحملا لحيادية سوكارنو ، التى تمثلت فى استضافته لمؤتمر باندونج، وكذلك لأن سوكارنو نفسه كان يتحرك فى اتجاه اليسار فى سياساته الداخلية وكان يريد، على نحو متزايد، أن يقوى اتصالاته مع الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية. لم يكن الزعيم السوفيتى راضيًا عن التقدم الاقتصادى البطىء فى بلاده ولا عن نظام سياسى برلمانى كان فى رأيه

يعطى حيزا كبيرا للنخب القائمة وللمجموعات الانفصالية. كما أثار احتجاز النمساوى إريان جايا ***Irian Jaya*** والدعم الأمريكى للوجود الاستعمارى البريطانى فى مالايا- وكان سوكارنو يرى أن المنطقتين جزء طبيعى من الفيدرالية الإندونيسية الكبرى- أثار غضب الزعماء القوميين فى جاكارتا وجعلهم يبحثون عن حلفاء فى أماكن أخرى.

بعد أن حرص سوكارنو على زيارة واشنطن أولا، قام فى أواخر صيف ١٩٥٦، بزيارة كل من موسكو وبكين، وعند عودته امتدح نمو الاقتصاد الصينى الذى كان يعتقد أن على إندونيسيا أن تتعلم منه الكثير. فى ١٩٥٧ بعد أن خذله الأمريكيون، حصل سوكارنو على قرض بقيمة مائة مليون دولار من خروشوف من أجل مشتريات عسكرية. فى العام نفسه أعلن الزعيم الإندونيسى أن هدفه كان "الديمقراطية الرشيدة"، حيث مجلس وزراء مكون من الأحزاب الأربعة الكبرى- بما فيها الحزب الشيوعى الإندونيسى- تتولى رئاسة الدولة تحت حكمه هو، دون الاعتماد على البرلمان. ومع مواجهة الثورات المفتوحة من قوات الانفصاليين المسلمين فى سومطرة وسولاوسى، أعلن سوكارنو ورئيس وزرائه الجنرال عبد الحارس ناسوشن المعادى للشيوعية، أعلنا الحكم العسكرى فى محاولة للحفاظ على وحدة تكامل الأراضى الإندونيسية وسلطة سوكارنو.

فى واشنطن، كان أيزنهاور ودالاس يضربان أخماسا فى أسداس عما إذا كانت مشكلة جاكارتا هى السيطرة على الأراضى- على الأقل ما دام أن الشيوعية فى تصاعد. كان دالاس قد أخبر سفيره المنتدب إلى إندونيسيا أنه عند الاختيار "بين إندونيسيا موحدة متكاملة الأراضى تميل... نحو الشيوعية، وبين إندونيسيا مفككة إلى وحدات عنصرية وجغرافية فإننى أفضل الثانية"[٣٣]. وفى أواخر ١٩٥٧ استنتج مجلس الأمن القومى أن الولايات المتحدة كان عليها أن "تقوى إرادة القوى المعادية

للشيوعية وعزيمتها وتماسكها فى الجزر الخارجية، وخاصة فى سومطرة وسولاوسى لكى تستطيع من خلال قوتها أن تؤثر إيجابيا فى الموقف فى جاڤا"[٣٤].
وقد أقر الرئيس عملية كبرى برئاسة وكالة المخابرات المركزية لإمداد المتمردين بالأسلحة ومعدات الاتصال، وسرعان ما قام طيارو القوات الجوية الأمريكية، ومعهم أفراد من القوات الجوية من الجوميندانج الصينى والفلـــبينى بمهمات قتال جوية لصالح التمرد الذى كان يتخذ من سومطرة مقرًا له. وكانت تلك أكبر عملية مفتوحة تقوم بها الولايات المتحدة. في ديسمبر ١٩٥٧ أخبر دلز نائبه أنه يريد أن "يرى الأمور تتجه إلى نقطة نستطيع معها أن نسحب اعترافنا بحكومة سوكارنو، ونعطيه للعناصر الانفصالية المنشقة فى سومطرة وللقوات البرية، بحيث نحفظ حياة الأمريكيين وممتلكاتهم ونستخدم ذلك ذريعة لكى تحقق نقلة كبرى هناك"[٣٥].

بيد أن خطط وزير الخارجية لتصدع إندونيسيا لم تنجح. فسوكارنو حين واجه التمرد المفتوح والتدخل الخارجى واسع النطاق استطاع أن يخلق- ولو لفترة وجيزة فقط- تحالفًا من المسلمين والشيوعيين والضباط المحليين، أحيا به جمهوريته فى الثلاثينيات والأربعينيات. بالنسبة للعسكرية الإندونيسية، كانت الدولة الموحدة وسياسة التكامل الداخلى هى سبب وجودها، وقد جعلت السياسة الأمريكية القائمة على تدعيم المتمردين، جعلت أشد المعادين للشيوعية من زعماء الجيش الأصلى يتجهون نحو سوكارنو من جديد. وحين بدأوا هجومهم ضد المتمردين ساعد جاكارتا أيضا وقوع أحد الطيارين الأمريكيين في الأسر بينما كان فى مهمة قصف لحساب المتمردين[٣٦]. وكان هذا الدليل الواضح على التورط الأمريكى يعنى أنه حتى المعادين للشيوعية مثل الجنرال ناسوشن بدأوا يفكرون فى أن تقوم إندونيسيا بالحصول على المساعدات العسكرية من موسكو. ومع تفكك جيوش التمرد، أجّل سوكارنو انتخابات ١٩٥٩ إلى أجل غير مسمى، وأعلن بداية "الديمقراطية الرشيدة". وقررت إدارة أيزنهاور عدم التدخل المباشر لمساعدة عملائها الإندونيسيين،

لكنها استمرت في دعم عصابات بقايا المتمردين في شمال سومطرة حيث بدأوا التوجه نحو هوية إسلامية أكثر منها إقليمية.

في أواخر الخمسينيات كانت الولايات المتحدة قد وضعت سياسة تدخلية ذات أبعاد عالمية. وحدها الأنظمة التي قبلت بالهيمنة الأمريكية في السياسة الخارجية وفي خطط التنمية، كانت هي التي تعتبر دولا قادرة على الحياة، وبعض الدول "غير القادرة على الحياة" كانت تدان لأنها كانت متفتحة على الشيوعية عن عمـــد، أو عن غير عمد ومن ثم تثير التدخل الأمريكي. حتى في دول مثل إندونيسيا، حيث لم تنجح استراتيـــچية واشنطن، لم يكن هناك الكثير من الندم. كان الأهم بالنسبة لإدارة أيزنهاور هو أن تفسد فرص نجاح خطط تنمية يسارية عن أن تفرض رؤيتها للتنمية في الدول حديثة الاستقلال. وبينما كان أيزنهاور يعارض التدخلات الإمـــبريالية من قبل العالم القديم- كما حدث في السويس- ويتقبل الحيادية ما دام أنها تعني الميل نحو الولايات المتحدة وكبح الحزب الشيوعي الداخلي، خلق أيزنهاور تاريخا للتدخلات الأمريكية الفاضحة وضع أمريكا على طريق التصادم المباشر مع المشاعر القومية خارج أوروبا. ومن خلال استراتيچيتها تلك، جعلت الولايات المتحدة من العالم الثالث كيانًا تصوريًا: تراه مناطق ينبغي التدخل فيها ويراه الجنوب مناطق لديها مصالح مشتركة في مقاومة التدخل.

الولايات المتحدة والاستقلال الأفريقي

لم تكن الثورات الأفريقية وما صاحبها من استقلال من أولويـــات الـــشئون الخارجية الأمريكية حتى الستينيات، لكن المواجهـــة بـــين أيديولوچيـــة الـــسياسة الخارجية الأمريكية وحركات التحرر الأفريقية في العقود الأولـــى مـــن الحـــرب الباردة وضعت نموذجا للتفاعلات المضطربة وصلت لأعلى درجاتها في المواجهة

بشأن الاستقلال عن الإمبراطورية البرتغالية فى السبعينيات. وكما رأينا، فإن الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وجدت نفسها بين مطرقة كرهها المتأصل للمشاريع الاستعمارية الأوروبية وسندان الخوف المتزايد من تصاعد الشيوعية. ولكن فى أفريقيا- كما فى آسيا- سرعان ما أصبح لوجهات النظر الأيديولوجية والاستراتيجية التى خلقتها معاداة الشيوعية اليد العليا فى السياسة الخارجية الأمريكية. وفى أواخر الخمسينيات، حينما كان معظم القارة يستعد لإقامة دول حديثة مستقلة، كان جل اهتمام واشنطن هو أن تتجنب تنامى التأثير السوفيتى، مع تأمين وصول الغرب بشكل مستمر إلى المواد الخام الاستراتيجية.

وكما يمكننا أن نتوقع فى دولة لم يكن قد تم بعد منح عدد كبير من إجمالى خمس وعشرين مليون أمريكى أفريقى فيها حق التصويت، كان هناك انقسام كبير فى الرأى حول ما إذا كانت أفريقيا- الآن أو فى المستقبل- يمكن أن تعد من الأماكن التى يمكن أن تزدهر فيها الحرية. فى خطاب تلو الآخر، تساءلت إدارتا ترومان وأيزنهاور حول مدى قابلية الدول الأفريقية للحياة، بينما كانت الإدارتان تؤيدان الاستقلال من حيث المبدأ. فى ١٩٥٨ أخبر أيزنهاور مجلس الأمن القومى *NSC* أنه: "بدلا من إبطاء حركات الاستقلال

> **أود أن أكون فى جانب أهل البلاد الأصليين لمرة...لابد أن نؤمن بحق المستعمرين فى تحقيق الاستقلال...[ولكننا] إذا أكدنا هذا الحق بقوة، فسوف نخلق أزمة مع الدول الأم...فلمَ لا ندعم التعليم والدين، ثم نترك الدولة الأم تجهز المستعمرة للاستقلال...السيد راندال *Randall* [رئيس مجلس السياسة الاقتصادية الخارجية] يقول بضرورة الاهتمام**

بالتعليم فى أفريقيا: فهناك مخاطرة فى إحضار الأفارقة
إلى الولايات المتحدة لتعليمهم[٣٧].

كانت واشنطن قلقة فى أواخر الأربعينيات وطيلة الخمسينيات على تأثير الاستقلال الأفريقى فى حلفائها الأوروبيين، وخاصة على الضعفاء منهم مثل البرتغال وبلجيكا. ونوه چيرهارت نيماير ***Gerhart Neimeyer***، أحد العاملين بتخطيط السياسات بالخارجية الأمريكية بقوله: "ينبغى أن تقوم سياستنا على المبدأ العام بالحق فى تقرير المصير...والواضح أنه هذه التوترات الحالية سائدة عالمنا المعاصر، فإن اهتمامنا الوطنى سينصب على الدول التى لازالت تحمل وصمة الإمبريالية الاستعمارية بدرجة أو أخرى. وعندما تنتهى هذه التوترات، بأمان، سوف تكون هناك اهتمامات أخرى"[٣٨]. لكن مع تزايد حدة الحرب الباردة أخذت تلك "الاهتمامات الأخرى" وقتًا طويلا لكى تظهر، وظلت الولايات المتحدة تركز على الجانب الأوروبى من الشئون الأفريقية. كانت سياسة مزدوجة لها "نظرية" لمعاداة الاستعمار، و"ممارسة" لدعم النخب المستعمِرة تمامًا مثل سياسة القوميات لدى السوڤيت: دعم تقرير المصير الوطنى "من حيث المبدأ" ما دام أن ممارسة هذا الحق لا تتعارض مع الميول الأيديولوچية للدولة[٣٩].

ومع ذلك، كانت العديد من القوى الاستعمارية الأوروبية ترى أن الولايات المتحدة فى أفضل حالاتها حليف متقلب فيما يخص الشئون الأفريقية، وفى بعض الدوائر كان هناك استياء شديد ضد ما رأوه محاولات أمريكية لأخذ النفوذ الأوروبى، سياسيًا واقتصاديًا. ورغم ذلك، لم يعد الشك يساور أى نخبة أوروبية بعد ١٩٤٥ فى أن الأمر يحتاج إلى الدعم الأمريكى للاحتفاظ بالنفوذ فى أفريقيا، وأنهم، من ثم، بحاجة إلى العمل مع، وأحيانًا للتأثير على، الأمريكيين. وكما قال السفير الفرنسى هنرى بونيه ***Henri Bonnet*** ساخرًا "ينبغى ألا ننسى... أن

أمريكا قد أهملت التعليم بشأن الشئون الأفريقية لوقت طويل، وأننا لو ناقشنا المشكلات على مستوى عالٍ نكون قد خاطرنا بكل المستمعين باستثناء عدد ضئيل"[٤٠]. كانت الولايات المتحدة تمثل، من وجهة النظر الأوروبية، "القارة المظلمة" الحقيقية فيما يتعلق بأفريقيا.

كان الأسوأ من وجهة نظر الكثير من الإداريين الاستعماريين، حقيقة أن الولايات المتحدة نفسها كانت مجتمعًا متعدد العنصريات – مهما حاول الكثير من النخب إخفاء هذه الحقيقة أو تجاهلها. في الحرب العالمية الثانية حارب الأمريكيون الأصليون والأمريكيون الآسيويون والأمريكيون الأفارقة والأسبان، حاربوا في جميع فروع القوات المسلحة الأمريكية، وعندما كانت العسكرية تخطو بخطى بطيئة متعثرة نحو إنهاء العنصرية في الخمسينيات، اتضح أن الكثير والكثير من الأمريكيين غير الأوروبيين بالخارج، عندما كان من الضروري أن يدافعوا عن مصالح وطنهم[٤١]. وقد رأى المستعمرون الأوروبيون في السابق أن التعامل مع الأمريكيين السود سوف يفجر بعض الآراء العنصرية النمطية التي غرسوها عن وعي في مستعمراتهم. وقد حاول فيليكس دو مولينير ***Felix de Muelenaere***، أحد مستشاري الحاكم العام البلچيكي بالكونغو، أن يشرح آثار ذلك للدبلوماسي الأفروأمريكي رالف بونش ***Ralph Bunche*** في ١٩٤٢ فقال: الجنود الأمريكيون السود "قد يكون لهم أثر سيئ في أهل الكونغو الأصليين، وخاصة في الموظفين المحليين الذين تركوا قبائلهم... المواطن الأصلي في الكونغو قد يعتقد أنه ينبغي أن يحصل على المزايا نفسها التي يحصل عليها الأمريكيون السود الذين تخرجوا في الجامعات أطباء وأساتذة"[٤٢].

أثناء الحرب الباردة كانت جنوب أفريقيا هي الدولة المستقلة الوحيدة- بالإضافة إلى الولايات المتحدة نفسها- التي كان التمييز العنصري فيها مسألة

قانون. كما كانت الدولة الأفريقية الأهم بالنسبة للولايات المتحدة، جزئيًا بسبب موقعها الاستراتيجى وجزئيًا بسبب ثرواتها الطبيعية. كانت مشكلة واشنطن أنه بينما بدأت الحكومة الفيدرالية الأمريكية تسير حثيثًا لإلغاء القهر العنصرى المؤسساتى، كانت بريتوريا تتحرك فى الاتجاه المعاكس بعد انتصار الحزب الوطنى فى انتخابات ١٩٤٨ التى اقتصرت على البيض. ولكن بداية سياسة التمييز العنصرى *apartheid*- المفروضة بالقوة فى جميع المجالات- لم تؤد إلى انهيار العلاقات بين أمريكا وجنوب أفريقيا. وكانت النخب الأمريكية تعتقد أن البيض فى جنوب أفريقيا سوف يحذون حذو أمريكا فيما يخص العلاقات العنصرية فى النهاية- بل إن التأكيد الأمريكى على ما يحمله المجتمعان من صفات مشتركة أصبح أقوى أثناء الخمسينيات- ثم إن جنوب أفريقيا كانت أهم من أن تُطرَح جانبًا بسبب الاختلاف فى الرأى حول معاملة الأفارقة. وكما قال القنصل الأمريكى فى دوربان "إنه من المحتمل، بل من الممكن، أن نتعامل بالأسلوب نفسه لو حاولنا أن نحكم باعتبارنا سلالة بيضاء وسط سكان سود يفوقوننا عددًا بخمسة أضعاف"[٤٣].

وبينما ظلت المخابرات المركزية تحذر من زيادة الراديكالية لدى الأغلبية الأفريقية- وخاصة بعد أن حصل الشاب نيلسون مانديلا وغيره على الإجماع الوطنى الأفريقى **African National Congress** لتبنى "خطة عمل" فى ١٩٤٩- فإن العلاقات الأمريكية مع جنوب أفريقيا العنصرية أوثق وأقرب أثناء الخمسينيات. ازدادت الاستثمارات الأمريكية، وكذا الصادرات الجنوب أفريقية- بما فيها اليورانيوم للصناعة النووية- كما ازداد التعاون العسكرى. وامتدح مساعد وزير الخارجية الأمريكى جورج مكـــچـــى **George McGhee**، وهو من تكساس، امتدح "الروح التقدمية والنشاط لدى رجال الأعمال فى چوهانسبرج"، حيث قد خلقت ناطحات السحاب والمصانع لديهم "أجواء أشبه بشيكاغو منها بأفريقيا"[٤٤]. وفى ١٩٦٠ كانت إدارة أيزنهاور قد اعتادت على التعاون مع نظام الحزب

الوطني، لدرجة أنه عندما سمع وزير الخارجية هيرتر ***Herter*** أنباء مذبحة الشرطة للأفارقة فى شاربـــفيل، كان أول رد فعل له هو الغضب الشديد من بيان سابق صدر عن وزارته "ينعى بمزيد من الأسى فقدان الحياة". وقال الوزير إن البيان كان عبارة عـــن خرق للتوافق الموجود بين الشعبين" واعتذر والرئيس الأمريكى لحكومة جنوب أفريقيا(٤٥).

ولكن رغم الاعتذار- ورغم إصرار الرئيس أيزنهاور العجوز على أن "المرء لا يستطيع أن يحكم على مشكلة اجتماعية وسياسية صعبة من على بعد ستة آلاف ميل" و"أن عليهم أن يتقدموا بطريقتهم" - فإن شاربـــفيل كانت نقطة تحول فى العلاقات الأمريكية الجنوب أفريقية(٤٦). وصعدت المنظمات المخابراتية من تحذيراتها بأنه بداخل جنوب أفريقيا "سوف تتميز السنوات القادمة بالمزيد من التوتر - المتصاعد فى النهاية- ربما بعد الكثير من إراقة الدماء- لإنهاء هيمنة البيض"(٤٧). المشكلة، التى كانت المخابرات المركزية قد حذرت منها من قبل، هى أن السياسة الأمريكية قد تركت مجال المقاومة ضد العنصرية مفتوحًا للشيوعيين، فى الداخل والخارج، وأنه ينبغى فعل المزيد لاستقطاب الأعضاء "المعتدلين" من المعارضة الأفريقية.

ومع تطور حركات الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة، أصبحت الحرب الباردة فى أفريقيا أكثر حدة. وفى حين كان معظم زعماء السياسة الأمريكية حتى أوائل الستينيات يرون أن الأفارقة أطفال قدر لهم أن يظلوا أطفالا، بدأت إدارة كينيدى ترى الأفارقة مراهقين فى مرحلة النمو، كما اتضح من خلال قيام دول وحركات سياسية جديدة. ولم تعد الجدلية المعادية للشيوعية هـــى أن الاشتـــراكية لا تلائم "العقلية القبلية الأفريقية" أو "الهدوء والسكون" لدى الأمريكيين الأفارقة، لكن الخوف من أن يقوم الشيوعيون بإغواء الزعماء الأفارقة المراهقين. بعبارة

أخرى، فإن تحريك الأفارقة فى مملكة الحرية كان يزيد من خطر أن يتحركوا تجاه شكل "غير صحيح" من الحداثة. فقد كانت حرية الأفارقة، فى الداخل والخارج، تعنى أنه على الولايات المتحدة أن تبدأ هجومًا جديدًا فى الحرب الباردة.

وقد أدارت كل من إدارتى كينيدى وجونسون ذلك الهجوم بحماسة وعزم، حتى وإن اضطرهما ذلك إلى الابتعاد عن السوابق السياسية، وإلى دفع بعض مبالغ نقدية على المدى القصير. كان لابد من كسر العزم السوفيتى على فتح المجال تدريجيًا لأيديولوجيتها فى أفريقيا. فى المستعمرتين البرتغاليتين، أنجولا وموزنبيق، أقامت كلا الإدارتين علاقات سرية مع اثنتين من حركات التحرر الأفريقية الوليدة من خلال دعم مالى من المخابرات المركزية، لجبهة هولدن روبرتو الوطنية لتحرير أنجولا ***Holden Roberto's National Front for the Liberation of Angola*** ومن خلال لقاءات سرية مع إدواردو موندلين ***Eduardo Mondlane*** رئيس جبهة تحرير موزنبيق ***Mozambique Liberation Front***، الذى وصفه أفريل هاريمان ***Averell Harriman*** بأنه "رجل متزن، ملتزم، وجاد"(٤٨)، واستشاط حلفاء أمريكا البرتغاليون غضبًا (٤٩).

كان التحدى الأكبر الذى واجه واشنطن هو كيفية التعامل مع الدول حديثة الاستقلال التى ظهرت فجأة إلى حيز الوجود فى أفريقيا فى أوائل الستينيات. وقف جون ف. كينيدى ***John F.Kennedy***، المنتخب حديثًا، يخبر جمهور مستمعيه فى ١٩٦١ "إننا نعيش فى زمن صعب منطوٍ على المخاطر

> **إننا نعيش فى عالم تغير بشدة فى أثناء حياتنا- التاريخ وحده قادر على أن يتيح لنا وجهة نظر متكاملة عن هذا التغير. لكن هناك أفريقيا، التى حكمتها قوات أوروبا الغربية لعدة قرون، وأصبحت**

الآن مستقلة- تحوى فى دولها أعدادًا كبيرة من الناس، كثير منهم أميون، يعيشون على متوسط دخل سنوى خمسين أو ستين أو خمس وسبعين دولارًا، وهم يريدون إحداث تغيير، وقد أصبحوا الآن أسيادًا فى دولهم ولكنهم يفتقرون إلى وسائل بناء اقتصاد قوى قابل للحياة، الذين أعجبوا بنموذج الاتحاد السوفيتى والصينيين، - وهم من لم يعرفوا معنى للحرية فى حياتهم- يتساءلون ما إذا كان النظام الشيوعى يحمل فى طياته أسرار تنظيم موارد الدولة لكى يجلب لهم حياة أفضل (٥٠).

ما دام أُبعِد التأثير الشيوعى المباشر، كانت إدارة كينيدى تحاول ممارسة "القيود" عندما ينتقد الزعماء الأفارقة - مثل رئيس غانا الأصولى- سياسات الولايات المتحدة. وكما أشار شستر باولز ***Chester Bowles*** بعد زيارة إلى أفريقيا فى ١٩٦٢ "إن نكروما يفقد مكانته باعتباره قوة سياسية، ومن المحتمل أن يصبح أكثر عزلة عن خضم السياسة الأفريقية، ولذا فإن سياستنا فى غانا ينبغى أن تكون سياسة تقييد؛ فامتناعنا عن إعطائه شكلا ديماجوجيًا ... سيساعد على زيادة عزلته"(٥١). مشكلة منهج كينيدى هى أن الزعماء الأفارقة كانوا يرون أن سياسات أمريكا بشأن الحرب الباردة تخالف مصالحهم تمامًا، رغم المساعدات الاقتصادية التى يمكن أن تقدمها أمريكا. كذلك لاحظوا الصراع الأفريقى الأمريكى من أجل الحقوق المدنية ولم يجدوا فى رد فعل أمريكا البيضاء ما يستحق إعجاب الأفارقة.

وبالفعل، أثناء الصراع من أجل التحرر من التمييز العنصرى فى مدارس الجنوب فى ١٩٥٧، قال جون فوستر دالاس ***John Foster Dulles*** إن "هذا الموقف

يفسد سياستنا الخارجية"(٥٢). كانت صور الرعاع البيض وهم يبصقون على أطفال المدارس السود في "ليتيل روك" ***Little Rock*** أو صور رجال الشرطة وهم يطلقون كلابهم على المظاهرات السلمية للسود في "سلما" ***Selma***، كانت صادمة للزعماء الأفارقة، وجعلت الجهود الأمريكية لتصوير أمريكا على أنها صديق أكثر صعوبة، ومع حصول حركات الحقوق المدنية الأمريكية على مكانة أكبر في الستينيات، أعلنت حتى أكثر المجموعات والنظم الأفريقية يمينية تضامنها مع الأمريكيين الأفارقة، بطول القارة وعرضها. وأصبح العنصريون الأمريكيون في نظر الرئيسين كينيدي وجونسون عائقًا أمام الحرب الباردة، وأصبحت الإطاحة بهم من الجنوب الأمريكي ضرورة، خاصة لما تسببه خطاباتهم من أذى للحملات العالمية المعادية للشيوعية في الداخل والخارج. وكما قال زعيم الحقوق المدنية الراديكالي مالكولم إكس ***Malcolm X*** في نقده لإدارة جونسون في ١٩٦٤ :

> **لقد قرأت في الجريدة أمس عن أحد قضاة المحكمة العليا ، جولدسبرج *Goldsberg* وهو يتباكى لانتهاك حقوق ثلاثة ملايين يهودي في الاتحاد السوفيتي... كيف لك بحق السماء أن تبكي مشكلات الجانب الآخر من العالم ولم يتم تقويمها هنا؟ وكيف يمكن لورطة ثلاثة ملايين يهودي في روسيا أن يتم تصنيفها وأخذها إلى الأمم المتحدة على يد قاضٍ في المحكمة العليا يفترض كونه ليبراليًا؛ ويفترض كونه صديقًا للسود؛ وهو لم يفتح فاه ولو مرة واحدة بشأن عرض محنة السود هنا على الأمم المتحدة؟ (٥٣).**

إلقاء المواعظ على الغير فى الوقت الذى لا يستطيع فيه المرء "تسوية" مشاكله، كان سببًا فى إعاقة جهود كينيدى لتخليص فرنسا من حربها فى الجزائر، وهو الصراع الذى – كما رأينا– كان سببًا رئيسيًا لتأصيل مناهضة الاستعمار فى العالم الثالث فى أوائل الستينيات. كانت مشكلة كينيدى هى أن حكومة الـــجنرال ديجول *General de Gaulle* بدت أضعف من أن تحتمل انسحابًا من شمال أفريقيا؛ وحذرت المخابرات المركزية من أن يتم إطاحة ديجول فى انقلاب عسكرى لو حاول تسوية الصراع مع الوطنيين الجزائريين. وراح كينيدى يشرح لمساعديه قائلا "لازال تعاطفنا مع الشعوب وهى تزيح عن نفسها أغلال الاستعمار؛ ولكن إطاحة ديجول لن تساعد فى قضية الاستقلال"(٥٤). وأثبتت خطة الجزائريين الناجحة بعرض قضيتهم ومظلمتهم على الأمم المتحدة، حيث لم يجلب التحالف بين الولايات المتحدة وفرنسا سوى الحرج لواشنطن، أثبتت أنها من أفضل أسلحتهم. وعند التقاء الكثير من الدبلوماسيين الأفارقة والآسيويين فى نيويورك كانوا يقارنون بين ما اعتبروه رد فعل ضعيف من قِبل الحكومة الفيدرالية بأمريكا تجاه الصراع الأمريكى من أجل الحقوق المدنية، وبين عدم مقدرة هذه الحكومة نفسها على شجب العنف الاستعمارى بالخارج.

كانت الأمم المتحدة فى حد ذاتها – بوصفها ساحة للمعارك فى معاداة الاستعمار – تمثل مشكلة للولايات المتحدة، وقد حرصت الأخيرة على أن تبقى الإدانات العالمية موجهة إلى الدول الشيوعية. فمنذ تأسيس الأمم المتحدة وواشنطن تعتبرها امتدادًا لنفوذها، وقد تمثل ذلك فى الحرب الكورية حيث كانت الجيوش الأمريكية تحارب رسميًا ضد القوات الشيوعية الصينية والكورية نيابة عن الأمم المتحدة. لكن ظهور دول جديدة مستقلة فى العالم الثالث بدأ يغير من دور الأمم المتحدة فى الستينيات بالفعل، ليجعل منها منتدى أكثر تنوعًا، أقل تأثرًا بنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية عن ذى قبل. وقد أظهر الصراع على تحرير الكونغو

الذى استمر لمدة خمس سنوات كيف أن الأمم المتحدة تغيرت من كونها ذراعًا لتدخلات الولايات المتحدة فى الخارج إلى كونها منظمة مختلفة تمامًا، حيث كان موقف دول عدم الانحياز القوى أهم ما يميزها. كذلك أصبح الصراع فى الكونغو هو أشد التدخلات الأمريكية فى أفريقيا فى الستينيات، وقد كان موقفًا شديد الخطورة لكل من الولايات المتحدة ومنافسيها.

كانت الكونغو "البلجيكية"، أحد أكبر المستعمرات الأفريقية وأغناها مواردا – هى الأقل تطورًا. وكانت الكونغو قد أنشئت باعتبارها ملكًا شخصيًا لملك بلجيكا "ليوپولد الثانى" ***Leopold II*** فى أواخر القرن التاسع عشر، وسيطرت عليها الدولة البلجيكية- كرهًا – إلى حد ما فى ١٩٠٨- وبدأت منذ ذلك الحين تهمل جميع مناحى التنمية فى المستعمرة اللهم إلا استغلال ثرواتها. فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقط بدأت بلجيكا خطط التطوير نفسها التى كانت بريطانيا وفرنسا قد بدأتها قبلها بجيل، وكان من نتيجة ذلك أنه فى الخمسينيات عندما وصل الفوران من أجل الاستقلال أشده، كانت الكونغو بدون نخبة محنكة تستطيع قيادة الحركة السياسية فى البلاد. بل فى ١٩٥٩، عندما أصبح واضحًا أن البلجيكيين سيغادرون البلاد، كانت معظم المنظمات التى ظهرت إما محلية أو إقليمية، تدين بالولاء إلى واحدة أو أكثر من المجموعات العرقية التى زاد عددها عن مائتين فى المستعمرة. أما البلجيكيون، الذين كانوا يعتقدون أن الرجال الأقوياء المحليين سيكونون أكثر قدرة على خدمة وجودهم الاقتصادى المستمر فى الكونغو من أى حكومة مركزية، فلم يفعلوا الكثير ليمنعوا هذا التشرذم.

كان هناك حزب سياسي واحد فقط فى الكونغو يحظى ببعض الدعم فى معظم أجزاء الدولة: ألا وهو الحركة الوطنية الكونغولية ***Mouvement National Congolais (MNC)*** برئاسة پاتريس لومومبا ***Patrice Lumumba***.

ولد لومومبا فى قرية صغيرة بجنوب غربى الكونغو فى ١٩٢٥ ، وتلقى تعليمه فى مدرسة تبشيرية بروتستانتينية، ثم أصبح موظفًا بمكتب البريد؛ وهى من الوظائف القليلة التى كان يسمح للكونغوليين بشغلها، وقدم أوراقه للحصول على الجنسية البلـــچيكية، وبدأ فى كتابة مقالات للصحافة المحلية، معظمها يدور حول كيفية تطوير الكونغو تحت الإشراف البلـــچيكى. فى ١٩٥٥ أصبح رئيسًا إقليميًا لأول اتحاد تجارى كونغولى وبدأ يلفت نظر السلطات إلى حالات استغلال العمال. فى العام التالى تم القبض عليه بتهمة الاختلاس من مكتب البريد- وهى تهمة ملتبسة على أفضل الأحوال- وحكم عليه بالسجن لعام واحد. بعد الإفراج عنه، انتقل إلى اليسار السياسى وساعد فى إنشاء الحركة الوطنية الكونغولية وقام بزيارة أكرا فى ١٩٥٨ لحضور المؤتمر الأول لكل شعوب أفريقيا ***All-African People's Conference***. وقد كان لغانا المستقلة أثر كبير عليه، وقد أسس لومومبا الكثير من ممارساته السياسية على نموذج كوامى نكروما.

فى انتخابات مايو ١٩٦٠ بالكونغو، أصبحت الحركة أكبر حزب سياسى وأصبح لومومبا رئيس الوزراء المختار رغم المحاولات البلـــچيكية لمنعه. فى يوم الاستقلال، الثلاثين من يونيو، تحدث لومومبا عن الإساءات التى فرضها نظام الاستعمار على الكونغولين؛ ولكن قال بأن كل ذلك انتهى الآن...

سوف نقوم بإرساء العدالة الاجتماعية معًا ونضمن لكل فرد مقابلا عادلا على عمله وسوف نطلع العالم على ما يمكن أن يفعله الرجل الأسود إذا عمل فى مناخ من الحرية، وسوف نجعل من الكونغو النقطة المحورية للتنمية فى كل أفريقيا. سوف نريهم أن أرض بلادنا تفيد أطفالها. وسوف نراجع جميع

القوانين القديمة ونضع قوانين جديدة وستكون عادلة ونبيلة. وسوف نضع نهاية لكبت الفكر الحر ونتأكد أن كل مواطنينا يتمتعــون بجميــع الحريــات الأساســية المنصوص عليها في إعلان حقوق الإنسان(٥٥).

بالنسبة للولايات المتحدة، بدت حكومة لومومبا الكونغولية الجديدة خطرا يساريًا آخر في العالم الثالث، خطرًا زادته سوءًا الثروات الطبيعية الكبيرة بالكونغو، بما في ذلك اليورانيوم الذي استخدم لتطوير أول أسلحة نووية أمريكية. ورغم أن الولايات المتحدة كانت قد أنهت اعتمادها على اليورانيوم الكونغولي، كانت واشنطن قد قررت أن تمنع سيطرة الاتحاد السوفيتي على المعادن الكونغولية. واعتقد مجلس الأمن القومي أن لومومبا هو الشخص الملائم الذي يمكن أن يعمل وسيطًا بين مناجم بلاده وأمنيات موسكو. وقد أخبر ألن دالاس ***Allen Dulles***، مدير المخابرات المركزية، الرئيس أيزنهاور في مايو ١٩٦٠ أن لومومبا "شخص غير مسئول، تم اتهامه بالاختلاس وهو يتقاضى الآن رشاوى من مختلف المصادر، وهو مدعوم من قبل الشيوعيين البلــجيكيين". وبينما أبدى الرئيس تعجبه من أن هناك الكثير من النشاط السياسي قبل الانتخابات بما أنه "لم يكن يعلم أن هناك الكثير من الناس في الكونغو يعرفون القراءة"، فقد أقر المخصصات الأمريكية لمنع انتخاب لومومبا(٥٦).

في الأسبوع التالي ليوم الاستقلال في الكونغو، أصبح واضحًا أن وجهات نظر لومومبا عن دولته تتلاشى لدى مواطنيه. ففي غياب مؤسسات الدولة بدأت الكونغو تتصدع على المستوى الاجتماعي وعلى المستوى السياسي، وهي تجني الثمار المريعة للتوتر الذي زرعه نظام الاستعمار . ومع منتصف يوليو كانت أعداد كبيرة من الأفارقة والأوروبيين قد فروا إلى المدن بحثًا عن الأمان. مقاطعة

كاتانجا ***Katanga*** الجنوبية، التى كانت تعرف أيضًا باسم شابا- وبها أكثر من نصف المصادر المعدنية المعروفة بالبلاد- انسحبت رسميًا بمساعدة من شركة "يونيون مينيير ***Union Minière***، الشركة البلــچيكية التى كانت تسيطر على التعدين فى المنطقة. طلب لومومبا من الأمم المتحدة أن تتدخل للمساعدة فى إخماد الثورات وإخراج القوات البلــچيكية الباقية من البلاد، وعندما لم تستجب قوات الأمم المتحدة لمطلبه بغزو كاتانجا- أعلن رئيس الوزراء فى يأس أنه يدرس أمر اللجوء إلى المساعدة السوڤيتية. انزعجت واشنطن. وأخبر ألن دالاس مجلس الأمن القومى فى نهاية يوليو "إننا نواجه فى لومومبا شخصًا مثل كاسترو أو أسوأ". وقال دالاس إن خلفية رئيس الوزراء الكونغولى "مريعة ومن الأمان أن نفترض أن الشيوعيين قد اشتروه؛ فهو الأمر الذى يتوافق مع توجهاته"(٥٧). لم تؤثر تصريحات لومومبا المتكررة بأن حكومته ليست "شيوعية أو كاثوليكية أو اشتراكية" بل "وطنية أفريقية تحتفظ بحق الصداقة مع من يشاءون وفقًا لمبادئ الحياد الإيجابى" لم تؤثر كثيرًا فى واشنطن(٥٨).

ولكن لومومبا نفسه كان له تأثير، وذلك عندما ظهر فى الأمم المتحدة بنيويورك فى أغسطس وكانت مفاجأة للخارجية الأمريكية. وعندما طلب مقابلة الرئيس، تم إرساله إلى واشنطن لمقابلة وزير الخارجية هيرتر ***Herter*** ونائبه سى.دوجلاس ديلون ***C.Douglas Dillon*** الذى أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية فى إدارتى كينيدى وجونسون. ورغم شهادة ديلون فيما بعد بأن رئيس الوزراء الكونغولى كان "غير عقلانى، بل مريضا نفسيًا" أثناء المقابلة، فإن تسجيل الحوار أوضح أن دفاع لومومبا المستميت عن سيادة بلاده ووحدتها هو ما مثل المشكلة بالنسبة للأمريكيين(٥٩). ورغم مديحه لدور الولايات المتحدة فى العالم، طالب بالانسحاب الفورى لكل الجيوش البلــچيكية من الكونغو، ورفض القيام بعمل عسكرى ضد النظام الانفصالى فى كاتانجا، وأكد حق بلاده لطلب الدعم من أى

جهة تريد[٦٠]. وعند عودته إلى كينشاسا انتقد لومومبا الأمين العام للأمم المتحدة السويدى الأصل داج همرشلد ***Dag Hammarskjöld*** - وكان مفضلا لدى أمريكا- لأنه لم يقدم دعم قوات الأمم المتحدة في الكونغو إلى حكومته، بل قام بدلا من ذلك بمنع إعادة دمج كاتانجا فى جمهوريته الجديدة. وكان تحدى السياسة الأمريكية تجاه الأمم المتحدة مشكلة للولايات المتحدة. وفى اجتماع لمجلس الأمن القومى فى الثامن عشر من أغسطس اقترح ألن دالاس "أنه فى حال الاحتفاظ بأصول كاتانجا، سوف يُخنق اقتصاد الكونغو. وعلى السوفيت أن يلقوا بالكثير من المال فى بقية الكونغو لتظل على قيد الحياة فى تلك الحالة". واقترح أيزنهاور أن "تقوم الأمم المتحدة بالاعتراف بكاتانجا"[٦١].

ومع تدهور الموقف السياسى والاقتصادى فى الكونغو، أصرت هيئة الأركان الأمريكية أنه "بالإضافة إلى أفعال الأمم المتحدة، سواء كانت فعالة أو لا، فعلى الولايات المتحدة أن تستعد للقيام بعمل عسكري ملائم فى أى وقت...لكى تمنع أو تهزم التدخل العسكرى السوفيتى"[٦٢]. ولكن الرئيس كان يأمل ألا تسوء الأمور إلى هذه الدرجة – فالنقطة الرئيسية هنا هى التخلص من لومومبا. ومع أن دالاس وجه مركز الـ*CIA* فى كينشاسا فى السادس والعشرين من أغسطس بأن "خلع رئيس الوزراء [لومومبا] ينبغى أن يكون هدفا عاجلاً ورئيسيًا" لكنه اعترف للرئيس بعد عدة أسابيع "أنه لم يكن من السهل القيام بانقلاب فى الكونغو"[٦٣]. ومع دفع واشنطن إلى قيام انقلاب عسكرى بزعامة الصحفى السابق، الـجنرال حاليًا، جوزيف موبوتو ***Joseph Mobutu*** وهو "رجل أمين ومتفانٍ تمامًا" وفقًا لرأى سفير الولايات المتحدة – أعطت فى الوقت نفسه إشارة البدء لخطة سرية للغاية لمساعدة لومومبا[٦٤]. فى التاسع عشر من سبتمبر ظهر عميل يعرف لدى زملائه من الـ*CIA* فى كنشاسا باسم "جو من باريس" ***Joe from Paris***، ظهر فى العاصمة الكونغولية ومعه سم كان من الممكن استخدامه لقتل رئيس الوزراء[٦٥].

لازلنا لا نعرف إن كانت الــ*CIA* حاولت قتل لومومبا وفشلت، أم أن انقلاب موبوتو فى منتصف سبتمبر هو ما ألصق هذا الاتهام بها. ومع مسئولية موبوتو عن التحالف المتهاوى ضد لومومبا، ومع طلب لومومبا اللجوء السياسى إلى الأمم المتحدة، تحولت جهود الولايات المتحدة إلى رفع معنويات النظام الجديد والتأكد من أن الأوامر تصدر من أجل إجلاء السفارات السوفيتية وسفارات الكتلة الشرقية ومستشاريهم. ولكن على الرغم من التخلص من الأوروبيين الشرقيين والصينيين و - من خلال مساعدة الولايات المتحدة - الحصول على تعاون ضمنى من جيوش الأمم المتحدة، بدا فى نوفمبر أن نظام موبوتو كان فى خطر. كانت المشكلة هى أن الدول الأفريقية الأخرى رفضت التعامل مع الحكومة الجديدة فى كنشاسا؛ وأن نداءات لومومبا الدءوبة من أجل ثورة عامة ضد من خططوا للانقلاب بدت مثمرة؛ على الأقل فى بعض أجزاء من البلاد. وكما قال أفريل هاريمان *Averell Harriman*- وقد أصبح الآن مبعوث الرئيس إلى كنشاسا: "لومومبا سيبقى سببًا في الصعوبات الموجودة في الكونغو، سواء ظل يسيطر على الحكومة أو كان فى السجن أو أطلق سراحه. إنه خطيب يثير الغوغاء ومناور داهية يساانده مستشاارون يساريــون مهرة... وهــو مهـــووس بمهمته في توحيد الكونغو"(٦٦).

الإجازة السعيدة لموبوتو والأمريكيين جاءت فى الأول من ديسمبر عندما أســر الجنــود الكــونغوليون لومومبـــا وهو يحاول السفر من كنشاسا إلى مدينة كيستجانى الشرقية، حيث كان مساندوه فى السلطة. كان موبوتو يتوق إلى التخلص من رئيس الوزراء ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يريد أن يريق دمه بنفسه، فقرر أن يسلمه لألد أعدائه فى كاتانجا. وقد شهد مراسل الولايات المتحدة وصول رئيس الوزراء إلى لوبومباشى:

وقف حراس الأمم المتحدة السويديون في المطار، طوالا أشداء كالأصنام في الخلفية حينما تم توجيه لومومبا إلى أسفل سلم الطائرة، معصوب العينين بعصابة باهتة، ويداه مغلولتان من خلفه، ومربوطًا مع اثنين من نوابه السياسيين. على مرمى البصر كانت تبدو لوحة الإعلانات الكبيرة بالمطار وقد كتب عليها "مرحبًا بكم في كاتانجا الحرة"، سقط لومومبا المرتجف المتعثر وزميلاه المسجونان على الأرض إثر انهمار عصا غليظة ومؤخرة بندقية ولكمات وركلات من كاتانجيين مزمجرين[٦٧].

وبعد تعذيبه لمدة خمس ساعات، قُتِل لومومبا، في وجود "وزراء" كاتانجيين وضباط بلچيكيين في المكان كله[٦٨].

ورغم أن وفاة رئيس الوزراء قد أنهت أهم مشكلات السياسة الأمريكية في الكونغو، فإن المشكلات الأطول أمدًا والمتمثلة في معارضة النظام وغياب التنمية الاقتصادية قد بقيت. واصلت إدارة كينيدى الجديدة القيام بالدعم الذى كانت تؤديه إدارة أيزنهاور لموبوتو، ولكنها أرغمته على إنشاء حكومة مدنية وصنع السلام مع الزعيم الكاتانجي مويس تشومبى ***Moise Tshombe*** مانحة إياه وشركاءه البلچيكيين الحرية لنهب الثروات المعدنية بالمنطقة. في الوقت نفسه تأكدت الولايات المتحدة من أن القوات البلچيكية شديدة المراس قد تركت المناطق التى يسيطر عليها النظام في كنشاسا وقامت باستبدالهم بمستشارين أمريكيين. وعندما قام موبوتو بزيارة واشنطن في مايو ١٩٦٣- حيث أخبر الرئيس أن أغلى أمنياته هى أن "يحضر تدريبًا على القفز بالمظلات لمدة أربعة أسابيع في فورت بيننج"- امتلأ كينيدى

زهوًا. وقال الرئيس بود شديد أثناء أحد النزهات بحديقة الورد بالبيت الأبيض "سيدى الجنرال، لولاك لانهار الأمر تمامًا ولسيطر الشيوعيون على كل شيء"[٦٩].
لكن كينيدى كان يدرك أيضًا أن الظروف الاجتماعية والسياسية فى الكونغو تزداد سوءًا، وكما قال جورج مكـــجـــى **George McGhee** فى اجتماع لمجلس الأمن القومى فى ديسمبر ١٩٦٢ "إننا الآن متعلقون بسياسة مفلسة". وكما استنتج سفير الولايات المتحدة، فقد كان النظام الكونغولى "تعتيميًا استبداديًا بدائيًا شموليًا متصلب الرأى وغير مسئول"[٧٠].

وكما حدث فى الكثير من المناطق الأخرى، ترك كينيدى عملا لم يكتمل فى الكونغو لمن خلفه؛ وعندما بدأت الحكومة فى كينشاسا تنهار فى خريف ١٩٦٤، تحت ضغط من اليسار والثوار الإقليميين فى الشمال والشرق، واجه الرئيس جونسون القرار الصعب وهو ما إذا كان عليه أن يتدخل بالقوات الأمريكية. وجاء ذلك بعد أن كان جونسون قد قرر أن يزيد من التدخل الأمريكى فى فيتنام بعد حادثة خليج تونكين، وبالتالى كان الرئيس كارهًا لذلك. ورغم قوله أمام مجلس الأمن القومى إن "الوقت يمر ولابد من إنقاذ الكونغو"، قاوم جونسون ضغوط هيئة الأركان وضغوط السفير من أجل إرسال عدد أكبر من المستشارين العسكريين الأمريكيين إلى الكونغو[٧١]. وأخبر الرئيس وزارة الخارجية إنه "لا يرغب فى أن ينشغل ويرتبط بالكونغو وتصبح لديه كوريا أخرى وفيتنام أخرى لمجرد أن أحدهم يهيم على وجهه باحثًا عن (يسوع المسيح)"[٧٢]. فعلى الأمريكيين فى الكونغو أن يتعلموا العمل مع أصحاب السلطة المحليين. وقد أخبر جونسون دين راسك **Dean Rusk** فى أواخر نوفمبر بأن "علينا أن نراقب الأمر قليلا، لأننا سنُحاسب وسنُقتَل...سيقوم أولئك الأفارقة وأولئك المسلمون بإشعال النار...ومكتب التحقيقات الفيدرالية الـــ***FBI*** قد أوضح أن [مارتن لوثر كينج] يستعد لأن يصبح عالميا"[٧٣].

لكن چونسون وافق على التدخل لتحرير الأوروبيين الذين أُسروا بعد استيلاء المتمردين على السلطة في كيسانجاني. وقال الرئيس بعد أن تم نقل خمسمائة بلچيكي من جنود المظلات جوًا داخل المدينة في الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٦٤ إنه "لا يمكننا أن نسمح لأكلة لحوم البشر أن يقتلوا الكثير من الناس"(٧٤). لكن إسقاط المظليين الناجح كان أيضًا غطاء لعمليات عسكرية مكثفة تدعمها الولايات المتحدة ضد المتمردين، يقوم بها مرتزقة من الغرب تدفع لهم وتنظمهم المخابرات المركزية (*CIA*). وبمساعدة قوات جوية كانت تديرها المخابرات المركزية ويقودها طيارون كوبيون معادون للشيوعية، استطاع المرتزقة وقوات موبوتو أن يستعيدوا كيسنجاني، وعلى نحو بطيء على مدار سنة أن يقمعوا سيطرة المتمردين على الكونغو الشرقية. كانت وحشية العملية مذهلة حتى بالنسبة للمراقبين الأوروبيين المتمرسين. أحد المرتزقة حكى عن الاستيلاء على بويندى ***Boende***، وهى بلدة فى مقاطعة إكواتور ***Équateur*** الشمالية قائلا: "بعد السلب كان القتل. استمر القصف ثلاثة أيام. ثلاثة أيام من التقتيل والإعدام والتعذيب والصراخ والرعب"(٧٥).

فى تقرير السفير الأمريكى فى كينشاسا، چى. ماك مورترى جودلى الثانى ***G.McMurtrie Godley II***، الذى رفعه إلى واشنطن بعد أن تم محاصرة آخر المتمردين أو اختفاؤهم فى المنفى بطول الحدود الشرقية والشمالية للكونغو، راح يبحث عن أسباب الانتصار الأمريكى. "التمرد هنا لم يتطور بنفس الدرجة كما رأيناه فى كل مكان آخر بالعالم. لقد غلب التمرد فى ١٩٦٤ داعميه الشيوعيين، الذين لم يكن لديهم لا المادة ولا العاملون المدربون ليتم استغلال التمرد بنفس النجاح الذى أحدثوه فى كل مكان آخر بالعالم. كما أن العمليات العسكرية الأحدث التى قام بها النظام الكونغولى ضد المتمردين، مدعومًا من الحكومتين البلچيكية

والأمريكية، قد قتلت التمرد فى مهده". لكن النجاح كان يرجع أيضًا إلى نقاط ضعف الشعب الذى تدخلت الولايات المتحدة لتنقذه: "الفرد الكونغولى ليس متمردًا جيدًا ولا معارضًا جيدًا للتمرد. فهو لا يملك الخُلق أو البنية الجسمانية أو الشجاعة لحرب العصابات الطويلة أو لتحمل آثارها المضادة... فغير الأفارقة هم المطلوبون رغم مشكلاتهم السياسية الواضحة، ووجودهم مطلوب على الأقل على المدى القريب". ولكن الاعتماد على المرتزقة الأوروبيين لضبط التوزيع السكانى لم يكن عقبة فى طريق تحديث الكونغو فى رأى السفير جودلى: "نحن نعتقد أننا نقوم ببناء أمة هنا حيث لابد من اجتثاث بذور التمرد المستقبلى من خلال تحسين الإدارة المحلية والأمن والراحة الاقتصادية للبسطاء... وليس ثمة خلاف فى جهاز الدولة على هذه الأهداف ونحن فى بحث مستمر عن كيفية تحقيقها"(٧٦).

وفى حين ساعدت حكومة الولايات المتحدة نظام موبوتو الدكتاتورى على إعـــادة تأسيس نفسه، كان هناك من يستنتجون استنتاجات أخرى. تشى جيفارا *Che Guevara* – الذى لم يكن معروفًا للأمريكيين – كان قد ذهب إلى الكونغو مع فريق كوبى لمساعدة المتمردين، وكان يعتقد أنه قد عرف الكثير عن نقاط ضعف استراتيجيات مناهضة التمرد، كما سنرى فى الفصل التالى. كما قام الزعماء الأفارقة، وقد صدمهم صلف التدخل، بشجب أهداف الولايات المتحدة فى أفريقيا. الرئيس التانزانى جوليوس نيريرى *Julius Nyerere*، وكان هو نفسه يعانى مشكلات مع المتمردين الكونغوليين، بعث برسالة إلى جونسون وصفها السفير الأمريكى فى دار السلام بأنها مليئة "بالانفعال والشكوك والخوف". حتى الزعماء المؤيدون للغرب- مثل جومو كينياتا *Jomo Kenyatta* فى كينيا، والملك الحسن الثانى بالمغرب – سجلوا معارضتهم الشديدة لاستخدام المرتزقة والتحالف مع تشومبى، الذى اعتبروه "متحفًا متحركًا من النزعة الاستعمارية" (٧٧).

وفى إشارة تحذير لما يمكن أن تحدثه حرب فيتنام من انشقاق فى أمريكا بعد عدة سنوات، ربط مالكوم إكس بين نضال الأمريكيين الأفارقة من أجل الحقوق، وبين الدور الذى تلعبه الولايات المتحدة فى الخارج:

> **الشرر العنصرى المشتعل هنا اليوم فى أمريكا قد يتحول إلى نار مشتعلة فى الخارج، مما يعنى أنه قد يجمع كل البشر على هذه الأرض فى حرب عنصرية كبرى، ولن يمكن حصرها فى مكان صغير أو جماعة صغيرة أو دولة صغيرة. فما يحدث للرجل الأسود اليوم فى أمريكا يحدث للرجل الأسود فى أفريقيا. وما يحدث للرجل الأسود اليوم فى أمريكا يحدث للرجل الأسود فى آسيا. وما يحدث للرجل الأسود اليوم فى أمريكا وأفريقيا يحدث للرجل الأسود فى آسيا وفى أمريكا اللاتينية. ما يحدث لأحدنا اليوم يحدث لنا جميعًا(٧٨).**

أمريكا اللاتينية: ساندينو إلى كاسترو

رغم أن سيطرة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية كانت تتطور، كما رأينا، عبر عمليات كانت قد بدأت قبل ١٩٤٥، فإن الحرب الباردة أعطت شكلا واتجاها لمحاولات الإخضاع المنظم للدول الواقعة فى النصف الجنوبى من القارة لإرادة الولايات المتحدة. لكن رغم تماشى نظام الولايات المتحدة للسيطرة والتدخل فى أمريكا اللاتينية مع سياسات الحرب الباردة، فمن غير المنطقى هنا أن نفترض أن نقطة البداية كانت فى أواخر الأربعينيات، بل إن نظام السيطرة للحرب الباردة

كان قائمًا على اتجاهات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خاصة فيما يتعلق بأمريكا الوسطى والكاريبى. الأسباب الجوهرية لهيمنة الولايات المتحدة هى تفوقها الاقتصادى المتنامى وضعف الدولة فى معظم بلدان أمريكا اللاتينية، بينما كانت أسباب تدخل الولايات المتحدة المباشر فى الغالب أيديولوجية أو استراتيـــجية. وكما ظهر فى مبدأ مونرو ***Monroe Doctorine*** الذى أعيدت صياغته عدة مرات منذ ذلك الحين، كان غالبية زعماء الولايات المتحدة يظنون أن قيادة الشعوب فى أمريكا اللاتينية والكاريبى نحو الديمقراطية والرأسمالية جزء من مهمة الولايات المتحدة، وفى الوقت نفسه تبعد عنهم التدخلات الخارجية التى قد "تغوى" الجزء الجنوبى من العالم بأن يأخذ مسارًا بعيدًا عن "الأمركة". وفى أوائل القرن العشرين أصبحت العلاقة بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية أشبه بالإمبراطورية غير الرسمية حيث القرارات الصادرة فى واشنطن ينفذها أصحاب السلطة المحليين، الذين تربطهم علاقة تبعية للولايات المتحدة بالعديد من الأساليب.

كان الاقتصاد هو أساس قوة الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية والكاريبى. منذ مطلع القرن فصاعدًا كانت الولايات المتحدة هى أهم مصدر ومستورد فى المنطقة، ومع الحرب العالمية الثانية تفوقت على بريطانيا كأهم مستثمر. فى الدول المستقلة فى الكاريبى وأمريكا الوسطى كانت الهيمنة الأمريكية على أشدها فى ١٩٠٠، بينما راحت الاقتصادات الأكبر فى جنوب القارة تزداد اعتمادًا على الولايات المتحدة تدريجيًا حتى السنوات الأولى من الحرب الباردة. وفى عام ١٩٤٥ كانت سيطرة الولايات المتحدة واضحة فى القارة بأسرها، من تصدير السلع الاستهلاكية والأفلام السينمائية إلى استيراد الأطعمة المعلبة والنحاس والفاكهة والبن والسكر.

تمامًا كما اكتشفت القوى الأوروبية فى أفريقيا وآسيا، وجدت الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية أن وضع نظام للتبعية السياسية كان أشد تعقيدًا من تحقيق الهيمنة الاقتصادية بكثير. وقد دُفعَت الولايات المتحدة بعد حربها لغزو المكسيك مباشرة للتدخل المباشر ضد المقاومة المحلية للسيطرة الأجنبية، كما حدث في نيكاراجوا في خمسينيات القرن التاسع عشر. في تسعينيات ذات القرن اتسع نمط التدخل، كما رأينا فى حالة كوبا وغيرها من الدول فى الكاريبى وأمريكا الوسطى. ذكر ريتشارد أولنى ***Richard Olney*** وزير خارجية جروڤر كليڤلاند ***Grover Cleveland*** فى ١٨٩٤، ما كان واضحًا لمعظم الأمريكيين وهو أن "الولايات المتحدة اليوم تهيمن على هذه القارة وسوف تطبق القانون على الرعايا الذين تحد من التدخل فى شئونهم"[٧٩].

كانت الثورة المكسيكية في عامى ١٩١٠-١٩١١ حدًا فاصلاً فى العلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. فلأول مرة تمر دولة كبرى فى أمريكا اللاتينية بثورة سياسية، حيث كان العديد من الزعماء يهدفون إلى تحقيق تغيير اجتماعى، ليس ذلك فحسب وإنما كان موقف الولايات المتحدة بعد الثورة قد تبناه الرئيس وودرو ويلسون، الذى كان يرى أن الزعماء الثوريين المكسيكيين قد أذنبوا في حق الديمقراطية ولابد من تقويم سلوكهم باستخدام قوة الولايات المتحدة. وقد تحمل الرئيس المكسيكي الـــچنرال ڤيكتوريانو هورتا ***Victoriano Huerta*** – الذى وصفه أحد مستشارى ويلسون بأنه "رجل عجوز شبيه بالقرد، ذو دماء هندية نقية فى الغالب" – تحمل جام غضب ويلسون؛ فعندما رفض أوامر واشنطن بالاستقالة، قام ويلسون بغزو ميناء ڤراكروز ***Veracruz*** فى أبريل عام ١٩١٤ وبدأ برنامجًا مكثفًا للدعم العسكرى لمعارضى هورتا. وفى نهاية العام كان هورتا قد خرج، وكذلك خرجت القوات الأمريكية، ولكن التدخل المباشر لواشنطن فى الشئون المكسيكية استمر حتى أواخر العشرينيات عندما قام الحزب الثورى المؤسسى

Partido Revolucionario Institucional ، قام بالضبط بما يوحيه اسمه: تحويل الثورة المكسيكية إلى المؤسسية على هيئة نخبة سعدت كثيرًا لإعادة تأسيس العلاقات مع الجار العملاق فى الشمال(٨٠).

كان الزعيم النيكاراجوى أوجاستو سيزار ساندينو ***Augusto César Sandino*** أحد الذين تأثروا بمبادئ الثورة المكسيكية. ولد ساندينو فى ١٨٩٥ فى قرية فلاحية وكان ابنًا لصاحب أرض وامرأة فلاحة من الذين يعملون لديه. فى ١٩٢١ فر إلى المكسيك بعد أن قتل أحد المعارضين السياسيين. وقد عمل فى حقول البترول فى تامبيكو وعلم بأمر راديكالية السياسات المكسيكية، ولكنه احتك أيضًا بالفصائل الدينية المسيحية واليسار المنظم، بما فى ذلك الحزب الشيوعى. فى ١٩٢٦ عاد إلى نيكاراجوا وانضم إلى التمرد على النظام الذى تدعمه الولايات المتحدة، وسرعان ما أصبح أشهر قادة الثوار وأكثرهم راديكالية. لكن رغم براعة قوات ساندينو وبسالتها فإنها لم تستطع أن تهزم الحكومة ولا القوات الأمريكية التى كانت تحميها. فى ١٩٣٣، بعد انسحاب القوات الأمريكية، ترك ساندينو النضال العسكرى واستقر فى نيكاراجوا، وهو يعلن أنه مركز لحركة جديدة مناهضة للولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى. فى العام التالى لذلك، تم أسره على يد رئيس الحرس الوطنى، أناستازيو سوموزا ***Anastasio Somoza*** وأعدم مع أبرز مؤيديه.

كانت أفكار ساندينو شكلا من أشكال الاشتراكية غير الواقعية: فقد طابق بين نفسه وبين أسلافه الهنود الذين حاربوا السيطرة الخارجية، ورأى فى نفسه تجسيدًا للحق والنور الإلهيين على الأرض. من ناحية أخرى كان مؤمنًا بشدة بفكرة أمريكا الوسطى الموحدة، التى تتخلص من التأثير الأجنبى، والتى يستطيع فيها العمال والفلاحون أن يحكموا من خلال مؤسساتهم. وسخر من الحكومات الأخرى فى أمريكا اللاتينية لأنها لم تدرك الغرض النهائى من تدخل الولايات المتحدة:

هل تعتقد حكومات أمريكا اللاتينية أن الأمريكيين سيقنعون بغزو نيكاراجوا وحدها؟ ربما نسيت تلك الحكومات أنه من ضمن إحدى وعشرين جمهورية أمريكية فقدت ست منها سيادتها وأصبحت مستعمرات لإمبريالية الولايات المتحدة؟ إننى اليوم أتحدث مع شعوب أمريكا الإسبانية . وعندما تعجز حكومة ما عن أن تعكس آمال مواطنيها، فإن المواطنين، وهم من منحوها السلطة، يكون لهم الحق أن يقوم بتمثيلهم رجال حازمون يملكون مفاهيم الديمقراطية الحقة المؤثرة، لا أن يمثلهم حكام يفتقرون إلى الشجاعة والوطنية ويلحقون الخزى بالوطن(٨١).

أثناء الحرب العالمية الثانية امتزج خوف واشنطن من قيام ثورة فى أمريكا اللاتينية بخوفها من قيام حكومات سلطوية لكل من اليسار واليمين. فى الأرجنتين، تسبب صعود خوان بيرون *Juan Peron*– وهو عقيد بالجيش ألهمته الفاشية الأوروبية – فى شعور جديد بالخطر، رغم أن معظم المستشارين الأمريكيين اعتقدوا أن حركته يمكن السيطرة عليها بعد أن استولت على السلطة. واعتقدت كل من إدارة ترومان وأيزنهاور أن الخطر الحقيقى للسنوات الأولى من الحرب الباردة كان يكمن فى تحدٍ سوفيتى محتمل فى أمريكا اللاتينية. ورغم أن المخابرات المركزية كانت تشك فى فرص الأحزاب الشيوعية المحلية فى الاستيلاء على السلطة، فإنها المخابرات المركزية استنتجت فى ١٩٤٧ أن "التوغل الشيوعى المستتر فى القطاعات الاستراتيجية فى العديد من الاقتصادات سوف يسمح للاتحاد السوفيتى عند إعطاء الأوامر الضرورية:

(١) أن يحرم الولايات المتحدة من حصولها المعتاد فى وقت السلم على المواد الخام من أمريكا اللاتينية

(٢) أن يساعد فى إحداث أزمات اقتصادية فى عدة دول من أمريكا اللاتينية"[٨٢]. وأصبحت استراتيـــچية الولايات المتحدة هى أن تمنع الاتحاد السوفيتى من خلق ما أسمته "موطئ قدم" فى أمريكا اللاتينية.

كان التدخل الأمريكي المباشر الأول فى فترة ما بعد الحرب هو ما حدث فى جواتيمالا فى ١٩٥٤. ورغم أن المخابرات المركزية ظلت لسنوات تحذر مما اعتبرته تصاعدا فى "الرأى الانعزالى والوطنى" فى أمريكا اللاتينية، فإن النظام فى جواتيمالا على يد الرئيس چـــاكوبو أربنز ***Jacobo Arbenz*** كان يمثل تهديدا مباغتا ومباشرا[٨٣]. ومنذ خلع الدكتاتور المدعوم أمريكيا يوبيكو***Ubico*** فى ١٩٤٤، كانت جواتيمالا شوكة فى حلق واشنطن، خاصة منذ أن أكدت حكومة خوان چوزيه أريـڤالو ***Juan José Arévalo*** ومن بعدها حكومة أربنز ***Arbenz*** على العدالة الاجتماعية والتعاون مع الاتحادات العمالية، كما أكدوا أهمية سياسة خارجية مستقلة، وسيطرة على رأس المال الخارجي. واشتكت شركة الفاكهة المتحدة الأمريكية، التى كانت تسيطر على الاقتصاد بجواتيمالا من خلال استثمارات كبرى فى زراعة الموز، وفى السكك الحديدية والموانئ والشحن بالسفن اشتكت من توقع قيام الحكومة بمصادرة ممتلكاتها. الأهم من كل ذلك بالنسبة لواشنطن كان أن حكومة جواتيمالا شرّعت وجود الحزب الشيوعى وسمحت له بأن يعمل بحرية فى الدولة كلها.

كان چاكوبو أربنز في الثامنة والثلاثين من عمره عندما اختير رئيسًا لجواتيمالا في ١٩٥١. كان ابنًا لصيدلي سويسرى هاجر إلى البلاد وتلقى تدريبًا بوصفه ضابطًا عسكريًا، وكان من المشاركين الأساسيين فى خلع يوبيكو فى ١٩٤٤. بوصفه رئيسا جعل من مسألة الإصلاح الزراعى محورًا لإدارته – فى جواتيمالا كان الفلاحون الذين لا يملكون أرضًا يمثلون أكثر من نصف تعداد السكان، بينما يتحكم ملاك الأراضى الكبار، أو الشركات الأجنبية – بشكل مباشر أو غير مباشر – فى أكثر من ٩١ % من الأراضى القابلة للزراعة. كان أربنز يريد أن يصادر الأراضى غير المستغلة إذا زادت مساحتها عن حد معين ويوزعها على من لا يملكون[٨٤]. وفى افتتاح برنامج الإصلاح الزراعى أعلن أربنز أنه المكون الأول والأهم للعدالة الاجتماعية:

> **إن كل ما بجواتيمالا من ثروات ليس بأهم من حياة أشد الناس بساطة وحديثه وكرامته وصحته وسعادته. وكم سنكون على خطأ لو أننا – مفضلين الوسيلة على الغاية – جعلنا الاستقرار المالى والنمو الاقتصادى أقصى أهداف سياستنا، مضحين من أجل ذلك بسعادة شعبنا... إن مهمتنا هى أن نعمل سويًا لكى ننتج ثروات أكبر... ولكن علينا أن نوزعها بحيث يستفيد أكثر من يملكون أقل، وهم الغالبية، بينما من يملكون أكثر – وهم قلة – يستفيدون أيضًا ولكن بدرجة أقل. فكيف يمكن أن تكون الأمور غير ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار الفقر والمرض وقلة التعليم لدى شعوبنا؟[٨٥]**

فى أوائل عام ١٩٥٣ كان التعاون المتزايد بين أربنز والحزب الشيوعى الجواتيمالى *Partido Guatemalteco del Trabajo (PGT)* يدق نواقيس الخطر فى واشنطن. وأرغمت تحذيرات المخابرات المركزية عن زيادة الاضطراب فى أمريكا اللاتينية وزارة الخارجية أن تأخذ الأمور فى المنطقة مأخذ الجد، وكما أشار المؤرخ بيرو جليجسس *Piero Glejeses*، فقد كان البيت الأبيض يملك معلومات جيدة عن الأحداث فى جواتيمالا. فالرئيس أيزنهاور لم يعجبه ما رأى، وأمر المخابرات المركزية أن تُنظم وتُسلِح وتدرب مجموعات المعارضة الجواتيمالية المتمركزة في هندوراس المجاورة، وكانت ديكتاتورية عسكرية تحت السيطرة الأمريكية. كان المسئول فى وزارة الخارجية الأمريكية المنوط بتبرير عداء الولايات المتحدة لأربنز "لويس هال" *Louis Halle* – الذى أصبح فيما بعد مؤرخًا بارزًا للحرب الباردة – كان قد حاول بالفعل فى ١٩٥٠ أن يشرح أسباب زيادة مشكلات الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية فقال: "إن لها تقاليد فى السلوك السياسى تتميز بالإسراف وتصلب الرأى والانفعال الزائد وعبادة الرجال الأقوياء"، وكلها صفات تشهد على عدم النضج السياسى، "صفات المراهقة". وجادل هال فى مايو ١٩٥٤ بأن المشكلة في جواتيمالا هى أن "العدوى الشيوعية" يمكن "أن تنتشر فى أمريكا اللاتينية كلها". فى الشهر نفسه استطاعت واشنطن أن تستخدم وصول ناقلة سويدية، تدعى "ألفهم" *Alfhem* إلى جواتيمالا حاملة ألفى طن من الذخيرة والألغام المضادة للدبابات والأسلحة الخفيفة من تشيكوسلوفاكيا، مما كان سببًا فى فرض الحصار البحرى الكامل على الدولة. استخدمت المخابرات المركزية مسألة "ألفهم" لتبرر زعمها السابق بأن

"روسيا تتدخل فى شئون إحدى جمهوريات أمريكا اللاتينية...والهدف من هذا التدخل هو أن تنشئ فى

> **جواتيمالا أولا ثم فى دول أخرى من هــذه المنطقــة، شكلا من أشكال الديمقراطية غريبًا تمامًا عما تعرفــه أمريكا. فالاشتراكية، وليست الديمقراطية، هى هــدف الــشيوعيين، ونعنـــى بــذلك أن الهــدف الحقيقـــى للشيوعيين هو تأمين الخضوع الكامــل مــن قِبَــلَ شعوب العالم الغربى وما بــه مــن مــوارد للحركــة الإمــبريالية الروسية(٨٦).**

ورغم ما اعتقدته المخابرات المركزية فقد كانت إحدى مشكلات أربنز مع تصاعد الضغوط الأمريكية هى غياب اهتمام القوى الأخرى، بما فيها الاتحاد السوفيتى، وعدم استعداد اليسار الجواتيمالى والاتحادات التجارية أن تدافع عن حكومته. ولما بدأ التوتر السياسى والأعمال التخريبية وحملات الإشاعات التى قادتها المخابرات المركزية تؤتى ثمارها وتستنزف شعبية حكومة أربنز فى ربيع ١٩٥٤، بدا الرئيس الجواتيمالى كأنه لا يعرف كيف يتصرف. فى يوليو ١٩٥٤ بدأت قوات دربتها الولايات المتحدة تحت قيادة العقيد كارلوس كاستيللو أرماس *Carlos Castillo Armas*، وهو ضابط لاجئ كان متمركزًا فى هندوراس، بدأت تغزو جواتيمالا ولكن الجيش الجواتيمالى هزمها في البداية. غير أن الضباط الرئيسيين بدأوا يعيدون التفكير فى محاربة قوة تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية. كانت رسالة المخابرات المركزية الخفية، التى قام عملاؤها بتوزيعها فى العاصمة الجواتيمالية، تُذكِر الضباط بأنهم "إذا كانوا غير سعداء بوجودهم فى محيط سيطرة الولايات المتحدة، فعليهم أن يتذكروا أن الولايات المتحدة هى أكرم من يدير الأمور وأكثرهم تحملا، وأن التعاون معها مدعوم بالمكافآت المادية، وأن الولايات المتحدة تسمح بسيادة واستقلال أكبر كثيرًا مما يسمح به السوفيت"(٨٧). وبعد أن سمح الرئيس

أيزنهاور باستخدام الطيران الأمريكى لمهاجمة القواعد العسكرية الجواتيمالية، قام الجيش بخلع الرئيس أربنز فى انقلاب غير دموى فى السابع والعشرين من يونيو ١٩٥٤، وبعد أسبوع من الاضطراب – وهو فترة كافية للعديد من الزعماء العسكريين أن يلوذوا بالفرار – استطاع السفير الأمريكى أن ينصب كاستيللو أرماس رئيسًا جديدًا للبلاد.

كانت العملية الجواتيمالية – وشفرتها ***PBSUCCESS*** – بالفعل نجاحًا للمخابرات المركزية، وإن لم يكن بالشكل الذى توقعته الوكالة فى البداية. الشيء المهم بالنسبة لواشنطن هو أن الشيوعية قد "اقتلعت من جذورها" فى أمريكا الوسطى؛ أما كون جواتيمالا قد سُلمت إلى دكتاتورية عسكرية أرست من خلال سياساتها الرجعية قواعد الاضطراب المستمر، فكانت هى الحقيقة الأقل أهمية. فى الحقيقة، لقد وجد زعماء الولايات المتحدة طوال بقية الخمسينيات، وفى انعطافات مهمة أخرى فيما بعد، أن الدكتاتوريات هو الشكل الوحيد للزعامة الذى "ينجح" فى دول أمريكا اللاتينية "المراهِقة" التى كانت تتهددها الشيوعية، فالدكتاتوريون "هم الوحيدون الذين نستطيع الاعتماد عليهم" كما قال جون فوستر دالاس بعد الانقلاب الجواتيمالى. لم يندهش فقط من اعتقدوا أن الولايات المتحدة تستطيع جلب الديمقراطية إلى أمريكا الوسطى بعد خلع أربنز؛ الشركة المتحدة للفاكهة ــ والتى كانت ذات فائدة لحكومة الولايات المتحدة أثناء العملية – تم القضاء عليها بوحشية بعد ذلك، من خلال أفعال منافية للثقة كانت بداية نهايتها. وكما قالت المخابرات المركزية فى أحد توجيهاتها الداخلية، فإن موقف الشركة فى جواتيمالا لابد من القضاء عليه، بما أن بحثها عن الربح من خلال الهيمنة كان خطرًا على "المصلحة السياسية الأمريكية العامة"[٨٨].

تصاعدت مشاعر القوميين واليساريين الأمريكيين اللاتين والكاريبيين المعادية للولايات المتحدة بعد خلع أربنز. وعندما أرسل نائب الرئيس ريتشارد نيكسون لزيارة أمريكا اللاتينية فى ١٩٥٧، رحب به جمع غفير من الناس فى مطار كاراكاس بعبارات مثل "فلتذهب يا نيكسون" "اخرج يا كلب" "لن ننسى جواتيمالا". وبعد ذلك قام بعض الدهماء بالهجوم على موكبه فى كاراكاس وحطموا زجاج سيارته الرسمية وبصقوا عليه[٨٩]. وتوصل بعض الأمريكيين اللاتين إلى استنتاج أن الثورة المسلحة وحدها مع "قطع رأس" النظام القديم هى الأسلوب الوحيد الذى يمكن أن يضمن انتصارًا ثوريًا. كان طبيب أرجنتينى شاب ويدعى إرنستو چيڤارا دو لا سيرنا ***Ernesto Guevara de la Serna*** – ويطلق عليه أصدقاؤه اسم "تشى" ***Che*** – كان فى مدينة جواتيمالا عندما وقع الغزو، بعد أن وصل إليها ليشاهد التغيرات الجذرية التى حدثت فى البلاد تحت حكم أربنز. أما وقد لاذ إلى السفارة الأرچنتينية خوفًا من القتل الذى تلا انتصار كاستيللو أرماس، كتب تشى ذو السنوات الست والعشرين، خطابًا إلى والدته يخبرها بأن استراتيچية أربنز قد فشلت: "رغم نموذج كوريا والهند الصينية، لكنه لم ير أن الشعب المسلح قوة لا تقهر. كان بوسعه أن يعطى أسلحة للشعب، لكنه لم يرغب فى ذلك – وها هى النتيجة"[٩٠].

وهرب الشاب تشى من أن يحارب يومًا آخر – هرب بأمان إلى موسكو، وأخبر والدته أنه كان يفكر فى الانضمام إلى الحزب الشيوعى بعد أن رأى بطولته فى جواتيمالا، لكنه أراد أن ينتظر حتى يسافر إلى أوروبا، كما كان يأمل فى أن يسافر إلى نيويورك. وكما نعلم، فإن تشى فى النهاية قرر أن يُعمل ما أسماه ثورة "حقيقية" فى كوبا، بدلا من مقاهى باريس والأضواء الكاشفة فى ميدان التايمز. وأصبح التحدى الكوبى خطًا فاصلا فى سياسة الولايات المتحدة تجاه العالم الثالث؛ فكما سنرى فى الفصل التالى فإن انتصار فيديل كاسترو ***Fidel Castro*** قد زاد من

أهمية الإسراع بهجوم أمريكي مضاد في العالم الثالث. ولكن، بقيت بعض أساليب التدخل الأمريكي. وكما لاحظ أحد محللي المخابرات المركزية فيما بعد: "استُخدِمت لغة مرحلة أربنز نفسها ومناقشاتها وأساليبها في كوبا في أوائل الستينيات، وفي البرازيل في ١٩٦٤، وفي جمهورية دومينيكان في ١٩٦٥، وفي تشيلي في ١٩٧٣"[٩١]. وفي تواز مذهل مع دور أنجولا في أنماط التدخل السوفيتية الآخذة في التطور في السبعينيات، كانت واشنطن تعتبر جواتيمالا نموذجًا يحتذى للنجـــاح المستقبلـــي، حتـــى بعـــد أن فشلت استـــراتيجية التدخل في قمع الثورة الكوبية في ١٩٦١.

أظهر التدخل الأمريكي السري الكبير ضد النظام الوطني البرازيلي للرئيس جووا جولارت***João Goulart*** بعد جواتيمالا بعشر سنوات، مدى تشبث واشنطن بأفكارها وسياساتها في أمريكا اللاتينية. وقد جاءت مشكلة الولايات المتحدة مع البرازيل في ١٩٦٤ بعد محاولات إدارة كينيدي أن تقرن بين استراتيجية معادية للشيوعية وأخرى من أجل التنمية، من خلال "التحالف من أجل التقدم" ***Alliance for Progress***، وكانت المشكلة هي أن الرئيس جولارت قد وضع برنامجًا يتضمن إصلاح الأراضي والسيطرة على رأس المال الخارجي والاعتراف بكوبا والدول الشيوعية الأخرى. وكانت وجهة نظر الرئيس ليندون جونسون تتفق مع وجهة نظر إيزنهاور في ١٩٥٤، وهي أن جولارت راديكالي خطير ينبغي التخلص منه بأي طريقة ممكنة. ولكن واشنطن كانت على علم بأن البرازيل دولة كبيرة وقوية، لديها حس وطني قوي، ومن ثم فإن التدخل المباشر أمر غير مطروق إلا في حالة استيلاء شيوعي على السلطة. بل إن إدارة جونسون ركزت على إحداث خلل في الاقتصاد البرازيلي، بينما شجعت قيام انقلاب عسكري ضد الحكومة التي كان لديها بالفعل أعداء يمينيون محليون. في أوائل ربيع ١٩٦٤، حيث كانت هناك علامات على أن اليسار البرازيلي والاتحادات التجارية تستعد للدفاع عن الحكومة، تخطت

واشنطن هذه الضغوط بأن وعدت المخططين العسكريين بالمساعدة الفورية، والاعتراف في حال نجاح الانقلاب ضد جولارت. في اجتماع دُعِيَ إليه في عجالة في الثامن والعشرين من مارس ١٩٦٤، أخبر مستشار الأمن القومي للرئيس جونسون مكچورچ بندى ***McGeorge Bundy*** زملاءه بأن "المشكلة [في البرازيل] أننا لابد من أن نطمئن أن العسكرية لن ترد، إننا نخشى من أن ترد العسكرية"(٩٢).

عندما "ردت" العسكرية البرازيلية بخلع الرئيس جولارت بعد ذلك بثلاثة أيام، كان رد فعل واشنطن الأول هو الفرح الشديد. ففي حديث تليفوني مع الرئيس جونسون، وكان في مزرعته في تكساس، كان هناك شعور بالراحة في صوت جورج بول عندما أخبر الرئيس أن "الانقلاب يحدث الآن"(٩٣). ورغم أن الكثير من المادة الأمريكية حول الانقلاب مازال يعتبر من الأسرار، فمن الواضح أن واشنطن ظلت قلقة لأكثر من أسبوع من ألا يختار الرئيس جولارت أن يذهـب طـواعية، أو من أن ينظم اليسار انقلابًا مضادًا. وكإجراء احتياطي، أمر جونسون بأن تنتشر وحدات البحرية الأمريكية على الشواطئ البرازيلية وتتأكد من أن قوات التمرد تُزَود بالوقود(٩٤). وعندما اتصل السفير الأمريكي لينكولن جوردن ***Lincoln Gorden*** لأول مرة بالچنرال كاستيلو برانكو ***Castelo Branco*** ليهنئه على وظيفته الجديدة بصفته رئيسًا، أهداه السفير "كتابًا عن البيت الأبيض وترجمات برتغالية كانت قد نشرت حديثًا عن سيرة جونسون الذاتية ومجموعة خطبه، ونصف دولار عليه صورة كينيدي، وقد شكره عليهم بسخاء"(٩٥).

ورغم توجه نظام الچنرال كاستيللو برانكو الجديد نحو الولايات المتحدة، فإنه أحبط من كانوا في إدارة جونسون، الذين تخيلوا أن هناك فرصة لتنفيذ برنامج إصلاح بتوجيه من الولايات المتحدة في دولة كبرى بأمريكا اللاتينية. ورغم أن تدفق المستشارين الأمريكيين والمساعدة الأمريكية أصبح الأكبر في العالم الثالث،

كانت توقعات المخابرات المركزية بأن يمثل "البرنامج الاقتصادى للنظام جهدًا كبيرًا ومتسقًا لإزالة الحطام الذى خلقه نظام جولارت وبداية إصلاح وطنى" أفضت إلى لا شيء[٩٦]. انشغل كاستيللو برانكو وخلفاؤه كثيرًا بشن حرب مدنية على الفقراء ومعارضى النظام العسكرى، فلم يكن لديه الكثير من الوقت لينشغل بالإصلاح. فى الشهر الأول من "النظام الجديد"، تم القبض على أكثر من خمسين ألف شخص، فى بداية "حرب قذرة" بقيت حتى خلع الدكتاتورية العسكرية فى ١٩٨٥، بقيت البرازيل أكثر دولة بها جور اجتماعى على الأرض، فحتى اليوم يتقاضى الأربعون بالمائة الأشد فقرًا من تعداد السكان أقل من ٧% من الدخل الإجمالى[٩٧].

غير أنه، من الناحية الاستراتيجية، أصبحت الدكتاتورية العسكرية البرازيلية الجديدة حليفًا لصيقًا للولايات المتحدة للتدخل فى كل مكان آخر فى أمريكا اللاتينية[٩٨]. قبل الانتخابات فى أوروجواى فى ١٩٦٦، أوضحت السفارة الأمريكية أن الانتصار اليسارى قد يؤدى إلى غزو برازيلى[٩٩]. كما ساعد البرازيليون الولايات المتحدة على غزو جمهورية الدومينيكان فى ١٩٦٥. وقد شهد الدومينيكان خلع أول حكومة منتخبة فى تاريخهم فى ١٩٦٣؛ وعندما قامت أجزاء من الجيش بالثورة لكى تعيد وضع نظام دستورى بعد ذلك بعامين، كانت إدارة جونسون تخشى من أن تكون للقوى اليسارية لدى "الدستوريين" اليد العليا، مع أو بدون دعم الرئيس المنتخب. كتبت المخابرات "من الواضح أن عودة بوش ***Bosch*** إلى موقفه السابق سيكون غير مرغوب فيه تمامًا... فإنه سيصبح مدينًا لليساريين الدومينيكان والشيوعيين لأنهم مهدوا الطريق إلى عودته". ولهذا السبب، "شجعت واشنطن أصحاب القوة العسكرية على البقاء، حتى بعد أن أدركت أن زعيمهم شخصًا لا شعبية له"[١٠٠].

ومع تصاعد القتال في سان دومينجو وتقهقر القيادة العسكرية، أرسلت الولايات المتحدة في البداية سفنًا حربية لحماية الرعايا الأمريكيين ثم قررت غزوا كاملا، ولكن بعد تدبر وتفكير مستفيض. فجونسون قد راح يفكر مليًا في عواقب الغزو على الصعيد العالمي، ثم اشتكى قائلا إنه "في الجحيم في كل الحالات. فلو استوليت على السلطة فلن أعيش في العالم؛ ولو تركتهم يستولون على السلطة فلن أعيش هنا"(١٠١). التورط الشيوعي المزعوم هو ما أقنعه أخيرًا. وأخبر جونسون مكنمارا في الثلاثين من أبريل بأن "المخابرات المركزية تقول إن هذه العملية بقيادتهم وتحت إدارتهم وسيطرتهم – لديهم رجال فيها – عملية كاسترو"(١٠٢). وقال لبندي: "إنني أرى النموذج ولا أستطيع أن أصمت. إن ما يفعلونه في لاباز وبوليـڤيا، ما يفعلونه في المكسيك العاصمة وما يفعلونه في ڤيتنام وجمهورية الدومينيكان كلها أمور ذات صلة"(١٠٣). كانت مشكلة جونسون هي أن الدستوريين الدومينيكانيين كانوا مستعدين للدفاع عن مكاسبهم، حتى بعد أن قام ٢٣ ألف جندي أمريكي بالسيطرة على البلاد – فلم يكونوا "على استعداد بعد للتفكير المنطقي" كما أخبر بندي واشنطن بعد وصوله إلى سانتو دومينجو لكي يجد حلا سياسيًا للأزمة. وكان آبي فورتاس *Abe Fortas* أيضًا، الذي أرسله جونسون إلى بورتو ريكو في محاولة للحصول على موافقة الرئيس بوش *Bosch* أن يتنحى، كان أيضا سيئ الحظ. وأخبر فورتاس، الذي سيصبح فيما بعد رئيسًا للمحكمة العليا، أخبر واشنطن بأن "بوش هذا من نوع الشعراء اللاتين البطوليين وهو مكرس تمامًا لذلك الدستور اللعين"(١٠٤). وكانت المحصلة النهائية في جمهورية الدومينيكان هي حل وسط، حيث وافق الدستوريون على تسليم حلفائهم اليساريين وقبلوا انتخابات جديدة مقابل وعد بانسحاب القوات الأمريكية.

وكما توقع جونسون، جاء الشجب الدولي للغزو الأمريكي سريعًا، حتى من حلفاء أمريكا. واشتكى ألبرتو للراس *Alberto Lleras* الرئيس السابق لكولومبيا

وأول أمين عام لمنظمة الدول الأمريكية ***Organization of American States*** – من أن الحرب الباردة أصبحت حربا ساخنة في أمريكا اللاتينية(١٠٥). في أوروبا، أخبر الرئيس الفرنسي ديجول السفير الأمريكي أنه "كان يرى أن الولايات المتحدة، شأن كل الدول ذات القوة العارمة، تعتقد أن القوة سوف تحل كل شيء ولكن ذلك ليس الحال بالفعل، وسوف تدرك ذلك سريعا"(١٠٦). غير أن التدخل في الدومينيكان كان بالنسبة للرئيس جونسون نفسه نموذجا لعمليات مشابهة في المستقبل– حتى عندما وبخ من أمدوه بمعلومات خاطئة، حيث كان هناك قلة فقط من "الشيوعيين المتدربين في كوبا" ضمن من تم القبض عليهم في حملات التطهير المضادة لليساريين في سانتو دومينجو – ظل يعتقد أن الولايات المتحدة عليها أن تتدخل بأساليب مشابهة في المستقبل عندما تطل الشيوعية برأسها مهددة(١٠٧). ذلك الذي سمي بـ"مبدأ جونسون" أقلق الكثير من صناع السياسة الأمريكيين، في عالم كان يزداد انقلابا على الولايات المتحدة. في منتصف عام ١٩٦٥، كان نائب مستشار الأمن القومي روبرت كومر ***Robert Komer*** يعتقد "أننا على وشك مواجهة وقت عصيب في الخارج مع القليل من النجاحات المنتظرة

> **ستظل فيتنام مشكلة شائكة إلى أجل غير مسمى. وإندونيسيا تنفلت من بين أيدينا سريعا... وعلى الجبهة الأفريقية الآسيوية تبدو أفريقيا وحدها في حال أفضل بوجه عام، وإن كانت المشكلات الملحة في الجنوب الأفريقي يمكن أن تجلب لنا القلق من جديد. وأمريكا اللاتينية على ما هي عليه قد يكون بها عدة ثورات أخرى حتى وإن قمنا بإصلاح الأمر في سان دومينجو. ولنواجه الحقيقة بأن ما علينا فعله في**

ڤيتنام وفى كل مكان آخر يمثل عبئًا ثقـيلا علينـــا أن نحمله فى أفريقيا وآسيا كما فى أوروبا... علينـــا إذن أن نوازن الأمور عن طريق سياسات أفضل فـــى كـــل مكان – للتعويض عن تأثير ڤيتنام وسانتو دومينجـــو وللفت الأنظار عنهما ... كم مشكلة علينا أن نحلها فى نفس الوقت– ألا ينبغى أن نتخلص ولو مـــن بعــضها على الأقل؟[١٠٨].

العالم الثالث والنظام الاقتصادى للحرب الباردة

فى بداية فترة الحرب الباردة أعيد تشكيل منظمات النظام الاقتصادى العالمى ليتواءم مع الأغراض الأمريكية فى هزيمة الشيوعية وزيادة النمو الرأسمالى. متأثرًا بالحربين العالميتين والكساد العظيم، تضمن الفكر الأمريكى عن الشئون الاقتصادية العالمية فى السنوات الخمس والعشرين التى تلت انتصارها فى أوروبا والباسفيكى يتضمن دورًا أكبر للدولة مما كان معروفًا قبل ذلك الحين (أو منذ ذلك الحين، فى هذا الأمر). ورأى الكثيرون أن بعض عناصر تخطيط الدولة مطلوبة لخدمة الأسواق، ودفاعًا عن الحرية ضد الأنظمة السلطوية. وكان للمؤسسات التى أنشئت لخدمة هذه المطالب على المستوى الدولى – البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ــ كان لها أهمية كبيرة فى أسلوب إدارة الحرب الباردة فى العالم الثالث، وأصبح النظام التجارى الذى صحبها هو العامل المحدِّد للتنمية الاقتصادية فى معظم دول العالم الثالث.

تأثر نظام بريتون وودز – الذى سُمى على اسم المكان الذى التقت فيه القوات الحليفة فى ١٩٤٤ فى نيو هامشاير لوضع نظام للاقتصاد العالمى بعد

الحرب – تأثر بأفكار كينز عن التعاون بين الحكومات، الذى وضع لتجنب الأزمات المستقبلية الشبيهة بما حدث فى الثلاثينيات. كان المفهوم الجوهرى هو إتاحة رأس المال الأمريكى كقروض عامة رخيصة لتلك الحكومات التى اختارت الاقتصــاد المفتــوح وتنمية السوق الرأسمالية – أى استخــدام الكنــزية لأغــراض أيديولوجية، على نحو مــا. وبعد أن قرر الاتحاد السوفيتى والدول التى يسيطر عليها عدم المشاركة، كــان بالإمكان وضـــع المؤسسات الجديــدة علـــى طــريق تضمن الهيمنـــة الأمريكية وتقضى على التأثير السوفيتى وتساهم فى نمـــو الرأسمالية العالمية. وكان على البنك الدولى للإنشاء والتعمير ***International Bank for Reconstruction and Development (IBRD)***، الذى أصبح البنك الدولى ***World Bank*** فيما بعد، أن يتيح رأس المال على المدى البعيد للدول التى تحتاج إلى هذه المساعدة الخارجية. أما صندوق النقد الدولى ***International Monetary Fund (IMF)*** فكان عليه أن يمول اللاتوازن قصير المدى فى المدفوعات العالمية، لكى يثبت أسعار الصرف؛ وكان هناك شعور سائد بأن صندوق النقد ضرورى لمساعــدة النظم التى يتهــددها الاضطراب السياسى أو الاقتصادى. لكن شرط العضوية فى صندوق النقد هو قياس عملة الدولة على الدولار الأمريكى، بما يربط بين القرارات النقدية لتلك الدولة وقرارات الحكومة الأمريكية.

ورغم أن كلا من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى قد أُنشآ أساسًا لخدمة احتياجات الدول الصناعية، فقد كان لهما تأثير قوى فى العالم الثالث. فى البداية، ساعدت القروض والاعتمادات قصيرة المدة بعض القوى الاستعمارية – وخاصة فرنسا والبرتغال – على خوض حروب مقاومة للتحرر ما كانت لتستطيع خوضها لولاهما. ثم، مع إنشاء دول العالم الثالث، فضلت المؤسسات الاقتصادية الدولية تلك الدول التى اختارت التوجه إلى السوق والاقتصاد المفتوح على غيرها من الدول

الأخرى؛ وبالتالى منحت القروض للأنظمة المعادية للشيوعية وتلك التى توجد بها استثمارات غربية بالفعل. كانت سيطرة الولايات المتحدة على البنك الدولى وصندوق النقد سلاحا قويا فى الحرب الباردة، سلاحًا يقوم فى الكثير من الأحيان بتحديد أى الدول تستفيد من القروض والاعتمادات الدولية دون غيرها، حتى فيما يتعلق بالحكومات كل على حدة، وبالبنوك الخاصة.

وفى حين ازدادت أهمية المؤسسات الاقتصادية الدولية بعد انتهاء فترة إعادة البناء بعد الحرب، قلت شعبيتها فى الولايات المتحدة كمنظِمَة للاقتصاد العالمى، حيث كانت زيادة دور الدولة الأمريكية نفسها موضع نقد داخلى متنام فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. فى ١٩٧١ عندما قام الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون بإنهاء نظام بريتون وودز برفضه أن يبيع الذهب بالسعر المنصوص عليه فى صندوق النقد، تعرضت فكرة التنظيم نفسها للضغط، وتصاعد مفهوم السوق غير المقيدة. كان انهيار بريتون وودز يعنى مبدئيا بالنسبة للعالم الثالث الوصول الأفضل إلى الأموال العالمية، حتى وإن كانت الشروط الموضوعة من أجل الاقتراض لازالت موجودة، لكن مع ازدياد كم قروض العالم الثالث، كان هناك المزيد من التركيز على عدم العدالة فى النصف الثانى من النظام الاقتصادى بعد الحرب – وهو شروط التجارة.

وضعت القوى المسيطرة كلها أنظمتها التجارية، التى عادة ما وصفتها بـ"المنطقية" و"الضرورية" و"فى الصالح العام". أثناء معظم القرن التاسع عشر مثلا، أصرت بريطانيا على التجارة العالمية الحرة لمنتجاتها وخدماتها، وبذلك وظفت تميزها فى التكنولوجيا والإنتاجية لتستفيد منه أقصى استفادة ممكنة. بالمقارنة ببريطانيا، أكدت الولايات المتحدة فى أواخر القرن العشرين، إلى درجة أبعد كثيرًا، ميزة تصدير نموذجها الاقتصادى للدول الأخرى. وبسبب أيديولوجيتها

ومواجهة الحرب الباردة، فإن استفادتها الاقتصادية لم تكن كافية – فقد أراد الأمريكيون أن يخلقوا نظامًا إقتصاديًا عالميًا تتضافر فيه كل من القواعد العالمية والأسواق المحلية من أجل ما يخدم الولايات المتحدة. وكما في الأيديولوجيات الأخرى، كثيرًا ما تجاهلت أيديولوجية السوق بالولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين ماضيها – ناسية مثلا كيف خدمت الإجراءات الحمائية الجيدة نمو الصنـــاعات الأمـــريكية في القرن التاسع عشر. لكن الاعتقاد بأن نموذج الولايات المتحدة سوف يخدم العالم ظل باقيا، في البداية سمي بـــ"الأمركة "***Americanization*** ثـــم بعـــد ذلك، عنـــدما كـــانت الولايات المتحـــدة تكسب الحرب الباردة سمي بـــ"العولمة"(١٠٩).

كما رأينا في الفصل الثالث، كان هناك العديد من الأسباب التاريخية والسياسية العالمية التي أدت إلى عدم نجاح معظم مشاريع التنمية في العالم الثالث على نحو ما كان مخططًا لها. لكن العقبة الأساسية لدى دول العالم الثالث هي أن نظام التجارة العالمي كان يضع أسعارًا زهيدة لموادهم الخام، وأسعارًا مرتفعة للمنتجـــات والتكنـــولوجيا والمهـــارات التـــي يـــريـــدون استيرادها. أما مفاوضات التجارة العالمية، وكانت تديرها الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة ***General Agreement on Tariffs and Trade (GATT)***، بينما وضعت سقفًا منخفضًا لاستيراد الشمال للسلع نصف المصنعة والمنسوجات من العالم الثالث، لم تفعل شيئًا للتأثير على أسعار المواد الخام وبذلك تسمح بحدوث التذبذب الشديد في الأسعار الذي تمليه الأسواق والتقدم التكنولوجي في الشمال. وبوجه عام، على عكس نية واشنطن المعلنة تمامًا، فإن نظام التجارة العالمي خلق التنافر وليس التقارب بين الاقتصادات الغنية والفقيرة، لأن شروط تجارة المواد الخام كانت تسير من سيئ لأسوأ مع التقدم التكنولوجي. فالدخل الخارجي المعتاد لدولة من دول العالم الثالث، كان كافيا لدعم نخبة صغيرة فقط وكافيًا- إذا ما أضيف إلى الدخل

المحلى- لإدارة دولة؛ ولكنه كان فى الوقت نفسه يخلق اقتصادًا برأس مال صغير كما يخلق رغبة أقل وأقل لدى المواطن ليستثمر فى دولته[١١٠].

تظهر الشروط العامة للتجارة منذ الحرب العالمية الثانية تراجعًا تدريجيًا فى قيمة المواد الخام للعالم الثالث مقارنة بقيمة السلع المصنعة؛ ربما لأن التغير التكنولوچى حد من الفاقد ومن كم المواد المطلوبة من أجل منتج واحد[١١١]. بالنسبة للسلع الرئيسية، التى كان بعض أفقر دول العالم الثالث يعتمد على تصديرها، كان السعر يتذبذب من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٧ ثم انهار فجأة وبحدة مع انطلاق الإنتاج عالى التكنولوچيا فى أمريكا الشمالية وأوروبا والدول الصناعية الجديدة فى شرق آسيا. ومع انهيار الأسعار اضطر الكثير من دول العالم الثالث إلى تكثيف الإنتاج من أجل أن تحتفظ بالأرباح، مما أحدث فسادًا بيئيًا شديدًا وجعل اقتصاداتها غير قابلة للاستمرارية على المدى البعيد، لأن مواردها الطبيعية تستهلك على نحو أسرع، ولا يمكن لها أن تتجدد أو أن تتحول إلى موارد بشرية فى الداخل. ومع النمو السكانى وفشل خطط التنمية الزراعية، أدت تلك الاستراتيچيات إلى تجريف التربة وإزالة الغابات على مستوى يفوق الخيال، خاصة فى المناطق التى كانت تعتمد على إنتاج محصول واحد للتصدير. كذلك تآكلت حقوق الملكية المحلية، بما أن الإنتاج على المستوى الكبير كان يتطلب المصادرة أو إعادة التسكين.

وكما يمكن التوقع بناء على الخلفية الأيديولوچية التى كانت بالفعل موجودة فى معظم الدول حديثة الاستقلال، فقد حفزت الشروط غير المستساغة للتجارة اشتراكية الدولة؛ فلو لم يكن هناك حل فى إطار هذا النظام - كما قد توقع بعض الاقتصاديين- فمن الأفضل الخروج من النظام كله. ورغم ذلك فالقليل من الدول استطاع أن يفعل ذلك، كما رأينا. بل إن دول العالم الثالث حاولت أثناء الستينيات والسبعينيات أن تحد من الدمار الذى لحق باقتصاداتها بسبب التعريفات الحمائية

العالية، والقيود على الاستيراد والتحكم بالتبادل الخارجى، ووضع حدودًا لمعدلات الفائدة وحدًا أدنى للأجور، فوضعت أسعارًا للسلع الحيوية وقيودًا على الاستثمار الخاص. قليل من الدول استطاعت أن تستخدم أساليب الاكتفاء الذاتى هذه لمصلحتها، على الأقل لبعض الوقت، لكن فى معظم الأحيان كانت تضع عوائق غير ضرورية أمام الأعمال الخاصة بينما لا تفعل شيئًا للسيطرة على مواردها. على العكس، أفاد الاكتفاء الذاتى القلة المميزة، سواء كانت تتمثل فى حزب طليعى أو فى حكومة أثرياء فاسدين ***cleptocratic government***.

الشيء نفسه ينطبق على الكثير من برامج مساعدات التنمية، التى وضعت الولايات المتحدة الأسس لها فى البداية ثم تبعتها تدريجيا الدول الرأسمالية الأخرى، كأسلوب للتعويض عن صفقات المواد الخام التى كان العالم الثالث يأخذها فى الأسواق العالمية، ندمًا على آثار الاستعمار ، أو لأسباب إنسانية بحتة. وبينما كانت معظم المساعدات الأمريكية مرتبطة بشراء المنتجات الأمريكية، أو تمنح مع المساعدات العسكرية، فإن بعض المساعدات الأوروبية – مثل تلك الممنوحة من الدول الاسكندنافية – كانت غير مشروطة. وفى كلتا الحالتين كانت المساعدات تساهم فى تخفيف الفقر، لكن على المدى القصير فى العادة. كان الكثير منها يُبدد لأنها تنفق على مشاريع غير واقعية، فى الغالب خطط كبرى للبنية التحتية تدار بأسوأ أساليب التخطيط التنموى المأخوذة عن الاستعمار . كذلك فإن الحصول على المساعدات من مانحين بعيدين أثار الفساد والأشكال الأخرى من الممارسات السيئة فى دول العالم الثالث.

وكما الحال لدى المعارضين السوفيت، كانت معظم المساعدات الأمريكية تمنح لأغراض سياسية أو استراتيجية. كانت إسرائيل هى أكبر مستقبلى المساعدات حيث حصلت على واحد وثمانين مليار دولار منذ إنشائها، وكانت مصر هى الدولة

الثانية حيث حصلت على ثلاثة وخمسين مليارًا (كلها منذ أوائل السبعينيات) مما يدل على الأهمية التى توليها واشنطن لمنطقة الشرق الأوسط؛ أما جنوب ڤيتنام فقد حصلت على أربعة وعشرين مليارًا أثناء فترة وجودها القصيرة، بينما بلغ إجمالى المساعدات التى حصلت عليها الصحراء الأفريقية منذ ١٩٤٥ اثنين وثلاثين مليارًا[١١٢]. كان الهدف الضمنى لقانون المساعدات الخارجية لعام ١٩٦١ هو استخدام المساعدات لمناهضة الحرب الباردة. وقد استنتج الرئيس كينيدى عندما قدم القانون للكونجرس أن "القدرة على وضع الالتزامات طويلة المدى قد مكنت الاتحاد السوڤيتى من استخدام برنامج المساعدات ليجعل الدول تعتمد اقتصاديًا على الدعم الروسى – مما أدى إلى تحقيق أهداف الشيوعية فى العالم؛ هذه الشعوب الجديدة تحتاج إلى المساعدة لسبب خاص، لأنها – دون استثناء – تقع تحت الضغط الشيوعى؛ وهو فى الكثير من الحالات مباشر وعسكرى. وفى حالات أخرى يأخذ شكل النشاط المكثف بغرض الإخضاع من أجل القضاء على المؤسسات الحديثة الجديدة – الضعيفة فى الغالب – التى قد تم بناؤها"، وزعم كينيدى أن المعونة الأمريكية سوف تظهر أن "النمو الاقتصادى والديمقراطيـــة السياسيـــة يمكن أن يسيرا جنبًا إلى جنب"[١١٣].

كانت دول العالم الثالث الغنية بالبترول هى الاستثناء الوحيد فى مسألة انهيار أسعار المواد الخام والاعتماد المتزايد على القروض والمعونات، حيث كانت زيادة إنتاج البترول حصنًا لها من الفقر. واعتمد النمو الاقتصادى المتزايد فى أوروبا الغربية واليابان، وفى الولايات المتحدة نفسها أيضًا، على فرص استغلال حقول البترول الأساسية فى العالم، وكلها فى الشرق الأوسط. بعض الدول قليلة الكثافة السكانية، مثل المملكة العربية السعودية ودول الخليج، أصبحت شديدة الثراء، خاصة بعد أن قامت منظمة الدول المصدرة للبترول ***Organization of Oil Exporting Countries (OPEC)***، التى تديرها السعودية، باستغلال عدم التوازن فى

الأسواق العالمية وكراهية الكثير من الدول الأعضاء بها للغرب بعد حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، فقامت بمضاعفة أسعار البترول الخام. وكان على واشنطن أن تتأقلم، حتى وإن كانت إدارة نيكسون – في البداية – درست مسألة الاستيلاء العسكرى على حقول البترول[١١٤]. فقد كانت العلاقة بالسعودية، وإيران، الدولة الرئيسية المعادية للشيوعية فى الشرق الأوسط، أهم من أن تفقدها الولايات المتحدة، حتى وإن كانت الفاتورة لضمان استقرار هذه العلاقة تتزايد تزايدًا حادًا عبر السبعينيات.

أما بالنسبة لمعظم دول العالم الثالث، فقد كانت أوائل السبعينيات هى فترة الاستدانة لكى تظل الدولة مستقرة. وسبب وجود الديون الكبيرة التى بدأت تظهر فى ١٩٧٠، هو أن دول العالم الثالث كانت بحاجة إلى الاقتراض وأن المال متوفر بسهولة. فالبنوك لديها سيولة عالية، كما كان هناك ضعف على طلب الاقتراض فى الشمال مصحوبًا بالتضخم ومعدلات فائدة سلبية. بعبارة أخرى كانت البنوك سعيدة جدًا بإقراض أنظمة العالم الثالث، حتى فى حالات علم محافظى البنوك أن فرص تحد القرض كله كانت ضعيفة. وتوقعت البنوك الأمريكية تحديدًا أن تقوم حكومتها بمساندتها لو سارت الأمور على غير ما يرام؛ وفى الوقت نفسه كانت تأمل فى أن تحصل على استفادة فى نواحٍ أخرى إذا ما ساعدت حلفاء واشنطن المفضلين فى العالم الثالث مثل موبوتو فى زائير. وكانت النتيجة ازدهارًا للتسليف حيث قام الكثير من نخب العالم الثالث طواعية برهن مستقبل دولهم لكى يُؤمنوا بقاء أنظمتهم على المدى القريب، أو، فى بعض الحالات، لكى يؤمنوا مكاسبهم الفاسدة.

نحو عام ١٩٧٠، كانت الولايات المتحدة قد فعلت الكثير لكى تخلق من العالم الثالث كيانًا بالمعنى السلبى والمعنى الإيجابى فى آن واحد. من خلال

سياساتها فى مواجهة الثورة، ساعدت واشنطن على تكوين كتل من المقاومة وشكلا أساسيا من التضامن بين العالم الثالث. ومن دواعى السخرية أن سياساتها فى التدخل ساهمت فى تحول العديد من أنظمة العالم الثالث إلى الراديكالية، بما فيها بعض الأنظمة التى كانت واضحة فى عدم ارتياحها إلى أى ارتباط بالاتحاد السوفيتى، رغم أنه، كما رأينا، كان هناك أكثر من سبب للاتجاه اليسارى الذى انتعش انتعاشا شديدا فى السبعينيات. من جهة أخرى، من خلال النظام الاقتصادى العالمى، ساعدت الولايات المتحدة على إطالة الزمن الذى كانت تحتاجه معظم الدول حتى تهرب من الفقر. هذا فى حد ذاته أيد الانجذاب إلى اليسار فى معظم مناطق العالم الثالث. ولكن، كما سنرى فى الفصل التالى، كانت الضغوط الأمريكية مجرد سبب واحد فى العداء المتزايد بين العالم الثالث والغرب، فى حين لعب النجاح الواضح للأنظمة الاشتراكية – ووجود بديل عن الرأسمالية والتحالف مع أمريكا – دورا مهما فى راديكالية الكثير من أنظمة العالم الثالث وأحزابه وحركاته.

هوامش الفصل الرابع

(١) انظر

Angus Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective (Paris:OECD Development Centre, 2001).

(٢) "مجلس الأمن القومي ٦٨ :أهداف الولايات المتحدة وبرامجها من أجل الأمن القـومي" ١٤ أبريل ١٩٥٠، في العلاقات الخارجية للولايات المتحـدة *Foreign Relations of the United States*(واختصارها *FRUS* ، *1950,vol. I,pp.237-286*

(٣) مجلس الأمن القومي ٥١، سياسة الولايات المتحدة تجاه جنوب شـرق آسـيا، ١ يوليـو ١٩٤٩، خدمة الوثائق المرجعية المفرج عنها *Declassified Documents Reference Service* ويرمز لها هنا *DDRS* على موقع *.http://www.ddrs.psmedia.com*

(٤ تقرير المخابرات المركزية *CIA* نتائج وتبعات الفعل البوليسي الألماني في إندونيسيا ، ٢٧ يناير ١٩٤٩ *DDRS.*

(٥) تسجيل المحادثات بين أتشسون وستيكر وفان كليفنز

Acheson and Stikker and van Kleffens, 31 March 1949, in FRUS, 1949, vol. IV, pp. 258-261.

انظر أيضا:

Robert J. McMahon, Colonialism and Cold War: The United States and the Struggle for Indonesian Independence, 1945-49 (Ithaca, NY; Cornell University Press, 1981), p.293.

(٦) وفقا لذكريات منسق الخارجية لمجموعة العمل في إندونـيسيا فريـدريك نـولتينج، فـإن "سوكارنو كان يُنظر إليه في تلك الأيام، نظرة صحيحة أو خطأ باعتباره وطنيا مخلصا، لـم يلوثه التعلم في موسكو، ولم تلوثه الاتهامات بأنه شيوعي. وقد تغير ذلك فيما بعد، ولكنـه في تلك الأيام كان يعتبر وطنيا شعبيا ومخلصا"

(oral history interview with Frederick Nolting, Charlottesville, Virginia, June 1975, by Richard D. McKinzie, Harry S. Truman Presidential Library, Independence, MO (hereafter HSTL), p. 7).

عمل نولتينج فيما بعد سفيرا للولايات المتحدة لدى فيتنام في الفترة ما بين ١٩٦١-١٩٦٣.

(٧) فـان أوس إلى أتشسون ٤ ديسمبر ١٩٥١، القنصلية العامة بكوالا لمبور، ملف سـرى، ١٩٥٠-٥٢، مجموعة سجلات ٨٤، الأرشيف العـام للولايـات المتحـدة، *US National Archives, College Park, MD* ويرمز له هنا *NA-CP*

(٨) لونكينز إلى بالدوين ٢٥ يناير ١٩٥٢، القنصلية العامة بكوالا لمبور ملف سرى، ١٩٥٠-٥٢، مجموعة سجلات ٨٤، الأرشيف العام للولايات المتحدة، انظر أيضا

Thor-Egil Eide, "Outside the Perimeter? An Inquiry into US-Malayan Relations, 1948-1957," hovedfag dissertation, University of Oslo, 1998.

(٩) *Edward Lansdale, journal no. 17, 24 August 1947, Manila, Lansdale Papers, Hoover Institution Archives, Stanford, CA.*

(١٠) بوهانان ورد في:

Michael McClintock, "Instruments of Statecraft: US Guerrilla Warfare, Counterinsurgency, and Counterterrorism, 1940-1990,"

على موقع:

http://www.statecraft.org/chapter4.html.

انظر أيضا تاريخ عمليات الجيش الأمريكي :

Lawrence M. Greenberg, "The Hukbalahap Insurrection: A Case Study of a Successful Anti-Insurgency Operation in the Philippines, 1946-1955," on http://www.army.mil/cmh-pg/books/ coldwar/huk/huk-fm.htm.

(١١) خطاب *McCarthy* ، مجلس الشيوخ الأمريكي، ٦ ديسمبر ١٩٥٠، ورد في:

Major Speeches and Debates by Senator Joseph McCarthy Delivered in the US Senate 1950-1951 (New York: Garden Press, 1975), pp. 157-160.

(١٢) ملاحظات أيزنهاور، ٢٩ أبريل ١٩٥٠، ورد في

The Papers of Dwight D. Eisenhower, ed. Alfred D. Chandler (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1981), vol. XI, p. 1092.

(١٣) . ورد في *Robert D. Schulzinger, A Time for War: The United States and Vietnam, 1941-1975 (Oxford: Oxford University Press, 1997), p. 55*

(١٤) المصدر السابق ص. ٥٨

(١٥) *Stephen Kinzer, All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror (Hoboken, NJ: John Wiley, 2003), p. 158.*

(١٦) وردت في المصدر السابق ص. ١٠٧

(١٧) المصدر السابق ص. ٧٠

(١٨) وردت في:

James F. Goode, The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq (New York: St. Martin's Press, 1997), p. 82.

(١٩) تسجيل اجتماع بمجلس الأمن القومي في ٤ مارس ١٩٥٣ في أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة

FRUS, 1952-1954, vol. X, p. 693.

(٢٠) انظر:

CIA, "Clandestine Service History: Overthrow of Premier Mossadeq of Iran, November 1952-August 1953," على موقع:

http://www.nytimes.com/library/ world/mideast/iran-cia-intro.pdf.

هذا التقرير الداخلي للمخابرات المركزية الذي صدر بعد الانقلاب، والـذي تـم تـسريبه إلـى النيويورك تايمز في عام ٢٠٠٠، يؤكد الصعوبات التي واجهتها محطة المخابرات المركزية مع حلفائها المحليين: "خاصة وقد أدركنا أن الإيرانيين المعنيين بالخطة لن يقومـوا كلهـم بالعمل المطلوب منهم، [و] حتى من سيقومون به قد لا يتبعون التعليمات المطلوبة على نحو مطلق...كون الجوانب العسكرية المبدئية لم تنجح، فهذا أمر يرجع مباشرة إلى الإيـرانيين، الذين رفضوا في النهاية أن يستمروا في قبول التوجيهات التـي شـعرت المحطـة إنهـا ضرورية". ومن المفترض أن ينطبق هذا الكلام تماما على شعبان "بلا عقل" جـافري، زعيم العصابة في طهران المتهم بتخطيط أحداث الشغب في شوارع طهران.

(٢١) *Douglas Little, American Orientalism: The United States and the Middle East Since 1945 (London: I. B. Tauris, 2003), p. 217.*

(٢٢) جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة، ١٩٥٤،

Sylvia G. Haim, ed., Arab Nationalism: An Anthology (Berkeley, CA: University of California Press, 1962), pp. 230-231.

يشير عبد الناصر إلى الكاتب المسرحي الإيطالي لويـجـي بيرانـديللو *Luigi Pirandello* فـي مسرحيته *Set personaggi in cerca d'awore* ست شخصيات تبحث عن مؤلف (١٩٢١).

(٢٣) *Little, American Orientalism, p. 166.*

(٢٤) *Mark Kramer, "New Evidence on Soviet Decision-Making and the 1956 Polish and Hungarian Crises," Cold War International History Project (CWIHP) Bulletin, (8-9); Csaba Bekes, The 1956 Hungarian Revolution and World Politics, CWIHP, Working Paper 16 (Washington, DC: Woodrow Wilson Center, n.d.).* انظر أيضا:

M.J. Cohen, "Prologue to Suez: Anglo-American Planning for Military Intervention in a Middle East War, 1955-1956," Journal ofStrategic Studies, 26.2 June 2003): 152-183.

(٢٥) وردت فى .Little, American Orientalism, p. 174

(٢٦) المصدر السابق ص. ١٧٦

(٢٧) "The Suez Canal Problem, 26 July-22 September 1956," US Department of State publication no. 6392 (Washington: GPO, 1956), pp. 345-351

(٢٨) Little, American Orientalism, p. 178

(٢٩) Rossiiskii gosudarstvennyi arkhiv sotsialno-politicheskoi istorii (hereafter RGASPI), f. 3, op. 12, d. 995, pp. 1-19.

(٣٠) ترومان، خطاب إلى إدوارد جــاكوبسون، ٢٧ فبراير ١٩٤٨، على موقــع .http://www trumanlibrary.org/.

(٣١) "مسودة: موقف الأمم المتحدة فيما يتعلق بفلسطين، مجلس الأمن القومى". ١٧ فبرايــر ١٩٤٨ على موقع .http://www.trumanlibrary.org/
خشى رؤساء الأركان من خطة التقسيم لأنهم شعروا أنها قد تخلق الكثير من المقاومة العربيــة وأيضا لأنهم خافوا من أن تتسبب الخطة فى مجىء قوات الاتحاد السوفيتى التابعــة للأمــم المتحدة إلى المنطقة.

(٣٢) Isaac Alteras, Eisenhower and Israel; US-Israeli Relations, 1953-1960 (Gainesville, FL: University of Florida Press, 1993); Abraham Ben-Zvi, Decade of Transition: Eisenhower, Kennedy, and the Origins of the American-Israeli Alliance (New York: Columbia University Press, 1998).
الجدلية الأساسية فى المجلد الأخير هى أن سياسات الولايات المتحدة تغيرت جذريا أثناء فتــرة الرئاسة الثانية لأيزنهاور.

(٣٣) وردت فـــى Audrey R. Kahin and George McT. Kahin, Subversion as Foreign Policy: The Secret Eisenhower and Duties Debacle in Indonesia (New York: New Press, 1995), p. 75.

(٣٤) المصدر السابق ص. ٩٤

(٣٥) المصدر السابق ص. ١٢٤

(٣٦) ظل الطيارون الأمريكيون يقومون بمهام قصف من تايوان حتى يوليو ١٩٥٨.

(٣٧) مذكرة النقاش بمجلس الأمن القومى، ٧ أغسطس ١٩٥٨ فى أرشيف العلاقات الخارجيــة للولايات المتحدة
FRUS, 1958-1960, vol. XIV, p. 20.

(٣٨). Gerhard Th. Molin, Die USA und der Kolonialismus: Amerika als Partner und Nachfolger der belgischen Macht in Afrika 1939-1965 (Berlin: Akademie Verlag, 1996), p. 153.

كان نيماير لاجنا ألمانيا عمل فى هيئة تخطيط السياسات (أصبح معروفا فيما بعد لإحدى الكتيبات واسعة الاستخدام وهى قراءة فى العقلية السوفيتية

An Inquiry into Soviet Mentality [New York: Praeger, 1956]).

(٣٩) انظر *Jonathan E. Helmreich, United States Relations with Belgium and the Congo, 1940-1960 (Newark, DE: University of Delaware Press, 1998), especially pp. 149-172, and also his Gathering Rare Ores: The Diplomacy of Uranium Acquisition, 1943-1954 (Princeron, NJ: Princeton University Press, 1986).*

(٤٠) بونيه *Bonnet* إلى شومان *Schuman* ، ١٨ يوليو ١٩٥٠،

MAE, B-Amerique, Etats-Unis 1944-52, vol. 106

وردت فى

Matthew Connelly, A Diplomatic Revolution: Algeria's Fight for Independence and the Origins of the Post-Cold War Era (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 50.

(٤١) لمراجعة ممتازة حول دمج القوات فى الجيش الأمريكى انظر

Morris J. MacGregor Jr., Integration of the Armed Forces 1940-1965 (Washington, DC: Center of Military History, United States Army, 1985).

الأمر التنفيذى رقم ٩٩٨١ ، الذى وقعه ترومان فى ٢٦ يوليو ١٩٤٨ دمج القوات المسلحة من حيث المبدأ ولكن الأمر استدعى عدة سنوات حتى يتم تنفيذه تماما فى كل الفروع.

(٤٢) الحوار بين بونشه *Bunche* ودى مولينير *de Muelenaere* فى ١٦ نوفمبر ١٩٤٢ ورد فى

Molin, USA und der Kolonialismus, pp. 101-102.

(٤٣) روبرت مكجريجور *Robert McGregor* إلى الولاية ، ١٤ أكتوبر ١٩٤٩،وردت فى

Thomas Borstelmann, Apartheid's Reluctant Uncle: the United States and Southern Africa in the Early Cold War (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 129.

(٤٤) *George McGhee, Envoy to the Middle World: Adventures in Diplomacy (New York: Harper & Row, 1983), pp. 143-144.*

(٤٥) تسجيل الحوار بين أيزنهاور وهرتر فى ٢٤ مارس ١٩٦٠ فى أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة

FRUS, 1958-1960, vol. XIV, pp. 741-742.

(٤٦) تسجيل الحوار بين أيزنهاور ومــاكميلان *Macmillan* ، ٢٨ مــارس ١٩٦٠، المــصدر السابق ص. ٧٤٦.

(٤٧) *NIE 73-60, "The Outlook for South Africa," 19 July 1960, ibid., p. 754*

(٤٨) هاريمان إلى رسك، ١ يوليو ١٩٦٤، فى

FRUS, 1964-1968, vol. XXIV, p. 742.

لمراجعة دعم الولايات المتحدة لحركة فنلا انظر "أنجولا" (لم يُفرج بعد عن العنـوان)" تقريـر مكتب وزارة الخارجية للمخابرات والأبحاث فى ٦ مارس ١٩٦٧، المـصدر الـسابق ص. ٧٧٠-٧٧١.

(٤٩) من الولاية إلى سفارة لشبونة ، ٨ فبراير ١٩٦٨، المصدر السابق ص.٧٨١

(٥٠) *"Special Message to Congress on Foreign Aid," 22 March 1961, Public Papers of the Presidents of the United States (hereafter PPP-US) John F. Kennedy, vol.1,pp.340-343.*

(٥١) باولز *Bowles* إلى كينيدى،
"Report on a Mission to Africa, October 157-November9, 1962," DDRS.

(٥٢) دلز، وردت فى
Mary L. Dudziak, Cold War Civil Rights: Race and the Image of American Democracy (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002), p. 131

(٥٣) مالكوم، خطاب فى بالم جاردنز، نيو يورك ، ٨ أبريل ١٩٦٤، فى
Malcolm X Speaks (New York: Pathfinder Press, 1965), p. 55.

(٥٤) *Connelly, Diplomatic Revolution, p. 253*

(٥٥) *Lumumba, "Speech on Independence Day," 30 June 1960,*

على موقع: *http:// members.lycos.nl/pol/toespraaklum.htm.*

(٥٦) اجتماع مجلس الأمن القومى ، ٥ مايو ١٩٦٠، ورد فى
"Editorial Note" in FRUS, 1958-1960, vol. XIV, p. 274.

حول وجهة النظر غير المقنعة بأن صراعات مجموعات الأعمال حددت سياسة الولايات المتحدة تجاه الكونغو انظر
David N. Gibbs, The Political Economy of Third World Intervention: Mines, Money, and US Policy in the Congo Crisis (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1991), especially pp. 28-33, 193-208.

أفضل الكتابات حول تورط الولايات المتحدة فى الكونغو هو
Lise A. Namikas, "Battleground Africa: The Cold War and the Congo Crisis, 1960-1965," Ph.D. dissertation, University of Southern California, 2002.

(٥٧) تسجيل المحادثة ، مجلس الأمن القومى ، ٢١ يوليو ١٩٦٠ *DDRS*

(٥٨) لومومبا، ورد فى كمينج *Cumming* إلى هرتر *Herter* ، ٢٥ يوليو ١٩٦٠، فى
FRUS, 1958-1960, vol. XIV, p. 356.

حول وجهة النظر السوفيتية بشأن كاتانجا انظر
"Shaba: emoregionalizm i natsionalnaia politika" (Shaba: Ethnoregionalism and National Policy), Vostok, 2 (1993): 47-56.

(٥٩) . وردت فى

Madeleine G. Kalb, The Congo Cables: The Cold War in Africa from Eisenhower to Kennedy (New York: Macmillan, 1982), p. 37.

(٦٠) تسجيل الحوار بين هرتر ولومومبا فى ٢٧ يوليو ١٩٦٠ فى أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة *FRUS, 1958-1960, vol. XIV, pp. 359-366.*

(٦١) مجلس الأمن القومي فى ١ أغسطس ١٩٦٠ المصدر السابق ص. ٤٢٤

(٦٢) دراسة لرؤساء الأركان ، وردت فى اجتماع مجلس الأمن القومى فى ١ أغسطس ١٩٦٠، المصدر السابق ص.٣٧٣

(٦٣) دلز إلى مسئول محطة المخابرات المركزية ، كنشاسا، ٢٦ أغسطس ١٩٦٠، ورد فى

Alleged Assassination Plots Involving Foreign Leader: An Interim Report of the Select Committee to Study Governmental Operations with Respect to Intelligence Activities, United States Senate; Together with Additional, Supplemental, and Separate Views (hereafter Interim Report, US Senate) (New York: Norton, 1976), pp. 15; see also excerpts from minutes of NSC Special Committee, 25 August 1960, ibid., pp. 60-61.

(٦٤) السفارة، ليوبولدفيل (كنشاسا) إلى الدولة،١٨ سبتمبر ١٩٦٠، فــى أرشــيف العلاقــات الخارجية للولايات المتحدة

FRUS, 1958-1960, vol. XIV, p. 494.

(٦٥) التقرير المؤقت، مجلس الشيوخ الأمريكي و

Kalb, Congo Cables, p. xi. حول وجهة النظر البريطانية عن لومومبا انظر

Alan James, Britain and the Congo Crisis (Houndsmills: Macmillan, 1996), pp. 53-63.

(٦٦) *FRUS, 1958-1960, vol. XIV, p. 486*

(٦٧) *Carl Mydans and Shelley Smith Mydans, The Violent Peace (New York: Athenaeum, 1968), p. 313.*

Carl Mydans and Shelley Smith Mydans, The Violent Peace (New York: Athenaeum, 1968), p. 313.

(٦٨) تقرير لجنة تقصى الحقائق التابعة للبرلمان البلــجيكى حول وفاة لومومبا

Chambre des Representants de Belgique, "Enquete Parlementaire visant a determiner les circonstances exactes de l'assassinat de Patrice Lumumba et l'implication eventuelle des responsables politiques belges dans celui-ci."

أعد التقرير بالنيابة عن اللجنة:

Daniel Bacquelaine et al., doc no. 50 0312/006, 16 November 2001. See also Ludo De Witte, The Assasination of Lumumba (London: Verso, 2002).

(٦٩) *FRUS, 1961-1963, vol. XX, pp. 858-863.*

(٧٠) ليوبولدفيل (كنشاسا) إلى الدولة، ٢٥ أكتوبر ١٩٦٣، ورد في
Kalb, Congo Cables, p. 37.

(٧١) تسجيل المحادثة، اجتماع مجلس الأمن القومي حول الكونغو في ١١ أغسطس ١٩٦٤

(٧٢) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون بـاينز جونسون *Lyndon Baines Johnson LBJ* وبول *Ball* ٢٥ نوفمبر ١٩٦٤ خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(٧٣) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون بـاينز جونسون *Lyndon Baines Johnson LBJ* ورسك *Rusk*، ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤ ، ١٢ مساء الشريط رقم ٦٤٨٦ مكتبة الرئيس جونسون
Lyndon Baines Johnson Presidential Library, Austin, Texas (hereafter LBJL).

(٧٤) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون باينز جونسون *Lyndon Baines Johnson LBJ* وولتر روثر *Walter Reuther(UAW President),* ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤ العاشرة صباحا شريط رقم ٦٤٧٤

(٧٥) *Gleijeses, Conflicting Missions, p. 72.* من أجل وجهة النظر السوفيتية ، انظر
Iurii Vinokurov, "Povstancheskoe dvizhenie 1963-1965 gg. v Kongo" (The Rebel Movement of 1963-65 in the Congo), Narody Azii i Afriki, 5 (1981): 102-109.

(٧٦) السفير جودلي إلى الولاية ٣٠ أكتوبر ١٩٦٥ *DDRS*

(٧٧) أحمد بن بيللا، ورد في *Gleijeses, p. 65.*

(٧٨) مالكوم ، خطاب في بالم جاردنز، نيويورك ، ٨ أبريل في ١٩٦٤، في *X Speak.* ص. ٥٥

(٧٩) *Lars Schoultz, Beneath the United States: A History of US Policy Toward Latin America (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 115.*

(٨٠) انظـر *Jürgen Buchenau, In the Shadow of the Giant: The Making of Mexico's Central American Policy, 1876-1930 (Tuscaloosa, AL; University of Alabama Press, 1996).*

(٨١) خطاب سندينو إلى قادة أمريكا اللاتينية ، ٤ أغسطس ١٩٢٨ على موقع
http:// www.latinamericastudies.org/sandino/sandino8-4-28.htm.

(٨٢) المخابرات المركزية ، الأهداف السوفيتية في أمريكـا اللاتينيــة *"ORE 16/1"* الأمريكيـة نوفمبر ١٩٤٧ على موقع *http://www.foia.cia.gov*

(٨٣) المخابرات المركزية، تقدير خاص، "التطورات المحتملة في الموقف العالمي في النــصف الثاني من ١٩٥٣" ٢٤ سبتمبر ١٩٥١، على موقع *http://www.foia.cia.gov*

(٨٤) المخابرات المركزية، تقرير معلوماتي، "التوجه الـسياسي الشخـصي للـرئيس أربنــز/ واحتمالية انقلاب يساري" سبتمبر ١٩٥٢ على موقع *http://www.foia.cia.gov*

٨٥ أربنز، ورد في:

Gleijeses, Conflicting Missions, p. 150،

للمزيد حول سياسة أربنز الزراعية انظر المصدر السابق ص.١٤٩-١٧٠. و

Douglas W. Trefzger, "Guatemala's 1952 Agrarian Reform Law: A Critical Reassessment," International Social Science Review, 77.1-2 (2002): 32-46.

(٨٦) المخابرات المركزية، تقرير حول الموقف في جواتيمالا وعلاقته بالأمن في نصف الكرة الأرضية، ٣ مارس ١٩٥٣، ومذكرة حول مدير المخابرات المركزية "مؤشرات التورط السوفيتي في شحنات ALFHEM؛ واحتمالية وجود شحنات أخرى" ٢٠ مايو ١٩٥٤ على موقع http:// www.foia.cia.gov.

(٨٧) Nick Cullather, Secret History; The CIA's Classified Account of its Operations in Guatemala, 1952-1954 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1999), p. 69.

(٨٨) المصدر السابق ص.٦٢-٦٣

(٨٩) انظر

Russ Olson, "You Can't Spit on a Foreign Policy," SHAFR Newsletter (September 2000)

(٩٠) "Che" Guevara, Back on the Road: A Journey to Central America (London:Vintage, 2002), p. 67.

(٩١) Cullather, Secret History, p. 110.

٩٢ تسجيل المحادثة بين أليكسز جونسون ومكجورج بندى McGeorge Bundy وآخرين، ٢٨ مارس ١٩٦٤، الموضوع: البرازيل.

(٩٣) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون ونائب وزير الخارجية جورج بول George Ball ومساعد وزير الخارجية توماس مان Thomas Mann، ٣١ مارس ١٩٦٤، ٢:٣٨ مساءا شريط رقم ٢٧١٨

(٩٤) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون باينز جونسون ومان في ٣ أبريل ١٩٦٤، ١٢:٠٦ مساء شريط رقم ٢٨٤٣، مكتبة الرئيس جونسون؛ تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون باينز جونسون و McGeorge Bundy، ١٤ أبريل ١٩٦٤، ١٢:٥٠ مساء، شريط رقم ٣٠٢٥، مكتبة الرئيس جونسون. في لقاء مع الرئيس في الأول من أبريل علق الوزير مكنمارا على وضع القوات: لقد أبحرت هذا الصباح وستكون بالقرب من سانتوس في الحادى عشر من أبريل. لقد تجمع الجيش والذخيرة لكي يتم النقل جوا في نيو جيرسي وسوف يستغرق النقل ١٦ ساعة من وقت اتخاذ القرار. فيما يتعلق بالبترول والزيت وشحوم التزليق، فإن الناقلة البحرية الأولى القادمة من منطقة أوروبا، ستكون في المكان في ١٠ أو ١١ أبريل. هناك أيضا حاوية نرويجية تابعة لشركة إيسو جنوب الأطلنطي تحمل

الجازولين الضرورى للمحركات والطيران. وهى متوجهة إلى بيونس أيرس وسوف تصل إلى هناك فى الخامس أو السادس من أبريل". تسجيل المحادثة، الأول من أبريل ١٩٦٤، فى العلاقات الخارجية للولايات المتحدة ، ١٩٦٤-١٩٦٨ *vol. XXXI*. وقد استدعيت قوة المهام فى ٣ أبريل عندما اتضح أن الانقلاب قد نجح.

(٩٥) السفارة ، ريو دى جانيرو إلى وزير الخارجية ، ١٠ يونيو ١٩٦٤ خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*. حول العلاقات الأمريكية البرازيلية حتى الانقلاب انظر:

Michael W. Weis, "The Twilight of Pan-Americanism: The Alliance for Progress, Neo-Colonialism, and Non-Alignment in Brazil, 1961-1964," International History Review, 23. 2 (2001): 322-344..

ومن الجانب البرازيلى انظر:

Visoes do goipe: a memoria militar sobre 1964 (Visions of a Coup: On Military Memories of 1964),

تقديم وتنقيح:

Maria Celina D'Araujo, Glaucio Ary Dillon Scares, and Celso Castro (Rio de Janeiro: Relume-Dumara, 1994).

(٩٦) المخابرات المركزية، "سياسات كاستيلو برانكو فى البرازيل: الإنجازات والصراعات الكبرى" ٣١ ديسمبر ١٩٦٤، خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(٩٧) *Dwight H. Perkins et al.. Economics of Development (New York: Norton, 2001), p.121.*

(٩٨) البرازيل العاصمة إلى وزارة الخارجية ، ٢٥ سبتمبر ١٩٦٤ خدمة المراجع الوثائقية

(٩٩) مونت فيدو إلى وزارة الخارجية ، ٢٧ يوليو ١٩٦٥ خدمة المراجع الوثائقية

(١٠٠) المخابرات المركزية، برقية معلومات مخابراتية ، ٢٦ أبريل ١٩٦٥، خدمة المراجع الوثائقية.

(١٠١) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون ومانسفيلد، ٣٠ أبريل ١٩٦٥ ، ١١:٥١ صباحا شريط رقم ٧٤١٠، مكتبة الرئيس جونسون . وفقا للرئيس جونسون فإن الأدميرال رابوم [مدير المخابرات المركزية] قال إن كاسترو يسيطر".

(١٠٢) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون وفورتاس ومكنمارا، ٣٠ أبريل ١٩٦٥ ، ١٠:٥٠ صباحا شريط رقم ٦٥٠٤ مكتبة الرئيس جونسون

(١٠٣) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون وماك جورج بندى، ١ مايو ١٩٦٥ ، ٢:٢١ مساء شريط رقم ٧٥٠٦ مكتبة الرئيس جونسون

(١٠٤) تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون وفورتاس ، ١٦ مايو ١٩٦٥ ، ١٢:٣٠ مساء شريط رقم ٦٥٠٥ مكتبة الرئيس جونسون

(١٠٥). *Clara Nieto, Masters of War: Latin America and United States Aggression/win the Cuban Revolution through the Clinton Years (New York: Seven Stories Press, 2003), p. 101.*

(١٠٦) السفارة ، باريس إلى وزارة الخارجية ، ٤ مايو ١٩٦٥ خدمة المراجع الوثائقية

(١٠٧) كان بعض من مستشارى جونسون المهمين يعتقدون أن الرئيس كان عليه أن يكون أكثر حذرا عند إلقاء اللوم على كاسترو في مسألة القلاقل في جمهورية الدومينيك. في ذروة الأزمة أخبر وزير الدفاع مكنمارا الرئيس جونسون "أعتقد أن مهمتك ستكون صعبة لكى تثبت ذلك سيدى الرئيس. قد نقول نحن أشياء كهذه ولكن لا يتعين علينا أن نثبتها ... أنت لست على يقين من أن كاسترو يحاول أن يفعل أى شيء. ستواجه وقتا صعبا أن تحاول أن تثبت لأى مجموعة أن كاسترو فعل أكثر من تدريب هؤلاء الناس. نحن قد دربنا أناسا كثر. وهو قد درب أناسا كثر. أعتقد أن ذلك يضع مكانتك وسمعتك على المحك..[غير واضح] تظهر أى دليل على أن كاسترو كان يقوم بتوجيه أو لديه أى سلطة على هؤلاء الناس عندما عادوا إلى هناك". تسجيل المحادثة التليفونية بين ليندون جونسون ومكنمارا،٣٠ أبريل ١٩٦٥ ، ٥:٠٥ صباحا شريط رقم ٦٥٠٤ مكتبة الرئيس جونسون.

(١٠٨) كومر إلى بندى، ٧ يوليو ١٩٦٥، خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(١٠٩) انظر مثلا

Kevin H. O'Rourke and Jeffrey G. Williamson, Globalization and History: The Evolution of a Nineteenth-Century Atlantic Economy (Cambridge, MA: MIT Press, 1999).

(١١٠) *Kunibert Rafter and H.W. Singer, The Economic North-South Divide: Six Decades of Unequal Development (Northampton, MA: Edward Elgar, 2001), p. 25.* إن التجارة العالمية لها مدلولات مختلفة لدى دول العالم الثالث المختلفة؛ فبينما متوسط ما بعد الحرب لإثيوبيا بلغ ١٣% فإنه قد بلغ ٤٨% لنيجيريا.

(١١١) بينما بلغ نمو الإنتاج الصناعى ٣,٩ % فى المتوسط سنويا فى الفترة من ١٩٦٣ إلى ١٩٨٦، بلغ نمو استهلاك المواد الخام ١,٥%

.(Perkins et al.. Economics of Development, p. 635).

(١١٢) الوكالة الأمريكية للتنمية العالمية *USAID* قروض الولايات المتحدة ومنحها ومساعداتها من المنظمات العالمية: الالتزامات وتراخيص القروض، الأول من يوليو، ١٩٤٥ حتى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١ على موقع *www.dec.org/pdf.docs/PNACR900.pdf*

(١١٣) رسالة خاصة إلى الكونجرس عن المساعدات الخارجية ، ٢٢ مارس ١٩٦١،

PPP-US, John F. Kennedy, vol. 1, pp. 204-206.

Lizette Alvarez, "Lifting History's Curtain: Nixon Considered Seizing Oil Fields in (١١٤)
'73," International Herald Tribune, 2 January 2004.

الفصل الخامس

التحديات الكوبية والفيتنامية

اعتمدت حركة مواجهة الحرب الباردة فى الستينيات والسبعينيات على سياسات الدول الثورية الجديدة إلى حد كبير. ولم تقم كل من كوبا وفيتنام بتحدى واشنطن فحسب دفاعًا عن ثورتيها، وإنما تحدتا المنهج الذى أرساه الاتحاد السوفيتى لتطوير الاشتراكية وللتدخلات الشيوعية بالخارج. وفى شنهما التحدى للحرب الباردة أثناء تطورها حتى الستينيات، قدمت الدولتان النموذج والإلهام للكثير من الدول والحركات اليسارية فى العالم الثالث (ولبعض المجموعات فى أوروبا وأمريكا). وكما يحدث دائمًا فى التاريخ، كان ذلك الإلهام- فى معظم الحالات- غير مباشر أكثر منه مباشرًا، وأحيانًا كان يقوم على معرفة سطحية للغاية بالثورتين الكوبية والفيتنامية، وهو ما يمكن تسميته- فى أفضل الأحوال - سوء الفهم الخلاق. بيد أن أكثر ما كان يهم حركات العالم الثالث التى رفعت راية تشى جيفارا أو هو شى منه، هو أن نموذج هاتين الثورتين أعطى رخصة للقيام بالفعل فى حد ذاته، رغم الهيمنة العسكرية الأمريكية أو العقيدة السياسية السوفيتية.

كان التحدى الكوبى والفيتنامى للحرب الباردة سيصبح مستحيلا لو لا الشقاق الصينى- السوفيتى فى الحركة الشيوعية العالمية فى أوائل الستينيات. وكون أن ماوتسى تونج - وكان هو نفسه مولعًا بالإشارة إلى أنه رئيس دولة من دول العالم الثالث- يستطيع أن يتحدث عن النظرية الماركسية اللينينية بسلطة كان ينكرها على السوفيت، فإن ذلك أعطى للماركسيين فى كل مكان آخر مساحة أكبر للمناورة.

ادعاء ماو أنه ينتقد موسكو من موقع *اليسار*، كان مفيدًا لثورات العالم الثالث على نحو خاص– حتى وإن كان القليل منها فقط كان يريد تبني الأنماط الصينية للتنمية أو يتبع شذوذ السياسة الخارجية الصينية– لأن ذلك يعني أنهم هم أيضًا قد وجدوا أساليب للإسراع بالبناء الاشتراكي. فتح الانفصال الصيني– السوفيتي فرصًا كبرى ومخاطر كبرى للأحزاب الشيوعية في العالم الثالث؛ فقد جعل من السهل الوقيعة بين معقليّ الشيوعية والحصول على الدعم من كليهما، لكنه كان يعني أيضًا الشقاق الداخلي في العديد من الأحزاب، مما قلص من شأنها إلى درجة عدم الأهمية السياسية (إن لم يكن الطفولة السياسية).

بالنسبة للاتحاد السوفيتي، كان الشقاق الصيني– السوفيتي وزيادة النشاط الكوبي والفيتنامي خارج حدود الدولتين يعني أن سياسته تجاه العالم الثالث قد وقعت تحت ضغط متزايد، في اللحظة نفسها التي فتح فيها الاستقلال فرصًا لتقدم الاشتراكية خارج أوروبا. وبالنسبة لخروشوف وللثلاثي بريجنيف **Brezhnev** وكوسيجين ***Kosygin*** وبودجورني ***Podgornyi*** الذين خلفوه في ١٩٦٤، كانت هناك ثلاثة أمور تحكم فكرهم عن العالم الثالث في الستينيات؛ فقد كانت تتملكهم فكرة الصراع مع الصين (وبعد ١٩٦٦ تملكتهم أيضًا فكرة تهديد الصين للأمن السوفيتي). بدأوا إعادة تقييم بطيئة ولكنها إيجابية لوجهات نظر الحزب عن مدى ثقل الثورة الاشتراكية في العالم الثالث؛ وقد تأثروا – وتضايقوا بالقدر نفسه، كما بدا من وثائقهم – بالرغبة الكوبية والفيتنامية في مواجهة الولايات المتحدة. وأدى ذلك إلى فترة طويلة من عدم اليقين في السياسة السوفيتية تجاه العالم الثالث – فترة من التورط الخفيف فيما بين ١٩٥٨ و١٩٦٢، تبعتها فترة من الشكوك والإحباطات حتى نهاية الستينيات، ثم نشاط متجدد بدءًا من ١٩٧٠ فصاعدًا.

أما السياسة الأمريكية تجاه العالم الثالث فقد أظهرت ثباتًا وتماسكًا أكثر، حتى وإن وقعت فى ظل الحرب الفيتنامية. ومن دواعى السخرية أنه مع تورط الولايات المتحدة عسكريًا فى الحرب الأهلية الفيتنامية من ١٩٦٤ وما بعدها، زال بعض الشعور بالخطر المباشر، الذى كان يقترب إلى حد الهيستريا، من النمو فى العالم الثالث، الذى كان موجودًا فى أواخر عهد إدارتى أيزنهاور وكينيدى. وكان السبب الرئيسى فى هذا الانخفاض فى النبرة هو الأحداث السياسية فى العالم الثالث فى منتصف الستينيات، التى رسمت طريقًا بعيدًا عن التحالفات الخطيرة مع الاتحاد السوفيتى. فالانقلابات العسكرية فى الكونغو وإندونيسيا والجزائر وغانا – وكلها دول رئيسية فى المعركة على العالم الثالث – بدت وكأنها تأخذ تلك الدول بعيدًا عن الأحضان السوفيتية نحو شكل من أشكال الانخراط مع الولايات المتحدة (وإن تنوعت هذه الأشكال بين الدعم الكامل للدكتاتوريات الإندونيسية والغانية والكونغولية، وبين السياسة الأكثر اعتدالا، وإن ظلت اشتراكية، للمجلس السياسى الجزائرى بقيادة وزير الدفاع السابق فى حكومة بن بيللا، هوارى بومدين *Houari Boumedienne*). الشىء الأهم بالنسبة لإدارة جونسون أن تلك "الانتصارات" أتت دون تدخلات أمريكية سرية أو علنية واسعة النطاق – وكانت روشتة النجاح عمليات صغيرة تقودها المخابرات المركزية مقترنة بالكثير من الصبر، باستثناء، طبعا الدول التى كان للاتحاد السوفيتى أو الصين القدرة العملية على التدخل المباشر لدعم حلفائها فيها – كما حدث فى فيتنام.

نجاحات منتصف الستينيات لم تضاهها نجاحات أواخر العقد، فالشعور بالإنجاز والقدرة الذى أصاب بعض مستشارى جونسون بعد الانقلابات المعادية للشيوعية (الذى كانت له آثار تدميرية فى فيتنام)، لم يتوقف مع زيادة حركات التمرد فى كل مكان آخر. وكما قال وزير الدفاع روبرت س. مكنمارا *Robert S. MacNamara* "سرعان ما بدا الموقف خارجًا عن السيطرة" – فقد كان

لدى واشنطن شعور بضرورة الحفاظ على الموقف وليس إحراز تقدم. ومما لا شك فيه أن معظم هذا الشعور كان يرجع إلى الكابوس الأمريكى الطويل فى فيتنام، وهو الكابوس الذى استيقظ منه أناس مثل مكنمارا فقط فى آخر عهد جونسون. أصبح الخوف من "فيتنامات" أخرى تحدث فى أماكن أخرى من العالم الثالث يتملك أمريكا – وأصبحت تبتعد عن الكثير من الأنشطة السياسية فى العالم الثالث بسبب حربها فى فيتنام، وقد تسبب الهاجس الأمريكى عن الهند الصينية فى أن تحْجِم الإدارة عن مبادراتها لمحو الفقر ومراجعة شروط التجارة بالنسبة للعالم الثالث. فى العالم الثالث – كما فى الداخل – كانت الخيارات السياسية لإدارة جونسون، هى ما جعلها تقترن بالحرب والقهر أكثر منها بالإصلاح الاجتماعى الذى حاول الرئيس باستماتة أن يقوم به.

الشقاق الصينى- السوفيتى والعالم الثالث

كان الشقاق الصينى- السوفيتى يعنى بالنسبة لنيكيتا خروشوف والقيادة السوفيتية بداية جديدة فى السياسات تجاه العالم الثالث. وفى حين ظل القادة فى موسكو يأملون، على الأقل حتى انتشار ثورة ماو الثقافية فى ١٩٦٦، أن تتحد الدولتان من جديد فى شكل تحالف ما، فإنهم كانوا يشعرون أيضا بالتحرر من الاضطرار للانسياق وراء الصين عند وضع أى مبادرة. لكن ما حيرهم كان هو *أسباب* الشقاق – فقد أكد خروشوف لماو مرارًا وتكرارًا أن المناورات السوفيتية من أجل التهدئة مع الولايات المتحدة كانت محاولات تكتيكية ولا تعنى إهمالا لصراع الطبقات على الصعيد العالمى؛ وساق الزعيم السوفيتى زيادة النشاطات السوفيتية فى العالم الثالث دليلا – وقال إن هدف الكتلة السوفيتية من الانخراط مع الأحزاب الثورية ومع الأنظمة اليسارية، كان الحد من المكانة الأمريكية فى أفريقيا

وآسيا وأمريكا اللاتينية، مع المحافظة على أسلوب التهدئة فى العلاقات الثنائية وفى الشئون الأوروبية.

واشتكى خروشوف من أن ليس كل قادة العالم الثالث يفهمون المعانى التكتيكية للتهدئة. وذكر للجنة المركزية حوارًا دار بينه وبين الزعيم الكوبى فيديل كاسترو فى ١٩٦٣:

> **إنه غاضب. يقول: إنهم [الأمريكيين] أوساخ. قلت له: إنهم ليسوا أوساخًا، إنهم رأسماليون، إنهم ينفذون سياسة خاصة بطبقتهم. يقول: إنهم يرسلون إلينا [ثورات مضادة]. قلت له: ماذا تتوقع منهم أن يرسلوا لك؟ هدايا؟ ...عندما وُلدنا أرسلوا أيضًا [قوات] معادية لنا... ولكن لو نظرنا من الاتجاه الآخر، فيما بيننا، لو وجدنا ما يمكننا إرساله، لو أن هناك ثقبًا فى مكان ما، فسوف ندخل فيه أيضًا. هذا هو التعايش السلمى (١).**

بالنسبة للسوفيت كانت الاعتراضات الصينية العنيفة والشعبية على هذه السياسة – بخصوص التهدئة وبخصوص الارتباط مع أنظمة يسارية غير شيوعية – كانت تشهد على إهمال بكين للماركسية وموقفها "القومى المتعصب"، خاصة فيما يتعلق بالنقد لموسكو – وعلاقات الصداقة مع الهند. تدريجيًا، فى أوائل الستينيات، أصبح السوفيت مقتنعين بأن الهدف الحقيقى لماو هو أن يحل محل الاتحاد السوفيتى كأكبر قوة شيوعية عالمية، وأن طريقها إلى ذلك يمر من خلال علاقاتها مع العالم الثالث.

كان السوفيت على صواب وعلى خطأ في الوقت نفسه، تأكيدهم أن القومية الصينية كانت هي سبب الشقاق. وكما تُظهر الوثائق الصينية الموجودة اليوم، كان الهدف الأساسي لماو من إنهاء شكل التحالف الذي كان موجودًا في الخمسينيات، هو إعادة السيطرة الكاملة للصين على سياساتها. لكن تركيز الرئيس كان على التنمية الداخلية وليس على السياسة الخارجية. حقًا، كان ماو يرغب في معارضة الولايات المتحدة في الشئون الخارجية أكثر مما كان يريد الاتحاد السوفيتي، على الأقل بالكلمات. ولكن أهم ما كان يشغله هو الاتجاه الذي كانت الثورة الصينية تتخذه منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية وبداية التحالف الصيني- السوفيتي في ١٩٤٩-١٩٥٠. واكتشف صدعًا بداخل حزبه حول كيفية تنظيم المجتمع الصيني، حيث كان للبيروقراطيين والمخططين، وليس المبادرة الثورية لدى الشعب، اليد العليا. وعلى نحو متزايد، في أواخر الخمسينيات، بدأ رئيس الحزب الشيوعي الصيني يندم على محاكاة الصين للأنماط السوفيتية، لأن ذلك لم يسمح لها بالتقدم نحو الاشتراكية، وأخيرًا نحو الشيوعية، بالسرعة الكافية. وعندما انتهت أداته للاستغناء عن التخطيط المركزي والاعتماد على الفعل الجماهيري للشعب – ما كان يسمى "القفزة الكبرى للأمام" – انتهت إلى الفشل في ١٩٥٩، شك ماو في أن يكون بعض رفاقه في الحزب قد منعوا الشعب (ومنعوه هو شخصيًا) عن عمد، وأن الاتحاد السوفيتي يدعم معارضيه. كانت الأسباب الرئيسية للانفصال لدى الجانب الصيني "وطنية"، ولكنها كانت داخلية بالأساس وليست عالمية، وكانت مرتبطة تحديدًا بشكل الماركسية الخاص بماو.

ومع وضوح الشقاق تمامًا بعد المواجهة بين الوفدين السوفيتي والصيني في اجتماع الحزب الروماني، وما تلا ذلك من انسحاب معظم المستشارين السوفيت من الصين في صيف عام ١٩٦٠، بدأ كلا الجانبين يبحث عن حلفاء في داخل الحركة الشيوعية العالمية. واعتقد الصينيون أنه من غير الطبيعي ألا تدعم الأحزاب

الشيوعية الأوروبية – باستثناء ألبانيا – وجهات نظرها، وبالتالى ركزوا جل جهودهم فى الدعاية على العالم الثالث. وكانت وجهة نظر ماو هى أن المجتمع السوفيتى تحت حكم خروشوف كان يمر بثورة مضادة حيث سيصبح تدريجيًا أشبه بالدول الإمـــبريالية الغربية، متخليًا عن جذوره اللينينية والستالينية. كان ماو فى الواقع يُسقِط مخاوفه حول الصين على جارتها الشمالية، وقد بدأ أيضًا فى الستينيات يرى أن السوفيت يعودون إلى دولة ما قبل الثورة، حيث تقاربهم *الثقافى* مع الغرب يحدد مواقفهم السياسية العالمية. فالسوفيت جزء من الثقافة الغربية المتمركزة حول الذات المعجبة بنفسها، بينما تحارب الصين الثورية ضد الإمـــبريالية، بمساعدة دول العالم الثالث الأخرى. ما سمى بـــ"نظرية العوالم الثلاث" – وهى تختلف عن موضوع ستالين، وضعها ماو فى ١٩٦٤– وضعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى العالم الأول كقوتين عظميين مهيمنتين، بينما تمثل الدول الصناعية الأخرى، حيث تمارس القوتان العظميان هيمنتهما على العالم الثانى. أما الصين والدول الفقيرة في الجنوب فتمثل العالم الثالث، وهى التى تقوم بالثورة ضد القوى العظمى وسوف تصبح المركز المستقبلى للتطورات العالمية(٢).

فيما بين ١٩٦٠ و١٩٦٦ – حين كان نشاط الصين فى العالم الثالث فى ذروته – كان يبدو أن الشيوعيين الصينيين ماضون قدمًا فى حملتهم لربط أحزاب ودول أخرى بقضيتهم. وكان تعريف ماو للعالم الثالث بأنه البروليتاريا العالمية المتحدة ضد الإمبريالية، الذى يُعيد للأذهان مواقف سلطان جاليــف فى العشرينيات – جذابًا للكثير من شيوعيى العالم الثالث ويسارييه. كانت استراتيــجية التعبئة الجماهيرية، والإصرار على القوى الخلاقة لدى "الشعوب" التى تستطيع أن تعوض نقص التكنولوجيا من خلال الجهد والعمل، والطوعية الكاملة لدى ماو، واستحضار الشيوعية من المستقبل البعيد إلى المكان والزمان الحالى، كانت كلها عوامل جذب

بوصفها نموذج تطور عام لكل من الماركسيين والثوريين المحليين. وكان فكر ماو بالنسبة لبعض الراديكاليين الذين قابلناهم في الفصل الثالث يبدو وكأنه تطبيق للاشتراكية في العالم الثالث. وكما قال رئيس الحزب الشيوعي الإندونيسي أيدت *Aidit* في يناير ١٩٦٤، "تلك الدول التي تحاول أن تبني الشيوعية، مع وجود الإمبريالية في العالم، سوف تصبح "قططا ثرية سمينة" علي حساب الدول المتخلفة، وسوف تفقد روحها الثورية.... عليك فقط أن تنظر إلى الاتحاد السوفيتي حيث تم بناء مستوى أعلى للمعيشة، وسوف تجد أن السوفيت قد فقدوا حماستهم الثورية"[٣].

جاءت أشد فترات التنافس بين الصينيين والسوفيت على العالم الثالث عندما انهار التحالف الصيني السوفيتي في النهاية، أثناء سلسلة من المحادثات الفاشلة في موسكو في صيف ١٩٦٣. في لقاءات موسكو قام دنج زياوبنج - المتحدث الرسمي الصيني- باتهام السوفيت بالهجوم على الصين بأسلوب "شديد الحدة، شديد التطرف، شديد التنظيم وعلى نطاق واسع، محاولين سحق الآخرين.... واستخدام هذه الأساليب هو أمر معتاد بالنسبة لكم"[٤]. وساعدت الزيارات الخارجية للرئيس الصيني ليو شاوكي *Liu Shaoqi* ورئيس الوزراء شو إن لاي *Zhou Enlai*، اللذين زارا عشرين دولة من دول العالم الثالث في ١٩٦٣ بما فيها الأنظمة الأصولية المحلية في إندونيسيا وبورما ومصر والجزائر وغانا، ساعدت تلك الزيارات على جعل الصين تنطلق انطلاقة جديدة في العالم الثالث. بدأت بكين منح قروض زهيدة وإرسال مستشارين للخارج، بما في ذلك خبراء عسكريين، على نطاق أوسع من ذي قبل. كان النموذج الأبرز هو قيام الصين بتمويل - وجزئيًا ببناء - خطوط سكك حديدية جديدة تربط بين زامبيا والساحل التانزاني. وفي فيتنام وإندونيسيا، كما سنرى، أصبحت الصين الحليف العالمي الأقرب لأحزابهما الشيوعية.

ولكن بينما كانت بكين تتقدم فى حملتها لتحل محل الاتحاد السوفيتى بصفتها محركا أول للاشتراكية في العالم الثالث، كانت قد بدأت العمل بالفعل فى وجود الكثير من العوائق، بعضها كان يتزايد مع الزمن. فقد اشتد الصراع الحدودى بينها وبين الهند، الذى بدأ بمناوشات فى ١٩٥٩، وتصاعد إلى حرب قصيرة بين الدولتين فى ١٩٦٢، أضر بادعاءات الصين أنها زعيمة العالم الثالث. صحيح أن كثيرين من سياسيى العالم الثالث كانوا يكرهون غرور نهرو، ولكن أهداف الصين وسلوكها اعتُبِر ضيق أفق وإمعان فى القومية. غير أن المشكلات الحقيقية فى سياسة الصين تجاه العالم الثالث كانت أعمق من صراعها مع الهند، فقليل جدًا من زعماء الصين امتلكوا الخبرة فى العمل مع الأجانب، وكانت مراجعهم هى خبراتهم الشخصية وأيديولوچيتهم، كما هو الحال مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. أخذت بداية الثورة الثقافية - المحاولة الأخيرة لماو أن يضع الصين على طريق الحداثة الاشتراكية التى تصور أنها أعظم ما يورّثه لها - أخذت المركزية الصينية إلى أبعاد جديدة، مع الإصرار على أن دول العالم الثالث الأخرى كان عليها أن تتعلم من الماوية لو أرادت النجاح. وفى نهاية ١٩٦٦، كان الكثير من الدول والأحزاب والحركات قد حصل على الكثير من الوعظ الصينى وما اعتبرته تدخلا غير مبرر فى شئونها.

كانت الثورة الثقافية تعنى أيضًا أن تنغلق الصين على نفسها أكثر وأكثر. وكان مبعوثا ماو الناجحان بشدة هما ليو شواكى وشو إن لاى، وكان ليو يطارد حتى الموت، أما شو فكان يلعب الدور الحزين بوصفه متحدثًا باسم سياسة ديماجوجية هدامة للذات يبغضها بشدة. فى ١٩٦٧ كانت السياسة الخارجية الصينية قد انتهت بكل المقاييس العملية، مع احتلال الحرس الأحمر لوزارة الخارجية ونهبها واستدعاء معظم السفراء إلى بكين للتربية السياسية. تم الهجوم على السفارة البريطانية، وحاصر الشباب الماوي السفارة السوفيتية عدة أشهر. وتراجع حتى

أقرب حلفاء الصين. وصف زعيم كوريا الشمالية كيم إيل سونج ***Kim Il Sung*** الثورة الثقافية بأنها "جنون لا يصدق". ومن جانبه أدان الحرس الأحمر الماوى كوريا الشمالية باعتبارها تعديلية[٥]. فى خطاب ألقاه كيم إيل أمام اجتماع للحزب الكورى فى الخامس من أكتوبر ١٩٦٦ أشار إلى بكين قائلا "من الخطأ الصياح ضد الإمبريالية الأمريكية دون اتخاذ خطوات ملموسة لوقف عدوان الإمبريالية الأمريكية. لا ينبغى للمرء أن يسبب صعوبات للقوى المعادية للإمبريالية التى تأخذ خطوات عملية لضربها، اتحادا مع المعتدين الإمبرياليين"[٦]. وكان الإصرار الصينى على عدم التعاون مع الاتحاد السوفيتى بأى طريقة، ولا حتى تسهيل المساعدات إلى فيتنام، كافيا بالنسبة لكيم لكى يعوق علاقته الطويلة مع بكين.

بالنسبة للسوفيت لم يسبب انهيار التحالف مع الصين تدميرًا للاتفاق المعادى للولايات المتحدة الذى وضعاه معًا بالكثير من الجهد والأمل فى الخمسينيات فحسب، فقد كان التحدى المتزايد الذى تمثله الصين أولوية دبلوماسية دولية بالنسبة للاتحاد السوفيتى، وأصبح يمثل منذ منتصف الستينيات فصاعدًا – تهديدًا أمنيًا. فى مايو ١٩٦٣، أثناء التحضير لمحادثات موسكو الفاشلة أرسل السفير السوفيتى إلى الصين تشرفوننكو ***Chervonenko*** تقريرًا طويلا إلى ميخائيل سوسلوف ***Mikhail Suslov***، عضو المكتب السياسى ورئيس المجموعة المعنية بالعلاقات مع الصين. فى ذلك التقرير أوضح السفير أنه "لم يعد ثمة شك ... أن السياسة الحالية للقيادة الصينية تؤدى إلى الحد من وحدة الأحزاب الشقيقة... كانت الطموحات الطليعية للقيادة الصينية، التى تطورت على أرض قومية هان العظمى ***Great Han*** [تهدف إلى] زعامة العالم [من خلال] تدمير الحركة الشيوعية العالمية، وتعريض الحزب الشيوعى السوفيتى للخطر". وقد أشار تشرفوننكو تحديدًا إلى هدف بكين أن "يكون لها تأثير سياسى لا يضاهى فى آسيا وأفريقيا"، لكنه اهتم أيضًا بأن الصين قد تزعزع استقرار السيطرة السوفيتية فى أوروبا الشرقية وفى الأحزاب الشيوعية فى

أوروبا الغربية. ما سجله السفير وأخذه عنه سوسلوف باهتمام شديد لم يكن تدمير الصين للمكانة السوفيتية في العالم فحسب، وإنما أن هجوم الصين سيكون له فرص كبيرة للنجاح، على الأقل في العالم الثالث(٧).

في أواخر ١٩٦٣ كانت وزارة الخارجية السوفيتية تنقل تقارير عن حملة صينية كبيرة ومنظمة لدفع العالم الثالث بعيدًا عن التعاون مع الاتحاد السوفيتي في أي مجال، زاعمة – ضمن اتهامات أخرى – أن "الروس" أوروبيون، وأن شعوب العالم الثالث عليها أن تتكاتف معًا ضد التأثير الأوروبي. حتى حلفاء الاتحاد السوفيتي القدامى كان يُخشى من تواطئهم – فبدا لموسكو أن كوريا الشمالية كانت تقف في المعسكر الصيني بدءًا من أواخر ١٩٦٢، أما فيتنام الشمالية فبدت كذلك أيضا منذ خريف ١٩٦٣. ووفقًا لتقرير سرى للغاية من وزارة الخارجية السوفيتية، فإن الصنيين "لم يدخروا وقتًا أو مالا ولم يتورعوا عن استخدام أكثر الأساليب وضاعة – من ابتزاز ونفاق ورشوة [بينما] تستخدم في الوقت نفسه المنشقين والخونة"(٨). واشتكت السفارة السوفيتية في الجزائر من "أطنان الأدب الدعائي" المستورد من الصين، وانتقدت افتقار موسكو إلى "الإجراءات الملائمة المناهضة لذلك"(٩). وسجلت السفارة السوفيتية في بوروندى باهتمام أن الملكة قد استلمت سرًا ستين ألف دولار من النواب الصينيين(١٠). ومن بورت لويس، حكى مندوب السفارة المنوط بأعمال الحزب الشيوعي السوفيتي بخوف شديد كيف حاول الصينيون رشوة رئيس الحزب الشيوعي في موريشيوس ليدعم الحزب الشيوعي الصيني في المحافل الدولية(١١). وفي ١٩٦٥ كان جزء كبير من جهود الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث موجهًا لمكافحة الإجراءات الصينية حتى في أصغر الدول وأبعدها من أجل مصالح موسكو.

وبعد أن دمرت السياسة الخارجية الصينية نفسها مع بداية الثورة الثقافية، ازدادت المخاوف الأمنية السوفيتية، حتى مع تلاشي الخوف تدريجيًا من أن تسيطر الصين على العالم الثالث. في ١٩٦٧ أخبر رئيس الوزراء السوفيتي، كوسيجين، الزعيمين الأمريكي والبريطاني أنه كان يعتبر الصينيين، وليس الغرب، أكبر تهديد للسلام العالمي. وقال لنظيره البريطاني هارولد ويلسون ***Harold Wilson*** "تخيل لو أن [الصينيين] حرموا أنفسهم كل شيء وكرسوا أنفسهم للتسلح، لبناء قواتهم المسلحة، فسوف يكونون قوة كبرى"(١٢). ويروي الرئيس جونسون أنه أثناء اجتماع القمة في جلاسبورو أبدى كوسيجين "هوسًا بشأن الصين وقال إن علينا أن نفهم أنهم شعب خطر للغاية"(١٣). وكانت قضية الحدود الصينية السوفيتية، التي تعمد ماوتسي تونج استخدامها ليزيد التوتر مع السوفيت قبل الثورة الثقافية، أخطر قضايا السياسة الخارجية وأشدها تخويفًا لموسكو. قال ماو في تصريحات لوفد زائر من الاشتراكيين اليابانيين في ١٩٦٤ إنه "منذ نحو مائة عام أصبحت المنطقة شرق البيكال أرضًا روسية، ومنذ ذلك الحين أصبحت فلاديفوستوك ***Vladivostok*** وخاباروفسك ***Khabarovsk*** وكامشاتكا ***Kamchatka*** وغيرها أراضٍ سوفيتية، ولم نقدم حتى الآن فاتورة الحساب على هذه القائمة"(١٤).

كانت المأساة المزدوجة للانشقاق عن الصين بالنسبة للسوفيت هي أنه بدأ في وقت كانت موسكو تعتقد أن الموقف العالمي قد تحول فيه إلى مصلحتها على نحو قاطع. في داخل الاتحاد السوفيتي نفسه، خلق تفكيك الستالينية والتقدم التكنولوجي الملحوظ في أواخر الخمسينيات حماسة متجددة لخدمة المرء لشعبه، ولفكرة الاشتراكية، على الأقل في بعض المناطق. وبدت المرارة الشديدة لأواخر الحقبة الستالينية ونزاعات فترة ما بعد ستالين على الزعامة تختفي؛ فقد بدأت مستويات المعيشة ترتفع، وكانت هناك مشاريع عظمى مثل مشروع الأرض العذراء ***Virgin Land*** – للمشاركة فيها. مع هذه الثقة الداخلية المتجددة –

والمساعدة على زيادتها – جاءت عملية الاستقلال فى العالم الثالث وحقيقة أن الكثير من الأنظمة الجديدة كانت تريد أن تتعلم من التجربة السوفيتية. وأدى ذلك كله، كما قال خروشوف ***Khrushchev*** إلى "فرصة تاريخية عالمية" للاتحاد السوفيتى، تؤدى مباشرة إلى خلق مجتمع دولى من الدول الاشتراكية ومن ثم إلى ثورات فى الدول الإمبريالية.

فى مركز هذا المنهج الجديد والمتحمس عن العالم الثالث كان يقف زعيم الحزب، نيكيتا خروشوف ***Nikita Khrushchev***. وشأن نظيره الأمريكى فى أوائل الستينيات، جون فرانكلين كينيدى ***John F.Kennedy***، أصبح خروشوف يشير إلى فترة حكمه بأنها بداية التحرر فى العالم الثالث. وكان الاستقلال بالنسبة له قد خلق عالمًا جديدًا يستطيع فيه الاتحاد السوفيتى أن يحكم:

> **إن تجديد العالم وفقًا لمبادئ الحرية والديمقراطية والاشتراكية التى نشارك فيها الآن لهى عملية تاريخية عظيمة تتحد وتتشابك فيها الحركات الثورية والديمقراطية المختلفة حيث الثورات الاشتراكية لها التأثير القاطع. ونجاح حركات التحرير الوطنى، الذى يرجع إلى حد كبير إلى انتصارات الاشتراكية، يقوى بدوره المواقف العالمية للاشتراكية فى صراعها ضد الإمبريالية. إن مفهوم لينين عن العمليات التاريخية هو أساس سياسة الأحزاب الشيوعية والدول الاشتراكية، وهى سياسة تهدف إلى تقوية التحالف مع الشعوب التى تحارب من أجل الاستقلال وتلك التى حصلت على الاستقلال بالفعل.**

وكان معنى ترحيب خروشوف بفجر جديد فى العالم الثالث هو أن النظرية السياسية السوفيتية عليها أن تجد تفسيرًا لأسباب حدوث ذلك وتحديد خطوط جديدة لما يمكن أن يكون عليه مستقبل آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكانت حتمية ستالين الديماجوجية، حيث تتابع الحقب فى المجتمع الإنسانى بالنمط نفسه فى كل الدول والقارات، كانت إلى زوال فى أواخر الخمسينيات، ومعها فكرة أن الاشتراكية هى تلاقى المتناقضات فى العالم الثالث. وكان الموقف فى موسكو إلى حد كبير شبيهًا بالموقف فى بكين: تقوية العوامل الإرادية لكل من السياسة الشعبية والسياسة الخارجية. وكان من الممكن أن ينتمى شعار ماو عن القفزة الكبرى "ابنِ اشتراكية أكثر: أسرع وأفضل وعلى نحو اقتصادى أكثر" إلى الدعاية السوفيتية المكثفة فى ١٩٦٠.

ومع هذه الحماسة المتجددة لبناء الاشتراكية فى الداخل، بدأت القيادة السوفيتية إعادة تقييم واسعة لشكل التغير الاجتماعى فى العالم الثالث، مع التأكيد الشديد على السياسة السوفيتية. وكما كان الحال فى الولايات المتحدة، قام علماء الاجتماع الذين يرتبطون بعالم السياسة بقيادة عملية إعادة التقييم. وكما هو شأن الحداثة الأمريكية، كانت النظرية تعنى الابتعاد عن شكوك الماضى – ذات الطابع العنصرى – عما إذا كانت "التنمية" بالفعل متاحة للجميع، كانت التغيرات المبدئية فى النظرية الماركسية السوفيتية فى العالم الثالث تؤكد قدرة شعوب العالم الثالث *أنفسهم* على القيام بثورات سريعة وناجحة، مشيرة نحو الاشتراكية رغم "تخلفهم" فى علاقات الإنتاج. ذلك التخلف، كما شرح الجيل الجديد من علماء الاجتماع السوفيت، يرجع بالأساس للاستغلال الأجنبى. ولو أزيل هذا الاستغلال، وأتيح لقوى الإنتاج السيطرة بحرية، فسوف تتطور العلاقة بين الطبقات سريعًا، مما يجعل تلك الدول مستعدة للاشتراكية أسرع كثيرًا من غيرها التى عانت معوقات لتطور القوى الإنتاجية.

كان الكثير من التفاؤل السوفيتي الجديد بشأن العالم الثالث يقوم على ما أسماه علماء الاجتماع السوفيت "المجموعات الجديدة النشطة في المجتمع". فلم يكن لهذه النخب المتعلمة في العالم الثالث، سواء في الخدمة المدنية أو العسكرية، أي طريق تسلكه - من حيث الأيديولوچيا - سوى طريق الوعي الاشتراكي. فالنظام الرأسمالي يوحي بالتعاون مع السادة الاستعماريين السابقين، ولن يرغب حتى من ينظرون إلى الشيوعية بعين الريبة أن يعودوا إلى تلك الطريق ثانية. وكانت بعض النخب العسكرية، لأنهم بدأوا الدفاع الذي كانت الدول الجديدة تعد له لحماية أنفسهم من العدوان الإمبريالي، أكثر عرضة للدعاية الشيوعية. بعبارة أخرى: كانت النخب في الدول حديثة الاستقلال منجذبة *داخليًا* إلى الاشتراكية، حتى لو لم يكونوا قد اكتشفوا عناصر الجذب العلمية إلى الماركسية.

بدأ الفكر الجديد بشأن العالم الثالث - الذي وصل إلى ذروته لمدة قصيرة في بداية الستينيات - يوظف مفهوم لينين عن الطبقة العاملة الذي كان في بعض الأحيان يصب في الوعي الطبقي *من الخارج*. وكان ذلك يعني بالنسبة لأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أن الأعضاء الماركسيين في النخب الجديدة يستطيعون - بمساعدة الاتحاد السوفيتي - أن يغرسوا شعورًا بالوحدة والقدرة الثورية في الطبقة العاملة الصاعدة. وكان بعض المراقبين يرون أن ما يهم لإحداث تغيير هو وجود مجموعة صغيرة تكرس النظرية الماركسية-اللينينية العلمية عن المجتمع ويكون لها موقف "دولي" من الاتحاد السوفيتي. ورغم أن ستالين كان يفترض ضمنا كون الاتحاد السوفيتي متفردا (وحاول أن يشوش على وقائع انقلاب نوفمبر ١٩١٧ وافتقار الحزب السوفيتي إلى قاعدة من الطبقة العاملة)، فإن معظم القادة الجدد اعتقدوا أن التجربة السوفيتية تتيح نموذجا عمليًا للغاية للتغيير الاجتماعي في الدول الأخرى، وإن كان بمعنى أوسع وفي ظروف مختلفة. ومن الطريف أن من تحمسوا في البداية لفكرة سياسة سوفيتية أكثر نشاطًا في العالم الثالث، كان بينهم قلة يريدون

إعادة التفكير فى التجربة السوفيتية على نحو أكثر واقعية، وهم من سيصبح لهم أدوار رئيسية فى برامج الإصلاح فى الثمانينيات.

استمرت هذه المرحلة الثانية من الحماسة السوفيتية للتدخل المباشر فى العالم الثالث – وقد كانت المرحلة الأولى هى الفترة الباكرة للكومنتيرن فى العشرينيات – عدة سنوات على الأكثر. فقد بدأ افتتان الكرملين بالإسهام السوفيتى الفعال فى التغيير الاجتماعى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يخبو بالفعل فى أوائل الستينيات، وهناك العديد من الأسباب لذلك بعضها واضح. فالانفصال عن الصين وضع التعاون مع دول العالم الثالث فى ظلال سلبية وبدا أن برنامج المساعدات السوفيتى إضاعة للمال والجهد، لم يفض إلا لنكران الجميل والكراهية الشديدة من قبل الصينيين. وذكّرت أزمة الصواريخ الكوبية قادة موسكو بالمخاطر المنطوية على التدخل فى صراعات يصعب السيطرة عليها لبعدها عن أرض الوطن، حيث جر الصراع حول الأسلحة النووية السوفيتية الموضوعة سرا فى جزيرة كوبا القوى العظمى إلى ساحة الحرب. وكما سنرى فيما بعد، كان رفض الزعماء الكوبيين أن يحسنوا من صورة التنازل السوفيتى عن الصواريخ مخيفًا للكثير من زعماء الكرملين، وكان يعنى أنهم سيواجهون بمعارضة فى حال التدخل العسكرى المباشر فى شئون العالم الثالث.

بالإضافة إلى الصراع مع الصين وأزمة الصواريخ، كانت هناك اعتبارات أقل وضوحًا لدى الجانب السوفيتى بدأت تتزايد قبل أن يترك خروشوف الرئاسة، وأظهرت أحداث الكونغو الصعوبة الشديدة لقيام السوفيت بعمليات بعيدًا عن حدودهم – عندما طالب لومومبا بالمساعدة السوفيتية لم يكن لدى الجيش الأحمر سوى القليل من الخيارات لو طلب منه القيام بعملية واسعة النطاق. لم يكن لدى السوفيت سفن حربية تستطيع التحرك سريعًا نحو منطقة صراع وتقوم بعمليات

برمائية أو هبوط بالمظلات من الطائرات الهليكوبتر. ولا كان لديهم نظام لحقوق الهبوط لطائراتهم الحربية في العالم الثالث، ناهيك عن قواعد يستطيع جنودهم أن يعملوا فيها. لقد ذكّرت الكونغو القيادة السوفيتية بقدراتها المحدودة في معظم العالم الثالث، وكانوا على علم بأن الأمر يتطلب وقتا طويلا لتطوير تلك القدرات، لأن الكثير منها يعتمد على تقوية القوات المسلحة بوجه عام؛ مما يتطلب بدوره زيادة الميزانية الحربية التي كانت بالفعل تستقطع ما يزيد على ربع الدخل القومي السوفيتي. وذكّرت الثورات ضد الحكم السوفيتي في نوفوشركاسك وفي كل مكان آخر خروشوف بمخاطر ضغط الجوانب المدنية في الميزانية أكثر وأكثر؛ ورغم أن خلفاءه كانوا أشد رغبة في توسيع قدرة القوات العسكرية على التدخل، فإنها ظلت متخلفة كثيرًا عن قدرات الأمريكيين طوال الحرب الباردة.

الانقلابات العسكرية في ١٩٦٥-٦٦ ذكّرت السوفيت بمدى ضعف الكثير من أنظمة العالم الثالث الراديكالية. كانت الدروس المستفادة من الهزائم في غانا والجزائر وإندونيسيا، للعديد من مستشاري اللجنة المركزية هي أن اختراق الاشتراكية للعالم الثالث لابد من أن يقوم على أساس تطوير الأحزاب الشيوعية وليس على الراديكالية الغامضة. مثل هذه الأحزاب لابد منذ تأسيسها بداية من لحظة تحقيق الاستقلال الحقيقي، ولابد من قيامها وفقا لنموذج الحزب الشيوعي السوفيتي وتجاربه. السبب في استمرار فيتنام وكوبا وعدم استمرار الدول الأخرى، كان وجود مثل تلك الطليعة الثورية ذات "التوجهات الدولية" الواضحة. وتخطئ موسكو لو أنها افترضت وجود مثل هذه التوجهات في المستعمرات السابقة، حيث كانت الطبقة البرجوازية – حتى وإن كانت بالشكل الراديكالي – هي المهيمنة على جبهة التحرير. لكن، من الناحية الأخرى، سيكون خطأ مساويًا لو محونا المراكز الماركسية التي أمنت الدور الريادي لنفسها في الحركات الأكبر، حتى وإن كان هؤلاء "الدوليون" يمثلون مجموعة صغيرة. وقالت الإدارة الدولية إن موسكو هي

التى تستطيع أن تحكم أى الجماعات تمثل أى الاتجاهات، وهذه المهمة ستقوم بهـا مع الكثير من التمييز والعناء عن ذى قبل.

وجدت وزارة الخارجية والإدراتان الدوليتان فى اللجنة المركزية أنه كـان من الصعب تقديم جدلياتهم المعقدة للرؤساء الجدد للحزب والدولة. كان لـ "ليونيـد برچنيـف " *Leonid Brezhnev*، سكرتير عام اللجنة المركزية والشخصية القيادية على نحو متزايد فى المكتب السياسى، خبرة ضئيلة للغاية فى الـسياسة الخارجيـة وكان مذبذبًا بين المواقف المختلفة التى قدمها له مستشاروه حول معظـم الأمـور، باستثناء رغبته الداخلية فى اعتراف الغرب بقوة الاتحاد السوڤيتى. وأخبـر كبيـر مستشارى السياسة الخارجية ألكساندروف-أچنتوف *Aleksandrov-Agentov* بأنـه "على مدار حياتى عملت فى طفولتى فى قرية و[قضيت] شبابى فى مصنع ثم بعـد ذلك فى لجان حزبية، وطوال فترة الحرب فى الجيش. لم تكـن لـى أيـة علاقـة بالسياسة الخارجية اللعينة تلك، ولا أعرف شيئًا عنها" (١٥). أما القـادة الآخـرون، مثل رئيس جهاز المخابرات السوڤيتى *KGB* (بداية من ١٩٦٧) يورى أنـدروپوف *Iurii Andropov*، أو سكرتير الحزب المسئول عن الإدارات الدولية فـى اللجنـة المركزية بوريس پونوماريـف*Boris Ponomarev* فقد بدأوا تدريجيًا التركيز على التطورات الرئيسية خارج أوروبا. ويتذكر الكثير من مستشارى السياسة الخارجية بالحزب مدى صعوبة الحصول على اهتمام القيادة بأى أمـور لـم تكـن تتعلـق بالولايات المتحدة أو أوروبا أو الصين حتى أواخر الستينيات.

فى ١٩٦٨ كان الموقف فى ڤيتنام هو السبب الرئيسى لتغيير عـدم المبـالاة بالعالم الثالث. كان اهتمام موسكو الأساسى بالهند الصينية هو دورها كحاجز ضـد التهدئة - ما دام أن الأمريكيين يحاربون فى ڤيتنام، فلم يجد السوڤيت فائدة فى الحد من التوتر العالمى، إلى أن وقع هجوم تت (الذى فسره السوڤيت فى البداية باعتباره

هزيمة لڤيتنام الشمالية). بعد أن بدأ الرأى العام الأمريكى ينقلب على الحرب بسبب تكلفتها للولايات المتحدة، بدأ بعض القادة السوڤيت ينظرون بشغف إلى فكرة الانتصار الڤيتنامي، وعندما دعا نيكسون إدارته الجديدة إلى الانسحاب السريع من ڤيتنام فى ١٩٦٩، بدأ ناشطو العالم الثالث فى اللجنة المركزية يستخدمون مسألة الهند الصينية لزيادة الاهتمام بآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولو كانت الولايات المتحدة على استعداد للمخاطرة بمستقبل ڤيتنام الجنوبية – أحد أكبر حلفائها فى العالم الثالث – لكانت احتمالات استمرار الثورات فى كل مكان آخر أفضل مما كانت عليه منذ عدة سنوات؛ وكانت فرصة أراد زعماء سوڤيت كثر استغلالها، حتى وإن لم يكن لديهم فى البداية أى أفكار ملموسة عن كيفية هذا الاستغلال.

كوبا كنموذج ثورى

بدأت الثورة الكوبية التى ألهمت الراديكاليين فى العالم الثالث كله، بوصفه تمردًا داخليا وتطورت تدريجيًا لتصبح تجربة ماركسية، وقد انقلب فيديل كاسترو ***Fidel Castro*** على نظام فلجينسيو باتيستا ***Fulgencio Batista***، لأنه اعتبره متحالفًا مع استغلال الولايات المتحدة للجزيرة، وعاجزًا عن تحقيق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادى الضرورى. كان وعد الثورة الكوبية هو أن الكوبيين – ومن ثم كل الأمريكيين اللاتينيين سوف يتخلصون من السيطرة الأمريكية ويقيمون دولا مستقلة بالفعل. كان كاسترو الشاب – الذى وصل إلى السلطة وهو فى الثانية والثلاثين – يربط بين غضبه من تخلف بلاده وشعور قوى بأن يكون رائدًا للثورات المستقبلية فى القارة كلها. فى خطاب ألقاه على حشد من الجماهير فى هاڤانا فى ١٩٥٩ قال "إن أمريكا ضحية رجال متطلعين ورؤساء عسكريين وطبقات عسكرية

كم تحتاج أمريكا والشعوب فى منطقتنا إلى ثورة كتلك التى حدثت فى كوبا! كم تحتاج أمريكا إلى نموذج كهذا فى كل شعوبها. كم تحتاج إلى أن يـــرد المليـــونيرات الذين أثروا بسبب سرقة الشعب ما سرقوه. كم تحتاج أمريكا أن يقتل كل مجرمى الحرب فى منطقتنا[١٦].

ولد فيديل كاسترو فى ١٩٢٦ فى مايارى بأقصى شرق كوبا، ابنًا لرجل ميسور من مزارعى قصب السكر كان قد هاجر من إسبانيا. عُرف كاسترو بوصفه زعيمًا للطلبة وخطيبًا حماسيًا فى أوائل الخمسينيات، حيث راح يبحث عن مخرج لوطنيته الزائدة فى السياسة الكوبية التقليدية، وإن ظل غير راض عن أسلوب مقاومة المعارضة لديكتاتورية باتيستا المتزايدة. فى ١٩٥٣ قام كاسترو بهجوم فاشل على إحدى وحدات الجيش فى سانتياجو دو كوبا وتم حبسه، وعندما أفرج عنه فى العفو العام فى ١٩٥٥ ذهب إلى المكسيك بصحبة أخيه راءول ومجموعة صغيرة من التابعين. وكان فى المكسيك أن بدأ كاسترو يرى حملته المخططة ضد نظـــام باتيستا انطـــلاقة للثورة فى أمريكا اللاتينية على هيمنة الولايات المتحدة. كما قـــام – مـــن خـــلال أخيه والطبيب الأرجنتينى إرنستو تشى جيفارا ***Ernesto Che Guevara*** الذى قابلاه فى المكسيك – باستكشاف الماركسية، بيد أن الأدلة ضئيلة أن كاسترو كان قد بدأ يعتبر نفسه ماركسيًا أو شيوعيًا قبل أن يمسك بزمام السلطة.

ازدادت مشاعر كاسترو المعادية للولايات المتحدة بعد أن عادت فرقته الصغيرة من المحاربين الثوريين إلى كوبا لبدء حرب عصابات فى ديسمبر ١٩٥٦، فقد كان الديكتاتور الكوبى باتيستا الذى كانوا يحاربونه على أسلحة من الولايات المتحدة رغم قلق إدارة أيزنهاور المتزايد بشأن حكمه القمعى. كانت مشاعر وزارة

الخارجية – التى كثيرًا ما تم تسجيلها فى ذلك الوقت هى أن باتيستا قد يكون وغدًا، "ولكنه وغدنا نحن"(١٧). وكانت الثورات التى قادها كاسترو لكمات غير مختبرة، حسب رأى واشنطن، فى وجود الكثير من المستشارين ذوى التوجهات الماركسية. أما بالنسبة لكاسترو فكانت الإمدادات الأمريكية لعدوه مؤشرًا على ما هو قادم من معارك. كتب لمحبوبته سيليا سانشيز فى ١٩٥٨، بعد هجوم شنه نظام باتيستا بالقوات الجوية التى تسلحها أمريكا يقول:

> **عندما رأيت الصواريخ تُطلق على منزل ماريو، أقسمت فى نفسى على أن يدفع الأمريكيون الثمن غاليًا. وعندما تنتهى هذه الحرب سوف تبدأ بالنسبة لى حرب أكبر وأوسع نطاقًا: الحرب التى سأشنها عليهم. أعرف أن ذلك هو قدَرى الحقيقى(١٨).**

وبعد أن هزمت قوات فيديل كاسترو باتيستا واستولت على هافانا فى ١٩٥٩، بدأت واشنطن تشعر بالخطر الحقيقى نحو سياساتها فى الكاريبى. فلم يكن كاسترو مجرد رجل قوى أو عسكرى رومانسى لا يملك برنامجًا سياسيًا محددًا، وإنما واقع تحت تأثير الشيوعيين ولديه خطة للثورة فى المنطقة بأسرها. وسرعان ما استنتجت المخابرات المركزية أنه لن يمكن استقطابه إلى جانب الولايات المتحدة، فلابد من احتوائه أو خلعه. فى أكتوبر ١٩٦٠ منعت الولايات المتحدة معظم التصدير إلى كوبا، قاطعةً خط الحياة الاقتصادية بالبلاد. وبدأت المخابرات المركزية تدرب المنفيين الكوبيين فى معسكرات فى جواتيمالا فى العام نفسه وتشجعهم على بدء هجمات خاطفة بطول السواحل الكوبية. وعندما دخل چون كينيدى البيت الأبيض، كانت الولايات المتحدة قد قطعت العلاقات الدبلوماسية مع كوبا وكانت تستعد إلى غزوها بالفعل. ورغم شكوك كينيدى فى مدى استعداد قوات

الغزو، ومعظمها من المنفيين الكوبيين، قرر أن يسير قدمًا فى خطط المخابرات المركزية. كانت ثورة كاسترو تهديدًا مباشرًا لخطط الرئيس لإصلاح العلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. كذلك كان كينيدى يخشى أن يُعتبر "لينا مع الشيوعية" أثناء الأسابيع الأولى من توليه الرئاسة؛ وفى ذلك مخاطرة بعلاقته مع كل من الكونجرس والشعب الأمريكى.

بدأ الغزو فى السادس عشر من أبريل عام ١٩٦١ بالهجوم على بلايا جيرون ***Playa Girón*** وبالقرب منها على الساحل الجنوبى لكوبا. وقد اختار أتباع كينيدى تلك المنطقة لأنها أرض هبوط جيدة والدفاع فيها بسيط. لكن سرعان ما تحول الغزو إلى كارثة للولايات المتحدة وحلفائها الكوبيين. فمنذ اليوم الثانى للقتال اتضح أن الغزاة لن يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد قوات كاسترو ما لم يكن هناك دعم جوى من الولايات المتحدة، وهو ما لم يكن الرئيس كينيدى يرغب فى تقديمه. وفى نهاية اليوم الثالث كانت معظم قوات الغزو وقوامها ألف وثلاثمائة جندى قوى قد استسلمت. ورغم ذلك ظلت إدارة كينيدى تمتنع عن بذل الجهد لإزاحة كاسترو. كتب روبرت كينيدى لأخيه الرئيس يقول: "البديل الوحيد عن الخطوات التى اتخذت فى الأسبوع الماضى، هو أن نجلس وننتظر ونأمل فى أن يحمل لنا المستقبل مصادفة سعيدة تغير هذا الوضع. إن الفشل الواضح فى أنشطة الثوار فى كوبا لا يسمح لنا... بأن نعود إلى الوضع الحالى فى سياستنا تجاه كوبا، التى تعتمد على الانتظار والأمل فى حظ أوفر. الأحداث فى الأيام القليلة الماضية تجعل ذلك غير معقول".

كما كان رد فعل كاسترو على تهديدات واشنطن المستمرة واضحة بقدر متساو:

يقول [كينيدى] إن صبره بدأ ينفد. حسن، ماذا عن صبرنا نحن، مع كل ما تحملناه؟ إن القوى الإمبريالية تستخدم أسلوب الهجمات المباغتة، وهو نفس أسلوب هتلر وموسوليني. نريدهم أن يعيدوا تدبر الأمور، وأن يأخذوا حمامًا باردًا، أو حمامًا ساخنًا، أى شيء. فلتقم البشرية، فليقم التاريخ، بإنهاء نظام عفا عليه الزمن. الإمبريالية لابد من أن تنتهي، كما انتهى الإقطاع وكما انتهت العبودية(١٩).

وكما يتضح من خطاب كاسترو، فإن انتصار قواته فى أوائل ١٩٥٩ أشعل اتجاهًا يساريًا تدريجيًا، لكنه كان سريعًا، فى تفكيره. أخذ فيديل كاسترو من كبار مستشاريه – مثل أخيه وتشى جيفارا – عبارات ماركسية وبعض عناصر الفكر الماركسي. وقدم الحزب الشيوعى الكوبى – الذى كانت العلاقات معه جيدة حتى الثورة – الاقتراحات والخطط الضرورية لبناء شكل جديد من الدولة. وأخيرًا كان هناك إعجاب كاسترو المتزايد بالاتحاد السوفيتى، الذى تطور لديه منذ أن قابل النواب السوفيت فى المكسيك. كان السوفيت يمثلون بالنسبة لكاسترو النوع "الآخر" من الحداثة – التى تؤكد العدالة الاجتماعية – التى كان يأمل أن يبنيها فى كوبا، حتى وإن لم تكن لديه خطط لمحاكاة كل أنماط موسكو.

ولاقتناع كاسترو من البداية بأن الولايات المتحدة كانت تريد القضاء على ثورته، حاول بالفعل فى ١٩٥٩ أن يشجع دعم الدول الأخرى بما فيها الكتلة السوفيتية. فى فبراير ١٩٦٠ جاء عضو من القيادة السوفيتية العليا وهو أناستاس ميكويان *Anastas Mikoyan* إلى هافانا لتوقيع اتفاقية تجارة وافتتاح معرض سوفيتى، (وكان هو أول من يقوم بأول اتصالات رجل لرجل بين الاتحاد السوفيتى

وماوتسي تونج في ١٩٤٩. ووجد كاسترو أن علاقاته السوفيتية تحفز الثورة الكوبية وتمثل روابط اقتصادية مهمة[٢٠]. لكن الأولى والأهم أنها كانت تمثل تأمينًا ضد الهجمات الأمريكية. وفي مارس ١٩٦٠ وافقت القيادة السوفيتية على منح كوبا أسلحة ومستشارين عسكريين. فقد استطاع كاسترو أن يؤثر على ميكويان البولشفيكي الرائد، ما جعله يقول عنه "إنه ثوري حقيقي، مثلنا تمامًا. شعرت كأنني عدت إلى طفولتي"[٢١]. وكذلك اقتنع خروشوف بعد أن قابل الثوري الكوبي الشاب في الأمم المتحدة في سبتمبر ١٩٦٠. أثناء اجتماع حافل في الفندق الذي كان الكوبيون يمكثون فيه في هارلم، عانق الزعيم السوفيتي المكتنز كاسترو عناقًا غريبًا قائلا للمراسلين إنه لا يعرف إن كان الثوري الكوبي شيوعيًا أم لا، ولكنه يعرف جيدًا أنه هو نفسه من أتباعه[٢٢].

في حين تعهد السوفيت في الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٦ بالدفاع عن الجزيرة في حال حدوث هجوم أمريكي، كان هناك شك كبير في موسكو تجاه اتخاذ الكثير من الضمانات المالية لاستمرار كاسترو. وعندما أراد الكوبيون في خريف ١٩٦٠ أن يصبحوا "مراقبين دائمين" في الكوميكون ***COMECON*** – كغطاء لعضوية حقيقية في الكتلة الاقتصادية السوفيتية – اعترضت موسكو، وكان على الكوبيين أن يحشدوا دعم ألمانيا الشرقية وغيرها من دول أوروبا الشرقية من أجل قضيتهم[٢٣]. واستاء الكوبيون – وخاصة كاسترو – مما اعتبروه عنادًا سوفيتيًا واهتمامًا منقوصًا بثورتهم. ورغم أن كاسترو كان قد قال لرفاقه بالفعل في نوفمبر ١٩٦٠: "لقد كنت ماركسيا منذ كنت طالبًا" وأن الشيوعيين لابد من أن يحتلوا "كل المناصب الرئيسية... في الحكومة وفي الجهاز الثقافي والجيش واقتصاد الدولة"، وأن "موسكو هي عقلنا وهي زعيمنا العظيم" فإنه لفظ الزعماء الشيوعيين كبار السن من القيادة في مارس ١٩٦٢ وأكد أن الشيوعية الكوبية سوف تتمحور حول أفكاره هو وأفكار "جيل حرب العصابات" [٢٤].

كان من ضمن أهداف القرار السوفيتى المصيرى فى مايو ١٩٦٢ بوضع الصواريخ النووية فى كوبا أن يقنع كاسترو بأن موسكو قد اتخذت القرار الاستراتيجى بالدفاع عن ثورته ودعمها ضد عدوه. بعد التراجع السوفيتى بعد أزمة الصواريخ فى أكتوبر، استشاط غضبا وأصبح مقتنعا بأنه رغم التقارب الأيديولوجى مع موسكو، فعلى كوبا أن تطور استراتيجيتها الثورية الخاصة. وقال الزعيم الكوبى لميكويان الذى جاء يشرح القرار السوفيتى فى نوفمبر إن "صفقات الاتحاد السوفيتى تخلق شعورًا بالظلم،

فشعبنا لم يستعد لذلك نفسيًا. وظهر شعور بخيبة الأمل والمرارة والألم العميق، وكأننا لم نُحرَم من الصواريخ فحسب، وإنما من مجرد رمز الوحدة والتضامن. وبدت الأنباء عن قاذفات الصواريخ التى تم تفكيكها وإعادتها إلى الاتحاد السوفيتى فى البداية كذبة سافرة. تعرف، أن الشعب الكوبى لم يدرِ بأمر الاتفاقية ولا بأنّ الصواريخ ظلت تابعة للجانب السوفيتى. الشعب الكوبى لم يعرف بالموقف القانونى لهذه الأسلحة. إنهم يعرفون فقط أن الاتحاد السوفيتى أعطانا أسلحة، وأن هذه الأسلحة أصبحت من ممتلكاتنا[٢٤].

ودفعت خيبة أمل القيادة الكوبية فى الاستسلام السوفيتى أثناء أزمة الصواريخ – وهى خيبة الأمل التى لم تخف وطأتها بالعلم بأن البديل الوحيد كان هو الحرب النووية – دفعت هافانا إلى البحث عن اتجاهات جديدة لسياستها الخارجية. ورغم أن تأكيد كاسترو الأساسى حتى عام ١٩٦٣ كان على استمرار

ثورته، وكجزء من هذا البرنامج على ارتباط أقرب بالاتحاد السوفيتى، فإن كوبا فى منتصف الستينيات انتهجت سياسة أكثر عدوانية تقوم فيها بمساعدة الحركات الأخرى فى العالم الثالث كجزء من دفاعها عن مبادئ الثورة. ومع ما اعتبره كاسترو ضعفًا سوفيتيًا – وقد ربطه فى مخيلته بانتساب الاتحاد السوفيتى إلى أوروبا – فإن الدعم الكوبى لثورات العالم الثالث لم يكن مجرد واجب وضرورة تاريخية، وإنما دفاعًا مسبقًا عن كوبا ضد أى هجوم أمريكى. ومع زيادة المد الثورى فى العالم، اعتقد الزعيم الكوبى أن على أمريكا أن تزيل بعضًا من اهتمامها المفرط بجزيرته الصغيرة الواقعة فى الكاريبى. وفى الوقت نفسه فإن كوبا ستقوم بمهمتها التاريخية العظيمة لحصاد ثمار الثورة فى كل مكان آخر.

ومع تصاعد الصراع الصينى السوفيتى فى الفترة ما بين ١٩٦٤-٦٦ ، دعا كاسترو إلى الوحدة الاشتراكية، لكنه لم يتوقع أن يحققها، أو على الأقل ليس فى المستقبل القريب. وأشاد بالتجربة الكوبية والفيتنامية:

> **نحن الدول الصغيرة، حيث لا نؤمن أنفسنا بجيوش بها الملايين من الرجال، و حيث لا نؤمن أنفسنا بالطاقة الذرية – نحن الدول الصغيرة مثل كوبا وفيتنام لدينا الحدس لنرى ونفهم، ونحن على مقربة تسعين ميلا من الإمبراطورية الأمريكية وتهاجمنا الطائرات الأمريكية، إننا أكثر من سيتأثر بتلك الانقسامات والخلافات التى تضعف قوة المعسكر الاشتراكى[٢٦].**

ولكن الانقسام بين الدول الاشتراكية لا ينبغى أن يؤدى إلى موقف دفاعى فى محاربة الإمبريالية. بل على العكس، فقد قال كاسترو فى ١٩٦٥:

هل نستطيع أن نستبدل حق شعبنا فى المستقبل بحق غيرنا من الشعوب فى المستقبل؟ لا. هل يسعدنا أن نعرف أن غيرنا من الشعوب لا تملك ما نملكه من حقوق؟ لا. هذا هو سبب اهتمامنا بمصير غيرنا من الشعوب. هذا هو سبب تعبيرنا عن الوحدة والتضامن مع أى شعوب أخرى تحارب الإمبريالية مثل شعوب ڤيتنام والكونغو وڤنزويلا... نعرف أن هناك عدوًا يقف فى طريق كل الشعوب هنا فى أمريكا اللاتينية كما فى آسيا وأفريقيا. هذا العدو هو الإمبريالية، وخاصة الإمبريالية الأمريكية. وكل اعتداء على أى شعب فى أى قارة لابد من اعتباره اعتداء علينا، وسوف يصيبنا وكأنه يُرتكب ضدنا. ثم علينا أن نفهم أنه إذا أصيب شعب ما فى آسيا فقد يصاب شعب آخر فى أفريقيا وفى أمريكا اللاتينية. ما علينا أن نحاربه هو حق الإمبريالية فى الاعتداء على الشعوب، وما علينا أن نؤسس له هو أن أى شعب يتعرض لهجوم من قبل الإمبريالية الأمريكية، يكون له دعم بقية الشعوب، بقية الشعوب التى تحارب ضد الإمبريالية[٢٧].

وقد وضع الكوبيون مبدأ التدخل المعكوس هذا موضع تنفيذ بداية من ١٩٦٣. فى البداية كان التركيز على أمريكا اللاتينية والكاريبى، حيث قام الكوبيون بتدريب ما لا يقل عن ١٥٠٠ جندى على حرب العصابات حتى ١٩٦٤. لكن، كما

شرح المؤرخ بيرو جليچيسس ***Piero Glejeses*** ، فقد وقعت استراتيچية كوبا تجاه أمريكا اللاتينية فى المشاكل منذ بدايتها. ونصح السوڤيت بتوخى الحذر؛ واستاءت الأحزاب الشيوعية فى أمريكا اللاتينية من التدخل الكوبى وإلقاء المحاضرات؛ وبدا أن فرص قيام حرب عصابات ناجحة على طريقة كاسترو كانت ضعيفة فى معظم الدول. وبعد انعقاد اجتماع سرى للأحزاب الشيوعية فى أمريكا اللاتينية فى هاڤانا فى نوفمبر ١٩٦٤، حيث انتُقِد فيديل كاسترو بسبب كثرة تدخلاته فى استراتيچيات الأحزاب الأخرى، تحول الاهتمام الكوبى إلى أفريقا، وهو البديل الذى كان القادة الكوبيون يتدارسونه منذ أوائل ١٩٦٣.

كان الاهتمام الكوبى بأفريقيا أيديولوچيًا واستراتيچيًا وعاطفيا. لقد قامت هاڤانا باستيعاب الكثير من الوعظ السوڤيتى والأوروبى الشرقى منذ أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، عن الأهمية الأيديولوچية للاستقلال، حيث كانت المنافسة من أجل الهيمنة الأيديولوچية فى الدول الجديدة تعتبر ضرورية بالنسبة للصراع العالمى بين الاشتراكية والرأسمالية على المدى الأبعد. وكان دعم حركات الاستقلال الأفريقية يعتبر طرقًا على إحدى نقاط ضعف الإمـــبريالية الأمريكية، ومنطقة لم تتوقع الولايات المتحدة أن تتدخل فيها كوبا. وأخيرًا فإن كل الكوبيين كانوا يعرفون بالارتباط بين جزيرتهم وأفريقيا، من خلال الثمانمائة ألف عبد الذين تم جلبهم من أفريقيا حتى القرن التاسع عشر، حيث أصبح اليوم ثلث السكان ينحدرون من أصول أفريقية؛ وكانت مساعدة التحرر الأفريقى تعنى التضامن مع الأقارب الذين عانوا طويلا، ورد الدين للأسلاف الأفارقة فى كوبا.

تمركز التورط الكوبى فى الخارج حول تشى چيـــڤارا، الذى جعله كاسترو مسئولا عن برنامج مساعدات الثورات الخارجية كله بداية من ١٩٦١. ولد چيـــڤارا فى الأرچنتين فى ١٩٢٨ فى أسرة ثرية ساعدته ليتعلم الطب وموّلت

أسفاره الباكرة في القارة. كان أثناء تجواله في الأنديز أن بدأ عقله يركز في مشكلات الفقر والقهر الاجتماعي. كان جيفارا كثير المرض في شبابه، ما جعله مولعًا بالقراءة وبدأ تدريجيًا يرى أن الماركسية تقدم تفسيرًا للمظالم التي كان يشهدها. في ١٩٥٥، بعد أن هرب إلى المكسيك وكان قد تابع التدخل الأمريكي في جواتيمالا، كتب إلى والدته:

هناك طريقتان للوصول إلى ما يخيفك: طريقة إيجابية من الإقناع المباشر وطريقة سلبية من الإحباط الكامل. لقد وصلتُ بالطريقة الثانية، ولكن سرعان ما أقنعت نفسي بأن أواصل بالطريقة الأولى. لقد أثار الأسلوب الذي يعامل به الغرباء القارة الأمريكية سخطي، لكنني في الوقت نفسه درست التفسير النظري لما يفعلونه ووجدت أنه علمي.

أصبحت الماركسية عقيدة جيفارا ومحور التمرد، أصبحت نظريته المفضلة عن التغير الاجتماعي. كان تشي، وهو شديد التهور وحب الذات – مثل كاسترو، الذي ارتبط به في المنفى في المكسيك – يريد تحويل العالم وفقًا للخطوط العلمية، ولكن مع وجود مكان مميز في هذه التحولات للعمل البطولي، ووجوده هو شخصيًا في المركز. ومع اشتراكه في الثورة الكوبية والقتال بمنتهى الشجاعة والوحشية، لخص جيفارا تجربته في كتابه حرب *العصابات* ***Guerrilla Warfare*** في ١٩٦٠، الذي أصبح بمثابة إنجيل للثوار في كل مكان في الستينيات والسبعينيات. أكد فيه أنه "ليس من الضرورة أن ننتظر حتى تتوافر جميع الشروط اللازمة للقيام بالثورة؛ فالعصيان المسلح قد يخلق هذه الظروف"[٢٨]. بعبارة أخرى، فإن الاستراتيجية البطيئة القائمة على الطبقة لليسار في أمريكا اللاتينية لابد من استبدالها بالعصيان المسلح العفوي، الذي يقوم به جماعات من العصابات يتزعمها الحزب الشيوعي.

وقال جيفارا إن هذا هو الأسلوب الذى أدى إلى الانتصار فى كوبا وإنه الأسلوب الوحيد الذى سوف ينجح عند مواجهة القوة الأمريكية العاتية ويحصد الدعم من الدول الاشتراكية.

فى ١٩٦٥ كان شى جيـفارا فى السابعة والثلاثين من العمر. وقد عمل رئيسًا للبنك الوطنى الكوبى ووزيرًا للصناعة فى وطنه الجديد، وكان كثير الأسفار إلى أوروبا الشرقية والصين وأفريقيا. طلب الإذن من كاسترو أن يقود سرًا قوة من المستشارين الكوبيين الذاهبين إلى الحرب مع الثوار الكونغوليين ضد النظام الذى تدعمه أمريكا. ولما لم ينجح فى الكونغو، كما رأينا، عاد جيفارا إلى كوبا مرة أخرى ثم سافر من خلال أمريكا الجنوبية إلى بوليـفيا - المنطقة التى استيقظ فيها وعيه الاجتماعى لأول مرة - حيث كان يريد أن يبدأ تمردًا عامًا ضد الحكومة الطاغية. وهناك، فى أكتوبر ١٩٦٧، تتبع الجيش البوليفى والمخابرات المركزية الأمريكية *CIA* مجموعته الصغيرة من المقاتلين البوليـفيين والكوبيين. تم إعدام جيـفارا بعد ذلك بوقت قصير وعرض جثته أمام كاميرات التليفزيون ليتأكد العالم من أنه مات. وأخبر والت روستو ***Walt Rostow*** الرئيس جونسون بأن قتل جيـفارا "يعنى وفاة ثورى عدوانى رومانسى مثل سوكارنو ونكروما وبن بيللا- ويؤكد هذا الاتجاه... أنه يوضح مدى صحة 'الدواء الوقائى' الذى نعطيه مساعدة للدول التى تواجه تمردًا مبدئيًا - كانت كتيبة الحراسة الثانية الـبوليـفية ***2nd Ranger Battalion*** التى تدربت على يد ***Green Berets*** من يونيو إلى سبتمبر فى ذلك العام، هى التى سدت عليه السبل وأمسكت به"(٢٩).

وأيًا كان مدى تخويف جيفارا للمخابرات المركزية، فإن فلسفته السياسية والعسكرية (هو وكاسترو) كان لها أثر محدود فى العالم الثالث. فكما قال جيفارا نفسه فى نقد للذات بعد أزمة الكونغو

ما الذى كان لدينا لنقدمه؟ لم نقدم لهم حماية كبيـرة، كما يتضح من القصة. ولا قدمنا أى تعليم، الذى كـان

من الممكن أن يصبح أداة رائعة للتواصل. أما الخدمات الطبية فقد قدمها قلة من الكوبيين هناك، بأدوية غير ملائمة، ونظام بدائى للإدارة وبلا هيئة للصحة. أظن أن علينا تكريس بعض التفكير العميق والبحث، لمشكلة التكتيكات الثورية حيث علاقات الإنتاج لا تؤدى إلى تجويع الفلاحين[٣٠].

ولكن الهدف الحقيقى لـجيفارا فى التقرير الذى قدمه بعد أزمة الكونغو إلى كاسترو، كان أن يظهر مدى عدم ملاءمة المادة التى أعطيت له لكى يقوم بثورة حديثة:

الجنود من طبقة الفلاحين وهم خام تماما، وعنصر الجذب الوحيد لهم هو البندقية والزى الموحد، وأحياناً الحذاء وحيازة بعض السلطة فى المنطقة. أفسدهم الكسل وإعتيادهم إملاء الأوامر على الفلاحين، تشبعوا بالأفكار الصماء عن الموت وعن العدو، يفتقرون بالكلية إلى أى تعليم سياسى متماسك، ومن ثم يفتقرون إلى الوعى الثورى والنظرة المستقبلية التى تتجاوز الفضاء التقليدى لمنطقتهم القبلية. كسالى وغير منضبطين، ولذا لا يملكون أى روح للمقاومة أو التضحية بالذات[٣١].

حقيقة الأمر أن نظرية المركز لـجيفارا لم تكن صحيحة بالنسبة للثورة الكوبية، التى تم تفصيلها خصيصا لها. فشأن أصحاب سياسة التدخل الأمريكيين والسوفيت، خلق أصحاب السياسة نفسها من الكوبيين أسطورة حول تطورهم كان

من المفترض أن يتبعها الآخرون. وعندما لم يحدث ذلك، كما فى حالتى الكونغو وبوليـــفيا، كشف ذلك لهاڤانا حماقات السكان المحليين وتخلفهم. لذا فإن ما ترك انطباعًا قويًا لدى قادة العالم الثالث في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لم يكن النظريات الكوبية عن الثورة، وإنما روح الاهتمام والتضحية بالذات في تقديم الدعم للحركات الأفريقية والأمريكية اللاتينية؛ وكانت تلك المساعدات عسكرية وطبية وتعليمية. فكوبا النموذج الثورى، الدولة الصغيرة التى تعادى الولايات المتحدة وتريد مساعدة الأماكن البعيدة دونما أى مقابل، هى كوبا التى رآها الآخرون مصدرًا لإلهام ثوراتهم الوطنية. ومن هذا المنطلق كان مصرع تشى مؤشرًا على بداية، وليس نهاية، مشكلات أمريكا مع كوبا فى العالم الثالث.

ڤيتنام وجنوب شرق آسيا

لم يكن صراع القوى الكبرى على ڤيتنام أمرًا مقصودًا من موسكو أو واشنطن، وإنما أمرا خلقه فكر التدخل لدى كلا القوتين فى التعامل مع ديناميكية الثورة الـــڤيتنامية. فبعد الحرب الكورية أوضحت الولايات المتحدة أنها لن تقبل ڤيتنام موحدة تحت الحكم الشيوعى، وأنها كانت تُفضل أن تتدخل عن أن ترى هو شى منه ينجح في أهدافه. أما وقد اعتبرت إدارتا كل من أيزنهاور وكينيدى حكومة هو شى منه فى هانوى امتدادًا للقوة السوفيتية والصينية فى جنوب شرق آسيا، فقد اعتقدتا أن سقوط دولة ڤيتنام الجنوبية الضعيفة – التى قامت بعد معاهدة جنيف فى ١٩٥٤ معتمدة بالكامل على الدعم الأمريكى – ربما يكون له صدى كبير، تستطيع من خلاله دول لاوس وكمبوديا المجاورة، وكذا الدول الأهم مثل تايلاند وماليزيا وإندونيسيا أن تواجه تحديات القوة للأحزاب الشيوعية مدعومة بالنظام الصينى المعتدى. ورغم أن منع توحيد ڤيتنام – ولو من خلال انتخابات عامة – لم يكن فى حد ذاته هدف إدراة أيزنهاور أو كينيدى، فإنه أصبح الشرط الضرورى للسياسة

الأمريكية بما أن القوة الوحيدة القادرة على توحيد البلاد بالانتخابات أو بالحرب كانت هى حزب العمال الشيوعى الـــڤيتنامى ***Worker's Party of Vietnam*** بزعامة هو شى منه. وفى أوائل الستينيات كانت فكرة التدخل الأمريكى المباشر تلوح فى الأفق على نحو متزايد، لأن حكومة ڤيتنام الجنوبية كانت تبدو غير راغبة فى اتباع الوصفات الأمريكية للإصلاح الداخلى، وغير قادرة على احتواء التمرد اليسارى الذى أخذ يستشرى على جانبها من الخط الحدودى المرسوم فى ١٩٥٤ والذى كان يفترض أنه مؤقت.

وبالحكم من خلال المصادر الجديدة التى لدينا الآن، فإن النظرة الأمريكية لدور ڤيتنام الجنوبية فى الفكر الشيوعى فى جنوب شرق آسيا كانت صائبة. بعد ١٩٥٤، وخاصة بعد أن بدأ التمرد فى الجنوب فى ١٩٦٠، أصبحت ڤيتنام نموذجًا ومقياسًا لما كانت الأحزاب الشيوعية تطمح أن تحققه فى الداخل، وما تطمح أن تحصل عليه من دعم من موسكو وبكين. وكان تقسيم ڤيتنام فى ١٩٥٤ قد أعطى إشارة بأن فكرة امتداد نموذج الثورات الاشتراكية ليست بالفكرة الجيدة. كان تدخل أمريكا فى الحرب الكورية، وقلق الصين من الحرب الذى اتضح فى دبلوماسية شو إن لاى ***Zhou Enlai*** الحذرة، والمزيج السوڤيتى من الديماجوجية النظرية والتهدئة تجاه الغرب فى فترة ما بعد ستالين، كانت تخلق شعورًا بالاختناق لدى القادة الشيوعيين فى جنوب شرق آسيا. هذا الموقف يجسده زعيم الحزب الشيوعى فى المالايا شن بنج ***Chin Peng***، الذى يتذكر أنه فى ١٩٥٣– ١٩٥٥ "لم تجد موسكو أو بكين ثمة قيمة للكفاح المسلح الممتد إلى مالايا. الانتصار العسكرى... كما قرروا لنا، كان مستحيلا"[٣٢]. وفى الوقت نفسه، كان الحزب الشيوعى الإندونيسى قد بدأ يتحسس الطريق تجاه الانخراط الانتخابى والبرلمانى فى سياسة الدولة – وهى الاستراتيـــجية التى أثبتت نجاحًا ملحوظًا نحو أواخر الخمسينيات، الأمر الذى أدهش كلا من بكين وموسكو.

كان قرار الحزب الشيوعي الـــفيتنامي في ١٩٥٩- ١٩٦٦ أن يبارك تمردًا مسلحًا في الجنوب إيذانًا واضحًا بأن فترة الحذر قد انقضت. كان قرار هانوي نابعًا من داخلها، ولكنه اتُخذ بعد ضغوط كثيرة من الشيوعيين الجنوبيين، وكما سنرى، كان ضد نصيحة كل من موسكو وبكين. كان إصرار الحزب، ومقره في الشمال، على توحيد البلاد بالقوة قد جاء أولا وأخيرًا بسبب اليأس من انعدام أي عملية على المستوى العالمي أو على مستوى الدولة، تشير في اتجاه إعادة الوحدة التي وُعد بها في جنيف. بل على العكس، كان نظام نجو دنه ديم *Ngo Dinh Diem* المدعوم من الولايات المتحدة، يبدو، على الأقل من الناحية الاقتصادية، أنه يمتد إلى الجنوب[٣٣]. وكما هو الحال دائمًا في المواقف الثورية، كان الخوف من أن النظام القائم قد يحسن من أقداره هو ما دفع الثوريين للتصرف. وكان أهل الجنوب في قيادة الحزب الشيوعي الـــفيتنامي مفيدين في رسم استراتيـــجية رأت أن يقوم عشرة آلاف شيوعي من الشمال بالتسلل إلى الجنوب خلال سنة ١٩٦٠، بهدف تنظيم جبهة تحرير وطنية عريضة القاعدة داخل جمهورية فيتنام[٣٤].

ولكن بينما كان من المحتمل أن تكون النظرة الأمريكية عن تأثير القرارات الـــفيتنامية في جنوب شرق آسيا في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات صحيحة، فمن المؤكد أنها كانت خاطئة بشأن الأدوار التي تلعبها كل من موسكو وبكين في تشكيل الاستراتيـــجية الـــفيتنامية. كان الهدف بالنسبة للسوفيت في الخمسينيات هو بناء دولة اشتراكية قادرة على الاستمرار في النصف الشمالي من فيتنام، تصبح – مع الوقت – ناجحة اقتصاديًا وقوية سياسيًا وعسكريًا. وعندما تتبنى هانوي النماذج (السوفيتية) الضرورية للتنمية وحصد ثمارها، فإن الشعب في الدولة كلها سوف "يختار الاشتراكية". وكان المستشارون السوفيت في الخمسينيات مصرين على أن استراتيـــجية "الاشتراكية في نصف الدولة" وأنه الحل الوحيد الممكن لـــفيتنام، وهو الحل الوحيد الذي كانت موسكو تريد أن تدعمه. واشتكت القيادة السوفيتية للزملاء

الصينيين فى ١٩٥٧ من أن المشكلة كانت "الأصدقاء الـڤيتناميين المستقلين، الذين يعملون فى جنوب ڤيتنام، الذين اعتقدوا أن من الضرورى تنظيم هجمات منفصلة ضد نظام "ديم"، باعتبار هذه الهجمات وسيلة لحث الجماهير على الحرب. وقد تم تقييم ذلك باعتباره منهجًا غير ماركسى شديد التبسيط للموقف ولقضية العصيان المسلح"(٣٥).

وعندما التقى نواب حزب العمال الـڤيتنامى بالسوڤيت والصينيين فى موسكو فى مايو ١٩٦٠ للتحضير للاجتماع الثالث للحزب الـڤيتنامى، حذر الحليفان الكبيران من سياسة "العصيان المسلح" فى الجنوب. ومع ذلك، أقر حزب العمال الـڤيتنامى – بوضوح شديد – سياسة الكفاح المسلح التى كانت قيادة الحزب قد قررتها فى العام السابق، مع القيام فى الوقت نفسه بتغطية السياسة الجديدة بعبارات عن "إعادة الوحدة سلميًا"، وهى العبارات القريبة لقلب السوڤيت. إذن كانت القرارات الـڤيتنامية – وليس الشقاق الصينى السوڤيتى، كما يدعون دومًا – هو ما نقض اتفاق چنيڤ ووضع البلاد على حافة الحرب. وتظهر الأدلة الصينية الجديدة أنه حتى بعد بداية الشقاق الواضح مع السوڤيت فى صيف ١٩٦٠، بقيت بكين فاترة الحماسة لفكرة حرب تحرير مع جنوب ڤيتنام، بينما ازدادت دعمًا لها خطابيًا وعسكريًا. كانت مشكلة ماو هى أنه على الرغم من رغبته أن يدعم الحزب الـڤيتنامى – حيث لم يكن هناك ثورة فى الخارج أهم من الثورة الـڤيتنامية بالنسبة له – فإن توقيت نشوب حرب فى الجنوب كان سيئًا جدًا من المنظور الصينى. فالجروح العميقة التى ألحقتها القفزة الكبرى للأمام فى الاقتصاد الصينى أضعفته بشدة، بينما تركت قروحًا فى السياسة الصينية ستستمر فى القيح لسنوات قادمة. كان الرئيس ماو يريد أن يعالج المشكلات من خلال تغيرات سياسية جذرية فى داخل الصين. وفى حين كان دعم الأحزاب الثورية فى كل مكان آخر خارج الصين جزءًا من تلك الأچندة، فإن وجود حرب مستعرة وتدخل أمريكى محتمل لم يكن كذلك.

كان الشقاق الصينى السوفيتى، إذن، عائقا أمام الشيوعيين الـڤيتناميين وليس فى صالحهم. حاولوا محاولات مستميتة أن يوقفوا مد تفكك الحركة الشيوعية فى العالم، لدرجة أن "هو شى منه" حاول التوسط لحل النزاع شخصيًا. وتوضح المشاورات بين الـڤيتناميين الشماليين والكوريين الشماليين والمنغوليين حتى عام ١٩٦٥، أن الدول الاشتراكية الآسيوية الصغيرة ثلاثتهم اعتبروا الشقاق تهديدًا لهم، رغم أن هانوى وبيونج يانج كانتا أقرب إلى بكين أيديولوچيًا من أولان باتور (عاصمة منغوليا). ولما احتدم الصراع بين موسكو وبكين فى ١٩٦٣، وجدت ڤيتنام الشمالية نفسها تشترك مع الصين فى العديد من المواقف، بينما ظلت تتنافس من أجل الدعم السوڤيتى لشن حرب أهلية ضد ڤيتنام الجنوبية. كان تأكيد ماو على تضامن العالم الثالث والفعل الثورى والحملات القصيرة المكثفة مصدر جذب للقادة الـڤيتناميين، مثلما كانت خطابته القوية المعادية للإمبريالية؛ وفى أواخر عام ١٩٦٣ كانت موسكو تعتبر هانوى تابعة للمعسكر الصينى فى كل ما يتعلق بالأيديولوچيا، وقال الخبراء السوڤيت إنها كانت مسألة وقت فقط حتى تعلن هانوى صراحة أنها حليفة لبكين.

أخذا فى الاعتبار الآمال السوڤيتية العريضة لتطور الاشتراكية فى ڤيتنام، والاستثمارات السوڤيتية في الوقت والمال هناك، فإن ميول الـڤيتناميين نحو الصين صدمت الكرملين تمامًا، كما صدمه انهيار العلاقات مع بكين قبل سنوات. وقد حاولت قيادة الحزب السوڤيتى، قبل سقوط نيكيتا خروشوف وبعد سقوطه فى أكتوبر ١٩٦٤، أن تُقَوِّم اتجاهات هانوى السياسية؛ ولكن للأسف كانت استنتاجاتهم عنصرية أكثر منها سياسية: الصينيون والـڤيتناميون كلاهما "شرقيان"، ولذا فمن الطبيعى أن تتقارب وجهات نظرهما وسياستهما، هكذا كان يفكر الكثير من القادة السوڤيت. هذا الفهم الخاطئ جذريًا للعلاقة الصينية الـڤيتنامية خيم على السياسة السوڤيتية فى الفترة ما بين ١٩٦٤-١٩٦٦ وكانت فترة حرجة فى ڤيتنام، وأثار

توصيات سياسية – أثناء نظام خروشوف وبعده – تسببت في فقدان موسكو تأثيرها على هانوى على نحو متصاعد. وعندما أقنع التدخل العسكرى الأمريكى فى ١٩٦٤ الغالبية العظمى فى القيادة السوفيتية الجديدة أن عليهم أن يزيدوا من مساعداتهم لـــڤيتنام، فعلوا ذلك بدون أن يحدوهم الكثير من الأمل فى التأثير فى استراتيـــچية هانوى العسكرية أو السياسية، على الأقل على المدى القصير، وكانوا يرون أن مساعداتهم لـــڤيتنام واجب أيديولوچى، ورد على الاعتداء الأمريكى، وكذا رد على الرطانة الصينية والـــڤيتنامية.

أما بالنسبة لماوتسى تونج، فكان ضرب إدارة چونسون لـــڤيتنام بالقنابل وإرسالها قوات برية أمريكية مفاجأة. فمنذ أواخر الخمسينيات وهو يلقى مواعظ ومحاضرات بأن الولايات المتحدة قوة عظمى تتداعى، وتخشى أى تورط جديد فى العالم الثالث وتزداد عجزًا عن المحافظة على هيمنتها على الدول الرأسمالية. كان الكثير من سياسة ماو الداخلية والخارجية يقوم على هذا الافتراض، بما فى ذلك الانفصال عن الاتحاد السوفيتى. وفى ١٩٦٤–٦٦ كانت هناك الكثير من الأصوات بداخل الحزب الشيوعى الصينى التى ترى أن الصين أصبحت فى عزلة خطرة، فى حين تتعرض جارتها الجنوبية للهجوم من الولايات المتحدة. ولكن رد فعل ماو، كما كان الحال دائمًا عندما يكون تحت ضغط، هو أن يأخذ خطوة إلى اليسار: فقط، إذا قامت الصين بـــ"ثورة مستمرة" تخلصها من "اليمينيين والتعديليين وكل أشكال الخونة"، فإنها ستستطيع أن تواجه التحديات الخارجية. بيد أن الرئيس أدرك أن على الصين أن تتجنب حربًا مع الإمبرياليين ما دام كانت تلك الثورة الثقافية قائمة. لذا كانت السياسة الخارجية للصين فى منتصف الستينيات عالية الخطابة قليلة الفعل: حتى وإن قرر ماو أن يرد عسكريًا على الهجوم البرى الأمريكى عبر الخط الحدودى المرسوم سنة ١٩٥٤، فإن استمرار تورط الصين فى ڤيتنام كان هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. وكما رأينا فإن الاتجاه العام فى الصين أثناء الثورة الثقافية البروليتارية العظمى كان اتجاهًا داخليًا بعيدًا عن التورط فى الثورات الخارجية.

كان هناك شعور قوى فى موسكو وبكين حول عام ١٩٦٥، أن الأمور تسير على غير ما يرام فى صراعهما ضد الإمبريالية، رغم أن واشنطن كان لها وجهة نظر عكسية. فالحماسة المبدئية الزائدة لمسألة الاستقلال قد ذوت وبدا أن الولايات المتحدة بعثت من جديد؛ فهى تواجه السوفيت بشأن كوبا وتتدخل فى ڤيتنام، وتتعامل مع بعض مشكلاتها الداخلية مثل الفقر والعنصرية؛ وأصيبت القيادة الجديدة فى موسكو بالإحباط حول مستقبل العديد من حلفائها المهيمين فى العالم الثالث، الذين تم استبدالهم من خلال انقلابات عسكرية فى منتصف الستينيات، وبدا أنهم يبتعدون عن تدخل الاتحاد السوفيتى فى شئون العالم الثالث، باستثناء ما يخص ڤيتنام. ومن دواعى السخرية، أن عدم رغبة السوفيت والصينيين زيادة مساعداتهم للدول الأخرى (لأسباب مختلفة) قد يكون خيرًا كبيرًا للثورة الـڤيتنامية، حيث أدى ذلك إلى تركيز المساعدات لـڤيتنام، فى الوقت الذى كانت فى أمس الحاجة إليه – حتى وإن لم تعتقد موسكو أو بكين أن هانوى قادرة على الانتصار العسكرى على الأمريكيين. أحد الأسباب المهمة للانشغال المتزايد بمساعدة الشيوعيين الـڤيتناميين كان سحق اليسار الإندونيسى على نحو وحشى فى ١٩٦٥، الذى ربما كان أكبر هزيمة منيت بها الشيوعية فى العالم الثالث فى الستينيات، و–على ما يبدو– نصرًا حاسمًا لقدرات الولايات المتحدة على التأثير فى الشئون الآسيوية.

فى أوائل الستينيات، كان نظام سوكارنو فى إندونيسيا معضلة لكل من موسكو وبكين كما كان معضلة بالنسبة لواشنطن. ففى حين رحبَ السوفيت برطانة الزعيم الإندونيسى الزاعقة المعادية للغرب، وبرغبته فى أن يواجه فلول الاستعمار فى جنوب شرق آسيا، فإنهم انزعجوا بشأن انهيار إندونسيا الاقتصادى وبشأن تقارب النظام والحزب الشيوعى الإندونيسى مع الصين، كما كانوا قلقين بشأن ما اعتبروه عدم قدرة على التنبؤ بأفعال سوكارنو. من جانبه، أصبح ماوتسى تونج أكثر ضيقًا بأنظمة العالم الثالث "البرجوازية"، حتى عندما حاولوا التقرب من

الصين، وشكوا أن يكون سوكارنو يحاول استخدام الصين، لكى يحقق الهيمنة على منطقة جنوب شرق آسيا. وفى حين رحبت بكين بالدعم الشعبى الذى قدمه الحزب الشيوعى الإندونيسى لمواقفها الأيديولوچية، فقد اعتبرت الحزب الإندونيسى مصابًا بالكثير من الممارسات التعديلية. ومن دواعى السخرية أن بكين بينما كانت تتجه نحو أقصى اليسار، رفضت ما اعتبرته سوء معاملة للصينيين فى إندونيسيا (الذين كانوا يعانون سوء المعاملة فى معظم الحالات لأنهم تجار أو رأسماليين).

ولكن لو كانت الدول الشيوعية ترى أن التوتر كان يعتمل فى إندونيسيا، فإن مخاوفهم لم تكن شيئًا بالنسبة لوجهات نظر واشنطن. جاء فى تقرير للأمن القومى الأمريكى فى يوليو ١٩٦٤ أن "الطريق أمام إندونيسيا وعر بسبب التردى الداخلى والعدوان الخارجى والربح الشيوعى الكامل". ورغم عدم رغبة الرئيس چونسون فى قطع جميع العلاقات بسوكارنو – ومن ثم بالعسكرية الإندونيسية التى كان يعتبرها ثقلا مضادا للحزب الشيوعى الإندونيسى – استنتج أن زعيم خامس أكبر دولة فى العالم، من حيث عدد السكان، يمثل تهديدًا لاستقرار المنطقة بأسرها. وأسر القول إلى السيناتور ريتشارد راسل: "إننى لا أثق به. ولا أعتقد أنه مصدر خير". فى منتصف عام ١٩٦٤ تسارع برنامج العمليات السرية ضد التأثير الشيوعى فى إندونيسيا – الذى كان الرئيس كينيدى قد أقره بالفعل فى ديسمبر ١٩٦١. ورغم أننا لازلنا لا نعرف تحديدًا الأساليب التى استخدمتها المخابرات المركزية ولا من كانوا عملاءها من الإندونيسيين، فإن الأهداف كانت واضحة.

تصوير الحزب الشيوعى الإندونيسى باعتباره معارضًا طموحًا وخطيرًا لسوكارنو وللوطنية المشروعة، وأنه أداة فى يد الإمبريالية الجديدة التى تنتهجها الصين. تقديم الدعم السرى للأفراد والمنظمات القادرة على

اتخاذ خطوات معوقة للحزب الشيوعى الإندونيسى والمستعدين لذلك. تشجيع وجود قاسم أيديولوچى مشترك فى إطار مفاهيم سوكارنو المعلنة، التى سوف تؤدى إلى اتحاد العناصر غير الشيوعية، وإحداث صدع بين الحزب الشيوعى الإندونيسى وتوازن المجتمع الإندونيسى. إيجاد مواد وأساليب دعائية سوداء ورمادية لتستخدم داخل إندونسيا، ومن خلال وسائل إعلامية مناسبة خارج إندونيسيا لدعم البرنامج. تحديد قادة قادرين فى داخل إندونيسيا وتنشئتها بهدف التأكد من أن خلف سوكارنو، بعد وفاته أو خلعه، لن يكون شيوعيًا.

أحد أسباب قلق الولايات المتحدة كان سياسة سوكارنو فى مواجهة دولة ماليزيا المجاورة، وهى الدولة التى اعتبرها، وهو على حق، اختراعًا للاحتلال البريطانى الجديد أنشئت لمنع توحيد كل الملايويين فى دولة إندونيسية واحدة. فى ١٩٦٣ و١٩٦٤ ترددت چاكارتا كثيرًا على حافة الحرب مع ماليزيا وحليفتها بريطانيا، فى حين حاولت إدارة چونسون إزالة التوتر حتى لا تقوى شوكة الحزب الشيوعى الإندونيسى وحلفائه[٣٦]. ولكن سوكارنو اعتبر موقف الولايات المتحدة خيانة. فقد رأى أن إدارة كينيدى ساعدت إندونيسيا فى بسط سيطرتها على إيريان چايا ***Irian Jaya*** التى كانت تحتلها هولندا، فى حين أن خليفته يخطط الآن للإبقاء على ماليزيا تحت الحكم البريطانى. ولما ووجه بتهديدات واشنطن لمنع كل المساعدات التى كانت تقدمها للاقتصاد المتهاوى، رد سوكارنو بأسلوب مميز:

إن الصداقة هي كل ما أردته من أمريكا.... ربما هـي لم ترَ أن ثورتنا توازى ثورتها؟ حسن، أمريكا، لا تحـاولى أن تكسبى قلبى؛ ولكن لا تحاولى أيضا أن تكسريه... لا تتعاملى مع سوكارنو على الملأ باعتباره طفلا مدللا وترفضى إعطاءه أى حلوى ما لم يكن طفلا طيبا، لأن سوكارنو ليس لديه خيار آخر سـوى أن يقـول لـك "فلتذهب مساعداتك إلى الجحيم"[٣٧].

ومع انهيار الاقتصاد، لعدم كفاءة نظام سوكارنو المالى بالأساس، ومع تصاعد الاضطراب الداخلى، تحرك سوكارنو سياسيا نحو اليسار، وفى خطاب ألقاه في يوم الاستقلال، السابع عشر من أغسطس ١٩٦٤، أكد من هم داعموه:

لازال هناك أناس يتهمـون سـوكارنو بـ"التحيـز" و"المحاباة". سوكارنو يتحيز؟ يتحيز لمـن؟ لـو كـان التحيز ضد الإمبريالية والإقطاع وأعداء الثورة بوجـه عام، فنعم! بالتأكيد لسوكارنو ما يفضله، إنـه يتحيـز للشعب ويتحيز للثورة نفسها... لقـد اتُهِمـتُ بـأننى أفضل جماعة واحدة فقط من أسرتنا الوطنيـة. نعـم. إننى أفضل جماعة واحدة فقط – الجماعـة الثوريـة! إننى صديق للوطنيين، ولكن للوطنيين الثوريين فقـط! إننى صديق للجماعة الدينية، ولكن للجماعة الدينيـة الثورية فقط! إننى صديق للشيوعيين لأن الـشيوعيين ثوريون[٣٨].

في اجتماع قمة عدم الانحياز في القاهرة في أكتوبر، شرح سوكارنو لتيتو أن هدفه الحالي كان أن يوجه السياسة الإندونيسية إلى اليسار، وبالتالي يُحيِّد العناصر "الرجعية" في الجيش التي قد تمثل خطرًا على الثورة. لم يكن ينوى أن يتخلى عن التحالف بين الوطنيين والتقدميين الدينيين والشيوعيين، ولكن أن يضمن أن التحالف، حسب تعبيره، "سيكون قادرًا على الدفاع عن نفسه"[٣٩].

جاءت نهاية العام الذى عاشه سوكارنو فى خطر في سبتمبر ١٩٦٥. في أجواء جـــاكارتا السياسية الساخنة، حيث كانت تتردد الشائعات يوميًا عن خطط وانقلابات، حاولت مجموعة من ضباط الجيش الراديكاليين أن تسحق قيادة الجيش، مدعية أنها (أى القيادة) ضد سوكارنو وضد الثورة. ورغم أنها قتلت ستة من الـــجنرالات القياديين في الجيش - ثم حصلت على دعم المكتب السياسي فيما بعد - فإن هذه الحركة التي سميت "حركة الثلاثين من سبتمبر"، فشلت في بسط سيطرتها على البلاد. وبعد أيام من الفوضى، حيث رفض سوكارنو أن ينحاز لأى من الجانبين، رد الجيش وحلفاؤه الوطنيون بلا هوادة. وتحت قيادة رئيس الاحتياطى الاستراتيـــجـــى للجيش، الـــجنرال سوهارتو، ذُبح أكثر من نصف مليون شيوعى ويسارى في نوبة من العنف عمت البلاد في الشهور التالية. ومات كذلك مشروع سوكارنو السياسي - أمين "الزعيم العظيم للثورة" على يد الـــجنرالات وأُرغِم على الاستقالة على نحو مخزٍ في ١٩٦٧.

جاءت نهاية الثورة الإندونيسية صدمة للسوفيت، الذين ألقوا باللائمة فى هزيمة اليسار على التخطيط الصينى وحماقات الحزب الشيوعى الإندونيسي. في يناير ١٩٦٤ كان زعيم الحزب الشيوعي الإندونيسي إيديت *Aidit*، قد اتهم موسكو بأنها تبنى الرأسمالية، وزعم أنها في يوم من الأيام "سوف تتحول تمامًا إلى الرأسمالية"[٤٠]. كانت علاقة موسكو بالحزب الشيوعي الإندونيسي قد أخذت فى

التدهور منذ بداية ١٩٦٥ مع اتهام الجريدة الشيوعية الإندونيسية الرئيسية للسوفيت بأنهم جزء من قوى *NEKOLIM* (الاستعمار الجديد والاستعمار والإمبريالية) التى كان يبغضها سوكارنو والحزب الشيوعى الإندونيسى بشدة[٤١]. من جانبها، كانت السفارة السوفيتية تقوم باتصالاتها الرئيسية من خلال الضباط والوطنيين المعتدلين وليس من خلال الحزب الشيوعى الإندونيسى. وفى تقرير إلى موسكو عام ١٩٦٤ بشأن تحكم الصين فى الحزب الشيوعى الإندونيسى، أوردت السفارة أسماء رؤساء حزب نهضة العلماء الإسلامى قائلة إن "الحزب الشيوعى الإندونيسى يعمل ضد الاتحاد السوفيتى، والاتحاد السوفيتى صديق لإندونيسيا. إذن لابد من الاعتناء بالحزب الشيوعى الإندونيسى"[٤٢]. واتهم السفير السوفيتى فى تعليقه التالى على أحداث الثلاثين من سبتمبر زعماء الحزب الشيوعى الإندونيسى بأنهم وقعوا أسرى للأحداث، بدلا من أن يحاولوا أن يشكلوها، ومن ثم جلبوا لأنفسهم الكارثة. وتشكك السفير فى تواطؤ الصين فى الانقلاب، بما أن الانقلاب كان موجهًا ضد رئيس أركان الجيش، ناسوشن، الذى كان على علاقة طيبة مع السوفيت[٤٣].

أما بالنسبة للولايات المتحدة فكان ذلك الانقلاب العاتى وتهميش سوكارنو وفرض دكتاتورية الـــجنرال سوهارتو الموالى لأمريكا تدريجيًا، نتائج للأزمة السياسية الإندونيسية التى كانت فى صالح أمريكا بدرجة تفوق الخيال. ومن المؤكد أن الأمريكيين كانوا يسعون إلى هذه النتائج منذ أوائل الستينيات، ولكن كان قبل وصول سوهارتو إلى السلطة باثنى عشر شهرًا، أن توقعت السفارة الأمريكية أن "قوة هدف الجيش ووحدته تحت حكم غير الشيوعيين سوف تتلاشى لا محالة"[٤٤]. فى نوفمبر ١٩٦٥ أيدت المخابرات المركزية دعم الولايات المتحدة لجهود الجيش للقضاء على الشيوعية:

أما وقد استغلوا الفرصة السانحة التى خلقها خطأ الحزب الشيوعى الإندونيسى فى حركة الثلاثين من سبتمبر، ويطلبون المساعدة السرية كما يطلبون التفاهم لتحقيق هذه المهمة، وعلينا ألا ننتقد دوافعهم أو سعيهم للمصلحة وألا نتردد فى منحهم مثل هذه المساعدة بشرط أن نفعل ذلك سرًا، بحيث لا نسبب الحرج لهم أو لحكومتنا[٤٥].

ورغم أن مدى مساعدة أمريكا لسوهارتو والجماعات الإسلامية فى اصطياد الشيوعيين فى ١٩٦٥ و١٩٦٦ ليس معروفًا، فمن الواضح أن الولايات المتحدة – وكذا بريطانيا وأستراليا – أمدوا الجيش الإندونيسى بقوائم بأعضاء الحزب الشيوعى، وأنهم بذلك أصبحوا متواطئين فى قتل جماعى وحشى، وإن كان بشكل غير مباشر[٤٦].

كان ما يعنى المستشارين الرئيسيين فى إدارة چونسون بعد الانقلاب العسكرى فى إندونيسيا هو مدى تأثير هذا الانقلاب فى بقية المنطقة. كتب روبرت كومر *Robert Komer* للرئيس فى مارس ١٩٦٦ "من الصعوبة بمكان تقدير دلالة انتصار الجيش على سوكارنو. فإندونيسيا لديها سكان أكثر، وربما موارد أكثر من أى دولة أخرى فى جنوب شرق آسيا. كانت على الطريق الصحيح لأن تصبح دولة شيوعية توسعية أخرى، مما كان سيهدد موقف الغرب كله فى جنوب شرق آسيا. أما الآن، فقد انقلب هذا الموقف تمامًا"[٤٧]. وقال سفير چونسون إلى ڤيتنام الجنوبية هنرى كابوت لودج *Henry Cabot Lodge* فى مجلس الأمن القومى إن "الانقلاب الحالى على

الشيوعيين فى إندونيسيا كان نتيجة مباشرة لموقفنا الحاسم فى ڤيتنام"[٤٨]. وفى موسكو بينما كان الكثير من مستشارى السياسة الخارجية يذرفون القليل من الدمع على قيادات الحزب الشيوعى الإندونيسى، كانوا يشعرون "بالخزى" لأنهم لم يفعلوا المزيد من أجل الإندونيسيين. وبالنسبة للسوڤيت أيضا زاد خلع سوكارنو من أهمية ڤيتنام، فهزيمة الحزب الشيوعى هناك كانت تعنى إخراج السوڤيت من جنوب شرق آسيا كلها.

بعد عام ١٩٦٦ بدأ كل من الصين والاتحاد السوڤيتى يتبادلان التقديرات بشأن مدى تحمل ڤيتنام الشمالية، وقدرات الشيوعيين على القتال فى الجنوب، وقدرة إدارة جونسون السياسية على تكثيف آلة الحرب الأمريكية إلى الدرجة التى تجعل هانوى تتمنى العودة إلى الوضع السابق. بالنسبة للصين لم يكن هذا التغير فى تقدير ڤيتنام يعنى الكثير فى السياسة الخارجية، حيث كانت البلاد بالفعل مستهلَكة فى الثورة الثقافية (رغم أنها مهدت الطريق لتطبيع ماو العلاقات مع الولايات المتحدة بعد عام ١٩٦٩). وبالنسبة لموسكو، أتاحت النجاحات غير المتوقعة للجيش الڤيتنامى والصعوبات التى واجهها ليندون جونسون فرصًا لانتصار عظيم، ولكنها أيضًا كانت تضع فى ذهنها أن تذهب هانوى لأبعاد غير محسوبة، وأن يكون رد فعل الولايات المتحدة زيادة الضغوط على الدول الاشتراكية الأخرى بما فيها تلك الموجودة فى أوروبا. ولذا فقد اعتبر الكرملين نفسه صانع سلام، يرغب فى تحقيق أفضل تسوية ممكنة فى شمال ڤيتنام (لكنه فى الوقت نفسه يخشى أن يكتشف الآخرون افتقاره الحقيقى للتأثير فى قيادة حزب العمال الڤيتنامى). ولذا كان الإصرار الأمريكى على التعامل مع هانوى من خلال

موسكو مصدر راحة لبريـــچينيف وكوسيـــچن – فالأمر لم يعزز بـــداخلهم الشعور بأن موسكو كانت رأس الثورة فى العالم فحسب، وإنما قدم للسوفيت نفوذا وفاعلية فى جوانب أخرى من السياسة العالمية كذلك.

داخل الجارتين القريبتين من فيتنام، لاوس وكامبوديا، اللتين تقاســـمتا معها نفس المصير باعتبارهما جزأين من الإمبراطورية الفرنـــسية، دفعـــت بدايات الانتصار العسكرى للشيوعيين الـــفيتناميين ضد الولايات المتحدة إلى تجرؤ اليسار على القيام بهجمات بنفسه. فى لاوس، حيث اندلعت حرب أهلية جديدة بين الشيوعيين بقيادة باثيت لو ***Pathet Lao*** والحكومة المحايـــدة فـــى ١٩٦٣، أدى الدعم العسكرى من فيتنام الشمالية (الذى كان ضد رغبة الاتحاد السوفيتى فى البداية)، إلى زيادة نجاحات باثيت لو قرب نهايـــة الـــستينيات. وفى الوقت نفسه كان اليسار اللوتانى يزداد اندراجًا تحت إمرة الـــفيتنـــاميين وسيطرتهم. أما فى كمبوديا فإن الحزب الراديكالى الرئيسى – وهو جماعـــة وطنية تعرف بالفرنسية باسم الخمير الحمر ***Khmer Rouge*** – فكـــان علـــى علاقة غير طيبة بـــفيتنام منذ بداياته فى أوائل الـــستينيات. وبـــدت فـــرص نجاحهم ضئيلة فى بلد يقوده الأميـــر – نـــورودوم ســـيهانوك ***Noroddom Sihanouk*** – الذى سمح للـــفيتناميين الشماليين وجبهة التحرير الوطنى ***NLF*** أن تقيم قواعد إمدادات على الأراضى الكمبودية، بل إنه قطـــع فـــى ١٩٦٥ العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

ولكن ضرب أمريكا لكمبوديا بالقنابل فى ١٩٦٩، والغزو الأمريكـــى البرى القصير لها فى العام التالى غيَّر هذه الصورة تماما. تم إزاحة الأميـــر سيهانوك فى انقلاب، بينما راحت حركة الخمير الحمر تجتذب أعدادا أكبـــر

من التابعين بسبب مزجها الغريب بين الأفكار الماركسية والوطنية. وفى حين كان زعيم الخمير الحمر سالوث سار ***Saloth Sar*** – الذى سمى نفسه پول پوت ***Pol Pot*** – يدين تدخل الڤيتناميين فى ثورته فى كل وقت، فإنه قد بدأ يتلقى معونات عسكرية من هانوى بدءا من ١٩٦٩، لكى تساعده على هزيمة الأمريكيين ونظام كمبوديا العسكرى الذى يساندونه.

أثناء حربها مع الولايات المتحدة، لم تتدخل ڤيتنام قط خارج حدودها فى ذلك النوع من العالمية الاشتراكية الذى وجدناه فى حالة كوبا، ولذا أصبحت الثورة الڤيتنامية إلهامًا غير مباشر للدول فى العالم الثالث، فى العالم المنادى بالوحدة الأوروبية كذلك كما سنرى. أصبحت ڤيتنام رمزًا للمقاومة الناجحة للولايات المتحدة وللبطولة الثورية وللخير فى مواجهة الشر إذ يقاتل داوود جوليات. كانت ڤيتنام بالنسبة للكثيرين من أنصار العالم الثالث – خاصة من بدأوا رحلتهم تجاه فقدان الثقة بسبب الفساد وسوء الإدارة فى الدول حديثة الاستقلال – نموذجًا مشرقًا لحرب العصابات الصحيحة (وكانت تبعد عنهم جغرافيًا بما يكفى بحيث لم يستطيعوا أن يتبينوا النتائج الحقيقية للثورة الڤيتنامية ولا أن يأخذوها فى الاعتبار). أرسل تشى چيڤارا رسالة إلى مؤتمر القارات الثلاث ***Tricontinental Conference*** فى هاڤانا فى ١٩٦٧، وكان عائدًا لتوه من هزيمة متواضعة فى الكونغو، وفى طريقه إلى هزيمة كارثية فى بوليڤيا، حيث استصرخ الڤيتناميين:

> **ما كل هذه العظمة التى أظهرها هذا الشعب! يالهم من أبطال وشجعان! ويا له من درس يحمله نضالهم للعالم...إن شعوب القارات الثلاث تراقب وتتعلم**

> **الدرس من ڤيتنام. بما أن الإمبرياليين يستخدمون التهديد بالحرب لكى يبتزوا البشرية، فإن رد الفعل الصحيح هو ألا نخشى الحرب. هاجم بقوة وبلا هوادة فى كل مواجهة – هكذا ينبغى أن يكون التكتيك العام للشعب.**

لكنه أنب أيضًا من لم يفعلوا الكثير لمساعدة الڤيتناميين:

> **إن تضامن العالم المتقدم مع الشعب الڤيتنامى يشبه السخرية المرة لضجيج العوام الرومانيين وهم يشاهدون من يقاتلون حتى الموت لإمتاعهم فى السيرك الرومانى. فتمنى التوفيق للضحية لا يكفى، لابد من المشاركة فى مصيرها. لابد من مشاركة الضحية فى الموت أو فى الانتصار... مذنبون أولئك الذين ترددوا فى اللحظة الحاسمة أن يجعلوا ڤيتنام جزءًا منيعًا من الأراضى الاشتراكية – نعم كانوا حينئذ سيخاطرون بحرب على المستوى العالمى، ولكنهم أيضا كانوا سيرغمون الإمبرياليين الأمريكيين على اتخاذ قرار. كذلك أذنبوا من أصروا على حرب الإهانات وإحباط بعضهم البعض، وهى الحرب التى بدأت منذ وقت مضى بين نواب القوتين الكبريين فى المعسكر الاشتراكى.**

بالنسبة لتشى وللكثيرين من اليساريين الآخريين – بمن فيهم، كما سنرى، بعض من فى الدول الصناعية – أسهمت كوبا وڤيتنام فى إلهام يسار جديد رأى أن

كلا من النموذج السوفيتي للتنمية والسياسة الخارجية السوفيتية شديدي الديماجوجية والاكتفاء بالذات والتراخي. كثيرًا ما كان عدد صغير من هذه الجماعات والأحزاب يدعي نقد السوفيت من زاوية أكثر ماركسية راديكالية، فكانوا يرون أن الصين في عهد ماو هي الهادي الجديد، ولكنهم ادعوا أيضًا أن كوبا وفيتنام كانتا ترشدان إلى نصر أشمل وأسرع على الإمبريالية. وفي حين انخرط الكوبيون في بعض هذه الحركات مباشرة، في كل من أمريكا اللاتينية وأفريقيا، كان الفيتناميون يقدمون نموذجًا أكثر منه دعمًا. كان النجاح العسكري والسياسي لهانوي ضد الولايات المتحدة، وخاصة بعد هجوم تت عام ١٩٦٨، قد خلق ثورة متجددة في جنوب شرق آسيا، حيث ادعت الأحزاب أنها تعلمت من فيتنام الشمالية ومن وجبهة التحرير الوطني كيف تثير شكلا جديدًا من حرب العصابات الثورية. وبما أن قلة قليلة من زعمائهم كانوا قد درسوا التجربة الفيتنامية الحقيقية (ناهيك عن تدابيرها العسكرية، التي تميل إلى أشكال الحرب التقليدية)، فقد يستطيع المرء أن يتحدث عن تلك الثورات "التي تلهمها فيتنام" كنوع من سوء الفهم الخلاق، يقوده في الغالب مفكرون يعبدون حرب العصابات الفلاحية البطولية.

ماليزيا وتايلاند والفلبين كلها، شهدت ثورات تقودها مثل تلك الجماعات بعد هجمات فيتنام الشمالية ضد الولايات المتحدة وحكومة فيتنام الجنوبية. في ماليزيا قامت حركة حرب العصابات الشيوعية في أواخر الستينيات على بقايا الحزب الشيوعي الماليزي وأخذت الكثير من نقاط ضعف هذا الحزب، بما فيها البقاء كحركة صينية إثنية. وكان نتيجة ذلك أن بقي الشيوعيون الماليزيون منعزلين، بدون أي فرصة حقيقية لتحدي المؤسسة الملايوية التي ردت بحرمان كل المجتمع الصيني من حق التصويت في ١٩٦٩. وبعد أن قطعت الصين دعمها في ١٩٧٤ أصبح الحزب الماليزي عاجزًا تمامًا. في تايلاند ساق الانقلابان العسكريان في ١٩٧١ و ١٩٧٦ – اللذان زعم المجلس السياسي العسكري أنهما كانا نتيجة

للقلاقل الإثنية والطلابية - ساقا النشطاء اليساريين إلى تحت الأرض، حيث بدا أنهم سيبدأون حرب عصابات ناجحة ضد الحكومة وضد القواعد الأمريكية. ولكن اليسار التايلاندى سرعان ما تصدع، تحت وطأة برنامج مساعدات أمريكى مكثف للحكومة. ومع عدم وجود استراتيجية عسكرية واضحة ومستمرة، ومع عدم وجود دعم من فيتنام أو الصين، وجد معظم قادة الحركة طريقهم إلى المدن، تاركين خلفهم الفلاحين ومجموعات القلة الإثنية، التى كانوا يزعمون أنهم سيقودونهم إلى المجلس السياسى العسكرى فى بانكوك.

فى الفلبين ، اتبع جيش الشعب الجديد ***New People's Army (NPA)*** والحزب الشيوعى للفلبين (الماركسى اللينينى) اتبعا طريقًا مختلفًا. بدأت جماعة الحزب الشيوعى للفلبين، الذى يُعد بالأساس انفصالا توجيه الصين عن الحزب الشيوعى السوفيتى، بدأت باغتيال المسئولين فى دكتاتورية فرديناند ماركوس ***Ferdinand Marcos*** فى ١٩٧٠، والحصول على الأسلحة من خلال نصب الكمائن حول قاعدته الرئيسية فى لوزون الشرقية. وفى منتصف الثمانينيات كان لجيش الشعب الجديد ***NPA*** أكثر من عشرين ألف مقاتل منظمين فى مجموعات لحرب العصابات فى كل جزر الفلبين وخلايا حزبية تحت الأرض فى القرى والمدن. وكان قائده جوزيه ماريا سيسون ***Jose Maria Sison*** مفكرًا لم يدرس الماركسية اللينينية فحسب وإنما النظريات الغربية عن الثورة كذلك. كان سيسون ينحدر من عائلة من كبار ملاك الأراضى فى لوزون وألهمته نماذج القادة من أمثال لومومبا وكاسترو و- شأن الكثير من مفكرى اليسار الجديد فى الغرب - كان أول صراع له مع السلطات عندما كان يتظاهر ضد الحرب على فيتنام. ولأن سيسون كان قد درس فى إندونيسيا فى أوائل الستينيات فقد كان يعتقد أن الحزب الشيوعى الإندونيسى قد فشل لشدة ضعف تنظيمه السرى فى الريف، وقرر ألا يكرر الخطأ نفسه فى الفلبين. ولكن فى حين ساعدت الاستراتيجية الفلاحية الحزب

الشيوعى الفلــبينى على البقاء حتى اليوم، فإنها أيضًا عزلتــه عــن مجموعــات المعارضة الرئيسية فى المدن. وعندما سقطت ديكتاتورية ماركوس فى ١٩٨٦، لم يستطع الحزب الشيوعى الفلــبينى أن يفيد من التغيرات السياسية، وأصــبح أكثــر تهميشًا عند نهاية الحرب الباردة حيث ساد الفلــبين نظام سياسى أكثر تعددية (٤٩).

لم تلهم المقاومة الــڤيتنامية للولايات المتحدة الراديكاليين فى العالم الثالــث فحسب، وإنما جعلت الحرب الباردة فى العالم الثالث – لأول مرة – محور تعبئــة اليسار فى العالم الأوروبى نفسه. وقــد وجــد الطــلاب الأوروبيــون الغربيــون والأمريكيون الذين تظاهروا فى الشوارع واحتلوا جامعاتهم فى أواخر الستينيات أن اليسار "القديم" – من اشتراكيين وشيوعيين – كان ضعيفًا جدًا فى أمور الإصــلاح الداخلى وهادئًا جدًا عند التعامل مع مشكلات العالم الثالث. واعتقد راديكاليو اليسار الجديد ***New Left*** أن "الفعل المباشر" من أسفل، من خلال تحــالف بــين الطــلاب والعمال، فقط، يمكنه أن يكسر العقبة فى السياسة الغربية. أصبحت جبهة التحريــر الوطنى أو تشى چيڤارا – أو حتى الثورة الثقافية الصينية – رموزًا للفعل الحماسى الذى طالب به الطلاب المتظاهرون. وكما أخبر هانز يورجن كرال ***Hans-Jürgen Krahl***، أحد زعماء ثورة الطلاب فى برلين الغربية، القضاة وهو بــداخل قفــص الاتهام فى ١٩٦٨ "أن العالم الثالث قد علمنا مفهوم السياسة الراديكالية المتمــسكــة بالمبــادئ، المختلفة عن تلك السياسة البرجوازية الضحلة التى لا مبادئ فيها.

إن تشى چيڤارا وفيديل كاســترو وهــو شــى منــه وماوتسى تونج ثوريون علمونا الأخلاقيات الــسياسية لسياسة لا تخضع، تمكننا من القيــام بــأمرين: أولا، رفض سياسات التعايش السلمى المتمثلة فى السياسة الواقعية للاتحاد السوڤيتى، وثانيًا، أن نرى بوضــوح

الإرهاب الذى تقوم به الولايات المتحدة بمساعدة الجمهورية الفيدرالية [الألمانية] فى العالم الثالث(٥٠).

لعل وضع "معاداة الإمبريالية الجديدة" فى مركز النضال من أجل التغيير فى الغرب كان نظرة عامة لدى الطلاب المتظاهرين، لكنه أشعل بعض الاشتراكيين فى أوروبا الغربية مثل الكاتب الألمانى جونتر جراس ***Günther Grass***، الذى اتهم الطلاب بأنهم يتحدون مع العالم الثالث بينما ينسون القهر الشيوعى داخل أوروبا نفسها. وقال إن التظاهر ضد الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا فى أغسطس ١٩٦٨ كان أقل جذبًا للطلاب من السلوك الأمريكى فى فيتنام. يقول جراس إنه بالنسبة لطلاب برلين وباريس كان "الإصلاح فى براغ غامضًا وغير مثير.

أو بعبارة أخرى: فإن برنامج ألكساندر دوبشيك *Alexander Dubcek* المصاغ بعناية للاشتراكية الديمقراطية لم يستطع أن يتنافس مع كاريزما شى جيفارا. عملية واقعية، أعاقتها التسويات الضرورية، وقطعتها اليوم سياسة القوة، وغرقت فى التصفيق الإيقاعى والتهليل الخالى من النقاش من أجل هو شى منه(٥١).

كان لليسار الجديد فى النهاية تأثير محدود فى سياسات أوروبا الغربية والولايات المتحدة، ولكن المظاهرات التى نظموها ساعدت فى إقناع الكثير من النخبة الأمريكية أن حرب فيتنام لن يمكن الفوز بها بتكلفة مقبولة – فى الداخل وفى الخارج. وعندما أعلن ليندون جونسون أنه لن يحاول إعادة ترشيح نفسه حتى يفتح طريقًا إلى التسوية السلمية فى صراع فيتنام، كان معارضو السياسة

الأمريكية، سواء فى نيويورك أو باريس أو موسكو أو العالم الثالث مذهولين. لأول مرة يطيح صراع فى العالم الثالث برئيس أمريكى ويفرض حدودًا على ما كان يعتبر قبل سنوات قليلة ماضية نموذجا من التدخل غير المقيد – إن لم يكن غير المحدود. ورغم أن خليفة جونسون، ريتشارد نيكسون، لم يتبن سياسة خارجية غير تدخلية بحال من الأحوال، فإنه سرعان ما أدرك أن الحرب فى ڤيتنام لن تنتهى بانتصارهم واختار أن ينسحب (بعد أن قلد الڤيتناميين الشماليين فى توسيع الحرب لتشمل كمبوديا). كانت النهاية البطيئة لحرب ڤيتنام نقطة تحول فى تاريخ الحرب الباردة، استخلصت منها الدروس، بحيث أصبح العالم الثالث فى السبعينيات يعمل له حساب أكثر، أو أقل، فى الصراع العالمى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى.

ومن دواعى السخرية أن نهاية الحرب *بداخل* ڤيتنام، عندما حدث ذلك أخيرًا فى ١٩٧٥ – بعد اتفاقيات السلام بباريس ***Paris Peace Accords*** والانسحاب الأمريكى بعامين – كان ذلك هجومًا عسكريًا تقليديًا للغاية من قِبَل الشمال، أشبه بالانتصار السوڤيتى على القوات الألمانية فى كرسك فى ١٩٤٣، أو هجوم الحزب الشيوعى الصينى عبر اليانجزى ***Yangzi*** فى ١٩٤٩ منه إلى شعارات "حرب للشعب". لم تشهد ڤيتنام الجنوبية حمامات دماء عند الهزيمة، ولكنها شهدت خنقًا بطيئًا للقوات الجنوبية غير الشيوعية التى كانت قد تعاونت مع نظام هانوى بوصفه جزءًا من جبهة التحرير الوطنى. بدءًا من أواخر السبعينيات فصاعدا هرب مئات الألوف من الناس عن طريق البحر، أو، فى أغرب تغيير، عبر الحدود إلى الصين للهرب من النظام الشمالى الدكتاتورى الذى بدا أنه كان يوفر القليل من الفرص لمن لا يخدمون الحزب. وفى ١٩٧٩ وجدت ڤيتنام نفسها فى حرب ليس مع نظام الخمير الحمر فى كمبوديا المجاورة فحسب، (الذى يُعمِل الإبادة الجماعية والذى كان الڤيتناميون أنفسهم قد قووا من شوكته)، ولكن أيضا مع الحلفاء الصينيين

السابقين، الذين كانت العلاقة بهم آخذة فى التدهور منذ بداية الثورة الثقافية بالصين. بالنسبة لواشنطن وموسكو – اللذين كان خوفهما من تأثير بكين فى هانوى يحرك الكثير من سياساتهما تجاه ڤيتنام، كانت الحرب الثالثة فى الهند الصينية تمثل تذكارًا لسياساتهما فى العالم الثالث ككل. ولكن، كما سنرى، فإن حرب ڤيتنام وما بعدها لم تمثل عائقًا قويًا لسياسة التدخل لدى القوى الكبرى. التأثير الوحيد للحرب فى ڤيتنام انعكس على الشكل الذى سيأخذه هذا التدخل فى السبعينيات.

الحرب الباردة وانفراج التوتر بين القوى العظمى

كانت فترة انفراج التوتر بين القوى العظمى، التى استمرت من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٥ رد فعل مباشر على معضلة أمريكا فى ڤيتنام، فقد سببت الحرب ضغوطًا على كل من تمويل الحكومة الأمريكية وعلى نظام التحالف لديها، أولا وأخيرًا فى أوروبا الغربية، حيث لم يكن للحرب أى شعبية، فكان اليسار يراها جريمة ويراها معظم المحافظين تشتيتًا لا ضرورة له. حتى فى الداخل، حيث تحولت الحرب إلى قضية أخلاقية أضعفت بشدة من إيمان الكثيرين بالمؤسسات السياسية الأمريكية، بدأ جزء كبير من النخبة يعتقد أن الولايات المتحدة بحاجة إلى الابتعاد عن الأزمات العالمية، وأن مثل تلك الهدنة بين أمريكا والعالم لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال شكل ما من الاتفاق مع موسكو وربما حتى مع بكين. ومن دواعى السخرية أن سوء الفهم نفسه الذى أدى إلى البحث المجهَض عن السلام فى ڤيتنام – سوء الفهم القائل بأن سلوك هانوى متأثر بموسكو لا محالة – كان هو أحد أساسيات التهدئة: مفهوم أن الاضطراب العالمى لأواخر الستينيات يمكن التعامل معه من خلال التفاهم مع القوة العظمى الأخرى وعلى أساس إقرار ضمنى بـ"مصالحها".

من المنظور السوفيتى، كان انفراج التوتر هو ذروة سياسة حاول زعماؤه تطبيقها منذ منتصف الخمسينيات – فكرة التعايش السلمى واعتراف من الغرب بالاتحاد السوفيتى بصفته قوة عظمى أخرى لها ارتباطاتها العالمية الخاصة. واستنتجت موسكو أن فيتنام أظهرت لزعماء الولايات المتحدة وأوروبا الغربية كيف يستطيع الاتحاد السوفيتى مساعدة حليف ما، رغم بعد المسافة والإسهام بشكل حاسم فى انتصاره. جاء الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفـاكيا عام ١٩٦٨ فى الوقت نفسه الذى اتُفِق فيه على الخط الفاصل بين الشرق والغرب فى أوروبا فلم يعلق عليه الرئيس چونسون، الذى كان شديد الانشغال بـفيتنام، سوى تعليق قصير، وكان أمل موسكو أن تستخدم علاقتها مع إدارة نيكسون للحد من النفقات الدفاعية، مع التركيز على التعامل مع الخطر الصينى فى آسيا. بالنسبة لليونيد برچنيـف ***Leonid Brezhnev***، الذى أصبح أهم عضو فى القيادة السوفيتية الجماعية فى أواخر الستينيات، بدت هاتان القضيتان محوريتين: فقد أراد أن تكون وصيته حياة أفضل للشعب السوفيتى والأمان من صين ماو، التى بات يعتبرها تهديدًا كبيرًا ومباشرًا، خاصة بعد المصادمات الحدودية فى ١٩٦٩ التى أوشكت أن تسبب حربًا بين الدولتين.

وفى حين لم ينو السوفيت أبدًا أن تتضمن التهدئة مع واشنطن نهاية لدعم موسكو لحركات العالم الثالث وأنظمته، كان البيت الأبيض فى عهد نيكسون – على العكس من ذلك تمامًا، كما سنرى، يرى أن هناك فوائد جمة فى جميع المناحى فى العلاقة الأمريكية السوفيتية، سوف تتحقق من خلال المفاوضات مع قيادة برچنيـف. وفى الوقت الذى استطاع نيكسون أخيرا أن يصبح رئيسا للولايات المتحدة، بعد ثمانى سنوات قضاها نائبًا للرئيس أيزنهاور وخسارة بفارق ضئيل فى حملة عام ١٩٦٠ ضد چون كينيدى، أصبح مقتنعًا بضرورة خلق بيئة منتظمة للسياسة الخارجية الأمريكية. فكر نيكسون إلى درجة أبعد من كل رؤساء أمريكا قبله وبعده (وفى

الكثير من الأحوال باختلاف واضح عن مستشاره للسياسة الخارجية هنرى كيسنجر (*Henry Kissinger*) فكر فى الولايات المتحدة الأمريكية كقوة كبرى فى عالم من القوى المتصاعدة، حيث يمكن التوصل إلى بعض النظام فقط من خلال الاتفاقيات المبنية على أساس المصلحة الذاتية المحددة بدقة. كان ميل نيكسون إلى رؤية الولايات المتحدة كدولة "عادية" داخل نظام عالمى رؤية نادرة بين الزعماء الأمريكيين، وبالطبع مناقضة تمامًا لنظرة معظم أفراد النخبة الأمريكية عن العالم. كانت آراؤه مستقاة إلى حد بعيد من حرب فيتنام، حيث حررته من وهمه بشأن جدوى دعم الحرب الباردة فى الداخل ومدى سيطرة "قضية هامشية" على السياسة الأمريكية. ولطبيعته المرتابة الكتومة، اعتقد نيكسون أن مبادراته تجاه القيادتين السوفيتية والصينية ينبغى أن تبقى سرًا على الشارع الأمريكى، من أجل تجنب أى رد فعل سلبى بالداخل. وفى الوقت الذى تم فيه التوقيع على اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيــجية *Strategic Arms Limitation Treaty* فى ١٩٧٢، كان الكثير من الأمريكيين قد بدأوا يعتقدون أن موسكو قد وافقت على التعاون مع الولايات المتحدة بالشروط الأمريكية.

كان نيكسون يرى أن العالم الثالث، أولا وأخيرًا، مصدر اضطراب فى العلاقات الدولية، لا شأن للقوى العظمى به إلا إذا استخدمت إحدى القوتين النزاعات الموجودة فيه لكى تهدد مصالح القوة الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالوصول إلى المواد الخام. كان نيكسون يعتقد بوجود تراتبية عنصرية صارمة بين الأمم، ومن ثم كان يزدرى خطط تدعيم الديمقراطية فى العالم الثالث كجزء من المهمة الأمريكية فى الخارج. وقد أشاد فى يوليو ١٩٦٧، قبل أن يصبح رئيسًا، بـــ"قصص النجاح" الاقتصادى لتايلاند وإيران وتايوان والمكسيك.

> **فى تايلاند ملكية محدودة؛ وفى إيران ملكيــة قويــة؛ تايوان لها رئيس وقلة حاكمة؛ أما المكسـيك ففيهـا حكومة ذات حزب واحد. ولا يوجد فى أى مــن هـذه الدول ديمقراطية نيابية بالمقاييس الغربية. ولكن مــا حدث أن النظام الموجود فى كل دولة منها قــد نجــح فيها. لقد آن الأوان أن ندرك أنه بالقدر نفـسه الـذى تحب نظامنا السياسى، فإن الديمقراطيــة ذات الطــابع الأمريكى ليست بالضرورة هى الشكل الأفضل للحكومة بالنسبة لشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، الذين ينحدرون من خلفيات مختلفة عنا تمامًا.**

كان المبدأ الرئيسى فى السياسة الخارجية الأمريكية بالنسبة لنيكسون هو أن "ما يحدث فى تلك المناطق من العالم، لن يكون له، فى التحليل النهائى، أى تأثير مهم على نجاح سياستنا الخارجية فى المستقبل المنظور"[٥٢]. والتركيز الشديد على أزمات العالم الثالث الكثيرة المتفرقة سوف يأخذ الانتباه بعيدًا عن المنافسة الشديدة مع الاتحاد السوفيتى. وعندما تم تكليف مساعد كيسنجر "مارشال رايت" ***Marshall Wright*** بكتابة تقرير عن السياسة الخارجية تجاه العالم الثالث قال لرئيسه فى يأس:

> **سياستنا دفاعية بالضرورة فى كل من أفريقيا والأمــم المتحدة. فلا هذه ولا تلك لها أهميــة محوريــة فــى عمليات السياسة الخارجية الأمريكية ومصالحها. إننــا نتعامل معهما لأنهما موجودتان، وليس لأننا نريــد أن نحصل على شىء ما بسبب المشاركة فى أمورهمــا. هدفنا الآن هو أن نحد من الاهتمام والموارد التى تبذل**

من أجلهما. إن ما نريده حقًا منهما هو ألا يكونا سببًا للقلق أو المشاكل. ولذا فإن سياستنا ينبغي أن تُوجه إلى الحد من الأذى أكثر منها إلى تحقيق شيء محدد[٥٣].

بناء على الصورة التى وضعها هنرى كيسنجر لنفسه باعتباره الأكثر واقعية فى الشئون الدولية، فإن الوثائق التى أفرج عنها حديثًا لإدارة نيكسون تظهر أنه ظل متأثرًا بمفاهيم الحداثة والمهمة الأمريكية أكثر كثيرًا من رئيسه بكثير. ربما كان حاد النقد شديد السخرية، ولكنه عند الضرورة فضّل الوسائل التقليدية للمساعدة، الضغوط السياسية والاقتصادية و– فى اللحظة الأخيرة – التدخل للإبقاء على دول العالم الثالث متفقة مع استراتيجيات الولايات المتحدة الخاصة بالحرب الباردة. فى تقريره المهم لنيكسون فى أكتوبر ١٩٦٩ عن التغيرات فى السياسات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية، قال كيسنجر إن "زيادة تصدع القوة، وتشتت النشاط السياسى، والأنماط الأكثر تعقيدًا فى الصراع العالمى، والانحياز الذى ظهر خلال العقد الماضى، كلها عوامل قيدت قدرة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على السيطرة على آثار نفوذهما، وكشفت حدود قدرتهما على السيطرة على أفعال الحكومات الأخرى". وأنهى كيسنجر تقريره بتأكيد أهمية أمريكا فى العالم: إن الولايات المتحدة تمثل نفوذا شديدا ومتناميًا فى العالم من خلال نشاطات دولية واسعة النطاق يديرها أفراد ومؤسسات ومنظمات غير حكومية. وفى حين تم تقييد التأثير المباشر للحكومة الأمريكية على الصعيد الدولى بشكل أو بآخر، فإن التأثير التجارى والتقنى والثقافى مستمر فى التوسع"[٥٤]. وكانت إحدى المشكلات الأساسية بالنسبة لكيسنجر هى أنه بينما بقيت الولايات المتحدة المثال والنموذج أمام العالم، فإن الأمريكيين تتناقص لديهم الرغبة فى القيام بدور الزعامة الذى وقع عليهم بطبيعة الحال.

أحد الجوانب المهمة التي اتفقت فيها وجهات نظري نيكسون وكيسنجر، هي الحاجة إلى الحد من التدخل الأمريكي في العالم الثالث بعد كارثة فيتنام؛ وبدلا من استخدام القوة الأمريكية في الأزمات، ينبغي أن يقوم "رجال الشرطة" المحليون بالمسئولية- بمساعدة أمريكا- لكي تظل الشيوعية محجمة في مناطقهم. الدول البوليسية ***policemen states*** تلك في العالم الثالث – البرازيل وتركيا وجنوب أفريقيا وإيران وإندونيسيا – سوف تتلقى المساعدة والتدريب من الولايات المتحدة، بينما تتدخل واشنطن في أضيق نطاق ممكن في أساليب حليا لمشكلاتها الشيوعية "المحلية". وسوف تظل الولايات المتحدة تدعم إسرائيل، لا لأي ارتباط عاطفي، ولكن "لأن إسرائيل أكبر مانع حالي لقوة الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط"(٥٥). ومطلوب من اليابان أن تبني قوة عسكرية خاصة بها وتأخذ تدريجيًا دور الثقل الموازي للتأثير الصيني في آسيا. واعتقد نيكسون، ربما أكثر من كيسنجر، أن الرأي العام الأمريكي على المدى البعيد لن يقبل مستوى عاليًا من التورط الخارجي، ربما ليس حتى في أوروبا. وكان "مبدأ نيكسون" ***Nixon Doctrine*** محاولة لمناقضة السقوط الذي حدث في الهند الصينية: "فيما يتعلق بدورنا، فلابد لنا من أن نتجنب ذلك النوع من السياسة الذي يجعل دول آسيا تعتمد علينا حتى نُستدرَج إلى صراعات، كذلك الصراع الذي خضناه في فيتنام" (٥٦).

مثل ذلك الدور المتقلص في العالم الثالث – مراقبًا وليس متدخلا – كان ضرورة مصاحبة للانفراج وتحديدًا حيويًا للمحافظة على دعم الشعب الأمريكي. في محادثاته الطويلة مع كيسنجر، أكد الرئيس على دوره المهم في تجنب اليساريين والمتحمسين للسلام والانعزاليين.

الولايات المتحدة – ما ستكونه في الخمس وعشرين
عامًا القادمة يتوقف على ما إذا كنا نمتلك الجرأة

والقدرة على التحمل والحكمة لنقوم بدور القيادة، ذلك ما سيحدد مستقبل هذه البلاد... تلك هى الحقيقة. قد يريد الناس أن يدفنوا رءوسهم فى الرمال، قد يريدون أن ينكصوا على أعقابهم. حسن، سوف نخرج من العالم. من الذى سيبقى؟ النشيطتان: روسيا والصين الشيوعية(٥٧).

كانت حربا الشرق الأوسط فى ١٩٦٧ و١٩٧٣، اللتان بدأتا مع تصاعد التوتر بين إسرائيل وجيرانها العرب، اختبارين لعلاقة القوى العظمى وخاصة مبادئ عدم التدخل(٥٨). كان الدعم السوفيتى لمصر وسوريا فى ١٩٦٧ قد دفع عبد الناصر إلى الاعتقاد بأنه قادر على تصعيد الضغوط على إسرائيل، وتسبب فى إثارة هجوم إسرائيلى كانت الولايات المتحدة تعرف أنه واقع ولكنها لم تفعل الكثير لمنعه؛ وكان انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة قد جعلها تسيطر على مساحات أكبر من الأراضى العربية، وبدت غير مستعدة لتركها ثانية. تم القضاء على القوة العسكرية للدول العربية وتضاءل إيمان عبد الناصر بقيمة الدعم السوفيتى تمامًا. وظن الزعيم المصرى أنه آن الأوان لموسكو أن تظهر توجهاتها الحقيقية فى الشرق الأوسط: فهل كانت حقًا تريد مساعدة الدول العربية على تحرير أراضيها، أم أن كل تصريحاتها عن التضامن كانت كلامًا أجوف؟ وبعد تصاعد المناوشات مع القوات الإسرائيلية فى ١٩٦٩، قام عبد الناصر بزيارات سرية إلى موسكو فى ديسمبر ١٩٦٩ ويناير ١٩٧٠ طالبًا مساعدة القوات المسلحة السوفيتية. وقال لبرجنيف "دعنى أكون صريحًا معك، لو لم نحصل على ما أطلبه منك فسوف يفترض الجميع أن الحل الوحيد فى يد الأمريكيين"(٥٩).

رغم أن برجنيف كان راغبا فى مساعدة عبد الناصر لإعادة بناء قواته العسكرية، فإنه لم يكن سعيدا بشجاعة العرب وبسالتهم فى القتال، وقال لجمع من رؤساء دول الكتلة الشرقية فى يوليو ١٩٦٧ "لقد تبعثرت آلتنا العسكرية مرة أخرى. إن العرب يعتمدون علينا، يريدون استدراجنا إلى الحرب. فى فيتنام كنا متورطين بالفعل، ولكن [على الأقل] كان هناك برنامج سياسى". واستطرد الزعيم السوفيتى:

> **لماذا منيت الجمهورية العربية المتحدة بالهزيمة؟ إهمال كامل، عدم فهم لماهية الجيش فى الظروف الحديثة، عدم قدرة على التعامل مع التقنيات العسكرية الحديثة. إنها حقيقة ولابد من أن تقال بوضوح: تلك دولة إقطاعية، وجدت نفسها فجأة فى محك مع الأسلحة الحديثة، أحدث الدبابات ومنصات الصواريخ، إلخ، وبأسلحة لا يستطيع أن يتعامل معها سوى رجل قد أتم تعليمه الثانوى ولديه على الأقل عامان من التدريب على هذه الأسلحة. الآن عبد الناصر يقوم بعملية جلد للذات، لكننا لا نشعر بأى تحسن.... من حيث الشعور والأخلاق والسمعة، عانينا من الهزيمة. فليس كل عمالنا يفهمون لماذا هزم مليونا إسرائيلى هؤلاء العرب الكثر، المسلحين بأسلحتنا؟ وليس من السهل أن نشرح ذلك(٦٠).**

وفى أواخر خريف ١٩٦٧ كان برنامج إعادة التسليح السوفيتى للمصريين قد عوض ٨٠% من خسائر الطائرات الحربية والدبابات فى الحرب(٦١). وكان

قرار أوائل السبعينيات بإرسال مدفعية ووحدات دفاع جوى وقوات جوية للمشاركة فى المعركة خطوة مهمة للمكتب السياسى فى الحزب الشيوعى، تعكس الاهتمام ببقاء حليف أساسى فى العالم الثالث، كما تعكس منهجًا أكثر نشاطًا فيما يخص شئون العالم الثالث بوجه عام. ويتذكر نائب وزير الخارجية ڤلاديمير ڤينوجرادوف *Vladimir Vinogradov* أنه

> **نشأ خلاف فى الرأى حول التفاصيل التقنية للعمل المطروح فقط. فقد أصر عبد الناصر أن يكون دخول القوات السوڤيتية علنيًا. على أسوأ الفروض يمكن القول أمام العالم إنه لم ينخرط إلا المتطوعون. وعارض بريچنيڤ ذلك قائلا إنه لا أحد سيصدق القيادة السوڤيتية، لأنه من المستحيل وجود كل هذه الأعداد من المتطوعين فى ظرف أيام قليلة للحرب فى دولة أجنبية. وأخيرًا تم الاتفاق على أن تكون العملية سرية للغاية وبدون أى "ضجة" لا لزوم لها[٦٢].**

خدم أكثر من عشرين ألف جندى سوڤيتى فى مصر لفترات متباينة فى الفترة من ١٩٦٩-١٩٧٠ ، حيث اشتبك الطيارون السوڤيت مع المقاتلات النفاثة الإسرائيلية وقصفت مدفعية الجيش الأحمر المواقع الإسرائيلية[٦٣]، وكان قرار تل أبيب أن توافق على وقف إطلاق النار متأثرًا بالدعم السوڤيتى للمصريين. ومع ذلك كان أنور السادات، خليفة عبد الناصر، أكثر حرصًا حيث لم يضع البيض كله فى سلة واحدة. ولشعوره بالإهانة مما اعتبره سلوكًا متغطرسًا من قبل المستشارين العسكريين السوڤيت، طلب من موسكو أن تسحبهم فى ١٩٧٢، على أمل أن تقتنع واشنطن بأن تؤثر على الإسرائيليين لكى ينسحبوا. لم يجد السادات غضاضة أن

يعرض دوافعه على السوفيت مباشرة. في اجتماع في الحادي عشر من يوليو شرح لـڤينوجرادوڤ أنه تلقى رسالة من نيكسون عن طريق وزير الخارجية الألماني، فحواها أن الولايات المتحدة سوف تتدخل بقوة لحل أزمة الشرق الأوسط في حال ترك المستشارون العسكريون السوفيت مصر. ومع أنهم أهينوا بشكل واضح، حاول السوفيت أن يجَمِّلوا مسألة طرد ضباطهم بإخبار حلفائهم أن ذلك سوف يقوى موقف السادات السياسي والدبلوماسي، ومن ثم يفتح احتمالات للحلول غير العسكرية للصراع(٦٤).

بيد أن نيكسون لم يشأ أن يضغط على حليفه الإسرائيلي أكثر. وعندما بقيت إسرائيل لا تتحرك، شنت القوات العربية هجومًا في أكتوبر ١٩٧٣، واضعة عدوها موضع دفاع عن النفس بسرعة، قبل أن تقوم إسرائيل بالرد القاطع. ومع محاصرة الجيش الثالث المصري ووقوف الدولة على حافة الهاوية، حاول السوفيت أولا التفاوض مع الأمريكيين حول حل في إطار التهدئة، متفقين على اقتراح بوقف إطلاق النار من الجانبين أقره مجلس الأمن على الفور. ولكن الإسرائيليين تجاهلوا وقف إطلاق النار– ومع مباركة واشنطن غير المعلنة، حسب اعتقاد السوفيت – استمر الإسرائيليون في هجومهم المضاد. وعندما دعا السادات الولايات المتحدة والقوات السوفيتية لفرض وقف إطلاق النار، صرح بريچنيڤ شخصيًا بأن موسكو من جانبها سوف ترسل قوات لو استمرت واشنطن في تجاهل النداءات المصرية. كان رد فعل نيكسون، الذي كان متورطًا في أزمة ووترجيت في الداخل، أن رفع درجة الإنذار في القوات النووية الاستراتيچية الأمريكية. وتراجع السوفيت مرة أخرى. وأكد بريچنيڤ لنيكسون، في برقية شخصية في الخامس والعشرين من أكتوبر، أنه لن يتم إرسال قوات سوفيتية إلى مصر إلا بعد قرار من مجلس الأمن.

كانت هزيمة العرب فى حرب يوم كيبور تذكرة للسوفيت بأن الولايات المتحدة، رغم التهدئة، لازالت تعتبر نفسها "أقوى" القوى العظمى فى العالم الثالث. ومع أن إعلان التعاون بين القوتين العظميين الموقع فى مايو ١٩٧٢ قد رفض "أي جهود للحصول على مصلحة من جانب واحد على حساب الطرف الآخر على نحو مباشر أو غير مباشر"، فإن معركة يوم كيبور أظهرت أن واشنطن كانت تتعاون مع موسكو فيما يحقق لها المصلحة فحسب. وكانت هذه المحاولة لإقصاء التأثير السوفيتى بالنسبة لبريچينيف والمكتب السياسى هى الميراث الذى تركه نيكسون لخلفائه – *وليست* التهدئة. كان درسًا سوف تتذكره القيادة السوفيتية فى الأزمات المستقبلية. أما بالنسبة للشرق الأوسط فكانت نتيجة حرب يوم كيبور أن مصر، فى بحثها عن اتفاقية سلام مع إسرائيل، اقتربت أكثر من الولايات المتحدة. فى الوقت نفسه بدأ الاتحاد السوفيتى يركز دعمه على سوريا والعراق، وهى أنظمة عسكرية "تقدمية"، تلعن الهيمنة الأمريكية وجميع محاولات إيجاد حل سلمى مع الدولة اليهودية. كما ازدادت مساعداتها لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات.

علاقات الاتحاد السوفيتى بمنظمة التحرير الفلسطينية وسوريا والعراق كانت تمثل تحالفات معقدة للغاية من المنظور السوفيتى، بسبب طبيعة النظم البعثية واستخدام الزعيم الفلسطينى الإرهاب فى معركته مع إسرائيل. كانت كل من دمشق وبغداد تقمعان الأحزاب الشيوعية المحلية بوحشية، بينما كان السوفيت يلقون المحاضرات على الشيوعيين العراقيين والسوريين – المنفيين فى موسكو أو برلين الشرقية – عن فضائل بناء جبهة موحدة مع الأحزاب البعثية. ولما كان البعثيون يحظون بدعم الجماهير، على حد زعم الإدارة الدولية باللجنة المركزية ***MO***، كانت أنظمتهم تحتاج إلى أن تُحقَن بالأفكار الاشتراكية من أجل أن تتحرك إلى اليسار. فى الوقت نفسه كانت منظمة التحرير الفلسطينية مزيجًا من جماعات كثيرة، وإن

كانت فتح، بقيادة عرفات، هى المفضلة لدى السوفيت. كان أمل موسكو أن توجه منظمة التحرير الفلسطينية بعيدًا عن العنف فى الخارج فى اتجاه استراتيجية سياسية وعسكرية موحدة، ومن ثم قدمت للمنظمة كميات كبيرة من الأموال والأسلحة والتدريب. كما أدركت موسكو أيضًا، على حد تعبير عرفات فى حوار مع الألمان الشرقيين فى ١٩٧٤، أن "منظمة التحرير الفلسطينية تمنع البرجوازية العربية من وضع ترتيبات مع الإمبريالية"- فما دام أن القضية الفلسطينية تسيطر على سياسات الشرق الأوسط، فسيكون حتى للعرب المحافظين علاقة مضطربة مع الممول الأول لإسرائيل، الولايات المتحدة[٦٥].

كان تقارب إدارة نيكسون مع "دولة بوليسية" غير عربية أخرى فى الشرق الأوسط، وهى إيران، مدفوعًا جزئيًا بالحاجة إلى وجود حليف إقليمى خارج الإطار المباشر للصراع العربى الإسرائيلى. حتى وإن أدرك نيكسون من خلال تقارير المخابرات أن التحديث الأهوج الذى بدأه الشاه فى الستينيات كان فى خطر، كانت إيران شديدة الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة – استراتيجياً وماليًا، وكذا أيديولوجيًا – بحيث لم تستطع الإدارة أن تتراجع. بل على العكس، لقد امتدح نيكسون محمد رضا بهلوى لتقديمه "دعمًا قويًا ومؤثرًا للولايات المتحدة"، كما ردد كيسنجر، بعد محادثات مع الشاه في منتصف ١٩٧٢، أن "القرارات بشأن حيازة معدات عسكرية [أمريكية] ستترك أساسًا لحكومة إيران"[٦٦]. وفى ١٩٧٣ كانت إيران أهم مستقبل للأسلحة الأمريكية في العالم الثالث، والدولة الأهم فى استراتيجية نيكسون للسيطرة على بترول الشرق الأوسط دون الحاجة إلى التدخل الأمريكي المباشر. وعندما قام الشاه بنقل ألف ومائتين جندى إيرانى إلى عُمَان فى ذات العام لمساعدة السلطان فى هزيمة المعارضة اليسارية لديه، رحبت واشنطن.

ولكن بينما كان مفهوم نيكسون عن "رجل الشرطة" ناجحًا في الشرق الأوسط، كان في مشكلة في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا. وكما كان يتوقع كيسنجر، كانت الدكتاتوريات اليمينية في البرازيل وغيرها في أمريكا اللاتينية غير راغبة في التصرف بمفردها عندما انتخبت تشيلي رئيسًا اشتراكيًا وهو سلفادور اللندي ***Salvador Allende*** في سبتمبر ١٩٧٠ وكان له برنامج لإعادة توزيع الدخل والتأميم والسياسة الخارجية المستقلة. أما وقد استنتج نيكسون بعد الانتخابات التشيلية مباشرة أن نظام اللندي "ليس مقبولا للولايات المتحدة"، طلب من المخابرات المركزية أن "تمنع اللندي من الصعود إلى السلطة أو أن تخلعه"[٦٧]. ولم "يأبه بما يكتنف ذلك من مخاطر" وطلب من وكالة المخابرات أن "تنقذ تشيلي" بأن تضع "أفضل رجالها" لإنجاز المهمة[٦٨]. في الوقت نفسه أصر كيسنجر أن "ما يحدث في تشيلي...[سيكون له تأثير] على ما يحدث في بقية أمريكا اللاتينية والعالم النامي... وعلى صورة العالم ككل، بما في ذلك... العلاقات مع الاتحاد السوفيتي"[٦٩]. لكن المخابرات المركزية استغرقت نحو ثلاث سنوات في سعيها للحط من شأن رئيس تشيلي المنتخب حتى تحققت النتيجة التي أرادت، وربما كانت فشلت تمامًا لو أن الاشتراكيين التشيليين كانوا أكثر كفاءة في إدارة الاقتصاد. وقد قامت العسكرية بالهجوم على الحكومة في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٧٣، محققة أول انقلاب عسكري في تشيلي في تاريخها. ورغم سجله الشنيع في حقوق الإنسان، كان النظام العسكري للجنرال أوجستو بينوشيه ***Augusto Pinochet*** موضع ترحيب من إدارة نيكسون التي استأنفت المساعدات الاقتصادية لتشيلي بعد الانقلاب.

في جنوب شرق آسيا فشل برنامج نيكسون في تعميم التجربة الفيتنامية على حرب الهند الصينية لأن النظام في فيتنام الجنوبية كان أضعف من أن يقف في وجه معارضيه الشيوعيين بعد الانسحاب الأمريكي. لكن نيسكون لم يساوره

الشك أبدًا حول ما اعتبره الأهم بالنسبة لإدارته. وعندما عـارض رئـيس ڤيتنـام الجنوبية ثيو *Thieu* اتفاقية سلام تسمح لقوات ڤيتنام الشمالية بالتواجد داخل ڤيتنـام الجنوبية، أخبر كيسنجر مبعوثه إلى سيجون أن "يذكِّر ثيو- إذ إنه يدرك بلا شك - أن انسحاب القوات الأمريكية سيستمر أيًا كانت الظروف... في إطار التحول إلـى الـڤيتنامية *Vietnamization track*"[٧٠]. وتُرك ثيو وڤيتنام الجنوبية ليـذودا عـن نفسيهما، ولينهارا في ١٩٧٥، بعد عامين من سماح اتفاقيات سلام باريس للولايات المتحدة بسحب قواتها. كانت هزيمة واشنطن في ڤيتنام عائقًا لها ولكنها لـم تكـن العائق الذي يدفع إلى إعادة تقييم سياستها في العالم الثالث. بل على العكس، سـاعد انهيار ڤيتنام الجنوبية على الحد من دعم التهدئة في الداخل، ومع الوقـت، أعطـى مصداقيـة للـزعم اليميني بـأن الاتحـاد السوڤيتي كان سيقوم بـالهجوم علـى العالم الثالث.

وفي الوقت الذي كانت موسكو ترقب، بعدم تصديق، الصعوبات المتصاعدة التي تواجهها الولايات المتحدة في الهند الصينية، بدأت بعض المناقشات السوڤيتيـة الداخلية حول سياسة أكثر فاعلية في العالم الثالث تعـاود الظهـور فـي أواخـر الخمسينيات وأوائل الستينيات. كان الكثير من مستشاري الكرملين، الذين بدأوا هذا النشاط المتجدد في أواخر الستينيات متوجهين إلى الإصلاح أثناء فترة خروشـوف ويأسون بشدة على تخفيض النفقات الداخلية الذي حدث تحت القيادة الجديـدة بـدءًا من ١٩٦٥. كانوا يرون أن انتصارات الـڤيتناميين والتغير الجذري في الكثير من حركات التحرر يخلقان صعيدًا دوليًا، يمكن فيه أن يتحقق التحول الاشتراكي الـذي يتحمسون له - كمتنفس لطاقاتهم التي لا يُسمح لهم بتوظيفها بالكامل في الـداخل. ولأن السواد الأعظم منهم كانوا مثقفين ومدربين في معاهـد الدراسـات التابعـة للأكاديمية السوڤيتية للعلوم في فترة ما بعد ستالين، فقـد وجـدوا وظـائف أثنـاء الستينيات في إدارات اللجنة المركزية أو في الفروع التحليلية لجهـاز المخـابرات

السوفيتى، وكانت لهم علاقات قوية مع المعاهد الأكاديمية التى حصلوا فيها على دراساتهم العليا. فى ١٩٦٩ بدأت نقاشاتهم تظهر إلى العلن، أولا فى إصدارات الحزب الشيوعي السوفيتى وفى الجرائد الأكاديمية، وبدأوا يلفتون انتباه بعض رؤسائهم.

كانت المناقشات التى يطرحها هؤلاء المستشارون بشأن تدخل سوفيتى أوسع فى العالم الثالث مبنية على الكثير من الجوانب المختلفة فى الأيديولوچية والاستراتيچية السياسية، ولم تكن تدعم بعضها بعضًا. كانت إحدى الجدليات - التى كان جهاز المخابرات السوفيتى ونظيره العسكرى يطرحها - شديدة الانتهازية؛ فالاتحاد السوفيتى فى أواخر الستينيات لديه القدرات للتدخل سريعًا وعلى نحو حاسم لدعم الثورات فى كل مكان آخر، ومفاجأة الغرب بمثل هذه المساعدة. وكان التقدم الجوهرى فى العسكرية السوفيتية وقدرات البنية التحتية فى أواخر الستينيات - من البحرية السوفيتية، والأساطيل الكبيرة الحاملة للطائرات إلى مسافات بعيدة، وإمكانيات التدريب والاتصالات الكونية - كلها عوامل تجعل التدخلات أسهل[٧١]. ولن ترغب الولايات المتحدة، بسبب تدخلها الفاشل فى فيتنام، فى التورط على نحو كبير لمواجهة الدعم السوفيتى للثورات الخارجية أو الأنظمة التقدمية؛ وهنا تكمن الفرصة التى لا ينبغى تضييعها لمساندة الاتجاه العالمى نحو الاشتراكية. وفى حين كان معظم المستشارين يرفضون مثل تلك الجدليات التى كانت تبدو استراتيچية - حتى وإن تمت الإشارة إلى "فرص" محددة - فإن هذه الجدليات ربما تكون قد لعبت دورًا فى إقناع القيادة العليا بأن العالم الثالث كان يستحق الاستثمارات التى لم يريدوا الالتزام بها بعد ١٩٦٤.

أما الجدلية التى التقت عندها المواقف الانتهازية بالمواقف الأيديولوچية، فكانت الإشارة إلى أن معظم المنافسة بين الرأسمالية والاشتراكية كنظامين سوف

تحدث في العالم الثالث فى المستقبل القريب بالضرورة، بما أن خطوط التقسيم فــى أوروبا قد استقرت. ومن المثير أن الجدلية القائلة بأن أوروبا الغربية سوف تتجــه نحو الاشتراكية بعد صراع طويل وممتد من خلال البرلمانات والاتحادات التجارية – الرؤية التى اقتبسها بعض المستشارين السوفيت الأصــغر ســنًا مــن الحــزب الشيوعى الإيطالى – قد ساعدت على تقوية الجدلية القائلة بأن موســكو عليهــا أن تعيد توجيه بعض الاهتمام إلى العالم الثالث. كما ساعدت على إقناع بعض الكوادر الطموحة بالحزب الشيوعى السوفيتى بأنهم لكى يتركوا بصمتهم كرعاة للاشتراكية ولموقف الاتحاد السوفيتى بالخارج، فالأفضل لهم التركيز على الأحداث التى تقــع خارج أوروبا عن التركيز على التعاملات التى أصبحت تعتبر إجراءات روتينيــة يقوم بها بيروقراطيو وزارة الخارجية.

كان التحليل الماركسى للاتجاهات التاريخية في أفريقيا وآسيا من المناقشات المهمة لمعظم المنادين بتدخل سوفيتى أوسع فى العالم الثالث. وبعد الفترة الأولــى من الاستقلال، انتهت هذه الجدلية، حيث قامت القوى الإمــبريالية والرأســماليون الغربيون بالهيمنة الاقتصادية على مستعمراتهم السابقة. ولكن أثنـــاء الـــستينيات – وعلى نحو أسرع كثيرًا مما توقع الاقتصاديون السوفيت – نشأت برجوازية وطنية، وبدأت تحل محل المصالح الأجنبية بمساعدة الدول التى أخذوا فى السيطرة عليهـــا على نحو متزايد. وبسبب الوسائل الكثيرة التى كانت بحوزة الإمــبرياليين – بمـــا فيها التدخل المباشر وغير المباشر – كانت الوسيلة الوحيـــدة التـــى تُمكـــن هـــذه البرجوازية الوطنية من تأكيد نفسها تمامًا هى من خلال شكل مـــن التعـــاون مـــع الطبقة العاملة وزعماء الفلاحين ذوى الفكر التقدمى. وبما أن هؤلاء كانوا بالفعـــل ينظمون أحزابًا شيوعية أو جبهات ذات قيادة شيوعية، كـــان بوســـع مثـــل هـــذه التحالفات أن تضع الدولة تحت السيطرة الحقيقية للتنظيمات التقدمية. ولأن بعـــض الأعضاء القياديين فى البرجوازية الوطنية كانوا يدركون مدى ضعفهم فى المنافسة

مع المصالح الأجنبية، كان من الممكن أن يقبلوا نظاما اشتراكيًا من شأنه أن يقلل أرباحهم لكنه في الوقت نفسه يضمن أنصبتهم السوقية أمام المنافسة الخارجية.

وقد أخذ هؤلاء المستشارون والأكاديميون الموقف الماركسي الأورثوذكسي وقلبوه رأسا على عقب دون الاعتراف بذلك طبعا. وبدلا من تقدم المجتمع ببطء من خلال المراحل الاجتماعية نحو الاشتراكية ومن ثم الشيوعية، كانوا يجادلون بأن ضعف الدولة المستَغَلة في حد ذاته قد يساعدها في التوجه إلى الاشتراكية حيث يدفع البرجوازية إلى أن تحكم من خلال دولة تقدمية. وسيكون بوسع دول العالم الثالث - في حالات استثنائية، كما في فيتنام أو كوبا - أن تسير نحو الاشتراكية دون المرور في مرحلة طويلة من التنمية الرأسمالية إذا وُضعت السياسات الصحيحة لمساعدة مثل هذه التحالفات الاجتماعية والدفاع عن الثورة ضد التدخلات الخارجية في موضعها السليم. كان بعض هؤلاء المثقفين التعديليين من الذكاء بحيث أدركوا أنهم بذلك يوفِّقون بين النظرة السوفيتية عن المجتمعات فيما بعد الاستعمار وبين التطور الحقيقي للثورة الروسية والدولة السوفيتية عما فعلته النظرة الأسطورية التي وضعها الستالينيون لتوفيقها مع الأورثوذكسية الماركسية.

كانت المنافسة بين القوى الإمبريالية وزيادة قوة النمط السوفيتي هما السببان الرئيسيان لاحتمالات الاشتراكية في العالم الثالث. ومع الاستقرار المؤقت بين الجبهتين الاشتراكية والرأسمالية في أوروبا، واستقلال العالم الثالث، انتهت حقبة ما بعد الحرب لهيمنة الولايات المتحدة. وبدلا من أن يدعم الأمريكيون سيطرتهم أكثر وأكثر، واجهوا عائقًا قويًا، وهو المنافسة الاقتصادية القوية مع ألمانيا واليابان والقوى الرأسمالية الأخرى التي لم تكن تريد أن تخضع لهيمنة الولايات المتحدة التي عانوا منها بعد الحرب العالمية الثانية. في الوقت نفسه كان التقدم الداخلي في الاتحاد السوفيتي قد جذب الانتباه الواسع في العالم الثالث،

وعرف الناس، من كل الطبقات، الذين كانوا يعارضون سيطرة الولايات المتحدة أن النموذج السوفيتي كان هو البديل الناجح (والقوى) عن الهيمنة الأجنبية. وسجلت الإدارة الدولية في الحزب الشيوعي السوفيتي الرغبة المتكررة من قبل "عناصر تقدمية" من الأحزاب غير الشيوعية المختلفة في العالم الثالث في دراسة التجربة الاشتراكية السوفيتية.

وأخيرًا تأثر بعض المستشارين الذين دافعوا عن استراتيجية سوفيتية جديدة تجاه العالم الثالث بالصراع مع الصين كما تأثروا، على نحو مختلف، بكوبا وفيتنام والراديكاليين الغربيين. وقد أشعلت الكراهية الشديدة للسخرية الصينية من العولمة في الثورة الثقافية الكثير من الزعماء الشبان للدفاع عن موقف سوفيتي أكثر نشاطا لدحض الاتهامات الصينية وللرد على الدعاية الصينية. قليل جدا من الكوادر المتوسطة في الإدارات الدولية كانوا قد تلقوا تدريبهم للتعامل مع الصين في الخمسينيات، ومن ثم كانوا يركزون على التحدى الصيني. لكن الأهم من ذلك كان الاتهامات السرية الموجهة من هافانا وهانوى واليسار الأوروبي بأن موسكو ضعيفة جدا في صراعها العالمي مع الولايات المتحدة، لدرجة أنها فقدت شهيتها لمساعدة الثورات في كل مكان آخر. في ١٩٦٩، عندما كان الصراع مع الصين في ذروته، وبعد الهزيمة المصرية المخزية في حرب الأيام الستة، كان من المهم جدا للكثير من صناع القرار السوفيت أن يظهروا أنه على الرغم من التهدئة، فإن الاتحاد السوفيتي سيفعل كل ما في وسعه لمساعدة الثورات وحمايتها في الخارج.

بيد أنه من الخطأ اعتبار هؤلاء المستشارين الأصغر سنًا – مثل فاديم زاجلادين *Vadim Zagladin* (المولود في ١٩٢٧) وجيورجي شاكنازاروف ***Georgii Shakhnazarov*** (المولود في ١٩٢٤) وكارن برتنتس ***Karen Brutents*** (المولود في ١٩٢٤) – مؤمنين بالتدخل السوفيتي غير المحدود[٧٢]. فقد كانوا على

العكس من ذلك، يؤكدون الحاجة إلى توخى الحذر وتقييم كل موقف وفقًا لمعطياته الذاتية. كانت معوقات منتصف الستينيات لازالت حية فى العقول السوفيتية وكان كل من المستشارين المؤثرين يدرك أهمية ألا يرتبط اسمه بمثل تلك الإخفاقات. كما كان الكثير منهم يحتفظون بالفكرة التى تطورت أثناء حقبة ستالين وهى أنه فقط من خلال التعلم المباشر من التجربة السوفيتية- وخاصة دروس بناء الحزب- يمكن تأمين الثورات الأجنبية. أما المفهوم اللينينى عن "الأحزاب الطليعية" فكان حيا بعقولهم: فالتنمية المستقبلية برمتها تعتمد على تكوين مثل هذا الحزب من الماركسيين اللينينيين المحليين المخلصين، الذين يستطيعون اتخاذ القرارات التكتيكية الصحيحة، والقيام بعمليات معقدة من بناء التحالفات وتأسيس الإصلاح الاجتماعى وتعميق التعليم الاشتراكى. وهؤلاء الطليعيون- حتى وإن كانوا أشد تطورًا من الطبقة التى يمثلونها- كانوا هم النجوم الهادية التى يدور حولها مفهوم الثورة فى الدول الفقيرة.

وفى إطار الموقف السياسى شديد التطور- المتأثر بالحزب الطليعى بالتحديد- يمكن للمسيرة نحو هدف الثورة أن تأخذ سبلا مختلفة. وقد جادل كارن برتنتس- وهو أهم المنظرين- فى كتابه *"ثورات التحرر الوطنى اليوم: بعض القضايا التنظيرية" **Revolutions of National Liberation Today: Some Theoretical Questions*** المنشور فى ١٩٧٤، أن التوتر سيستمر لمدة طويلة داخل الجبهات المعادية للإمبريالية، حتى بعد أن يستولوا على السلطة. كان أحد أسباب هذا "النضال بداخل النضال" هو تكوين جبهات التحرر من طبقات مختلطة. والسبب الثانى هو الأنشطة القمعية للدول الإمبريالية، وخاصة الولايات المتحدة. قد لا تكون هناك انتصارات سهلة للقوى "التقدمية" حتى وإن ضعفت الإمبريالية على الصعيد العالمى. بل على العكس، فإن احتمالات الفشل قائمة، وخاصة إذا لم يطبق الشيوعيون المحليون النمط اللينينى للمؤسسة وبناء التحالفات(٧٣).

كان التأكيد على أهمية الحزب الشيوعى وقياداته الجماعية فى حقبة ما بعد خروشوف قد سهل صعود الإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى *MO* لمكانة من التأثير لم يحظ بها سابقوهم إلا فى الفترة السوفيتية الباكرة جدًا. أما القادة السوفيت فى فترة بريجينيف فقد حاولوا تقوية الشيوعيين الأصغر سنًا، الذين تمسكوا بالنظرية السياسية والذين تعود خلفيهم إلى الحزب أكثر منها إلى جهاز الدولة. وفى حين لم يكن يُنصت إليهم، فقد تنامى تأثيرهم فى السبعينيات حتى ظهور التصلب الأخير فى النظام فى نهاية العقد، فى وقت التدخل الأفغانى. وزاد من تأثير الإدارات الشيوعية فى السياسة الخارجية أن وزارة الخارجية- حتى فى الحقبة السوفيتية- كانت تدار بواسطة مجموعة من السياسيين الذين يفتقرون إلى الخيال تمامًا، ويعانون من بطء الاستجابة إلى أمنيات المكتب السياسى، وينشغلون بالروتين الدبلوماسى مع القوى الكبرى الأخرى. وكانت النتيجة بدءًا من أوائل السبعينيات فصاعدًا انقساما فى السلطة، حيث ظلت ريادة وزير الخارجية جروميكو *Gromyko* بوصفه ممثلاً أساسيًا لسياسة الانفراج لدى بريجينيف قوية، لكن مع ترك قدر متزايد من المبادرات السياسية خارج إطار التهدئة المباشر للحزب الشيوعى وجهاز المخابرات السوفيتى. ولم يكن أى منهما طبعًا يتصرف بمعزل عن قرارات المكتب السياسى، لكن مع الضعف الذى أصاب رؤية المكتب السياسى نفسه، وخاصة بسبب المشكلات الصحية التى أصابت بريجينيف بدءًا من ١٩٧٤، عانت مراكز نشاط السياسة الخارجية المختلفة من ضياع كبير فى الوقت فى فهم القرارات الصادرة من أعلى وتفسيرها (٧٤).

يمكننا القول إنه كان هناك لفترة ما مساران متوازيان للسياسة الخارجية السوفيتية، يتكونان فى نفس الوقت. كان المسار الذى له أهمية محورية بالنسبة للقيادة هو مسار التهدئة مع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وهو الذى كانت تسير فيه وزارة الخارجية. ولكن المستشارين السياسيين الذين دعموا التهدئة

والانفراج وضعوا أسس منهج أكثر نشاطًا بالنسبة للعالم الثالث. كان النظام السوفيتى لصنع القرار– وكون مناصرو كل سياسة موجودين فى القطاعات المختلفة من الطبقة البيروقراطية– يعنى أن المكتب السياسى كان يحتاج إلى وقت طويل جدا حتى يدرك أن أحد المسارين، يضر بالآخر. كانت كلتا السياستين بالنسبة لمعظم القادة، بمن فيهم ليوند بريچينيف نفسه، تمثل استجابة صحيحة لعالم متغير، مبنية على أفضل ما فى النظرية السياسية السوفيتية. عمليًا، أظهرت نهاية التدخل الأمريكى فى فيتنام أن موسكو كان يمكنها أن تقف بجانب حلفائها أثناء التفاوض بشأن التهدئة، وأن استخدم الاتحاد السوفيتى إذا استخدم قوته فى المستقبل لدعم أصدقاء آخرين فى العالم الثالث، فسوف يظل "قوة تدخلية صغيرة" مقارنة بالولايات المتحدة، حسبما رأى بريچينيف.

هوامش الفصل الخامس

(١) خطاب نكيتا خوروشوف أمام اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في ديسمبر ١٩٦٣، أرشيف الدولة الروسية للتاريخ المعاصر ويرمز له هنا RGANI، *f. 2, op. 1,d. 679, pp. 126-127.*

(٢) من أجل جذور هذا المفهوم في ١٩٥٨ واستخدام ماو لمصطلح "منطقة وسطى" انظر *Pang Xianzhi and Jin Chongji, chief eds., Mao Zedong zhuan, 1949-1976 (Beijing: Zhongyang wenxian, 2003), vol. II, pp.905-909.*

(٣) هوفر إلى جينكنز (البيت الأبيض)، تقرير *FBI* بشأن زيارة شيوعيين كنديين وبلغاريين في يناير ١٩٦٤ إلى إندونيسيا، ٧ أبريل ١٩٦٤، خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(٤) تسجيل المحادثة بين الوفدين السوفيتي والصيني، موسكو، ١٢ يوليو ١٩٦٣، برلين *SAPMO-BArch), DY-30, JIV 21 207 698.*

(٥) كلاهما ورد في:

Sergei Radchenko, "North Korea: The Soviet Union's Unreliable Ally,"

على موقع *http://www.radchenko.net/nkresearch.shtm.*

(٦) *Kim Il Sung, The Present Situation and the Task of our Party (Report at the KWP Party Conference - 05.10.66) (Pyongyang: Foreign Languages Publishing House, 1970), p. 6.*

(٧) السفارة السوفيتية، بكين إلى وزير الخارجية ، موسكو "حول رد فعل اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي الصيني على خطابات اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي المؤرخة ٢١ فبراير و٣٠ مارس ١٩٦٣" ١٧ مايو ١٩٦٣، الأرشيف السياسي للفيدرالية الروسية *f. 0100, op. 56, pa. 506, d. 67, p. 94*. وأدين بالشكر لـ *Sergey Radchenko* لأنه لفت نظري إلى هذه الوثيقة انظر

Sergey Radchenko, "The China Puzzle: Soviet Politics and the Conflict with Beijing, 1962-1969," Ph.D. thesis, London School of Economics, 2005.

(٨) وزارة الخارجية ، إدارة الشرق الأقصى تقرير حول الأنشطة المنفصلة لقيادة الحزب الشيوعي الصيني في دول العالم الثالث" ١٠ ديسمبر ١٩٦٣

AVPRF, F. 0100, op. 56, pa. 506, d. 67, p. 197

(٩) المصدر السابق ص. ٢٠٦.

(١٠) المصدر السابق ص. ٢٠٩

(١١) المصدر السابق ص. ٢١٠

(١٢) ملاحظات كوسجين في حفل غذاء خاص" ١٠ فبراير ١٩٦٧، الأرشيف القومي للمملكة المتحدة، مكتب التسجيلات العامة *PRO), PREM 13/1840, p. 65.*

(١٣) المحادثة التليفونية بين الرئيس جونسون والرئيس السابق إيزنهاور، ٢٥ يونيو ١٩٦٧، في العلاقات الخارجية للولايات المتحدة:

FRUS), 1964-1968, vol. XIV, on http://www.state.gov/r/pa/ho/frus/ johnsonlb/xiv/.

(١٤) برافدا ٢ سبتمبر ١٩٦٤ ص.٢.

(١٥) *Andrei Aleksandrov-Agentov, Ot Kollontai do Gorbacheva: vosponiinaniia diplomata sovemika A. A. Gromyko, pomoshchnika L. I. Brezhneva, In. V. Andropova, K. U. Chemenko i M. S. Gorbacheva (From Kollontai to Gorbachev: The Memoirs of a Diplomat and Adviser to A. A. Gromyko, and Aide to L.I. Brezhnev, Iu.V. Andropov, K. U. Chemenko, and M.S. Gorbachev) (Moscow: Mezhdunarodnye otnosheniia, 1994), p. 112.*

(١٦) كاسترو يتحدث إلى حشد في هافانا" ، ٢١ يناير ١٩٥٩، أرشيف خطب كاسترو على موقع *http://lanic.utexas.edu,*

(١٧) وردت في *Leycester Coltman, The Real Fidel Castro (New Haven, CT: Yale University Press, 2003), p. 133.*

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) المصدر السابق ص. ٨٥.

(٢٠) انظر موقع *http://www.pacifica.org/programs/slcuba.html.*

(٢١) *Piero Gleijeses, Conflicting Missions: Havana, Washington, and Africa, 1959-1976 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002), p. 18.*

(٢٢) *Coltman, Real Castro, p. 175.*

(٢٣) نائب وزير خارجية ألمانيا الشرقية وينزر *Winzer* إلى أولبريشت *Ulbricht*، ٢٨ أكتوبر ١٩٦٠ *SAPMO-BArch, Buro Walter Ulbricht, DY 30/3465.*

(٢٤) *Aleksandr Fursenko and Timothy Naftali, One Hell of a Gamble: Khruschshev, Castro, and Kennedy, 1958-1963 (New York: Norton, 1998), pp.71. 160-165.*

(٢٥) تسجيل المحادثة بين كاسترو وميكويان، ٣ نوفمبر ١٩٦٢، وردت في "مهمة ميكويان إلى هافانا: المفاوضات الكوبية السوفيتية ، نوفمبر ١٩٦٢"

"Mikoyan's Mission to Havana: Cuban-Soviet Negotiations, November 1962," Cold War International History Project (CWIHP). النشرة الخامسة.

(٢٦) "خطاب فيدل كاسترو في الجامعة" ١٣ مارس خدمات الإذاعة والتليفزيون المحليين بهافانا ٠٣٠٢، بتوقيت جرينيتش، ١٤ مارس ١٩٦٥، أرشيف خطب كاسترو على موقع http://lanic.utexas.edu.

(٢٧) "خطاب كاسترو في الذكرى السنوية لبلايا جيرون" خدمات الإذاعة والتليفزيون المحليين بهافانا ٠٣٤١ بتوقيت جرينيتش ٢٠ أبريل ١٩٦٥ على الموقع السابق.

"Castro Speech on Playa Giron Anniversary," Havana Domestic Radio and Television Services in Spanish 0341, GMT, 20 April 1965, on-line ibid

(٢٨) Enesto Guevara, Guerrilla Warfare (New York: Monthly Review Press, 1961), ch. 1.

من أجل مراجعة نقدية انظر

see Matt D. Childs, "An Historical Critique of the Emergence and Evolution of Ernesto Che Guevara's Foco Theory," Journal of Latin American Studies, 27 (1995): 593-624.

(٢٩) روستو إلى جونسون ، ١١ أكتوبر ١٩٦٧ في أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة FRUS, 1964-1968, vol. XXXI.

(٣٠) Emesto Guevara, The African Dream: The Diaries of the Revolutionary War in the Congo (London: Harvill Press, 2000).

(٣١) Ibid., pp. 224, 226.

(٣٢) Chin Peng كما روى لـ

Ian Ward and Norma Miraflor, Alias Chin Peng: My Side of History (Singapore: Media Masters, 2003), p. 354.

(٣٣) تسجيل المحادثة بين السفير السوفيتي ليونيد سوكولوف Leonid Sokolov وفام فان دونج Pham Van Dong، ٣ مارس ١٩٦٠ في أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية AVPRF, f. 079, op. 15, pa. 28, d. 6, pp.101-104.

(٣٤) انظر

Mari Olsen, "Changing Alliances: Moscow's Relations with Hanoi and the Role of China, 1949-1964,". بحث لدرجة الدكتوراه ، جامعة أوسلو، ٢٠٠٤.

(٣٥) تسجيل المحادثة بين زيميانين Zimyanin ولي زيمن Li Zhimin ، ١٨ سبتمبر ١٩٥٧، في أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية . f. 079, op. 12, pa. 17, d. 6, p. 69

(٣٦) انظر

Matthew Jones, Conflict and Confrontation in Southeast Asia: Britain, the United States, Indonesia and the Creation of Malaysia (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(٣٧) سوكارنو كما روى لـ
Cindy Williams, Sukarno: An Autobiography (Indianapolis, IN: Bobbs-Merrill, 1965).

(٣٨) وردت فى
John Legge, Sukarno: A Political Biography, 3rd edn (Singapore: Archipelago Press, 2003), p. 396.

(٣٩) تسجيل المحادثة بين تيتو وسوكارنو القاهرة ، ٥ أكتوبر ١٩٦٤
Arkhiv Srbije i Crne Gore (hereafter ASCG), A CK SKJ IX, 43/IV-30.

(٤٠) هوفر إلى جينكينز (البيت الأبيض) ٧ أبريل ١٩٦٤ ،تقرير الـ*FBI* حول زيارة الشيوعيين الكنديين والبلغاريين إلى أندونيسيا فى يناير ١٩٦٤ خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(٤١) السفارة السوفيتية ، جـاكارتا إلى وزير الخارجية ، "تقرير حول التعليقات الواردة فـى جريدة هاريان راكـجـات حول السياسة السوفيتية الداخلية و الخارجيـة " أبريـل ١٩٦٥ أرشيف الدولة الروسـية للتـاريخ المعاصـر؛ *RGANI, f. 5, op. 55, d. 144, pp. 4-14* . إن أرشيف الإدارات الدولية للحزب الشيوعي السوفيتي السابق، التى اصبحت الآن جزءا مـن أرشيف الدولة الروسية للتاريخ المعاصر *RGANI* فى موسكو، لهى أهم مـصادر دراسـة سياسات الاتحاد السوفيتى تجاه العالم الثالث فى أواخر فترة الحرب الباردة. وتتكـون مـن مجموعات ضخمة من مواد من مصادر متنوعة - منها تقارير السفارة، ووثائق وضـعها المكتب السياسى أو سكرتارية الحزب وموجز المخابرات وتسجيلات المحادثات بـين قـادة الخارجية. ولكن للأسف هناك نسبة كبيرة من ملفات هذا الأرشيف لم يفرج عنها بعد.

(٤٢) السفارة السوفيتية ، جـاكارتا إلى اللجنة المركزية (أوائل ١٩٦٤)، "حول موقف القيادة الباكستانية أرشيف الدولة الروسية للتـاريخ المعاصـر *RGANI f. 5, op. 55, d. 116, p. 7.* انظر أيضا المصدر السابق ص. ١٠-١٤، حول وجهات النظر الـسوفيتية عـن الـسياسة الصينية تجاه جنوب شرق آسيا.

(٤٣) السفير السوفيتي للجنة المركزية، ١٦ أكتوبر ١٩٦٥، "حول الموقـف الـسياسي فـى إندونيسيا وعلاقته بموضوع ٣٠ سبتمبر ١٩٦٥ *RGANI, f. 5, op. 33, d. 218.* أدين بالشكر لبال جوهانسن لتنبيهى إلى هذه الوثيقة المهمة. حول علاقات ناسوشـن بالسوفيت انظـر تسجيل المحادثة بين السفير السوفيتي والـجنرال ناسوشن فى ٢٩مايو ١٩٦٤ *RGANI, f. 5, op. 55, d. 116, pp. 18-22*، وبرقية المعلومات المخابراتية من المخابرات المركزية "أفعال وخطط سوكارنو لموازنة القوى فى إندونيسيا" ١٤ مايو ١٩٦٥ خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*.

(٤٤) السفارة الأمريكية ، جاكارتا إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، ٢٤ أغسطس ١٩٦٤ في *FRUS, 1964-1968, vol. XXVI*.

(٤٥) مذكرة أعدت في المخابرات المركزية في ٩ نوفمبر ١٩٦٥، "المساعدات السرية لقادة القوات المسلحة الأندونيسية " المصدر السابق.

(٤٦) من أجل مناقشة هذا الموضوع انظر:

Theodore Friend, Indonesian Destinies (Cambridge, MA: Belknap, 2003).

(٤٧) كومر إلى جونسون، في ١٢ مارس ١٩٦٦، في ١٢ مارس ١٩٦٦ في أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة *FRUS, 1964-1968, vol. XXVI.*

(٤٨) الاجتماع رقم ٥٥٧ لمجلس الأمن القومي في ١٠ مايو ١٩٦٦، في أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة *1964-1968, vol. IV.*

(٤٩) *Jose Maria Sison with Rainer Werning, The Philippine Revolution: The Leader's View (New York: Crane Russak, 1989), especially pp. 27-32.*

(٥٠) *Hans-Jürgen Krahl* خطاب في المحكمة، ١٩٦٨،ورد في *Lutz Schulenburg, ed., Das Leben ändern, die Welt verändern (Hamburg: Nautilus, 1998), p. 391.*

(٥١) *Günther Grass, Denkzettel: Politische Reden und Aufsätze (Darmstadt: Luchterhand, 1978), p. 85.*

(٥٢) مذكرة من الرئيس نيكسون إلى مساعده (هالدمان) ومساعده للشئون الداخلية (إيرلشمان) ومساعده لشئون الأمن القومي كيسنجر واشنطون ٢ مارس ١٩٧٠ في أرشيف العلاقات الخارجية للولايات المتحدة *1969-1976, vol. I, p. 204.*

(٥٣) مذكرة من مارشال رايت *Marshall Wright* من طاقم مجلس الأمن القومي إلى مساعد الرئيس لشئون الأمن القومي (كيسنجر)، ١٠ يناير ١٩٧٠ ، المصدر السابق ، ص. ١٦٣ . واستمر رايت يظهر مأساة المستشارين السياسيين في كل مكان فقال "كون ذلك صحيحًا، فإنه لا يوجد (أو على الأقل لا أستطيع أن أجد) قاعدة من المفاهيم الإيجابية يمكن أن تفسر ما نفعله في أفريقيا والأمم المتحدة. إننا لا نستطيع أن نذكر القاعدة الحقيقية. فتصبح مهمتنا إذن أن نضع الواجهة المثلى على الأدوار السلبية بالضرورة، وأن نحاول أن نجعلها تبدو أكثر إيجابية وأكثر توافقا عما هي بالفعل".

(٥٤) من كيسنجر إلى نيكسون، تحليل المتغيرات فى السياسات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية وتداعياتها حول فرضياتنا الأساسية بشأن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية" ٢٠ أكتوبر ١٩٦٩، المصدر السابق.

(٥٥) ملاحظات من اجتماع القيادة التشريعية ، ١٧ فبراير ١٩٧٠، المصدر السابق.

(٥٦) فى ٢٥ يوليو ١٩٦٩ أثناء جولته فى آسيا التقى الرئيس نيكسون بالمحررين الصحفيين فى جوام؛ انظر المصدر السابق.

(٥٧) ١٢ أكتوبر ١٩٧٠، الرئيس نيكسون وهنرى كيسنجر، انظر المصدر السابق.

(٥٨) من أجل باقة مختارة مفيدة من الوثائق عن السياسة السوفيتية تجاه الشرق الأوسط فى الفترة من ١٩٤٧-١٩٦٧، انظر

V.V. Naumkin, chief ed., Blizhnevostochnyi konflikt: iz dokumentov Arkhiva vneshnei politiki Rossiiskoi Federatsii

(صراع الشرق الأدنى: من وثائق أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية) *(2 vols.; Moscow: Mezhdunarodnyi fond "Demokratiia," 2003).*

(٥٩) ناصر، ورد فى:

Mohammad H. Heikal, The Road to Ramadan (New York: Ballantine, 1975), p. 80. من أجل نظرة عامة عن النقد المصرى للسوفيت انظر تسجيلات المحادثات بين السفير اليوغوسلافى فى القاهرة فى خريف ١٩٦٧،

ASCG, A CK SKJ IX, 43/IV-75.

(٦٠) تسجيل المحادثة، مؤتمر الأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال ورؤساء حكومات الدول الاشتراكية حول الموقف فى الشرق الأوسط، بودابست، ١١-١٢ يوليو ١٩٦٧، *CWIHP* على موقع *http:// www.wwics.si.edu.*

(٦١) انظر

Fred Wehling, Irresolute Princes: Kremlin Decision Making in Middle East Crises, 1967-1973 (London: Palgrave, 1997), p. 72.

(٦٢) فينوجرادوف *Vinogradov* كما ورد فى:

Isabella Ginor, "'Under the Yellow Arab Helmet Gleamed Blue Russian Eyes': Operation Kavkaz and the War of Attrition, 1969-1970," Cold War History, 3.1 (2002): 127-156.

انظر أيضا:

Isabella Ginor, "The Russians were Coming: The Soviet Military Threat in the 1967 Six-Day War," Middle East Review of International Affairs, 4.4 (December 2000).

(٦٣) النائب الأول السابق للجنة المركزية بالإدارة الدولية، حديث صحفي مع المؤلف ، موسكو ٥ أكتوبر ١٩٩٣ (وسنسميها هنا *Brutents interview*) يقول چينور إن هناك خمسين ألف شخص أوردوا مقال ڤلاديمير فورونوف في جريدة *Ekho* التي تصدر في تل أبيب ، ١٣ سبتمبر ١٩٩٩.

(٦٤) برقية عاجلة من سفير ألمانيا بيرباخ *Bierbach* (القاهرة) إلى المكتب السياسي، برلين ١٨ يوليو ١٩٧٢ *SAPMO-BArch, DY30J IV 2/2J/4211* . للمراجعات انظر

Vladimir Safonov, ed., Grif "sekretno" sniat: kniga ob uchastii sovetskikh voennosluzhashchikh v arabo-izrailskom konflikte

(كتاب عن المشاركة العسكرية السوفيتية في الصراع العربي الإسرائيلي)

(Moscow: Sovet veteranov boevykh deistvii v Egipte, 1997); Vladimir A. Zoloiarev et al., Rossiya (SSSR) v lokal'nykh voynakh i iworuzhennykh lwnflikiakh vwroy poloviny XX veka (Russia (USSR) in Local Wars and Military' Conflicts in the Second Half of the Twentieth Century) (.moscow" Aiinisiersrvo oboroni Rossiiskoi Federaisii, 2000); and M.S. Meier et al., eds., Togda v Egipte ...: kniga op pomoshchi SSSR Egiptu v wenmm proavostoumii s Izrailem عندما كنا في مصر...: كتاب عن الدعم السوفيتي لمصر في حروبها لمقاومة إسرائيل.

(Moscow: Instirut stran Azii i An-iki pri MGU im. M. V. Lomonosova, 2001).

(٦٥) *Gröneberg (Abteilung Internationale Vertretungen [hereafter AIV])* إلى المكتب السياسي حول زيارة عرفات إلى ألمانيا الشرقية في ٨ أغسطس ١٩٧٤ ,*SAPMO-BArch* *DY30 J IV 2/2J/5412.* بشأن العراق، انظر التقرير حول زيارة السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد إلى ألمانيا الشرقية في الفترة من ٢٧ أكتوبر إلى ٥ نوفمبر ١٩٧٣ *SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/5007* ، وتقرير *AIV* إلى المكتب السياسي حول الموقف في الحزب الشيوعي السوري، ٢٠ يونيو ١٩٧٤

SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/5337.

(٦٦) من كيسنجر إلى وزير الخارجية الأمريكي، ٢٥ يوليو ١٩٧٢، "متابعة حول حديث الرئيس مع شاه إيران" خدمة المراجع الوثائقية *DDRS*

(٦٧) وليام ف. بروا *William V. Broe* (رئيس قسم النصف الغربي للكرة الارضية) "مذكرة للتسجيل: نشأة مشروع *FUBELT*" ١٦ سبتمبر ١٩٧٠ المنعقد في إدارة حرية المعلومات انظر موقع *http://www.foia.state.gov/.*

(٦٨) ملحوظات بخط اليد، ريتشارد هلمز *Richard Helms* "اجتماع مع رئيس شيلي في ١٥,٢٥ في ١٥ سبتمبر ١٩٧٠، الحضور: جون ميتشل وهنري كيسنجر" على موقع *www.foia.state.gov/*.

(٦٩) مذكرة ، من كيسنجر إلى نيكسون، "اجتماع مجلس الأمن القومي، ٦ نوفمبر – شيلي" ٥ نوفمبر ١٩٧٠، مشروع نيكسون للمواد الرئاسية *Nixon Presidential Materials Project* ويرمز له هنا *NPMP*، في *NSC IF, box H029*. انظر أيضًا تانيا هارمر "العلاقات الأمريكية التشيلية وحرب نيكسون الباردة في أمريكا اللاتينية ١٩٧٠-١٩٧٣"،
و *Tanya Harmer, "US-Chilean Relations and Nixon's Cold War in Latin America 1970-1973,"* رسالة دكتوراه من كلية الاقتصاد بلندن، ٢٠٠٦.

(٧٠) من كيسنجر إلى بنكر، ١٥ يناير ١٩٧٢، مشروع نيكسون للمواد الرئاسية *NSC Series, box 872,* من أجل ملفات الرئيس – مفاوضات لورد – فيتنام.

(٧١) *Celeste A. Wallander, "Third World Conflict in Soviet Military Thought," World Politics, 42.1 (October 1989): 31-37;* "صراع العالم الثالث في الفكر العسكري السوفيتي"
Bruce D. Porter, The USSR in Third World Conflicts: Soviet Arms and Diplomacy in Local Wars 1945-1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), pp. 36-59.
الاتحاد السوفيتي في صراعات العالم الثالث: الأسلحة السوفيتية والدبلوماسية في الحروب المحلية ١٩٤٥- ١٩٨٠" انظر أيضا
Samuel P. Huntington, "Patterns of Intervention: Americans and Soviets in the Third World," National Interest (spring 1987): 39-47
أنماط التدخل: الأمريكيون والسوفيت في العالم الثالث"

(٧٢) كان الرأس المدبر لإدارة الدعاية باللجنة المركزية من المؤيدين لسياسة أكثر نشاطًا في العالم الثالث في أوائل السبعينيات ألكساندر ياكوفليف *Aleksandr Iakovlev* ونائبه فاديم مدفيديف *Vadim Medvedev*. مثل زاجلادين *Zagladin* وبروتنتس *Brutents* وشاخنازاروف *Shakhnazarov* ، انتهى بهم الأمر إلى التسريع بالإصلاحات التي قام بها جورباتشوف بعد ذلك بخمسة عشر عامًا.

(٧٣) *Karen N. Brutents, Sovremennye natsionalno-osvoboditelnye revoliutsii. (Nekotorye voprosy teorii* (ثورات التحرير الوطني المعاصرة (بعض القضايا النظرية)) *(Moscow;*

إن آراء بروتنتس هنا مبنية على أساس كتيب نشره في ١٩٦٩ بعنوان: *(Politizdat, 1974)*، *Politika imperializma SShA v razvivaiushchikhsia stranakh* (سياسة الولايات المتحدة الإمبريالية تجاه الدول النامية) (*Moscow:Znanie*).

(٧٤) *Huntington, "Patterns of Intervention," p. 43)*، حول المجموعات السوفيتية انظر:
Jan S. Adams "Incremental Activism in Soviet Third World Policy: the Role of the International Department of the CPSU Central Committee" Slavic Review, 48.4 (winter 1989): 614-30, "النشاط الزائد في السياسات السوفيتية تجاه العالم الثالث: دور الإدارة الدولية للجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي". من أجل نظرة من الداخل لإحدى المؤسسات يقدم الرئيس السابق للإدارة الرئيسية الأولى ليونيد شبرشين كتابه "سلاح موسكو: تقارير من رئيس المخابرات السوفيتية

Leonid V. Shebarshin Ruka Moskvy: Zapiski nachalnika sovetskoi razvedki وكتابه "من حياة رئيس المخابرات"
Iz zhizni nachalnika razvedki) (Moscow: Mezhdunarodnye otnoshenii, 1994).

الفصل السادس

أزمة الاستقلال: أفريقيا الجنوبية

بدءًا من منتصف الستينيات، اتضح لواشنطن وموسكو أن مركز التنافس في الحرب الباردة في أفريقيا كان قد بدأ ينتقل من شمال أفريقيا ووسطها إلى الجزء الجنوبي من القارة، حيث بدأت فلول الإمبراطورية البرتغالية - في أنجولا وموزنبيق - ودولتي جنوب أفريقيا وزيمبابوي (روديسيا) العنصريتين تواجه حرب عصابات مع الحركات الأفريقية الوطنية. كانت معظم قيادة هذه الحركات تنتمي إلى الجيل الثاني الأكثر عنصرية من الأفارقة الوطنيين- بعضهم كان ماركسيًا ومعظمهم كانوا ينتقدون إخفاقات الزعماء الأفارقة الأول بعد الاستقلال، في وضع دولهم والقارة على الطريق نحو وحدة أكبر ومساواة أكبر وتأثير أوروبي أقل. كثيرون منهم تأثروا بما اعتبروه الدروس المستفادة من الحروب في فيتنام وكوبا، معتقدين أن حرب العصابات والتعبئة السياسية الجماهيرية سوف تهزم أعداءهم، بينما يعدون مجتمعاتهم لبناء دولة اشتراكية بعد الحرب. وقد جعل الدور الدولي المتزايد الأهمية للاتحاد السوفيتي الكثير من الزعماء الأفارقة الراديكاليين يرون في موسكو الثقل الاشتراكي العالمي المضاد للولايات المتحدة، فهي تصنع توازنًا في العلاقات الدولية من شأنه أن يساعد ثوراتهم، كما أنها تساعد حركاتهم بالتدريب والأسلحة والإمدادات. كان التوجه الماركسي للكثير من حركات التحرر في جنوب أفريقيا هو ما جعل موسكو وواشنطن ينظران إليها بعين الاعتبار؛ فهي بالنسبة للولايات المتحدة تهدد الأنظمة الراديكالية ذات التوجهات السوفيتية التي

تستحوذ على السلطة فى العالم الثالث؛ وهى بالنسبة للاتحاد السوفيتى تعنى بداية مرحلة جديدة للتطور الاجتماعى فى العالم الثالث، حيث يعترف الزعماء الأفارقة بتفوق "الماركسية العلمية".

لم يكن من اليسير على زعماء التحرير فى أفريقيا الجنوبية أن يفرضوا تحليلا ماركسيًا على فهمهم للمجتمعات التى يحكمونها. ولكن الماركسية – وخاصة فى شكلها اللينينى – كان لها فائدة كبيرة فى الدول التى استخدمت فيها السلطات التصنيفات العنصرية الإثنية المختلفة، لكى تفصل بين السكان وتُخلِّد حكمها. وبتقسيم الناس حسب أدوارهم الإنتاجية إلى فلاحين وعمال ومثقفين بدلا من تقسيمهم إلى زولو واكوسا ونديبلى وشونا وأوفامبو، ساعدت الماركسية على خلق فكرة عن الجبهة الموحدة أمام الأنظمة. كما أشعلت الأمل فى خلق دول مستقبلية حديثة وعادلة – بدون قهر عنصرى، مع إتاحة المزايا التى يتمتع بها الأوروبيون للجميع. ومع الثروات الطبيعية المهولة التى يتمتع بها الجنوب الأفريقى، لم يكن بمستغرب أن يشعر معظم زعماء التحرير أن المشكلة الرئيسية فى المنطقة كانت مشكلة العدالة الاجتماعية – فلو أن أمة ما تأسست على أن تحتوى جميع سكانها ومواطنيها فى دولة واحدة غير عنصرية، فسوف تنتهى كل صنوف الاحتياج. وأخيرًا فإن الاتجاه نحو الماركسية ساعد قادة حركات التحرر غير الأفارقة – وهم كثيرون – أن يبرروا أدوارهم ومواقفهم؛ فلو أن الإثنية لم تكن القضية الرئيسية، فسوف يساعدون على قيادة ثورات يقوم بها الأفارقة.

تحرير الجنوب الأفريقى والحرب الباردة بين القوى العظمى

كانت جنوب أفريقيا هى الساحة الرئيسية للصراع من أجل القوة فى الجنوب الأفريقى على مدار الستينيات والسبعينيات. فقد استخدم نظامها العنصرى، الذى

تأسس تحت حكم الحزب الوطني الذى يحكمه الأفريكان *Afrikaaner*(*) بدءًا من ١٩٤٨، استخدم سياسة للفصل العنصرى – ويطلق عليها أبارتايد *apartheid* باللغة الأفريكانية – لتقسيم الدولة وفقًا للخطوط الإثنية، وللسماح للأقلية الأوروبية التى تشكل نحو ١٣% بالسيطرة على الاقتصاد والنواحى العسكرية والتعليم والسياسة. كان مطلوبًا من الأفارقة (وهم يشكلون نحو ٧٥% من السكان) أن يحملوا تصاريح دخول وخروج إلى المناطق الأوروبية التى يعملون بها، والتى لا يسمح لهم بالعيش أو التعلم فيها. ومع اتساع المناطق الأوروبية، كان يتم تهجير الأفارقة وغير الأوروبيين بالقوة، عادة لما كان يسميه النظام العنصرى "مستوطنات" أو "بانتوستان" *Bantustan*. تلك المناطق، التى تمثل ١٤% من البلاد تم تأسيسها باعتبارها مناطق نائية للجماعات الإثنية الأفريقية حسب تعريف النظام، ونتيجة لذلك فإن الناس الذين لم يفكروا أبدًا فى أنفسهم كـ"تسوانا" أو "زولو" تم إبعادهم عن المناطق التى كانوا يعيشون فيها وأُرغموا على العيش فى "وطن" لقبيلتهم. وكما قال رئيس وزراء جنوب أفريقيا والمتحدث الرئيسى باسم الأفريكان هنريك فيروورد *Hendrik Verwoerd* "الفصل العنصرى يشمل المجال السياسى؛ وهو ضرورى فى المجال الاجتماعى؛ وهو من أهداف الكنيسة؛ إنه مهم فى كل مجالات الحياة"[1].

كانت الشركات العالمية هى التى تحكم الاقتصاد الجنوب أفريقى – وخاصة صناعة التعدين الحيوية – حيث لم يكن للأفريكان أنفسهم سوى حصة ضئيلة فيه. اعتمدت صناعة التعدين اعتمادًا كاملا على العمالة الأفريقية الرخيصة، التى كان نظام الفصل العنصرى يؤدى واجبه فى توفيرها، وبالتالى كانت مربحة للغاية، كما كانت شديدة الأهمية لمصالح الغرب استراتيـــجيًا واقتصاديًا. وكما رأينا، لم تمنع

(*) الأفريكان هم الجنوب أفريقيون البيض وهم شعوب أوروبية مختلطة استوطنت جنوب أفريقيا والكلمة مشتقة من معنى أفريقى باللغة البولندية (المترجمة).

هذه العلاقات الاقتصادية من تدهور علاقة جنوب أفريقيا السياسية بالغرب، وخاصة الولايات المتحدة أثناء فترة جونسون. فقد رأى الرئيس أن رفض جنوب أفريقيا إصلاح سياساتها العنصرية وفقًا للخطوط التى رسمها فى الولايات المتحدة سيكون وبالا عليها، وأن أمريكا قد تستخدم كل السبل (باستثناء قطع العلاقات الاقتصادية والعسكرية مع بريتوريا) للتأثير على حكومة جنوب أفريقيا. وفى أواخر الستينيات وجدت جنوب أفريقيا أن أصدقاءها فى العالم الأوروبى، المستعـدين للتغـاضى عـن القهر العنصرى المنظم باسم التضامن مع البيض أو الربح الاقتصادى، كانوا يتناقصون.

وكما رأينا، كانت منظمة التحرير الرئيسية فى جنوب أفريقيا، وهى المؤتمر الوطنى الأفريقى ***African National Congress (ANC)*** منذ بدايتها تعارض كل أشكال التفرقة العنصرية وتسمح للأوروبيين والآسيويين أن ينضموا إليها. وفى حين كانت قيادتها مزيجًا من كل المجموعات الإثنية، كان معظم ضباط الصف والجنود العاديين من الأفارقة، وخاصة من خلال الاتحادات التجارية الأفريقية المهمة التى ساعد المؤتمر الأفريقى فى إنشائها. انضم أعضاء الحزب الشيوعى بجنوب أفريقيا إلى المؤتمر الأفريقى، وفى الستينيات كانت المنظمة العسكرية الوليدة – التى أنشئت بعد خطر الحزب فى ١٩٦٠، والقبض على الكثير من قياداته – يحكمها الشيوعيون. لكنه كان من الصعب أن يبدأ المؤتمر الأفريقى فى تحدى نظام الفصل العنصرى عسكريًا، فالدولة محاطة بالأنظمة الصديقة، ولبريتوريا سلطة لا يستهان بها على زعماء العشائر والإثنيين الأفارقة، الذين أحبطوا الشباب عن الالتحاق بالمقاومة العسكرية. وفى أواخر الستينيات كانت الوحدات العسكرية للمؤتمر الأفريقى ***Umkhonto we Sizwe*** (رماح الشعب) مكونة من بضع آلاف من الشباب الذين سافروا بعيدًا إلى تانزانيا، وهم يفتقرون إلى التدريب والأسلحة وتنعدم لديهم الأخلاق.

كان موقف حركات التحرير فى المستعمرات البرتغالية، أنجولا وموزنبيق، الواقعتين على حدود جنوب أفريقيا، وناميبيا التى تحتلها جنوب أفريقيا، جد مختلف. فرغم عضويتها فى حلف شمال الأطلسى (الناتو)، وجدت الديكتاتورية البرتغالية أن أمر إدارة حروبها الاستعمارية وتسليحها وتمويلها كان يزداد صعوبة فى الستينيات. واعتبر شركاؤها الأوروبيون فى الناتو أن حروبها للإبقاء على مستعمراتها انحرافًا على أفضل تقدير وعارًا على أسوأ تقدير، وبصعوبة بالغة اقتنعت إدارة چونسون بجدليات الدكتاتور البرتغالى سالازار ***Salazar*** بأن مهمة البرتغال فى أفريقيا هى محاربة الشيوعية. ولكن على الرغم من مخاوف واشنطن الداخلية من "عدم كفاءة" و"إخفاق" البرتغاليين، لم تستطع أن تنأى نفسها عن الدعم غير المباشر للحروب الاستعمارية البرتغالية. وكما شرح وزير الخارجية رسك ***Rusk*** لخليفة سالازار "مارسيللو كيتانو" ***Marcello Caetano*** فى ١٩٦٨: "إن الولايات المتحدة لا تشن حربًا بشأن القضية الأفريقية وليس لديها مصلحة فى اختفاء الوجود البرتغالى منها... علينا أن نشرح وجهات نظرنا، التى ليست دائمًا نفس وجهات نظر أصدقائنا البرتغاليين... فهناك أمور كثيرة تعتمد على التعبير عن وجهات النظر الأصلية لدى شعوب أنجولا وموزنبيق"(٢).

لم تكن حركة التحرير الموزمبيقية ***FRELIMO*** متحدة فى نضالها فحسب، لكنها كانت أيضًا على علاقات سرية قوية بالولايات المتحدة. ورغم أن موندلين ***Mondlane*** كان اشتراكيًا مخلصًا، فقد كان يعتقد أن وجود جبهة موحدة واسعة فى الداخل والخارج سيكون فى صالح التحرير، حتى وإن أدى ذلك إلى بطء عمليات التحول الاجتماعى. ولكن فى أنجولا- المستعمرة البرتغالية الأهم استراتيجيًا واقتصاديًا على ساحل أفريقيا الجنوبى الغربى- كانت هناك ثلاث حركات تحرير منقسمة أيديولوجيًا وإثنيًا، يتوزع بينها ولاء المعادين للاستعمار. فى أوائل الستينيات كانت أكبر هذه الحركات هى الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا ***National Front for***

the Liberation of Angola (FNLA) (*Frente Nacional de Libertação de Angola*) بزعامة هولدن روبرتو *Holden Roberto*. وكانت أيديولوجيتها هى القومية المحلية الأفريقية القوية – التى تعادى الشيوعية وتعادى الغرب بالقدر نفسه. وكان لهولدن روبرتو، وهو زعيم سلطوى غير مرن، يعتمد موقفه على زعامته لجماعة باكونجو الإثنية فى الشمال، كانت له ارتباطاته السرية بالمخابرات المركزية وكان يعتمد على زائير فى عهد موبوتو من أجل القواعد والدعم.

أما قيادة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا *Popular Movement for the Liberation of Angola (MPLA)* (*Movimento Popular de Libertação de Angola*) فكانت تتألف من الأوروبيين والأسبان البرتغال وكذلك الأفارقة. تزعمها أنتونيو أغوستينو نيتو *Antonio Aghostinho Neto* – وهو طبيب وشاعر هادئ الطباع متمركز حول ذاته قليلا – فأصبحت الحركة جبهة ماركسية فى منتصف الستينيات، تؤكد الحاجة إلى الثورة الاجتماعية وتتمسك بأغراضها لكل شعب أنجولا. وفى حين كان نيتو يأمل فى مساعدة الكتلة السوفيتية، فإنه ظل ماركسيًا مستقل الفكر؛ يلهمه اليسار الأوروبى فكريًا – من خلال الحزب الشيوعى البرتغالى – كما تلهمه موسكو. كان دوره فى نضال التحرير الأنجولى ملهمًا كما كان سياسيًا، حيث كان الكثير من ضباطه يوجهون النشاطات العسكرية فى داخل أنجولا وخارجها. وفى أشعاره شجع مواطنيه قائلا:

ابدأ بالفعل أيها الرجل القوى الفطن

استجابة للقول: العين بالعين والسن بالسن

والنفس بالنفس

تعال أيها الفعل القوى

لجيش الشعب لتحرير الرجال

تعال كالإعصار لتكسر هذه البلادة [٣].

أما ثالث حركات التحرير الأنجولية فكانت الاتحاد الوطنى لتحرير أنجولا بالكامل (يونيتا) ***National Union for the Total Liberation of Angola (UNITA)*** (***União Nacional para a Independência Total de Angola***) وقد أنشأها جوناس سافيمبى ***Jonas Savimbi*** في منتصف الستينيات، فى اعتراض منه على ما اعتبره تخاذلا عسكريًا وعدم حماسة لدى الأحزاب الأخرى. كان سافيمبى أكثر الزعماء الأنجوليين كاريزمية، وكان سياسيًا انتهازيًا وضعته أيديولوجيته فى المعسكر الوطني، لكنه كان يحصل على الدعم من الصين. وقد انتقد الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** لأن الأوروبيين كانوا يسيطرون عليها، وانتقد الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا ***FNLA*** بسبب ارتباطها بالكونجو، ملقيًا المواعظ عن الاكتفاء الذاتى والوحدة الوطنية كأهم أهدافه؛ ولكنه فى الوقت نفسه اعتمد على الدعم من جماعته الإثنية، الأڤيمبوندو ***Ovimbundu*** لوسط أنجولا وجنوبيها، وكان يريد عقد الصفقات مع كل شخص آخر (بمن فيهم، أحيانا، البرتغاليين) لكي يقوى موقف حزبه.

ترجع الراديكالية المتزايدة فى الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** وفى حركة التحرير الموزنبيقية ***FRELIMO*** إلى درجة أقل فى منتصف الستينيات، إلى زعيم حركة التحرير فى المستعمرة البرتغالية الثالثة فى أفريقيا، غينيا بيساو، على الساحل الغربي. أميلكار كابرال ***Amilcar Cabral***، زعيم الحزب الأفريقى لاستقلال غينيا والرأس الأخضر

African Party of Independence of Guinea and Cape Verde
(PAIGC) Partido Africano da Independência de Cabo Verde الذى أشعل حرب عصابات ضد البرتغاليين منذ ١٩٥٩، كان قد أمضى وقتًا فى أنجولا فى الخمسينيات ويعرف زعماء حركات التحرير الأخرى جيدًا. أصبح ماركسيًا أثناء دراسته فى لشبونة وكان صوتًا قويًا للحاجة إلى ربط الحركات الوطنية بالثورة الاجتماعية فى أفريقيا كلها. كان أيضا نصيرًا لفكرة احتياج حركات التحرير الأفريقية أن تتحالف أكثر مع الاتحاد السوفيتى. وفى حين كان السوفيت أنفسهم يعتبرون كابرال ماركسيًا متحرر الفكر غير مقنع، فإن رسالته وصلت إلى أفريقيا كلها، وخاصة المستعمرات البرتغالية. فى ١٩٦٥ وفى مؤتمر لكل الأحزاب اليسارية التى تحارب البرتغاليين، دافع كابرال عن موقفه: "هؤلاء الذين لا يحبون أن يسمعوننا نتحدث عن مساعدة الدول الاشتراكية، بماذا ساعدونا؟ إنهم يساعدون البرتغال، حكومة سالازار الفاشية المستعمرة. ولم يعد يخفى على أحد أن البرتغال، الحكومة البرتغالية، لم تكن لتشن نضالا ضدنا لو لم تكن تتلقى المساعدة من حلفائها فى الناتو". وفى تلك المناسبة نفسها، قال كابرال إن نضال التحرير فى أفريقيا فى الستينيات فى صراع مباشر مع الولايات المتحدة:

> **إن قلوبنا تخفق اتحادًا مع إخواننا فى فيتنام، الذين أعطونا مثالا فريدًا فى محاربة اعتداء الولايات المتحدة الأمريكية المخزى الظالم الإمبريالى على الشعب الفيتنامى المسالم.... إننا نساند السود الأمريكان، نساندهم فى شوارع لوس أنجلوس، وعندما يحرمون من احتمالية الحياة الكريمة، سوف نعانى معهم[٤].**

وبينما شبه كابرال والثوار من أفريقيا أنفسهم بالأمريكيين الراديكاليين، دخلت الولايات المتحدة تحت حكم ريتشارد نيكسون فى علاقة أكثر قربًا مع العدو الأساسى لحركات التحرير الأفريقية: جنوب أفريقيا العنصرية. ومع اقتناع البيت الأبيض بالحاجة إلى قوة شديدة ذات توجه غربى لتلعب دور الشرطى فى المنطقة، بدأ التقرب من بريتوريا فى ١٩٦٩ بإحباط المحاولات الأفريقية لعزل نظام الفصل العنصرى وإعادة تنشيط التبادل المخابراتى وبرامج التنسيق البحرى الذى قامت إدارة چونسون بتعليقه. أما البديل المفضل لدى الإدارة الذى أشير إليه فى دراسة لمجلس الأمن الوطنى فى ديسمبر ١٩٦٩ فهو

الحفاظ على المعارضة الشعبية للقهر العنصرى ولكن تخفيف العزلة السياسية والقيود الاقتصادية على الولايات البيضاء. وسوف نبدأ بالعوامل المتواضعة لهذا التخفيف، موسعين من مجال العلاقات والاتصالات تدريجيا وإلى درجة ما استجابة إلى السياسات البيضاء للتحديث- وإن كان تحديثًا ضئيلا وتدريجيًا... لابد من أن نكون أكثر مرونة فى موقفنا من نظام سميث [فى زيمبابوى]. وسوف نعتبر السياسات البرتغالية الحالية مدخلا للمزيد من التغيرات... وفى الوقت نفسه سوف نتخذ خطوات دبلوماسية لإقناع الولايات السوداء فى المنطقة بأن طموحاتهم من أجل التحرير وحكم الأغلبية فى الجنوب لن تُنال بالعنف، وأن أملهم الوحيد فى مستقبل يعم فيه السلام والرخاء يكمن فى علاقات أقرب مع الولايات التى يحكمها البيض(٥).

تطورت العلاقات بين الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا سريعًا بعد ١٩٧٠، رغم أن الكثير من القيود الأمريكية على الاستثمار والتعاون مع نظام الأقلية الأفريكان بقيت كما هى. ورأت الإدارة أن جنوب أفريقيا لن تواجه أى شكل من التغير الداخلى الملحوظ قريبًا، وأنها أثبتت أنها حليف مهم للولايات المتحدة فى منطقة مهمة استراتيــچيا. قال هنرى كسنجر لوزير خارجية جنوب أفريقيا فى اجتماع فى أكتوبر ١٩٧٣، "إننا نواجه موقفًا مأساويًا فى عالم يردد شعارات جوفاء عن المبادئ السياسية والاجتماعية... وسوف أقطع دابر أى حماسة يبديها الموظفون فى الخارجية الأمريكية من شأنها مضايقتكم"[٦].

لم تكن الولايات المتحدة وحدها من يبحث عن حلفاء فى أفريقيا. فكما رأينا، حتى قبل الكارثة البوليــفية وموت تشى جيڤارا، استرعت القارة انتباه كوبا. فقد بدأت بعض القوات الكوبية التى جاءت إلى الكونغو تدرب عصابات الحركة الشعبية لتحرير أنجولا *MPLA*، وفى ١٩٦٥ كان بعض الكوبيين قد عبروا مع المقاتلين الأنجوليين إلى جيب كابيندا الشمالى. بدءًا من ١٩٦٦، نظم الكوبيون مدارس تدريب للحركة الشعبية لتحرير أنجولا فى الكونغو برازافيل، كما نظموا إعادة دخول قوات الحركة إلى أنجولا جيدًا، فى رحلة خطرة عبر المنطقة التى كان يسيطر عليها عدوا نيتو اللدودان موبوتو زائير وهولدن روبرتو رئيس الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا *FNLA*. وكان الدعم الكوبى الباكر للحركة الشعبية لتحرير أنجولا ضروريًا لها، حتى وإن كان ذلك استثمارًا ضئيلا للغاية لهافانا فى المال والرجال؛ وكان ذلك، من وجهة نظر كاسترو، بمثابة إنشاء علاقة مع أنجولا، حتى وإن كان تقييمه للقدرة على القتال والاستعداد السياسى للحركة فى منتصف الستينيات سلبيًا.

في ١٩٦٧ كان معظم اهتمام كوبا قد انتقل من أنجولا إلى مستعمرة برتغالية أخرى وهي غينيا بيساو، حيث وجدت كل من الحركة الثورية، المتمثلة في الحزب الأفريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر *PAIGC*، والأرض الأكثر صلاحية لاستراتيـــجية حرب العصابات التي اقترحتها كوبا. كان زعيم الحزب أميلكار كابرال ***Amílcar Cabral*** قد زار هافانا أثناء مؤتمر ثلاثي في ١٩٦٦، حيث، كما قال القائد الكوبي جورج ريسكت ***Jorge Risquet*** "أذهل الجميع بذكائه الفذ وشخصيته. وأعجب به فيديل كاسترو جدًا"[٧]. ووضع المبعوث الكوبي الجديد إلى غينيا كوناكري "أوسكار أوراماس" ***Oscar Oramas*** موضع مسئولية بأن يعهد إلى الحزب بكمية كبيرة من المساعدات الكوبية من أسلحة ومرشدين ومعلمين عسكريين وأطباء ومدرسين وفنيين وإمدادات مدنية. لم يكن وجود الكوبيين في غينيا سرًا – فأخو كابرال يتذكر أنه "سرعان ما أصبح من المعلومات العامة أن الرجال الذين يقودون دبابات الحزب الأفريقي كوبيون؛ فهم الوحيدون في كوناكري الذين يدخنون السيجار!"[٨]. ولكن كما أوضح المؤرخ بيرو جليـــجسز ***Piero Gleijeses*** فإن واشنطن كانت قلقة قليلا بشأن ظهور بعض الكوبيين في غينيا، معتقدة أن طاقة كوبا في البرامج الخارجية كانت قد انتهت بعد وفاة تشي جيفارا، وأن غينيا أصغر كثيرًا وأبعد كثيرًا من أن يكون لها شأن في الصورة العالمية الأكبر.

ذلك الزهو الأمريكي بالذات بدأ يتغير في أوائل السبعينيات، عندما اتضح أن الحزب الأفريقي آخذ في هزيمة البرتغاليين في غينيا، ويعود الفضل في ذلك جزئيًا إلى المساعدة الكوبية. وبينما كانت حركتا التحرير في موزنبيق وأنجولا تتعثران، كان لمنظمة كابرال في ١٩٧٣جيش مكون من ثمانية آلاف رجل، وكانت المنظمة تسيطر على نحو ثلثي البلاد؛ وقد استطاعت أن تبني إدارة مدنية مؤثرة، استمرت في العمل الجيد حتى بعد أن اغتيل أميلكار كابرال في يناير ١٩٧٣. ولكن ما استرعى انتباه واشنطن حقًا هو الظهور المفاجئ لصواريخ أرض/جو سوفيتية

متطورة مع الثوار – وقالت المخابرات المركزية إن مثل تلك الأسلحة سوف يجعل انتصار البرتغاليين فى الحرب مستحيلا، وقد اعتمدوا بشدة على تفوقهم الجوى. الأهم من ذلك أن رغبة موسكو فى الإمداد بمثل تلك الأسلحة كان يعنى اتجاهًا جديدا لدعم حركات التحرير الأفريقية بأشكال لم تكن تظهر من قبل.

ليس مجهولا للأمريكيين أن الاستثمار السوفيتى فى الحزب الأفريقى كان مرتبطًا بتحسن العلاقات بين كوبا وموسكو الذى كان ضعيفًا حتى ١٩٦٨. وهناك ثلاثة أسباب كبرى لهذا التغير: أولا وفاة تشى چيفارا ونهاية الهجمات الكوبية فى أمريكا اللاتينية مما أزال عنصرًا من عناصر التوتر فى العلاقات – لقد رأى السوفيت أن السياسة الكوبية مغامرة، بينما انتقد كاسترو السوفيت بسبب ضعفهم وعلاقاتهم التجارية مع الأنظمة اليمينية فى أمريكا اللاتينية[٩]. ثانيًا، أن الاقتصاد الكوبى قد هبط هبوطًا حادًا في أواخر الستينيات وكان بحاجة إلى الدعم السوفيتى على نحو متزايد. ثالثًا، فكرة أن يربح ريتشارد نيكسون الانتخابات الأمريكية فى خريف ١٩٦٨– وهو العدو اللدود لكوبا كاسترو– ذكّرت هاڤانا بمدى اعتمادها على الدعم السوفيتى فى حالة الهجوم الأمريكى. كما تبخرت أى بدائل لدى هاڤانا عن موسكو: ففى أواخر ١٩٦٧ أدان كاسترو كلا من الصينيين لمحاولتهم القيام بدعاية للثورة الثقافية فى كوبا، واليوغوسلاف لقيامهم بتسويات أيديولوچية فى الداخل. وفرح السوفيت طبعًا بالاتجاه الكوبى الجديد– وبعد أن أظهر كاسترو ولاءه عن طريق الدفاع عن غزو موسكو لتشيكوسلوڤاكيا فى أغسطس ١٩٦٨، زادت المعونات العسكرية والاقتصادية لكوبا[١٠].

فى أوائل السبعينيات كان تنسيق الجهود الكوبية السوفيتية (وأحيانًا الألمانية الشرقيّة) لمساعدة حركات التحرير فى العالم الثالث يجرى على قدم وساق. فى ١٩٧١، قالت برلين، التى عمل الحزب الشيوعي فيها وسيطًا بين هاڤانا وموسكو،

إنه بينما لم يعط الحزب الكوبى الأولوية الكافية لـ"العمل السياسى والأيديولوجى" أبدًا، فإن هافانا كانت أكثر رغبة الآن في التعامل مع المشكلات النظرية، وفى أن تتعلم من الخبرة السوفيتية. كما قالت برلين إن كاسترو كان قد أصبح أقوى فى مواجهة الماركسية المنشقة، فى الداخل والخارج. وأخبر راءول كاسترو الألمان الشرقيين الزائرين فى يونيو ١٩٧٣ أن "علاقات كوبا بالدول الاشتراكية الآن متينة وقوية، ولن يكون هناك أى تراجع آخر"، "لن نسمح للألغام أن توضع تحت الجسر الذى يربطنا بالاتحاد السوفيتى"[١١]. وامتن السوفيت لكاسترو لإرساله أطقم دبابات إلى سوريا عقب حرب كيبور فى ١٩٧٣، وهى الخطوة التى طلبها السوفيت ورأوا أنها مثال آخر للولاء الكوبى. وأمد السوفيت الحزب الأفريقى بالأسلحة الثقيلة، بعد طلب كوبا، حسبما يذكر المسئولون بموسكو. لكن، كما استنتج كل من الكوبيين والألمان الشرقيين، فإن تلك الخطوة ما كانت لتحدث لو لم يبدأ السوفيت أنفسهم التركيز أكثر على القارة الأفريقية[١٢].

وضع جهاز المخابرات السوفيتى الاستراتيجية السوفيتية الأفريقية الجديدة، التى حصلت على دعم القيادة السوفيتية – وخاصة دعم ليونيد بريجنيف – فى صيف وخريف ١٩٧٠. وكانت تقارير جهاز المخابرات السوفيتى لبريجنيف تؤكد أن الأنظمة وحركات التحرير في جنوب أفريقيا تبحث عن حلفاء دوليين، وتؤكد أن معظم الأنظمة الأفريقية كان لديها منهج "بسيط" تجاه الشئون الدولية فى الماضى، وهى لم تفهم الصراع بين المعسكرين ولا طبيعة الإمبريالية الأمريكية. وقال جهاز المخابرات السوفيتى إن زعماء حركات الاستقلال ينتمون إلى جيل مختلف. وشعر الزعماء السياسيون الجدد لجنوب أفريقيا أن محاولاتهم للحصول على الدعم الأمريكى قد فشلت، وأن الاتحاد السوفيتى هو القوة الكبرى الوحيدة التى بإمكانها مساعدتهم فى الوصول إلى أهدافهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية[١٣].

كانت المستعمرات البرتغالية – أنجولا وموزنبيق وغينيا بيساو/الرأس الأخضر – مهمة من وجهة النظر السوفيتية لأسباب سياسية واستراتيـــجية. وأشار جهاز المخابرات السوفيتى ***KGB*** إلى تحالف إدارة نيكسون المتجدد مع البرتغال وجنوب أفريقيا، والتراجع العسكرى للقوات البرتغالية فى حروبها وخاصة فى غينيا. وأوضح نائب رئيس جهاز المخابرات السوفيتى فيكتور شبريكوف ***Viktor Chebrikov*** أن لأنجولا وغينيا بيساو أهمية استراتيـــجية كبيرة بالنسبة للاتحاد السوفيتى، وأن كلا من الولايات المتحدة والصين تحاولان زيادة نفوذهما مع حركات التحرير فى تلك الدول[١٤]. ورأت وكالات المخابرات أن التنافس السوفيتى مع الصين على النفوذ فى أفريقيا عامل مهم وراء توصياتهما السياسية. وسجل مكتب الاستخبارات الرئيسى أن الصين تستهدف الدول والحركات التى تلقت الدعم بالفعل من الاتحاد السوفيتى، كما أنها قد تستخدم مواردها إلى الدرجة القصوى لكى تجتذب مؤيدين أفارقة، وتستطيع فى بضع سنوات أن تبنى لها مكانة بحيث تستطيع السيطرة على أجزاء كبيرة من أفريقيا فى نوع من الائتلاف الفضفاض مع الولايات المتحدة[١٥].

كان لرئيس جهاز المخابرات السوفيتى يورى أندروبوف ***Iuri Anderopov*** أسباب أخرى للنصح بزيادة التدخل السوفيتى فى جنوب أفريقيا. عند قيامه بتلخيص تقرير عن التقديرات الغربية للسياسة السوفيتية فى أفريقيا، أكد أندروبوف أن خبراء الغرب كانوا يعتقدون أنه رغم أن الاتحاد السوفيتى قد يسعى جاهدًا من أجل أن يقوى موقفه فى أفريقيا، فإنه "فى السنوات القادمة لا يخطط 'لهجوم واسع' بل يلتزم بتأمين المواقع التى حققها بالفعل". وقد وجد أندروبوف أن تلك التقديرات الغربية كانت فى حد ذاتها أسبابًا وجيهة لكى يصعد الاتحاد السوفيتى من عملياته الأفريقية[١٦]. ولكن كانت هناك أيضًا حاجة إلى إيقاف المحاولات الصينية لـ"ضحد"

حركات التحرير الأفريقية، وهي المحاولات التي توقعت موسكو أن تزداد عندما تعبر الصين أزمة الثورة الثقافية(١٧).

حتى ذلك الحين كان المؤتمر الوطني الأفريقي *ANC* بجنوب أفريقيا هو أهم حلفاء الاتحاد السوفيتي في أفريقيا الجنوبية. كانت إدارة المؤتمر برئاسة أوليـڤر تامبو *Oliver Tambo*، موضع ثقة بالنسبة للسوفيت الذين حافظوا على علاقة قريبة مع زعماء جنوب أفريقيا من خلال سفارة موسكو في زامبيا، حيث كان للمؤتمر مقار للمنفى. وقد يكون من الغريب أن الوثائق أظهرت أن التقارب السوفيتي مع المؤتمر الوطني الأفريقي تطور على الرغم من، وليس بسبب، التأثير القوى للحزب الشيوعي الجنوب أفريقي داخل المؤتمر. كانت الإدارة الدولية - بجانب جهاز المخابرات السوفيتي - أهم مؤسسة لتطوير العلاقات، وكانت تكره الكثير من الزعماء الشيوعيين بجنوب أفريقيا ولا تثق بهم، ومن بينهم الرأس السياسي للجناح العسكري بالمؤتمر الوطني الأفريقي چو سلوڤو *Joe Slovo* وذلك لتأكيدهم فكرة الاستقلال ولإعجابهم المشكوك فيه بالشيوعية الأوروبية. واعتقدت الإدارة الدولية *MO* أن تامبو وبعض من يعملون معه من الأفارقة غير الشيوعيين يبدون أهلا للثقة بالنسبة للسوفيت، لأنهم في موقف أفضل لزعامة ثورة جنوب أفريقيا بسبب أصولهم الإثنية. كان تكوين المؤتمر الوطني الأفريقي المتعدد الإثنيات من أهم المشكلات التي واجهت المنظمة في رأى السوفيت، وأسهمت في جعل الصراع في جنوب أفريقيا، حسبما قال كوسيجين في حديث لوفد زائر من المؤتمر الوطني الأفريقي في ١٩٦٩، "ربما الأصعب على الإطلاق في العالم"(١٨).

كان عام ١٩٦٩ نقطة تحول بالنسبة للمؤتمر الوطني الأفريقي *ANC*. فقبل مؤتمره الذي عقد في موروجورو بتانزانيا، كتب الأعضاء الشباب فيه، مثل كريس هاني *Chris Hani*، عن "مدى الفساد المخيف" بداخله، وطالبوا بسياسة أكثر نشاطًا

فى جنوب أفريقيا نفسها. بعد أن أقره المؤتمر، بدأ الجناح العسكرى ***Umkhonto we Sizwe*** (رماح الشعب) للمؤتمر الوطنى الأفريقى، ترتيباته لتسلل بعض مقاتليه إلى جنوب أفريقيا، لكنه واجه مشكلات عندما عملت السلطات التانزانية – حيث كانت قواعد المؤتمر الوطنى الأفريقى – على الحد من نشاطاته العسكرية. وفى نهاية ١٩٦٩، بدلا من جلب الحرب إلى الأفريكان، أرغم الجناح العسكرى على إخلاء وحداته الأساسية على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل إلى الشمال من أفريقيا إلى الاتحاد السوفيتى، حيث نظم الحزب الشيوعى السوفيتى معسكرات لهم كان معظمها حول سيمفروبول فى شبه جزيرة القرم. وترك أكثر من ألف وخمسمائة شاب جنوب أفريقى تانزانيا على متن طائرات اليوشن ***Iliushin-18***١٨ السوفيتية من وحدة القاعدة الجوية ***Red Banner Special Purpose Air Brigade***. كان كثير منهم قد قضى سنوات فى الاتحاد السوفيتى وتلقى معظم تعليمه وتدريبه هناك[١٩].

كذلك تجلى الاهتمام الجديد للسياسة الخارجية السوفيتية بأفريقيا فى حالة أنجولا. فبعد عدد من نداءات الحركة الشعبية لتحرير أنجولا (الـ ***MPLA***) غير الناجحة لزيادة الدعم فى ربيع ١٩٧٠، ذهل أجوستينهو نيتو للعطاء الفياض الذى أسبغه السوفيت فى منتصف يوليو، واقترح السفير السوفيتى إلى زامبيا د.ز.بلوكولوز ***D.Z.Belokolos*** سلسلة من الخطط بإمكان موسكو أن تساعد بها الحركة من حيث المعدات العسكرية والدعم اللوجستى والتدريب السياسى. علاوة على ذلك، كان السوفيت يريدون منح الدعم السياسى لحركة نيتو فى المصاعب التى تواجهها مع الدول الأفريقية المجاورة – زامبيا وزائير والكونغو[٢٠]. وتحمست قيادة الحركة للتحالف السوفيتى. ففى لقائه مع السفير بلوكولوز، عمد نيتو إلى التقليل من شأن علاقة الحركة بـ"الدول الرأسمالية والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية" وأكد أن الاتحاد السوفيتى هو الحليف العالمى الأساسى للحركة. كما أكد للسوفيت أنه لم يكن

يرى ضرورة للعمل مع الصين. وفي اتصالاته بموسكو أعرب السفير عن اعتقاده بأن موقف قيادة الحركة يعكس الشعور العام فيها – أن الاتحاد السوفيتي هو المصدر المحتمل الوحيد للدعم العسكري الكبير[٢١].

رغم الحماسة الجديدة للشئون الأفريقية، وجدت القيادة السوفيتية في الفترة من ١٩٧١-٧٣ أنه كان من الصعب إيجاد أساليب فعالة للتعامل مع حركات التحرر الجنوب أفريقية المفضلة، وخاصة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA***. ووجد السوفيت أن حركة نيتو لها نصيب كبير من فقر الاتصالات وسوء التنظيم والتفكك، وهي الصفات التي رأت موسكو أنها تميز كل حركات التحرر في أفريقيا الجنوبية، مع إمكانية استثناء الشريك المفضل وهو المؤتمر الوطني الأفريقي ***ANC*** بجنوب أفريقيا[٢٢]. واعتبرت الإدارة الدولية بموسكو أن بعض مطالب نيتو – مثل مطلبه في ديسمبر ١٩٧٢ أن يأتي إلى موسكو "لتوقيع اتفاقية تعاون و[إصدار] بيان مشترك" – كان مبالغًا فيها[٢٣]. في بداية ١٩٧٤ انشقت الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** إلى ثلاثة فصائل – القيادة المتمركزة في تانزانيا بزعامة أجوستينو نيتو، مجموعة دانيل شيبيندا ***Daniel Chipenda*** (المعروفة باسم الثورة الشرقية ***Revolta do Leste***) التي تدعمها زامبيا، وفصيل آخر قاعدته في الكونغو يطلق على نفسه الثورة النشطة ***Active Revolt***. وكما أشار المؤرخ چون ماركوم ***John Marcum***، لم يكن الخلاف بسبب الاختلافات العقدية وإنما بسبب "سوء الاتصالات والتقلبات العسكرية والطموحات المتصارعة"[٢٤]، فلم تكن الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** أبدًا، حتى في أفضل أحوالها، مُحكمة التنظيم. وعندما وقعت تحت ضغوط الهجمات البرتغالية المضادة، قسمت التوترات والتحديات الإثنية لزعامة نيتو الحركة، وكان شيبندا طبعًا يحصل على معظم الدعم من مجموعته الإثنية أوڤيمبوندو في الأجزاء الوسطى والشرقية من أنجولا.

أنفق المبعوثون السوفيت الكثير من الوقت والجهد محاولين أن يعيدوا الوحدة إلى الحركة الشعبية لتحرير أنجولا *MPLA* وخلق جبهة تحرير بينها وبين حركة الاستقلال المحلية الرئيسية وهي الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا *FNLA* بزعامة هولدن روبرتو *Holden Roberto*. وتمسك السوفيت بنيتو بوصفه حلقة الوصل الأنجولية الرئيسية، حيث يؤمن وسلية للدعم العسكرى والمالى للقيادة المحاصرة. الأهم من ذلك أن موسكو دعت أعدادًا أكبر من مرافقي نيتو إلى الاتحاد السوفيتى للحصول على التدريب العسكرى والسياسى. ومع ذلك، ظل السوفيت يقدمون بعض المساعدة إلى مجموعة شيـپندا، وظلوا يدعونه إلى محادثات "سرية" فى سفارتهم بلوساكا حتى عام ١٩٧٤[٢٥]. لكن مع زيادة نقد السوفيت لعدم مرونته فى محادثات الوحدة، تضاءل تدريجيًا دعمهم لحركته. فى مارس ١٩٧٤، قبل شهر واحد من حدوث الانقلاب العسكرى فى لشبونة الذى فجر الموقف السياسى فى أنجولا، كان السفير السوفيتى فى برازافيل قد رسم صورة موحشة للموقف فى الحركة الشعبية لتحرير أنجولا *MPLA*. وتوقفت الحركة عن العمل لكل الأسباب العملية، وكان الأمل ضئيلا أن يعيدها نيتو للحياة من جديد. كانت النقطة المضيئة الوحيدة هى بقاء عدد من "النشطاء ذوى التوجهات التقدمية" الذين كانوا يريدون علاقات متقاربة مع الاتحاد السوفيتى بداخل الحركة[٢٦].

ومع تطوير قيادة موسكو لعلاقاتها مع حركات التحرر، خلقت توقعات أفريقية عن المزيد من الدعم وكذلك شعورًا بالالتزام، الذى كان قويًا على وجه الخصوص فى دوائر الإدارة الدولية للجنة المركزية بالحزب الشيوعى السوفيتى، التى كانت تتولى معظم العلاقات مع المنظمات الأفريقية. ثم إن القيادة الكوبية رأت فى التدخل السوفيتى فى أوائل السبعينيات بشيرًا بالمزيد من تدخل الكتلة الشرقية فى القارة الأفريقية. وكذلك علت الحماسة فى برلين، حيث رأت القيادة الجديدة برئاسة إريك هونيكر *Erich Honecker* أن التدخلات فى العالم الثالث كانت وسيلة

لإثبات المكانة المتقدمة لألمانيا الشرقية بداخل الكتلة وكذلك وسيلة لتجنب أن تصبح التهدئة بين القوى العظمى مريحة للغاية ربما على حساب ألمانيا الشرقية. وكما أوضح نيتو أثناء زيارته لبرلين فى نوفمبر ١٩٧١ "إننا نحارب ضد العدو نفسه الذى ستجدونه فى كل من براندنبورج تور وفى أنجولا" (٢٧).

لكن التدخل السوفيتى فى أفريقيا كان بطيئًا. فقد أدت محاولات موسكو للتأثير على سياسات الحركات الثورية المحلية إلى تعقيد بناء تحالفات مستقرة مع تلك المجموعات، وكثيرًا ما أحبطت أهداف السياسة الخارجية السوفيتية. وكان ظن السوفيت – الخاطئ غالبًا – بوجود علاقات بين المسلحين الأفارقة والصين، قد أدى إلى زيادة حذر موسكو. إلى أن اتفق الزعماء السوفيت والكوبيون على خططهم العسكرية فى أنجولا فى أواخر ١٩٧٥، فاستطاع الاتحاد السوفيتى أخيرًا أن يستثمر فى أحد التحالفات فى أفريقيا الجنوبية، ومن ثم أن يجعل الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** حليفًا إقليميًا لا يزيد عنه أهمية إلا المؤتمر الوطنى الأفريقى ***ANC***.

انهيار الإمبراطورية البرتغالية

كانت البرتغال – أول الدول الاستعمارية الأوروبية وآخرها – مجتمعًا سريع التغير فى بداية السبعينيات. اقتصاديًا، كان دخولها إلى اتفاقية التجارة الأوروبية الحرة ***European Free Trade Agreement (EFTA)*** فى ١٩٦١ يعنى أن أسواقها الاستعمارية ستزداد تهميشًا. سياسيًا، كان هناك قطاع كبير من السكان – فى الطبقات الاجتماعية كلها – قد بدأ يعارض دكتاتورية مارسيلو كيتانو ***Marcelo Caetano***. عسكريًا، بدت الحروب ضد حركات التحرير بلا نهاية، مع زيادة نسب الوفايات فى صفوف البرتغاليين وزيادة عدم الاستقرار لدى الجنود الصغار. وبدأ القلق

يساور قيادة الجيش أن الحروب فى أفريقيا، التى تستهلك ٤٠% من ميزانية الحكومة وأكثر من ٥% من الناتج القومى المحلى للدولة، لن تهدم شرعية نظام الشركات الجديد الذى وضعه سالازار فحسب، وإنما سوف تمهد الطريق إلى استحواذ اليسار على السلطة. فى أوائل ١٩٧٤ نادى اثنان من أكبر جنرالات البرتغال وهما فرانسيسكو دى كوستا جومز ***Francisco de Costa Gomes***، رئيس الأركان وأنتونيو دى سبينولا ***Antonio de Spinola*** القائد العام السابق فى غينيا بيساو، ناديا بالحل السياسى للصراع فى المستعمرات. وفُصِل الاثنان سريعًا من الخدمة، ولكن الكتاب الذى قام سبينولا بنشره فى هذا الموضوع باع خمسين ألف نسخة فى عدة أيام وكان له تأثير كبير فى الرأى العام[٢٨].

فى ٢٥ أبريل ١٩٧٤ أضرب الضباط الصغار فى الدولة ضد الحكومة. وقامت حركة القوات المسلحة ***Movimento das Forças Aramadas*** بانقلاب غير دموى ونصبت سبينولا رئيسًا، وألغت الرقابة على المطبوعات والمراقبة والبوليس السرى. كان الموضوع الأول فى أجندة الحكومة الجديدة هو حل مشكلة المستعمرات؛ ومُنحت غينيا بيساو الاستقلال وبدأت المفاوضات بشأن استقلال أنجولا وموزنبيق. فى الوقت نفسه انجرفت الثورة البرتغالية نحو اليسار. استقال سبينولا فى سبتمبر ١٩٧٤ لأنه كان يعارض ما اعتبره استقلالا سريعًا غير هادف. وازداد تأثير الحزب الشيوعى والجناح اليسارى لحركة القوات المسلحة، وفى بعض الحالات بدأ الضباط البرتغاليون اليساريون يتعاونون جهرًا مع حركات التحرير الراديكالية فى المستعمرات المتبقية، حتى قبل أن تتخذ أى قرارات بشأن نقل السلطة. الأمر الذى اتضح للجميع هو أن الإمبراطورية البرتغالية كانت إلى زوال قريب[٢٩].

كان انقلاب لشبونة مفاجأة غير سارة لإدارة نيكسون التي زادت من علاقات الولايات المتحدة بنظام كيتانو وكانت في منتصف مفاوضات حساسة حول مستقبل القاعدة الأمريكية في جزر الأزور في الأطلنطي. وبالإضافة إلى مسألة قاعدة الأزور، كان لواشنطن اهتمامان أساسيان فيما يتعلق بالثورة البرتغالية: تجنب التدخل السوفيتي في عملية الاستقلال، ومنع وجود برتغال محايدة قد تشق الناتو وتجذب الأوروبيين الآخرين غير الراضين عن سياسات واشنطن[٣٠]. في خريف ١٩٧٤ حرك كيسنجر إسبانيا وحلفاء الناتو لمحاولة التأثير في الموقف في البرتغال. في اجتماع في أكتوبر مع وزير الخارجية فرانكو قال إن "الشيوعيين [البرتغاليين] سيحاولون أن يتحركوا سريعًا لأنهم قد وعوا الدرس الذي تعلموه من تجربة شيلي، بأنهم إذا تحركوا ببطء فسوف نفعل شيئًا... إنه لمن قبيل الانتحار أن نترك الأمور تسير في مجراها... عليك أن تفعل شيئًا. فلديك حدود معهم وأصدقاء يتحدثون اللغة نفسها"[٣١]. ولكن كل المحاولات الخارجية للتأثير على البرتغال حتى انتخابات ربيع ١٩٧٥ أتت بنتيجة عكسية – فقد ازدادت حركة القوات المسلحة تمسكا بقناعاتها اليسارية وتحالفها مع الحزب الشيوعي.

وجاءت اتفاقية ألـــڤور ***Alvor Agreement*** الموقعة بين البرتغال وكل حركات التحرر الأنجولية في يناير ١٩٧٥ لتَعِد بانسحاب برتغالي كامل ونقل السلطة إلى حكومة ائتلافية. في الوقت نفسه سيقوم بحكم أنجولا قائد برتغالي أعلى، وحكومة انتقالية تضم ممثلين من كافة الأحزاب، وسيبدأ دمج القوات المسلحة للحركة الأنجولية تحت إشراف هيئة أركان حرب مشتركة. بيد أن اتفاقية ألـــڤور سرعان ما تناثرت عندما أصبحت الاشتباكات بين الحركات الأنجولية أكثر تكرارًا. في الثالث والعشرين من مارس هاجمت الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا ***FNLA*** مقر الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ***MPLA*** في لواندا، متهمة نيتو بالتخطيط للاستيلاء على السلطة بمساعدة الضباط البرتغاليين المتعاطفين معه من الحكومة

الانتقالية. ومع بدء انتشار الحرب الأهلية إلى كل أجزاء الدولة، فر المستوطنون البرتغاليون بأعداد كبيرة مما زاد من الشعور العام بالفوضى. لم يفعل الضباط المستعمرون الكثير للتدخل، خاصة بعد أن أعطت انتخابات أبريل فى البرتغال ضربة قوية للشيوعيين وحلفائهم، الذين حصلوا، مجتمعين، على أقل من ٢٠% من الأصوات.

فى ربيع ١٩٧٥ كانت التدخلات الأجنبية فى الحرب الأهلية الأنجولية على أشدها. من ناحية الولايات المتحدة، فازت المخابرات المركزية أخيرًا فى معركة زيادة المساعدات لهولدن روبرتو والـــ*FNLA* (رغم أن البرنامج الكامل لم يضم سوى ثلاثمائة ألف دولار للأمور غير العسكرية). كان قرار الولايات المتحدة، وقد جاء بعد أسبوع واحد من اتفاقية ألـــڤور، دليلا قويًا على أن واشنطن تهتم بالإبقاء على *MPLA* أكثر من اهتمامها بالحفاظ على السلام. لكن الأمر تطلب عدة شهور حتى بدأ كيسنجر نفسه يركز على أنجولا تركيزًا شديدًا – فقد كان سقوط سايجون وأحداث أخرى تخيم تمامًا على ما كان يحدث فى أفريقيا. وقد استدعى الأمر ضغوطًا من الحكومات الأفريقية وعلى رأسها زائير وزامبيا، ومعلومات استخباراتية عن التدخل السوڤيتى المتزايد، وفشل أول هجوم مشترك تشنه الـــ*FNLA* والـــ*UNITA* على الـــ *MPLA*، لكى تزيد إدارة فورد الجديدة من التدخل الأمريكى فى صيف ١٩٧٥. وفى الثامن عشر من يوليو تم اتخاذ القرار فى واشنطن بمساعدة الـــ*FNLA* و الـــ*UNITA* على الانتصار فى الحرب الأهلية الأنجولية – بخلاف نصيحة معظم الخبراء في وزارة الخارجية. أصبحت العملية كبيرة. فى خلال شهر تم إقرار مبلغ ٢٥ مليون دولار لوكالة المخابرات المركزية للقيام بعمليات تدخل سرية فى أنجولا، وهى العملية التى سميت *IAFEATURE*، متعمدة أن تظهر أنه حتى بعد أزمة ڤيتنام، مازالت الولايات المتحدة قادرة على تغيير الأحداث فى العالم الثالث وفقًا لإرادتها.

وبينما كانت أفعال الولايات المتحدة للإبقاء لأطول وقت ممكن على الحرب الأهلية الأنجولية معروفة ومفهومة، فإن التحركات السوفيتية كانت مبهمة. فالوثائق السوفيتية تظهر أن الإطاحة بنظام كيتانو في أبريل ١٩٧٤ على يد ضباط برتغاليين راديكاليين وضعت السياسة الخارجية لموسكو في حالة تحفز. في مايو كان الكرملين مقتنعًا بالفعل بأن الإمبراطورية الاستعمارية البرتغالية سوف تنهار قريبًا. كانت السياسة السوفيتية تقوى شوكة الـ*MPLA* بزعامة نيتو، مما يجعل الحركة الشريك المسيطر في الحكومة الائتلافية بعد الاستعمار. ومع إهمال شأن التقارير السابقة عن الموقف في الـ *MPLA*، أعطت الإدارة الدولية بالحزب الشيوعي السوفيتي ووزارة الخارجية بموسكو التعليمات للسفارات السوفيتية في برازافيل ولوساكا ودار السلام لـ"إصلاح" حركة التحرير التي تم تدميرها[٣٢].

واتضح أن عملية التخليص هذه كانت شديدة الصعوبة؛ فآراء فصائل الـ*MPLA* في بعضها البعض لم تتغير مع ضعف السلطة البرتغالية، وحاول السفراء السوفيت بكل جهدهم للقاء نيتو وجوزيه إدواردو دوس سانتوس وشيـپندا وغيرهم من زعماء الـ*MPLA* - مقدمين الوعود بدعم سوفيتي كبير إذا اتحدت الحركة - ولكن دون فائدة تذكر. وفشل "مؤتمر الوحدة" الذي عقد في لوساكا في منتصف أغسطس عندما خرج أنصار نيتو مما اعتبروه محاولة منظمة لانتزاع الزعامة من الحزب[٣٣].

في الوقت نفسه استطاع أعداء الـ*MPLA* تدعيم مواقفهم بشدة في أنجولا. فقد حصلت الـ*FNLA* بزعامة روبرتو على إمدادات وأسلحة ومدربين من الصين، ونقلت جنودها عبر الحدود الشمالية من زائير، وبدأت القيام بعمليات في الأقاليم الشمالية. أما أصغر حركات التحرير، "يونيتا" چوناس سافيمبي، فقد وقعت اتفاقية وقف إطلاق النار مع البرتغاليين في يونيو، وبدأت تعين أعدادا كبيرة من

الأنجوليين فى التدريب العسكرى فى مناطق قواعدها فى الشرق. ورغم جهود الاتحاد السوفيتى الدبلوماسية، بدا أنه يفقد المعركة فى التأثير على أنجولا بعد الاستقلال(٣٤).

فى أكتوبر ١٩٧٤، مع تحرك الثورة البرتغالية إلى اليسار، قرر السوفيت التخلى عن فكرة إرغام فصائل الـ*MPLA* على الوحدة، ووضعوا ثقلهم خلف مجمــوعة نيتــو. وحسبما قــال السفيــر السوفيتى إلى برازافيل يفجينى أفاناسنكو *Evgeni Afanasenko* لزعيم *MPLA* جوزيه إدواردو دوس سانتوس، كان هناك سببان لهذا القرار. أولا أن نيتو استطاع فى أواخر سبتمبر أن يعقد مؤتمرًا مصغرًا فى داخل أنجولا، شارك فيه قائدو حرب العصابات فى الـ *MPLA*؛ وقد أعجب السوفيت بالبيان السياسى الذى أصدره المؤتمر. ثانيًا أن رئيس الإدارة العسكرية البرتغالية الجديد فى أنجولا الأدميرال روزا كوتينهو *Admiral Rosa Coutinho* كان يساريا يجاهر بتعاطفه مع آراء نيتو؛ لكن أيا كان الأسلوب الذى شرح به السفير أفاناسنكو تغير الموقف السوفيتى، كان أنصار نيتو يدركون أن موسكو لو أرادت الاحتفاظ ببعض التأثير فى أنجولا، فليس لديها خيار سوى أن تدعم حركة *MPLA* "التى أعيد بناؤها"(٣٥).

وأكدت أحداث الشهرين الأخيرين فى ١٩٧٤ أن موسكو قد تحركت فى الاتجاه الصحيح. فقد حصل السوفيت أخيرًا على دعم من قبل الزعيم البرتغالى الشيوعى الجديد ألفارو كنيال *Alvaro Cunhal* على سياستهم الجديدة تجاه أنجولا. فى ٢١ أكتوبر وقعت *MPLA*اتفاق وقف إطلاق نار مع البرتغال، وفى السادس من أكتوبر قامت الجماهير الغفيرة بالترحيب بالمحارب القديم لوسيو لارا *Lucio Lara* عند وصوله ليفتح مكتبًا فى لواندا. فى الوقت نفسه سيطرت قوات الجناح العسكرى للـ *MPLA* – الـ *FAPLA* – على معظم جيب كابندا الغنى بالبترول فى الشمال.

وبدأ منظمو ***MPLA***، وقد أصبحوا ينعمون بحرية الحركة، يقيمون مجموعات عسكرية فى المناطق الفقيرة المزدحمة بالسكان، معتمدين على رسالتهم للثورة الاجتماعية(٣٦).

رسمت موسكو خطة مفصلة فى أوائل ديسمبر عن إمداد ***MPLA*** بالأسلحة الثقيلة وكميات كبيرة من الذخائر باستخدام الكونغو نقطة عبور. وأخذ السفير أفاناسنكو على عاتقه مهمة إقناع الكونغوليين بمصلحتهم فى التعاون معهم. لم تكن تلك بالمهمة السهلة. فالكونغو لم تكن أبدًا حليفًا قريبًا للاتحاد السوفيتى – وكان هناك كثيرون فى المجلس السياسى العسكرى الحاكم يدينون بالولاء للصينيين – كما قامت الكونغو لبعض الوقت بالإشراف على كل من أعداء ***MPLA*** ومجموعة كابندا الانفصالية. وكانت القضية الأخيرة تحديدًا إشكالية، وقد انتقد نيتو الزعيم الكونغولى ماريان نجوبى ***Marien Ngouabi*** فى عدة مناسبات لدعمه استقلال الكابندا. ورغم ذلك فقد أعطى نجوبى موافقته للعملية السوفيتية فى الرابع من ديسمبر(٣٧).

ورغم ملاحظة أفاناسنكو لمرونة الحكومة الكونغولية، فإنه كان يعرف أن مهمة تقوية ***MPLA*** لم تكن سهلة. فى تقرير له إلى موسكو أوضح المشكلات التى تواجهها ***MPLA*** على الجانب العسكرى. فكل من الـ ***FNLA***، التى كان يشارك فيها الآن أتباع دانيل شيـبندا الذين تمردوا على الـ ***MPLA***، واليونيتا كانتا فى مواقف قوية وقد يمنحهما الأمريكيون والصينيون المزيد من المعدات. فى الحرب الأهلية التى توقعها السفير، سيكون لـ"الرجعيين" المبادرة، وسوف تعتمد ***MPLA***على "المساعدات المادية من الدول التقدمية فى كل أنحاء العالم" لكى تستمر على قيد الحياة. سياسيًا، سوف تتمتع مجموعة نيتو "كأفضل منظمة تحرير وطنى تقدمية فى أنجولا" بالكثير من الدعم. ومن حيث الجانب التنظيمى، فينبغى عدم

اعتبار *MPLA* حزبًا رائدًا، بل إنها ليست حزبا على الإطلاق، وإنما تحالف فضفاض من أعضاء النقابات العمالية، والمفكرين التقدميين والمجموعات المسيحية وشريحة كبيرة من البرجوازيين، حسبما قال أفاناسنكو[٣٨].

ورغم المناوشات التي كانت قد بدأت بين *MPLA* و الـــ *FNLA* في أواخر ١٩٧٤، نجح رؤساء أفريقيا في إقناع الحركات الأنجولية الثلاث بأن عليهم أن يشاركوا في المفاوضات مع البرتغال ومن ثم محاولة نقل السلطة بشكل منظم في لواندا، وأدت تلك المفاوضات إلى اتفاقية ألفور في الخامس عشر من يناير، التي قام السوفيت – شأن الأمريكيين – بادعاء التصديق عليها، ثم بذلوا أقصى ما في وسعهم لنقضها. بعد هذه الاتفاقية فضل السوفيت وجود حكومة ائتلافية، شريطة أن يقوم مثل هذا التحالف على قوة موقف الـــ *MPLA*، بما أن الحزبين الآخرين كانا يريدان الاستحواذ على السلطة بأسلوب عسكري، وقالت الإدارة الدولية بالحزب الشيوعي السوفيتي إنه فقط من خلال تقوية *MPLA* بزعامة نيتو كان يمكن وجود السلام طويل الأمد[٣٩].

كذلك كان الاتحاد السوفيتي يدرك زيادة الدعم السري من المخابرات المركزية *CIA* للـــ*FNLA* في أواخر يناير ١٩٧٥، واستنتجت السفارة السوفيتية ومركز جهاز المخابرات السوفيتي *KGB*في برازافيل أن المساعدات الأمريكية ستؤدي بهولدن روبرتو أن يقوم بصفقة كاملة من أجل السلطة قريبًا جدًا، وأدرك الخبراء بالسفارة أن الاتحاد السوفيتي ليس بوسعه أن يفعل شيئًا لمساعدة *MPLA* على مقاومة الهجمات المبدئية التي تشنها قوات روبرتو. وكان أملهم أن تصل "المساعدات التقنية والعسكرية والمدنية" السوفيتية، التي وعد بها السفير في برازافيل في الثلاثين من يناير إلى جوزيه إدواردو دوس سانتوس في الوقت المحدد. وبالإضافة إلى المساعدات المادية، حاول السوفيت أيضًا إصلاح

استراتيجية التفاوض لدى الـ *MPLA*. وبات أمل موسكو أن التحالف الجديد بين *MPLA* ويونيتا سافيمبي يستطيع إخراج الحلفاء الأنجوليين من ورطتهم الحالية[٤٠].

شارك العديد من دول أفريقيا الجنوبية موسكو فى أمنيتها بوجود تحالف معاد للـ *FNLA*. فقد حاول الرئيس التانزانى جوليوس نيريرى أن يجعل السوفيت يزيدون ضغوطهم على قيادة *MPLA* للقيام بالتنازلات الضرورية لتكوين مثل هذا التحالف. ورغم تعاطف نيريرى مع الأهداف السياسية للـ *MPLA*، فقد أسخطته مطالب نيتو الجامدة فى المفاوضات. وأخبر نيريرى ألمانيا الشرقية بأن الزعيم الأنجولى "طبيب وشاعر جيد ولكنه سياسى سيئ". كما حذر السوفيت من التدخل المباشر فى الصراع الأنجولى. وقال إن الدول الأفريقية قد تتعامل بحدة مع أى شكل من أشكال التدخل الخارجى[٤١].

فى أوائل الصيف صعدت قوات الـ *FNLA* بعض الهجمات المحدودة ضد *MPLA* على طول الساحل وفى الجزء الشمالى من أنجولا. وفى يوليو، عندما فشلت محاولة أخرى للتفاوض بوساطة أفريقية، قامت *MPLA* بهجوم مضاد. وفى منتصف الشهر كانت قوات الـ *FAPLA*، الجناح العسكرى للـ *MPLA*، قد سيطرت على لواندا وبدأت مهاجمة معاقل الـ*FNLA* فى الشمال. لم يكن السوفيت يتوقعون نجاح *MPLA* عسكريًا، رغم أنه فى أبريل توقعت السفارة فى برازافيل تحسنا فى قدرات *FAPLA* القتالية بسبب المساعدات السوفيتية. لكن السفارة لم تكن تتوقع حربًا أهلية واسعة النطاق قبل أن تحصل أنجولا على استقلالها فى نوفمبر، وحتى فى ذلك الوقت يمكن إحباط قيام الحرب عن طريق المفاوضات السياسية[٤٢].

وبدا أن موسكو فى ذلك الوقت تمتلك وصفة النجاح فى أنجولا. فمع إمدادها للـ *MPLA* بمعدات عسكرية محدودة ظنت أنها قد أمنت لها اليد العليا فى القتال.

ومع اقتراب موعد الاستقلال، توقعت موسكو أن تعود الحركات المنافسة، أو على الأقل اليونيتا، إلى طاولة المفاوضات وتصبح جزءًا من حكومة ائتلافية بقيادة الـ *MPLA*. لم يصدق الخبراء السوفيت أن الولايات المتحدة سوف تقوم بتدخل كبير، كما لم يصدقوا التقارير الصادرة عن *MPLA* بوجود تدخل مباشر من جنوب أفريقيا أو زائير. كانت مخاوفهم كلها تتركز حول الصينيين، الذين صعدوا من برنامج مساعداتهم إلى الـ*FNLA* من قواعد في زائير. وما أفزع موسكو على وجه الخصوص، هو أن الصينيين قد انضم إليهم متخصصون عسكريون من رومانيا وكوريا الشمالية كمدربين في تلك المعسكرات (٤٣).

بدأ التدخل الصيني في أنجولا في أواخر ١٩٧٤. ورغم أنه من الصعب جدًا التوصل إلى معلومات صينية، فمن الواضح أن بكين كانت تريد أن تمنع انتصار *MPLA*في أنجولا، ولا يرجع ذلك إلى اهتمامها المتزايد بالمنطقة قدر ما يعود إلى اعتقادها بأن وجود نيتو في لواندا كان سيدعم موقف الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث. كان ماو قلقًا لأن الأمريكيين ينهزمون أمام موسكو في صراعاتهم في آسيا وأفريقيا. فقد اعتقد أن الاتحاد السوفيتي إذا ازداد قوة في العالم الثالث فقد يؤدى ذلك إلى وضع الكرملين المزيد من الضغوط على الصين. كان يعتقد أن الهدف السوفيتي الحقيقي ليس الرجعيين في العالم الثالث ولا حتى الولايات المتحدة؛ وإنما القضاء على الاشتراكية الصينية وتدمير الدولة الاشتراكية الوحيدة في العالم. فقد أصبح الاتحاد السوفيتي القوة الإمبريالية الرئيسية وعلى باقي الدول أن تتحالف ضدها.

خدم حوالى ثلاثمائة مدرب صيني مع الـ *FNLA* في زائير. كما عينت بكين حوالى خمسين كوريًا شماليًا ورومانيًا معظمهم من التقنيين والمتخصصين في المدفعية، من خلال اتصالاتها في بيونج يانج وبوخارست. منذ بداية ١٩٧٥ استخدم

الصينيون الإمدادات الأمريكية، ولكن التنسيق مع المخابرات المركزية كان ضئيلا فى هذا المجال. لكن فى أثناء عام ١٩٧٥ قامت الولايات المتحدة والصين بمناقشة مسألة أنجولا فى بكين، حيث كان الصينيون يحاولون دفع الولايات المتحدة إلى المزيد من التدخل لمساعدة يونيتا و الـ ***FNLA***[٤٤].

أما السوفيت، فقد استدرجهم الزعماء الكوبيون لزيادة التزامهم نحو الـ ***MPLA***. وأمدت كوبا ***MPLA*** ببعض الدعم المادى منذ منتصف الستينيات، وبدأت هافانا ترى فى نيتو أحد زعماء التحرير الأفارقة المفضلين لديها. ويوضح المؤرخ بيرو جليچسز – الأكاديمى الوحيد الذى استطاع أن يصل إلى الوثائق الكوبية – أن تدخل هافانا فى أنجولا جاء بسبب علاقاتها بأفريقيا وبالـ ***MPLA***. فى خريف ١٩٧٤ أخبر الكوبيون موسكو أن نيتو لن يقبل، ولا ينبغى أن يقبل، اقتسام السلطة مع الحركات الأخرى. كانت الثورة البرتغالية تعنى فتحًا للدول المستعمَرة، لا لكى تنفض عن نفسها الحكم الأجنبى فحسب وإنما لتبدأ عملية التحول الاجتماعى. كوبا نفسها سوف تركز فى سياستها الخارجية على أفريقيا (أى أنجولا)، وتتوقع من السوفيت أن يزيدوا من دعمهم للـ ***MPLA***، فموسكو لن تتحسن بواسطة هافانا. وأخبر أفاناسنكو السفير الكوبى إلى برازافيل بأن "اللجنة المركزية بالحزب الشيوعى السوفيتى كانت تراقب عن كثب تطورات الأحداث فى أنجولا وتؤكد وحدتها مع القوى التقدمية، للقضاء على ردود الأفعال الخارجية والداخلية المغامرة"[٤٥].

كانت المراقبة عن كثب جد كافية بالنسبة لفيديل كاسترو، ولكن بدرجة معينة. فبينما لم تفعل كوبا الكثير لمساعدة ***MPLA*** بشكل مباشر بعد اتفاقية ألفور مباشرة، فإنها ظلت تمارس الضغوط على موسكو والكتلة الشرقية لتفعلا المزيد. وقال الكوبيون فى منتصف فبراير إن اتفاقية ألفور لن تصمد، وإن على الدول الاشتراكية أن تستعد لمساعدة الـ ***MPLA***. وفى منتصف الربيع كان كل من

المؤتمر الوطنى الأفريقى بجنوب أفريقيا وحركة التحرير الناميبية المسماة منظمة شعوب جنوب غرب أفريقيا*SWAPO* - التى كانت على اتصال دائم بالسفارة السوفيتية فى لوساكا – ترسلان الرسالة نفسها(٤٦).

الحرب الأهلية الأنجولية

لم تكن إدارة فورد راغبة فى أن تدع *MPLA* نيتو تفرض حلا للحرب الأهلية الجديدة فى أنجولا. فكما رأينا، فى منتصف يوليو، أمر الرئيس بعملية سرية واسعة النطاق لمساندة*FNLA* ويونيتا *UNITA*. وعلى مدار أكثر من ثلاثة شهور خصصت المخابرات المركزية نحو خمسين مليون دولار لتدريب قوات معادية لـ *MPLA* وتسليحها ونقلها. سميت العملية بـ*IAFEATURE* ، وتضمنت المكونات نفسها التى تضمنتها العملية المشابهة فى زائير قبل عشر سنوات: برامج تدريبية وأسلحة ومعدات اتصال وعمليات إنزال جوى لقوات*FNLA* ويونيتا *UNITA* داخل أنجولا. يقول چون ستوكويل *John Stockwell* رئيس البرنامج، الذى أصدر فيما بعد كتابا انتقد فيه بشدة تورط المخابرات المركزية، إن ضباطها قد انخرطوا أيضا فى عمليات داخل أنجولا. ولكن الأداة الأساسية، كما فى زائير، كانت تعيين المرتزقة للمساعدة فى تنظيم القوات الأنجولية، وخاصة قوات الـ *FNLA*، التى وجدتها المخابرات المركزية خربة للغاية(٤٧).

> **لقد بحثنا فى العالم كله عن حلفاء، باستطاعتهم أن يقدموا مستشارين مؤهلين لوضعهم داخل الصراع، أو ما هو أفضل من ذلك، وحدات جيش منظمة لتسحق الـ*MPLA* وتسلم البلاد إلى روبرتو وسافيمبى. سعينا إلى الأصدقاء المعتدلين – البرازيل والمغرب**

وكوريا الجنوبية وبلچيكا وبريطانيا العظمى وفرنسا وحتى البرتغال، دونما نجاح. وجاءت جنوب أفريقيا أخيرًا لإنقاذ يونيتا، ولكن كتائب الكوماندوز الزائيرية فى شمالى أنجولا لم تكن أفضل كثيرًا من قوات الـ*FNLA* التى انضمت إليها. وبدا أن الحل هو المرتزقة، والأفضل أن يكونوا أوروبيين لديهم المهارات العسكرية المطلوبة وربما الخبرة فى أفريقيا. وما دام أنهم ليسوا أمريكيين، وافقت لجنة الأربعين. وبدأنا بحثًا مضنيًا عن المرشحين المناسبين... كانت الـ*FNLA* والكولونيل كاسترو والكابتن بنتو ورجالهما يقومون بالفعل بتعيين أعداد صغيرة من البرتغاليين، وقد قررنا أن نوسع من هذا الجهد بتعيين ثلاثمائة أنجولى برتغالى لدعم الـ *FNLA*... وقدمت خدمة المخابرات الفرنسية لضباط المخابرات المركزية أحد جنود المرتزقة الذى كان يعمل بالكونغو، بوب دينار *Bob Denard*، ومع نصف مليون دولار مدفوعة مقدمًا وافق أن يقدم عشرين جنديًا فرنسيًا من المرتزقة[٤٨].

كانت حكومة جنوب أفريقيا ترقب بكثير من الخوف انهيار المواقع البرتغالية على حدودها – أو، فى حالة أنجولا، على حدود ناميبيا التى تحتلها جنوب أفريقيا. بعض قادة الجيش قال بالتدخل المبكر لمنع انتصار *MPLA* ولكنه لم يكن لديه سوى القليل من الأفكار عن كيفية القيام بذلك بأسلوب مؤثر. كان الجناح اليمينى بالحزب

الوطنى، وهو فى السلطة منذ أوائل السبعينيات، يعارض بشدة تدخلات جنوب أفريقيا خارج حدودها. كان نموذجها الأمثل هو التركيز على "الإصلاح" فى الداخل – أى إبعاد كل الأفارقة إلى أوطانهم وخلق دولة آمنة بيضاء بالكامل. وكان اليمين يدعي أن جنوب أفريقيا ليس من مهامها دفع الأفارقة فى الأجزاء الأخرى من القارة إلى الحضارة، وتشكك المتحدثون باسمها بشدة من رئيس الوزراء جون فورستر ***John Vorster*** وضعفه المفترض أمام التعاون مع أمريكا(٤٩).

كان لفورستر مبررات كبرى إذن للتحرك الحذر عندما واجهته الأزمة الأنجولية المشتدة فى بداية ١٩٧٥. يقول مساعد وزير الخارجية للشئون الأفريقية دونالد إيسوم ***Donald Easum***، نقلا عن سفير جنوب أفريقيا فى واشنطن ج.س.ف.بوثا ***J.S.F. Botha*** فى يناير، إن الإدارة "ليس لديها اهتمام أن تقوم بعملية كبرى لإقناع أى وكالة أمريكية لكى تنخرط فى برنامج جديد فى أفريقيا"(٥٠)، واستخدم مكتب أمن الدولة ***Bureau of State Security (BOSS)*** – الذى كان مديره الجنرال هندريك فان دن بيرج ***Hendrik van den Bergh*** يعارض التدخل فى أنجولا بشدة – تسريب أمريكا للمعلومات المخابراتية الجنوب أفريقية للجدال ضد التعاون مع واشنطن فى هذا الأمر، رغم أن رئيس المخابرات المركزية كولبى ***Colby*** كان قد اعتذر عن مثل هذه الحادثة فى مارس، إذ قال إن " الـ***DCI*** تأسف للواقعة، خاصة بالنظر إلى التعاون الذى قدمته جنوب أفريقيا لوكالة المخابرات المركزية"(٥١). وفى أواخر مايو طلب فورستر من مكتب أمن الدولة والأجهزة العسكرية تقارير كاملة عن الموقف فى أنجولا، لكن كان من الواضح أن رئيس الوزراء لم يكن قد اتخذ القرار بعد.

لا يتضح من خلال أرشيف جنوب أفريقيا المتاح لنا الآن لماذا قرر فورستر التدخل في يوليو ١٩٧٥. وتؤكد مذكرة من مكتب أمن الدولة فى سبتمبر، وكانت حادة النقد للولايات المتحدة، أن حكومة جنوب أفريقيا قد استجابت للضغوط

الأمريكية فى هذا الشأن. ولابد أن التقارير التحذيرية من القنصل العام لجنوب أفريقيا فى لواندا إ.م.مالون *E.M.Malone* لعبت أيضًا دورًا فى هذا المجال. فقد أوصل مالون فى يونيو مطالب هولدن روبرتو من أجل المساعدة وطالب بريتوريا بإعطائه التوجيهات العاجلة. وجاءت نفس الرسالة من چوناس سافيمبى، الذى كان يتلقى المساعدات من جنوب أفريقيا على هيئة أسلحة خفيفة وذخيرة منذ ١٩٧٤. ووفقًا لمصادر جنوب أفريقية ادعى سافيمبى أن "زامبيا قد تساعد الحركة العسكرية التابعة لجنوب أفريقيا فى أنجولا – لو أن الأمر بقى سرًا". ورغم ذلك ظل ڤورستر يخذل مطالب سافيمبى العاجلة للمزيد من المساعدات حتى أبريل ١٩٧٥(٥٢).

بعد تلقيه تقارير من الجيش والمخابرات فى أواخر يونيو تتوقع انتصار *MPLA* فى أنجولا، ولكنها لا تطرح فكرة التدخل الجنوب أفريقى لمنعها، أرسل ڤورستر فى الرابع من يوليو كلا من مدير العمليات بالجيش اللواء كونستاند ڤيلچوين *Constand Viljoen* ونائب ڤـان دن بيرج فى مكتب أمن الدولة جيرت روثمان *Gert Rothman* إلى كنشاسا لمقابلة سافيمبى وروبرتو وموبوتو. ولدى عودتهما نصحا بزيادة كبيرة فى المساعدات إلى جنوب أفريقيا للحركتين الأنجوليتين: صواريخ وقاذفات صواريخ وألغام أرضية ومركبات وسيارات مصفحة وطائرات هليكوبتر. وقد وافق ڤورستر عليها كلها فيما عدا الطائرات الهليكوبتر وأمر ڤـان دن بيرج بشراء كل شىء من الخارج حتى لا يمكن اقتفاء أثر هذه الإمدادات ومعرفة أنها من بريتوريا. فى أغسطس كانت هناك فرق عسكرية صغيرة من جنوب أفريقيا تعمل داخل أنجولا، وفى الخامس عشر من سبتمبر كان أول معسكر تدريب تابع لجنوب أفريقيا لتدريب قوات اليونيتا قد بدأ العمل فى مـپوپـا. فى منتصف أكتوبر، مع تكثيف القتال فى أنجولا، أمر ڤورستر القوات الجنوب أفريقية المنظمة أن تقوم بالغزو، وقد وضع لها حدًا وهو ألف وخمسمائة جندى وستمائة مركبة. وبدأت العملية *SAVANNAH* ، كما أطلقت عليها بريتوريا(٥٣).

لم تكن الأهداف السياسية للجنوب أفريقيين فيما يخص أنجولا واضحة. بعض من خططوا للعملية كانوا يدعون أن الغرض الحقيقى هو فصل البلاد إلى مناطق شبه مستقلة وفقًا للخطوط الإثنية – شىء أشبه بمستوطنات جنوب أفريقيا – مما يؤمن منطقة عازلة، تحكمها اليونيتا، ضد كل من ***MPLA*** وحركة التحرير الناميبية ***SWAPO***. لكن من الواضح أيضًا أن بريتوريا كانت تتوقع عائدًا ضخمًا من أمريكا لأنها – وفقًا لاعتباراتهم – ساعدت إدارة فورد على الخروج من أنجولا. كانت النقاط الأربع الأساسية فى قائمة أمنيات ڤورستر هى قبول الولايات المتحدة لخططه من أجل "استقلال" البستونات (الأوطان)، ونهاية حظر الأسلحة الأمريكية، وعدم التدخل الأمريكى فى مسألة البرنامج النووى المتسارع لجنوب أفريقيا، والدعم الأمريكى لخطة ڤورستر للتخلص من نظام إيان سميث ***Ian Smith*** فى زيمبابوى، واستبداله بحكومة ائتلافية أفريقية تشكر فضل جنوب أفريقيا عليها[٥٤]. بيد أن الأولوية المباشرة لدى قوات الدفاع الجنوب أفريقية كانت سحق الـــ ***FAPLA***، وهى القوات المسلحة التابعة للـــ ***MPLA***، فى هجوم صاعق تجاه الشمال.

بالإضافة إلى حظها العاثر على أرض المعركة، واجهت ***MPLA*** مشكلات متزايدة لتأمين خط الحياة السوفيتى من خلال الكونغو. وقد غضب الزعيم الكونغولى الثائر صاحب الفكر المستقل الكولونيل مارين نجوابى من نقد نيتو الدائم لبرازافيل لإيوائها المجموعات الانفصالية الكابيندية. وأخبر نجوبى موسكو، فى رسالة إلى السفير السوفيتى بأنه لن يقبل من نيتو أن "يطلب المساعدة من الكونغو من ناحية، ثم يلقى علينا بالاتهامات من الناحية الأخرى". وفى بداية أغسطس أخبر الكونغوليون أفانسنكو بأنهم لن يقبلوا الخطط السوفيتية للدعم الواسع النطاق للـــ***MPLA*** بأن يمر من خلال الأراضى الكونغولية [٥٥].

كانت "وصلة الكونغو" هي ما دفع موسكو في بداية أغسطس إلى الطلب من فيديل كاسترو –الذى كان على علاقات قريبة مع القيادة الكونغولية – أن يعمل مُيسرًا للمساعدات إلى الـــ *MPLA*. وحصل القادة السوفيت على أكثر مما توقعوا؛ فقد كان الكوبيون يحاولون منذ بداية الربيع أن يجعلوا موسكو تدعم استراتيجية مسلحة بالنيابة عن الـــ *MPLA*، وكان السفير الكوبى إلى دار السلام قد أخبر نظيره السوفيتى فى فبراير بأن "اختيار الطريق الاشتراكى فى أنجولا لابد أن يتم الآن... فى أكتوبر سيكون الوقت قد تأخر جدًا". فى أواخر الصيف استخدم كاسترو المطلب السوفيتى الجديد سببا، ليبدأ خطته لتدخل القوات الكوبية فى أنجولا(٥٦).

لم يعرف الكثير عن التدخل الكوبى فى أنجولا حتى أغسطس ١٩٧٥، ولم يلق حديث المؤرخ پيرو جليــچسز الرائع حول دور كوبا فى أفريقيا الكثير من الضوء على هذا الموضوع. إننا نعرف من خلال الوثائق السوفيتية أن كوبا كان لديها مهمة عسكرية فى الكونغو برازافيل، وأن المرشدين العسكريين فى هذه المهمة ساعدوا فى تدريب مقاتلى *MPLA* لعدة سنوات قبل انهيار إمبراطورية البرتغال الاستعمارية. فى بداية صيف ١٩٧٥ وصل عدد هؤلاء المستشارين إلى مائتين وخمسين مستشارًا، ورغم عدم المشاركة فى المعركة – لعبوا دورا متزايد الأهمية فى تخطيط عمليات *MPLA*. فى مايو عمل الضباط الكوبيون كنوع من ضباط العموم لنيتو وزعماء *MPLA*. ومن خلال تدريبهم على العمليات قدم مرشدو كاسترو المعلومات المهمة التى كانت القوات الأنجولية تفتقر إليها، خاصة فى مجال الاتصالات، وخطوط الإمداد والعمليات المنسقة(٥٧).

فى الخامس عشر من أغسطس بعث كاسترو برسالة إلى ليونيد بريچنيــف يعرض فيها الحاجة إلى زيادة الدعم للـــ*MPLA* بما فى ذلك وجود القوات الكوبية الخاصة، وكان الكوبيون قد وضعوا بالفعل خطة مفصلة عن نقل قواتهم إلى لواندا

(أو الكونغو) والإمدادات وكيفية استخدام الجنود الكوبيين على الأرض فى أنجولا. وكان كاسترو يريد أن تقوم مساعدات النقل السوفيتية، وكذا جنود الصف السوفيت فى كل من هافانا ولواندا بالمساعدة فى تخطيط العمليات العسكرية. وأوضح الكوبيون للسوفيت مدى القوة السياسية للـ *MPLA*، وما كانت تمثله المساعدات الخارجية لتحالف الـ *FNLA* مع الـ *UNITA* من تهديد للاشتراكية والاستقلال فى أنجولا[٥٨]. ووصل مبعوث كاسترو إلى لواندا، رئيس إدارة المساعدات العسكرية الخارجية، فى القوات المسلحة الكوبية فى الثالث من أغسطس. وقال لراءول كاسترو:

> **نريد أن نعرف ما هى المساعدات التى علينا أن نقدمها أخذًا فى الاعتبار عدوان الـ *FNLA* وعدوان موبوتو على *MPLA* والسياق الطبيعى للأحداث قبل الاستقلال فى نوفمبر. إننا نعرف أن قوى الرجعية والإمبريالية سوف تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تمنع *MPLA* من الاستحواذ على السلطة، لأن ذلك يعنى حكومة تقدمية فى أنجولا. ولذلك منحنا نيتو تضامن رئيس أركاننا وحزبنا وحكومتنا ومنحناه مائة ألف دولار. وفى سياق هذا الحوار كان الأنجوليون يشكون من شح المساعدات من المعسكر الاشتراكي... [و] أيضا يشتكون من أن الاتحاد السوفيتى توقف عن مساعدتهم فى ١٩٧٢، وأن المساعدات العسكرية التى يرسلها الآن تافهة للغاية مع العلم بضخامة الحاجة[٥٩].**

تم تنسيق المبادرة الكوبية مع زعماء ***MPLA*** الذين كانوا يحاولون في ذلك الوقت أن يضغطوا على السوفيت للتورط مع الخطة الكوبية الموضوعة من أجل التدخل العسكرى المباشر، وكان القائد الكبير لعمليات ***MPLA*** تحت الأرض فى لواندا لوسيو لارا ***Lucio Lara***، قد طلب من السفير أفانسنكو فى السابع عشر من أغسطس إرسال ضباط الصف السوفيت إلى القيادة العامة للـــ ***MPLA***، التى كانت قد انتقلت لتوها من برازافيل إلى لواندا. وقال لارا إن "قائد ***MPLA*** فى حاجة إلى النصائح القيمة عن المسائل العسكرية على المستوى الاستراتيجى". لكن أفانسنكو وعـــد فقط بتقديم الخبـــراء التقنيين، ولكنـــه وافق على دعوة وزير الدفاع التابع للـــ ***MPLA*** إكو كاريرا ***Iko Carreira*** إلى موسكو فى أواخر أغسطس لإجراء محادثات مع الإدارة الدولية بالحزب الشيوعى السوفيتى، ومع وزارة الدفاع وقيادة الأركان العامة بالقوات المسلحة. فى الوقت نفسه عاد دياز أرجلز ***Diaz Argüelles*** إلى لواندا فى الحادى والعشرين من أغسطس ليرأس البعثة العسكرية الكوبية هناك[٦٠].

ورغم سياسة القادة السوفيت فى دعم نيتو وحركة الـــ ***MPLA***، فلم يرُق لهم محتوى الخطة الكوبية. بداية، اعترضوا على استخدام الضباط السوفيت أو حتى طائرات النقل السياسية فى أنجولا قبل الاستقلال. وساورهم القلق من أن تكون تلك الخطوة مبالغا فيها وستدمر سياسة التهدئة مع الولايات المتحدة. كما كانوا على علم بأن معظم الدول الأفريقية، بما فيها بعض الدول القريبة من الاتحاد السوفيتى، سوف تكون ضد التدخل السوفيتى المباشر، كما قد يكون بعض الأصدقاء السياسيين فـــى البرتغال داخل الحزب الشيوعى أو خارجه. ثانيًا، رأى السوفيت أن الكوبيين لا يدركون مدى ما سوف يسببه التدخل الكوبى من أذى للعلاقات بين القوى العظمى، بما أن إدارة فورد كانت تعتبر القوات الكوبية وكلاء للمصالح السوفيتية. ثالثًا، أن موسكو لم تكن على يقين من أن الموقف العسكرى فى أنجولا يحتاج إلى تدخل القوات من أجل دعم ***MPLA***[٦١].

ورغم استياء القادة السوفيت، وجدوا أنه كان من الصعوبة بمكان أن يبوحوا باعتراضاتهم لكاسترو. كانت موسكو على علم بأن الزعيم الكوبى قلق بشأن سياسة التهدئة السوفيتية، وكانت خبرة موسكو مع هافانا تقول لهم أن يوغلوا برفق لتجنب فترات كتلك التى حدثت في أواخر الستينيات حين أوشك الحليفان علىٰ الفرقة. ورغم ذلك ظل بريچنيـف يرفض بوضوح نقل القوات الكوبية أو إرسال ضباط سوفيت للخدمة مع الكوبيين فى أنجولا. عارض رئيس الأركان السوفيتى أى مشاركة فى العملية الكوبية، حتى جهاز المخابرات السوفيتى، حيث بدأت سياسة الاهتمام بأفريقيا أساسًا، وحذر فى الخامس والعشرين من أغسطس من تأثير التدخل السوفيتى المباشر فى العلاقات السوفيتية الأمريكية(٦٢).

•

لم ترتدع هافانا من التردد السوفيتى. وبعد تصنيف بعض المشكلات اللوچستية لبعثة أنجولية مع نجوبى الكونغو، الذى زار كوبا فى منتصف سبتمبر، وصل أول جنود كوبيين إلى برازافيل ولواندا فى أوائل أكتوبر على متن عدة طائرات وأعادوا بناء السفن العسكرية الكوبية التى كانت موجودة قبل الثورة. وسرعان ما انتشر الجنود الكوبيون الخمسمائة فى وحدات *FAPLA* في الريف الأنجولى، وأخذوا على عاتقهم مسئولية القتال ضد أعداء *MPLA*. بيد أن وجود القوات الكوبية لم يكن كافيًا لدعم فتوحات الـ*MPLA* ضد المذابح الجديدة لأعدائها المتحدين(٦٣).

واصلت *MPLA* تراجعها في سبتمبر، حيث وقعت تحت ضغط القوات الزائيرية وقوات *FNLA* بقيادة المرتزقة فى الشمال وقوات *UNITA* المدعومة بالرجال والعتاد من جنوب أفريقيا فى الجنوب. كان تحالف سافيمبى مع بريتوريا قد منح وحداته العسكرية المعدات التى كانت تحتاجها بشدة، وأصبح الآن باستطاعتها أن تستخدم التعزيزات الإثنية فى وسط أنجولا وشرقها. فى الوقت نفسه كانت *MPLA* فى منتصف أكتوبر تعتمد تمامًا على الدعم الذى كانت تتلقاه فى

مناطق لواندا- موبوتو الغربية وفى المدن. كانت تسيطر على أقل من ربع الدولة وتفقد الأرض رغم التعزيزات الكوبية، التى شاركت فى القتال لأول مرة فى الثالث والعشرين من أكتوبر[٦٤].

كان قرار بريتوريا فى أكتوبر بأن تبدأ الغزو، هو ما أنقذ سياسة التحالف الخارجى للــ *MPLA* واحتمالات نجاحها فى الصراع على السلطة فى أنجولا. وكانت موسكو على علم مسبق بخطط جنوب أفريقيا قبل تنفيذها فى منتصف أكتوبر، وقامت قيادة الكرملين بمناقشة سبل الرد. واعتبرت الإدارة الدولية بالحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى أن المرحلة الجديدة للعمليات المعادية للــ*MPLA* فى أنجولا مجهودًا مشتركًا بين أمريكا وجنوب أفريقيا وكانت ترى أن الاتحاد السوفيتى عليه أن يسارع إلى مساعدة حليفه. فى الأسبوع الثالث من أكتوبر قررت موسكو أن تساعد العملية الكوبية فى أنجولا بعد أن قامت *MPLA* بإعلان استقلالها فى الحادى عشر من نوفمبر مباشرة، وكان الهدف السوفيتى هو وجود قوات كوبية ومستشارين سوفيت بما يكفى داخل أنجولا حتى منتصف ديسمبر، لهزيمة الجنوب أفريقيين ولمساعدة زعماء *MPLA* على بناء حزب ودولة اشتراكيين[٦٥].

كما كان للمفهوم السوفيتى عن توسيع دور المخابرات المركزية الأمريكية *CIA* فى مساعدة قوات *FNLA* من قواعد فى زائير دور مهم فى إعادة تقييم موسكو لسياستها فى أنجولا. وقدم جهاز المخابرات السوفيتى (*KGB*) معلومات حيوية عن الزيادة الشديدة فى المساعدات الأمريكية، وكان إيورى أندروبوف يعتقد أن لدى الأمريكيين خطة طويلة المدى لتسليح مجموعات كبيرة من قوات المرتزقة الأنجولية والزائيرية والغربية لإرسالها إلى أنجولا. كذلك قال جهاز المخابرات السوفيتى إن "الخبراء" الأمريكيين سوف يزيدون من نشاطاتهم عبر الحدود[٦٦].

أدى رد فعل معظم الدول الأفريقية على الغزو الجنوب أفريقى إلى اعتقاد السوفيت بأن مسألة التدخل فى الصراع الأنجولى لم تعد بنفس الخطورة التى كانت عليها من قبل. وأخبر چوليوس نيريرى، وهو زعيم أفريقى تحترمه موسكو رغم نقده الصريح لسياستها فى أفريقيا، أخبر السفير السوفيتى فى الثالث من نوفمبر بأنه رغم استنكاره للحرب فى أنجولا، فإن تدخل بريتوريا قد جعل الدعم الخارجى لـــ *MPLA* ضرورة. كان يأمل أن تقوم الآن دول أفريقية كثيرة بمساعدة حركة نيتو. ورغم ذلك ظل يحذر من الدعم السوفيتى الزائد لـــ *MPLA* ، ويأمل فى أن تقوم موسكو بوضع جل مساعداتها من خلال الحكومات الأفريقية. وأجاب السفير السوفيتي، كاذبا، بأن ذلك ما ينوونه(٦٧).

تكثفت الاستعدادات العسكرية السوفيتية لنقل القوات الكوبية بالطائرات إلى أنجولا فى بداية نوفمبر، واجتمعت سكرتارية الحزب الشيوعى السوفيتى فى الخامس من نوفمبر وقررت إرسال وحدات بحرية سوفيتية إلى مناطق على الساحل الأنجولى. فى برازافيل، وفى انقلاب مدهش للأدوار فى أقل من شهرين، راح السفير السوفيتى يحض نظيره الكوبى على "تكثيف" استعدادات هافانا للحرب فى أنجولا. وأجابه السفير الكوبى ببعض الشك بالقول "ولكن هناك فوج من المدفعية الكوبية يحارب بالفعل فى لواندا"(٦٨).

أعلن أجوستينو نيتو استقلال جمهورية أنجولا الشعبية فى الحادى عشر من نوفمبر، فى نفس الوقت الذى كانت *MPLA* تحارب من أجل البقاء على بعد عدة أميال من لواندا. فى معركة وادى كويفانجوندو ***Quifangondo Valley*** قدم رجال المدفعية الكوبيون للـــ *FAPLA* أسباب تفوقها على أعدائها من *FNLA* وزائير. وقامت قاذفات الصواريخ *BM-21* التى قدمها الاتحاد السوفيتى بتدمير القوات المهاجمة وسببت لها التراجع غير المنظم تجاه الحدود الشمالية، مما منح *MPLA*

والكوبيين الفرصة لتنقلب على قوات جنوب أفريقيا ويونيتا القادمة من الجنوب. وبالتالى فإن معركة كويفانجوندو دمرت مصداقية تحدى *FNLA* العسكرى. قرر ضباط المخابرات المركزية *CIA* والجنوب أفريقيون والزعماء المرتزقة، الذين ساعدوا فى تصعيد محاولة هولدن روبرتو الفاشلة فى الاستحواذ على لواندا، قرروا أنهم ما لم يقم شركاؤهم فى *UNITA* فى الجنوب بإحراز تقدم، فستصبح *FLNA* ورقة محترقة، وتحول الاهتمام كله إلى چوناس سافيمبى، الذى كان قد قضى اليوم السابق للاستقلال فى بريتوريا فى لقاء سرى مع چون ڤورستر(٦٩).

تختلف المعلومات السوڤيتية والكوبية والغربية والجنوب أفريقية فى نقل شكل بناء القوات الكوبية فى أنجولا؛ فتدعى المصادر الكوبية أنه حتى أواخر ديسمبر، عندما كان هناك أربعة آلاف كوبى فى أنجولا، كان النقل يتم بواسطة سفن وطائرات كوبية. ولكن الوثائق الأرشيفية السوڤيتية تقدم قصة مختلفة، معززة – على الأقل جزئيًا– بمعلومات من دول أخرى، فتقول إنه خلال الأسبوع السابق للاستقلال كانت مجموعات كبيرة من الضباط الكوبيين قد بدأت تصل إلى لواندا على طائرات سوڤيتية. وقد قام السوڤيت بتنظيم الانتقالات وإعدادها، رغم أن الكوبيين أنفسهم هم من أداروا العملية تقنيًا. وأوضحت موسكو أن الهدف الأساسى لهذه القوات كان أن تحتوى الجنوب أفريقيين بطول الساحل الجنوبى، حتى لا يستخدموا فى الأغراض العامة فى الحرب الأهلية، وللسبب نفسه أمر رئيس الأركان السوڤيتى نحو ستين من ضباطه بالانضمام إلى القوات الكوبية من الكونغو. وبدأ هؤلاء الرجال الوصول إلى لواندا فى مساء الثانى عشر من نوڤمبر(٧٠).

الأسبوعان التاليان شهدا التقدم السريع لجيش يونيتا بقيادة ثلاثة آلاف جندى من قوات جنوب أفريقيا المنتظمة نحو لواندا. وفى أواخر نوڤمبر كانت تلك القوات قد أعادت فتح كل المناطق التى خسرها سافيمبى للـــ *MPLA* خلال الأشهر

السابقة. كانوا قد احتلوا كل الموانئ الكبرى جنوب العاصمة باستثناء بورتو أمبيوم *Porto Amboim* ، وسيطروا على سكك حديد بنجولا، وحاولوا إقامة إدارة مدنية خاصة بهم في هوامبو. واستنتج كل من السوفيت والكوبيين أنه لو بقى نظام *MPLA* على قيد الحياة فلابد للقوات الكوبية من أن تقوم بالهجوم في الجنوب في أسرع وقت ممكن[٧١].

بعد إقامة نظام *MPLA*، أعطى المكتب السياسى السلطة لرئيس الأركان السوفيتى بأن يتولى السلطة المباشرة على إعادة انتشار القوات الكوبية الإضافية عبر الأطلسى، وكذا إمداد تلك القوات بالمعدات العسكرية المتقدمة. وقامت هذه العملية الكبرى – وهى المجهود السوفيتى الأول من نوعه – بنقل أكثر من اثنى عشر ألف جندى بالبحر والجو من كوبا إلى أفريقيا فى الفترة بين نوفمبر ١٩٧٥ ومنتصف يناير ١٩٧٦. فى الفترة نفسها، قامت بإمداد *FAPLA* والكوبيين بمئات الأطنان من الأسلحة الثقيلة، وكذا دبابات *T-34* و *T-54* و *SAM-7* وصواريخ مضادة للدبابات وعدد من الطائرات المقاتلة *MiG-21*[٧٢].

من المستحيل حتى الآن استيضاح أى تفاصيل عن لوجستية العملية السوفيتية. ما نعرفه هو أن حكومات دول أفريقية عديدة قبلت أن تساعد المؤسسة. كانت الكونغو هى المحطة الرئيسية للرجال والسلاح القادمين من كوبا والاتحاد السوفيتى (رغم أنه فى بعض الحالات كانت طائرات النقل *An-22* تطير مباشرة من جنوبى الاتحاد السوفيتى – فى الغالب من أوديسا – أو من كوبا). وتعاونت كل من الجزائر وغينيا ومالى وتانزانيا مع تلك الجهود بطرق مختلفة، حتى وإن تعين على الاتحاد السوفيتى فى بعض الأوقات أن يضغط عليها للحصول على هذا التعاون. كان على موسكو أيضًا أن تضغط على بعض حلفائها فى أوروبا الشرقية ليسارعوا إلى الدفاع عن "التحرير الأفريقى ومحاربة الإمــبريالية عالميًا" عن طريق مساندة *MPLA*[٧٣].

الفترة الحرجة من الحرب كانت فى نوفمبر والجزء الأول من ديسمبر ١٩٧٥. لم يستعد هولدن روبرتو أبدا الكثير من السلطة بعد هزيمته المنكرة فى وادى كويفانجوندو، وقد كانت المخابرات المركزية تأمل أن يأخذ لواندا فى نفس اليوم الذى تم فيه إعلان الاستقلال – الحادى عشر من نوفمبر. وفى نهاية نوفمبر كان الكوبيون قد أوقفوا التقدم إلى لواندا بقيادة جنوب أفريقيا، وعانى الغزاة الجنوبيون وحلفاؤهم فى يونيتا من خسائر كبرى فى معركتين جنوب نهر كوانزا فى ديسمبر. حينئذ قررت بريتوريا أن تنسحب فى اتجاه الحدود، جزئيا بسبب مشكلاتها العسكرية وجزئيا لأن مجلس الشيوخ الأمريكى صوت فى ١٩ ديسمبر على إيقاف كل التمويل للعمليات السرية فى أنجولا. لم تكن بريتوريا لتقبل أن تتركها واشنطن فى وضع حرج، مع احتجاز رجالها رهائن لصراع لا يعتقدون أنهم سينتصرون فيه، وكانت صدمة حكومة جنوب أفريقيا فى القرار الأمريكى عنيفة، رغم محاولات كيسينجر أن يفسر الاختلافات فى وجهات النظر بين الإدارة والكونجرس. وقال بعض المراقبين بجنوب أفريقيا إن خيانة الولايات المتحدة لـــفورستر فى مسألة أنجولا أضعفت مكانته بداخل حزبه بشدة وساعدت وزير الدفاع اليمينى پ. م.بوثا ***P.M.Botha*** أن يحل محله بعد عامين[٧٤].

كما سبق أن فتح تدخل جنوب أفريقيا الأبواب للقبول الأفريقى للمساعدات السوفيتية – الكوبية لـــ ***MPLA***، كذلك فإنه، وقد أصبح معيبًا الآن، مهد الطريق إلى الاعتراف الدبلوماسى الأفريقى بالنظام الأنجولى الجديد. فى منتصف فبراير كانت معظم الدول الأفريقية قد اعترفت بشكل رسمى بحكومة نيتو، كما اعترفت به منظمة الوحدة الأفريقية ***Organization of African Unity (OAU)*** رغم محاولات رئيسها الأوغندى عيدى أمين ***Idi Amin*** أن يؤجل القرار. وقد أسهمت الجهود الدبلوماسية السوفيتية بشكل أساسى فى هذه التطورات، مثلا فى حالة زامبيا عندما تحول الرئيس كينيث كاوندا ***Kenneth Kaunda*** إلى جانب ***MPLA*** بعد الكثير من الضغوط السوفيتية[٧٥].

فيما يخص السيطرة على المناطق الوسطى، انتهت الحرب الأنجولية فى أوائل مارس ١٩٧٦، وسقطت عاصمة القوات المعادية للـــ *MPLA* "هوامبو" فى يد *FAPLA* فى الحادى عشر من نوفمبر. كان هولدن روبرتو قد عاد بالفعل إلى المنفى فى زائير فى يناير وكانت *FNLA* قد تخلت عن أنشطتها العسكرية. وتراجع جوناس سافيمبى إلى منطقة الغابات فى الجنوب الشرقى من أنجولا بصحبة ألفين من جنود العصابات ومستشاريهم من الولايات المتحدة و جنوب أفريقيا. ورغم أنه حارب من جديد ليعود إلى مكانته الدولية فى أوائل الثمانينيات، فإنه كان قد أدرك فى ١٩٧٦ أنه لن ينجح فى تحديه لـــ *FAPLA* والكوبيين(٧٦).

فى ربيع ١٩٧٦ شعر الزعماء السوفيت– وكانوا على درجة عالية من اليقين والزهو وتهنئة الذات– بأنهم قد كسبوا الحرب الأنجولية. وسعدت القيادة بأن لوچيستية العملية قد نجحت – فعلى بعد نحو خمسة آلاف ميل من موسكو، استطاع الاتحاد السوفيتى أن يدير حملة لنصرة حلفائه ضد سلطة الولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين الأقوياء وخرج منتصرًا. وأصبحت أنجولا بالنسبة لبريچنيـــف نفسه دليلا على "الوحدة الفعالة مع شعوب أفريقيا وآسيا" ودليلا على أن الاتحاد السوفيتى قادر على تدعيم الاشتراكية فى العالم الثالث أثناء فترة التهدئة مع الولايات المتحدة(٧٧).

بالطبع وهنت عزيمة إدارة فورد. فالتدخل فى أنجولا لم يفشل فحسب، بل أدى إلى معاداة الشعب الأمريكى لسياسة التدخل على نحو غير مسبوق. فى الوقت نفسه جعل الفشل فى أنجولا الإدارة تبدو ضعيفة فى صراع الحرب الباردة على النفوذ فى العالم الثالث، ومهد الطريق للهجمات من الجناح اليمينى داخليًا، ومن الشركاء الصينيين. كما انهارت العلاقة مع جنوب أفريقيا العنصرية وهى "شرطى" رئيسى فى تقدير كيسنجر. فى اجتماعه مع السفير الجنوب أفريقى فى ١٥ مايو، بعد أن غادرت آخر القوات الجنوب أفريقية أنجولا، لم يكن لدى كيسنجر الكثير من التهدئة لبريتوريا.

قال إننى [السفير بوثا] لابد من أن أعرف ما الموقف السياسى فى الولايات المتحدة وفى الظروف الحالية سيحاول هو (كيسنجر) والرئيس أن يفعلا كل ما بوسعهما لكى يبعدوا الروس عن أفريقيا. لقد حاول بكل ما لديه من جهد أن يجد تمويلا لإبعاد الروس عن أنجولا. كان مقتنعًا بإمكانية احتواء الروس، ولكن الكونجرس جعل ذلك مستحيلا. إنه موقف فظيع، وأخيرًا سيستطيع الروس أن يستغلوا انتصارهم فى أنجولا لكى يهزموا الزعماء الأقوياء فى أفريقيا، مما يؤدى إلى انتصار كامل فى أفريقيا.... وقال كيسنجر إن علىّ أن أعرف أن الشعب الأمريكى يصبح منقسمًا على نفسه فى بعض المواقف، كما فى الشأن الفيتنامى، ومن ثم لا يقومون بأى فعل. لذلك فلا نستطيع الاعتماد عليهم. لقد أراد (كيسنجر) أن يكون واضحًا وأمينًا معى. واعترف أنهم لا يستطيعون الالتزام معنا؛ إنهم يدركون مأساتنا.

وبعد أن خسر فورد الانتخابات فى ١٩٧٦ وفاز بها جيمى كارتر، تدهورت العلاقة أكثر. ووفقًا لما كتبه أحد المستشارين فى السياسة الخارجية لرئيس الوزراء الجنوب أفريقى فى ١٩٧٧،

هناك ما يخيفنا من الولايات المتحدة أكثر من الاتحاد السوفيتى. فقد أظهر الاتحاد السوفيتى من خلال أفعاله فى أنجولا ونقله خمسة عشر ألف كوبى جوًا وتقديمه

ما يوازى ثلاثمائة مليون دولار من الدعم اللوچستى أنه مستعد أن يخاطر على نحو غير عادى بالتهدئة مع الولايات المتحدة من أجل الأهداف التى يعتبرها قيمة.... إنها الولايات المتحدة وما بها من آراء متأرجحة، واتباعها لما تعتبره الفعل المثالى، وإدارتها الجديدة والدين الذى عليها قضاؤه للأصوات السوداء، واعتقادها المتنامى أن حكم البيض فى جنوب أفريقيا لابد أن ينتهى، وخوفها من أن يستغل الاتحاد السوڤيتى الموقف لو أنها لم تفعل شيئًا، إنها هى ما تمثل القوة الثورية التى لا يمكن التنبؤ بأفعالها[٧٨].

ما الأمر الذى اعتقد السوڤيت أنهم تعلموه من الصراع الأنجولى؟ وفقًا للتقارير الصادرة عن الإدارة الدولية بالحزب الشيوعى السوڤيتى فإن أهم الدروس كان أن الولايات المتحدة يمكن أن تُهزم فى الصراعات المحلية تحت ظروف معينة. أولا، لابد أن تكون القوات المسلحة السوڤيتية قادرة على تزويد العمليات بالدعم اللوچيستى الذى تحتاجه على وجه السرعة ومستعدة لذلك. تلك المهام كان يُعهد بها أساسًا إلى البحرية والقوات الجوية، وكلاهما امتُدحا لجهودهما فى أنجولا. ثانيا، لابد للاتحاد السوڤيتى من أن يكون قادرًا على تنظيم القوى المعادية للإمبريالية وإدارتها (على عكس ما حدث فى ڤيتنام، إذ شعر الزعماء السوڤيت بأن الأزمات تحدث تباعًا بسبب عدم قدرة الزعماء الڤيتناميين على اتباع نصيحة موسكو)[٧٩].

كانت المجموعات السوڤيتية فى أنجولا فى ١٩٧٦ راضية جدًا عن مدى احترام الأنجوليين والكوبيين لتفوق موسكو السياسى أثناء الحرب. وفقًا للسفارة،

أدرك نيتو اعتماده على المساعدات السوفيتية وأن موسكو، وليست هافانا، هي من اتخذ القرارات النهائية. ورغم أن السفارة ظلت لا تثق فى نيتو تمام الثقة، فإنها اعترفت أنه فعل ما يروق لها أثناء المعارك. فى ربيع ١٩٧٦، راح يضغط من أجل المزيد من المدربين العسكريين السوفيت، وهو الموقف الذى اعتبره القائم بالأعمال الجديد فى لواندا ج.أ.زفيريف ***G.A.Zverev*** علامة على ولاء الرئيس الأنجولى للتحالف الجديد، حتى وإن كان نيتو لم يوافق بعد على طلب قواعد عسكرية سوفيتية دائمة[٨٠].

أما بالنسبة للكوبيين، فكان الممثلون السوفيت يعبّرون لموسكو عن درجة من الدهشة لمدى التجانس فى العلاقات مع الحليف الكاريبى الصغير. وأخبر زفيريف رؤساءه فى مارس أن "التنسيق السوفيتي-الكوبى فى أنجولا أثناء الحرب كانت له آثار إيجابية للغاية". وأشاد الدبلوماسيون والضباط السوفيت بالكوبيين لشجاعتهم ولقدرتهم على العمل كنقطة اتصال بين موسكو ولواندا، مع "احترام" الدور الأعلى لقيادة الحزب الشيوعى السوفيتى ***CPSU***. تحسنت العلاقة الكوبية- السوفيتية، ككل، تحسناً ملحوظاً بعد عملية أنجولا، لدرجة لم تكن قد وصلت إليها منذ أزمة الصواريخ فى ١٩٦٢[٨١].

كما اتفقت موسكو وهافانا على استراتيجية فى أنجولا بعد انتهاء المعارك الرئيسية فى ربيع ١٩٧٦. وأرادت كلتا الدولتان أن تخففا من تورطهما العسكرى فى أسرع وقت ممكن لكى "تتجنبا المصادمات العسكرية الشديدة مع جنوب أفريقيا وتحصلا على أهدافهما عن طريق النضال السياسى والدبلوماسى"[٨٢]. فى مايو أخبر راعول كاسترو ***Raul Castro*** الهيئة السوفيتية العامة أنه كان يريد أن يبدأ انسحاب القوات الكوبية فورًا، وأنه كان يتوقع أن يكون نحو خمسة عشر ألف كوبى (من أصل ستة وثلاثين ألفا) قد غادروا فى أواخر أكتوبر. وطلب القادة

الكوبيون من موسكو أن تخبر بريتوريا بنواياها، وهم على علم بأن تجريد الصراع من الصفة العسكرية – رغم وجود حكومة من *MPLA*– هو ما كان يريده السوفيت طوال الوقت. كانت هافانا تعرف كيف تسترضى القوة العظمى، كما كانت تعرف، كما سنرى، كيف تأخذ ثمن ذلك(٨٣).

الدرس الثانى الذى ظن السوفيت أنهم تعلموه من المغامرة الأنجولية، هو أن الاتحاد السوفيتى كان يستطيع أن يعيد بناء المجموعات المعادية للرأسمالية وإصلاحها فى مناطق الأزمات ويتعين عليه ذلك. فقد افترض المراقبون السوفيت فى ١٩٧٦ أن *MPLA* قد أنقذت من حماقاتها بالنصائح والمساعدات من موسكو، التى لم تساعدها على الانتصار فى الحرب فحسب، بل وأيضا وضعت أسس بناء "حزب طليعى". كانت الحركة الأنجولية قد منيت من قبل بـ"الموظفين والشيوعيين" ولكن، بفضل الإرشاد السوفيتى، أصبح لـ "العالميين" الصدارة. هؤلاء القادة الجدد – رجال مثل لوبو دو ناسيمنتو ***Lopo do Nascimento*** ونيتو ألفس ***Nito Alves*** – كانوا يفهمون أن *MPLA* جزء من حركة ثورية عالمية تقودها موسكو، وأنهم بالتالى يعتمدون على الدعم السوفيتى فى الحاضر والمستقبل(٨٤).

هؤلاء "العالميون" هم من أرادت موسكو مساعدتهم فى بناء *MPLA* جديدة، على غرار تجربة الحزب الشيوعى السوفيتى. لاحظ خبراء بناء الأحزاب السوفيت الحالة المتردية لهيكل *MPLA* فى الكثير من الجوانب، فاقترحوا أن يكون ذلك هو المجال الذى يركز فيه ناسيمنتو وألفس وغيرهما جهودهم. ومع أخذهم زمام بناء هيكل الحزب، سوف يصبحون القادة المستقبليين لحزب ماركسى لينينى فى أنجولا(٨٥).

قدم السوفيت كما كبيرًا من الدعاية السياسية لنشرها لدى أنصار *MPLA* واستخدامها فى تدريب الكوادر، حتى إن موظفى السفارة العاديين كانوا أحيانًا يجدون صعوبة فى التعامل مع هذا الكم – حمولة طائرة من الكتيبات تحوى خطاب

بريچنيــف فى المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى وحمولة طائرتين من المطبوعات المعادية لماو – ولكن السفارة استطاعت أن تستخدم هذه المواد استخدامًا جيدًا (أو هذا ما قالوه فى تقاريرهم إلى موسكو). فى صيف ١٩٧٦ نفد ما كان لديهم من خطب لينين وطلبوا إمدادات جديدة من إدارة الدعاية بالحزب الشيوعى السوفيتى(٨٦).

ثبت أن مهمة تحويل *MPLA* كانت أصعب كثيرًا على السوفيت من نشر أفكار لينين. فقد تسبب استقلال نيتو الفكرى وادعاؤه بأنه منظر ماركسى مستقل فى تقييد الروس وجعل أمر السيطرة على *MPLA* أكثر صعوبة بالنسبة لهم حالما استقر الموقف العسكرى. وقام بعض الزعماء الأنجوليين الذين كانت موسكو تبغضهم، مثل رئيس ***FAPLA*** المخضرم ووزير الدفاع إيكو كاريرا ***Iko Carreira*** والسكرتير العام لـــ***MPLA*** لوسيو لارا ***Lúcio Lara***، اللذين تأثرا بشدة باليسار الأوروبي، بتقوية مكانتهم بعد انتهاء الحرب. ووفقًا للسفارة، فقد أخر تأثير مثل هؤلاء كلا من التغيرات الضرورية فى*MPLA* وانتهاء خطط التنمية التى كان ينصح بها السوفيت والكوبيون(٨٧).

لم تؤد اختلافات وجهات النظر بين السوفيت والكوبيين حول الموقف السياسى داخل *MPLA* إلى تيسير الموقف بالنسبة لموسكو. فجزء من الثمن الذى طالب به كاسترو لقاء احترامه لآراء السوفيت فى المسألة الأنجولية هو حقه أن يدافع عن الحلول السياسية الأنجولية التى تروق له. فكان على رأس المعادلة السياسية لكاسترو أن يتولى أغوستينو نيتو الزعامة – فكاسترو يعتبره رجلا ذكيًا وزعيمًا أفريقيًا عظيمًا، علاوة على أنه صديق شخصى. لذا لم يفوت الكوبيون فرصة ليؤكدوا للسوفيت وجهة نظرهم بأن رئيس *MPLA* هو الحل الوحيد لمشكلات الزعامة الأنجولية، وهم على علم بشكوك موسكو فيه. وقال راءول

كاسترو لنائب وزير الدفاع السوفيتي إ.ف.بونومارنكو ***I.F.Ponomarenko*** "لدينا احترام جم للرئيس نيتو". وقال رئيس الإدارة الدولية بالحزب الشيوعي الكوبي راءول فـالد فيفو ***Raúl Valdés Vivó*** للقائم بالأعمال في السفارة السوفيتية في مايو إن "كوبا تريد تقوية سلطة نيتو"(٨٨).

بيد أن الكوبيين كانوا بارعين في تجميل موقفهم القوي لدعم نيتو، عن طريق التأكيد على أن الاتحاد السوفيتي هو الحليف الدولي الأساسي لأنجولا. وأخبر راءول كاسترو زملاءه السوفيت بأن "العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ستصبح جانبًا مهما من السياسة الأنجولية الخارجية في المستقبل". ووجه ريسكت ***Risquet*** أن "يخبر سفارة الاتحاد السوفيتي في أنجولا بكل شيء وأن يحافظ على اتصالات وثيقة مع الرفاق السوفيت". كما قام كاسترو بمعاقبة بعض القادة الأنجوليين الذين لا يرضى عنهم السوفيت؛ وأخبر بونومارنكو أن لوسيو لارا "يضع بعض القيود على مسائل زيادة التعاون مع الدول الاشتراكية. إنه متقلب وغير واضح... [و] قد تجنبنا"(٨٩).

ولكن حتى هذه الإجراءات لم تقنع السوفيت بولاء كوبا. ففي تقرير السفارة السوفيتية حول زيارة نيتو لهافانا في يوليو ١٩٧٦، علقت السفارة، بعدم رضا، أن فيديل كاسترو أخبر الأنجوليين بأن القوات الكوبية ستبقى في أفريقيا "ما دامت كانت هناك حاجة إليها" وبأن نيتو قد طلب مساعدة كوبا في بناء حزب ماركسي لينيني. بل الأسوأ من ذلك، أن كاسترو تحدث عن أنجولا وكوبا وفيتنام باعتبارهم "البؤرة الرئيسية لمناهضة الإمبريالية" في العالم. أما كون الرئيس الكوبي يذكر "الدور المحوري" للاتحاد السوفيتي فذلك لم يكن كافيًا لإرضاء المراقبين السوفيت، خاصة وأن كاسترو قرن عبارته بالدفاع عن دور نيتو "الريادي" في ***MPLA*** (٩٠).

الحرب الباردة فى أفريقيا وانهيار التهدئة بين القوى العظمى

تظهر التقارير الحديثة والوثائق المفرج عنها من موسكو أن انتصار *MPLA* فى أنجولا، وانتصار هانوى فى فيتنام، قد أعطى تفاؤلا كبيرًا غير مسبوق فى السياسة السوفيتية تجاه العالم الثالث – وكما قال أحد كبار المسئولين فإن "العالم كان يسير فى اتجاهنا"[٩١]. كانت وجهة النظر السائدة لدى المسئولين فى كل من الحزب والحكومة هى أن قطاعات كبيرة من العالم الثالث كانت تسعى نحو الاشتراكية، التى كانوا يرون فيها الحل الوحيد لمشكلاتهم. ومع التقدير الذى أحرزته بلادهم أثناء تهدئة نيكسون وكيسنجر، ومن خلال التهدئة فى أوروبا، أعطت الهجمات الاشتراكية فى العالم الثالث الكثير من السوفيت شعورًا متجددا بالفخر بإنجازاتهم واقتناعًا بأن الاتحاد السوفيتى كان يستطيع أن يسهم فى التطورات المهمة فى الاشتراكية فى كل مكان. حتى أعضاء المكتب السياسى والقيادة السوفيتية العليا، الذين كانوا متقدمين فى السن بوجه عام، ولم يكن لديهم سوى القليل من الخبرة فى أى جزء من العالم خارج أوروبا، شاركوهم الشعور بالزهو. أثناء الاستعدادات لمؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى الخامس والعشرين فى فبراير ١٩٧٦ كان للمستشارين الشباب بالإدارة الدولية قدرة غير مسبوقة على الوصول إلى القيادات الكبرى، بمن فيهم ليونيد بريچنيـف ، وقد عبروا عن موافقتهم على التدخل السوفيتى فى العالم الثالث. وفى المؤتمر أشاد بريچنيـف بتطـور الاشتراكية فى أفريقيا وآسيا وتقدمها، وأكد التحالف السوفيتى الوثيق مع كوبا وفيتنام.

وبينما ساعدت أحداث عام ١٩٧٥ على وضع العالم الثالث فى مقدمة التفكير السوفيتى، فإن الرواية ذات الأيديولوجية المعقدة التى أنتجتها موسكو عما حدث بالفعل فى جنوب أفريقيا وفى جنوب شرق آسيا قد وضعت الاتجاهات السياسية. وبدلا من التدرج والتردد فى مسألة التدخل السوفيتى، مع اتخاذ القرارات تحت

ضغط الأحداث التى لا تملك موسكو الكثير من التأثير فيها، فإن أحداث ١٩٧٦ شهدت سياسة سوفيتية هادفة، قام فيها المستشارون والخبراء بالتفسير "الصحيح" للأحداث المحلية بناء على التعليمات الصادرة عن المكتب السياسى والخط التنظيرى العام للحزب. كان كل من التحول إلى الاشتراكية فى العالم الثالث، ونجاح المساعدات السوفيتية مبنيًا على الأزمة الهيكلية لهيمنة الولايات المتحدة والنظام الرأسمالى العالمى. بعبارة أخرى، كان التقدم فى العالم الثالث دليلاً على تغيير أشمل وأعم فى توازن القوة بين الاشتراكية والرأسمالية. ورأى الكثير من صناع السياسة السوفيت أن المستعمرات السابقة هى نقاط ضعف الرأسمالية العالميـــة، ومـــن ثم لـــم يكن مستغربًا أن تحدث أولى إرهاصات تلك الأزمات على أرضها.

ومن الغريب أن هذا التحول إلى التفاؤل فى سياسة موسكو تجاه العالم الثالث حدث فى الوقت نفسه الذى كانت قد بدأت تتضح فيه بعض أعراض الضعف فى الاقتصاد السوفيتي. فبينما كان معدل النمو فى الاقتصاد أثناء السبعينيات يعادل نظيره فى الغرب – وإن كان يعادل الغرب أثناء الأزمات، كما أشار السوفيت أنفسهم – شهد عام ١٩٧٥ انخفاضًا حادًا فى الإنتاج الزراعى، مما جعل الاتحاد السوفيتى يعتمد على الواردات الأجنبية للحبوب (وهو الاعتماد الذى سيبقى حتى نهاية الحقبة السوفيتية). وفى حين ألقى الحزب الشيوعى السوفيتى باللائمة على الظروف المناخية – ولديه بعض الحق، فإن ما أدهش الكثير من المراقبين هو أن الاقتصاد السوفيتى لم يملك المرونة للتعامل مع الآثار السلبية لهذا الانهيار إلا من خلال الاستقطاعات فى أشياء أخرى؛ بعبارة أخرى، فإن الاقتصاد الموجه فشل فى إعادة توزيع الموارد. ولشغفهم، شأن كل السياسيين، بالتركيز على الأخبار السعيدة وليس الأخبار السيئة، ركزت القيادة السوفيتية على التقدم السياسى للاشتراكية فى العالم الثالث أكثر مما ينبغى، لأن ذلك كان يصب فى التعتيم على المشكلات القائمة بالداخل.

كان من الموضوعات الجوهرية فى التقييم السوفيتى لأنجولا وفيتنام، أن تلك الثورات قد نجحت لأنها كانت تحت القيادة الماركسية. فالنظام الذى أظهره الشيوعيون فى وجه المحنة مكّنهم من الانتصار؛ وهذه الجدلية تصح على وجهين. فمن ناحية، تشير إلى أهمية النظام اللينينى وبناء الحزب: فحزب العمال الـفيتنامى و MPLA نجيا من الحملات العسكرية العنيفة التى شنتها الإمـبريالية، بينما انتهى الراديكاليون غير الماركسيين مثل سوكارنو ونكروما انتهوا. ومن ناحية أخرى، أعادت تأكيد دور النموذج السوفيتى: فما تسهم به موسكو – ما هو أهم من قوتها العسكرية العاتية – هو خبرتها فى بناء الاشتراكية. فبما أن الاشتراكيـة هـى ما كانت تريده الجماهير، فإن الأحزاب التى تستطيع أن تظهر منهجا عمليا، ذا أسس سليمة فى كيفية بناء الاشتراكية هى ما ستحظى بارتباط الجماهير بها. أى أن حنكتها الاشتراكية هى ما أنقذ الثورتين الأنجولية والفيتنامية.

أحد نماذج المنهج السوفيتى الجديد بعد أنجولا كان زيادة دعم المؤتمر الوطنى الأفريقى فى جنوب أفريقيا. هذا المنهج الجديد كان عمليا وأيديولوجيا. فقد قدم نظام MPLA فى أنجولا فرصا جديدة لتعليم ضباط الحزب الأفريقى وكوادره بالقرب من جنوب أفريقيا نفسها – وفى صيف ١٩٧٦ كانت معظم معسكرات تدريب المؤتمر الوطنى الأفريقى قد تم نقلها إلى أنجولا. ولكن ساد شعور فى موسكو بأن جنوب أفريقيا نفسها على حافة الثورة، فقد بقى المؤتمر الوطنى الأفريقى وقيادة الحزب الشيوعى بجنوب أفريقيا (SACP) حذرين جدا بشأن المستقبل – ففى أحد أوراق الحزب الصادرة فى ١٩٧٥ كانت هناك شكوى بأن "الحزب لم يعد قوة منظمة فى جنوب أفريقيا. فلم نعد على اتصال بالأعضاء فى الداخل"[٩٢]. لكن MO حاولت أن تجادل بأن تحرير أفريقيا البرتغالية لابد من أن يكون له آثاره داخل جنوب أفريقيا نفسها. وكان اندلاع ثورة سويتو على نحو عشوائى فى صيف ١٩٧٦ – التى جاءت بعد أن أبادت شرطة جنوب أفريقيا أكثر

من أربعين طفلا بالمدارس فى اجتماع احتجاجي – ليؤكد أن السوفيت كانوا على حق؛ وخلفت الهجرة الجماعية لشباب اللاجئين التى نتجت عن ذلك خصبًا شديدًا فى استقطاب أعضاء جدد للحزب الوطنى الأفريقي. فى ١٩٧٧ كانت المعسكرات فى أنجولا قد امتلأت وكان المرشدون الكوبيون والسوفيت يدربون جنود جنوب أفريقيا الشباب، وقد تم إعادة بعضهم بنجاح إلى الوطن لكى يقوموا بعمليات عسكرية ضد نظام الفصل العنصرى.

لكن كلا من السوفيت والمؤتمر الوطنى الأفريقى كانا على علم بأن موزنبيق – وهي متاخمة لجنوب أفريقيا – ستكون منطقة أفضل لانطلاق الهجمات. وقطعًا تشككت القيادة الموزمبيقية فى العمليات العسكرية التى كان يقوم بها المؤتمر الوطنى الأفريقى انطلاقًا من أرضها؛ فعاصمتها مابوتو تقع على الحدود مباشرة، وقد ترد جنوب أفريقيا الضربات مخلفة عواقب وخيمة على نظام ***FRELIMO*** الجديد. كما انتقد الموزمبيقيون العلاقة الوثيقة بين المؤتمر الوطنى الأفريقى والسوفيت. فى ١٩٧٤ أخبر زعيم ***FRELIMO*** "سامورا ماشيل" ***Samora Machel*** أوليفر تامبو أن "على المؤتمر الوطنى الأفريقى حرصًا على أمنه أن يرقب نشاطات الحزب الشيوعى بجنوب أفريقيا ***SACP***. كما ذكر أن الاتحاد السوفيتى والحزب الشيوعى السوفيتى ليسا صديقين للشعب الأفريقى، وأنهما عنصريان ويريدان تملُّك أفريقيا". ويشير تقرير المؤتمر الوطنى الأفريقى إلى أن تلك النصيحة جاءت فى الوقت نفسه الذى "اعترف فيه ماشيل بالأهمية القصوى للمساعدات السوفيتية للنضال الموزمبيقى"[٩٣]. والواضح أنه بينما كان السوفيت يعتبرون أنفسهم مناصرين للراديكاليين الأفارقة، لم يشترك معهم فى هذه النظرة أى من الزعماء الأفارقة الجدد والراديكاليين.

ورغم أن دور الكوبيين فى أنجولا كان قد مُحيَ تمامًا من الرواية السوفيتية للأحداث، كان فيديل كاسترو يحتفل بأول انتصار كبير له على الأمريكيين. كانت

أنجولا بالنسبة له موقفًا للانتقام إلى حد بعيد – انتقام من هجمات أمريكا على كوبا ومن مقتل تشي جيفارا فى بوليفيا. كما كانت أيضًا اختبارًا لمدى رغبة الكوبيين فى اتباعه فى إشعال الثورة العالمية. فى يوليو ١٩٧٦ عندما زار أغوستينو نيتو كوبا قال كاسترو:

> **إن هذا الموقف الذى تتخذه دولتنا ورغبتها فى أن تقاتل وأن تساعد فى منطقة أو أخرى لهو أسلوب جيد لقياس نضجها وضميرها الثورى. ذاك هو السبب فى أن الإمبرياليين دائمًا ما يقعون فى أخطاء مع كوبا؛ لأنهم لا يملكون أدوات لقياس هذه المواقف الأخلاقية. ليس لديهم طرق لقياس روح شعب ما أو معنوياته. لقد أخطأوا فى "خليج الخنازير" *Bay of Pigs* والآن عندما خططوا لغزو أنجولا أخطأوا ثانية. لم يدركوا أنه على بعد عشرة آلاف كيلومترًا ستستطيع كوبا أن تتعاون مع أنجولا بهذا الأسلوب..لأنهم اعتقدوا أن الشعب المحاصر، الشعب الذى حاولوا أن يغرقوه ويحطموه، قادر على منح مثل هذا النوع من المساعدة. وقد أخطأوا. كان مقاتلونا هناك فى أول صفوف المعركة... أهم ما فى دولة ما ليس ثرواتها، فالإمبرياليون لديهم ثروات جمة ولكنهم لا يملكون المعنويات أو الروح. إن أهم ما فى دولة أو مجتمع ما هو أخلاقياته وروحه[٩٤].**

كذلك كان كاسترو يشعر بالزهو – وإن كان بأسلوب أهدأ – لأن السوفيت اعتمدوا على القوات والنصائح الكوبية لكي يقوموا بحل الأزمة الأنجولية. لم يكن يشك أبدًا في أين يكون موضع قادته في أنجولا – فالكوبيون في لواندا امتدحوا دور السوفيت الريادى، ولكنهم كانوا هم الذين يتخذون القرارات المهمة حول الأمور الأمنية. وتشهد على ذلك واقعة الانقلاب ضد نيتو في مايو ١٩٧٧ ، عندما وجد نيتو ألفس *Nito Alves* – وهو مفضل لدى السوفيت – أن محاولته لخلع الرئيس قد منعتها الدبابات الكوبية[٩٥].

الانتصار الشيوعي في الهند الصينية وخاصة التدخل السوفيتي الكوبي في أنجولا، جعل أشد الأمريكيين حماسة للتهدئة يتشككون فيما إذا كان مستقبل السياسة الأمريكية الخارجية يكمن في البحث عن التعاون مع الاتحاد السوفيتي. كانت المشكلة بالنسبة للكثيرين من النخبة الأمريكية هي أن موسكو قد تفوقت على واشنطن في السعي إلى السلطة في العالم الثالث، مستغلة في ذلك ضعف الولايات المتحدة بعد فيتنام ووترجيت وساخرة من "روح" التهدئة، التي اعتبرها الكثيرون تعني منافسة أمريكية سوفيتية أقل، خارج أوروبا. وبينما أصر البعض داخل الإدارة على فكرة أن أنجولا كانت خسارة أكثر منها مكسبًا للسوفيت، بدأ حتى هنري كيسنجر، الذي كان يعرف حدود التهدئة أكثر من أي شخص آخر، بدأ يتهم السوفيت علنًا بكسر التهدئة من خلال تصرفاتهم في العالم الثالث. ومع كون عام ١٩٧٦ عامًا للانتخابات، أدرك كل من فورد وكيسنجر أن مفهوم التهدئة يوشك ألا يستخدم في الحصول على أصوات.

جاءت أعنف الانتقادات الدولية لأزمة أنجولا من الحلفاء الجدد لأمريكا، من الصينيين. في سلسلة من اللقاءات بين ماوتسي تونج المريض والرجل الذي كان سيخلفه فيما بعد، دينج زيابنج، في بكين في ديسمبر ١٩٧٥، وعد فورد وكيسنجر

أن يزيدا من مساعدتهما لو أن الصين انخرطت مرة أخرى فى المشكلة الأنجولية. وعلق ماو: "لا يبدو أن لديكم الكثير من الوسائل" فأجابه فورد: "قبل أن أغادر واشنطن مباشرة، وافقت على خمسة وثلاثين مليون دولار أخرى لمساعدة القوتين الأخريين [*FNLA* و *UNITA*]. هذه محاولة قوية لتحدى الاتحاد السوفيتى وهزيمة *MPLA*". وبعد ذلك بعدة أيام فقط أنهى الكونجرس بنجاح البرنامج السرى للولايات المتحدة، واستشاط الصينيون غضبًا. كان ادعاء الإدارة الأمريكية الضعف فى أنجولا بالنسبة لبكين دليلا آخر على الانهزامية والمراوغة الأمريكية عند المواجهة مع قوة الاتحاد السوفيتى. وقد كان ذلك درسًا لمن خلفوا ماو بألا يعتمدوا على التعاون مع الولايات المتحدة فى المعركة ضد موسكو فى العالم الثالث. وقال كيسنجر لموظفيه وهو يشعر بالغضب:

> **ستكون خسارتنا فادحة. يقول الرئيس للصينيين إننا سنقف بحزم فى أنجولا ثم إذا بنا نخرج بعد أسبوعين... وتسرب الإدارة إننا قلقون بشأن قاعدة بحرية [سوفيتية] وتقول إنها [أى أنجولا] مبالغة أو ضلال من كيسنجر. لا يعنينى البترول أو القاعدة ولكن ما يعنينى هو رد الفعل الأفريقى عندما يرون السوفيت ينتزعونها ونحن لا نفعل شيئًا. ولو قال الأوروبيون بعد ذلك لأنفسهم لو أنهم لا يستطيعون الإبقاء على لواندا فكيف لهم أن يدافعوا عن أوروبا؟ سيقول الصينيون إننا دولة خرجت من الهند الصينية بسبب خمسين ألف رجل، وتخرج الآن من أنجولا بسبب أقل من خمسين مليون دولار(٩٦).**

وبدلا من تحويل انتباهه إلى أى أمر آخر - كما كان قد يفعل فى وقت آخر أفضل - ويسحب معه انتباه الصحافة الأمريكية، ظل كيسنجر فى ربيع ١٩٧٦ يجمع المقاومة لما اعتبره اختراقا سوفيتيا لأفريقيا. وأخبر مجلس الأمن القومى فى أوائل أبريل أن:

> **لابد أن نركز على المفاهيم الاستراتيجية، سياستنا تجاه أفريقيا شيء والفعل السوفيتى الذى قد يأتى من خلال فيتنام الشمالية أو كوبا شيء آخر. ولو قبلنا بهذا المبدأ، فإن ذلك سيمثل خطورة شديدة بالنسبة لنا. وسوف تكون هناك مشكلة حقيقية لو بقى الوجود الكوبى فى أفريقيا. فى الفترة من ١٩٧٠- ١٩٧٣ نجحنا فى إحباط السوفيت فى الشرق الأوسط فاضطر العرب فى النهاية أن يلجأوا إلينا، وسوف نحاول أن نقترب من طموحات الشعوب السوداء فى أفريقيا، ولكن ليس كرد فعل للضغوط الكوبية[٩٧].**

فى أبريل ذهب كيسنجر إلى أفريقيا بنفسه - لأول مرة بعد سبع سنوات من وجوده فى منصب مستشار الأمن القومى ووزير الخارجية. كان هدفه الأساسى هو أن يجد حلا داخليا متفاوضا عليه للصراع فى زيمبابوى، لكى يمنع تطور الموقف على النحو الذى حدث فى أنجولا. وقال للرئيس قبل أن يغادر: "لو تدخل الكوبيون فى هذا الموقف، فإن ناميبيا ستكون التالية، ثم جنوب أفريقيا نفسها. علينا أن نكبد السوفيت ثمنا باهظا. لو تحرك الكوبيون فرأيى أن نتصرف بقوة. لا يمكن أن نسمح بخطوة أخرى بدون المعاناة من خسارة كبرى"[٩٨]. أثناء الرحلة، التقى كيسنجر بأهم الزعماء الأفارقة، بمن فيهم الزعيم التنزانى جوليوس نيريرى الذى

استشعر عدم الارتياح لدى ضيفه من الموقف بعد أنجولا. وقال نيريرى: "إننا نريد الضغط على النظام فى روديسيا [زيمبابوى]

> **نريد الضغط على ڤورستر بشأن ناميبيا، ومن أجل التغيير فى جنوب أفريقيا. لا يمكننا أن نعيش وجنوب أفريقيا على حالها هذا. أما بالنسبة لما يمكنكم أن تفعلوه، فأحيانًا يكون ما نطلبه مبالغًا فيه بالنسبة لحدود النظام القديم. فقد لا تستطيعون أن تعطونا أسلحة، ولكن ماذا يمكنكم أن تعطونا؟ نأمل أن تجيبوا عن هذا السؤال، ليس فى حدود إمكاناتكم، وإنما فى حدود نظامكم[٩٩].**

ومن الملاحظ أن استجابة كيسنجر لمطالب الزعماء الأفارقة بعد أن عاد إلى واشنطن كانت هي محاولته أن يعيد تنشيط علاقته مع جنوب أفريقيا. بدأ چون ڤورستر المتشكك، الذى هوجم فى الداخل بسبب ثقته بالأمريكيين فى مسألة أنجولا، بدأ يتلقى طلبات من خلال سفارته في واشنطن، بشأن تعاون بريتوريا فى زيمبابوى. وحاول كيسنجر فى هذه المرة أن يتحدث إلى الجنوب أفريقيين حديثًا معسولا حيث أشار إلى أن الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا كانا يعانيان من المشكلة نفسها مع السكان الأصليين، "وإن كنا نوظف وسائل مختلفة". وأكد للسفير الجنوب أفريقى بيك بوثا ***Pik Botha*** بأنه "لو كان مكانى لما سمح أيضًا بصوت لكل مواطن". وحاول إغراء ڤورستر بـ"حل مشكلة استقلال ترانسكاى عن طريق الحنكة السياسية... حيث كل المشاكل القائمة بين البيض والسود، يمكن فيها السيطرة على الموقف السياسى"[١٠٠]. ومع وجود ثورة سويتو ***Soweto***، حاول ڤورستر أن يستخدم كيسنجر لاستعادة بعض مكانته الداخلية المفقودة بالموافقة على

مقابلة وزير الخارجية ثلاث مرات فى منتصف ١٩٧٦ لبحث مسألتى زيمبابوى وناميبيا. كان فورستر يريد حلا داخليا فى زيمبابوى على أسس جنوب أفريقية، وذهب كيسنجر إلى درجة أن وعده بالقيام بذلك أثناء المحادثات مع الزعيم الروديسى يان سميث ***Ian Smith*** فى بريتوريا فى منتصف سبتمبر. ولكن فى ذلك الحين كان الوقت قد انتهى بالنسبة لكيسنجر، الذى لم يكن على يقين إن كان سيبقى فى منصبه أم لا، حتى إذا كسب الرئيس فورد انتخابات الرئاسة الأمريكية فى الثانى من نوفمبر.

فى منطقة واحدة فقط ساعدت استراتيـــجية "الشرطى" الأمريكيين فى منع التغير الجذرى بعد انهيار الإمبراطورية البرتغالية. فعندما قامت المستعمرة البرتغالية السابقة "تيمور الشرقية" فى الجنوب الشرقى من آسيا بالقرب من الهند الصينية بإعلان استقلالها تحت حكم منظمة التحرير اليسارية "الجبهة الثورية لتيمور الشرقية المستقلة" ***Frente Revolucionária de Timor-Leste Independente*** ***(FRETILIN)*** هددت الهند الصينية بالتدخل فورًا. وعلى عكس ما حدث أثناء حكم سوكارنو، عندما عارضت الولايات المتحدة التوسع بالهند الصينية، فإنها فى هذه المرة فى عهد فورد وكيسنجر كانت ترى أن خطط الدكتاتور اليمينى سوهارتو هبة من السماء. وعندما طلب دكتاتور الهند الصينية من الرئيس فورد فى ديسمبر ١٩٧٥ – أثناء زيارة جـــاكرتا بعد العودة من المؤتمر الأقل من ناجح مع ماو فى بكين – "أن تتفهم الولايات المتحدة الموقف لو أننا تصرفنا بسرعة وعنف"، أجابه الرئيس فورد: "سوف نتفهم المشكلة ولن نقوم بالضغط عليكم فى هذا الأمر. إننا نتفهم مشكلتكم ونتفهم نواياكم." وأضاف كيسنجر: "من المهم أن ينجح ما تقومون به سريعًا. سنكون قادرين على التأثير على رد الفعل فى أمريكا لو حدث بعد عودتنا. فبهذه الطريقة لن تكون هناك فرصة كبيرة ليتحدث الناس بأسلوب غير مسئول... إننا نتفهم مشكلتكم وحاجتكم إلى التصرف السريع، لكن كل ما أقوله إنه

من الأفضل الانتظار حتى نعود[١٠١]. قد تحرك الجيش من الهند الصينية فى منتصف ديسمبر، وهزم الجبهة الثورية لتيمور الشرقية المستقلة ***FRETILIN***، ووحد تيمور الشرقية مع الهند الصينية. وقد رأى كيسنجر – وقد أصبح يزداد يأسًا وعدم كفاءة فى منصبه – أن الغزو والاستيلاء على تيمور الشرقية علامة على نجاح بعض سياساته فى الحرب الباردة، حتى وإن كان دوره يتعرض للمزيد من الضغوط فى الداخل والخارج.

جاء الهجوم الأمريكى الداخلى على التهدئة فى عام ١٩٧٦ من زوايا متعددة. فقد بدأ وزير الدفاع دونالد رمسفيلد ***Donald Rumsfeld*** والبنتاجون يتفحصون بعض شروط معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيــچية ***SALT II***، التى كان الرئيس فورد قد وقعها فى لقاء القمة بينه وبين ليونيد بريــچينيــف فى ڤلاديــڤوستوك فى نوفمبر ١٩٧٤. وفى العملية التى أدت إلى الترشح الجمهورى للرئاسة فى أغسطس، قام محافظ كاليفورنيا رونالد ريجان، وهو من المحافظين الجدد، بتحدى فورد، وقد بنى ريجان حملته على نقد جذرى للتهدئة التى مارسها نيكسون وخلفاؤه.

> **إن أمتنا فى خطر، والخطر يزداد كــل يــوم... والآن يقال لنا إن واشنطن ستلغى كلمة التهدئــة *détente*، لكنها ستحتفظ بسياسة التهدئة نفسها. ولكن أيا كــان اسمها، فهذه السياسة هى فــى حــد ذاتهــا مكمــن الخطأ... والآن علينا أن نتساءل عما إذا كــان هنــاك من يضحى بحريتنا. لقد ورد علــى لــسان الــدكتور كيسنجر قوله إنه يعتقد أن الولايات المتحدة هى أثينــا والاتحاد السوڤيتى أسبرطة. لقد مضى يوم الولايــات**

المتحدة واليوم هو يوم الاتحاد السوفيتى". ثم أضاف "...إن عملى وزيرًا للخارجية هو أن أتفاوض حول أفضل مكان ثان متاح". حسن، إننى أعتقد فى السلام الذى تحدث عنه السيد فورد شأنى شأن أى رجل. ولكن السلام لا يأتى نتيجة للضعف أو التراجع. إنه يأتى من استعادة التفوق العسكرى الأمريكى[١٠٢].

ونجا فورد من معركة الترشح، لكى يخسر الانتخابات لـ چيمى كارتر، المحافظ الجنوبى ذى الخبرة الأقل من الرئيس فورد نفسه فى السياسة الخارجية. وبينما كان على فورد وكيسنجر أن يجيبا عن أسئلة حرجة تسألها الصحافة عن التهدئة، حاول كارتر أن يكون مع فورد وضده فى الآن نفسه، حيث ادعى أن معارضه "حاول أن يبدأ ڤيتنامًا جديدة فى أنجولا، وكانت صيحة الشعب الأمريكى والكونجرس عندما اكتُشف أمر صفقتنا السرية، هى ما منع تورطنا فى تلك الأزمة". ولكنه، من الناحية الأخرى، كان يشتكى من "أننا أصبحنا نخاف من التنافس مع الاتحاد السوفيتى على قدم المساواة. إننا نتحدث عن التهدئة. والاتحاد السوفيتى يعرف ما يريده منها... وقد كنا نستَغل فى كل لحظة"[١٠٣].

فتح انتخاب كارتر فترة من عدم اليقين فى علاقات القوى العظمى. لقد كان الرئيس الجديد يريد أن يحسن العلاقات مع السوفيت وأن يركز على سياسة خارجية أكثر أخلاقًا، فيما يخص العالم الثالث أيضًا. ولشكه العميق فى العمليات السرية كأدوات للسياسة، كان كارتر يريد أن يؤكد حقوق الإنسان وما يعتبره مبادئ أيديولوجية أمريكية فى مكافحة الشيوعية وغيرها من أشكال الحكومة السلطوية. لم يعرف السوفيت ماذا يمكن أن يتوقعوا، وبعد ثمانى سنوات من نيكسون وكيسنجر – بقى الكثير من قادة العالم الثالث يتشككون فى دوافع أمريكا. كان مستشارو

السياسة الخارجية الرئيسيين وزير الخارجية سيروس ڤانس *Cyrus Vance* ومستشار الأمن القومي زبيجنيو بريجنسكي *Zbigniew Brzezinski* على خلاف ربما من اللحظة التي أقسمت فيها الإدارة اليمين. لقد كان ڤانس، وهو سياسي لطيف ذو خبرة من إدارتي كينيدي وجونسون، يفضل التركيز على استمرار التهدئة وتوسيعها مع الاتحاد السوڤيتي، خاصة فيما يخص مسألة الحد من الأسلحة وأوروبا. أما بريجنسكي، المهاجر والمفكر البولندي الذي أصبح مواطنًا أمريكيا في ١٩٥٨ فقد فضل منهجا أشد حدة مع السوڤيت ومع الشيوعية بوجه عام. كان بريجنسكي مهتما بنوايا موسكو في العالم الثالث على وجه الخصوص. ففي مذكرة كتبها في ١٩٧٦ لكارتر، الرئيس المستقبلي، حذر مستشار الأمن القومي المستقبلي من أن

> **الزعماء السوڤيت ذكروا صراحة أن المراد من التهدئة هو زيادة "العملية الثورية بالعالم"، وهم يرون التهدئة الأمريكية السوڤيتية، لا كوسيلة للحفاظ على السلام فحسب، بل كأسلوب لخلق الظروف الملائمة لوصول الأحزاب الشيوعية إلى السلطة أيضًا، خاصة مع ما يسمى الأزمة المتفاقمة للرأسمالية... [لابد لنا من أن] نوضح للاتحاد السوڤيتي بما لا يدع مجالا للخطأ أن التهدئة تحتاج تصرفات مسئولة منهم في القضايا الجوهرية الخاصة بالنظام العالمي، فهي لا تتواكب مع التصرفات غير المسئولة في أنجولا والشرق الأوسط والأمم المتحدة[١٠٤].**

هوامش الفصل السادس

(١) اقتباس عن *Verwoerd*

T. R. H. Davenport and Christopher Saunders, South Africa: A Modem History (5th edn; Houndsmills: Macmillan, 2000), p. 392.

(٢) تسجيل المحادثة بين راسك وكيتانو، ١٩ نوفمبر ١٩٦٨، العلاقـات الخارجيـة للولايـات

المتحدة الأمريكية *FRUS*، ١٩٦٤-١٩٦٨ *vol. XII.*

(٣) "، كتبت فى السجن فى لشبونة فى ١٩٦٠، فى

Sacred Hope: Poems by Agostinho Neto,

ترجمة

Marga Holness (London: Journeyman, 1988), p. 129.

من أجل مراجعات مختلفة عن تاريخ مبلا من وجهتى نظر مختلفتين انظر:

Lucio Lara, Documenios c coniciiiurios parti a historia do MPLA (Lisbon: Dom Quixote, 2000),

و

Mario Pinto de Andrade, in collaboration with Jose Bduardo Agualusa, Origens do nacionalismo africano: continuidade e ruptura nos movimentos unitarios emergentes da luta contra a dominacao colonial portuguesa, 1911-1961 (The Origins of African Nationalism: Continuity and Change in the Unified Movements that Emerged from the Struggle against Portuguese colonial Domination, 1911- 1961) (Lisbon: Dom Quixote, 1997).

(٤) مقابلة فى الاجتماع الثانى المنظمات الوطنية التابعة للمستعمرات البرتغالية

CONCP (Conferencia das Organizacoes Nacionalistas das colonias Portuguesas),

٣ - ٨ أكتوبر ١٩٦٥. الوثيقة ملكية خاصة للكاتب، مترجمة من الفرنسية

(٥) المجموعة الدولية من أجل أفريقيا (مجلس الأمن القومى) ، دراسة أجريت اسـتجابة إلـى

المذكرة ٣٩: جنوب أفريقيا، ٩ ديسمبر ١٩٦٩ *DDRS*

Interdepartmental Group for Africa (National Security Council,)

(٦) ملاحظات حول المحادثات بين وزير الخارجية ووزير خارجية أمريكـا، د. كيسنجر ، ٥

أكتوبر ١٩٧٣، أرشيف إدارة جنوب أفريقيا بوزارة الخارجية *South African Department*

of Foreign Affairs Archives (SADFAA)، *1/33/3, vol. 31.*

(٧) *Piero Gleijeses, Conflicting Missions: Havana, Washington, and Africa, 1959-1976 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002), p. 187.*

(٨) وردت فى المصدر السابق ص. ١٨٩

(٩) قال بريـجينيـف لعضو المكتب السياسي البولندى زينون كليسكو *Zenon Kliszko* فى ٢٤ يونيو ١٩٦٧ "قلنا له [كاسترو] صراحة إن الكثير مما يفعلونه يمثل خطورة [و] إننا غيـر متفقين على الكثير من الأمور" (تسجيل المحادثة فى *CWIHP e-dossier no. 13* على موقـع *http://wwics.si.edu*

(١٠) تقرير من *GDR Ministerium fur Auswärtige Angelegenheiten*، باسم *"Einige Aspekte der politisch-ideologischen Entwicklung in Kuba,"* ، ٢١ أبريل ١٩٧١، *Stiftung Archiv der Parteien und Massenorganisationen in Bundesarchiv, Berlin(hereafter SAPMO-BArch), DY30 J IV 2/2J/3429*، التقرير الرناسى حول العلاقات الكوبية اليوغوسلافية ، ٢٣ مايو ١٩٦٦

Arkhiv Srbijei Cme Gore (hereafter ASCG), A CK SKJ IX, 67-148.

(١١) من دولوس *Dohlus* إلى هونيكر *Honecker* ، ٣ يوليو ١٩٧٣، مع تسجيل المحادثة بين دولوس راعول كاسترو ، ٢٢ يونيو ١٩٧٣،

SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/4800.

(١٢) مقابلة مع بروتنتس ،١٧ ديسمبر ١٩٩٤؛ انظر أيضا تقرير *GDR Abteilung Internationale Vertretungen (hereafter AIV)* إلى مكتب *SED* السياسى بشأن جنوب أفريقيا ، ٣٠ يناير ١٩٧٥

SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/5652

(١٣) المخابرات الروسية إلى اللجنة المركزية ،١٣ أبريل ١٩٧٠

Rossiiskii gosudarstvenni arkhiv noveishei istorii (hereafter RGANI), f. 5, op. 62, d. 535, pp. 7-9.

هذا التقرير الذى هو بالأساس تحليل للاستعدادات لمؤتمر القمة الثانى لدول عدم الانحياز فـى لوساكا، يشير أيضا إلى أن هذا المؤتمر سيكون خطوة نحو الدبلوماسـية الـسوفيتية، وأن تأثير الصين بدأ يضعف وأن الولايات المتحدة تزداد انعزالا عن العالم الثالث. انظـر أيـضا المخابرات الروسية (أندروبوف) إلى اللجنة المركزية ، ٦مايو ١٩٧٠ ، المصدر الـسابق ص. ٣٢-٣٥. حول تأثير المخابرات الروسية فى فكر بريـجينيف، انظر المقابلة الصحفية مع أوليج ترويانوفسكى *Oleg Troianovskii*، سفير الاتحاد الـسوفيتى الأسـبق فـى الأمـم المتحدة ، موسكو ١٤ سبتمبر ١٩٩٢.

(١٤) المخابرات الروسية إلى اللجنة المركزية ، ٤ يونيو ١٩٧٠ *RGANI, f. 5, pp. 62, d. 536,* *pp. 73-76* المخابرات الروسية (شبروكوف) إلى اللجنة المركزية ، ٢٦ نوفمبر ١٩٧٠ *RGANI, f. 5, op. 62. d- 535. pp-115-188*. التقرير التالى وضع على أساس تقييم السياسات الأوروبية تجاه البرتغال، وأساسها تحليل المادة من الحزب المحافظ البريطانى. فى تقرير كبير عن استراتيجيات الولايات المتحدة فى أفريقيا أشارت *GRU* إلى أن القارة الأفريقية قد أصبحت أكثر أهمية للأمريكيين من حيث كل من الاستراتيجية والموارد الطبيعية. وقالت إن "الدول الرأسمالية تمارس ضغوطا على الدول الأفريقية حتى تدخل فى اتفاقيات رئيسية وخطط مساعدات عسكرية" (المصدر السابق ص.٧١-٩٠، ٦٠)

(١٥) - رئيس أركان القوات المسلحة للاتحاد السوفيتى (رئيس إدارة المخابرات؛ يرمز إليها هنا *GRU*) إلى اللجنة المركزية ، ١٥ سبتمبر ١٩٧٠ *RGANI, f. 5, op. 62, d. 535, pp. 63-68*، حول الإجراءات والاتجاهات لإضعاف مواقف الصين فى أفريقيا. المصدر السابق ص.٩٦-١٠١.

(١٦) المخابرات الروسية (أندروبوف) إلى اللجنة المركزية ، ٦مايو ١٩٧٠ ، المصدر السابق ٣٢-٣٥، ٣٥.

(١٧) تقرير إدارة المخابرات حول أنشطة الصين العسكرية و الاقتصادية و السياسية فى أفريقيا، ١٥ سبتمبر ١٩٧٠، المصدر السابق صز٦٣-٦٨، ٩٦-١٠١

(١٨) تقرير من أحد المؤتمرات الدولية للأحزاب الشيوعية وأحزاب العمال ، موسكو ،١٩٦٩، تسجيلات من المؤتمر الأفريقى *ANC*، لندن *Mayibuye Archives, University of the Western Cape, Bellville, South Africa (hereafter ANC papers, MA-UWC), box 21 (SACP; ANC: Dr. Y. Dadoo).*، انظر أيضا الأرشيف الألمانى ، تقرير حول زيارة يوسف دادو إلى ألمانيا الشرقية ٢٩-٣٠ نوفمبر ١٩٧٣ (بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٧٣) *SAPMO-BArch DY30 J IV 2/2J/5069.* من أجل نظرة سوفيتية حول الموقف داخل أفريقيا الشمالية انظر *GRU* إلى المكتب السياسى، (القدرات العسكرية والاقتصادية لجمهورية جنوب أفريقيا) *RGANI, f. 5, op. 62, d.535,pp.38-62.*

(١٩) *Vladimir Shubin, ANC: A View from Moscow (Belleville, South Africa: Mayibuye Books, 1999), pp. 84-100, and Joe Slovo, "Thoughts on the Future of the Alliance," April 1969, ANC papers, MA-UWC, box 21 (SACP, ANC: Dr. Y. Dadoo).* انظر أيضا

GRU إلى اللجنة المركزية، ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ حول المحاولات السوفيتية لإعادة وضع بعض مقاتلي الحزب الوطني الأفريقي في دول أفريقية أخرى ، الجزائر مثلا. في:
RGANI, f. 5, op. 62, d. 535, pp. 92-94

(٢٠) من *V. N. Bezukladnikov* (المستشار بلوساكا) إلى اللجنة المركزية والخطاب المرفق من نيتو إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي فيما يتعلق بمطلبهم لاستقبال أعضاء MPLA للتدريب العسكري، ٢٤ يونيو ١٩٧٠
RGANI, f. 5, op. 62, d. 535, pp. 99-102; D.Z. Belokolos to MO, 14 July 1970, RGANI, f. 5, op. 62, d.536, pp.195-200.

(٢١) من بلوكلولوس إلى اللجنة المركزية، ٢٥ يوليو ١٩٧٠ *RGANI, f. 5, op. 62, d. 536, pp. 215-218;* ، السفارة، لوساكا إلى اللجنة المركزية ، المكتب السياسي: (وجهات نظر حول تطور كفاح الشعب الأنجولي ضد المستعمرين البرتغاليين) (أكتوبر ١٩٧٠) المصدر السابق ص. ٢١٩–٢٢٨، ٢٢٤. لازالت المخابرات السوفيتية تشك بأن نيتو قد جعل الخيار الصيني احتياطيا؛ انظر تقارير المخابرات السوفيتية إلى اللجنة المركزية ، ٨ أكتوبر ١٩٧٠، المصدر السابق ٢١٢.

(٢٢) السفارة السوفيتية، كينشاسا إلى اللجنة المركزية ، ١٦ يناير ١٩٧٣، (حول مسألة المصالحة بين FNLA و MPLA ، *RGANI, f. 5, op. 66, d. 843, pp. 4-9* ، من بلوكلولوس إلى اللجنة المركزية، ١٠ أكتوبر ١٩٧٣، *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, pp. 121-123.*

(٢٣) رسالة من نيتو إلى السفارة السوفيتية ، زامبيا، ٧ ديسمبر ١٩٧٢، مع التعليقات المرفقة، *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, pp. 2-5.*

(٢٤) *John Marcum, The Angolan Revolution, vol. II, Exile Politics and Cluerrilla Warfare, 1962-1976 (Cambridge, MA: MIT Press 1978), p. 199.*

(٢٥) MPLA (من بدرو فان دنم) إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، ١١ديسمبر ١٩٧٢، *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, p. 22;* كينشاسا إلى اللجنة المركزية ، ١٦ يناير ١٩٧٣ (حول مسألة المصالحة بين FNLA و MPLA) *RGANI, f. 5, op. 66, d. 843, pp. 4-9*. السفارة السوفيتية ، كينشاسا إلى اللجنة المركزية، ١٢ أبريل ١٩٧٣؛ من نيتو إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، ٢٣ يونيو ١٩٧٣ *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, p. 91P* ,من بلوكلولوس إلى اللجنة المركزية، ٧ فبراير ١٩٧٤ (محادثة مع دانيال شابيندا) *RGANI, f. 5, op. 67, d. 758, pp. 5-8.*

(٢٦) من بلوكلولوس إلى اللجنة المركزية، ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, pp. 118-120;* من أ.إ. أفاناسنكو *E. I. Afanasenko* السفير فى برازافيل إلى اللجنة المركزيــة، ٣٠ مارس ١٩٧٤،المكتب السياسى ، (حول الموقف فى الحركة الشعبية لتحريــر أنجــولا ميلا *MPLA*، *RGANI, f. 5, op. 67, d. 758, pp. 37-45, 40.*؛ انظر أيــضا محادثــة الــسفير بلوكلولوس مع أوليـفر تامبو، ٥ يوليو ١٩٧٣، حيث يناقشون التوقعات المستقبلية لحركة *MPLA*، *RGANI, f. 5, op. 66, d. 844, pp. 82-86.*

(٢٧) تقرير *AIV* إلى المكتب السياسى *SED* حول مدة مكوث نيتو فى ألمانيا الشرقية ١٤-٢٧ نوفمبر ١٩٧١، *SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/3880.*

(٢٨) *Antonio de Spinola, Portugal e o future: analise da conjuntura nacional*

البرتغال والمستقبل: تحليل حول وجهة النظر القومية)(ليزبون: أركاديا، ١٩٧٤).

(٢٩) حول مواقف مخططى الانقلاب واهتماماتهم انظر:

Manuel Bernardo, Equivocos e reaUdades: Portugal, 1974-1975 (2 vols.; Lisbon: Nova arraucada, 1999),

مانويل برناردو، مراوغات وحقائق: البرتغال ١٩٧٤-١٩٧٥وانظر أيضا

Jaime Nogueira Pinto, O Fim do estado nova e as origins do 25 de April

چيمى نوجورا بينتو، النظام الجديد وجذور الخامس والعشرين من أبريل

(The New Order and the Origins of 25 April) (2nd edn; Lisbon; DIFEL, 1995).

(٣٠) حول الأعراض الأمريكية فى البرتغال قبل انقلاب أبريل، انظر تــسجيل اجتمــاع صــف الأركان، ٢٨ يناير ١٩٧٤، مكتبة محفوظات المواد الرئاسية لنيكسون *Nixon Presidential Materials Protect* ويرمز لها فيما بعد *NPMP*. وأنا مدين بالشكر لماريو دل بيرو لإرشادى إلى هذه الوثيقة والوثيقة الأخرى التى تحتها.

(٣١) تسجيل المحادثة بين كيسنجر وبدرو كورتينا مورى *Pedro Cortina Mauri*، ٩ أكتــوبر ١٩٧٤، *NPMP*

(٣٢) القائم بالأعمال بسفارة دار السلام *Iu-A- Iukalov* إلــى اللجنــة المركزيــة ، ٢٢ مــايو ١٩٧٤، *RGANI, f. 5, op. 67, d. 758, pp. 70-71* ؛ أفانسنكو إلى اللجنة المركزية ، ٨ يونيو ١٩٧٤، المصدر السابق ٧٨-٨١.

(٣٣) *Marcum, Angolan Revolution, vol. n, pp. 245-248*

(٣٤) Ibid., pp. 249-250, George Wright, US Policy Towards Angola: The Kissinger Years, 1974-1976 (Leeds: University of Leeds Press, 1990), pp. 18-23.

(٣٥) أفاتسنكو إلى اللجنة المركزية ، ١٠ أكتوبر ١٩٧٤، RGANI, f. 5, op. 67, d. 758, pp. 121-122. انظر أيضا

Marcum, Angolan Revolution, vol. II, pp. 251-253

(٣٦) Marcum, Angolan Revolution, vol. II, p. 253; Michael Wolfers and Jane Bergerol, Angola in the Front Line (London: Zed Books, 1983), pp. 109-122 يقدمان وجهة نظر MPLA في الأحداث

(٣٧) من أفاتسنكو إلى اللجنة المركزية ، ٤ ديسمبر ١٩٧٤ RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 11-12. ويصح استنتاج ريموند جارتهوف بأن القرار السوفيتي "سبق التمويل الأمريكي في يناير ١٩٧٥، رغم أنه قد يكون قد تلا مجهودات FNLA العسكرية في نوفمبر:

Detente and Confrontation: American-Soviet Relations from Nixon to Reagan [rev. edn; Washington, DC: Brookings Institute, 1994], p. 507).

(٣٨) من السفارة السوفيتية في برازافيل إلى اللجنة المركزية ، ٢٥ ديسمبر ١٩٧٤

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941,pp. 10-21, 21, 17.

(٣٩) بشأن رد الفعل السوفيتي حول ألفور انظر تسجيل المحادثة بين السفير السوفيتي إلى تنزانيا S.A. Slipchenko وممثلى لمزمع أوليفر تامبو Oliver Tambo من المؤتمر الوطني الأفريقي ، ٢١ مارس ١٩٧٥. RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982، انظر أيضا

Marcum, Angolan Revolution, vol. II, pp. 257-258; Garthoff, Detente and Confrontation, pp. 533-534.

(٤٠) من ب. بوتيلين (سكرتير أول ، السفارة السوفيتية ، برازافيل) إلى اللجنة المركزية، (أواخر يناير ١٩٧٥) ;RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, pp. 10-21، من أفاتسنكو إلى اللجنة المركزية، ٣٠ يناير ١٩٧٥ RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, p. 26. كان الدعم المباشر لهولدن روبرتو – الذي ارتبط مع المخابرات الأمريكية CIA بـ"علاقة جمع معلومات" انحصرت لتمثل "أداة غير فتاكة" حتى يوليو ١٩٧٥ ("النقاط التي تحدث عنها وزير الخارجية كيسنجر. اجتماع الأمن القومي بشأن أنجولا، الجمعة، ٢٧ يونيو، ١٩٧٥"، أرشيف الأمن القومي حول أنجولا). نجد في كتاب روبرت جيتس معلومات مفيدة عن مبادرات المخابرات المركزية بشأن أنجولا.

Robert E. Gates, From the Shadows: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and how they Won the Cold War (New York: Simon & Schuster, 1996), pp. 65-69

(٤١) سليشنكو إلى اللجنة المركزية ، ٦ فبراير ١٩٧٥، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp. 48-54, 51*؛ سليشنكو إلى اللجنة المركزية، ٢٤ أغسطس ١٩٧٥، *ibid., pp. 238-246*

(٤٢) السفارة السوفيتية، برازافيل إلى اللجنة المركزية، ١٤ أبريل ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, pp. 50-53, 53.* بشأن العلاقات بين المجموعات الأنجولية انظر

Franz-Wilhelm Heimer, The Decolonization Conflict in Angola, 1974-76: An Essay in Political Sociology (Geneva: Institut Universkaire de Hautes Etudes Internationales, 1979).

(٤٣) القائم بالأعمال بسفارة دار السلام ڤ. ڤ. ألدوشين *V.V. Aldoshin* إلى اللجنة المركزية، ٢٠ أبريل ١٩٧٥؛ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp. 153-156*؛ المعهد الأفريقي، أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي) إلى اللجنة المركزية، ١٩ يونيو ١٩٧٥ (القضاء على الاستعمار في أنجولا وسياسات القوى الاستعمارية)، السفارة السوفيتية، برازافيل، إلى اللجنة المركزية، ١٤ أبريل ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, pp. 50-53*.

(٤٤) لقاءات مع خبراء في الشأن الصيني الأفريقي، بكين، مايو ٢٠٠٤.

(٤٥) سليشنكو (السفير السوفيتي إلى دار السلام) إلى اللجنة المركزية، ٣٠ ديسمبر ١٩٧٤ (المحادثة مع أوسكار أوراماس *Oscar Oramas*، وزارة الخارجية الكوبية، السفير إلى لواندا لاحقا) *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp. 3* . أفانسنكو إلى اللجنة المركزية، ١٠ يناير ١٩٧٥ (محادثة مع السفير الكوبي كولومبي ألفارز *A. Columbie Alvarez*، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 17-18.* انظر أيضا

Jorge I. Dominguez. To Make a World Safe for Revolution: Cuba's Foreign Policy (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989), pp. 130-137;

و *William M. LeoGrande, "Cuban-Soviet Relations and Cuban Policy in Africa," Cuban Studies, 10.1 (January 1980): 1-48.*

(٤٦) تقرير *AIV* حول الموقف في جنوب أفريقيا، ٣٠ يناير ١٩٧٥، *SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2J/5652.*

(٤٧) *Nina D. Rowland, "The United States and Angola, 1974-88: A Chronology," in Department of State Bulletin, 89.2143 (February 1989): 16-19; John Stockwell, In Search of Enemies: A CIA Story (London: Andre Deutsch, 1978), pp. 40-57*

انظر أيضا حوار مساعد وزير الخارجية للشئون الأفريقية ناثنيل ديفيس *Nathaniel Davis* إلى وكيل الوزارة جوزيف سيسكو *Joseph J. Sisco* ، ١٢ يوليو ١٩٧٥، وسيسكو إلى نائب مستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت *Brent Scowcroft* ، ١٥ يوليو ١٩٧٥. بالإضافة إلى المساعدات الأمريكية المدنية والمساعدات العسكرية والمالية التي منحها حلفاء الولايات

المتحدة فى المنطقة ، وخاصة زائير. (الجلسة أمام اللجنة الفرعية حول أفريقيا من اللجنة حول العلاقات الدولية، مجلس النواب، الاجتماع رقم ٩٥، الجلسة الثانية، ٢٥ مايو ١٩٧٨؛ انظر أيضاً *Garthoff, Detente and Confrontation, pp. 560-570.*

(٤٨) *Stockwell, In Search of Enemies*

(٤٩) أدين بالشكر للسفير ديفيد توتهيل *David Tothill* لمناقشته هذه الجوانب من السياسة تجاه جنوب أفريقيا معى.

(٥٠) بوثا إلى وزير الخارجية فى بريتوريا ، ٨ يناير ١٩٧٥

SADFAA, 1/33/3, vol. 30.

(٥١) السفارة، واشنطن، إلى بريتوريا، اللقاء مع كولبى ووالترز، ٢٥ مارس ١٩٧٥، المصدر السابق.

(٥٢) مكتب أمن الدولة إلى وزير الخارجية، "عندما يصبح اللامعقول حتمياً" ١٦ سبتمبر ١٩٧٥ *SADFAA, 1/33/3, vol. 31;* مالون *E.M. Malone* إلى وزارة الخارجية، ٦ يونيو ١٩٧٥ *SADFAA, 1/22/3, vol. 5;* ومالون إلى وزارة الخارجية، ٢٣ أبريل ١٩٧٥ *SADFAA, 1/22/3, vol. 5.* انظر أيضا كوتزى *Coetzee* إلى وزير الخارجية ، ٥ يونيو ١٩٧٥ حول التأثير فى بوتيتا.

(٥٣) بشأن تقرير وزارة الخارجية الجنوب أفريقية فى يونيو ويوليو ١٩٧٥، انظر *SADFAA, 1/22/3, vols. 5 and 6.* بشأن المراجعات الجيدة للمؤرخين العسكرين الجنوب أفريقيين ممن كانت لهم اتصالات مع أرشيف قوات الدفاع الجوى بالبلاد، انظر:

Peter Stiff, The Silent War: South African Recce Operations 1969-1994 (Cape Town: Galago, 1999),

و *Hilton Hamann, The Days of the Generals: The Untold Story of South Africa's Apartheid-Era Military Generals (Cape Town: Zebra Press, 2001).*

(٥٤) من سفير جنوب أفريقيا بيوكز *Beukes* واشنطن العاصمة ، إلى وزير الخارجية، كيب تاون، "مسألة أنجولا والتطورات المحتملة فى العلاقات الأمريكية / الجنوب أفريقية بسببها" ٩ فبراير ١٩٧٦ *SADFAA, 1/33/3, vol. 32.* . رسائل السفارة من واشنطن إلى وزارة الخارجية فى كيب تاون وبروتريا، "أزمة الإدارة فى الولايات المتحدة وتأثيرها على العلاقات مع جنوب أفريقيا" ٢٦ فبراير ١٩٧٦، المصدر السابق. حول جميع الاتصالات بين الولايات المتحدة وجمهورية جنوب أفريقيا، انظر "الولايات المتحدة الأمريكية: المزيد من تطورات الموقف فى ١٩٧٤/٧٥

n.d., SADFAA, 1/33/3, vol. 31.

"The United States of America: Further Developments of the Situation in 1974/75," n.d., SADFAA, 1/33/3, vol. 31.

(٥٥) أفانسنكو إلى اللجنة المركزية، ١٤ يونيو ١٩٧٥؛ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, p. 137*

وأفانسنكو إلى اللجنة المركزية *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 180-182.* حول الصعوبات التى واجهها السوفيت مع الكونغو انظر أيضا:

AIV, "Zur internationalen Position der VR Kongo," n.d. (1974), SAPMO-BArch, DY-30/IV B 2/20/293.

(٥٦) أفانسنكو إلى اللجنة المركزية، ٤٠ يونيو ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 8, d. 1962, pp. 136-138*؛ سليشنكو إلى اللجنة المركزية، ١٠ فبراير ١٩٧٥

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp.44-47, 46.

(٥٧) نواموف (المستشار، دار السلام) إلى اللجنة المركزية،٢ أغسطس ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp. 226-227*. تسجيل المحادثة بين أفانسنكو ورئيس الوزراء الكونغولى هنرى لوبيز *Henri Lopez*، ١٧ يونيو ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 113-114*، حول الدور الكوبى، انظر بوتيلين إلى اللجنة المركزية، ١٤ أبريل ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, pp. 50-53*، انظر أيضا

Edward Gonzalez, "Cuba, the Soviet Union, and Africa," in David E. Albright, Communism in Africa (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1980).

(٥٨) ماناسوف *M.A. Manasov* (القائم بالأعمال بالسفارة فى هافانا) إلى اللجنة المركزية، ١٥ أغسطس ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, p. 122*. هذه الوثيقة بمثابة تسجيل للمحادثة بين ماناسوف وأوسكار سنفيوجوس أحد مساعدى فيدل كاسترو الذى أوصل رسالة الزعيم الكوبى إلى السفارة السوفيتية. لم يمكن العثور على نسخة من الرسالة نفسها فى سجلات اللجنة المركزية. مقابلة چورچى م.كومينكو *Georgi M. Komienko*، أول نائب وزير خارجية سوفيتى مع المؤلف، موسكو، ٥ أكتوبر ١٩٩٣؛ المقابلة الصحفية مع برونتنس، ٣ أكتوبر ١٩٩٤؛ برونتنس فى:

Odd Arne Westad, ed.. Workshop on US-Soviet Relations and Soviet Foreign Policy Toward the Middle East and Africa in the 1970s (oral history transcript, Lysebu, 1-3 October 1994; Oslo: Norwegian Nobel Institute, 1994) (hereafter "Lysebu I), pp. 68-69.

(٥٩) دياز أرجولز إلى كاسترو، ١١ أغسطس ١٩٧٥، ورد فى:

Gleijeses, Conflicting Missions, p. 255.

هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق الكوبية الخاصة بالتدخل فى أنجولا قد تكون فى أرشيف مركز المعلومات الخاص بالثوريين فى هافانا، وهو الأرشيف الذى لازال مفتوحا للدارسين.

(٦٠) من أفانسنكو إلى اللجنة المركزية، ١٧ أغسطس ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 196-203, 196.* لم يتم العثور على تسجيل لمحادثات كاريرا فى موسكو.

(٦١) المقابلة الصحفية مع كومينكو، ٢ أكتوبر ١٩٩٤، المقابلة مع بروتنتس، ٤ يونيو ١٩٩٨

(٦٢) المقابلة الصحفية مع بروتنتس، ٤ يونيو ١٩٩٨

(٦٣) يتذكر جورجــى م.كورنيكو فيما بعد أن القيادة السوفيتية حاولت أن توقف الكوبيين: "لقد قرأت برقية من سفيرنا فى كوناكرى تقول، ضمن ما قالت، إن السفير الكوبى أخبره أنه فى اليوم التالى ستقوم بعض الطائرات التى تحمل الجنود الكوبيين بالهبوط فى كوناكرى للتزود بالوقود فى طريقها إلى أنجولا. وسألت جروميكو هل تعرف شيئا؟ واســتدعى أنــدروبوف واستدعى جريتشكو. لم يكن أحد يعرف شيئا. كلهم كانوا ضد ذلك ونقلوا اعتراضهم للمكتب السياسى، ليتخذوا القرار واقترحوا أن نمنع كاسترو. احتاج الأمر إلى بعض الساعات لكتابة التقرير واتخاذ القرار وإرسال الرسالة إلى كاسترو. فى ذلك الحين كانــت الطــائرات فــى الهواء بالفعل. وقد تسألنى وأنت على حق: كيف تكون هذه طائرات سوفيتية، متمركزة فى كوبا، ولكنها بالفعل كانت طائرات سوفيتية وكان لدينا القليل من رجال العــسكرية... لقــد تحريت. حسن، تقنيا، كان رجالنا متورطين، وطائراتنا هنــاك تحــت تــصرف الكــوبيين، ومستشارونا متورطين، ولكنهم كانوا مقتنعين تماما أن القرار الــسياسى قــد اتُخــذ [فــى موسكو]" (المقابلة الصحفية مع كورنينكو، ٥ أكتوبر ١٩٩٣). يدّعى جليــچسز، مــدعوما بالوثائق الكوبية، أن الطائرات المقاتلة كانت كوبية وليست سوفيتية (*Conflicting Missions, p. 265*) ويؤكد أن الجنود الكوبيين مدربون أكثر منهم جنودا فى المعركة (ص. ٢٧١). انظر أيضا

Gabriel Garcia Marquez, "Operation Carlota: Cuba's Role in Angolan Victory," Vencercmos, 4.5 (February 1977): 1-8;
Arthur Jay Klinghoffer, The Angolan War: A Study in Soviet Policy in the Third World (Boulder, CO: Westview Press, 1980), pp. 109-120.

(٦٤) السفارة السوفيتية، برازافيل إلى اللجنة المركزية، ١٥ سبتمبر ١٩٧٥، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, pp. 118-121;* سليشنكو إلى اللجنة المركزية، ٣٠ أكتوبر ١٩٧٥، *RGANI, f. 5. op. 68, d. 1982, pp. 313-320.* مازال الموقف العسكرى فى أنجولا وقت التدخل الكــوبى موضع جدال. ويعتقد بيرو جلــيــچس، الذى درس الحرب الأنجولية على أساس الوثــائق الكوبية، أنه فى النصف الأول من أكتوبر كانت *MPLA* تكسب الحرب (جلــيــچس، اتصالات

شخصية مع المؤلف). ولكن التقارير الواردة من *MPLA* إلى موسكو (و ربما أيضا إلى هافانا) كانت أقل تفاؤلا (انظر نا أوموف إلى اللجنة المركزية، ٣ و ٢٠ أكتوبر ١٩٧٥
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1982, pp. 268-270, 280-281).

(٦٥) المقابلة الصحفية مع كورنينكو، ٤ أكتوبر ١٩٩٤؛ سلبشنكو إلى اللجنة المركزية، ٣٠ أكتوبر ١٩٧٥، المصدر السابق ص.٣١٣-٣٢٠؛ ناأوموف إلى اللجنة المركزية، ٢٠ أكتوبر ١٩٧٥، المصدر السابق ص. ٢٨٠-٢٨١. كورنينكو وبروتنتس وغيرهما يناقشون الفكر وراء التورط السوفيتي في ليزبو. انظر أيضا مقال *Jiri Valenta*: صنع القرار السوفيتي حول التورط في أنجولا" في:
David E. Albright, ed.. Communism in Africa (Bloomington, IN; Indiana University Press, 1980).

الكثير من وثائق اللجنة المركزية لم يتم الإفراج عنها بعد.

(٦٦) السفارة السوفيتية، برازافيل إلى اللجنة المركزية، ١٥ سبتمبر ١٩٧٥، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1941, p. 118* (أوضحت المحطة في برازافيل أيضا أن فنلا ظلت تتلقى مساعدات من رومانيا وكوريا الشمالية حتى أغسطس ١٩٧٥). اللقاء الصحفي مع كورنينكو، ٥ أكتوبر ١٩٩٣. انظر أيضا
Karen N. Brutents, Tridtsat let na Staroi Ploshchadi (Thirty Years at Staroia Ploshchad) (Moscow: Mezhdunarodnie otnosheniia, 1998), pp. 203-215.

(٦٧) سلبشنكو إلى اللجنة المركزية، ٣ نوفمبر ١٩٧٥ (الحوار مع نيرير)
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp. 305-307.

(٦٨) فهرس سكرتارية اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، الاجتماع رقم ١٩٢، ٥ نوفمبر ١٩٧٥، *RGANI*؛ أفانسنكو إلى اللجنة المركزية ، ٤ نوفمبر ١٩٧٤، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1962, pp.230-231*. يشير جليجس إلى أنه لم يكن هناك "تنظيم مدفعية" كوبى متورط في القتال في كيفانجوندو في أواخر أكتوبر، ومن المحتمل أن يكون السفير كولومبى *Colombie* مبالغا أو أخطأ التعبير أو أن يكون السفير السوفيتى أخطأ في نقل كلامه. وليس من شك أن الجنود الكوبيين قد شاركوا في القتال هناك.

(٦٩) *Hamann, Days of the Generals, pp. 34-36*

(٧٠) زفيريف *G.A. Zverev* (القائم بالأعمال، لواندا) إلى اللجنة المركزية، ١ مارس ١٩٧٦، التقرير السياسي (عن بعض الأمور المتعلقة بالموقف العسكري السياسي والاقتصادي في

أنجولا) RGANI, f. 5, op. 9, d. 2513 . تقرير زفيريف. أما وقد بحث جليچس فى الوثائق الكوبية، فإنه لم يجد أثرًا للدعم السوفيتي قبل النقلة الجوية قبل يناير ١٩٧٦.

(٧١) تقرير زفيريف.

(٧٢) المصدر السابق؛ الفهرست. انظر أيضا تعليق رئيس المعهد الأمريكي والكندى لأكاديمية العلوم السوفيتية جيورجى أرباتوف *Georgi Arbatov* على المناقشات التى دارت فى موسكو بشأن أنجولا فى:

The System: An Insider's Life in Soviet Politics (New York: Times Books, 1992), p. 194,

حيث استشهد بقول مستشار السياسة الخارجية لبريچنيف أندريه ألكساندروف أجنتوف *Andrei Aleksandrov-Agentov* إن السوفيت "لم يستطيعوا أن يتجنبوا مهمتهم الدولية" فى أفريقيا.

(٧٣) تقرير زفيريف، ص.١٣-٢٣؛ من ف.ن.ريكوف (سفير الجزائر) إلى اللجنة المركزية، ٢٠ ديسمبر ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513, pp.1-4*؛ سكرتارية اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، الاجتماع ١٩٧، ٢٣ ديسمبر ١٩٧٥، *RGANI*. أرشيف الأركان السوفيتية العامة ليس مفتوحا حتى الآن للأبحاث الأكاديمية. ووفقا للأرشيفات الألمانية الشرقية فإن شيوعيى جنوب أفريقيا أيضا عرضوا أن يرسلوا متطوعين للحرب فى أنجولا، ولكن نيتو تراجع لكى لا يزيد من استفزاز حكومة جنوب أفريقيا (تسجيل المحادثة بين رودى جتمان *Rudi Guttmann* [نائب رئيس *AIV*] ودادو. برلين، ١٨ نوفمبر ١٩٧٥. *SAPMO-BArch, DY30 J IV 2/2/J6091*

(٧٤) *Donald Rothchild and Caroline Hartzell, "The Case of Angola: Four Power Intervention and Disengagement," in Ariel E. Levite, Bruce W. Jentleson, and Larry Berman, eds.. Foreign Military Intervention: The Dynamics of Protracted Conflict (New York: Columbia University Press, 1992), pp. 163-208.*

(٧٥) ب.بوتيلين (سكرتير أول، لواندا) إلى اللجنة المركزية، ٢٧ مارس ١٩٧٦، وعنوان التقرير (حول الموقف فى مبلا) *f. 5, op. 69, d. 2513, pp. 29-34; Klinghoffer, Angolan War. pp. 61-71*

(٧٦) *Stockwell, In Search ofKnemics, pp. 227-248; Fred Bridgland, Jonas Savimbi: A Key to Africa (London: Coronet Books, 1988). pp. 174-181.*

(٧٧) *Brutents in Lysebu I, pp. 76-77*

(٧٨) *John H. Chettle, "Some Suggestions for a New Foreign Policy for South Africa,"* *National Archives of South Africa (NASA), 144/1, Annex Jacket 1977*. كـان شـتيل *Chettle* المولود فى جنوب أفريقيا الرئيس الأمريكي لمؤسسة جنوب أفريقيا، إحـدى أكبـر المؤسسات فى البلاد.

(٧٩) السفارة السوفيتية، لواندا، إلى اللجنة المركزية، ١٥ مايو ١٩٧٦، تقرير عن المناقشات التى دارت خلال الاجتماع بين راعول كاسترو وجورج ريسكت (كوبا) وبونومـارنكو *I. F. Ponomarenko* ودوبنكو *A. I. Dubenko* (وزارة الدفاع بالاتحاد السوفيتى)، *RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513 pp. 42-48;* سنسميها فيما بعد مناقشات كاسترو حـول فـيتنام. مقابلـة المؤلف مع ميخائيل كابيتسا *Mikhail Kapitsa* ، نائب وزير الخارجية السـابق، موسـكو، ٧ ديسمبر ١٩٩٢. انظر أيضا:

Galia Golan, The Soviet Union and National Liberation Movements in the Third World (New York: Unwin Hyman, 1988);
Mark Katz, The Third World in Soviet Military Thought (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1982);
Neil Matheson, The "Rules of the Game" of superpower Military Intervention in the Third World, 1975-1980 (Washington, DC: University Press of America, 1982).

(٨٠) زفيريف إلى اللجنة المركزية، ١ مارس ١٩٧٦، التقرير السياسى بعنوان (حول بعـض القضايا المتعلقة بالموقف العسكرى-السياسى و الاقتصادي فى أنجولا
RGANI, f. 5, op. 9, d. 2513, pp. 13-23, 15-16.

(٨١) المصدر السابق، ص.٢٣؛ السفارة السوفيتية، لواندا، إلى اللجنة المركزيـة، ١٥ مـايو ١٩٧٦، تقرير عن المناقشات التى دارت خلال الاجتمـاع بـين راعول كاسـترو وجورج ريسكت (كوبا) وبونومارنكو *I. F. Ponomarenko* ودوبنكو *A. I. Dubenko* (وزارة الـدفاع بالاتحاد السوفيتى)، *RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513 pp. 42-48;* حول تاريخ العلاقات الكوبية السوفيتية انظر *Dominguez, World Safe for Revolution, pp. 78-84.*

(٨٢) زفيريف إلى اللجنة المركزية، ١ مارس ١٩٧٦، التقرير السياسى بعنوان (حول بعـض القضايا المتعلقة بالموقف العسكرى-السياسى و الاقتصادي فى أنجولا
RGANI, f. 5, op. 9, d. 2513, pp. 13-14.

(٨٣) زفيريف إلـى اللجنـة المـركزيـة، ممكـون *MemCon*، راعول فـلدس فـيـفـو *Raul Valdes Vivo* (رئيس الإدارة العامة للعلاقات الدولية، الحزب الشيوعي الكـوبى) – زفيريـف،

٢٨ مايو ١٩٧٦ RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513. pp. 53-54 . السفارة السوفيتية، لواندا إلى اللجنة المركزية، ١٥ مايو ١٩٧٦، تقرير عن المناقشات التى دارت خلال الاجتماع بين راعول كاسترو وچورچ ريسكت (كوبا) وبونومارنكو I. F. Ponomarenko ودوبنكو A. I. Dubenko (وزارة الدفاع بالاتحاد السوفيتي)، RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513 pp. 45. حول حجم القوات الكوبية انظر تسجيل المحادثة بين هونكر وكاسترو، ٣ أبريل ١٩٧٧ SAPMO-BArch, DY-30J IV 2/201/1292.

(٨٤) ب.بوتيلين (سكرتير أول، لواندا) إلى اللجنة المركزية، ٢٧ مارس ١٩٧٦ ، وعنوان التقرير (حول الموقف فى مبلا).RGANI, f. 5, op. 69, d. 2513,pp.29-34

(٨٥) المصدر السابق.

(٨٦) السفارة السوفيتية، لواندا، إلى اللجنة المركزية، ٢١ يونيو ١٩٧٦، تقرير بعنوان (حول المعلومات والدعاية فى الربع الثانى من ١٩٧٦

(On Information and Propaganda Work in the Second Quarter of 1976), ibid; pp. 60-62

بيد أن السفارة وجدت أنه من الصعب ترجمة "العديد" من أعمال لينين إلى الفرنسية – ولا عجب، بما أن أكثر من ٩٠% من الأنجوليين أميون، ومن يستطيعون القراءة يقرأون فى الغالب باللغة البرتغالية.

(٨٧) مناقشات كاسترو، من كوداشكين Kudashkin (المستشار بسفارة لواندا) إلى اللجنة المركزية، ٣٠ يوليو ١٩٧٦، المصدر السابق ص.٨٢–٨٣. فى نهاية العام كانت الضغوط كثيرة على السلطات السوفيتية لتجد النخبة الطليعية الماركسية اللينينية فى أنجولا. انظر تولوبييف N.P. Tolubeev (السفير السوفيتي، هافانا) إلى اللجنة المركزية، ١٠ ديسمبر ١٩٧٦، مذكرة الحوار بين چورچ ريسكت وتولوبييف، المصدر السابق، ص.١٢١–١٢٣.

(٨٨) حول فيدل كاسترو انظر Marquez, "Operation Carlota," pp. 1-2;

مناقشات كاسترو، ص.٤٦؛ زفيريف إلى اللجنة المركزية، ٢٨ مايو ١٩٧٦، مذكرة الحوار بين راعول فلدس فيفو و زفيريف، المصدر السابق، ص.٤٩–٥٤.

(٨٩) مناقشات كاسترو، المصدر السابق ص.٤٧،٤٣.

(٩٠) السفارة السوفيتية، لواندا، إلى اللجنة المركزية، ١٥ أغسطس ١٩٧٦، المصدر السابق. هذه الاهتمامات ظلت موجودة طوال عام ١٩٧٦؛ انظر التقرير حول زيارة وفد SED إلى أنجولا، ٦–١٢ ديسمبر ١٩٧٦، SAPMO-BArch, DY-30/IV B 2/20/72.

(٩١) مقابلة بروتنتس، ٥ أكتوبر ١٩٩٣. للمناقشة حول الموضوع انظر
Steven R. David, "Soviet Involvement in Third World Coups," International Security, 11 (summer 1986): 3-36.

(٩٢) الملحوظة المعنونة "١٩٧٥"،
"1975," box 1, Dadoo Papers, MCH05, Mabuiye Centre, University of Western Cape,
Mabuiye Centre وسوف نسميه فيما بعد مركز مابوي *Belleville, South Africa*

(٩٣) *"Notes: Some negative factors in the contemporary Southern African situation*
ملحوظة: بعض العوامل السلبية في الموقف الجنوب أفريقي الحالي
(1974)," box 3, Dadoo Papers, MCH05, Mabuiye Centre.

(٩٤) *Fidel Castro, "Speech on the 23rd Anniversary of the Assault on Moncada*
Barracks," 26 July 1976 ، قاعدة بيانات خطب كاسترو، على موقع
http://www1.lanic.utexas.edu/la/cb/cuba/castro.html.

(٩٥) إن كتاب *Wolfers and Bergerol, Angola in the Front Line, pp. 85-99*
هو رواية يعتمد عليها حول انقلاب ألــفــس، ولكن انظر أيضا التحليل بشأن دائرة ألـــفـــس
الانتخابية في المجلد الثاني من
Jean-Michel Mabeko-Tali, Dissidencia e poder de estado - 0 MPLA perante si proprio
(1962-1977) (الشقاق وقوة الدولة: الميلا تواجه نفــسها)*(2 vols.: Luanda: Nzila, 2001)* .
انظر أيضا النسخة الرسمية الأنجولية في
"Report on a visit by a Party and State delegation from the GDR to Libya, Angola, Zambia, and Mozambique, February 1979," SAPMO-BArch, DY-30/J IV 2/201/1454.
وقد يكون ألــفـــس قد استخدم علاقاته الشخصية القريبة جدا من بعــض الــضباط الــسوفيت
وخاصة عميلين من عملاء الـــ *KGB* في لواندا لتسهيل مهمته للوصول إلى السلطة (مقابلة
المؤلف مع الضابط السوفيتي المقيم في أنجولا ١٩٧٦-٧٧، موسكو ، ســبتمبر ١٩٩٨).
بخصوص التطورات الأخيرة للعلاقات السوفيتية الأنجولية، انظر
Scott Christopher Monje, "Alliance Politics in Escalating Conflict: The Soviet Union and Cuba in Angola, 1974-1991," Ph.D. dissertation, Columbia University, 1995; and Mark Webber, "Soviet-Angolan Relations, 1975 to the Present," Ph.D. thesis, University of Birmingham, 1991.

(٩٦) – تسجيل المحادثة. وزارة الخارجية الأمريكية، الموضوع سياسة الوزارة *"Department*
Policy," ١٨ ديسمبر ١٩٧٥، وأعيدطبعها فـــي *Mark Hertsgaard, "The Secret Life of*
Henry Kissinger: Minutes of a 1975 Meeting with Lawrence Eagleburger," Nation, 29

October 1990 (الحياة السرية لهنرى كيسنجر: دقائق من اجتماعه مع لورانس إيجلبرجر).
حول دور الصين انظر أيضا

Steven F. Jackson, "China's Third World Foreign Policy: The Case of Angola and Mozambique, 1961-93," China Quarterly, 142 (1995): 388-422.

(٩٧) Minutes, National Security Council meeting, 7 April 1976, at Gerald Ford Presidential Library website, http://www.ford.utexas.edu/library/document/nscmin/760407.pdf,

(٩٨) المصدر السابق.

(٩٩) Henry Kissinger, Years of Renewal (New York: Simon & Schuster, 1999), p.934.

(١٠٠) بوتا إلى مولر (فورستر) ١٥ مايو ١٩٧٦، SADFAA, 1/33/3, vol. 33. انظر أيضا بوتا إلى فورى، ٧ يونيو ١٩٧٦، المصدر السابق. وهناك صورة محدثة من حياة كيسنجر فى نفس الملف.

(١٠١) السفارة، جاكارتا، إلى وزارة الخارجية، ٦ ديسمبر ١٩٧٥، مقتبس من

William Burr and Michael L. Evans, eds., "East Timor Revisited: Ford, Kissinger, and the Indonesian Invasion, 1975-76," National Security Archive Electronic Briefing Book no. 62 (December 2001).

(١٠٢) البث الإذاعى لريجان، ٣١ مارس ١٩٧٦، على موقع

http://www.reagan.com/ ronald/speeches/rrspeech07.shtml.

وينكر كيسنجر أنه تلفظ بالتعليقات التى يرويها ريجان عن لسانه. للمزيد حول النقاشات التى دارت بعد أنجولا، انظر

Thomas J. Noer, "International Credibility and Political Survival: The Ford Administration's Intervention in Angola," Presidential Studies Quarterly, 23.4 (1993): 771-785.

(١٠٣) مناظرات حملة الانتخابات الرئاسية بين جرالد فورد وجيمى كارتر، ٦ أكتوبر ١٩٧٦، نص المناظرة على موقع

http://www.ford.utexas.edu/library/speeches/ 760854.htm.

(١٠٤) Brzezinski, Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser (New York: Fanar, Straus, Giroux, 1983), pp. 149-150.

الفصل السابع

آفاق الاشتراكية: إثيوبيا والقرن

فى منتصف السبعينيات، بعد الانهيار الاقتصادى للعديد من الدول العربية وهزيمتها فى حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ضد إسرائيل، كان المناخ العام فى الشرق الأوسط يمر بفترة راديكالية شديدة. ووقعت نظم ما بعد الاستعمار فى المنطقة تحت ضغط من أسفل، من الاشتراكيين اليساريين ومن الإسلاميين، واستجابت لذلك إما بزيادة القهر - كما حدث فى مصر وإيران - أو بتحولها إلى اتجاه أكثر راديكالية، كما حدث فى سوريا والعراق. ورغم كراهية كلا النظامين البعثيين لبعضهما البعض، فقد آل بهما الحال كحليفين قريبين للاتحاد السوفيتى ومتلقيين أساسيين للمساعدات السوفيتية فى المنطقة، خاصة بعد أن بدأت مصر عملية سلام منفصلة مع إسرائيل فى ١٩٧٧. وكان السوفيت وحلفاؤهم يأملون أن يستطيع الشيوعيون المحليون الذين يعملون بداخل القيادات الموجودة الإسراع بالاتجاه اليسارى فى سوريا والعراق وداخل منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت الإدارة الدولية فى الحزب الشيوعى السوفيتى تعتقد أن خيانة السادات وتحالف أمريكا مع إسرائيل وإيران قد تعود على موسكو بالمصلحة، إذ سيعلم العرب الراديكاليون أن لا سبيل أمامهم لطلب المساعدة إلا من الشيوعيين والاتحاد السوفيتى.

فى تقارير إلى القيادة السوفيتية العليا فى منتصف السبعينيات، كثيرًا ما أشارت الإدارة الدولية إلى العراق كأفضل نموذج لكيفية اكتساب الشيوعيين للسطة والنفوذ داخل الحكومة من خلال تحالف مع القوميين البرجوازيين الراديكاليين، مثل حزب

البعث. ولكن بينما كانت العراق وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية تدار بواسطة حكومات تميل إلى السوفيت، ذهبت اليمن الجنوبية، على طرف شبه الجزيرة العربية، وكانت في السابق مستعمرة بريطانية، لمرحلة أبعد من ذلك وأعلنت نفسها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. وقد أعجب المستشارون السوفيت الذين وصلوا إلى اليمن الجنوبية في أوائل السبعينيات بما وجدوه – فالمؤكد أنها أفقر دولة في العالم العربي، ولكن حكامها كانوا ماركسيين حتى النخاع، يريدون أن يحلوا مشكلات البلاد من خلال التحول الاجتماعي، متبعين النمط السوفيتي. وبينما كان بعض حلفائهم بشرق أوروبا يتشككون في النظام اليمني والحزب الشيوعي اليمني – في البداية تحت حكم سالم علي ربيع ثم، بداية من ١٩٧٨، تحت حكم عبد الفتاح إسماعيل – كان السوفيت أقل اهتمامًا بعدم الاستقرار السياسي لصديقتهم الجديدة، عنهم بالقدرة على إرشاد ثورة اشتراكية ناجحة، "تحت أنف الإمبرياليين مباشرة" حسب تعبير أحد مستشاريي الإدارة الدولية ***MO***(١).

كان الموقع الاستراتيجي لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في مدخل البحر الأحمر وعلى مقربة من الخليج الفارسي مقلقًا لكثير من المخططين الأمريكيين، وخاصة بعد الأزمة الأنجولية. وكان جيمي كارتر بعد أن وصل إلى مقعد الرئاسة في ١٩٧٧ قد بدأ بالفعل يساوره القلق من كون السوفيت يضعون أنفسهم في موضع معين للسيطرة على طرق وصول الغرب للمواد الخام – وخاصة البترول – من خلال التدخل في أفريقيا والشرق الأوسط. وقد بدأ كارتر بمساعدة مستشار الأمن القومي زبيجنو بريجنسكي ***Zbigniew Brzezinki*** يرى نموذج النشطاء السوفيت الذين يتماشون مع هذه الصورة. وفي حين بقي الرئيس مقتنعًا بأن العلاقة الأمريكية السوفيتية المحسنة في بقية المجالات – مثل الحد من التسلح والتجارة – قد تمنع ما أسماه "أزمات إقليمية" عن أن تنسحب على العلاقة بين القوتين العظميين، بقي أيضًا حساسًا بشأن أي فعل سوفيتي يمكن أن يهدد منطقة الخليج، على نحو

مباشر أو غير مباشر. وعندما تدخل السوفيت فى ١٩٧٨ لدعم إثيوبيا، حليفتهم الجديدة فى القرن الأفريقى فى حربها ضد الصومال، رأى الرئيس الأمريكى أن قرار موسكو يمثل تصعيدًا خطيرًا للتوتر العالمى.

كانت الثورة الإثيوبية أهم تحول ماركسى فى أفريقيا أثناء الحرب الباردة. ولأنها وقعت فى الدولة الأفريقية الوحيدة التى هزمت المستعمرين الأوروبيين، فقد رأى الكثير من الناس فى القارة أن النظام الجديد فى أديس أبابا يجسد المنحى اليسارى فى القومية الأفريقية. وفى حين تنتمى الستينيات إلى الاشتراكيين الأفريقيين مثل الرئيس التانزانى چوليوس نيريرى، فالكثيرون يجادلون بأن السبعينيات تنتمى إلى الماركسيين اللينينيين مثل زعيم إثيوبيا منـــجستو هيلا ميريام. فقط من خلال علم المجتمع والدولة، الذى تم اختباره فى الاتحاد السوفيتى، يمكن إنشاء اشتراكية قوية بما يكفى لتحمل الانحلال الداخلى والهجمات الإمـــبريالية المستقبلية. و، كما أظهرت الحرب الأنجولية، لو حاولت الإمـــبريالية أن تخنق الثورة المحلية فى مهدها، فإن التحالف مع موسكو وحده سيكون من القوة بحيث يتحمل الهجوم[٢].

بالنسبة للاتحاد السوفيتى، أصبح التحالف مع إثيوبيا أهم التدخلات فى أفريقيا. وقد أظهر الجسر الجوى الذى كان يمد قوات منـــچيستو أثناء حربه على الصومال أن موسكو قادرة على وضع قوتها العسكرية فى تنافس مباشر مع الولايات المتحدة على بعد آلاف الأميال من شواطئها، والخروج منتصرة. كما كان التحالف يعنى أيضًا أن الاتحاد السوفيتى أصبح يؤثر على نحو مباشر بالمعنى الاستراتيـــچـــى، فى كل من المحيط الهندى ومنطقة البحر الأحمر، من خلال وصوله إلى الموانئ الإريترية مثل ماساوا ***Massawa*** وعزب ***Assab***. ومن المقدر أنه أثناء حرب أوجادين ***Ogaden War***، من مارس ١٩٧٧ إلى مايو ١٩٧٨، سلم الاتحاد السوفيتى أثيوبيا مساعدات ما يقرب من مليار دولار[٣].

غير أن السوفيت وحلفاءهم الكوبيين والأوروبيين الشرقيين لم يقوموا بإمداد جيوش منـــجستو وتدريبها فحسب، وإنما وضعوا الاتجاه الأيديولوجـــى لتطور الدولة الإثيوبية، منضمين إلى القيادة الجديدة فى محاولة كبرى للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى الجذرى الذى وعد بتحويل الدولة نحو الحداثة. وقبل أن ينهار النظام الإثيوبى فى ١٩٩١، عقب الكارثة البيئية والمجاعة والتمرد الإثنى، كان تجربة كبرى لمحاولة إثبات صحة التجربة السوفيتية فى أفريقيا، على نحو أشبه بالجهود الأمريكية المدنية فى فيتنام[٤].

وتظهر المعلومات الأرشيفية المتاحة أن الزعماء السوفيت، بعد شكوك مبدئية، قرروا أن يتحالفوا بقوة مع أديس أبابا فى ١٩٧٦ لثلاثة أسباب رئيسية. أولاً، تأثروا بالنواب السوفيت المحليين فى إثيوبيا، الذين رأوا النظام الجديد فى ضوء أفضل. ثانيا، أن الانتصار السوفيتى الكوبى فى أنجولا فى ربيع ١٩٧٦ شجع موسكو على التدخل أكثر وأكثر فى أفريقيا. ثالثا، أن اللغة والإشارات فى الثورة الإثيوبية كانت تتوافق مع أيديولوجية قيادة الكرملين، مما خلق اعتقادا أن التحالف بين موسكو وإثيوبيا سيكون استثمارًا حيويًا على المدى البعيد. وبالنسبة للمكتب السياسى السوفيتى العجوز، كانت الثورة الإثيوبية دليلا أكبر على أن العالم الثالث يتحول نحو الاشتراكية، وأن تجربته ستكون مهمة لتأمين هذا المنعطف العالمى التاريخى المهم وتقويتها.

الثورة الإثيوبية ومعارضوها

كانت إثيوبيا فى ١٩٧٤ دولة مسيحية عجوزا استطاعت تحت حكم زعيمين كبيرين (مينيليك الثانى *Menelik II* الذى نصب نفسه إمبراطورا فى ١٨٨٩ وهيلا سلاسى *Haile Selassie* الذى كان فى الحكم منذ ١٩٣٠) أن تتجنب الاستعمار

الأوروبى، بل أن توسع من نفوذها وأراضيها فى القرن الأفريقى. وكانت واقعة تحت زعامة أمهرية مسيحية ***Christian Amharas*** – نحو ٢٥% من السكان الذين يقطنون المرتفعات الشمالية والوسطى – فى السبعينيات كانت المجموعات الرئيسية فى الإمبراطورية الإثيوبية المختلطة هم أورمو مسلمون ويمثلون ٤٠% وصوماليون بالجنوب ويمثلون ٨%، وتجرينيون بالشمال ويمثلون ١٢% وإرتريون – سكان المستعمرة الساحلية الإيطالية السابقة – ويمثلون نحو ٨%. فى بداية القرن العشرين أصبحت النخبة الإمبريالية تحكمها مجموعة تقترح التجميع الدفاعي للتكنولوجيا والأساليب التنظيمية الغربية. فى إثيوبيا، كانت هذه المجموعة تسمى "اليابانيون" ***Japanizers*** – وفقًا للنموذج الذى أرسته اليابان بدءًا من ستينيات القرن التاسع عشر فى تجنب التوسع الأوروبى، وتحسين المهارات والتعليم؛ ورغم احتفاظها بالشكل الإمبريالى للحكومة فقد كان لها تأثير عميق على النخبة فى أديس أبابا. وأحضر هيلا سلاسى خبراء أوروبيين وأمريكيين لتدريب الجيش وبدأ تطوير الصناعة بالدولة. ورغم ذلك بقيت إثيوبيا دولة زراعية بالأساس – ففى وقت الثورة كان هناك خمسون ألف عامل فقط فى دولة يبلغ تعداد سكانها أكثر من ٣٥ مليون نسمة[٥].

فى نهاية الحرب العالمية الثانية، أدى الاحتلال الإيطالى وعودة هيلا سلاسي من منفاه فى بريطانيا إلى زيادة مكانة الإمبراطور وجعلته يكثف محاولاته فى التنمية الحديثة. أنشئت المئات من المدارس والأكاديميات بعد عام ١٩٤٥، ورغم أنها كانت تقوم بتدريب قطاع صغير للغاية من السكان، تحولت النخبة الإثيوبية من أرستقراطية الماضى إلى قطاع ينشد شرعيته من خلال التعليم والمهارات، وراحت أعداد متزايدة من الأعضاء الأصغر سنًا يسافرون إلى الخارج بحثًا عن المزيد من التعليم. خدم الكثير من الإثيوبيين المتعلمين فى المنظمات العالمية وفى منظمة الوحدة الأفريقية بعد إنشائها فى ١٩٦٣، وكان لها مقار دائمة فى أديس أبابا. ولكن

بينما كان الإمبراطور العجوز يحاول فى الستينيات أن يصور نفسه باعتباره أبًا للاستقلال الأفريقي، بدأ عدد متزايد من الإثيوبيين يندم على فقر الفرص فى بلادهم وتخلف المناطق الزراعية وفساد إدارة هيل سيلازى وعدم كفاءتها. وكانت المجاعة التي أصابت أجزاء من البلاد فى ١٩٧٢- ١٩٧٣ والافتقار إلى رد الفعل المنظم من الحكومة تمثل للكثيرين انهيار محاولات الإمبراطور للتحديث[٦].

أثناء الستينيات، راح هيلا سلاسي يتطلع إلى الولايات المتحدة طلبًا للمساعدة في تطوير دولته ومجتمعه. ورغم أنه لم يتخل أبدًا عن مبدئه في البحث عن المساعدة من مصادر كثيرة – حيث كانت الهند وإسرائيل وإسكندنافيا وهولندا يمنحونه المساعدات المدنية والعسكرية – فإن الأمريكيين كانوا هم القادرون على إحداث اختلاف فى الأمن والتنمية الاقتصادية. أما بخصوص مكانة بلاده على الصعيد العالمى، فكان الصراع مع العالم العربى – وخاصة منذ استقلال الصومال المجاورة له في ١٩٦٠ واندلاع التمرد فى إريتريا فى نفس الوقت، وكلا الأمرين تدعمه النظم العربية – على رأس أجندة الإمبراطور. تنبأ هيلا سلاسي للرئيس الأمريكى ليندون جونسون فى فبراير ١٩٦٧ بأن "التغيير الصومالى الذى تدعمه المساعدات العسكرية السوفيتية المكثفة" سيكون مشكلة في المستقبل[٧]. فى الوقت نفسه كان الإمبراطور يحاول زيادة المساعدات الأمريكية لما أسمته المخابرات المركزية "برنامج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى التدريجى المؤلم"[٨].

من دواعى السخرية، أن التأثير الأيديولوجى الرئيسى على الراديكاليين الإثيوبيين الشباب فى أوائل السبعينيات لم يأت من قبل الكتلة السوفيتية ولا من الصين، بل من داخل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. فكثيرًا ما عاد الطلاب الكثر الذين سافروا إلى الخارج أثناء الستينيات إلى وطنهم وهم متأثرون بشدة بالحركة الطلابية الراديكالية فى الغرب، التى أظهرت أن المثقفين والطلاب يلعبون

دورًا فى السياسة، بل وإنهم قد يكونون مركز قوة بديلاً عن قوة الحكومة. كانت الماركسية تعنى بالنسبة لأقلية من الطلاب الإثيوبيين المركز البديل، لكل من خطط التنمية المستقبلية وللنظرية التى تشرح أسباب عدم قدرة النظام الحالى على تحقيق طموحات الشعب. وقد تأكدت صحة الآراء الراديكالية لدى المثقفين فى إثيوبيا من خلال الشباب المتأثرين بالغرب – برعاية فيالق السلام ***peace corps*** الأمريكية أو المتطوعين الأوروبيين – الذين حملوا تفكيرهم الراديكالى إلى البلاد، والذين صدمهم بالفعل إهمال الدولة والفقر المدقع الذى وجدوا عليه إثيوبيا فى ١٩٧٠[٩].

هناك سببان أساسيان لبداية انهيار حكم هيلا سلاسى فى أوائل ١٩٧٤. نتيجة لأزمة البترول العالمية، واجهت الدولة الإثيوبية صعوبات شديدة فى ميزان المدفوعات، ومن ثم حاولت أن تحد من نفقاتها فى الداخل. وبينما ارتفعت الأسعار، خاصة أسعار السلع المستوردة، انهارت الرواتب فى القطاع العام، وقل عدد من يتم تعيينهم فى الوظائف الحكومية. وبالإضافة إلى المشكلات الاقتصادية، كان تقدم الإمبراطور فى السن يمنعه من اتخاذ المواقف الحاسمة التى أظهرها لتخطى الأزمات فى الماضى، ولذا أصبح من السهل اتهامه وحكومته باللامبالاة بمصالح الشعب. ومع زيادة التوتر، بدأت مجموعات الطلاب والمدرسين وغيرها تنزل إلى الشارع للتظاهر ضد سياسات الإمبراطور[١٠].

قد كان من الممكن أن تتجنب حكومة الإمبراطور المعارضة المدنية للنظام على نحو أسهل. أما النشاط الذى بدأ ينتشر لدى صغار ضباط العسكرية بداية من١٩٧٤ فكان التعامل معه أصعب كثيرًا. فى يناير كان العاطلون فى مدينة نيجيل الجنوبية قد بدأوا تمردًا بسبب عدم الاستجابة إلى مطالبهم بمأكل وملبس أفضل. وعندما أُرسل قائد القوات الإثيوبية لمقابلتهم، قاموا بأسره ولم يفرجوا عنه إلا بعد أن أرسل الإمبراطور خطابًا شخصيًا يعدهم بالنظر فى طلباتهم. وفى أواخر فبراير

أرسل جنود وحدات النخبة المتمركزة بالقرب من العاصمة ممثلين لمقابلة الإمبراطور والمطالبة بزيادة رواتبهم وبالإصلاح السياسي والاقتصادي في الدولة. وكان على الإمبراطور أن يعطي للقوات أموالا كثيرة لكي يتجنب مطالبهم السياسية(١١).

ومع فقدان الحكومة السيطرة على الجيش ورفض الجنود طاعة الأوامر في الكثير من المناطق، بدأ الموقف في المدن في أبريل ١٩٧٤ يخرج عن سيطرة الدولة. انتشرت الإضرابات في الوزارات والخدمات العامة الرئيسية مثل النقل والاتصالات وخشيت الحكومة أن تناشد الجيش بالتدخل، بما أن الوحدات الرئيسية قد ترفض الأوامر، حتى وإن جاءت الأوامر من الإمبراطور شخصيًا. ومع عدم استقرار السلطة، أنشأت وحدات القوات المسلحة في العاصمة وما حولها لجنة تنسيقية في يونيو ربطت لأول مرة، نيابة عن الجنود، بين المطالب الديمقراطية ودعم المعارضة المدنية المعادية للحكومة. وبدأ الجنود الداعمون للجنة التنسيقية يقبضون على كبار الضباط ووزراء الحكومة وأفراد من الطبقة الأرستقراطية على نحو عشوائي. وفي نهاية يونيو كانت اللجنة (أو *Derg* باللغة الأمهرية) تسيطر على العاصمة، وتجمع وفود الجنود في لقاء وطني. وتدريجيًا، راحت اللجنة التنسيقية تقوم بمختلف وظائف وزارات حكومة الإمبراطور ومؤسساته إلى أن أصبحت حكومة في سبتمبر. ومع وجود جميع الاتصالات في أيدي المتمردين لم يكن هناك سوى القليل من المعارضة لأوامرهم(١٢).

أظهر أول اجتماع وطني للجنة التنسيقية في منتصف ١٩٧٤ أنه بينما يتفق الجنود على الحاجة إلى الإصلاح، فيم يختلفون على معظم الأمور الأكثر تحديدًا. كانت السياسة التي أعلنوها، تحت شعار "إثيوبيا أولا" مزيجًا من الولاء للإمبراطورية وعقاب المسئولين الفاسدين وتحسين الأوضاع المعيشية العامة للشعب. ولكن بتأثير من المستشارين الماركسيين الذين تم جلبهم إلى الحكومة، تحولت غالبية اللجنة

التنسيقية إلى اليسار فى خريف ١٩٧٤. من لم يستطع أن يتبعهم فى هذه الطريق، أو من لم يكن يرغب في ذلك، كان يعامل بالشدة؛ فقد تم خلع الإمبراطور فى سبتمبر ثم أعدم فى السجن، بينما اغتيل الرئيس الأول للجنة التنسيقية الفريق أمان أندوم ***Aman Andom*** ومعه ستون شخصًا آخرون فى نوفمبر[١٢]. وفى نهاية العام كانت اللجنة التنسيقية تقبض على أعضاء النخبة القديمة وأعضاء المعارضة السابقة الذين كانوا يتحدون سلطتها على الحكم، بمن فيهم بعض حكام اليسار الذين كانوا على صلة بالحزب الماركسى الثورى للشعب الإثيوبى ***Marxist Ethiopian People's Revolutionary Party (EPRP)***.

وفى حين أظهرت نهاية النظام القديم أنه كان قد فقد ثقة معظم الإثيوبيين فى الحضر، فلم يكن للنظام العسكرى الجديد فى البداية سوى القليل من المناصرين خارج حدود ثكناته العسكرية. وفى وجود برنامج غير واضح وعدم قدرة على فهم بعض القضايا الرئيسية التى كانت تواجه البلاد، أصبح من الممكن القول إن الانقلاب الذى قام به صغار الجنود قد أوجد مشكلات أكثر من تلك التى قام بحلها. لكن ما حققه سقوط حكومة الإمبراطور بالفعل فهو أنه فتح للمجتمع الإثيوبى فى الحضر مناخا جديدًا من النقاش ونشاطا سياسيا متوهجا، وربما متقدا. واتفق معظم المراقبين أن معظم هذا النشاط يأتى من القاعدة. يتذكر أحدهم: "أصبحت أديس أبابا مؤتمرًا دائمًا"

> **كل شىء ينـاقش وكل شىء يتم فحصه عن كثب، لا شىء يفلت من النار المستعرة للنقد. ولكن ما أريد به أن يكون صمامًا للأمان [رفع الرقابة على الصحافة] أصبح مادة محفزة. ولما انتشت كل القوى**

الاجتماعية بحريتها الجديدة، بدأت كلهـا ترفـع مـن سقف مطالبها[١٤].

الشعور بأن كل شيء يمكن مناقشته كان صحيحًا كذلك بالنسبة للظروف السياسية فى اللجنة التنسيقية، رغم أنه – فى ظل عدم وضوح مستقبل البلاد – كانت العواقب وخيمة لمن يخسرون النقاش. الرجل الذى ساق اللجنة التنسيقية إلى اليسار أكثر من أى شخص آخر، والذى ظهر تدريجيًا زعيمًا للجناح الراديكالى للنظام الجديد فى أواخر ١٩٧٤ كان اللواء منجستو هيلا ميريام ***Mengistu Haile Mariam*** الذى كان قد وصل إلى أديس أبابا فى ذلك الصيف موفدًا من فيلق الجيش الثالث المتمركز فى الجنوب. ولد منجيستو فى ١٩٣٧ ابنًا لخادم يتحدث اللغة الأمهرية، وكان لونه الداكن يؤكد للنخبة فى الشمال أن جذور أسرته تعود إلى الجنوب المستعمَر. تخرج فى أكاديمية هولتا العسكرية، التى لم تكن تشترط للالتحاق بها سوى معرفة القراءة والكتابة باللغة الرسمية وقواعد الحساب، وكانت زيارته الوحيدة للخارج أثناء دورة مدفعية حضرها فى الولايات المتحدة فى ١٩٧١. كانت قدرته على التفكير فى مستقبل الثورة الإثيوبية هى ما جعلته قادرًا على تحويل هذه العيوب إلى نقاط قوة. وكانت خلفيته المتواضعة مصدر جذب للضباط الذين أرادوا تغييرا جذريا، ولكن أيضًا لفقراء المدن والأقليات القومية المحرومة من حقوقها. وفى الوقت نفسه كانت وطنيته المتوهجة تعطى شرعية لتفكيره الاشتراكى الراديكالى[١٥].

بينما كانت الأغلبية فى اللجنة التنسيقية فى الشهور الأولى بعد الثورة راضية عن التصريحات المبهمة عن "الاشتراكية الإثيوبية" – على غرار تانزانيا نيريرى – تبنى منجيستو، فى أوائل ١٩٧٥ على الأقل، بعض تفكير مستشاريه من الطلبة الماركسيين عن "الاشتراكية العلمية". كان أكبر نجاح سياسى له فى العام

الأول من الثورة هو تفعليه مجموعة من الإصلاحات الاقتصادية الاجتماعية، أهمها حملة إصلاح أراض نظمت أنماط حيازة الأرض فى نظام كان الأعقد والأشد إقطاعية. وأعلنت اللجنة التنسيقية كل الأراضى الزراعية "ملكية للشعب الإثيوبى"، بينمـــا قامت بتقسيمها ليستصلحها الراغبون فى الانضمام إلى الجمعيات التعاونية أو الفلاحية. وبجانب استصلاح الأراضى قامت حملة جماهيرية من أجل المساواة الاجتماعية ومحو الأمية فى الريف الإثيوبى وخاصة فى الجنوب. والتحق آلاف الطلاب فى المدن بـــ"الكتائب" التى كانت الحكومة ترسلها إلى المناطق الريفية لتحســين الأوضـــاع. وقــد أعطــت حماستهم اللجنة التنسيقية أول اتباع جماهيرى لها[١٦].

ولكن عندما تعمق النشطاء الراديكاليون الحضر أكثر وأكثر فى المناطق المنخفضة حيث كان للدولة الإثيوبية السابقة تأثير ضئيل، بدأوا يقعون فى المشاكل. فتزكية الإصلاح الزراعى باعتباره مبدأ لم يكن بالأمر الصعب؛ أما كسرهم الأنماط المحلية للسلطة والعادات الاجتماعية فقد وضعهم فى مأزق، وكان سلوكهم هو السبب الرئيسى فيه. فى ماآلى فى الجنوب واجهوا كارثة:

> **فى فعل شديد الوقاحة تم عــرض الــــ "چيرامانچـا" [الزعيم المحلى]، وهو يعتبر شبيهًا بالإله وهو يعيش فى عزلة بطبيعة الحال، فى موكب فى شوارع مدينـــة محلية... ما حدث [فيما بعد] ليس معلومًا على وجـــه الدقة، ولكن الكثير من الروايـــات تتفــق أن الطـــلاب دنسوا عن عمد الأوانى التى يأكل فيها الزعيم القبلـــى وبعد العشاء أهـــانوه علنًـــا. انتظــر أتبـــاع الـــزعيم الغاضبون حتى تجمع كل الطلاب فى مبنى مدرسة فى الحى، ثم قاموا بمحاصرة المبنى ثم أشعلوا المشاعل.**

وتقول التقارير إن جميع الطلاب لقوا مصرعهم في الحريق أو أطلق عليهم الرصاص وهم يلوذون بالفرار(١٧).

في أواخر ١٩٧٥ كان الزعماء المحليون في الدولة بأسرها قد أعلنوا الحرب على النظام، وكان باستخدام الجيش فقط أن استطاعت اللجنة التنسيقية أن تستعيد السيطرة على الموقف. في المدن، في الوقت نفسه، وقعت الحكومة تحت ضغط المنظمات اليسارية التي انتقدتها لأنها لا تقوم بالإصلاح على الوجه الكافي أو لأنها لا تملك الشرعية من الطبقة العاملة. وبعد محاولات غير ناجحة لضم الحركات اليسارية إلى المكتب المؤقت للشئون التنظيمية الجماهيرية، فقدت اللجنة التنسيقية في أبريل ١٩٧٦ الصبر على معارضيها اليساريين. ومع إعلان رئيس اللجنة التنسيقية تيفيري بانت ***Teferi Bante*** ونائبه منجستو أن من لا يرغبون في الانضمام إلى المكتب كانوا أعداء للثورة، بدأ حملة اضطهاد مكثفة للمعارضين اليساريين حيث تم القبض على معظمهم أو إعدامهم أو نفيهم(١٨).

ومع قيام اللجنة التنسيقية بشق اليسار ومضاعفة عدد أعدائها في صفوف المعتدلين والمجتمع الإثيوبي التقليدي، استمرت في طريقها الراديكالي. أما وقد أخذت الكثير من أفكار الماركسية اللينينية، في ١٩٧٦ استبدلت "الاشتراكية الإثيوبية" بما أسماه الزعماء برنامج إثيوبيا للثورة الديمقراطية الوطنية. وأعلنت اللجنة التنسيقية أن هدفها هو "القضاء الكامل على الإقطاع والرأسمالية البيروقراطية والإمبريالية في البلاد، وبناء جمهورية إثيوبيا الديمقراطية الشعبية على أسس قوية، من خلال التعاون بين القوات غير الإقطاعية وغير الإمبريالية وتمهيد الطريق نحو التحول إلى الاشتراكية"(١٩). كان البرنامج يقوم على التجربة السوفيتية، في لغة يمكن تمييزها مباشرة على الأسس الماركسية، ولكن كان صداها محدودا بالنسبة لمعظم الإثيوبيين.

التحرك نحو اليسار لم يساعد اللجنة التنسيقية فى قضية القوميات، التى سرعان ما أصبحت مشكلة رئيسية فى ١٩٧٦-١٩٧٧. أكثر الحركات الانفصالية التى تحدت النظام الإثيوبى كانت جبهة تحرير الشعب الإريترى ***Eritrean People's Liberation Front (EPLF)***، وهى مجموعة ماركسية تتلقى الدعم من اليمن الجنوبية وألمانيا الشرقية وكوبا والاتحاد السوفيتى. ومع رفض الجناح اليسارى فى اللجنة التنسيقية وجود حل وسط بخصوص "شبر واحد من التراب الوطنى" كما كانوا يقولون، سيطرت الجبهة تدريجيًا على معظم أراضى إريتريا الزراعية، تاركة المدن الرئيسية فقط فى أيدى الإثيوبيين. بالنسبة لمنجستو تحديدًا لم يكن إجراء أى مفاوضات مع الإريتريين أو أى حركة قومية أخرى ممكنًا إلا إذا أدركوا "الدور الرائد للحكومة الوطنية". وعندما امتلك المتحدث باسم اللجنة التنسيقية للشئون الخارجية سيساى هابت ***Sisay Habte*** الجرأة ليقول غير ذلك، تخلص منه منجستو وقتل رميًا بالرصاص(٢٠).

بعد تنفيذ حكم الإعدام فى سيساى فى يوليو ١٩٧٦، بدا وكأن النظام يذوب من الداخل. وبسبب رغبة منجستو فى أن يضحى بالآخرين من أجل قضية الاشتراكية، بدأ يفقد ثقة بعض رفاقه الذين عايشوه لزمن طويل داخل اللجنة التنسيقية، وفى الوقت نفسه تكثفت الهجمات المسلحة ضد الحكومة من قبل الانفصاليين والمنشقين اليساريين وممثلى النظام القديم. وفى نهاية العام لم يكن هناك سوى قلة من المراقبين فى أديس أبابا يعتقدون أن اللجنة التنسيقية قد تبقى فى السلطة لوقت أطول. كان رد فعل منجستو أن أخذ السلطة الكاملة داخل اللجنة. وفى إطلاق الرصاص على مقر الحكومة فى أوائل فبراير ١٩٧٧ تم اغتيال تيفيرى بانت، رئيس الدولة، ومعه خمسة من مناصريه. بعدها كشف منجستو النقاب عما أسماه "الإرهاب الأحمر" – أى محاولة قتل أكبر عدد ممكن من أعداء

النظام الحقيقيين أو المتخليين، ومن ثم إجبار السكان في المناطق الواقعة تحت سلطة اللجنة التنسيقية على الطاعة.

ورغــم أن منجستو مــا كــان أبدًا ليصدق ذلك، كان الإرهاب الأحمر هو ما جعل الولايات المتحدة تقطع علاقتها مع نظامه تمامًا. فكما قال بول هنز ***Paul Henze*** الذي خدم أولا في سفارة الولايات المتحدة في أديس أبابا ثم ضمن موظفي مجلس الأمن القومي للرئيس كارتر، كانت الولايات المتحدة في أوائل السبعينيات "تقف جانبًا أثناء انهيار سلطة هيلا سلاسي"[٢١]. وقد تزامن سقوط الإمبراطور مع أزمة ووترجيت وانهيار الأنظمة التي كانت تدعمها الولايات المتحدة في الهند الصينية، وهو الأمر الذي لم يساعد من كانوا يطالبون في واشنطن بمنهج أمريكي أكثر نشاطًا في القرن الأفريقي. أثناء رئاسة فورد، كانت سياسة كيسنجر في إثيوبيا هي محاولة العمل مع النظام الجديد في أديس. كان وزير الخارجية مقتنعًا بأن الإثيوبيين، لأسباب أمنية، لن يخاطروا بعلاقتهم بالولايات المتحدة ما دام أن الاتحاد السوفيتي يزود أعداءهم في مقديشيو وإريتريا بالأسلحة، ومــن ثم كــان كثيــرا ما يتدخل للإبقاء على استمرار المساعدات العسكرية للجنة التنسيقية[٢٢]. وقد وضع مساعد كيسنجر العسكري برنت سكوكروفت ***Brent Scowcroft*** إثيوبيا في قائمة من ست دول ينبغي أن تتلقى مساعدات عسكرية إضافية بعد سقوط كمبوديا. وكتب سكوكروفت أن مثل هذه المساعدات التي تأتي في وقت تزداد فيه التهديدات من الصومال وإريتريا "سوف تساعد على المحافظة على تأثيرنا في إثيوبيا في وجه الحكومة الجديدة وموقفها المتشكك في الولايات المتحدة"[٢٣]. وأخبر كيسنجر الرئيس فورد في مايو ١٩٧٦ أن "أصدقاءنا في أفريقيا انتابهم الخوف مما رأوه في أنجولا، وكون الولايات المتحدة قد انسحبت من أفريقيا، وأنهم يواجهون الهيمنة السوفيتية". وكان الوزير يعتقد أن زيادة الدعم "لأصدقاء واشنطن التقليديين" في القارة قد يغير هذا الاتجاه إلى العكس[٢٤].

بالنسبة لإدارة كارتر، مع تأكيدها حقوق الإنسان باعتبارها مبدأ مرشدًا فى السياسة الخارجية، بقى النظام الإثيوبى نقطة مظلمة منذ اللحظة التى دخل فيها الرئيس الجديد البيت الأبيض. ومع تلقى الرئيس معلومات غزيرة عن تصعيد الإرهاب الأحمر، أمر بإعادة النظر فى العلاقات الأمريكية مع نظام منجستو، بما فى ذلك كاجنيو، ***Kagnew***، قاعدة الاتصالات الحساسة التى كانت تديرها الولايات المتحدة فى أسمرة بإريتريا. وأخبر هنز بريجنسكى فى مارس ١٩٧٧ أنه "بإغلاق كاجنيو سنوصل رسالة سياسية للنظام العسكرى الإريترى فحواها أننا نفك ارتباطنا به"[٢٥]. بعد ذلك بشهر واحد، ومع تلقى الرئيس تقارير استخباراتية بأن اللجنة التنسيقية كانت تعد العدة – لأسباب لديها – لكى تتخلص من الأمريكيين خارج إثيوبيا، قرر أن يسحب كل الرعايا والموظفين الأمريكيين – أن "تتحرك لنستبق تحركاتهم"[٢٦]. فى يونيو اقترح بريـــجنسكى على الرئيس أن تعيد الولايات المتحدة النظر فى مسألة منح المساعدات للصومال فى مواجهتها مع نظام منجستو. وقال بريـــجنسكى إن الوضع المتردى لحقوق الإنسان فى إثيوبيا وتثبيت المواقف السوفيتية فى البلاد أمران متلازمان[٢٧].

فى منتصف يونيو، فى اجتماع هزلى مع السفير الصومالى فى واشنطن، أشار كارتر إلى تحول كبير فى دعم الولايات المتحدة للنظام فى مقديشيو. وكما فعل بعد ذلك فى شأن الغزو الصينى لفيتنام، كان كارتر "يأمل أن يتم حل المشكلات مع إثيوبيا بشكل سلمى" من ناحية؛ ومن ناحية أخرى أخبر السفير "إننا نهتم بمعرفة احتياجاتكم على نحو أوضح" و – ومع عدم الوعد بتقديم أسلحة أمريكية – أخبر الصوماليين أن الحكومة الأمريكية قد ناقشت مع أصدقائها الأوروبيين ومع السعوديين "مدى أهمية ارتباط [الصومال] بنا كدولة ديمقراطية". بعد أن استمع كارتر إلى قناعات السفير "إدو" الجديدة بأن "الشعب الصومالى شعب ديمقراطى جدًا بطبيعته" وأنه "علينا إما أن نقاوم الضغوط السوفيتية أو أن نخضع"، غادر

الغرفة ثم عاد ومعه مجلد من الصور الفوتوغرافية للقرن الأفريقى التقطتها المخابرات الأمريكية قد التقطتها بالقمر الصناعى كهدية وداع للسفير الصومالى. وبذلك كانت رسالته واضحة: فالولايات المتحدة لن تتورط بشكل مباشر فى الحرب الدائرة، ولكنها تريد أن تساعد الصومال على نحو سرى وبالوكالة(٢٨).

فى أواخر صيف ١٩٧٧، ومع قناعة واشنطن المتزايدة بأن نظام منجستو كان يتهاوى تحت وطأة ضغوط الصوماليين والمعارضة الداخلية، تبنت استراتيجية مزدوجة من الدعم غير المباشر للصومال والمحاولات السرية لخلع الحكومة الإثيوبية، ووضعت الدولة "مرة أخرى على طريق التطور السياسى البناء المرتبط بالعالم الحر". واقترح هنز فى أغسطس أن تستخدم الولايات المتحدة محاولات منجستو المتجددة للحوار مع واشنطن لمساعدة المعارضة الداخلية للقيام بانقلاب. وتوقع خبير مجلس الأمن القومى فى الشأن الإثيوبى أن الصوماليين باستطاعتهم أن "يسيروا إلى أديس أبابا ويخلعوا منجستو من كرسيه"، ولذا كان من رأيه أن أى زعيم سليم الرأى فى أديس أبابا قد يريد استباق هذا الموقف بالتخلص من منجستو واللجوء إلى الولايات المتحدة ومن ثم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الدولة الإثيوبية(٢٩). ووفقا لواشنطن كان وقت القيام بتجربة ثورية فى إثيوبيا قد نفد، وهى – أى واشنطن – تريد أن تصلح ما تم تدميره، على الأقل للمساعدة فى طرد السوفيت إلى خارج البلاد.

ظهور التحالف السوفيتى الإثيوبى

فى ١٩٧٤، لم تتعاطف السفارة السوفيتية فى أديس أبابا كثيرًا مع الراديكاليين الإثيوبيين. تعليقًا على الاضطرابات التى سبقت خلع الإمبراطور، قالت السفارة بحذر إنها "غير مستعدة لتصنيف هذه الأحداث باعتبارها ثورة". وبما أن

الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأخرى كانت لها إمكانات محدودة للتأثير فى الموقف، وخاصة بسبب "غياب النفوذ فى الجيش"، فإن موسكو قد تأخذ موقفًا حذرًا للغاية، فتحتفظ بروابط الولاء مع الإمبراطور وفى الوقت نفسه لا تبعد القوى الجديدة[٣٠]. ولما كانت السفارة ترى أن كلا من النظام الجديد والقديم كان يمثل الطبقة الحاكمة التقليدية، فإنها أرادت أن تقوى مواقف الاتحاد السوفيتى السياسية فى إثيوبيا أيا كانت نتيجة الصراع السياسى[٣١].

لم يؤد خلع هيلا سلاسى إلى تغيير وجهة نظر السفارة. فى تقرير متكامل فى أوائل خريف ١٩٧٤ كانت سفارة أديس قلقة أساسًا بشأن زيادة التأثير الصينى فى المنطقة، نتيجة للموقف السياسى غير المستقر والتحالف السوفيتى مع الصومال. كانت السفارة تخشى أن يكون القرن الأفريقى منطقة للتعاون بين الولايات المتحدة والصين والقوى المحلية المعادية للسوفيت والمعادية للاشتراكية، وحذرت من أن السفير الصينى فى أديس أبابا لم يخفِ رضاه عن سير الأحداث فى إثيوبيا[٣٢].

لم تدرك اللجنة التنسيقية كره السوفيت التورط فى الثورة الإثيوبية، فبادرت بتنظيم أول اجتماع مع مسئولى السفارة فى الحادى والعشرين والثانى والعشرين من سبتمبر. كان إنيو فيريدا ***Enio Fereda*** هو مبعوث اللجنة التنسيقية والتقى بقنصل السفارة السوفيتية سيرجى سينيتسن ***Sergei Sinitsin***. وزود هذا اللقاء السوفيت بمعلومات مفيدة. فوفقًا لما قاله فيريدا، فإن عددًا كبيرًا من أعضاء اللجنة التنسيقية، نحو ستين أو سبعين، اشتركوا فى الأفكار حول "الاشتراكية العلمية"، ولما كان هناك عدد من الأعضاء المحافظين فى اللجنة، فقد فضل التقدميون أن يخفوا قناعاتهم، على الأقل مؤقتًا، و"ألا يفصحوا جهرًا [أنهم] يعتبرون أن مهمتهم الأساسية هى إزالة الانقسام بين الأغنياء والفقراء، والتقدم الاجتماعى والاقتصادى

لإثيوبيا تحت مظلة الدستور الجمهوري"[٣٣]. وأخيرًا، كما قال فيريدا، قد يكون على المرء أن يتعارك مع المحافظين في اللجنة، "ولكن في ظل الظروف الحالية، ليس للجنة أيديولوچيتها الخاصة ولا برنامجها السياسي الملموس"[٣٤].

كان اللقاء بين فيريدا وقنصل السفارة السوفيتية هو الاختراق الأول للجنة التنسيقية. أما اللقاء التالي في نوفمبر ١٩٧٤ فقد اعتبره الطرفان أكثر أهمية[٣٥]. شارك من الجانب الإثيوبي رئيس قسم العلاقات العامة في المجلس العسكري الإداري المؤقت فسك جيدا ***Fessek Gedda***، ومن الجانب السوفيتي وكيل أول السفارة السوفيتية فيكتور روماشكين ***Viktor Romashkin***. كانت المقدمة الرسمية للقاء عرض فيلم عن كاسترو كوبا في السفارة السوفيتية. لكن أثناء المحادثات تحدث فسك بالتفصيل عن الموقف السياسي في اللجنة التنسيقية والأهداف السياسية لجناحها اليساري. وأخبر روماشكين أن منجستو هيلا ميريام هو زعيم الثورة ومنظمها الحقيقي وأن منجستو نفسه وعددًا من رفاقه المقربين في المجلس يرون أن "التوجه الاشتراكي" هو الموقف الملائم لإثيوبيا[٣٦].

ورغم أن تصريحات فسك خلقت نوعًا من التفاؤل مبنيًا على الأسس الأيديولوچية لدى النواب السوفيت المحليين، فإنها لم تغير موقف السفارة الحذر بوجه عام. في تقريرها السنوي عام ١٩٧٤ وصفت السفارة التغيرات السياسية في إثيوبيا بأنها كانت "ثورة معادية للإقطاع"، وأكدت الطابع الانتقالي للمرحلة. حتى منجستو نفسه بدا في التقرير أنه ممثل عن "ميول ديمقراطية البرجوازية الصغيرة"، وذكر التقرير أن "غرابة الموقف الداخلي في إثيوبيا تتمثل في أنه مازال من الصعب التنبؤ تحديدًا بالانتصار الكامل والحتمي للميول الثورية الديمقراطية في حركة ضباط الجيش، ومن ثم قيام نظام شبيه بالنظم القائمة في الدول الأفريقية التقدمية"[٣٧].

كان لدى الكرملين تقارير إيجابية قليلة من ممثليه فى أديس أبابا للبناء عليها، عندما قام المجلس العسكرى الإدارى المؤقت ***PMAC*** فى يناير ١٩٧٥ بالتقرب من الاتحاد السوفيتى طلبا للمساعدة العسكرية. أثناء محادثة فى ذلك الشهر بين السفير السوفيتى أناتولى راتانوف ***Anatolii Ratanov*** ورئيس المجلس الإدارى العسكرى الاحتياطى تيفيرى بانت ***Teferi Bante***، بدأ تيفيرى كلامه موضحا أن "إثيوبيا تعتمد على المساعدات السياسية والاقتصادية والعسكرية من الاتحاد السوفيتى – القوة الكبرى التى تتوافق سياستها وأيديولوچيتها مع سياسة إثيوبيا وأيديولوچيتها ". وشرح الزعيم الإثيوبى بعد ذلك أن نظامه يأمل أن يقوم الاتحاد السوفيتى بمساندة إثيوبيا فى علاقاتها مع الغرب، فى سعيها للتكامل الإقليمى رغم ضغوط الإيرتريين والصوماليين وفى تنمية الاقتصاد والتعليم. كانت المشكلة الرئيسية للزعماء الإثيوبيين الجدد هى المساعدات العسكرية. أوضح تفيرى بانت أن أهداف الثورة الإثيوبية قد تسبب صعوبات مع الولايات المتحدة، التى ظلت إلى الوقت الحالى المزود الأساسى لإثيوبيا بالأسلحة. وقال إن المجلس لا يثق بالأمريكيين، الذين يسعون الآن إلى تقويض النظام الجديد. ولذا كان من الضرورى لإثيوبيا أن تحصل على الدعم العسكرى السوفيتى(٣٨).

وجه مطلب تيفيرى مشكلة حقيقية لصناع السياسة السوفيت، فقد كانوا بلا شك يريدون تحسين العلاقات مع إثيوبيا- فى الحقيقة كان النشاط فى المسألة الإثيوبية يتواكب مع السياسة السوفيتية الجديدة تجاه أفريقيا، التى كانت آخذة فى الظهور منذ ١٩٧٠. لكنهم لا يستطيعون أن ينخرطوا فى علاقات مع أديس أبابا بأسلوب من شأنه أن يدمر العلاقة بين موسكو ومقديشيو. وكان البدء فى التزام عسكرى مع اللجنة التنسيقية يعنى تدمير العلاقة مع سياد برى واحتمال نهاية وجود القواعد السوفيتية على الساحل الصومالى. الحل الوحيد بالنسبة لموسكو كان أن تحتفظ بنوع من العلاقات مع كلتا الدولتين، مما كان يعنى فى ذلك الوقت علاقات

محدودة فقط مع أديس أبابا. وعندما التقى السوفيت بالنواب الإثيوبيين في المؤتمر الثاني لحزب العمال الكونغولي في برازافيل في أوائل ١٩٧٥، كانوا "شديدي الحذر والتحفظ" وفقًا لتقرير من مبعوث الحزب الإيطالي(٣٩).

في الحادي عشر من فبراير التقى السفير السوفيتي راتانوف بزعماء المجلس العسكري الإداري المؤقت وقرأ عليهم بيانًا من الحكومة السوفيتية ردًا على مطلبهم. في البيان أكد الكرملين للمجلس تعاطف الشعب السوفيتي مع بناء مجتمع تقدمي جديد في إثيوبيا، وقال إن هناك حاجة إلى تطوير اتصالات قوية بين الدولتين. "من حيث المبدأ" الحكومة السوفيتية مستعدة أن تستقبل وفدًا من المجلس إلى موسكو، ولكن الوقت لازال مبكرًا لتحديد موعد لمثل هذه الزيارة". أما فيما يتعلق بالتعاون العسكري، فقد عبر البيان عن الموافقة السوفيتية على إرسال وفد عسكري إلى أديس أبابا "لدراسة هذا الأمر"(٤٠).

بيد أن معنى هذا البيان السوفيتي، بما فيه من عبارات حذرة وملتوية، كان خافيًا على الزعماء الإثيوبيين. فبدلا من أن يلعبوا بنعومة على النواب المحليين لموسكو، قررت اللجنة التنسيقية أن تقدم لهم قائمة متكاملة بالأمنيات الإثيوبية. في خطابه في ١١ مارس، أخبر تيفيري بانت، وهو يشير إلى موافقة السوفيت على إرسال وفد عسكري إلى إثيوبيا، أخبر راتانوف أن الزعماء الإثيوبيين كانوا يأملون أن يصل الوفد خلال سبعة أو عشرة أيام، وأن يضم ممثلين رفيعي المستوى من الجيش والقوات الجوية والبحرية، وأن المهمة ستكون "سرًا لابد من كتمانه"وبعد مناقشات مبدئية في أديس أبابا، ستقوم إثيوبيا بإرسال وفد إلى موسكو للتوصل إلى اتفاق نهائي(٤١).

لماذا حاول النظام الإثيوبي بكل هذا الجهد أن يتحالف مع الاتحاد السوفيتي؟ أحد الأسباب كان الرغبة في الحد من الاعتماد على الولايات المتحدة في الإمدادات

العسكرية. كانت العلاقة بالولايات المتحدة فى نظر الجناح الراديكالى للجنة التنسيقية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسياسات النظام القديم، وكانوا يشكون فى أن واشنطن تساند المجموعات المعادية للثورة. كذلك ربط منجستو والراديكاليون بين الولايات المتحدة والإمبريالية الغربية، التى كانوا يرونها تهديدًا للحركات الاشتراكية فى القارة الأفريقية. وقد أصبحت هذه النظرة معلنة مع زيادة النقد الأمريكى الموجه إلى الحكومة الإثيوبية فى أعقاب المشكلات الأولى فى اللجنة التنسيقية فى أواخر ١٩٧٤.

كان وجود تحالف مع الاتحاد السوفيتى من شأنه أن يزود اللجنة التنسيقية بشرعيتها التى تحتاج إليها بين مناصريها المحليين الرئيسيين[٤٢]. وبتوقيع اتفاقيات مع موسكو، أمل زعماء اللجنة التنسيقية أن يحصلوا على تأكيد خارجى على صحة استراتيجيتهم التنموية، ومن ثم وسيلة لدحض النقد الموجه إلى النخبة الحاكمة. وعندما يتم اعتبار موسكو فى صف راديكاليي اللجنة التنسيقية، فإن ذلك سيساعدهم على القضاء على الحركات اليسارية الأخرى، التى كانت تتحدى المصداقية الاشتراكية لضباط الجيش الصغار.

وفى حين لم يتحقق التحالف مع السوفيت، كانت اللجنة التنسيقية سعيدة بوضع خطط جديدة للدعم العسكرى الأمريكي، ما دام أن الأمريكيين لا يحاولون عرقلة خطط اللجنة من أجل التحول الاجتماعى. وبين منتصف ١٩٧٤ وخريف ١٩٧٦ زودت واشنطن أديس أبابا بما قيمته ١٨٠ مليون دولار من الأسلحة، رغم المشكلات السياسية بين الدولتين. وجادلت إدارة فورد، وتحديدًا هنرى كيسنجر، بأن الولايات المتحدة عليها أن تدعم إثيوبيا بسبب استمرار الدعم السوفيتى للصومال وبسبب أهمية قاعدة الاتصالات الأمريكية فى أسمرة. إلى درجة أن استمرت وزارة الخارجية الأمريكية حتى منتصف ١٩٧٦، تقول إن العلاقة

الإثيوبية مع السوفيت "لا تؤدى إلى معارضة منظمة للولايات المتحدة، وإنما تسمح بفرصة كبيرة للتعاون المستمر"(٤٣).

ولكن الجانب الآخر من سياسات التحالف لدى اللجنة التنسيقية كان اقتناع زعمائها بأن الاتحاد السوفيتى سيوفر لها ما تحتاجه من مساعدة. وقد فهمت السفارة السوفيتية هذا الموقف - ونوع النفوذ الذى تعطيه لموسكو على النظام الإثيوبى الجديد. كما لاحظ السفير التأثير السياسى لإلغاء الملكية فى مارس ١٩٧٥ مقارنًا ذلك بسقوط أسرة رامانوف فى روسيا فى ١٩١٧ ورأى أن ذلك يعد تحولا دراميًا نحو اليسار، وأوضح مدى "حساسية" النظام الجديد فيما يخص المصالح السوفيتية السياسية فى المنطقة، فى إريتريا على سبيل المثال. وأشارت السفارة إلى أن "تطور التعاون السوفيتى الإثيوبى فى المجال العسكرى يعطينا الفرصة لتقوية موقف الاتحاد السوفيتى فى هذه المنطقة المهمة استراتيجيًا ولممارسة تأثيرنا فى كل من إثيوبيا والصومال وغيرهما من دول حوض البحر الأحمر فى الاتجاهات التى تفيدنا". وحذرت السفارة من أن الرفض السوفيتى للعرض الإثيوبى قد يعنى تدمير الجناح الديمقراطى الثورى للمجلس العسكرى الإدارى المؤقت ويهدد باختراق أمريكى أو صينى لإثيوبيا(٤٤).

وبناء على توصيات السفارة، قررت موسكو إرسال وفد عسكرى إلى أديس أبابا، بل حاولت أن يكون فى مكانه فى الوقت الذى طلبه فيه تفيرى بانت. وقوبلت المهمة السرية التى وصلت فى ٢٠ مارس ١٩٧٥ تحت رئاسة الـجنرال شكوريكوف بمطالب متعددة من الجانب الإثيوبى. فقد كان النظام فى أديس لا يرضى بأقل من إعادة تنظيم كاملة للقوات المسلحة فى خطة خمسية، بمساعدة مستشارين عسكريين سوفيت وشحنات سوفيتية وأوروبية شرقية من الأسلحة والمعدات. كان الهدف من الخطة، وفقًا لما قاله الإثيوبيون، هو تحرير أديس أبابا من تبعيتها للولايات المتحدة(٤٥).

حمل الوفد الإثيوبى الذى سافر إلى موسكو فى أبريل رسالة رفيعة المستوى من اللجنة التنسيقية إلى القيادة السوفيتية. فى هذه الرسالة قدم الزعماء الإثيوبيون اقتراحاتهم الملموسة من أجل التعاون العسكرى. وقالوا إن بعض الاحتياجات كانت ضرورية، بسبب رغبتهم فى الحد من اعتماد إثيوبيا العسكرى على الولايات المتحدة، ولتغيير نظرة صغار الضباط الإيجابية عن أمريكا. كان كم الأسلحة المطلوب فى الفترة المبدئية "متواضعًا نسبيًا"؛ بيد أن الثورة الشاملة فى الجيش كانت ضرورية على المدى البعيد. وبينما كانت المهمة الرئيسية فى الفترة الأولى هى تجنب "نقص الأسلحة مما قد يكون مدمرًا للكفاءة القتالية لقواتنا المسلحة"، فإن الهدف الأبعد كان هو التحول الاشتراكى للجيش. أوضحت اللجنة "عندما قدمنا مطالبنا، كنا نفكر جيدًا فى مسألة الحد من المخاطر المحتملة فى الفترة الانتقالية، الذى قد يقود إلى فراغ خطير. كما اقترحت أيضًا تواجد مختلف الأنظمة [العسكرية] مما كان يتطلب خلطًا عقلانيًا بين المبادئ العسكرية التى قد لا تكون مرتبطة ببعضها بعضًا". بعبارة أخرى فإن اللجنة التنسيقية مع ميلها نحو الاشتراكية، تنبأت بوجود مساعدات عسكرية أمريكية وسوفيتية لنظامها على المدى القصير. ولكونهم عسكريين، يستمدون القوة من البنادق والحراب، أدركوا أنهم لن يتحملوا مغبة إهمال طموحات زملائهم فى وجود أسلحة أكثر تقدمًا(٤٦).

حتى بعد مفاوضات موسكو، التى اعتبرها الإثيوبيون فتحًا جديدًا فى العلاقات مع السوفيت، لم تأت المساعدات العسكرية سريعا، وعندما هموا بالانصراف من الاتحاد السوفيتى، لم يتلق ممثلو اللجنة التنسيقية سوى وعد بأن يتم الرد على اقتراحاتهم فى خلال شهر(٤٧). بقيت القيادة السوفيتية مترددة. ورغم أن مفهوم التطور نحو الاشتراكية فى كلتا دولتى القرن الأفريقى كان جذابًا، فإن الغموض فى الموقف السياسى فى إثيوبيا قد فاق الفوائد المحتملة، ثم إن موسكو كانت تجد أن مطلب المجلس المؤقت للمساعدات العسكرية مبالغ فيه. فى حواره مع تيفيرى بانت

في ١٥ يوليو ١٩٧٥، أوضح السفير راتانوف أن موسكو تدرك "ضرورة" التعاون السوفيتي الإثيوبي العسكري المستقبلي. وأردف قائلا "لكن الكم الذي تطلبونه كبير جدًا". وأوضح السفير أن الاتحاد السوفيتي في العادة يصل إلى هذا المستوى من التعاون العسكري مع الدول الأخرى بعـد خمسة عشـرة عامًا من العلاقات – أو يزيد. ولكن تيفيرى ضغط عليه مرة أخرى عندما قال إن تحديث إثيوبيا كان يعتمد على وجود جيش حديث ليدافع عن الثورة[٤٨].

لكن موسكو لم تستطع أن تتخذ قرارًا بما إذا كانت تزود إثيوبيا بالأسلحة أم لا. ومر شهر تلو الآخر بعد عودة الوفدين الأولين ولم تسمع أديس أبابا شيئًا عن الأسلحة السوفيتية التي توقع النظام في إثيوبيا أن تصل بعد عودة الوفود من موسكو مباشرة. خاب أمل الزعماء الإثيوبيين في العلاقات الخارجية في صيف ١٩٧٥ وخريفه، ولم يفهموا سبب عدم استجابة الاتحاد السوفيتي لمطالبهم، وذهبوا في عدة مناسبات للقاء السفير السوفيتي وطرح شكاواهم وهواجسهم، وأشار رئيس اللجنة السياسية للجنة التنسيقية سيساى هابت ***Sisay Habte*** لراتانوف، في مناسبة واحدة على الأقل، أن هناك طرقًا "بديلة" لإعادة تنظيم الجيش الإثيوبي[٤٩].

كان نفاد صبر اللجنة التنسيقية في الحصول على الدعم السوفيتي مفهومًا نظرًا للموقف في إثيوبيا، فقد بدأ المتمردون الإيريتريون يرون سقوط الجنرال أندوم علامة على ضعف النظام، وبدأوا هجمات جديدة على القوات التابعة للحكومة. في أوجادين ***Ogaden***، المنطقة التي يغلب عليها الصوماليون في الشرق، كانت هناك اضطرابات جديدة. وبدا أن العلاقات مع واشنطن كانت تسوء، جزئيًا بسبب ردود أفعال الولايات المتحدة ضد النزعة الاشتراكية للنظام الجديد، وضد سجله في حقوق الإنسان. وفي خضم هذه الظروف، وجد النظام الإثيوبي نفسه "بين خطرين"، كما قال أحد المسئولين الإثيوبيين – أن يفقد الدعم الأمريكي وأن يفشل في الحصول على روابط جديدة مع السوفيت[٥٠].

وعندما حصلت أديس أبابا أخيرًا على رد من موسكو، في الخامس عشر من نوفمبر ١٩٧٥، وجدت اللجنة التنسيقية أن الخطط المطروحة للتعاون كانت محدودة للغاية. فقد راهن النظام الجديد بالكثير من سياسته الخارجية – وبجزء من شرعيته المحلية – على التحالف السوفيتي. وكان ما قدمته موسكو أضحوكة: المساعدة بالتدريب العسكرى ومعدات اتصال للاستخدام العسكرى والمدنى. واستنتج زعماء اللجنة التنسيقية أن الاتحاد السوفيتى كان يركز كثيرًا على التحالف مع الصومال، فلن يسلم معدات عسكرية ذات أهمية حقيقية للإثيوبيين. في المفاوضات السوفيتية الإثيوبية فى أديس أبابا في يناير ١٩٧٦، بدت رئاسة اللجنة التنسيقية عازمة على حسم الأمر، غير راضية بحلول الوسط: فإما التوقيع على اتفاقية شاملة أو عدم التوقيع على اتفاقيات نهائيًا. وقد أعطى رئيس الوفد السوفيتى ف.إ.كوزنتسوف ***V.E.Kuznetsov*** الإثيوبيين مشروع اتفاقية بمنحهم ما قيمته ٣,٥ مليون روبل من معدات الاتصالات والهندسة، بالإضافة إلى ١٦,٥ مليون روبل من المعدات التقنية الأخرى. ورفضت رئاسة اللجنة التنسيقية الاتفاقية بشكل رسمى. وقال ممثلها أديس تدلا ***Addis Tedla*** ببرود إن الجانب الإثيوبى يفهم أن الصعوبات التى يواجهها الاتحاد السوفيتى تنبع من التزامه نحو "الدولة الأخرى فى المنطقة" (أى الصومال)، ويقترح أن تتوقف المفاوضات فى الوقت الحالى، وتجمدت العلاقات بين أديس أبابا وموسكو[٥١].

أدى الرفض السوفيتى لتسليم إثيوبيا أسلحة إلى استمرار المجلس العسكرى الإدارى المؤقت فى احترام الاتفاقيات التى كانت قد وقعها مع الولايات المتحدة. ولكن السفارة السوفيتية، عن علم أو بدون علم، أخطأت قراءة الرسالة الموجهة من استمرار بيع الأسلحة الأمريكية: فقد أرسلت تقريرًا إلى موسكو تقول إن المجلس رفض العرض السوفيتى للتعاون العسكرى المحدود، بسبب خوفه من العقوبات الأمريكية ضد إثيوبيا، التى قد تنجم عن مجرد التعاون المحدود مع موسكو. كما

سجلت السفارة وجود اتصالات متزايدة مع إسرائيل والصين(٥٢). منذ ربيع ١٩٧٥ حاولت السفارة بكل جهد أن تثبت لموسكو القدرة على الاعتماد على النظام الإثيوبى وزعمائه، وعلى رأسهم منجستو هيلا مريام. وأكد الملحق العسكرى السوفيتى فيكتور بوكيدكو ***Victor Pokidko*** أنه كان هناك فصيل فى رئاسة المجلس جاد جدًا بشأن الإصلاحات الاشتراكية فى إثيوبيا، وأن تأثير هذا الفصيل كان يتصاعد. حاول بوكيدكو أن يشتت شكوك زعماء الكرملين فى شعار النظام "إثيوبيا أولا" ***Ethiopia Tikdem***، وقال بوكيدكو إن أعضاء الفصيل التقدمى فى المجلس "فهموا أن الاشتراكية لا يمكن أن تكون 'إثيوبية' أو 'تنزانية' أو من أى نوع. يمكن فقط أن تكون اشتراكية علمية حقيقية"(٥٣).

ومع التحذير من آثار الرفض السوفيتى لبيع أسلحة متقدمة، استمر راتانوف فى زيادة مزايا زعماء النظام الإثيوبى اليساريين. ذلك يشير إلى أن الفريق منجستو هيلا مريام هو أكثر أعضاء المجلس تأثيرًا وأن غالبية اللجنة التنسيقية تؤازره. كانت تلك الأغلبية تناضل من أجل الإصلاحات التقدمية فى إثيوبيا وتحاول إيجاد علاقات قريبة مع الدول الاشتراكية. فى الوقت نفسه كانت مستعدة "لتحارب بجدية [ضد] أعدائها السياسيين". وأكدت السفارة أن منجستو هو الذى أصر على إعدام واحد وخمسين "رجعيًا" فى نوفمبر ١٩٧٤، لكى يظهر أنه زعيم لا ينحنى لأنصاف الحلول(٥٤). كان هدف السفير هو أن يظهر لموسكو أن النظام فى إثيوبيا أصبح من الأسهل الاعتماد عليه وإدارته.

فى أوائل ١٩٧٦ أوضح السفير راتانوف وملحقه العسكرى لموسكو الاستخدام الاستراتيجى لإثيوبيا فى الأغراض العسكرية السوفيتية. وأكد راتانوف فرصة الاتحاد السوفيتى لزيادة تأثيره فى المنطقة ككل (إثيوبيا والصومال والسودان)، واحتمال قيام البحرية الحمراء بعمليات فى البحر الأحمر. كما حذر من ازدياد

تأثير الولايات المتحدة والصين لو لم تستجب موسكو إيجابيًا لمطالب الزعماء الإثيوبيين. فالبناء على العلاقات مع الصومال وحدها قد يكون مدمرًا، فلو أن القوى الأخرى احتلت هذا "الفراغ"، فقد تخاطر موسكو بفقدان مواقعها فى الصومال أيضًا(٥٥).

فى محادثاته الأخيرة مع زعماء المجلس كان على السفير راتانوف أن يدافع عن الموقف السوفيتى المنسحب من القرار النهائى بشأن الدعم العسكرى، ناهيك عن التحالف العسكرى. وأكد أن الاتحاد السوفيتى كان يؤيد التعاون العسكرى ولكن الإثيوبيين قد طالبوا بالكثير وبسرعة(٥٦). لكنه ظل يقترح حلولا وسطًا على رؤسائه فى موسكو. فبعد فشل زيارة كوزنتسوف إلى إثيوبيا ومعها اقتراحات التعاون المحدود، اقترح راتانوف تقديم عرض أشمل من المساعدات العسكرية السوفيتية بتسليح البحرية الإثيوبية وقوات الدفاع المضادة للطائرات والميلشيات الجديدة. وقد قبلت موسكو هذا الاقتراح وقامت بعرضه أثناء زيارة الوفد الإثيوبى فى يونيو ١٩٧٦. وكان من دواعى دهشة السوفيت أن رفض المجلس هذا العرض أيضًا(٥٧).

ويبدو منطقيًا أن العناد الملحوظ للمجلس فى المفاوضات كان قائمًا على ثقته من النتائج الإيجابية. فقد شكت السفارة السوفيتية أن يكون ممثلو كوبا وأوروبا الشرقية قد ألمحوا لمنجستو أن موسكو ستوافق على ما يريد فى النهاية. ففى خطاب لها بعد مفاوضات يوليو فى موسكو قالت السفارة إن التردد الإثيوبى بخصوص نتائج اتفاقية التعاون العسكرى مع الاتحاد السوفيتى سببه الخوف ألا يوافق السوفيت على إعادة التسليح الكامل للقوات المسلحة الإثيوبية، أى الشك أنه بعد الموافقة على منح المساعدات للبحرية والقوات المضادة للطائرات، لن يكون السوفيت مستعدين لإعادة تسليح القوات الجوية أو منح إثيوبيا دبابات(٥٨).

وأكدت السفارة بوضوح أن على الاتحاد السوفيتي التفكير مليًا في إرساء علاقاته مع النظام الجديد. أما بالنسبة لسفارة أديس أبابا فكان المحتوى السياسي لحكم اللجنة التنسيقية هو ما يهم.

كان الجناح اليساري من اللجنة التنسيقية، بزعامة منجستو هيلا ميريام يريد أن يستخدم العلاقة مع السوفيت للحصول على المساعدات السياسية ولإقناع موسكو بأنه جدير بالثقة، وأكد على رغبته في التعلم من الممارسات السوفيتية في "بناء الاشتراكية" وتنظيم المجتمع. ومنذ محادثاته الأولى مع السفير السوفيتي، طالب منجستو ببرامج لإرسال شباب الإثيوبيين إلى موسكو للتعلم والتدريب السياسي. وأن المرشحين سوف يدرسون نظرية أنشطة الحزب الشيوعي السوفيتي وأنشطة النقابات العمالية وجمعيات الشباب وجمعيات المرأة. كما سيدرسون الماركسية أيضًا[٥٩]. كان برنامج الثورة الديمقراطية القومية في أبريل ١٩٧٦، الذي أصبح ميثاق القيادة السياسية الجديدة، هو قسم الولاء للأفكار السوفيتية في نظر السفير السوفيتي. فقد عكس سياسة أساسية للتطور التدريجي للاشتراكية العلمية على يد حزب طليعي من "الديمقراطيين الثوريين" ولم يحتو على أي إشارة إلى الاشتراكية "الإثيوبية" أو "الأفريقية"، على عكس ما كانت قد أصدرته اللجنة التنسيقية من بيانات سابقة[٦٠].

في تقريرها السنوي لعام ١٩٧٦، أخبرت السفارة السوفيتية موسكو بأن النتائج العملية للبرنامج كانت تتمثل في بدء دراسة إلزامية لنظرية الاشتراكية العلمية في الجيش والشرطة والمؤسسات الحكومية والمصانع والمزارع الكبرى، بأوامر من المجلس العسكري الإداري المؤقت". بالإضافة لذلك، أصبحت مناقشة قضايا الاشتراكية ونشرها في الصحافة من الأمور المعتادة. وأعلنت السفارة بفخر أن "كل ذلك أدى إلى زيادة الاهتمام بالماركسية اللينينية وبتحقيقها عمليًا في الاتحاد

السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى، الأمر الذى خلق أسسا لتقوية تأثيرنا الأيديولوجي". ورأت السفارة السوفيتية أن النظام الإثيوبى يحمل كل الدلائل على رغبته فى تطوير دولة ذات توجهات اشتراكية(٦١).

كما أعجب السفير السوفيتي بإزالة منجستو هيلا ميريام لمنافسيه السياسيين بلا رحمة. في منتصف يوليو ١٩٧٦، عشية زيارة الوفد الإثيوبي إلى موسكو، تمت تصفية أبرز معارضي منجستو في اللجنة التنسيقية، سيساى هابت ***Sisay Habte***، وإعدامه مع ثمانية عشر من معاونيه. وأصبح فى نظر السفير راتانوف، بعد أن محا أعداءه "زعيمًا شديد البأس لا يداهن". وفى رصدهم لنشاطات مناصرى منجستو داخل اللجنة التنسيقية برضا، لاحظ الممثلون السوفيت المحليون ما بها من تشابه مع التجربة السوفيتية الباكرة في روسيا حيث كان أعداء الشعب يقتلعون من جذورهم. ورغم أنهم لاحظوا أن أعداء منجستو لازال لهم وجود في اللجنة التنسيقية، فقد توقعوا أن تكون لـــ"قوى الثورة الإثيوبية"، وأجندة العدالة الاجتماعية فيها، اليد العليا. وفى نهاية ١٩٧٦ لم يكن لدى السفارة السوفيتية ما تقوله لنقاد اليسار من كلمات الموافقة(٦٢).

بناء على تقارير السفارة، أصبحت موسكو تدريجيًا أثناء ١٩٧٦ مقتنعة أن المساعدات الزائدة للنظام الإثيوبى لا يمكن تأجيلها أكثر من ذلك. فى الرابع عشر من ديسمبر وقع الطرفان أول اتفاقية "أساسية" للتعاون العسكرى بين الاتحاد السوفيتي وإثيوبيا. كانت الاتفاقية فتحًا مهما، ليس للمجلس المؤقت فحسب وإنما بالنسبة للزعماء السوفيت فى نظرتهم إلى المنطقة. ولابد من أنهم أخذوا فى الاعتبار ما لهذه الاتفاقية من آثار على العلاقات السوفيتية مع الصومال، على المنطقة ككل. ولكن فى ١٩٧٦ كان السوفيت قد بدأوا بالفعل يتشككون فى القدرة على الاعتماد على نظام سياد برى ***Said Barre*** فى الصومال. فى الصيف السابق

لذلك، عند التعليق على الموقف في إريتريا، لاحظت السفارة في أديس أبابا أن بعض الدول العربية كانت تحاول أن تجعل من البحر الأحمر "بحيرة عربية"، وهو ما يعني "الخسارة للدول الأخرى" [أي الاتحاد السوفيتي]. ونبهت السفارة إلى أن تأثير الدول العربية "الرجعية" الغنية بالبترول مثل السعودية والكويت في مواقف الدول العربية الأخرى وعلى الصومال كان يتزايد[٦٣].

حتى بعد توقيع الاتفاقية السوفيتية الإثيوبية للمساعدات العسكرية، لم يكن القادة في موسكو على استعداد للتضحية بتحالفهم مع مقديشيو. ففي ظل معاهدة الصداقة والتعاون مع الصومال، أرسل السوفيت ما قيمته ٣٠ مليون دولار من الأسلحة، مزودين الجيش الصومالي بمئات الدبابات وعشرات المقاتلات الحربية الحديثة. وقد قام الاتحاد السوفيتي من جانبه ببناء بعض أكبر مصانعه في بربرة ومقديشيو[٦٤]. في شتاء ١٩٧٦/٧٧ ركزت موسكو طاقتها من أجل أن تجد سبلا تحافظ بها على علاقتها مع حليفتها القديمة، بينما بدأت في بناء علاقة أقوى على أسس أيديولوجية مع أديس أبابا. في نهاية يناير ١٩٧٧ أرسل ليونيد بريجنيف طلبًا شخصيًا وعاجلا إلى سياد بري أن يعيد النظر في الموقف الصومالي من إثيوبيا، ويتورع عن تصعيد الصراع[٦٥].

عقدت الإدارة الدولية ووزارة الخارجية عدة لقاءات لحل الأزمة في القرن الأفريقي في بداية ربيع ١٩٧٧، وجعلت التقارير الواردة من أديس أبابا ومقديشيو، التي أفادت بأن الوحدات الصومالية المنظمة قد انضمت إلى جبهة التحرير بغرب الصومال ومجموعات التمرد الأخرى في أوجادين، جعلت موسكو تخشى ألا تستطيع – حتى على المدى القصير – أن توازن بين تحالفاتها القديمة والجديدة في المنطقة. وقالت وزارة الخارجية إنه "بتقديم الدعم للانفصاليين الإيريتريين، تتوقع الصومال أن انفصال إريتريا عن إثيوبيا سوف يؤدي إلى انهيار الدولة

الإثيوبية متعددة القوميات، مما سيسهل توحيد إقليم الأوجادين مع الصومال". وأن "ردود الأفعال العربية تدعم وتزيد من طموحات الصوماليين، بهدف الضغط على القيادة الإثيوبية التقدمية". لقد تشكك السوفيت في مبادرة الوساطة الكوبية اليمنية الجنوبية في ديسمبر ١٩٧٦، بسبب مقاومة إثيوبيا الواضحة لها أثناء توقيع الاتفاقية السوفيتية الإثيوبية؛ ولكن في فبراير ١٩٧٧ تدهور الموقف في أوجادين لدرجة أن موسكو لم تجد حلا سوى أن تنضم إلى مبادرة فيديل كاسترو[٦٦].

كانت نقطة التحول الحقيقية في منهج موسكو تجاه المنطقة هي انقلاب منجستو في الثالث من فبراير ١٩٧٧، الذي قام أثناءه باغتيال معظم من بقي من منافسيه في اللجنة التنسيقية. ورغم أن السوفيت لم يحاطوا علمًا بالانقلاب قبل وقوعه، فقد رأوه خطوة كبرى للأمام في علاقاتهم بإثيوبيا. في صباح الرابع من فبراير اتصل أحد نواب منجستو بالسفير السوفيتي وطلب مقابلة عاجلة، والتقيا بالفعل في المساء نفسه. سرد منجستو رؤيته عما وقع من أحداث في اللجنة التنسيقية في اليوم السابق وأكد لراتانوف أن أفعاله سوف تقوي من الثورة الإثيوبية. وطلب مساعدة الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية. وعد راتانوف بمثل هذا الدعم، دون أن يذكر التقتيل وتفشي الإرهاب في العاصمة. وبعد عدة أيام وجهت الحكومة السوفيتية نداء للدول العربية والصومال لمباركة القيادة الإثيوبية[٦٧]. لقد قوى العصيان المسلح الذي قام به منجستو ثقة السوفيت في النظام.

بعد أن استحوذ منجستو على السلطة مباشرة، ناشد أيضًا السلطات الاشتراكية الأخرى من أجل المساعدة العاجلة. في خطاب منه إلى رئيس ألمانيا الشرقية إريك هونكر ***Erich Honecker***، حاول أن يصور الأحداث في إثيوبيا باعتبارها هجومًا مضادًا على الإمبريالية:

أثناء السنوات العشر الماضية نجحت الشعوب المقهورة فى أمريكا اللاتينية والهند الصينية وأفريقيا فى تخطى الإمبريالية... الآن تقوم [الإمبريالية] بهجوم أخير ولكنه يائس من أجل أن تقلب ثورة شعب إثيوبيا المقهور وتصفى الثوار التقدميين.... نأمل أن تستجيبوا سريعًا إلى ندائنا للمساعدة فى تسليح الجماهير الإثيوبية حتى تستطيع هذه الثورة الناشئة على الأراضى الأفريقية أن تتقدم بثبات(٦٨).

ورغم أن الحكومة السوفيتية احتفظت بمحاولاتها فى التوسط، بدأت فى ربيع ١٩٧٧ تصب الأسلحة والمعدات الحربية فى إثيوبيا. فى مارس أخبر السفير راتانوف نظيره الإثيوبى بأن موسكو قد وافقت على إرسال دبابات سوفيتية من اليمن الجنوبية. وفى أبريل تلقى منجستو عددًا من طائرات الهليكوبتر السوفيتية المتقدمة(٦٩). وقبل زيارة منجستو إلى موسكو فى مايو ١٩٧٧ أخبر راتانوف أنه سوف يطالب باتفاقية عسكرية أشمل، تُلزم السوفيت بتسليم دبابات ***T-55*** ومقاتلات نفاثة ***MIG-21*** لإثيوبيا. كما طالب الزعيم الإثيوبى بمستشارين سوفيت وكوبيين وبنقل أفواج من الكوبيين من أنجولا إلى بلاده(٧٠). وفقًا للتقديرات الغربية، تم تسليم مائة دبابة ومدرعة من الاتحاد السوفيتى فى منتصف أبريل. وأثناء زيارته إلى موسكو فى مايو حصل منجستو من السوفيت على وعد بما قيمته من ٣٥٠ إلى ٤٥٠ مليون دولار من الأسلحة(٧١). فى ربيع ١٩٧٧ كانت موسكو قد تغلبت على ترددها السابق بشأن النظام الإثيوبى، رغم النصائح المستمرة من الأصدقاء الآخرين فى المنطقة – مثل صدام حسين فى العراق – بعدم الثقة فى الإثيوبيين(٧٢).

أما وقد وثق نظام منجستو من قدراته فقد بدأ يتصرف بحيث يجعل العلاقات الإثيوبية الخارجية تتوافق مع الرغبات السوفيتية. في الثالث والعشرين من أبريل أعلن المجلس الإدارى العسكرى المؤقت أن المنظمات الأمريكية الخمس فى إثيوبيا سوف تغلق على الفور وهي: قاعدة أسمرة، والقنصلية الأمريكية في أسمرة، ومكاتب رعاية المصالح في البلاد كلها، ومكتب المجموعة الاستشارية للمساعدات العسكرية الأمريكية، ومركز الأبحاث الطبية التابع للبحرية الأمريكية. وفى تقريرها إلى موسكو أشارت السفارة السوفيتية برضا إلى أن "تلك الخطوات من قِبَل المجلس المؤقت هى أهم الخطوات السياسية الموجهة ضد المصالح الأمريكية فى إثيوبيا... [مما يبين] تعميق العمليات الثورية فى إثيوبيا بعد أحداث الثالث من فبراير، وتكثيف الصراع ضد رد الفعل الداخلى الذى تدعمه الإمبريالية، كما أنها تمثل تعاونا واسعا من قِبَل إثيوبيا مع الاتحاد السوفيتى وكوبا وألمانيا الشرقية وغيرها من الدول الاشتراكية الأخرى، وخاصة فى مجال الشئون العسكرية"[٧٣].

حرب أوجادين

الأوجادين صحراء صخرية فى جنوب شرق إثيوبيا، واحاتها مهمة للبدو فى المنطقة، ومعظمهم من أصول صومالية، وإن كان هناك آخرون أيضا، معظمهم مجموعات أورومو *Oromo*. أثناء التقسيم الإمبريالى للأراضى الصومالية فى أواخر القرن التاسع عشر، أمنت الإمبراطورية الإثيوبية أوجادين لنفسها. بعد استقلال الممتلكات البريطانية والإيطالية فى القرن الأفريقى وانضمامها إلى الدولة الصومالية الجديدة فى ١٩٦٠، قامت عدة حروب على الحدود الصومالية الإثيوبية للسيطرة على أوجادين. فى ١٩٧٥ فى أعقاب الثورة الإثيوبية، أقام نظام سياد برى فى الصومال جبهة تحرير الصومال الغربية ***Western Somali Liberation Front***

(WSLF) فى محاولة لانتزاع السيطرة على الأراضى المتنازع عليها من الحكومة الجديدة فى أديس أبابا. ولما رسخت جبهة تحرير الصومال الغربية دعائمها فى الأوجادين، وجدت دعمًا عريضًا فى هذه المنطقة، بسبب التضامن الإثنى الصومالى، وكرد فعل ضد الانقلابات التى سببتها الثورة. وقد أدت زيادة الدعم الصومالى للجبهة أثناء ١٩٧٦ ومشاركة القوات الصومالية النظامية فى القتال إلى ادعاء إثيوبيا فى بداية ١٩٧٧، أنها تتعرض للهجوم من قِبَل جارتها الشرقية[٧٤].

تحول النظام الصومالى بقيادة الجندى الذى تلقى تدريبه فى إيطاليا محمد سياد برى، وكان قد وصل إلى السلطة فى انقلاب فى ١٩٦٩، تحول نحو مصر ثم إلى الاتحاد السوفيتى، طلبًا للمساعدة العسكرية والاقتصادية. ولكن رغم تدريب جيوش سياد وتزويدها، بقى السوفيت بعيدين عن التنمية الداخلية فى الصومال. وبينما تأثر سياد برى بالتقدم التكنولوجى فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية، وبرع فى الرطانة الماركسية اللينينية، كان يدرك أن الشبكة المعقدة من المناصرة العشائرية، التى يعتمد عليها من أجل البقاء سياسيًا، لن تتحمل إصلاحًا اجتماعيًا واسع المدى، على الأقل إلى أن تترسخ دولته الجديدة وتضرب بجذورها فى المجتمع الصومالى. وبعد ارتداد مصر عن تحالفها مع الاتحاد السوفيتى فى ١٩٧٢-١٩٧٣، أصبحت العلاقات الصومالية السوفيتية أكثر تباعدًا. وبصفتها دولة مسلمة وعضوًا فى الجامعة العربية، بدأت الصومال تصلح من علاقاتها مع المملكة العربية السعودية والدول العربية المحافظة الأخرى، بينما ظلت تستورد الأسلحة من الاتحاد السوفيتى. الشىء الأهم فى نظر السوفيت أنهم احتفظوا بقاعدتهم البحرية والمدفعية التى كانوا قد أنشأوها فى ميناء بربرة الصومالى.

بالنسبة لموسكو، كان الصراع على الأوجادين يُعقِّد منهجها فى منطقة يوجد بها بالفعل العديد من التحديات الصعبة. وعلى نحو متزايد أثناء ١٩٧٧ كان صناع

السياسة الرئيسيون مثل بوريس بوناماريوف رئيس الإدارة الدولية يرون أن إثيوبيا حليف أيديولوجي بينما ينبغي للصومال أن تبقى حليفًا عند الحاجة إليها فقط. هذا التحليل كان أبعد من عدم ثقة بوناماريوف وعدم رضاه شخصيًا عن سياد بري؛ بل إنه تغذى بشكل شبه يومي على التقارير الإيجابية الآتية من أديس أبابا. فبدءًا من مارس ١٩٧٧ كانت كل التقارير الرئيسية الواردة من السفارة السوفيتية في إثيوبيا تمر روتينيا على المكتب السياسي، وتؤكد الأهمية الجديدة التي حققتها المنطقة بالنسبة لموسكو.

كان تغير موقف ممثلي السوفيت في أديس أبابا تجاه النظام الإثيوبي واضحًا في تقارير السفير راتانوف السياسية إلى موسكو. في أغسطس ١٩٧٧ قدم السفير مذكرة بمجمل آرائه عن الموقف داخل المجلس العسكري حيث أكد أن السؤال الرئيسي كان من الذي يدعم ومن الذي يعارض منجستو. كتب راتانوف: "هناك أعداء خفيون لمنجستو بداخل المجلس العسكري، ومن الصعب تحديد مدى تأثيرهم بما أنهم لا يظهرون العداء صراحة" وقد قام راتانوف بتضمين وزير الدفاع أيالو ماندفرو *Ayalew Mandefro* ضمن المسئولين "اليمينيين" وكان قد تم إرساله في العام نفسه ليصبح سفيرًا في واشنطن. أما نائب رئيس اللجنة التنسيقية أتنافو أبيت *Atnafu Abate* فقد كان السوفيت يشكون في كونه متأثرًا بالديمقراطية الاجتماعية "أو بالقومية الأمهرية عنه بالماركسية اللينينية في مواقفه السياسية والأيديولوجية". تمت تصفية أتنافو وإعدامه، ومعه ست وأربعون من الضباط الآخرين في نوفمبر ١٩٧٧. دفع السلوك "المتحدي" للقوات المعادية لمنجستو، دفع راتانوف إلى الاعتقاد بأنهم تلقوا الدعم من الغرب الإمـــبريالي. لكن خطط منجستو في التعامل مع الأعداء الحقيقيين أو المتخيلين حازت على رضا راتانوف الكامل. "الزعيم الإثيوبي يعرف [من] هم ممثلو اليمين، لكنه يأبى القيام بهجوم مفتوح" حتى يترك لهم المجال "للإفصاح عن وجههم السياسي الحقيقي" ثم "يوجه لهم ضربة قاضية".

ورغم إعجاب السفير السوفيتي بمنجستو، اعترف أن مثل هذه الخطط قد تكون خطيرة لأن "الأعداء" قد ينظمون من يدعمونهم(٧٥).

ورغم تقارب موسكو سياسيًا مع إثيوبيا، استمرت محاولات التوسط أثناء ربيع ١٩٧٧ وأوائل صيفه(٧٦). فبمبادرة من فيدل كاسترو أصبح هو رئيس الوسطاء ومعه زعيم اليمن الجنوبي ربيع علي*Ali Rubeya* نيابة عن الدول الاشتراكية. وفشل اللقاء بين منجستو وسياد برى فى إحراز أى نتائج عندما أحضرهما كاسترو وجهًا لوجه على طاولة المفاوضات فى عدن، ولكن التقارير الكوبية حول اللقاء ساهمت فى الإصرار السوفيتي على مساعدة إثيوبيا. وقال كاسترو لإريك هونكر إن "سياد برى كان متغطرسًا ومتشددًا؛ ربما أراد أن يهددنا، لقد كونت رأيى فى سياد برى، إنه وطنى قبل كل شيء. الوطنية هى العنصر الأهم فى شخصيته. أما الاشتراكية فهى مجرد قشرة خارجية يُفترض أن تجعله أكثر جاذبية" أما منجستو فهو:

> يدهشنى بوصفه زعيمًا هادئًا وجادًا ومخلصًا مدركًا لقوة الجماهير. إنه شخصية مفكرة أظهر حكمته فى الثالث من فبراير... هناك قرار مهم اتخذ فى الثالث من فبراير فى إثيوبيا. وتغيرت الخريطة السياسية للبلاد، مما ساعدهم على اتخاذ خطوات كانت من قبل مستحيلة. فمن قبل كان من المستحيل أن نساعد القوى اليسارية إلا بأسلوب غير مباشر، أما الآن فأصبح بوسعنا أن نفعل ذلك دون أى قيود... لقد أعلنتُ أننا لا يمكن أن نتفق مع موقف سياد برى. قلت إن موقف سياد برى يمثل خطرًا على الثورة فى

> **الصومال، ويهدد الثورة فى إثيوبيا، ومن ثـم هنـاك خطر عزل الـيمن الجنوبيـة. شـرحت علـى وجـه الخصوص أن سياسات سياد بـرى تـساعد اليمـين الصومالى فى جهوده ضد الاشتراكية وتُسلِم الصومال إلى أحضان السعودية والإمـبريالية.**

وأعلن كاسترو أن الكوبيين قرروا إرسال مستشارين إلى إثيوبيا.

> **فى أفريقيا.... نستطيع إيقاع هزيمة نكراء بالـسياسة الإمـبريالية الرجعية برمتها. يمكن للمرء أن يحـرر أفريقيا من تأثير الولايات المتحدة والصينين. وكـذلك فإن التطورات فى زائير مهمة للغاية. ليبيا والجزائـر تمتلكان موارد قومية كبرى، وفى إثيوبيا طاقة ثوريـة عظيمة. لذا فهناك ثقل مضاد كبير لخيانة مصر؛ بـل من المحتمل أن يتم خذلان الـسادات ويعـود التـأثير الإمـبريالى فى الشرق الأوسط أدراجه.**

وأخبر كاسترو هونكر فى أوائل أبريل أنه "لابد من مناقشة هذه الأمور مع الاتحاد السوفيتى. إننا نتبع سياساته ونموذجه"[٧٧].

حتى الرابع من أبريل ١٩٧٧ عندما تمت مناقشة الموقف فى القرن الأفريقى فى اجتماع للمكتب السياسى الحاكم، كان بعض القادة السوفيت يعتقدون أن بلادهم عليها أن تتجنب التورط المباشر فى المنطقة. وأكد كيريلنكو ***Kirilenko*** الذى ترأس الاجتماع فى غياب بريجنيـف أن "الموقف بيننا وبين هاتين الدولتين جد معقد. فليس لدينا أسباب للتنازع مع الجانب الصومالى ولا الجانب الإثيوبى، وليس لدينا سوى إمكانات محدودة للتأثير على العلاقات المتبادلة بينهما"[٧٨]. وكان

كيريلنكو وغيره من المتشككين، وكذلك بريچنيــف ورئيس المخابرات السوڤيتية أندروپوف، يأملون ألا يضطروا إلى الاختيار، بعد أن بعد أن قام نائب الرئيس الصومالي سامانتر ***Samantar*** بزيارة موسكو فى أوائل يونيو، ووعد بألا يكون هناك عدوان على إثيوبيا[٧٩]. بعد نداء شخصى من بريچنيــف فى أواخر يوليو، وعد منجستو أيضًا بأنه "سيستمر فى الحوار مع الصومال"[٨٠]. كذلك كان هناك شك في موسكو حول ما إذا كانت إثيوبيا سوف تستطيع أن تستخدم بالفعل كما متزايدًا من المعدات العسكرية السوڤيتية. وأرسل رئيس المستشارين العسكريين الكوبيين أرنالدو أوكا ***Arnaldo Ochoa*** تقريرًا من أديس أبابا بأنه أخبر الإثيوبيين، على نحو مؤكد، أنهم "لم يقوموا بعد بإعداد كوادرهم للعمل وفقًا للتكنولوچيا التى أمدهم بها الاتحاد السوڤيتى ووفقًا للاتفاقيات الموقعة باكرًا. وأخبر أرنالدو أوكا منجستو أن مثل هذا الموقف غير الجاد قد يسيء إلى سمعة المجلس العسكرى". وقال الكوبى إنه "شعُر أن منجستو قد فهم ما يعنيه"[٨١].

أما بالنسبة للزعيم الإثيوبى فكان الموقف يزداد سوءًا. فى أواخر الصيف انفصلت آخر الحركات المدنية اليسارية الباقية، حركة أثيوبيا الاشتراكية ***All-Ethiopia Socialist Movement*** (واسمها باللغة الأمهرية ***MEISON***) انفصلت عن حكومته، وكان رد فعل منجستو أن قام باغتيال بعض زعمائها بينما أطلق موجة من الإرهاب ضد كل مناصريها وضد الأعداء الحقيقيين أو المتخيلين فى المجتمع الإثيوبى. فى الأول من سبتمبر سقطت مدينة جيجيجا فى أيدى القوات الصومالية، رغم نداء اللجنة التنسيقية من أجل التعبئة العامة ضد العدو قبل ذلك بعدة أيام. وفى أوائل أكتوبر كانت جميع الإدارات فى موسكو قد استنتجت أن النظام الإثيوبى لن يبقى على قيد الحياة ما لم تقم الدول الاشتراكية بضخ كميات كبيرة من المساعدات إليه. كما استشاط السياسيون غضبًا لأن سياد برى لم يحفظ كلمته لليونيد بريچنيــف، بل استمر فى عدوانه، مستعملاً فى ذلك الأسلحة السوڤيتية التى كان قد تسلمها فى

بداية العام. وقال منجستو بأسى على الملأ فى أديس أبابا: "لم نتوقع أبدا أن تضرب إحدى المدن الإثيوبية الرئيسية... والعمال الثوريون بها، بالدبابات والمدفعية التى قام العمال الاشتراكيون بإنتاجها"(٨٢). ومع وجود قوات صومالية نظامية على بعد أقل من مائتى كم من أديس أبابا، بدأت الدول "التقدمية" الأفريقية الأخرى مثل أنجولا وموزنبيق وحتى تانزانيا نيريرى، تمارس الضغوط من أجل المزيد من المساعدات للإثيوبيين(٨٣). وعندما قام منجستو والكوبيون بنصح السفير السوفيتى راتانوف بأن الاستعراض الفورى والواضح للدعم السوفيتى مطلوب بشدة لإنقاذ النظام، ذكر السفير فى التاسع عشر من أكتوبر علانية فى أديس أبابا، أن الاتحاد السوفيتى توقف عن إمداد الصومال بالأسلحة وسوف يقوم بدلا من ذلك بتسليم إثيوبيا "أسلحة دفاعية لحماية ثورتها"(٨٤).كانت تلك هى القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة للزعيم الصومالى سياد برى، الذى كان بالفعل على صلة بالأمريكيين. فى أوائل نوفمبر أعلن برى أن حكومته قررت قطع علاقاتها مع كوبا، وطرد كل العسكريين السوفيت والكوبيين وإغلاق كل المحطات البحرية والجوية فى بربرة ومقديشيو.

ورغم أن ذلك كان هزيمة للدبلوماسية السوفيتية، كان الانفصال عن مقديشيو يعنى أن باستطاعة موسكو الانخراط فى عملية واسعة المجال لإنقاذ الثورة الإثيوبية(٨٥)، ومن خلال جسر جوى بدأ فى سبتمبر ١٩٧٧ واستمر لثمانية أشهر بعدها، أرسل السوفيت إلى إثيوبيا معدات عسكرية بما يزيد عن مليار درلار. فى أواخر سبتمبر وصلت كتيبتان مدرعتان من اليمن الجنوبية لتشتركا فى القتال. كما أرسل فيدل كاسترو ١١,٦٠٠ مجند كوبى وأكثر من ٦٠٠٠ مستشار وخبير فنى كان لهم دور كبير فى وقف التقدم الصومالى. والأغرب من كل ذلك أن نحو ألف شخصية عسكرية سوفيتية ذهبت إلى إثيوبيا فى ١٩٧٧-١٩٧٨ للمساعدة فى إعادة تنظيم الهجمة المضادة. فى أوائل ١٩٧٨، عندما تحولت الحرب إلى صالح نظام

منــجستو، كان الجنرال فــاسيلي إ. بتروف ***Vasilli I.Petrov*** نائب رئيس القوات البرية في جيش الاتحاد السوفيتي هو المسئول عن التخطيط العسكري الإثيوبي[٨٦]. وبوجه عام، كانت تلك هي أهم عملية عسكرية بقيادة السوفيت خارج منطقة حلف وارسو ***Warsaw Pact*** منذ الحرب الكورية.

في كل من موسكو وهافانا كان التخطيط لعملية القرن الأفريقي مسألة هوجاء للغاية. فمنذ البداية أصر القادة العسكريون في كلتا الدولتين أنهم سيسيطرون على الأمور هذه المرة، على عكس ما حدث في أنجولا، حيث شعر الكثير من الجنود أن "تدخلات" الدبلوماسيين السوفيت - والسياسيين الأنجوليين - عرقلت كفاءة العملية في بدايتها. أثناء زيارة منجستو إلى موسكو في نهاية أكتوبر، كان عليه أن يعد بأن يتحكم السوفيت والكوبيون تمامًا في الاستراتيــجية العسكرية للهجوم المضاد. فلن يكون الجنود السوفيت أو الكوبيون تحت إمرة الضباط المحليين تحت أي ظرف، حتى في حالة ما إذا تعاملوا مع خامات تقنية إثيوبية، كما حدث بالنسبة لبعض أطقم الدبابات والطيارين المحاربين. فكرت وزارة الدفاع السوفيتية بضرورة الانتصار السريع، كما رأت الحاجة إلى الحد من الخسائر لدى القوات الأجنبية.

كان السوفيت وحلفاؤهم الكوبيون يرون أن مهمتهم في إثيوبيا ليست مجرد إنقاذ الثورة من التدخل الأجنبي، وإنما مساعدة البلاد على المضي قدمًا سياسيًا واجتماعيا كذلك. وبينما تلقى الزعيم الإثيوبي في موسكو "نصائح ودية... أفكارًا عن الإسراع بتكوين حزب يقوم على مبادئ الماركسية اللينينية التي سوف تساعد في تعبئة الجماهير للدفاع عن الانتصارات الثورية وتعزيز الثورة"، وكان على السوفيت أن يرسلوا خبراء إلى أديس أبابا للمساعدة في إتمام هذه العملية. كما تلقى منجستو من بريچنيــف تحذيرات صارمة بأن "يتبنى إجراءات عملية لحل مشكلة

القوميات فى إثيوبيا" ـ فموسكو لن تتدخل ثانية لتساعد الحكومة فى هزيمة المنشقين. كانت الرسالة التى تلقاها منجستو واضحة للغاية: فالسوفيت وحلفاؤهم سيساعدونه في هزيمة الصوماليين، ولكن بعد ذلك على الزعماء الإثيوبيين أن يعيدوا ترتيب دولتهم بأنفسهم(٨٧).

إحدى المشكلات الكبرى التى عانى منها المستشارون السوفيت بعد وصولهم فى ١٩٧٧ ، كانت الثقة الزائدة لدى الإثيوبيين. كان راتانوف يشكو لدبلوماسي زائر من ألمانيا الشرقية فى ديسمبر قائلا إنه "على المرء أن يقنع الجانب الإثيوبى أنه من قبيل الوهم الظن بإمكانية تكوين حزب سياسي أوحد قائم فى الفراغ من البداية... بل لابد من قيامه بناء على الظروف الاجتماعية".

> **يوجد فى المجلس الإدارى العسكرى المؤقت الآن نحو ثمانين عضوًا؛ ثلاثون منهم يمثلون عبئًا. فليسوا متعلمين، ومن الممكن أن يصبحوا ضحايا للثورة المضادة. وينوى منجستو إرسالهم إلى الاتحاد السوفيتى وكوبا وألمانيا الشرقية ليحولهم إلى ثوريين. خمس وعشرون أو عشرون عضوًا فقط ينتمون إلى الدائرة الداخلية النشطة. لذا فإنه من الضرورى عند إنشاء الحزب أن نضيف إلى القيادة قوى أخرى من خارج المجلس. سوف يكون هناك صراع بشأن المواقع القيادية بداخل اللجنة المركزية للحزب. ولو لم تنجح القوى من حول منجستو فى هذا الصراع فلن تمثل اللجنة المركزية تحسنًا نوعيًا عن المجلس المؤقت الحالى. لقد أفردت القيادة الإثيوبية**

الكثير من الاهتمام مؤخرًا لإنشاء الحزب. لازال هناك الكثير من التشوش بشأن المسائل الأيديولوچية كما بالنسبة للاستراتيچية والتكتيك. فمثلا، ليس لديهم سوى أفكار مختلطة بشأن القواعد الطبقية(٨٨).

كانت المهمة الرئيسية للمستشارين السوفيت هى الحد من العنف الطائفى داخل اللجنة التنسيقية وبين المجموعات اليسارية الإثيوبية، وكذلك الحد من معاملة النظام لمعارضيه بهذا القدر من الوحشية. أخبر بوناماريوف نظراءه من ألمانيا الشرقية فى فبراير ١٩٧٨ بينما كانت القوات الصومالية يتم إخراجها من الأوجادين أن رئيس الإدارة الدولية السوفيتية "الرفيق بوناماريوف أعرب عن قلقه من التطرف الموجود فى الثورة الإثيوبية. فى حديثه مع منجستو، ذكر الرفيق [الكوبى] راءول فالدس ڤيڤو ***Raul Valdes Vivo*** أن تلك الأحداث، مثل الإعدام الجماعى للمساجين بقيادة 'الإرهاب الأحمر' وهى الأفعال التى لا تصب فى مصلحة الثورة، لم تكن مفهومة(٨٩). ولكن عندما اقترب الانتصار العسكرى، بدأ منجستو تعطيل الإصلاح الداخلى، وتعجب راتانوف قائلا: "من الواضح أن منجستو ليس لديه مفهوم عن التعاون مع المستشارين" فى مسألة بناء الحزب(٩٠).

فى الخامس من مارس ١٩٧٨ أعاد الجنود الكوبيون والإثيوبيون، بقيادة ضباط سوفيت وكوبيين، ضم چيچيجا إلى إثيوبيا. بعد ذلك كانت الحرب التقليدية على الصومال قد انتهت من الناحية العملية، رغم أن مقاومة العصابات فى الأوجادين استمرت لعدة سنوات (فى١٩٨٠ كانت معظم الأراضى الصحراوية تحت سيطرة جبهة تحرير الصومال الغربية ***WSLF*** والمجموعات الصومالية الأخرى). وبدون مساعدة خارجية كبيرة، لم يكن لدى الجيش الصومالى فرصة ضد أعدائه المجتمعين. سياسيًا، كما دبلوماسيًا، بالغ سياد برى فى قضيته. ورغم

قدر الخراب الذى لحق بالثورة الإثيوبية، لم يتم استقبال الصوماليين باعتبارهم محررين إلا فى نطاق المناطق الإثنية الصومالية فى الأوجادين – أما فى الثورة العامة التى كان من المتوقع أن تقوم بها القوميات الأخرى خارج الإمبراطورية الإثيوبية، فلم يحدث. وفى الجانب الدبلوماسى، أصبحت الصومال معزولة عن كل الدول فى أفريقيا غير المسلمة، بينما كانت دول الشمال الأفريقى مثل الجزائر وليبيا ترى أن تصرفات سياد برى ضرب من الجنون[٩١].

بالنسبة للسوفيت والكوبيين، كان التأثير المبدأى لتدخلاتهم فى القارة الأفريقية إيجابيًا. وقد رأى العديد من الزعماء الأفارقة فى أحداث القرن الأفريقى استكمالا للعملية الناجحة فى أنجولا، مما جعل موسكو قوة كبرى فى الشأن الأفريقى وثقلا موازنًا لتأثير أمريكا وأوروبا الغربية. الأمر الذى اهتم به معظم القادة الأفارقة هو أن السوفيت قد تدخلوا لصالح الحدود القائمة، ومن أجل نظام تقدمى علمانى أسود ضد ما كانوا يعتقدون أنه محاولة عربية مسلمة لتوسيع النفوذ فى أفريقيا.

فى موسكو أعجبت قيادة الحزب الشيوعى السوفيتى بمدى سهولة العملية الإثيوبية. بالنسبة للكثير من القادة السوفيت من جيل الحرب العالمية الثانية، كان التدخل الناجح فى القرن الأفريقى هو ما جعل الاتحاد السوفيتى قوة عالمية حقيقية – قوة بإمكانها أن تتدخل بإرادتها فى أى مكان فى العالم، وتخرج بنتائج حاسمة. ورغم أن أنجولا قد وضعت النموذج لكيفية القيام بهذا التدخل، فقد كان ذلك على نحو عشوائى دون تنسيق أو تخطيط. ورأت القيادة العامة أن التحالف السوفيتى الكوبى صادف حظًا سعيدًا فى أنجولا، خاصة فى الحرب ضد الأفارقة الجنوبيين. أما إثيوبيا فكانت مختلفة. العسكرية السوفيتية لم تخطط وتدير العملية فحسب، بل استخدمت جنود المشاة الكوبيين باعتبارهم قوات ملحقة. الاختلاف الرئيسى عن أنجولا هو أنه فى القرن الأفريقى كان الاتحاد السوفيتى هو الحَكَم، وأخيرًا هو

المُحَدِد للعلاقة بين الدول ذات السيادة فى صراع فى منطقة بعيدة؛ لقد أخذ الاتحاد السوفيتى لنفسه بذلك المكانة التى كانت بريطانيا، ثم الولايات المتحدة، تحتلها فى العلاقات الدولية. وبعبارة أخرى أصبح قوة عظمى مكتملة - وبديلا دوليًا عن الولايات المتحدة.

كان لإثيوبيا بالنسبة للسفارة السوفيتية فى أديس أبابا وبالنسبة لمعظم المستشارين الذين أتوا إليها فى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ بريق الثورة، الثورة التى قد تؤثر على قدر أفريقيا السياسى برمته. كان بعض السوفيت يرون أنها تمتلك بالفعل العديد من المزايا؛ فهى الدولة الأفريقية الوحيدة التى قاومت الاستعمار ، وكانت منطقة جذب للعديد من الرحالة والمستكشفين الروس فى القرن التاسع عشر، بل كانت أيضًا إمبراطورية اعتنقت فيها النخبة القديمة نوعًا من الديانة المسيحية الأورثوذكسية؛ لكن الملمح الأكثر أهمية وبريقًا بالنسبة للكثيرين ممن قاموا بتوجيه السياسة الخارجية السوفيتية هو أن الثوار الإثيوبيين أنفسهم كانوا يريدون أن يشكلوا ثورتهم وفقًا للتجربة السوفيتية. وبالنسبة للقيادة فى موسكو، التى كانت ترى الثورة من وجهة نظر ضيقة، والتى كانت دائمًا تبحث عن متشابهات توازى تطورها، والتى كانت تعتبر التقدم نتيجة لاتباع النموذج السوفيتى، كانت إثيوبيا تبدو تحديًا كبيرًا للقوى الانتقالية للاشتراكية[٩٢].

التدخل السوفيتى وانهيار التهدئة

بدءًا من خريف ١٩٧٧ فصاعدًا زاد عدد المستشارين المدنيين السوفيت فى إثيوبيا زيادة كبيرًا. فى أوائل ١٩٧٩ بلغ عدد الخبراء - المدنيين والعسكريين - من الدول الاشتراكية أكثر من سبعة آلاف خبير؛ وكان ذلك أكبر برنامج مساعدات

خارجية يقوم به السوفيت بعد برنامجهم فى الصين فى الخمسينيات. فى عملية نظمها كبار المستشارين الذين يعملون خارج السفارة السوفيتية، تم وضع الخبراء الأجانب فى كل الوزارات والإدارات، فى محاولة للمعرفة والتأثير فى الاتجاه الذى سيأخذه بناء الاشتراكية فى إثيوبيا. فى بعض مجالات بيروقراطية الحكومة، مثل الإمداد بالماء والطاقة والانتقالات، كان السوفيت والألمان الشرقيون والبلغاريون والكوبيون يقومون بمعظم الأعمال بمساعدة مترجمين (غالبًا من الإنجليزية)، بينما كان الموظفون الإثيوبيون يتدربون فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى. فى موسكو كانت الإدارة الدولية تعمل أوقاتًا إضافية لكى تزود الأثيوبيين بالخبراء الذين يحتاجونهم – يتذكر أحد المسئولين إرسال نصف عدد العمال فى أحد مصانع الشيكولاتة بأرمينيا لسد احتياجات الثورة الإثيوبية لإقامة مصانع حلويات فورًا.

كانت الأولوية الأساسية لدى المستشارين السياسيين السوفيت فى أديس أبابا هى إقامة حزب ماركسى لينينى يتحمل مسئولية الثورة الإثيوبية. وأخبر منجستو أنه بينما كان الجنود يستطيعون وضع البلاد على طريق التحول الاشتراكى، كان لابد من وجود حزب يكمله، ووافق منجستو تمامًا. وصرح منجستو أثناء إعلانه إنشاء لجنة لتنظيم حزب عمال إثيوبيا فى ١٩٧٩ أن "أحد أوجه القصور فى الثورة الإثيوبية هو أنها ليس لديها مؤسسة سياسية تقوم بالنضال، فى السر أو فى العلانية، وتقوم، بما لديها من أيديولوچية طبقية، بتوجيه الثورة". ولكن مشكلة إقامة حزب، كما كان يعلم المستشارون السوفيت جيدًا، هى أن اللجنة التنسيقية كانت قد أعدمت أو اغتالت أو نفت معظم الماركسيين الإثيوبيين. كان السوفيت والكوبيون يريدون أن يعقد منجستو سلامًا مع بعض الزعماء الذين بقوا على قيد الحياة وأن يسمح لهم بالعودة لكى يقيموا حزبًا. رفض منجستو ذلك. فى نهاية ١٩٧٩ أخبر المستشارون السوفيت اللجنة التنسيقية بأن أسس إقامة حزب طليعى ماركسى لينينى غير موجودة فى إثيوبيا، وأنه لابد من بذل الكثير من الجهد لزيادة الوعى لدى العمال

إلى درجة إقامة مثل هذا الحزب فعلا. ونتيجة لحالة الجمود الموجودة، تطلب الأمر خمس سنوات أخرى - حتى ١٩٨٤، عندما بدأ التأثير السوفيتى يتلاشى - حتى تأسس حزب عمال إثيوبيا بالفعل. حتى ذلك الوقت كانت اللجنة المنظمة تدار بوصفها إدارة حكومية(٩٣).

الصداع الكبير الآخر بالنسبة للمستشارين السوفيت فى أديس أبابا، كان تلك الحرب الدائرة بين اللجنة التنسيقية والحركات الانفصالية فى المقاطعة الساحلية الشمالية "إريتريا". هذا الصراع، الذى استمر منذ أن سيطرت إثيوبيا الإمبريالية على المستعمرة الإيطالية السابقة فى الخمسينيات، كان مزعجًا للسوفيت بالذات لأن قيادة كل من "جبهة تحرير الشعب الإريترى" ***Eritrean People's Liberation Front (EPLF)*** وجبهة التحرير الإريترية ***Eritrean Liberation Front (ELF)*** كانتا ماركسيتين. ثم إن جبهة تحرير الشعب الإريترى قد تلقت تمويلا سوفيتيا وتلقت تدريبًا على يد الكوبيين حتى ١٩٧٥. ولكن زيادة الضغوط على منجستو وجبهة تحرير الشعب الإريترى لم تسفر عن شيء. ولم يكن الموقف السوفيتى - أن تبقى إرتيريا جزءًا من إثيوبيا مع حكم ذاتى شامل - لم يكن مقبولا من أى من الطرفين. وادعى الإريتريون أن أصدقاءهم السابقين كانوا يمارسون عليهم ضغوطًا لكى يتخلوا عن هدفهم الأساسى فى الاستقلال(٩٤). وأخبر منجستو موسكو أن أى صفقة بخصوص إريتريا "سوف تلقى به إلى الذئاب الوطنيين"(٩٥). خلال حرب الأوجادين حاول كارن بروتنتس ***Karen Brutents*** إدراج المساعدات الكوبية والألمانية الشرقية والفلسطينية للوصول إلى شكل من أشكال الحلول الوسط - وكان رد فعل منجستو هو طلب رسمى من حلفائه أن يرسلوا قوات إلى إريتريا أيضا(٩٦). وقال نائب الرئيس الكوبى كارلوس رافايل رودريجوز ***Carlos Rafael Rodriguez*** فى فبراير ١٩٧٨ إن:

الرفيق فيدل كاسترو وكل أعضاء مكتبنا السياسى من رأيهم أننا لن نتحمل القيام بأى أخطاء فى تناول المسألة الإريترية. فأى خطوة فى الاتجاه الخاطئ الآن قد تهدد سياستنا برمتها ومواقعنا المهمة فى أفريقيا. سوف تواجهنا معظم الدول الأفريقية والعرب والمنظمات الدولية وربما أيضا دول عدم الانحياز. ولذلك سوف نستمر فى معارضة التدخل العسكرى فى إريتريا(٩٧).

التقى الجانبان عدة مرات فى برلين الشرقية فى ربيع ١٩٧٨ وفشلا فى التوصل إلى حل. حاول هونيكر أن يحصل على الدعم السوفيتى فى إملاء حل وسط للإريتريين والإثيوبيين، ولكن الإدارة الدولية فى موسكو رفضت(٩٨). بل علم الألمان الشرقيون فى أول أبريل أن المستشارين السوفيت قد بدأوا المشاركة فى هجمات ضد إريتريا وأنه قد تم إمداد الجبهة الشمالية بأسلحة سوفيتية متقدمة(٩٩). وأوضح أوليانوفسكى *Ulianovskii* للألمان الشرقيين فى مايو أنه "لابد من القيام بكل الخطوات والمبادرات من قبل الحزب الشيوعى السوفيتى والحزب الشيوعى الكوبى و *SED* بمنتهى الحنكة والدقة لتجنب المعارضة". واعترف قائلا "صراحة، إن المشكلة تكمن إلى درجة كبيرة فى أننا جميعا نحاول الوصول إلى المستحيل"(١٠٠).

فى صيف ١٩٧٨، بعد عدة شهور من الانتصار الحاسم فى أوجادين، بدأ الحماس السوفيتى لنظام منجستو يفتر. وتسبب الاقتتال الداخلى لدى اليسار الإثيوبى فى إثارة غضب الممثلين المحليين بموسكو، الذين اختزل عملهم فى كتابة تقارير مفصلة عن نزاعات كذلك الذى دار بين "المنظمة الثورية الإثيوبية الماركسية

اللينينية" وجماعة كانت تسمى نفسها "الشعلة الثورية"(١٠١). فى اجتماع للمكتب السياسى فى يوليو ١٩٧٨، كان مالتسيف على الرغم من كل المساعدات التى منحها لهم السوفيت، لم يستطع الإثيوبيون تصحيح الموقف فى إريتريا ولا الأوجادين. وكان كريلينكو ***Kirilenko*** الذى ترأس الاجتماع يرى أن منجستو "شخص منطقى" مشكلته الأساسية هى الافتقار إلى الخبرة. ولذا فقد استنتج "أنه من الضرورى أن نعلمه". وقام أندروبوف وبوناماريوف، اللذان حاولا استثمار العلاقة مع إثيوبيا كثيرا، بتذكير المكتب السياسى "بأهمية أن نظهر لمنجستو أننا فى صفه". وفى حين شعر عدة أعضاء بالقلق من ألا يستمروا فى السيطرة على الموقف، بما فى ذلك السيطرة على علاقة التحالف، أكد بوناماريوف أن "كوبا لن تجرؤ على القيام بأى شىء فى إثيوبيا دون موافقة مسبقة من الاتحاد السوفيتى"(١٠٢). ورأت موسكو أن الاشتراكية الإثيوبية نفسها تمر بمرحلة التقلص إلى كونها مجرد تهمة متعبة(١٠٣).

وفيما كان الزعماء السوفيت يشعرون بالحزن على خياراتهم فى القرن الأفريقى، أدى تدخل موسكو فى المنطقة إلى مزيد من العداء لإدارة كارتر، فقد جاء هذا التدخل فى نفس الوقت الذى أدرك فيه الرئيس أنه لن يكون هناك أى تطور سريع فى المفاوضات بشأن الحد من الأسلحة النووية، كان كارتر أشد حساسية للضغوط السياسية من اليمين، الذى ادعى أنه يقوم بالكثير من التنازلات للسوفيت لإنقاذ التهدئة. لكن بينما كان البيت الأبيض يتجه نحو سياسة أكثر شدة فى أواخر ١٩٧٧، كان التدخل السوفيتى فى القرن الأفريقى هو ما خلق الأزمة فى العلاقة، إلى درجة أن مستشار الأمن القومى لكارتر، الصقر زبيجنيو بريـــجنسكى ***Zbigniew Brzezinski*** استنتج فى مذكراته أن "التهدئة دُفنت فى رمال الأوجادين"(١٠٤). أثناء اجتماع مشحون مع وزير الخارجية السوفيتى أندريه جروميكو ***Andrei Gromyko*** فى مايو ١٩٧٨، بعد الانتصار الإثيوبى، أخبره كارتر أن الولايات المتحدة كانت مهتمة جدا "بالجهود السوفيتية لزيادة التأثير السوفيتى فى أفريقيا من خلال التزويد

بالأسلحة وتشجيع التدخل الكوبى". وطلب الرئيس من جروميكو أن "يخبر الرئيس بريچنيــف أننا نعتبر ذلك تطورًا منذرًا، أمرًا لازال فى مرحلة التطور"[١٠٥].

أثناء أزمة القرن الأفريقى تضاربت وجهات نظر بريچنيــف عن السياسة السوڤيتية بشدة مع وجهات نظر وزير الخارجية سيروس ڤــانس ***Cyrus Vance***. ففى حين كان ڤــانس يعتقد أن التدخل السوڤيتى فى إثيوبيا – مهمًا كان مثيرًا للأسى – لا ينبغى السماح له بخلق مشكلات فى المفاوضات الأكثر أهمية بشأن الأسلحة الاستراتيچية، رأى بريــچنسكى أنهم "لابد من أن يفهموا أن هناك عواقب لسلوكهم، ووقوفنا مكتوفى الأيدى سيدمر سمعتنا نحن – إقليميًا وعالميًا – وسوف نخلق الظروف المواتية لرد الفعل الداخلى". عارض سيرس ڤــانس اقتراحات الرد عن طريق زيادة الدعم لسياد برى، ونقل قوات مهام بحرية أمريكية إلى القرن الأفريقى واستصدار إدانة صينية أمريكية مشتركة وإلغاء محادثات الفضاء والتجارة مع السوڤيت. أخبر ڤــانس بريــچنسكى أنه "هنا نختلف أنا وأنت، إن عواقب فعل شىء كهذا وخيمة للغاية"[١٠٦]. ورغم أن رد الفعل الأمريكى فى النهاية كان محدودًا، ساعدت الأزمة بريــچنسكى على أن يستحوذ على آذان الرئيس فى ادعاءاته بشأن الدوافع السوڤيتية. فى خطاب لكارتر فى يونيو ١٩٧٨ قال إنه "بالنسبة للاتحاد السوڤيتى يبدو أن التهدئة تعنى صراعًا عدوانيًا مستمرًا من أجل المزايا السياسية والتأثير المتزايد بالعديد من الطرق المختلفة. وفيما يبدو فإن الاتحاد السوڤيتى يرى أن القوة العسكرية والمساعدات العسكرية هى الوسائل المثلى لتوسيع تأثيره فى الخارج". وعندما وافق الرئيس أخيرًا على إرسال بريــچنسكى إلى بكين فى ذلك الصيف، كان مطلبه الأول من الصينيين هو أن يقوموا بتقديم المساعدات إلى الصومال[١٠٧].

بالنسبة لليمين الأمريكي، كانت الإجراءات التى اتخذها كارتر ضئيلة جدا ومتأخرة جدا. وكان رونالد ريجان، وكان من المؤكد أنه سيبدأ حملة انتخابية فى انتخابات الرئاسة التالية، يرى نشاطات موسكو فى القرن الأفريقى على نحو تنبؤى:

لو أن السوفيت نجحوا – ويبدو أنهم بالفعل سينجحون – فإن القرن الأفريقى برمته سيكون تحت تأثيرهم، إن لم يكن تحت سيطرتهم. من هناك يستطيعون تهديد الممرات البحرية التى تحمل البترول إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة إذا أرادوا وحالما يريدون. وعلى نحو أكثر سرعة، فإن السيطرة على القرن الأفريقى تعطى موسكو القدرة على زعزعة استقرار حكومات شبه الجزيرة العربية التى أثبتت أنها معادية للشيوعية بشدة.... وفى غضون عدة سنوات قد نُواجه بامبراطورية سوفيتية من المحاسيب والدول التابعة تمتد من أديس أبابا إلى كيب تاون[١٠٨].

فى ١٩٧٨ كان معظم السياسيين فى موسكو غير مدركين للآثار العميقة التى تحملها سياساتهم في العالم الثالث فى المفاهيم الأمريكية لمستقبل عملية التهدئة. بالنسبة لليونيد بريجنيف ولغالبية زملائه، كان مبدأ المساواة بين القوى العظمى، الذى شعروا أنهم أرسوه فى مفاوضاتهم مع إدراة نيكسون، يدعوهم إلى التدخل فى المناطق التى تكون فيها الثورات المحلية مهددة، كما يدعوهم إلى الفصل بين سياساتهم فى العالم الثالث وبين علاقتهم الثنائية بالولايات المتحدة. فالأمريكيون لم يسألوا موسكو قبل أن يتدخلوا ضد حكومة الليندى ***Allende*** فى

شيلي أو ضد الحركات اليسارية الأخرى فى العالم. وكان معظم أعضاء المكتب السياسي يشعرون أن ما تغير في أوائل السبعينيات ومنتصفها هو أن الاتجاهات السياسية العامة فى الجنوب قد تحولت نحو اليسار، وأن الاتحاد السوفيتى استطاع أن يحمى ويساعد ويرشد بعض الحركات الراديكالية فى العالم الثالث من خلال مراحل مهمة من إقامة مؤسسات ثورية وبدء تكوين دول جديدة. وشعر السوفيت بأن الأمريكيين قد يعارضون تلك التطورات، ولكن فى النهاية، لن تخاطر واشنطن بتحطيم عملية التهدئة برمتها بسبب تطورات في دول فقيرة بعيدة عن المناطق الاستراتيچية فى العالم.

تطلب الأمر سنوات عديدة حتى بدأت القيادة السوفيتية تفهم لأى مدى كانت النخبة السياسية الأمريكية مصممة على مقاومة منافسة الاتحاد السوفيتى بوصفه نظيرًا لها على المستوى العالمى. ولكن قبل أن تدرك موسكو مدى الدمار الذى لحق بأهم أهدافها العالمية – التهدئة مع الولايات المتحدة – جراء سياساتها فى العالم الثالث، بدأت الآراء تختلف بداخل الكرملين حول مزايا التدخل السوفيتى فى الجنوب، فيما يخص النظرية السياسية الماركسية اللينينية. بدأ قلة من الخبراء الكبار فى ١٩٧٨، وقد استفزهم عجز المستشارين السوفيت عن التأثير فى مسار الثورة الإثيوبية بعد الانتصار العسكرى، بدأوا يتفحصون طبيعة بعض الثورات الوطنية–الديمقراطية فى العالم الثالث. كانت القضية الأهم هى مدى استطاعة نظام عسكرى كنظام منجستو البدء فى الانتقال إلى الاشتراكية بدون أن يتحول هو نفسه من خلال الفعل الطبقى من أسفل. أو بعبارة أخرى، هل كان الاتحاد السوفيتى وحلفاؤه بمساندته لمثل هذه الأنظمة يقف فى طريق المرحلة التالية من الثورة؟

أثيرت هذه التساؤلات على نحو أبعد على يد مجموعة صغيرة من الأكاديميين المؤثرين – معظمهم متمركز حول معهد اقتصاد النظام الاشتراكى

العالمى *IEMSS* برئاسة أوليج بوجومولوف *Oleg Bogomolov* ومعهد الدراسات الشرقية *IOS* برئاسة إيفجيني بريماكوف *Evgenii Primakov*. فهل كانت بعض الأنظمة "التقدمية" في العالم الثالث، بسبب عدم قدرتها على تكوين جبهات موحدة مع البرجوازية المحلية، تمثل طريقًا "بونابارتيا" بعيدًا عن التغير الاقتصادى والاجتماعى المطلوب لتنمية الطبقة العاملة؟ فلو أن هذا هو الحال لكان الاتحاد السوفيتى مخاطرًا بمكانته في تلك الدول بدعمه أنظمة ضعيفة وغير جديرة بالثقة، بل لكان معوقًا للتطور الاجتماعي الطبيعي الذى قد يبدأ في تحريك تلك الدول نحو الاشتراكية في مرحلة ما من المستقبل. وفي حين كانت هذه النظرة الماركسية الراديكالية محصورة في بعض المجموعات الصغيرة من المثقفين، فليس ثمة شك أنه بنهاية عام ١٩٧٨ كان عدم الاقتناع بسياسة تدخل الاتحاد السوفيتى فى العالم الثالث قد انسحب أيضًا على المؤسسات الرئيسية في الحكومة مثل الإدارة الدولية وجهاز المخابرات السوفيتى(١٠٩).

في داخل المؤسسات، كان غريبًا عدد أولئك الداعمين المتحمسين للمزيد من التدخل السوفيتى في العالم الثالث – وخاصة التدخل في أنجولا وإثيوبيا – في منتصف السبعينيات؛ ولكن في نهاية العقد وجدوا أنفسهم من ضمن المتشككين. فمثلا نائب بوريس بوناماريوف في الإدارة الدولية *mo*، واسمه كارن بروتنتس، الذى كان قد بدأ حملة من أجل سياسة سوفيتية أكثر نشاطًا في العالم الثالث في أوائل السبعينيات، والذى راقب بنفسه عددًا من الاتصالات الرئيسية لحركات في أفريقيا والشرق الأوسط، أصبح هو نفسه أحد المنشقين. في سلسلة من المذكرات المدمرة التى أرسلها إلى رئيسه فيما بين يناير ويونيو ١٩٧٩، قال إن بناء الاشتراكية في العالم الثالث قد أصبح مشروعًا سوفيتيًا، بينما بقيت الإضافة المحلية في أدنى مستوياتها. كان السبب من وجهة نظره هو أن العديد من الأنظمة الحديثة الإنشاء كانت تحت رئاسة الطبقة البرجوازية أو العسكريين، ممن لم يكن لديهم

اهتمام طبقي بانتصار الاشتراكية "الحقيقية". المشكلة لم تكن في صعوبة تعلمهم؛ بل في عدم رغبتهم في التعلم، وكان الاتحاد السوفيتي في تورطه المستمر معهم يشجع – على حسابه الخاص – مشاريع خيالية لا علاقة لها بمرحلة التطور الحالية للبلاد.

بالإضافة إلى إثيوبيا، استخدم بروتنتس العراق واليمن الجنوبي باعتبارهما حالات دالة. فبينما ازداد الدعم السوفيتي للنظام البعثي في أواخر السبعينيات، صعدت القيادة البعثية من هجماتها على القيادة الشيوعية المحلية كما على المجموعات الكردية اليسارية. في ١٩٧٨ طلب الألمان الشرقيون، وكانت لهم علاقات وثيقة بالحزب الشيوعي العراقي، طلبوا المساعدة من السوفيت لكي يمنعوا التدمير الكامل للحزب الشيوعي العراقي، وكتب الزعيم الألماني الشرقي إريك هونكر خطابات شخصية للرئيس العراقي أحمد حسن البكر يطالبه بألا يقوم بإعدام الشيوعيين المسجونين. لم تفضِ المحاولات السوفيتية والألمانية الشرقية في التوسط بين المجموعتين العراقيتين إلى شيء. في يناير ١٩٧٩ أخبر صدام حسين زعماء الحزب الشيوعي العراقي أن "العلاقة قد انتهت". قال صدام إن " الحزب الشيوعي العراقي قد أثبت عدم قدرته على المشاركة في حكم العراق، والسبب في ذلك هو أن الحزب كان يقوم بحملاته داخل القوات المسلحة". كان صدام "يأسف لبعض المبالغات [من قِبَل قواته الأمنية]، ولكن رد حزب البعث كان ضروريًا". وأعدم ألوف العراقيين الشيوعيين أو ماتوا في السجن(١١٠).

ولم يكن الموقف السياسي يتطور بشكل أفضل في اليمن الجنوبي من المنظــور السوفيتي. فــي صيف ١٩٧٨ اصطــدم الجنــاحان الرئيسيان بالحزب الاشتراكي اليمني الحاكم اصطدامًا عنيفًا بعد أن تورط زعيم الحزب سالم ربيع علي في محاولة للانقلاب في اليمن الشمالي. بعد أن تم إعدام ربيع علي، حاول الرئيس الجديد لجمهورية اليَمَنْ الديمُقراطية الشَعْبِيَة عبد الفتاح إسماعيل أن يرسي

قواعد شرعيته المتذبذبة بالتقرب إلى الاتحاد السوفيتي مقترحًا معاهدة صداقة تعطي موسكو الحق في نشر قوات في عدن. ورغم تعالي صيحات التحذير في الإدارة الدولية وجهاز المخابرات السوفيتي، كان المكتب السياسي يرى أن التحالف مع اليمن الجنوبي أمر شديد الأهمية، وفي أكتوبر ١٩٧٩ تم التوقيع على معاهدة مدتها عشرين عامًا. وكذلك الحال في العراق، فقد اتخذ السوفيت وحلفاؤهم في ألمانيا الشرقية خطوات لتحسين العلاقات بعد تراجعها في ١٩٧٨-١٩٧٩. وقالت الإدارة الدولية للاتحاد السوفيتي في مايو ١٩٨٠ إنه آن الأوان "لإعادة" العلاقات مع نظام صدام حسين. وقال الرئيس إن العراق هو الحليف الأهم لألمانيا الشرقية في الشرق الأوسط أو آسيا، وإن حزب البعث "لا ينبغي فقده للإمبرياليين"[١١١].

الكثير من المرارة وخيبة الأمل التي أصابت المستشارين السياسيين السوفيت كان سببها احتكاكهم الشخصي بالعالم الثالث. فالقليل جدًا من زعماء الحزب السوفيتي كان لديهم خبرة شخصية بالمكوث الطويل في دول العالم الثالث حتى منتصف السبعينيات. بالطبع كانت كوبا وفيتنام استثناءين، ولكن الصعوبات التي واجهوها هناك كان بالإمكان تجاهلها نظرًا للمكانة المتقدمة التي تحتلها هذه الدول في المعركة ضد الإمــبريالية. أما عدم رغبة الحلفاء الجدد - أنجولا وموزنبيق والصومال وإثيوبيا واليمن الجنوبي وأفغانستان - في الاستماع إلى النصائح السوفيتية فكانت تمثل تحديًا آخر. أجمع السوفيت الذين خدموا في هذه البلاد على عدم الكفاءة والتسليم بالخرافات والقذارة الموجودة في كل مكان بتلك المجتمعات، وهي الأمور التي لا يمكن تجنبها إلا من خلال الانتقال المنهجي الصحيح نظريًا إلى الاشتراكية. في ضوء الحاجة الملحة إلى حل "سوفيتي"، كان عناد الزعماء المحليين وسوء نواياهم في تناول اقتراحات المستشارين الأجانب مثبطًا للهمة، وجعلت بعض الزوار يفقد شهيته للمشروع برمته أو على الأقل يرغب في تقليصه. وقلما توقف المستشارون الرئيسيون للتفكر في أسباب وجود مقاومة محلية لخططهم،

أو تأمل حقيقة كون الزعماء المحليين أكثر فهمًا للتعقيدات السياسية في دولهم من السوفيت، فبدأوا يترنحون ما بين تقليص السيطرة السوفيتية وزيادتها، كحل لمشكلاتهم. أما بالنسبة للخبراء والمحللين الأصغر سنًا فى هذا المجال، فكان المنهج الأمثل هو، ببساطة، تجنب الصعوبات عن طريق إصدار تقارير تفيد إنجاز الخطة وتحقيقها، تمامًا كما اعتادوا أثناء معيشتهم فى الاتحاد السوفيتى.

في موسكو استمرت الغالبية فى المكتب السياسى تدعم التدخل السوفيتى فى العالم الثالث فى نهاية العقد. وكان معظم زعماء الحزب يرون أن المكانة الجديدة التى احتلها الاتحاد السوفيتي فى الجنوب دليل على موقعه كقوة عظمى، وقدرته على إرشاد الثورات فى الخارج. وفى حين كان بعض أعضاء المكتب السياسى – مثل أليكسى كوسيجين وأندريه كيريلينكو – يأسفون على الأضرار التى لحقت بالاقتصاد السوفيتى، فإن مواقفهم لم تتغير ولم يفعلوا الكثير لتهديد مسألة التدخل ككل. بل على العكس، فبعض المستشارين فى الإدارة الدولية ***MO*** ووزارة الخارجية – لأول مرة تتحد آراؤهم – بدأوا يتدبرون الخطط لكيفية تجنب هذه التكاليف من خلال زيادة تقسيم الأعباء بين الدول الاشتراكية المتقدمة. وبينما ظل النقاد على مواقفهم بوجه عام، فإن توصياتهم لم يتم نشرها خارج إداراتهم. ومادام أن تكوين المكتب السياسى لم يتغير فلم يرغب أحد من أعضائه أن تكون له المبادرة لإعادة تقييم السياسة الخارجية السوفيتية. فنفس الرجال الذين صوتوا منذ عدة سنوات من أجل هذه التدخلات – كانوا مازالوا فى السلطة. وفى نهاية العقد كان كل من النقاد والداعمين للتدخل أثناء السبعينيات قد اتفقوا على أن التغير الجذرى فى السياسة الخارجية السوفيتية، أو إعادة تقييم المفاهيم الرئيسية فى أهداف هذه السياسة، قد يغير التوازن بداخل المكتب السياسى(١١٢).

بالنسبة لشعوب القرن الأفريقى كانت للحرب وللتدخل الذى حدث فى السبعينيات عواقب تنبؤية. فعلى الجانب الخاسر، كان وجود الدولة الصومالية نفسه

مهددًا عندما انهار نظام سياد برى. فعند انحرافه عن مسار الماركسية، قامر سياد برى بالحصول على مساعدات عربية وغربية بعد الحرب - وعندما لم يحصل سوى على القليل حاول أن يزيد من دخل الحكومة عن طريق فرض الضرائب فى الأقاليم مما أعاد إشعال العصبية العشائرية التى كانت الحكومة قد جرمتها فى ١٩٧٣. ومع إشعال إثيوبيا للمقاومة ضد الحكومة، وتهاوى شرعية سياد برى - فذاك هو الرجل الذى تعلم الصوماليون أن يوقروه ويبجلوه باعتباره جزءًا من الثالوث الاشتراكى: الرفيق ماركس والرفيق لينين والرفيق سياد برى - بدأت تركيبة الدولة الصومالية كلها تتزعزع. وعندما حاول سياد برى القيام بتغيير يائس أخير فى ١٩٨٨ بالتحالف مع نظام منجستو، كانت كل العشائر الصومالية قد نالت كفايتها منه. وبما أنه قد قوض دعائم الاحتياج الإيجابى لدى أى صومالى إلى دولة مركزية، لم يؤد سقوطه إلى تغيير النظام وإنما إلى حرب أهلية وحكم قبلى. وأية محاولة - بما فى ذلك محاولة الولايات المتحدة فى التسعينيات - أن توحد الدولة الصومالية مرة أخرى - باءت بالفشل الذريع.

فى إثيوبيا أدى الانتصار والدعم السوفيتى بمنجستو إلى تكثيف محاولاته لتغيير الدولة والمجتمع. وقدم تأميم الأرض وإقامة الزراعة الجماعية، التى أدت إلى زيادة الإنتاجية إلى درجة ما فى البداية إلى عوائد أقل فأقل بعد ١٩٧٩. كان رد فعل اللجنة التنسيقية - بمساعدة حلفائها الدوليين - هو فرض أساليب زراعية أكثر تكثيفًا لزيادة الناتج على المدى القصير، وقد أدت الزراعة المكثفة - مع تأميم مناطق الغابات التى استخدمها الفلاحون كمصدر لأخشاب الوقود المجانية - إلى تجريف التربة على نحو كبير فى الثمانينيات. وعندما حاول النظام دفع الإنتاج إلى أعلى مدى له لكى يطعم الجيش والمدن، ولكى يقوم بتصدير منتجات زراعية - بدأت الأزمة. ومع صعوبة الحصاد وحبس الفلاحين فى بعض المناطق لمنتجاتهم خشية أن تصادرها الحكومة، انهارت الزراعة. فى ١٩٨٤ فى مقاطعة وولو

وحدها توفى ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٧٥٠ ألف شخص جوعًا. كانت تلك، كما ورد علـــى لســـان رئيس مفــوضية الإغاثة التابع للنظام داويت وولد جورچيس *Dawit Wolde Giorgis*، مجاعة يمكن تجنبها. لقد حطمت إثيوبيا، وحطمت معها أحلام النظام فى تقديم الاشتراكية إلى القرن الإفريقى[١١٣].

الفصل السابع

(١) مقابلة المؤلف مع أناتولى شرنييــف، واشنطن، ٢٠أبريل ٢٠٠٢. بشأن نظام *PDRY* انظر
Fred Halliday, Revolution and Foreign Policy: The Case of South Yemen, 1967-1987 (new edn; Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(٢) هناك الكثير من الأعمال المفيدة الأكبر حول الثورة الإثيوبية من مختلف الزوايا؛ انظر:
Andargachew Tiruneh, The Ethiopian Revolution 1974-1987: A Transformation forn an Aristocratic to a Totalitarian Autocracy (Cambridge: Cambridge University Press, 1993); Tefarra Haile-Selassie, The Ethiopian Revolution 1974—1991: From a Monarchical Autocracy to a Military Oligarchy (London: Kegan Paul, 1997); Edmond J. Keller, Revolutionary Ethiopia: From Empire to People's Republic (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1988); Fred Halliday and Maxine Molyneux, The Ethiopian Revolution (London: New Left Books, 1981); and Edmond J. Keller and Donald Rothchild (eds.), Afro-Marxist Regimes: Ideology and Public Policy (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1987).

(٣) *Bruce D. Porter, The USSR in Third World Conflicts: Soviet Arms and Diplomacy in Local Wars, 1945-1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), p. 200.*

(٤) فى ١٩٨٣ و١٩٨٤ كان مجموع المساعدات غير العسكرية ٥٤٢ مليون دولار، التى كانت أكبر من ٦٠% من مجموع المساعدات الممنوحة لدول الصحراء الأفريقية؛ انظر:
Abraham S. Becker, "The Soviet Union and the Third World: The Economic Dimension," in Andrzej Korbonski and Francis Fukuyama, eds., The Soviet Union and the Third World: The Last Three Decades (Ithaca, NY: Comell University Press, 1987), p. 78.

(٥) *Tiruneh, Ethiopian Revolution, p. 13.*

(٦) للمزيد عن هيلا سيلاسى فى سنواته الأخيرة انظر
Ryszard Kapuscinski, The Emperor: Downfall of an Autocrat (New York: Vintage Books, 1984).

(٧) مذكرة الحوار بين جونسون وهيلا سيلاسى، ١٤ فبراير ١٩٦٧
Foreign Relations of the United States (hereafter FRUS), 1964-1968, vol. XXIV, p. 565.

(٨) تقرير المخابرات القومية الخاص:
76.1-61, 24 January 1961, FRUS, 1961-1963, vol. XXI, pp. 425-428.

(٩) عن العلاقة بين الثورة الإثيوبية والبعثات المسيحية والماركسية الغربية، انظر

Donald L. Donham's brilliant Marxist Modern: An Ethnographic History of the Ethiopian Revolution (Berkeley, CA: University of California Press, 1999), especially pp. 126-127.

(١٠) Tiruneh, Ethiopian Revolution, pp. 17-34.

(١١) Haile-Selassie, Ethiopian Revolution, pp. 86-93.

(١٢) Tiruneh, Ethiopian Revolution, pp. 60-81

(١٣) ألقى القبض على الإمبراطور فى ١٢ سبتمبر، حيث كان المرض قد جعله لا يعى ما يدور حوله. وقتل بعد ذلك بعام واحد. كان العرش لايزال من الناحية الرسمية تحت حكم ولـــده، حتى اتخذ الأمير قراره الحكيم بعدم العودة من أوروبا حيث كان هناك أثناء الانقـــلاب. أمـــا الـــجنرال "أمان"الذى عينته اللجنة رئيسا للقوات المسلحة ورئيسا للدولة عن جدارة فربمـــا يكون قد اغتيل بسبب محاولاته التفاوض مع حركات التحرير الإيريترية، انظر:

Paul B. Henze, Layers of Time: A History of Ethiopia (New York: St. Martin's Press, 2000), pp. 285-287).

(١٤) Rene Lefort, Ethiopie: la revolution heretique (Paris: Francois Maspero, 1981) p. 63.

(١٥) لاتوجد بعد سيرة ذاتية جيدة لمنجستو باللغة الإنجليزية أو الأمهرية. هـــذه المعلومـــات حصلنا عليها من مستشارين سوفيت كانوا يعملون معه فى أواخر السبعينيات.

(١٦) Tiruneh, Ethiopian Revolution, pp. 85-112

(١٧) Hoben, "Social Soundness of Agrarian Reform in Ethiopia," USAID report, 1976, pp. 92-93, quoted from Donham, Marxist Modern, p. 33.

(١٨) Tiruneh, Ethiopian Revolution, pp. 131-151; see also Haile-Selassie, Ethiopian Revolution, pp. 207-209.

(١٩) Haile-Selassie, Ethiopian Revolution, p. 172

تم التخطيط لبرنامج إثيوبيا القومى للثورة الديمقراطيـــة *NDRPE* علـــى يـــد رئـــيس الحركـــة الاشتراكية الإثيوبية *Meison*، هايلى فيدا *Haile Fida*، الذى كان مستشارا رئيسيا للجنة حتى اختلف مع منجستو وتم القبض عليه، ومن ثم تم إعدامه فى ١٩٧٩. أمـــا نائبـــه، نيجـــاد جوبيز، وهو مفكر ماركسى كبير آخر، فقد فر إلى كوبا.

(٢٠) Tiruneh, Ethiopian Revolution, pp. 182-184

(٢١) Henze, Layers of Time, p. 2 8 5

(٢٢) كيسنجر إلى فورد، ١٨ مايو ١٩٧٥، خدمة المراجع الوثائقية المفرج عنها *DDRS*. انظر أيضا نائب وزير الخارجية روبرت إنجرسول إلى فورد، ٢٨ أبريل ١٩٧٥، خدمة المراجـــع

الوثائقية المفرج عنها. سأل إنجرسول الرئيس أن يزيد من الشروط الخاصة بالمبيعات العسكرية إلى إثيوبيا. وقال إنجرسول "من المطلوب أن تتحلى الولايات المتحدة الأمريكية بالمرونة الكاملة فى التعامل مع الموقف".

(٢٣) سكوكروفت إلى كيسنجر، (ربما فى أوائل ربيع ١٩٧٦)، *DDRS*.

(٢٤) صورة من اجتماع مجلس الأمن القومى،١١ مايو ١٩٧٦، *DDRS*. بخصوص العلاقات الخارجية للجنة *Derg*. انظر:

Halliday, Revolution and Foreign Policy, pp. 213-267

(٢٥) هينز إلى بريـچنسكى ، ٢٨ مارس ١٩٧٧،*DDRS*

(٢٦) هينز إلى بريـچنسكى ، ٢٢ أبريل ١٩٧٧، *DDRS*

(٢٧) بريـچنسكى إلى چيمى كارتر، ٣ يونيو ١٩٧٧، أرشيف الأمن القومى *NSArch*. مجموعة كارتر - بريـچينيڤ.

(٢٨) تسجيل المحادثة بين السفير الصومالى ادو وكارتر و بريـچنسكى، ١٦ يونيو ١٩٧٧، *NSArch*. مجموعة كارتر - بريـچينيڤ.

(٢٩) هينز إلى بريـچنسكى ، ١٧ أغسطس ١٩٧٧، *DDRS*. انظر أيضا حوار وزير الخارجية سيروس ڤانس مع وزير الخارجية الصينى هوانج هوا فى بكين، ٢٣ أغسطس ١٩٧٧، *DDRS*،حيث قال الوزير إن "الفرنسيين والبريطانيين والألمان ... اتفقوا على أن نمد الصوماليين بمختلف أنواع المعدات"، وأكد اعتقاد الولايات المتحدة أن الصوماليين سوف يصلون إلى أهدافهم العسكرية. وفى إشعار لاحق أخبر ڤانس هوانج فى سبتمبر بأن الأمم المتحدة قد أعطت "الأصدقاء السوڤيت" (لعله يقصد الإثيوبيين) صورا للمدافع السوڤيتية حول ميناء بربارا (سجل المحادثة المكتوب بخط اليد، ٢٨ سبتمبر ١٩٧٧، *UN, box 41,* *Vertical File- China* والمكتبة الرئاسية لـچيمى كارتر *JCPL*.

(٣٠) السفارة السوڤيتية، أديس أبابا، تقرير إلى وزير الخارجية جروميكو، مارس ١٩٧٤ *RGANI), f. 5, op. 67, d.796, pp.40, 46.*

(٣١) المصدر السابق ص. ٤٩.

(٣٢) السفارة السوڤيتية، أديس أبابا، تقرير إلى وزير الخارجية جروميكو، ٩ يونيو ١٩٧٤، المصدر السابق ص.٢٢٣.

(٣٣) *RGANI, f. 5, op. 67, d. 797, p. 292.*

(٣٤) تسجيل المحادثة بين سينيتسين وفيريدا،٢١-٢٢ سبتمبر ١٩٧٤، المصدر السابق. من أجل رواية سينيتسين غير المفصلة عن تورطه فى الشأن الإثيوبى انظر)

Sergi Sinitsyn, (Mission to Ethiopia: Ethiopia and the Horn of Africa through the Eyes of a Soviet Diplomat, 1956-1982) (Moscow: XXI vek, 2001).

(٣٥) من راتانوف إلى اللجنة المركزية، مارس ١٩٧٥، *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1985, p. 121*

(٣٦) تسجيل المحادثة بين روماشكين وچيدا،١ نوفمبر ١٩٧٤،

RGANI, f. 5, op. 67, d. 797, pp. 338-339;

انظر أيضا السفارة السوفيتية، أديس أبابا، "بيانات قيادة *PMAC* حول جوانب النمو فى العلاقات السوفيتية – الإثيوبية وبعض الاعتبارات لدى السفارة حول الأفعال الممكنة للاتحاد السوفيتى على الصعيد السياسي" ٢٣ أبريل ١٩٧٦،

RGANI, f. 5, op. 69, d. 2580, p. 37.

(٣٧) التقرير السياسي للسفارة السوفيتية لعام ١٩٧٤،

RGANI, f. 5, op. 67, d. 798, p. 67.

(٣٨) تسجيل المحادثة بين راتانوف وبانت، ٢٥ يناير ١٩٧٥

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, pp. 12-18.

(٣٩) تقرير حول الاجتماع الثانى لحزب العمال الكونجوليين، ص. ١١، أرشيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإيطالى *PCI* ، روما*202, vol. IV, I bimestre 1975*

(٤٠) نص بيان السفير السوفيتى نيابة عن الحكومة السوفيتية

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, pp. 53-54

يؤكد البيان بشدة أن النزاع بين إثيوبيا والصومال ينبغى أن يتم حله عن طريق المفاوضات.

(٤١) تسجيل المحادثة بين السفير راتانوف ورئيس *PMAC* تيفيرى بانت وغيره من القادة الإثيوبيين، ١١ مارس ١٩٧٥

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989; pp.81-83.

(٤٢) *Keller, Revolutionary Ethiopia, pp. 196-201*

(٤٣) كيسنجر إلى فورد،١٨ مايو ١٩٧٥، *DDRS*، چيمس لين إلى فورد، ٢١ مايو ١٩٧٥، *DDRS*، كيسنجر إلى فورد، ٢٤ يونيو ١٩٧٥، *DDRS*؛ مساعد الوزير للشئون الأفريقية وليام شوافل *William Schaufele* كما ورد فى

Halliday, Revolution and Foreign Policy, p. 222. See also David A. Korn, Ethiopia, the United States and the Soviet Union, 1974-1985 (London: Croom Helm, 1986), pp. 13, 21.

(٤٤) راتانوف إلى اللجنة المركزية، مارس ١٩٧٥،

RGANI, f. 5, op. 68, d. 1985, p. 128.

(٤٥) راتانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٤ مارس ١٩٧٥
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, p. 135.

(٤٦) راتانوف إلى اللجنة المركزية، ٩ أبريل ١٩٧٥
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, pp. 123-126.

حول التعايش بين القوات الأمريكية و السوفيتية فى الجيش الإثيوبى انظر أيضا تسجيل المحادثة بين راتانوف ورئيس اللجنة السياسية لـ *PMAC*، سيساى هابت، ٩ أبريل ١٩٧٥، المصدر السابق ١٢١- ١٢٢.

(٤٧) المصدر السابق ص. ١٦٧-١٧٣.

(٤٨) تسجيل المحادثة بين راتانوف وتيفارى بانت، ١٥ يوليو ١٩٧٥.
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, p. 204.

(٤٩) انظر مثلا تسجيل المحادثات بين راتانوف وتيفيرى بانت، ١٥ يوليو ١٩٧٥ *RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, pp. 201-205* وبين راتانوف ووزير الدفاع أيالو ماتدفرو، ٦ أغسطس ١٩٧٥، المصدر السابق صز ٢٢٨-٢٣٠. وبين مستشار السفارة السوفيتية سينسيتسين وسيساى هابت، ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥، المصدر السابق ص.٢٦٢-٢٦٤.

(٥٠) تسجيل المحادثة بين سينسيتسين وعضو *PMAC*، الملازم سيلسى *Silesi*، ٢٤ مارس ١٩٧٥.
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, p. 138.

(٥١) راتانوف إلى وزير الخارجية جروميكو، ٢٧ مارس ١٩٧٦
RGANI, f. 5, op. 69, d. 2580,pp.22-24.

(٥٢) السفارة السوفيتية، أديس أبابا، إلى موسكو، ٢٣ أبريل ١٩٧٦،
RGANI, f. 5, op. 69,d.2580, p.46.

(٥٣) "القوات المسلحة الإثيوبية ودورها ومكانها فى الحياة السياسية للبلاد" ٣١ يناير ١٩٧٥،
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1985. p. 38.

(٥٤) السفارة السوفيتية، أديس أبابا، إلى موسكو، ٢١ يونيو ١٩٧٥، المصدر السابق ص.١٦٨.

(٥٥) انظر، مثلا، "بيانات زعماء *PMAC* حول جوانب النمو فى العلاقات السوفيتية – الإثيوبية وتفكير السفارة فى خطوات التالية المحتملة للاتحاد السوفيتى على الصعيد السياسى" ٢٣ أبريل ١٩٧٦،
"Statements of the PMAC Leaders on the Perspectives of the Development of Soviet-Ethiopian Relations and the Embassy's Consideration on the Next Possible Steps of the Soviet Union in the Political Sphere," 23 April 1976, RGANI, f. 5, op. 69, d. 2580, pp. 34-54

(٥٦) مذكرة الحوار بين السفير السوفيتي راتانوف ورئيس *PMAC* تيفيرى بانت، ١٥ يوليو ١٩٧٥
RGANI, f. 5, op. 68, d.1989, p.204.

(٥٧) السفارة السوفيتية، أديس أبابا، إلى وزارة الخارجية، موسكو "الاعتبارات والمقترحات بشأن مفاوضات سوفيتية إثيوبية رفيعة المستوى" ١٦ يونيو ١٩٧٦،
RGANI, f. 5, op. 69, d. 2580, pp. 60-95.

انظرأيضا "حول ردود الفعل فى إثيوبيا على نتائج مفاوضات سوفيتية إثيوبية رفيعة المستوى فى موسكو" ١١سبتمبر ١٩٧٦،المصدر السابق ص.١٤٣-١٥٦.

"On the Reaction in Ethiopia to the Results of the High Level Soviet-Ethiopian Negotiations in Moscow," 11 September 1976, ibid., pp.143-156.

(٥٨) *RGANI, f. 5, op. 69, d. 2580, p. 148*

(٥٩) تسجيل المحادثة بين راتانوف ومنجستو هيلا ميريام،٢١ فبراير ١٩٧٥،
RGANI, f. 5, op. 68, d. 1989, p. 57.

(٦٠) *Keller, Revolutionary Ethiopia, p. 197*

(٦١) "التقرير السنوى لسفارة الاتحاد السوفيتى فى إثيوبيا لعام ١٩٧٦"
RGANI, f. 5, op.73,d.1634,pp.1-11.

(٦٢) المصدر السابق.

(٦٣) السفارة السوفيتية، أديس أبابا، إلى وزارة الخارجية، موسكو، "حول وجهات النظر بشأن التسوية السلمية فى إريتريا" ٢٢ يونيو ١٩٧٥

"On the Question of Perspectives for a Peace Settlement in Eritrea," 22 June 1975, RGANI, f. 5, op. 68, d. 1987, p. 33

(٦٤) *Kom, Ethiopia, p. 29*

(٦٥) تقرير بخصوص زيارة وفد من اللجنة المركزية *SED* إلى جمهورية الصومال الديمقراطية، ٣١ يناير إلى ١ فبراير ١٩٧٧:

RGANI, f. 5, op. 77, d. 1618.pp.1-5.

(٦٦) إدارة أفريقيا، وزارة الخارجية السوفيتية، تقرير حول النزاعات الإقليمية بين الصومال وإثيوبيا، ٢ فبراير ١٩٧٧:

RGANI, f. 5, op.73,d. 1632, pp. 39-44.

(٦٧) تسجيل المحادثة بين راتانوف ومنجستو، ٤ و ١٩فبراير ١٩٧٧:
RGANI, f. 5, op. 73, d. 1636, pp. 31-32, 33-38.

(٦٨) منجستو إلى هونيكر،٩ مارس ١٩٧٧، أرشيف برلين *SAPMO-BArch, DY-302419*

(٦٩) يفترض أن تكون من طراز *MI-8Ts*.

(٧٠) تسجيل المحادثة بين راتانوف وبرهانو بايه *Berhanu Bayih* وراتانوف ومنجستو هيلا ميريام، *RGANI, f. 5, op. 73, d. 1636, pp.46-50, 55-57,58.*

(٧١) المصدر السابق.

(٧٢) اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى اللجنة المركزية فى *SED* حول زيارة منجستو إلى موسكو، ١٣ مايو ١٩٧٧ *SAPMO-BArch, J IV 2/202/583* . تسجيل المحادثة بين كورت سيبت وصدام حسين خلال العيد الثلاثين لحزب البعث، ٦-١٣ أبريل ١٩٧٧ *SAPMO-BArch, DY-30 IV B 2/20/87*، وقد أكد صدام ما رأى أنه موقف أمريكى مستمر وقوى فى إثيوبيا.

(٧٣) "حول إجراءات *PMAC* لتحقيق إنهاء الوجود الأمريكي فى إثيوبيا" ٢٦ مايو ١٩٧٧
RGANI, f. 5, op. 73, d. 1633, p. 198

انظر أيضا:

Diana L. Ohlbaum, "Identity and Interests in Soviet Foreign Policy: The Case of Ethiopia, 1974-1991," Ph.D. dissertation, Johns Hopkins University, 1998.

(٧٤) من الدراسات الجيدة القائمة أساسا على مصادر إثيوبية دراسة

Gebru Tareke, "The Ethiopia-Somalia War of 1977 Revisited," International Journal of African Historical Studies, 33.3 (2000): 635-667.

(٧٥) تسجيل المحادثة بين راتانوف ومنجستو هيلا مريام، ٢٦ أغسطس ١٩٧٧،
RGANI, f. 5, op. 73, d. 1636, pp. 88-89.

هذا التسجيل تم تمريره لأعضاء من المكتب السياسى السوفيتي.

(٧٦) تسجيل المحادثة بين القائم بالأعمال السوفيتي فى إثيوبيا سينيتسين والرائد برهانو بايه، ١٨ مارس ١٩٧٧، *RGANI, f. 5, op. 73, d. 1638, pp. 93-97* حول الجهود الكوبية اليمنية للتوسط فى منتصف مارس ١٩٧٧.

(٧٧) تسجيل المحادثة بين هونيكر وفيدل كاسترو، ٣ أبريل ١٩٧٧،
SAPMO-BArch, DY-30 J IV 2/201/1292.

(٧٨) أرشيف رئاسة الفيدرالية الروسية *AFRF*
f. 3, Op. 120, d. 37, pp.44,48.

(٧٩) تقرير من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي إلى اللجنة المركزية *SED* حول زيارة نائب الرئيس الصومالى ساماتنا *Samanta* إلى الاتحاد السوفيتى فى أواخر مايو وأوائل يونيو ١٩٧٧،

SAPMO-BArch, DY-30 J IV 2/202 584.

(٨٠) تسجيل المحادثة بين راتانوف ومنجستو هيلا مريام، ٢١ و٣١ يوليو ١٩٧٧ و١ أغسطس ١٩٧٧،

RGANI, f. 5, op. 73, d. 1636, pp. 110-112, 125-126.

(٨١) تسجيل المحادثة بين راتانوف والمسئول العسكري الكوبي أمالدو أوخوا *Amaldo Ochoa*، ١٧ يوليو ١٩٧٧، المصدر السابق ص. ١٤١-١٤٦

(٨٢) خطاب منجستو حول التعبئة العامة، ٢١ أغسطس ١٩٧٧، نقلا عن

Haile-Selassie, Revolutionary Ethiopia, p. 214.

(٨٣) تقرير من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى اللجنة المركزية *SED* حول نتائج زيارة بودجورني إلى أفريقيا ، آخر مارس ١٩٧٧

SAPMO-BArch, J IV 2/202 58.

(٨٤) *Korn, Ethiopia, p. 41*

(٨٥) بشأن المناقشات الباكرة عن تخطيط عملية جوية سوفيتية، انظر تسجيل المحادثة بين راتانوف وليجس أسفاو، ٩ أغسطس ١٩٧٧

RGANI, f. 5,op.73,d.1636,p.106.

(٨٦) *Keller, Revolutionary Ethiopia, p. 206*

(٨٧) من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى اللجنة المركزية *SED* "معلومات حول زيارة منجستو هيلا مريام إلى موسو في ٣٠-٣١ أكتوبر ١٩٧٧" ٨ نوفمبر ١٩٧٧،

SAPMO-BArch, J IV 2/202/583.

(٨٨) تسجيل المحادثة بين راتانوف ومسئول من ألمانيا الشرقية، أديس أبابا، ٩ ديسمبر ١٩٧٧ *SAPO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/126.*

(٨٩) تسجيل المحادثة بين بوريس بونوماريف *Boris N. Ponomarev* وبول ماركوفسكي *Paul Markovski* (*SED*)، ١٠ فبراير ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.

(٩٠) تسجيل المحادثة بين إبرهارد هينريش *Eberhard Heinrich* راتانوف في أديس أبابا، ١٣مارس ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.

(٩١) حول التورط السوفيتي المباشر في الحرب انظر تقرير إدارة أفريقيا في وزارة الخارجية السوفيتية بشأن العلاقات السوفيتية الإثيوبية، ٣ أبريل ١٩٧٨

حول محاولات ليبيا التوسط انظر "مذكرة عن رد الفعل *RGANI, f. 5, op. 75, d. 1175, pp. 24-32*
السوفيتي على المقترح الليبي بشأن الصراع الصومالي الإثيوبي" ٤ أبريل ١٩٧٨،
SAPMO-BArch, DY-30 IV 21 2.035/127 .

الأدبيات الروسية بشأن التدخل العسكرى السوفيتي ضعيفة للغاية ولكن يمكننا أن ننظر:
P. A. Golitsyn, "Tretia moia voina: o roli sovetskikh voennykh v Efiopii v otrazhenii somaliiskoi agressii" Voenno-istoricheskii zhurnal, 3 (1994): 54—60
(حربى الثالثة: دور الجنود السوفيت فى إثيوبيا فى دحض العدوان الصومالى). وبشأن رد الفعل
الأمريكي المباشر انظر اجتماع مجلس الأمن القومى، ٢٦ يناير ١٩٧٨،
box 28, subject file-meetings, Brzezinski collection, JCPL

(٩٢) من أجل بعض الفرص والتحديات انظر تقرير وزارة الخارجية السوفيتية والإدارة الدولية
للجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي "حول الصراع الصومالى الإثيوبى" ٣ أبريل ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 75, d. 1175, pp.13-23.

(٩٣) بشأن قضية الحزب ومقارنة مثيرة مع أفغانستان انظر
Eremias Abebe, "The Vanguard Party: Imperial Instrument of Soviet Third World Policy (1976-1986) (A Comparative Study of Soviet Party-to-Pany Relations with Afghanistan and Ethiopia)," Ph.D. dissertation. University of Maryland, 1994.

(٩٤) حاول السوفــيت أن يفهموا العلاقات بين المنافس التقليدى لــ*EPLF* وهو *ELF* ولكن بلا
جدوى للمرة الثانية. انظر أرشيف *SED*، المعلومات المتعلقة بمحادثات أحمد ناصر *(ELF-RC)* فى لجنة التضامن السوفيتية. ٧– ٨ يونيو ١٩٧٨.
SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.

(٩٥) اللقاء الصحفى مع بروتنتس، ٥ أكتوبر ١٩٩٣.

(٩٦) تسجيل المحادثة بين فريدل ترابن *(SED)* وكارن بروتنتس، ٧ نوفمبر ١٩٧٧
SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/1 . كان أبو نضال هو الوسيط الفلسطيني رئيس المجلــس
الثورى لحركة فتح آنذاك، وهى جماعة منشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية تتمركز فــى
بغداد (تسجيل المحادثة بين مركوفسكى *(SED)* وبوناماريوف، موسكو، ١٠ فبراير ١٩٧٨
SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127).

(٩٧) *SED AIV, "Report on Conversation with [Cuban Vice-President] Carlos Rafael Rodriguez," 13 February 1978, Havana, SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.*

(٩٨) مسودة الخطاب من هونيكر إلى بريـــجينيف بشأن المحادثات الإثيوبيـــة الإريترية، ١٩ أبريل ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/12.

(٩٩) سفير ألمانيا الشرقية فى أديس أبابـا، بايرلاشـر *Bayerlacher*، إلـى وزارة الخارجيـة الألمانية، ١١ أبريل ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 2419.

(١٠٠) تسجيل المحادثة بين ترابن *Trappen* مــن *(SED)* وأوليانوفـــسكى *Ulianovskii* مــن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، ١١ مايو ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127، انظر أيضا تسجيل المحادثة من بين لمبرز *Lamberz* من *SED* و بيب *Pepe* (السفير الكوبى فى إثيوبيا)،أديس أبابا،٣ مارس ١٩٧٨

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.

لنظرة عامة على تورط ألمانيا الشرقية فى الصراع الإريترى انظر أرشيف *SED* "معلومات عن التطورات والأحداث فى أنشطة *SED* فى السبعينيات لدعم الحل السلمى لمـشكلة إريتريـا" أواخر ١٩٧٩.

"Information on the Development and Events of the Activities Undertaken by the SED during the 1970s in Support of a Peaceful Solution to the Eritrea Problem" (n.d., late 1979?), SAPMO-BArch, DY-30 2419.

(١٠١) سفارة ألمانيا الشرقية فى موسكو،١٩ يونيو ١٩٧٨،تسجيل المحادثة بين جرابوفسكى *Grabowski* من *SED* وسينيتسين (رئيس إدارة أفريقيا فى وزارة الخارجية السوفيتية)

SAPMO-BArch, DY-30 IV 2/2.035/127.

(١٠٢) محاضر اجتماع المكتب السياسي باللجنة المركزية للحزب الـشيوعي الـسوفيتي، ١٤ يوليو ١٩٧٨ (مقتطفات)

APRF, f. 3,op.120, d.40, pp.45, 10-12.

(١٠٣) قال جروميكو وأندروبوف وبوناماريـوف فى ملاحظاتهم للمكتب السياسى قبل اجتماع ١٤ يوليو إنه "وفقا للاتصالات مع السفير السوفيتي فى أديس أبابا، ووفقا أيضا للمعلومات من الأصدقاء الكوبيين، هناك أحداث تدل على وجود نزعات وطنية لدى بعـض القيـادات الإثيوبية بعد الانتصار على الصومال فى أوجادين، التى بدأت بالفعل تؤثر سلبا على علاقات إثيوبيا مع العديد من الدول الاشتراكية. من الناحية الإثيوبية تحديدا، يتم التعبير عن عـدم

الرضا عن مدى التعاون مع هذه الدول وخاصة من الناحية الاقتصادية، وهناك العديد من الشكاوى الخاصة بتطور العلاقات التجارية الاقتصادية، وهذه الشكاوى قد لا يكون لها أساس من الواقع. هذه النزعة تظهر بشكل أو آخر فى منهج تعامل القيادة الإثيوبية مع حل للقضية الإريترية."

(APRF, f. 3, op. 91, d. 272, pp. 140-143).

(١٠٤) *Brzezinski, Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser (New York: Fonar, Straus, Giroux, 1983), p. 189.*

بشأن وجهات نظر الإدارة حول النتائج فى المنطقة ككل، انظر:

State Department to US embassies Teheran et al., 13 December 1977, box 27, subject file - meetings, Brzezinski collection, JCPL.

(١٠٥) تسجيل المحادثة بين كارتر وجروميكو، ٢٧ مايو ١٩٧٨، *NSArch*، مجموعة كارتر وبريجينيف. لقد كشف السوفيت بلا شك من شكوك كارتر حول دوافعهم حيث كذبوا ليخفوا درجة تورطهم. وأخبر جروميكو الرئيس بأن "وجود لسواء سوفيتي فى إثيوبيا أسطورة... ليس هناك نابليون سوفيتي فى أفريقيا. من الواضح أن الرئيس كان يُضلل بمعلومات خاطئة تماما". فى ديسمبر١٩٧٧، حيث كانت النقلة الجوية فى طريقها، أخبر وزير الخارجية السفير الأمريكي تون بأن "إمدادات الجيش السوفيتي إلى أثيوبيا غير مهمة" تسجيل المحادثة بين جروميكو وتون، ١٢ ديسمبر ١٩٧٧،

box 27, subject file - meetings, Brzezinski collection, JCPL).

(١٠٦) تسجيل اجتماع لجنة التنسيق الخاصة لمجلس الأمن القومي،٢ مارس ١٩٧٨ فى

Odd Arne Westad, ed.. The Fall of Detente: Soviet-American Relations during the Carter Years (Oslo: Scandinavian University Press, 1997), p. 267.

(١٠٧) كارتر إلى بريجنسكي ،١٧ مايو ١٩٧٨،أرشيف مجلس الأمن القومي *NSArch*، مجموعة كارتر – بريجينيف. انظر أيضا

Henze to Brzezinski, 10 March 1978, "The Carter Administration and the Horn: What We Have Learned," box 28, subject file - meetings, Brzezinski collection, JCPL.

(١٠٨) خطاب رونالد ريجان فى ٢٥ مارس ١٩٧٨ على موقع

http://www.reaganlegacy. org/speeches/.

(١٠٩) لمعرفة وجهات نظر بريماكوف انظر كتابه (قوانين التطور غير المنتظم والمصير التاريخي للدول حديثة الاستقلال

Mirovaia ekonoinika i mezhdunarodnie otnosheniia, 12 (1980): 27-39

بالنسبة لمعهد بوجومولوف *Bogomolov* ، انظر "بعض الاعتبارات لنتائج السياسة الخارجية فى السبعينيات (نقاط أساسية)، ٢٠ يناير ١٩٨٠ المنشورة فى *Moscow News, 1989, no. 30.*

Oleg Bogomolov, "Some Considerations of the Foreign Policy Results of the 1970s (Main Points)," 20 January 1980, published in Moscow News, 1989, no. 30.

وفقا لروبرت إنجليش *Robert English*، فإن التعليقات النقدية لسياسة الاتحاد السوفيتى تجـاه العالم الثالث فى هذا التقرير الذى رفع إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي قد كتبها فياشزلاف داشيشف، رئيس قسم السياسة الخارجية فـى معهـد الاقتـصاد للنظـام الاشتراكي العالمى*IEMSS* .

(Robert English, Russia ami the Idea of the West: Gorbachev, Intellectuals, ami the End of the Cold War [New York: Columbia University Press, 2000], p. 30-1).

(١١٠) تسجيل المحادثة بين محمد عزيز وبولورنر (امكتب السياسى لـ *SED*)، ١٩ فبراير ١٩٧٩، ونسخة مرفقة من اجتماع صدام حسين والقيادات الشيوعية العراقية، ٢٤ ينير ١٩٧٩

SAPMO-BArch, DY-30 IV B 2/20/87.

انظر ايضا تقرير الإدارة الدولية لـ *SED* حول اضطهاد حزب البعث للحزب الشيوعى العراقى، ٢٤ مايو ١٩٧٨؛ هونكر إلى البكر، ٢٠ مايو ١٩٧٨؛ ورد البكر على ذلك (ولكن هـونكر قرأها فى ١١ يونيو ١٩٧٨) كل ذلك من المصدر السابق.

(١١١) تقرير *AIV* "حول القضايا المتعلقة بالعلاقة الحالية بين *SED* وحزب البعث العراقى" ٢٢ مايو ١٩٨٠

"On Questions Concerning the Current Relationship between the SED and the Iraqi Baath Party," 22 May 1980, SAPMO-BArch, DY-30 IV B 2/20/87.

(١١٢) "المستغربون [فى أديس أبابا] يستفيدون من كون بعض الدول الاشـتراكية تحـد مـن تطوير التعاون الاقتصادي مع إثيوبيا. هذه الدول تشمل بولاندا والمجـر وبلغاريـا وأيـضا رومانيا، رغم أن ذلك لأسباب مختلفة" (السفارة السوفيتية فى أديس أبابـا، تقريـر عـن "علاقات إثيوبيا بدول الغرب" ١٤ أغسطس ١٩٧٨

RGANI f. 5, op. 75, d. 1173, pp. 155-161).

(١١٣) *Dawit quoted in Jospeh Tubiana, comp., La revolution Ethiopienne comme phenomene de société: temoignages et documents (Paris: Harmattan, 1990), p. 235.*

انظر أيضا

Robert D. Kaplan, Surrender or Starve: The Wars Behind the Famine (Boulder, CO: Westview Press, 1988).

نتائج سياسات لجنة الحكم *Derg* موضحة تماما فى كتاب

Markos Ezra, Ecological Degradation, Rural Poverty, and Migration in Ethiopia: A Contextual Analysis (New York: Population Council Press, 2001).

هنـــاك موقـــع لـــذكرى ضـــحاياالإرهاب الأحمـــر فـــى وهـــو *http://www.ethiopians.com/qey_shibir.htm.*

الفصل الثامن

التحدى الإسلامى: إيران وأفغانستان

بينما كانت السبعينيات أعلى نقاط المواجهة فى الحرب الباردة فى العالم الثالث، كانت أيضا العقد الذى بدأ فيه تحدى فرضيات الأيديولوجيتين الأمريكية والسوفيتية للهيمنة. فقد انفصلت الثورة الإيرانية فى ١٩٧٨-١٩٧٩ عن مفهوم أو نموذج أن التمرد الثورى يأتى من اليسار الماركسى بالأساس - بل على العكس، فبعد خلع الشاه تم تنحية اليسار جانبا على يد الثوريين الذين وجدوا الإلهام فى الله والرسول والقرآن الكريم. فى الثمانينيات بدأت الكثير من الجماعات الاجتماعية فى العالم الإسلامى - التى خرج منها أعضاء الأحزاب اليسارية فى الماضى - وخاصة جماعات الطلاب والمفكرين - بدأت تقدم الكوادر لأحزاب الإسلام السياسى وحركاته أو الأحزاب والحركات المتأسلمة. فى الوقت نفسه كان الكثير من هذه الأحزاب تجند أناسا من الذين كانوا يدعمون النموذج الغربى للتنمية فى الماضى، ولكنهم أصبحوا لا يرون أن النتائج الاقتصادية المتواضعة تعادل فقدان الاستقلالية الثقافية التى كانت تتطلبها مثل تلك التنمية[1].

للفكر الإسلامى كأيديولوجية جذوره فى مقاومة الاستعمار فى الشرق الأوسط منذ بداية القرن العشرين. ففى بحثهم عن دولة حديثة مناصرة للإسلام تقيم أفكارها وبناءها على تعاليم الرسول، تصور الزعماء الإسلاميون شيئا أشبه بالإصلاح الأوروبى فى القرن السادس عشر: عودة إلى الوعد الأصلى لدينهم وإدخال الشريعة الدينية فى أسس الدولة. شأن الشيوعية، أكد الإسلام السياسى على العدالة كمفهوم

رئيسي في رسالته – فدون إعادة بناء إمبراطورية للحق، وخلافة جديدة لتحل محل تلك التي دمرتها الإمـــبريالية الغربية، لن يجد المسلمون طريقهم إلى الله[٢]. وحيث إن الإسلاميين كانوا مضطهدين من القوى الاستعمارية أولا ثم من الأنظمة العلمانية التي تلتها – سواء كانت يسارية أو يمينية – كان الإسلاميون دائمًا يتخفون، متبنين شكلا من التنظيم أشبه بالحركات الثورية اليسارية. في منتصف السبعينيات، مع زيادة وقوع الأنظمة العلمانية تحت ضغط من السكان، ومع عدم التوازن الاقتصادي، وانتصار إسرائيل في حربين في الشرق الأوسط، كان الإسلاميون يأملون أن يكون وقتهم قد حان. بيد أنهم ما كانوا ليصبحوا قوة سياسية فعالة وقوية لولا وقوع حدثين بعيدين تماما عن محور اهتمامهم: الثورة الشيعية في إيران والغزو السوفيتي لأفغانستان.

الثورة الإيرانية و الحرب الباردة

منذ خلع حكومة مصدق بمساعدة الولايات المتحدة في ١٩٥٤، أصبحت إيران أقرب حلفاء أمريكا وأقواها في المنطقة، وتأكد النظام الأوتوقراطي للملك – الشاه محمد رضا بهلوي – من استمرار وصول البترول الإيراني إلى الغرب، في حين منحت المساعدات الأمريكية بالأسلحة والتدريب، منحت الشاه أحدث آلة عسكرية في الشرق الأوسط. ومع تعاونه مع الولايات المتحدة وبريطانيا أصبح نظام الشاه صمام الأمان للدول المحافظة الأصغر في المنطقة، وللممرات البحرية التي تربط شبه الجزيرة العربية بأسواق البترول في الغرب. في أوائل السبعينيات، كانت إيران حليفًا أمريكيا رئيسيًا في المنطقة؛ وأحد تلك الأنظمة – مثل البرازيل وجنوب أفريقيا وإندونيسيا – التي كانت إدارة نيكسون تراها ضرورية لمنع توجه العالم الثالث نحو الشيوعية[٣].

ولكن أهداف الشاه الرئيسية لم تكن تتركز على الشئون الخارجية. فقد عانى محمد رضا منذ ريعان شبابه من التدخلات الخارجية ومحاولات الدول الأخرى وشركات البترول فيها التأثير على بلاده، لذا فقد أصر على إعادة خلق إيران كدولة حديثة قادرة على الحكم الرشيد والنمو الاقتصادى والاستعداد العسكرى. كانت الولايات المتحدة هى وحى إلهامه الأول، وقد استجابت له بعد انتخاب جون كينيدى واحتوت إيران كواحدة من الدول الرئيسية التى كانت تمر بمرحلة تحديث ناجحة، وبدأت برامج مهمة للدعم والنصيحة فى القطاع المدنى كما مدت المساعدات إلى الجوانب العسكرية. وكما قال السكرتير التنفيذى للخارجية الأمريكية ويليام بروبيك ***William Brubeck*** فى يناير ١٩٦٣ "فى الشهور الأخيرة بدأ الشاه بكل قوة وعزم برنامجا للإصلاح مغيرًا الموقف والفكر السياسيين فى إيران تغييرًا جذريا. اختفى الكثير من السياقات والخلفيات السياسية الإيرانية وانتقلت العملية السياسية إلى خلفية جديدة، بقوى جديدة تعمل فى أطر جديدة"(٤).

كانت ثورة الشاه "البيضاء" إحدى أكثر المحاولات طموحًا للتحديث غير الشيوعى فى العالم الثالث. كانت الخطط التى تم تنفيذها بمساعدة اقتصاديين وعلماء اجتماع غربيين تؤكد بناء الصناعات الثقيلة ومصانع الطاقة. كما أكدت أهمية وفاعلية صناعات التصدير الإيرانية، وخاصة المنسوجات؛ واستيراد التكنولوجيا الجديدة وفتح أبواب الاستثمارات الأجنبية. وفى الزراعة، التى ظل أغلب الإيرانيين يعملون بها، وعدت "الثورة البيضاء" بظروف أفضل – وخاصة من خلال خطط رى تقوم بها الحكومة واستيراد بذور ومخصبات أفضل. ولكن الشاه كان يريد تغييرًا جذريًا كذلك فى الظروف الاجتماعية للفلاحين، من خلال استصلاح الأراضى والتعليم وحملات محو الأمية وتحرير المرأة. لقد كانت الثورة البيضاء تستهدف التحول الاجتماعى قدر ما استهدفت التقدم الاقتصادى(٥). وكما قال الشاه

فى خطـاب لـه عـام ١٩٦٨ فى جامعة هارڤـارد، حيث دُعى للحصول على دكتوراه فخرية:

لماذا علينا التعايش مع الشرور الحالية فى مجتمعنـا؟ إن المجتمع الذى نتصوره مخـالف تمامًـا للمجتمـع الحالى، الذى يمكن وصفه بأنه مجتمع بائـد...هنـاك حقائق تعتمد على العلم والتكنولوچيا، وهى آخذة فـى التغير، ولابـد أن تتغيـر مـع التقـدم فـى العلـوم والتكنولوچيا. إن التقدم والتطور مرتبطـان لا محالـة بهذه التغييرات... مثل استصلاح الأراضى أو مشاركة العمال فى نحو ٢٠% من صافى ربح المصانع التـى يعملون بها، أو إنشاء منظمـات مُحكمـة أسـميناها "جيوش الثورة البيضاء الإيرانية". وهى مكونـة مـن مجندين يقومون بأداء الخدمة الوطنية فى مجال محو الأمية والصحة والتنمية... هؤلاء الشباب يذهبون إلى القرى الإيرانية لتعليم الأميـين وتحـسين الخـدمات الصحية أو لإعادة بناء القرية. ويأخذون معهم أحـدث أفكار التقدم والحضارة ومبادئهما [٦].

كانت رسالة الشاه بالنسبة لإدارتى كينيدى وچونسون محل ترحيب، تتسق مع تأكيدهما الحداثة شرطًا أساسيًا للتنمية والأمن. وبعد أن احتج رجال الدين على الإصلاحات فى صيف ١٩٦٣، كتب كينيدى خطابًا شخصيًا للشاه يقول فيه: "إنى أشاركك الحزن الذى لابد من أنك تشعر به جراء فقد الأرواح المرتبط بالمحاولات الأخيرة لوقف برامجك الإصلاحية. إننى واثق من أن هذه المظاهر ستختفى تدريجيًا

مع إدراك شعبك لأهمية الخطوات التى تتخذها لإقامة العدالة الاجتماعية والمساواة فى الفرص لكل الإيرانيين. كما أعرف جيدًا أن الاقتصاد القوى المتنامى سيوفر أفضل دعائم برنامج الإصلاح الأساسى الذى تقوم به"[٧]، ثم راح يلقى محاضـــرة علـــى الشـــاه عـــن مزايا نموذج الاقتصاد الأمريكى. لم يأبه كينيدى ولا جونسون بالتحذيرات من أن برنامج التحديث الذى يتبناه الشاه سوف يعزله عن مناصريه، المحافظين السابقين وعن رجال الدين. كتب ويليام ر.بولك ***William R.Polk***، من مجلس تخطيط السياسات بالخارجية الأمريكية، إلى رئيسه والت روستو ***Walt Rostow*** عقب زيارة إلى طهران فى ديسمبر ١٩٦٣: "إن الشاه يتحدث الآن إلى نسبة أصغر من النخبة الحاكمة عما كان عليه الوضع قبل عامين. لست أرى أننا اليوم فى وضع أفضل مما كنا عليه قبل عامين. بل إننى على العكس أعتقد أننا قد نكون فى موقف أسوأ"[٨].

كان ضعف الشاه فى بداية الثورة البيضاء فى ١٩٦٣ هو ما أغرى الزعماء الإسلاميين بالحديث ضده. ففى حين كان رجال الدين الشيعة، وهم الغالبية فى إيران، لا علاقة لهم بالفكر الإسلامى، ظل السواد الأعظم منهم يعتقدون أن رموز الزعامة لديهم – آيات الله – لابد أن يكونوا قادرين على تشكيل السياسة الرسمية. ثم إن ثورة الشاه البيضاء بدت وكأنها تحدٍ مباشر لتأثير رجال الدين وأفكارهم. أحد آيات الله، روح الله الخومينى، وكان فى الثالثة والستين من العمر وهو معروف حتى اليوم بأنه خبير فى الصوفية الإسلامية – راح أثناء تمرد ١٩٦٣ يحذر الشاه على الملأ من أنه كان يخاطر بالإسلام وبالسيادة الإيرانية:

> **أيها الرجل البائس، مر خمس وأربعـون عامـا مـن عمرك، ألم يئن الأوان لك أن تفكر قليلا وأن تتأمل إلى أى السبل يقودك هذا...؟ وأنـت لا تـدرى إن كـان**

الموقف سيتغير فى يوم من الأيام ولا إن كان من يحيطون بك سيبقون أصدقاءك، إنهم أصدقاء الدولار، لا دين لهم ولا ولاء لديهم[٩].

كانت مكافأة الخومينى لقاء محاضرته للشاه، أربعة عشر عامًا فى المنفى، فى تركيا أولا ثم فى العراق وأخيرًا فى فرنسا. أثناء الفترة التى قضاها بالخارج، أصبح الواعظ نصيرًا للإسلام السياسى حيث اختار الإلهام الإسلامى والأفكار التنظيمية التى كانت المعارضة اليسارية تروجها للشاه. واستنتج الخومينى فى أوائل السبعينيات أن ما تحتاجه إيران هو حركة للثورة الإسلامية تهدف إلى الإطاحة بالملك وإقامة جمهورية إسلامية على مبادئ الشريعة الإسلامية ويقودها رجال الدين. راح الخومينى يخطب: "إن الاختلاف الأساسى بين الحكومة الإسلامية والممالك والجمهوريات الدستورية، هو أن نواب الشعب أو الملك فى مثل تلك الأنظمة، ينخرطون فى التشريع، بينما فى الإسلام تعود السلطة والقدرة على التشريع لله تعالى وحده"[١٠]. أى إن قبول الدول الإسلامية بدولة علمانية – أى دولة علمانية – سيؤدى بها إلى فقدان مقدساتها، مما قد يستدعى حربًا مقدسة – جهادًا – إذا دعت الضرورة، ضد الخونة من أجل تحرير المسلمين.

كانت علاقة الشاه بالولايات المتحدة فى رأى الخومينى وأتباعه دليلا على عدم جدوى إصلاحاته. فى هجوم آية الله الأخير على الشاه قبل نفيه من إيران تساءل:

أى نفع يجلبه لك الجنود والمستشارون العسكريون الأمريكيون؟ ... لست أدرى أين تلك الثورة البيضاء التى يكثرون اللغط حولها. يعلم الله أننى أعى جيدًا حجم ما تعانيه قرانا ومناطقنا النائية ومقدار الجوع

الذى يعانيه شعبنا وعدم النظام الذى يعانيه مواطنونا الفلاحون... وليعرف الرئيس الأمريكى أنه أكثر أفراد السلالة البشرية تنفيرًا فى نظر شعبنا الإيرانى بسبب الظلم الذى يفرضه على أمتنا الإسلامية[١١].

بيد أن تحذيرات الخومينى لم تكن موضع اهتمام لدى الشاه ولا الأمريكيين. فى السبعينيات كانت إيران أهم حليف للولايات المتحدة فى المنطقة- بل يمكن القول إنها كانت أهم من إسرائيل، التى كان الشاه قد بدأ يوطد مع حكومتها مقاومته للراديكالية العربية؛ وكان الهدف الأساسى للتنسيق الأمريكى الإسرائيلى الإيرانى هو النظام البعثى لأحمد حسن البكر وصدام حسين فى العراق، الذى كان عبارة عن حكومة علمانية يسارية متحالفة مع الاتحاد السوفيتى. أثناء زيارته إلى طهران فى أواخر مايو ١٩٧٢، وهو فى طريق عودته من لقاء قمة فى موسكو، أكد الرئيس نيكسون للشاه أن الولايات المتحدة سوف تحاول جاهدة أن تقلب الموازين فى المنطقة لصالح إيران "من خلال التأكيد أن الأهداف العربية لا يمكن تحقيقها من خلال الراديكالية العربية ولا الأسلحة السوفيتية"[١٢]. فى العراق، كانت الأداة الأساسية فى الخطط الأمريكية لقلب التوازن هى الانفصاليون الأكراد فى الشمال، تحت قيادة الحزب الديمقراطى الكردستانى بزعامة مصطفى بارزانى، وكان الحزب يتلقى الأسلحة والتدريب من إيران والولايات المتحدة وإسرائيل، بما فيها الأسلحة السوفيتية التى استولى عليها الإسرائيليون من مصر فى حرب ١٩٧٣. ولكن الهجوم العراقى المضاد المدعوم من الاتحاد السوفيتى فى أواخر ١٩٧٤ كان أقوى كثيرًا من قدرات الأكراد، وفى ١٩٧٥ فضل الشاه عقد اتفاق مع بغداد يقضى بمنحه تنازلات عن بعض الأراضى ويجعل العراق يكبح بعض المنفيين الإيرانيين -مثل آية الله الخومينى- فى مقابل أن يتخلى الشاه عن الحزب الديمقراطى

الكردستاني. واجه الأكراد العراقيون كارثة عندما أغلقت الحدود الإيرانية أمامهم. وكتب برزانى إلى كيسنجر يقول: "إن حـــركتنا وشعبنا تتعرضان للإبادة على نحو لا يصدق وفى صمت من الجميع"[١٣]. ولكن توسلات الزعيم الكردى اليائسة، للعقول المدبرة فى المخابرات الأمريكية طلبًا للمساعدة ذهبت أدراج الرياح تحت إدارة أمريكية كانت تركز جهودها على الهند الصينية ولا ترغب فى إغضاب الشاه[١٤].

فى أواخر ١٩٧٦ كان من الواضح أن ثورة الشاه البيضاء فى مشكلة. فقد أخذت الحكومة فى التوسع الاقتصادى الهائل بناء على زيادة أسعار البترول فى أوائل السبعينيات. ولكن فى حين تضاعف الناتج القومى المحلى غير البترولى بين ١٩٧٢ و١٩٧٦، وتضاعف دخل الفرد ثلاثة أضعاف، تضاعف الإنفاق العام كذلك أكثر من سبعة أضعاف – وتم تعديل أهداف خطة التنمية الخمسية من ١٩٧٣ – ١٩٧٨ ارتفاعا لتواكب التقديرات الجديدة لدخل البترول. كانت النتيجة ضخ المزيد من المال والاستثمار فى الاقتصاد، أكثر كثيرًا مما قد تستوعب إيران؛ وفى ١٩٧٥ كان التضخم يتزايد والفساد وعدم المساواة الاقتصادية يتصاعدان، والمضاربة فى الأراضى تذهب بتأثير الإصلاحات الزراعية. وعندما لم تشبع حتى عوائد البترول المرتفعة احتياجات الشاه من أجل الاستثمار الحكومى، زيدت الضرائب وبدأ نمط الستينيات فى الاقتراض من الخارج على نطاق أوسع كثيرًا من ذى قبل. فى الوقت نفسه وضعت الحكومة حدًا أدنى للأجور لكى تتجنب القلاقل العمالية، كما حددت الأسعار فى حملة ضد "الأثرياء غير المسئولين أو المتطفلين على أمتنا" واتخذت خطوات صارمة ضد المتهربين من الضرائب من الطبقة المتوسطة[١٥].

كان نتيجة السياسات الجديدة أن ضاعفت دولة الشاه والثورة التى يمثلها من أعداد أعدائها – ففى أواخر السبعينيات لم يكن اليساريون ورجال الدين وكبار ملاك الأراضى هم وحدهم من يرون الدولة الإيرانية دولة استغلالية ووحشية

وظالمة، ولكن انضم إليهم أيضا أعداد كبيرة من العمال والطبقة المتوسطة الجديدة وأصحاب المحلات التجارية ورجال الصناعة. في منتصف عام ١٩٧٧ عمل الشاه أخيرا بنصيحة واشنطن والاقتصاديين المدربين في الغرب لديه، وبدأ يبطئ من وتيرة النمو. ولكن عندما استقرت أسعار البترول بعد ذلك بفترة قصيرة، أدى نقص الإنفاق الحكومي إلى الكساد الشديد، الذي أصاب كل طبقات المجتمع الإيراني. شعر الكثير من أفراد الطبقة المتوسطة الجديدة الأصغر سنا أن الدولة قد خدعتهم، حيث علمتهم أن يشغلوا وظائف القطاع العام التي لم تعد متاحة. ومع ازدياد البطالة، ازداد النقد الحاد لنظام الشاه القمعي، ولم تفلح محاولات الشاه شراء معارضيه من خلال الإصلاحات السياسية والقضائية الليبرالية. وفي نهاية ١٩٧٧ واجه محمد رضا بهلوي – وكان مريضا بالسرطان – أكبر أزمة في حكمه منذ رئاسة مصدق للوزراء في الخمسينيات[٦٦].

كذلك كانت إدارة چيمي كارتر الجديدة للولايات المتحدة تعي جيدا التوازي مع الأزمات السابقة في إيران، وقد أكد الرئيس كارتر الذي اختير بعد عام واحد من سقوط سايجون، أكد مسئولية الولايات المتحدة في نشر الديمقراطية الليبرالية والقيم الأمريكية، ولكن دون التدخل الواضح الذي عمل به سابقوه. ونتيجة لذلك، كانت سياسات الإدارة الجديدة تجاه العالم الثالث تتصف بالفصام من البداية: فبينما تقدم أنماطا سلوكية جديدة لدول العالم الثالث التي كانت تحتاج إلى أسلحة أو قروض من أمريكا، كان الرئيس مقتنعا أن الولايات المتحدة لابد أن تواجه انتشار الشيوعية في العالم الثالث. وكانت الطريقة المثلى لكي يتم ذلك، في رأي كارتر، من خلال نشر المبادئ الأمريكية. وقد قام الحاكم السابق لــچورچيا، الذي لم تكن لديه أي خبرة بالسياسة الخارجية – ألغيت زيارته إلى اليابان لأن واحدا من أعضاء حملة كارتر لم يكن لديه جواز سفر – قام بإلقاء محاضرة على الشاه في نوفمبر ١٩٧٧، عن الحاجة إلى تحقيق المزيد من الإصلاحات. وفهم الشاه، الذي كان قد التقى كل

رؤساء أمريكا بدءًا من فرانكلين روزفلت، أن الدعم الأمريكى من أجل الرد العسكرى الرادع على المعارضة لن يأتى[١٧].

ربما كانت خطيئة كارتر الكبرى بخصوص إيران هى قراره برد الزيارة للشاه فى يناير ١٩٧٨ – وهى الرحلة التى قيل إن السيدة كارتر هى التى حرضت عليها حيث ارتأت أنه من اللطيف قضاء إجازة السنة الجديدة مع الأصدقاء الجدد: الإمبراطور والإمبراطورة. ربما كانت تلك أسوأ لحظة للقيام بزيارة رئاسية؛ فبينما كان الشاه يحتاج إلى أن يقر مصداقيته الوطنية لمواجهة المعارضة، هبط الرئيس الأمريكى فى طهران، مادحًا زعامة الشاه ومبديًا ملاحظته "للاحترام والإعجاب والحب" الذى يشعره الإيرانيون تجاه زعيمهم. فى منتصف يناير اندلعت أعمال الشغب فى طهران ومدن أخرى، مع ترديد شعارات تدين الشاه باعتباره خائنًا، وتحمل آية الله الخومينى المنفى باعتباره نموذجًا للاستقامة الوطنية وصحة الرأى. ورغم أن الشرطة الخاصة بالشاه استعادت السيطرة على الموقف على نحو مؤقت، فإن المظاهرات فى طهران فى سبتمبر ١٩٧٨، التى قتل أثناءها المئات على يد الشرطة، جعلت من الواضح أن الدولة قد فقدت سيطرتها على الشارع الإيرانى. كما أظهرت مسيرات سبتمبر أن اليسار والإسلام المعتدل والمعارضة الإسلامية قد وحدوا قواهم جميعًا ضد الشاه، متخذين من الخومينى رمزًا أعلى[١٨].

فى نظر الخبراء الأمريكيين بالشأن الإيرانى كان اليسار، وليس الإسلاميين، هو أكبر تهديد للمواقع الأمريكية، ولم يكن ثمة إيمان كبير بأن يتحد الاتجاهان معًا. وكما استنتجت الخارجية الأمريكية أثناء الأزمة الكبرى فى ١٩٦٣، فإن "الدعاية الشيوعية كانت تعادى الدين وتتقبل إصلاحات الشاه؛ فرجال الدين والفقهاء يعادون روسيا والشيوعية"[١٩]. إذن فقد رأت واشنطن الثورة الإيرانية فى إطار حرب باردة واسعة، حيث وقف الحزب الشيوعى الإيرانى – توده – ليربح من أى تهديد

يصيب نظام الشاه: كان يمثل شكلا بديلا للحداثة وقادرا على الحكم، على عكس الإسلاميين "الرجعيين" الذين كانوا يمثلون قوة سلبية صرفة. وأثناء محاولة بناء علاقات مع كل من المعارضة الإسلامية المعتدلة والإسلاميين – وهى المحاولات التى رفضها الخومينى بقوة – استنتجت المخابرات المركزية والسفارة الأمريكية أن الولايات المتحدة ليس لديها خيار آخر سوى أن تدعم الشاه.

أما وقد طُرد الخومينى من العراق على يد نظام صدام حسين، فقد بدأ فى خريف ١٩٧٨ يصدر توجيهات للمعارضة الإيرانية من منفاه الجديد فى باريس. انتشرت رسائل آية الله الخومينى فى إيران من خلال الشرائط المسموعة والمرئية والمنشورات وراحت تدعو الناس إلى الاستمرار فى الإضرابات والمسيرات، وتدعو الجيش إلى التمرد ضد الحكومة الخائنة. كما بدأ الخومينى يضع أجندة سياسية شاملة، ظهرت فيها بوضوح مصطلحات مثل "الاستقلال" و"الديمقراطية" و"الحرية"، وإن كانت فى معظم الأحيان مدعومة بكلمة "الإسلامى". وبدأت شخصيات المعارضة من كل الاتجاهات والميول السياسية تنضم إلى الخومينى فى باريس، مما ساعد على خلق الانطباع بأنه يشكل جبهة مقاومة واسعة للشاه هناك. بيد أن أفكار الخومينى بشأن الدولة التى كان يريد إنشاءها لم تتأثر كثيرا برفاقه الجدد؛ بل على العكس، فكثيرا ما كان يخشاهم، ويدعوهم إلى العودة إلى طريق الإســلام القويم. واعتقد أنه بهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يصبحوا جزءا لا يتجزأ من الثورة(٢٠).

انهارت حكومة الشاه فى ديسمبر ١٩٧٨، حيث خرج نحو المليون مواطن فى طهران مطالبين بخلع الشاه وعودة الخومينى. خرجت المسيرات أثناء عاشوراء، أهم يومين فى شهر محرم، الذى يتذكر فيه الشيعة استشهاد الإمام الحسين فى القرن السابع الميلادى. وامتلأت شعارات المتظاهرين بالدلالات

الموحية، مركزين على الحاجة إلى التضحية والطهارة – وهى الكلمات التى كان الخومينى يريد سماعها تحديدًا، بدلا من المطالب الاقتصادية والسياسية التى كانت تسود المظاهرات الباكرة. كانت مسيرات شهر محرم رمزًا قويًا على سيطرة الخطاب الإسلامى المتنامية فى المعارضة، مع إظهارها عجز حكومة الشاه. فى السادس عشر من يناير خرج محمد رضا بهلوى من البلاد، بغير رجعة، بينما تنازلت الحكومة الأخيرة التى أرساها برئاسة شهبور بختيار، وهو وطنى من أتباع مصدق، عن السلطة للمجلس الثورى الإسلامى الذى عينه الخومينى. وفى الأول من فبراير عاد آية الله الخومينى إلى طهران منتصرًا، وسط ترحيب من عامة الشعب الإيرانى باعتباره الإمام، أى سليل الرسول الذى عاد لكى يصلح الشعب.

مثلت الثورة الإيرانية تحولا فى معارضة العالم الثالث لهيمنة القوة العظمى. فقد كان اليسار هو القوة الأساسية التى واجهت الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، ولكن عودة الخومينى إلى طهران والجمهورية الإسلامية التى شرع فى إرسائها، كانت تعبيرًا عن وجود بؤرة معارضة بديلة، حيث تُستَمَد العدالة الدنيوية من كلمة الله وليس من قرارات الإنسان وحدها. فالإسلاموية تقدم أيديولوچية تتركز حول العالم الثالث نفسه، يمكن من خلالها إدانة مشروعى الحداثة الغربية كليهما[٢١]. وكما ورد على لسان طالب ناشط فى طهران تم إجراء حوار معه والثورة فى ذروتها:

> **إن الإمبريالية تستغلنا وتحكم العالم بأسره. الإمبريالية تريد أن تجعل الكل عبيدًا وخدما لها، وتصبح هى سيدة الجميع. وأمريكا تريد أن تصبح إيران، دولة وشعبا، موضعًا لتدخلاتها. أما الجمهورية الإسلامية، فعلى النقيض من ذلك، تفضل كل**

الحكومات الحرة والمستقلة التى تساند العدالة. إنهـا نوع الحكومة التى أرادها الشعب والتى كونها الشعب بنفسه؛ وهذه الحكومة هى صديقة الحريـة وعـدوة الإمـبريالية والشيوعية وكل ذلك. إن دولا مثل أمريكا لا تعطى أى حرية للذين يحتاجونها، بل تفضل الطبقة التى تمتلكهم [٢٢].

بيد أن الإسلاميين الإيرانيين، وهم يدينون الحداثة الغربية، أخذوا حذرهم من أن يلغوا التكنولوجيا والأساليب التنظيمية التى توحى بها الحداثة، وظل الخومينى يردد أن على المسلمين أن يحسّنوا من اكتسابهم للتنمية الحديثة وفهمهم لها، بينما لا يسمحون للأشياء المادية أن تغلب على تفكيرهم. وأن لابد من تسخير التقدم العلمى لخدمة الإسلام. كانت كراهية آية الله الخومينى للكهنوت المسيحى تعادل كراهيته للقوى العظمى – وقد سُئل ابنه أحمد إن كان "أعظم ما فعل هو إقامته لجمهورية إسلامية؟" فأجاب: "لا. إن ما جعله إماما وأدى إلى الحركة الإسلامية التاريخية المنتصرة هو أنه حارب الكهنوت المتخلف الغبى المتعجرف الرجعى"[٢٣].

كانت المواجهة مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى – وخاصة بعد غزو أفغانستان – دليلا قاطعا على صحة نظام الخومينى الجديد ثوريا ودينيا. فى رسالة إلى الحجيج الشارعين فى الذهاب إلى مكة فى سبتمبر ١٩٨٠، نادى الخومينى بالوحدة على المستوى العالمى وبرغبة المتدينين بالتضحية فى سبيل عقيدتهم:

أيتها الدول المحايدة، إننى أهيب بكم أن تشهدوا أن أمريكا تخطط لتدمرنا، لتدمرنا جميعًا. فلتستيقظ حواسكم ولتساعدونا على تحقيق هدفنا المشترك. لقد أدرنا ظهورنا إلى كل من الشرق والغرب، إلى كل من

> **الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، لكى ندير بلــدنا بأنفسنا. فهل نستحق بذلك أن يهاجمنا كل من الشرق والغرب؟ إن موقفنا الآن يعتبر استثناء تاريخيا، فــى ظل الأوضاع الحالية فى العالم، ولكن هدفنا لن يــضيع أبدًا حتى إن متنا أو استشهدنا أو هُزمنا[٢١].**

رغم رطانة الخومينى المزعجة المعادية لأمريكا، ظل الكثيرون فى إدارة كارتر يعتقدون بإمكانية وجود نوع من التسوية مع النظام الإيرانى الجديد. وتوقعت المخابرات المركزية وخبراء مجلس الأمن القومى فى شئون المنطقة أن يأتى التحدى الأساسى لأجندة الولايات المتحدة من اليسار، ولذا حاولوا أن يفتحوا قنوات اتصال مع دائرة الخومينى الداخلية، إلى أن تم احتلال السفارة الأمريكية على يد جماعة تسمى نفسها "طلاب على خط الإمام" ***Students following the line of Imam***. وعندما ساند الخومينى هذا الاحتلال علنًا، وساند أيضًا اتخاذ أعضاء السفارة الأمريكية رهائن كرد فعل لوصول الشاه إلى الولايات المتحدة، بدأت واشنطن ترى أن الإسلاميين هم أعداء أمريكا، الأكثر قدرة والأكثر نجاحًا من حزب توده وبقية اليسار الإيرانى؛ وأكدت مهمة كارتر الفاشلة للإنقاذ عجز الولايات المتحدة عن التدخل فى الشئون الإيرانية بعد الثورة، وأعطت الخومينى فرصة ذهبية لتهميش كل منافسيه المحليين على السيطرة باسم خطر خارجى يهدد الثورة.

عسكت النظرة السوفيتية للثورة الإيرانية نظرة الأمريكيين بالعديد من الأساليب. فقد كانت إيران منذ ١٩٤٥على قائمة الدول المستعدة للثورة فى نظر الإدارة الدولية للحزب الشيوعى السوفيتى. لقد غرس الاتحاد السوفيتى علاقات قريبة، ليس مع توده واليسار الإيرانى فحسب، وإنما مع المعارضة الإسلامية المعتدلة للشاه كذلك. توقعت موسكو فى البداية أن تكون نتيجة أزمة ١٩٧٧- ٧٨

هى استبدال أوتوقراطية الشاه بشكل من أشكال الحكومة الدستورية القومية كذلك الذى كان يمثله مصدق. وعندما اتضح فى نهاية ١٩٧٨ أن محمد رضا لابد من أن يذهب وازدادت الإضرابات، بدأت الإدارة الدولية تعتقد أن توده قد يكون لديه فرصة حقيقية للتأثير فى مستقبل السياسة الإيرانية، وقد ساعدها على ذلك التقارير الواردة من نور الدين كيانورى ***Nureddin Kianuri*** سكرتير الحزب الشيوعى. كانت الاستراتيجية التى أيدتها موسكو وتمسك بها توده هى الاقتراب الشديد من آية الله بوصفه زعيمًا ثوريًا. وفى تصريح لقيادة توده أنكر أى نوايا "لبناء الاشتراكية" ولكنه ذكر أنه يخطط لــ"تدعيم المكاسب المعادية للإمـــبريالية". وقال التصريح "من الواضح أن القوى المعادية للإمـــبريالية نشطة جدًا تحت حكم الخومينى، ولذا فإن أهم القوى اليسارية وحزب توده فى إيران ... يقفون خلف الخومينى"[٢٥].

فى منتصف ١٩٧٩ كان هناك منهجان مختلفان فى المسألة الإيرانية قد تطورا. المنهج التدريجى، الذى تزعمه رئيس الإدارة الدولية بوريس بوناماريوف ***Boris Ponomarev*** واستقطب الأغلبية فى المكتب السياسى، والقائل بأن الثورة الإيرانية سوف تتجه إلى اليسار مع الوقت طلبًا للإرشاد السياسى. فى الوقت نفسه، كان الأهم هو تجنب ثورة مضادة تدعمها أمريكا، كما حدث فى ١٩٥٣، والمنهج الآخر الذى تزعمه مدير جهاز المخابرات يورى أندروبوف ***Iurii Andropov***، والقائل بأن المشايخ سوف يحكمون قبضتهم على السياسة الإيرانية فى المستقبل المنظور وأن توده حزب ضعيف للغاية ومفكك للغاية فلن يستطيع الحصول على النفوذ الملموس، وأن أفضل ما يمكن للاتحاد السوفيتى أن يأمله هو شكل ما من التسوية أو الحل الوسط مع الخومينى يجعله يحد من هجومه الخطابى على الاتحاد السوفيتى، ويبتعد عن التدخل ضد الحكومة الشيوعية فى أفغانستان المجاورة، ولا يسبب "صعوبات" لــ"السياسات المعادية للإمـــبريالية" لدى حلفاء الاتحاد السوفيتى الأساسيين فى المنطقة، العراق وسوريا. وكان القصد من وصول نصير المخابرات

السوفيتية الـــجنرال ليونيد ف.شيبارشين ***Leonid V.Shebarshin*** بصفته مبعوثا، هو التأكد من أن القيادة السوفيتية لديها معلومات كافية للاختيار ما بين هذين المنهجين، وأن نتأكد أيضا، كما أشار شيبارشين فى أول تقرير له لأندوربوف، أن الموقفين المـــوجودين فـــى موسكـــو ليسا بالضــــرورة متعارضين. ما كان يفرق بينهما أولا وأخيرا هو مدى التفاؤل بشأن الفرص السوفيتية قصيرة المدى فى إيران.

كما أثر ازدواج الرأى بشأن الثورة الإيرانية لدى مستشارى الأمين العام للحزب الشيوعى السوفيتى، ليونيد بريچنيـــف ، فى آرائه. ففى حوار له مع زعيم ألمانيا الشرقية إريك هونيكر فى أوائل أكتوبر ١٩٧٩، أكد بريچنيـــف "الميول ذات الطابع غير الإيجابى" فى العلاقات السوفيتية الإيرانية، وأشار إلى أن "مبادراتنا لتطوير علاقات جوار جيدة مع إيران ليس لها أى نتائج عملية فى إيران". وأبدى أسفه من حملات آية الله ضد اليسار وقهر الأقليات القومية. وقال بريچنيـــف "إننا نعرف كل ذلك".

> **ولكننا نفهم أيضا شيئا آخر: وهو أن الثورة الإيرانيـــة قد قطعت التحالف العسكرى بـــين إيـــران والولايـــات المتحـــدة. وأن إيـــران تتخـــذ الآن مواقـــف معاديـــة للإمــــبريالية فى عدد من القضايا الدوليـــة، وخاصـــة فيما يتعلق بالشرق الأوسط. وأن الإمــــبريالية تحـــاول أن تستعيد تأثيرها فى المنطقة. ونحن نحاول أن نكافح هذه الجهود. إننا نعمل بمنتهـــى الـــصبر مـــع الإدارة الإيرانية الحالية ونحركها لكى تتعـــاون معنـــا علـــى أساس المصلحة المتبادلة[٢٦].**

بعد أزمة الرهائن في نوفمبر ١٩٧٩، ازدادت تقارير شيبارشين إلى موسكو سلبية. وفي حين رأى السفير السوفيتي في طهران فلاديمير فينوجرادوف أن منهج الخوميني تجاه الاتحاد السوفيتي غير ودي ولكنه حريص، حيث كان يخشى أن يتورط في صراع مع القوتين العظميين في الآن نفسه، كان مبعوث جهاز الاستخبارات يراه منهجا عدائيا. وتنبأ في تقاريره بثلاثة سيناريوهات: أن يستطيع الأمريكيون التدخل ضد النظام بنجاح، أو أن يسيطر أتباع الخوميني الرجعيون ويسوون خلافاتهم مع الولايات المتحدة، أو أن يظل آية الله الخوميني في السلطة ولكنه يتحول إلى معاداة الشيوعية مشجعا الثورات الإسلامية ضد الشيوعية في المنطقة بأسرها. ولكي تستطيع المخابرات السوفيتية اقتفاء أثر السياسات الإيرانية، طلبت من عملائها، وكذا من معارفها الآخرين، أن يزودوها بكم أكبر من المعلومات، وخاصة بخصوص المجلس الثوري.

اتضحت صحة رأي كل من فينوجرادوف وشيبارشين. ففي حين كان الخوميني يصر على إدانة الشيوعية والاتحاد السوفيتي علنا باعتباره "الشيطان الأعظم الآخر"، فإنه كان يتجنب أي صراع مفتوح مع السوفيت. وثبت أن كل الأهداف الإيجابية لموسكو حول إيران كانت وهما، وذلك يرجع جزئيا إلى سياسات الاتحاد السوفيتي نفسه؛ وكان فشل موسكو في منع حليفها صدام حسين من الهجوم على إيران في سبتمبر ١٩٨٠ قد خيب الآمال السوفيتية في بناء جبهة معادية للإمـــبريالية في المنطقة. كما أدت جهود المخابرات المركزية الدءوبة لجمع المعلومات إلى إحداث كارثة لحزب توده. في ١٩٨٣، وبادعاء أن أعضاء توده كانوا جواسيس للسوفيت، قام الإسلاميون بتحطيم الحزب؛ وتم القبض على عدة آلاف من الشيوعيين وتم إعدام المئات. ربما في إيماءة إلى السوفيت، لم تزهق أرواح الزعماء الأساسيين في الحزب، لكن عددا كبيرا منهم تحول إلى الإسلام أثناء وجودهم في السجن، في دليل على الإفلاس الأيديولوجي للشيوعية الإيرانية.

تم إبعاد الجنرال شيبارشين، ولكنه سرعان ما منح الفرصة لتدعيم أجندته المعادية للإسلام بصفته رئيسا للمخابرات الخارجية في موسكو[٢٧].

كانت الثورة الإيرانية منعطفا خطيرا لكل من القوتين العظميين في تعاملهما مع العالم الثالث. وكانت تعني بالنسبة للولايات المتحدة أن الشيوعية لم تعد الأيديولوجية المتكاملة الحديثة الوحيدة التي تواجه القوة الأمريكية. ورغم أن واشنطن لم تبدأ في رؤية الإسلاموية تحديا رئيسيا إلا بعد الحرب في أفغانستان وأخيرا، انهيار الاتحاد السوفيتي، فإن الأخطار المتزايدة للتدخل الأمريكي في الدول الإسلامية كان واضحا. أما السوفيت فكانوا يرون أن انتصار الخوميني يعني أن النظرية الماركسية لثورات العالم الثالث قد قابلت مشكلات جسام؛ فقد كان على اليسار أن يحل محل "الرجعية الدينية" بديلاً عن الاستغلال الإمــبريالي، وليس العكس. ثم إن العالمية الإسلامية الواضحة لثورة آية الله قد نشرت القلق والخوف في موسكو، لأنها كانت تمثل تهديدا مباشرا للحركات القومية اليسارية والحركات المعادية للإمــبريالية في المنطقة كلها وفي العالم الثالث. ولكن في بداية الثمانينيات كان الماركسيون السوفيت مازالوا يفضلون أن يروا أن الإسلام السياسي "في اتجاهاته الرئيسية" متحالف مع الإمــبريالية الغربية على نحو "موضوعي". وفي النهاية اعتقد الكثيرون من صناع السياسة في موسكو أن الأنظمة الشبيهة بالنظام الإيراني سوف ينتهي بها الحال في تصالح تام مع الأمريكيين، بسبب اشتراكهما معا في معاداة الشيوعية.

الاتحاد السوفيتي والثورة الأفغانية

كانت السياسات الداخلية لنظام محمد داوود في أفغانستان في منتصف السبعينيات ظلا لسياسات الشاه في إيران المجاورة. لقد جاء داوود إلى السلطة في

انقلاب غير دموى ضد ابن عمه ونسيبه السلطان ظاهر فى ١٩٧٣، فكان محدثًا فى الأسرة المالكة الأفغانية فيما بين الحربين، إذ حاول أن يطور الزراعة ويبنى الاتصالات وينشئ دولة مركزية. كانت مهمة داوود جد صعبة، إذ كان يحكم بلدًا من أفقر دول العالم، ذات سلاسل جبلية شديدة الانحدار، تفصل بين المناطق ذات الطابع العرقى أو القبلى المختلف، ولم ينجح كثيرًا سوى فى زيادة الامتعاض من تدخل الدولة فى الشئون المحلية. فى ١٩٧٧ وقع داوود فى ورطة سياسية، حيث انتقده الساسة فى حكومته بأنه لا يتحرك سريعًا بما يكفى، وانتقده أصحاب السلطة المحلية، بمن فيهم رجال الدين، بأنه يحاول قلب العادات والتقاليد الإثنية والدينية.

كان داوود مختلفًا عن الشاه، حيث راح يبحث عن الإلهام لحملته التحديثية لدى الاتحاد السوفيتى، وليس الولايات المتحدة، رغم أنه كان من المرونة (والعوز) بحيث راح يستقبل المساعدات من كلا الكتلتين. كان السوفيت متورطين فى مساعدة أفغانستان منذ العشرينيات، معتقدين بأن نظامًا قوميًا فى كابول سيعمل واقيا لحدودهم الجنوبية، مانعًا الإمـــبريالية وحليفتيها المحليتين فى فترة الحرب الباردة، إيران وباكستان، من نشر نفوذهما. وجد السوفيت أن تدخلاتهم فى أفغانستان كانت دلالة على أن المساعدات الودودة، عبر عدة أجيال، تساعد مجتمعًا متخلفًا أن يتحرك تدريجيًا نحو الاشتراكية، فى حين نظرت النخبة الأفغانية المناصرة للتحديث إلى الاتحاد السوفيتى باعتباره نموذجًا مباشرًا – فقد أرادت تلك النخبة أن تحول اقتصادها ودولتها وفقًا للاتجاهات السوفيتية، وإن فضلت أن يتم ذلك دون صراع طبقى أو ديكتاتورية الـــبروليتاريا. وقد أقنعت المساعدات السوفيتية – والتكنولوجيا التى تقدمها – الكثير من الأفغان فى الحضر بأن نمط موسكو فى التصنيع هو المفتاح لمستقبل أفغانستان، تمامًا مثلما الدعم السوفيتى هو مفتاح الأمن الأفغانى ضد الجارتين الجشعتين المدعومتين من قبل أمريكا: باكستان وإيران.

لم يقلق داوود من معارضة القوى الريفية المعادية للتحديث - فمع خلفيته في العائلة المالكة، كان يعتقد أن لديه ما يكفي من خبرة لمراوغة أصحاب السلطة المحليين وشرائهم والتعامل معهم لمدة طويلة. وإنما التحدى كان من قبل الحركات الشيوعية والإسلامية المتمركزة في الحضر، وبدا الشيوعيون الخطر الأكبر؛ فقد كان هناك عدد من المتعاطفين مع الشيوعية في كل من الإدارة المدنية والجيش، وقام عدد من اليساريين البارزين بالمساعدة في إرساء الاستقرار في نظام داوود أثناء سنواته الأولى في السلطة. في ١٩٧٧ بدأ "الرئيس المؤسس، ورئيس وزراء الجمهورية"، كما كان يحب أن يسمى نفسه، بدأ موجة من حملات التطهير ضد اليسار.

وعندما بدأ القهر، كان الحزب الشيوعي الأفغاني - الحزب الديمقراطي الشعبي لأفغانستان - حديث العهد، فقد تكون في ١٩٦٥ على يد مجموعتين يساريتين صغيرتين. المجموعة الأقدم من هاتين المجموعتين - التي عرفت فيما بعد باسم "خلق" على اسم جريدتها - كان يترأسها نور محمد تراقي *Nur Mohammad Taraki* المولود في ١٩٢١، وهو شاعر هادئ الطباع من أسرة ريفية فقيرة. ولكنه كان سياسيًا ديكتاتورًا ومتسلطًا، إذ كان يرى في نفسه الزعيم الطبيعي للشيوعيين الأفغان. وكان قرينه الحميم، حفيظ الله أمين - الذي وصف بأنه "ماهر ونشيط ومجتهد" من مواليد ١٩٢٩، ابنًا لموظف صغير في قرية صغيرة في كابول[٢٨]. درس أمين في الولايات المتحدة، حيث أصبح ماركسيًا، ووجد في نفسه المنظم الرئيسي في الحزب. أدى طموح أمين إلى صراع مع بابراك كارمال، الذي نظم مجموعة ماركسية منافسة في بداية الستينيات. كان كارمال، والذي كان في نفس عمر أمين، خطيبًا مفوهًا وزعيمًا طلابيًا تنتمي أسرته إلى الأرستقراطية الباشتونية العريقة. واعتقدت مجموعته، البارشام (أي اللواء) أن أمين متهور وقاس وأن الحزب الديمقراطي الشعبي لأفغانستان لن ينجح إلا من

خلال التحالف مع الأحزاب الأخرى[٢٩]. وظل الفصيلان يعيشان حياتين منفصلتين إلى أن تسبب قمع داوود لهما فى التقارب بينهما.

شأن الشيوعية، كانت الإسلاموية الأفغانية قد دخلت العالم الإسلامى متأخرًا، حيث ظهرت كحركة معارضة لإصلاحات داوود فى ١٩٧٣، وإن كان مؤيدوها من المثقفين يرجعون إلى الخمسينيات عندما تم إنشاء المجموعة الأولى فى جامعة كابول. كان برهان الدين ربانى ***Burhanuddin Rabbani*** وهو طاچيكى شمالى من مواليد ١٩٤١، أول زعيم طلابى إسلامى بارز تزعم جماعة عرفت فيما بعد باسم الجمعية الإسلامية بأفغانستان. ورغم أن جماعة ربانى كانت موجهة من قبل الإسلاميين الراديكاليين، فإنها كانت تعتقد بصنع تحالفات مع جماعات أخرى فى المجتمع فى مرحلة الانتقال إلى دولة إسلامية فى أفغانستان. كان المنافس الأساسى لربانى على الزعامة هو قلب الدين حكمتيار، وهو إسلامى راديكالى من مواليد ١٩٤٩ فى منطقة غيلزاى باشتون فى الشمال. وقبل التحاقه بالحركة الإسلامية أثناء دراسته للهندسة فى جامعة كابول، ارتبط حكمتيار بالشيوعيين، حيث استعار منهم الكثير من أفكاره التنظيمية. ورغم استمراره فى إدارة خلايا سرية فى المدارس والجامعات فى كابول وجلال أباد، فر الزعماء الإسلاميون إلى باكستان بعد محاولة انقلاب فاشلة فى ديسمبر ١٩٧٣. لم يلتفت الكثيرون لنداءاتهم من أجل ثورات عامة ضد نظام داوود، ولكن تلك النداءات تسببت فى قهر عام ضد المتعاطفين معهم فى داخل أفغانستان، حيث قتل نحو ستمائة إسلامى[٣٠].

وفوجئ الإسلاميون الأفغان بترحاب حار فى پاكستان، بل إن حكومة ذى الفقار على بوتو العلمانية كانت ترغب فى دعم قضيتهم. وفى حين كانت دوافع بوتو عملية للغاية – فقد أراد أن يستغل وجود الإسلاميين ليغلب رطانة داوود البشتونية القومية، التى كانت تجد أيضًا من يستمع إليها من البشتونيين على الجانب

الباكستانى من الحدود- كان هناك أيضًا إسلاميون فى العسكرية الباكستانية ومخابراتها يرون أن مساعدة الأفغان تصب فى صالح القضية العامة. وبعد الانقلاب العسكرى الذى قام به اللواء ضياء الحق ***Zia ul-Haq*** فى يوليو ١٩٧٧، تصاعد الدعم الباكستانى للإسلاميين الأفغان مما جعلهم قوة يحسب لها حساب رغم قلة عتادهم داخل البلاد.

وفى حين كان السوفيت يشعرون بالسعادة بسبب توجهات نظام داوود، فقد بقوا على صلة قريبة مع الشيوعيين الأفغان منذ تكوين مجموعات الدراسة الباكرة، يمدونهم بالمال ويستخدمون ما لديهم من معلومات لأغراض مخابراتية، ويشجعونهم على توسيع نفوذهم داخل الدولة الأفغانية. فى ١٩٧٧ ساور السوفيت القلق من أن صرامة داوود مع اليسار قد تكون علامة على ضعف العلاقات مع موسكو، خاصة بما أن المخابرات السوفيتية قد كشفت عن دلائل تهدئة للتوتر بين كابول وباكستان. وبالتالى ازداد السوفيت تأكيدًا على الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى ***People's Democratic Party of Afghanistan (PDPA)*** فى سياستها تجاه الأفغان، حيث استخدمت إمكانات المخابرات السوفيتية لمساعدة الشيوعيين على التهرب من أعوان داوود. ولكن على الرغم من القهر، أوضح السوفيت لبابراك كارمال وغيره من ممثلى البارشام ***Parcham*** – الفصيل المفضل لموسكو بداخل الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى – أنهم يتوقعون أن يجد الشيوعيون شكلا من أشكال التوافق مع داوود عبر الزمن. وحتى بعد أن قام داوود بالقبض على عدة زعماء من الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى فى الخامس والعشرين من أبريل ١٩٧٨، أصر السوفيت على التوافق، رغم أن السفارة حذرت موسكو من أن نصيحتهم لن يستمع إليها: "هناك خطورة من أن يكون بعض أعضاء اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى ــ لازالوا يتمتعون بالحرية وقد يذهبون إلى اتخاذ إجراءات متطرفة. قد يحثهم على ذلك بعض عناصر خاصة فى

الحكومة. وفى رأينا أن مثل هذه الأفعال المتطرفة فى الموقف الحالى قد تؤدى إلى هزيمة القوى التقدمية فى البلاد"[٣١].

كان انقلاب "خلق" الناجح فى ٢٧ أبريل ١٩٧٨ فى كابول مفاجأة لألكساندر بوزانوف ***Aleksandr Puzanov*** السفير السوفيتى منذ ١٩٧٢، كما كانت بالنسبة لغيره من الدبلوماسيين فى العاصمة الأفغانية[٣٢]. وفى تقريره الشامل الأول إلى موسكو بعد الانقلاب، وضع بوزانوف تقييمًا جيدًا للنظام الجديد ومجيئه إلى السلطة. لقد تم التحضير إلى الانقلاب على نحو سيئ وكان لدى عنصريه الأساسيين – تراقى وأمين – دوافع قوية تجاه اليسار. فقد كان الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى لازال يمثل اهتمامات "الجماهير العاملة" ضد نظام الرئيس داوود السابق الذى أصبح أكثر برجوازية. وقال بوزانوف إن الحكومة الجديدة ستكون "أكثر ميلا إلى الاتحاد السوفيتى، مما سيعزز ويقوى مواقفنا فى أفغانستان". ويبدو أن القيادة الثورية جعلت كل المقاطعات تحت سيطرتها، وقد "اتخذت إجراءات" ضد مناصرى داوود[٣٣].

كانت المشكلة الأساسية مع النظام الجديد، فى رأى بوزانوف، هى الاقتتال الداخلى الذى لا ينتهى فى الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. وراح السفير يشرح لرؤسائه فى موسكو أن الفصيلين الأساسيين فى الحزب – خلق والپارشام – كانا حزبين منفصلين، وأن سنوات الشك والعداء المتبادل قد قسمت زعماء المجموعتين. لم تقض "الثورة" على هذه الانقسامات – خاصة وأن كل الزعماء الرئيسيين فى النظام الجديد كانوا يمثلون فصيل خلق. لكن بوزانوف وعد موسكو بأنه سوف يقوم باتخاذ خطوات لتجنب الخلافات فى القيادة الأفغانية"[٣٤].

قادت تلك "الخطوات" بوزانوف إلى طريق اتبعه طوال التسعة عشر شهرًا الباقية له فى كابول. وثبت أنه طريق وعر، لم يفضِ إلى التوافق فى الحزب

الديمقراطى الشعبى الأفغانى بل إلى اغتيال رئيسين أفغانيين وإلى غزو ليلة الكريسماس فى ١٩٧٩. كان الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى شديد الانقسام على نفسه مما منعه أن يصبح فصيلا سياسيًا فاعلا. كان البارشام يدّعون أن خلق وزعيميها، تراقى وأمين، حالمان ثوريان يعجزان عن فهم السياسات الأفغانية. أما بالنسبة لخلق، فكانوا يرون أن بابراك كارمال وغيره من البارشميين "شيوعيون أوفياء"، وكانوا يعلنون تحالفهم السابق مع داوود.

كانت المجموعتان تتنافسان على الدعم السوفيتى لسنوات، واستمرت منافستهما بعد انقلاب أبريل. فقام أمين، وقد أصبح نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للخارجية، بالاتصال بالسوفيت سرًا ليؤكد مواقف فصيله. لم يكن تحكم "خلق" فى الحكومة الجديدة سرًا، فراح أمين يؤكد أنه سيكون "أسهل على الاتحاد السوفيتى أن يعمل مع أعضاء خلق، [لأنهم] قد نشأوا على الروح السوفيتية. ولو اختلف زعماء خلق مع الرفاق السوفيت، فإن أعضاء خلق سيقولون، دونما أدنى تردد، إن الرفاق السوفيت على حق". وأضاف أمين بمكر: "وهنا سيقول البارشميون إن زعماءهم على حق"[٣٥]. ثم أعطى وزير الخارجية للسوفيت خطته لإعادة تنظيم الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى – وهى الخطة التى سوف تحرم الفصائل الأخرى من أى مكانة مؤثرة[٣٦].

وقد أظهرت اللقاءات الرسمية الأولى بين بوزانوف وتراقى مدى رغبة زعماء "خلق" فى بناء علاقات قوية مع موسكو. فى اللقاء الأول مع بوزانوف فى ٢٩ أبريل، استهل تراقى اللقاء بالقول إن "أفغانستان سوف تتبع الماركسية – اللينينية [و] تبدأ فى بناء الاشتراكية وتنتمى إلى المعسكر الاشتراكى". بيد أن رئيس الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى شعر أن هذه السياسة لابد من أن تتبع "بحذر" وأن الحزب عليه أن يحجب نواياه الحقيقية عن الشعب لفترة. وقد عرض تراقى أن

يتعاون سياسيًا واقتصاديًا مع الاتحاد السوفيتي، ولكنه أضاف أنه لا يجد ثمة صراع مع الغرب فقط مع "الدول الإسلامية الرجعية"[٣٧]. تؤكد الحاجة إلى خبراء سوفيت لـ"أمن الدولة"، وقد وعده بوزانوف بأن يرسلهم له على وجه السرعة[٣٨].

كذلك حاول البارشميون الحصول على الدعم من موسكو. في حوار مع السفير السوفيتي بوزانوف في الحادي عشر من يونيو حذر نور أحمد نور – وزير الداخلية ومعاون كارمال اللصيق في بارشام – حذره أن أمين يستغل مكانة تراقي ويحضر لإقصاء البارشميين من الحكومة. وقال نور: "الجميع يخشون أمين في المكتب السياسي" ودون الدعم السوفيتي، لن يرقى أحد إلى منزلة أمين، ولا حتى بابراك كارمال، الذي يشغل الآن منصب نائب رئيس الوزراء دون حقيبة وزارية. وقال نور"هناك قوة رائدة واحدة في البلاد – حفيظ الله أمين"[٣٩]. وبعد ذلك بأسبوع التقى بوزانوف بالسلطان علي كشتماند، أحد حلفاء كارمال الآخرين، الذي أخبره أن الأزمة السياسية في الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني أصبحت شديدة. "للأسف فإن بعض الناس يعتقدون أنهم أقطاب الحزب ولا أحد سواهم، وهم (يقصد أمين وتراقي بلا شك) يرون أن تقوية العلاقات مع الاتحاد السوفيتي سياسة مؤقتة، أو وسيلة تكتيكية". وقد دعى كل من نور وكشتماند بوزانوف إلى إنقاذ كارمال[٤٠].

ووافق السفير السوفيتي. وفي اليوم التالي التقى الرئيس تراقي لمناقشة موقف كارمال. وأخبر بوزانوف الرئيس بمحادثاته الأخيرة مع كارمال، الذي امتدح تراقي وأمين، وقال إن مهمته تجاه الثورة كانت ألا يخلق مشكلات. بيد أن تراقي كان صلبًا، فقد بدا عازمًا على الحد من تأثير البشتون وأخبر بوزانوف بأن "الحزب متحد بقوة"، وأضاف غاضبًا: "سوف ندوس على كل من يعارض وحدتنا ونسحقه سحقًا"[٤١].

تم الإعلان عن الانقلاب الذى بدأه أمين ووافق عليه تراقى فى الأول من يوليو. وتم خلع كارمال ونور وكشتماند من مناصبهم، وتعيين كارمال سفيرًا لبراغ – ما اعتبر نفيًا افتراضيًا لشخص كان يعتبر نفسه زعيمًا للثورة. كان عليه أن يشكر بوزانوف والسوفيت لأنه لم يتم ترحيله وإقصاؤه لأبعد من ذلك. وفى الليلة التى تم إعلان الثورات فيها خاف كارمال على حياته وحياة أسرته فلجأ إلى شقة أحد أصدقائه السوفيت. أما بوزانوف فقد خاف من أن يوضع فى وسط الصراع، فرفض مطلب زعيم البارشام أن يلتقيه فى الصباح الباكر. وبعد تدبره للموقف لعدة ساعات، استدعى أمين ليخبره عن مكان كارمال. واستخدم السوفيت نفوذهم لإعتاق رقبة كارمال وإرساله سالمًا إلى تشيكوسلوفاكيا(٤٢).

ولكن بوزانوف لم يهدأ له بال بسبب الاقتتال الداخلى فى الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. فبعد أن أرسل تقريرًا إلى موسكو بشأن تدخلاته الناجحة فى أزمة يونيو، كان عليه أن يخبر وزير الخارجية أندريه جروميكو ***Andrei Gromyko*** ورئيس الإدراة الدولية للجنة المركزية للاتحاد السوفيتى بوريس بوناماريوف ***Boris Ponomarev*** إن الخلقيين قد بدأوا حملة تطهير للبارشميين فى الحكومة. وبعد الادعاء باكتشاف خطة نظمها أتباع كارمال لخلع النظام الخلقى، قام تراقى وأمين بالقبض على كشتماند وعدة زعماء آخرين فى الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. وفى الأسابيع التالية أدار النظام حملة اعتقالات للبارشميين ومن يتعاطف معهم فى البلاد(٤٣).

كانت موسكو دائمًا أقرب إلى كارمال ومجموعته منها للخلقيين. ورغم ذلك كان السفير السوفيتى يعرف أن البارشميين قد هزموا هزيمة ساحقة فى الوقت الحالى، وأنه لن يفيد موسكو شيئًا أن تتدخل لصالح كارمال(٤٤). ولذلك لم يبد اعتراضًا صريحًا أثناء لقاءاته مع تراقى وأمين، واكتفى بالتساؤل عن بعض ما وقع فى

خريف ١٩٧٨ من اعتقالات ومحاكمات[٤٥]. لكن، وفقًا لتعليمات من موسكو، أخبر تراقي أنه "عندما يكون هناك موقف عصيب في دولة من الدول الصديقة لنا، فإننا نرسل أحد القادة لدينا، أحد أعضاء المكتب السياسي، في زيارة غير رسمية" ولم يستطع الرئيس الأفغاني سوى أن يقبل اقتراح بوزانوف[٤٦].

كان بوريس بوناماريوف هو مبعوث موسكو، وهو رئيس الإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي لأكثر من عقدين من الزمن، وأحد أهم صناع القرار السوفيت في الشئون الخارجية. وقد جاء إلى كابول ليطلب من تراقي وأمين أن يوقفا الثورة. وقد حكى فيما بعد "لقد كانت تلك المواجهات تثير قلقنا؛ وكان من الواضح أنها لن تجدى خيرًا... قد يكون لديه [أمين] أسبابه لعقاب الآخرين، ولكن ليس بهذه الطريقة العنيفة. لقد جعل ذلك الثورة تبدو غير مثيرة للاهتمام"[٤٧]. وكأن ذلك لم يكن كافيا، فقد تلقى بوناماريوف قبل سفره تقريرًا من المخابرات السوفيتية يفيد بأن لأمين صلات بالمخابرات الأمريكية[٤٨]. لقد بدا الحزب الأفغاني بالنسبة لموسكو "فوضى شديدة"[٤٩].

لم تؤد زيارة بوناماريوف إلى أى تغيرات في كابول. "لقد اتفق معي [تراقى] أن عدم رضاى كان في محله وشكر لي نصيحتي، واستمر كل شيء كما كان من قبل"[٥٠]. كان على موسكو أن تتقبل النظام الخلقى، وفي أواخر خريف ١٩٧٨ وشتائه تم إعطاء التعليمات لـــبوزانوف بأن يناقش زيادة محدودة للمساعدات العسكرية والاقتصادية مع تراقى وأمين، استعدادًا للتوقيع على معاهدة الصداقة السوفيتية-الأفغانية في موسكو في ديسمبر[٥١]. وبقى زعماء البارشام إما في السجن أو في المنفى في أوروبا الشرقية.

في محادثات بوزانوف مع قادة الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني حول المساعدات لأفغانستان، كان الأفغان يطلبون مساعدات تقنية وإمدادات أكثر مما

يستطيع السفير أن يطالب به موسكو. في إحدى المرات، عندما طالب تراقي ببرنامج تدريبي كبير للضباط وحرس الحدود، أخبره بوزانوف صراحة أنه يرى أن مطلبه كبير وأنه، حال إصراره عليه، ينبغي أن يطلبه بنفسه من موسكو. ورد الأفغان على ذلك في منتصف نوفمبر عندما أخبر أمين السفير بأن النظام الخلقي "يحاول اجتذاب دول اشتراكية شقيقة أخرى إلى تعاون أوسع، وكذا الدول الصديقة الأخرى لإعطائنا مثل هذا الدعم"، ثم أضاف: "ولكن القيادة الأفغانية بالطبع تعتمد أساسا في مثل هذه الأمور على الاتحاد السوفيتي"[٥٢].

كانت زيارة تراقي وأمين لموسكو في منتصف ديسمبر ١٩٧٨ خطًا فاصلا في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والنظام الخلقي. وكما تظهر المحادثات بين بوزانوف والقادة الأفغان بعد عودتهم من كابول، فإن التأكيد السوفيتي المتزايد على التعاون كان له علاقة بتطور الثورة الإيرانية، التي كانت في أواخر ١٩٧٨ وأوائل ١٩٧٩ في مراحلها المصيرية. لقد عاد القادة الخلقيون من موسكو مقتنعين بأن بريچنيــف شخصيًا كان يؤيد قضيتهم. وسرعان ما أعدوا طلبات جديدة بالمساعدات ليتم مناقشتها مع السفير السوفيتي. بعض البرامج الجديدة تم تصميمها بالنظر إلى التغيرات في المنطقة. في ٢٨ ديسمبر شرح أمين لــبوزانوف لماذا طلب عشرين مليون روبل من أجل "أمر معين"؛ كان ذلك من أجل "تغطية نفقات أجهزة الأمن والمخابرات بالخارج" – أولاً وأخيرًا في إيران[٥٣].

كانت لــبوزانوف شكوكه حول نتائج شغف القيادة السوفيتية الجديد بالدخول في اتفاقيات طويلة المدى مع الدولة الخلقية. في ٣٠ ديسمبر اشتكى لتراقي أن التعاون السوفيتي الأفغاني لم يكن فعالا؛ فمثلا وصل الكثير من برامج الدعم الاقتصادي إلى السفارة "متأخرًا جدا"، وكان تشغيلها صعبا مما أدى إلى ضياع الكثير من الوقت. وقال لموسكو "إنني أشعر أن تراقي لا يفهم في مثل هذه الأمور وأنه لا يستطيع أن يتخيل مدى صعوبة صنع القرار على الجانب السوفيتي"[٥٤].

لم يعد الكرملين يشارك السفير الحرص. فى اجتماع للمكتب السياسى فى ٧ يناير أصدر ألكسى كوسيجين *Aleksei Kosygin* تعليمات جديدة لـبوزانوف، آمرا إياه أن يؤكد على خطط لزيادة المساعدات العسكرية والاقتصادية لأفغانستان(٥٥). وتمت الموافقة على العديد من البرامج الجديدة للدعم أثناء زيارة نائب رئيس الوزراء إيـفان أرخيبوف *Ivan Arkhipov* لكابول فى أواخر فبراير. كانت تلك الخطط تمثل زيادة كبرى فى الدعم السوفيتى لأفغانستان، جعلت منها أكبر دولة مستقبلة للمساعدات الخارجية السوفيتية. ورغم ذلك ظل تراقى يطالب بالمزيد: كان يريد أن يعلق بعض خطط التنمية لكى يستخدم مخصصاتها المالية للدفاع، كما طالب بتوجيه المزيد من القروض إلى وزارة الدفاع الأفغانية مباشرة(٥٦).

منذ انقلاب أبريل، انشغل قادة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى معظم الوقت بالمشكلات الداخلية للحزب، ولم يفعلوا الكثير لتقوية موقف النظام داخل المقاطعات، وقد حاول السوفيت مرارًا أن يدفعوا الحزب إلى كسب مؤيدين فى الريف – بمراعاة التقاليد المحلية وبناء روابط مع الزعماء المحليين غير المنتمين لأحزاب. فى أواخر فبراير ١٩٧٩، أصبح واضحًا للنظام أن الجماعات الإسلامية المسلحة التى تتحداهم على الحدود الإيرانية والباكستانية قد تصبح خطرًا عسكريًا حقيقيًا(٥٧).

الحرب الأهلية والانقسام فى الشيوعية الأفغانية

أصبح الخطر واضحًا للجميع – فى داخل أفغانستان وخارجها – بعد التمرد فى مدينة هرات الغربية وحولها، الذى بدأ فى صباح ١٥ مارس ١٩٧٩. فقد قام تحالف من الفلاحين والجماعات الإسلامية المسلحة والمرتدين من الحاميات المحلية بمحاربة أفضل عناصر الجيش الأفغانى ومستشاريهم من السوفيت لمدة أربعة أيام.

وأسفر القتال عن وفاة خمسة آلاف شخص كان من بينهم خمسون من الخبراء السوفيت وأُسَرِهم حيث ذبحوا على يد أهل هرات الغاضبين. أما معظم الضحايا الآخرين فكانوا من المدنيين الأفغان الذين ماتوا جراء القصف السوفيتي للمدينة وفقًا لأوامر أمين(٥٨).

كانت الأزمة في هرات علامة على الثقة الزائدة لدى المعارضة الإسلامية الأفغانية في العام التالي للانقلاب الشيوعي. لقد بدأت الحركات الإسلامية في نشر نفوذها في معظم أرجاء البلاد، وفي حالة منظمتي رباني وحكمتيار بدأت تجتذب مؤيدين من مختلف العشائر والمجموعات الإثنية بحيث وضعت نفسها في مكانة من يوحدون الصراع ضد الشيوعيين. كذلك أحرز الإسلاميون تقدمًا على الصعيد الأيديولوجي. وبدأت فكرتهم الأساسية بأن الانقلاب الشيوعي جاء نتيجة للفساد والظلم وانعدام الأخلاق في فترتي داوود وظاهر، بدأت تبدو أكثر وضوحًا في أذهان الكثير من الفلاحين الأفغان، عندما كثف الشيوعيون مجهوداتهم في اختراق المجتمعات المحلية ببرامج أكبر كثيرًا من مثيلاتها في النظم السابقة. ولا عجب إذن أن الحاجة إلى دولة إسلامية أصبحت قضية منطقية حتى بالنسبة للأفغان الذين يؤيدون عاداتهم وتقاليدهم المحلية رغم ما قد يكون بهذه التقاليد من بعد عن الشريعة الإسلامية.

وقد أظهرت تجربة هرات أن المعارضة كانت أكثر تأثيرًا في الحالات التي نسق فيها الإسلاميون جهودهم مع القادة المحليين، وكان ذلك يعني في ١٩٧٨-٧٩ أن المبعوثين من بيشاور يعتمدون على المجموعات المنظمة محليًا - التي عادة ما يكون لها بنية زعامة تعتمد على العشيرة - لكي يقوموا بحملات عسكرية ضد الحكومة. ما تغير بفعل الانقلاب الشيوعي هو أن الإسلاميين أصبحوا موضع ترحاب في المناطق التي كان من الممكن أن يتم إخراجهم منها قبل عدة أشهر

باعتبارهم غرباء يحملون رسالة سياسية مختلفة. كان وجودهم يعطى المقاومة المحلية شعورًا بأنها جزء من حركة أكبر، معادية للمركزية ومعادية للشيوعية، وقد قوت الأسلحة والهدايا التى أحضرها الإسلاميون تلك الجماعات، التى كانت تريد أن تقاوم الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. من ناحية أخرى، كانت أكبر الأحزاب الإسلامية، الجماعة الإسلامية بزعامة ربانى، تريد أن تضم زعماء محليين أقوياء مثل إسماعيل خان فى منطقة هرات، وأحمد شاه مسعود فى وادى بنجهير، اللذين كانا يتبعان ربانى تبعية غير فعلية؛ وشعر الزعماء الإسلاميون أن ذلك ثمن بسيط من أجل أن تكون لهم حرية التحرك فى المناطق الأفغانية الشاسعة.

كانت الثورة الإيرانية إلهامًا مهمًا للإسلاميين الأفغان، فرغم الاختلافات العقائدية – حيث إن الشيعة فى أفغانستان يمثلون أقلية ضئيلة ومضطهدة فى الغالب – فإن الكثير من الأفغان المتعلمين يقرأون الفارسية ومن ثم كانوا يستطيعون تتبع صعود الخومينى للسلطة. وكانت شعارات الإسلاميين الإيرانيين ونظرة العالم لهم، النابعة من نبرتهم الشيعية، تتوافق مع هدف الأفغان جيدًا: تكوين دولة إسلامية جديدة، تأكيد عالمية الإسلام، وإدانة المادية واللاتدين لدى القوى العظمى، مما أعطى هدفًا أكبر لما كان يمكن أن يعتبر مجرد تحالف بين الملالى التقليديين وزعماء العشائر من ناحية، وبين الإسلاميين من ناحية أخرى. كان هدفهم المباشر هو النظام الشيوعى فى كابول والإصلاحات التى أثارها هذا النظام.

كانت إصلاحات الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى الاقتصادية والاجتماعية من حيث الشكل نسخة من البرنامج الكبير للحزب فى فترة وحدته القصيرة قبل انقلاب ١٩٧٨ حيث التأكيد على محو الأمية والتعليم العلمانى للرجال والنساء، واستصلاح الأراضى، والتصنيع الذى تقوده الدولة. ولكن هذه المبادئ أصبحت مجرد شعارات خاوية وقوانين غير مؤثرة. فالدولة الأفغانية كانت ضعيفة تفتقر إلى

الدخل والعمالة المدربة. قوبلت الإصلاحات بالمقاومة لدى مجموعات كبيرة من الشعب الأفغانى. وكان رد فعل الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، منذ اليوم الأول له فى السلطة، هو محاولة إيجاد الإذعان بالإكراه. فى بلد يعيش أكثر من خمس وثمانين بالمائة من شعبه فى المناطق الريفية، كان من الطبيعى أن يركز الشيوعيون جهودهم الباكرة على القطاع الزراعى، بما فى ذلك إصلاح الرهن الزراعي والديون (قانون رقم ٦) وإصلاح أمور الزواج والمهور (قانون رقم ٧) والإصلاح الزراعى (قانون رقم ٨). كل هذه الإجراءات كانت موضع استياء النخب التقليدية فى الريف، وكانت سببًا فى تجنيد مقاتلين فى حركة المقاومة[٥٩].

لقد أضاف التمرد فى هرات إلى مخاوف المستشارين السوفيت فى كابول بالنسبة لمستقبل الثورة الشيوعية فى أفغانستان. فى ١٩ مارس، اليوم السابق للقضاء على التمرد، التقى السفير السوفيتى بوزانوف بالرئيس تراقى. اصطحب السفير مجموعة من الضباط السوفيت الذين خدموا مع القوات الأفغانية. وحاولوا معا أن يظهروا للرئيس مدى سوء الموقف الأمنى فى الريف، وحثوا زعماء الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى أن يغيروا سياساتهم. وفى نهاية الاجتماع نصح بوزانوف تراقى "بلباقة" أن يتخذ خطوات سريعة، "بنفس الطاقة مثل الصراع المسلح، لتطوير التعليم والدعاية لكى يجتذب الشعب إلى جانبهم"[٦٠].

كانت ثورة هرات صدمة قاصمة لكل من الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى وموسكو. واجتمع المكتب السياسى وسكرتارية الحزب الشيوعى السوفيتى فى جلسات طارئة لمناقشة كيفية تقوية الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى – بما فى ذلك خيار التدخل العسكرى السوفيتى – وأصبح النقد اللاذع الذى يوجهه بوزانوف إلى تراقى وأمين أكثر حدة. كان السفير منزعجًا تحديدًا بسبب إصرار الخلقيين على أن التمرد حدث بسبب "التدخل" الإيرانى، وحذر تراقى من أن يثير

صراعا أفغانيا إيرانيا مفتوحا وأخبره أن موسكو قد تتخذ "مبادرات جديدة" مع الخوميني. كان بوزانوف يعتقد أن الرئيس سوف ينشغل أكثر بوقف سيل الأسلحة السوفيتية من وحدات الحكومة إلى العصابات، وأنه سوف يطور من معرفة الجيش الأفغاني بكيفية استخدام المعدات التي توفرها موسكو[٦١].

ورغم النقد الواضح الذي وجهه السفير، فإن موسكو قررت أن تزيد من استثمارها في أفغانستان. وقد سافر تراقي من أجل لقاء سري مع القيادة السوفيتية في ٢٠ مارس، باحثًا عن المزيد من الالتزام العسكري السوفيتي، بما في ذلك استخدام القوات السوفيتية. التقى بكل من كوسيجين وجروميكو وأوستينوف وبوناماريوف في الظهيرة. وبدأ كوسيجين الاجتماع بنقد تراقي لأنه يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الدعم السوفيتي في صراعاته مع الأعداء في الداخل والخارج. وذكّر رئيس الوزراء السوفيتي تراقي بأن فيتنام قد هزمت كلا من الولايات المتحدة والصين بتعبئة الشعب الـفيتنامي نفسه. قال كوسيجين إن "الـفيتناميين أنفسهم دافعوا عن بلادهم ضد المعتدين الآثمين. أما القوات السوفيتية في أفغانستان فهي خارج النقاش أساسًا بسبب ردود الأفعال العالمية السلبية تجاه عملية انتشار الجند هذه؛ وقال كوسيجين إنه حتى في حال رغبة إيران في الدخول في صراع مع كابول، فإن الزعماء الإيرانيين سيعجزون في الوقت الحالي عن ذلك بسبب الفوضى السياسية في طهران.

وعلى صعيد آخر، أخبر السوفيت تراقي بصراحة شديدة أن تمرد هرات أضر بصورة نظامه في الداخل والخارج وأنه ينبغي ألا يتكرر. وقدم كوسيجين وأوستينوف خطة مفصلة للمساعدات السوفيتية للجيش الأفغاني بهدف منع المزيد من التمرد. لقد حقق اقتراحهم لتراقي كل ما جاء إلي موسكو من أجله، باستثناء التزام القوات السوفيتية والضمان الأمني العام ضد الهجمات الإيرانية والباكستانية[٦٢].

وفى لقائه مع ليونيد بريچنيف مساء الثلاثين من مارس، تلقى تراقى مجموعة جديدة من المحاضرات عن كيف يحكم أفغانستان. وبأسلوبه التعليمى والتلقينى، راح بريچنيف يشرح للرئيس الأفغانى الحاجة إلى "جبهة وطنية" وجيش مخلص. أوضح له نماذج عن كيفية استخدام الجيوش لإرساء دعائم الاشتراكية فى الدول الآسيوية والأفريقية - وألمح أن الجيوش بطبيعتها تحتاج إلى "ظروف معينة" لتنمو بها الأفكار الاشتراكية. حث بريچنيف تراقى على تقوية العمل السياسى لدى الجماهير، محاولا أن يشكل جهوده وفقًا لنموذج الاتحاد السوفيتى وتجربته فى الفترة التالية لثورة أكتوبر مباشرة[٦٣]. وعاد الرئيس الأفغانى إلى كابول حاملا فى جعبته مجموعة جديدة تمامًا من الالتزامات السوفيتية. فقد وعد القادة السوفيت الأفغانيين بتدعيمهم سياسيًا وعسكريًا فى حال تعرضهم لعدوان من إيران أو پاكستان، وبالإسراع بتسليمهم الأسلحة، وبتأجيل تسديد كل القروض إلى أجل غير مسمى، وبمنح كابول مائة ألف طن من القمح. وأخبر تراقى بريچنيف بأنه راض جدًا عن الاستجابة السوفيتية[٦٤].

مع زيادة تورطهم فى أفغانستان، حاول السوفيت تقليل التوتر بينها وبين جيرانها. وبالإضافة إلى مبادرتها تجاه إيران، حاولت موسكو أيضًا أن تحسن العلاقات بين أفغانستان وجارتها الشرقية باكستان. فبعد أن التقى ألكسى كوسيجين بوزير خارجية پاكستان يعقوب خان ***Yakub Khan*** فى موسكو، أكد پوزانوف لتراقى الحاجة إلى وضع ترتيبات مع إسلام أباد. وحذر الرئيس من تنفيذ خطة أفغانية كبيرة على الأراضى الباكستانية وحث تراقى على أن يسير على نهج موسكو[٦٥].

بعد تمرد هرات، تطور الصراع بين الحكومة الأفغانية والمعارضة الإسلامية إلى حرب أهلية كاملة، ومنذ البداية دارت رحى الحرب ضد القوات الحكومية،

والتحق آلاف الرجال بالعصابات، وبدأ الجيش يخسر المعارك الصغيرة مع المجموعات الإسلامية. فى الغرب وفى مقاطعتى كونار وباكتيا الشرقيتين، تم وضع الجيش في وضع الدفاع، مقتصرًا فقط على الدفاع عن معاقله الكبرى. حتى فى كابول نفسها، تراجع موقف الحكومة سريعًا، حيث بدأت المعارضة تشغيل خلايا سرية فى أجزاء من المدينة القديمة(٦٦).

راجع المكتب السياسى السوفيتى الموقف فى أفغانستان فى اجتماعه الذى عقد فى ١٢ أبريل. قدم جروميكو وأندروبوف وأوستينوف وبوناماريوف تقريرًا مشتركًا، موضحين مدى صعوبة الموقف فى كابول لزملائهم فى المكتب السياسى. وأخبروا المجتمعين بأن "زيادة العصبية الدينية فى الشرق الإسلامى والأحداث فى إيران دليلان على نشاط رجال الدين المعادين للحكومة فى أفغانستان. لم تكن معارضة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى منظمة حتى ذلك الوقت، لكنها كانت تملك قدرة كبيرة على استقطاب الناس فى الريف. تفوق النظام الخلقى كثيرًا على منافسيه فى كابول لكنه كان سيواجه صعوبات شديدة لو لم يقو موقفه. كان السخط فى الجيش يزداد وكانت هناك خطورة من تمردات جديدة في الصيف، واقترحوا خطة عمل مكونة من عشر نقاط فى أفغانستان. أرادوا أولا تقوية الجيش - عسكريًا وسياسيًا - من خلال البرامج التدريبية وتسليم الأسلحة، ونادوا بزيادة برامج الدعم الاقتصادى وخاصة تطوير برامج جديدة للمناطق الزراعية، وأخيرًا طالبوا الإدارة الدولية بالحزب الشيوعى السوفيتى وسفارة كابول بوضع خطة لتوسيع القاعدة السياسية لحكومة أفغانستان(٦٧).

كانت استجابة السفارة السوفيتية إلى نداء موسكو والانهيار الملحوظ فى النظام الخلقى، أن حاولت تكوين حكومة ائتلافية جديدة تتضمن عدة پارشاميين وأعضاء من النظام القديم. ووفقًا لمستشار السفارة المسئول عن "المساعدات السياسية"،

ڤــاسيللى سافرونشك *Vasilii Safronchuk*، فإن السوفيت فكروا فى ضم ممثلين عن بعض الجماعات الإسلامية إلى محادثاتهم. ولكن النظام رفض التزحزح عن موقفه كما رفض المبادرات السوفيتية[٦٨]، وقال أمين لــبوزانوف "نحن وسط الأعداء، ولابد من أن نتوخى الحذر"[٦٩].

كانت المحاولات السوفيتية من أجل دفع الخلقيين إلى قبول أعضاء پارشام والممثلين غير الحزبيين فى الحكومة متبوعة بخطة لإثارة التنافس بين الزعيمين الكبيرين فى خلق: تراقى وأمين. فبعد أن استمع بوزانوف إلى شكاوى أمين من أنه أزيح من القيادة العسكرية، وأن الرئيس أصبح يركز السلطات فى يديه هو، اقترح بوزانوف فى أواخر يوليو أن "يستقيل" تراقى من الشئون العسكرية اليومية ويشكل مجموعة لقيادة الطوارئ يرأسها أمين. وبما أن السفير كان يعتبر أمين رجلا خطرًا، فمن المحتمل أن تكون اقتراحاته قد قصد منها أساسًا إثارة شكوك تراقى فى نائبه الطموح، الذى كانت المخابرات السوفيتية قد استنتجت بالفعل فى يونيو، أنه كان يحاول الاستيلاء على السلطة بشكل كامل لنفسه. كان هدف السوفيت هو أن يجعلوا تراقى يزيح أمين تمامًا من القيادة الأفغانية[٧٠].

كذلك قام بوزانوف بمبادرتين أخريين فى أواخر صيف ١٩٧٩ لكى يجعل تراقى أكثر إنصاتًا لمقترحاته، فطلب من موسكو أن ترسل كتيبتين سوفيتيتين أخريين لكى توضعا فى مطار كابول وفى القلعة القديمة، معقل الحكومة الخلقية. وفى اجتماعه فى ٢٨ يونيو، اتخذ المكتب السياسى قرارًا بشأن نسخة معدلة من خطته، حيث وافق على إرسال كتيبة إلى قاعدة باجرام الجوية خارج كابول وملحقات خاصة من المخابرات و *GRU* إلى باجرام وإلى مبنى السفارة السوفيتية. كذلك قام بوزانوف بتنظيم زيارة أخــرى لبوريس بوناماريوف فى أواخر يوليو، لكن الأخير عجز مرة أخرى عن إقناع تراقى بالحاجة إلى التغيير[٧١].

وبدلا من أن يدرك القادة الأفغان أن المخرج الوحيد كان هو توسيع قاعدة سلطة النظام، تلقت السفارة السوفيتية فى أغسطس معلومات تفيد أن أمين كان يخطط لتصفية كشتماند وغيره من البارشاميين السجناء. وأرسل بوزانوف أقوى نداءاته إلى تراقى؛ قائلا إن "هؤلاء الرجال قادة بارزون فى الثورة، وأعضاء في الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى وللقيادة الأفغانية، ولفت قادة الاتحاد السوفيتى نظر تراقى إلى ضرورة الحرص عند القيام بحملات قمعية خاصة ضد قادة الحزب"[٧٢].

بالإضافة إلى جهود بوزانوف، نظمت موسكو مهمتين عسركيتين خاصتين إلى كابول من أجل الضغط على تراقى. الأولى، التى وصلت فى منتصف أبريل وكانت بقيادة الجنرال ألكسى إبيشيف ***Aleksei Epishev***، رئيس الإدارة السياسية الرئيسية للجيش السوفيتى، وقد جاءت بوابل من الاقتراحات حول كيفية تحسين القدرات القتالية للقوات الأفغانية؛ الثانية كانت بقيادة نائب وزير الدفاع إيفان پاقلوفسكى ***Ivan Pavlovskii*** – الذي قاد مهمة القوات السوفيتية التى تم إرسالها لغزو تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ – وقد وصل إلى كابول فى ١٧ أغسطس وبقى بها قرابة شهرين. كان پاقلوفسكى يملك السلطة بأن يدفع من أجل إعادة تنظيم كاملة للجيش الأفغانى، وأن يهدد بوقف المساعدات العسكرية لو لم يستجب إليه تراقى[٧٣].

فى أواخر أغسطس، بدا أن تراقى قد فهم الرسالة، وبعد أن أوضح ممثل المخابرات السوفيتية فى كابول للرئيس الأفغانى أن القبض على أمين كان هو السبيل الوحيد لإنقاذ العلاقات السوفيتية الأفغانية، كان تراقى مستعدا للتصرف؛ وأخبر رئيس المخابرات السوفيتية المكتب السياسى فى موسكو فى الأول من سبتمبر أن هناك سلسلة من الإجراءات الطارئة كان لابد من أن تتخذ بما فى ذلك خلع أمين وإطلاق سراح السجناء السياسيين وتكوين "حكومة ائتلافية ديمقراطية".

ولكن المخابرات السوفيتية طلبت إلينا بوضع قائمة "بديلة" من القادة للحزب الأفغاني، "في حال تدهور الموقف في البلاد"، وتم لها ذلك. في ٩ سبتمبر وصل تراقي إلى موسكو في طريق عودته من قمة عدم الانحياز في هافانا. ووعده بريـــچينيف وجروميكو بزيادة المساعدات العسكرية السوفيتية لو أنه أرخى منهج نظامه بالنسبة للإصلاح الزراعي وإصلاح التعليم، وقام ببعض التغيرات في حكومته، وتخلص من حفيظ الله أمين، وقام بتعيين عدد من البارشاميين البارزين في المناصب الوزارية. وافق تراقي، غير أنه عند عودته إلى كابول أعاد النظر في الأمر، فوجد أن أمين قد أعد تحركات مضادة، فعاد تراقي ورفض إجراء التغييرات التي طلبتها منه موسكو[٧٤].

وفقدت موسكو صبرها؛ وبناء على رسالة عاجلة من جروميكو قام بوزانوف والـــچنرال پاڤلوفسكي ورؤساء البعثات العسكرية والمخابراتية في كابول بالذهاب إلى تراقي في منزله في مساء ١٣ سبتمبر. وطلب السوفيت لقاء عاجلا معه ومع أمين. وجاء أمين، وكان في القصر بالفعل، إلى غرفة تراقي وراح يستمع بينما بوزانوف يلقي قائمة طويلة من الاتهامات عن عدم الكفاءة العسكرية والسياسية والطموح الشخصي الجامح. وعندما انتهى السفير من سرد قائمته نظر إليه تراقي وقال بهدوء: "أخبر أصدقاءنا السوفيت أننا نشكرهم لاهتمامهم ونتفق معهم في وجهات نظرهم؛ سيكون كل شيء على ما يرام". ثم تحدث أمين فقال: "إنني أتفق تمامًا مع الرفيق العزيز تراقي... ولو كنت مفارقًا الحياة لمت وعلى شفتي كلمة 'تراقي'"[٧٥].

ولكن مسرحية الوحدة لم تُفضِ إلى شيء. ففي الصباح التالي، بعد أن علم عدد من كبار القادة في الحزب الأفغاني المؤيدين لخلع أمين بالنتائج غير الحاسمة للاجتماع، ذهبوا للاختباء داخل السفارة السوفيتية. وبعد أن علم الرئيس أن أمين قد طلب العون ضده من عدد من الـــچنرالات في الجيش الأفغاني، طلب هو العون

من السوفيت. وكما يتذكر بوزانوف فيما بعد: "لقد كان تراقى يتحدث عن أمين بنبرة من المرارة، ملقيًا نفس الاتهامات التى ألقيناها من قبل دون أى نتيجة"[٧٦]. فى ظهر يوم ١٤ سبتمبر، عقد القائدان الأفغانيان اجتماعًا آخر في مقر تراقى، وكان بحضور الممثلين السوفيت. ومع دخول أمين إلى المبنى، فتح حرس تراقى النار وقتلوا اثنين من مساعدى رئيس الوزراء. فر أمين ولم يمسسه ضرر. وعندما التقى أمين بالسوفيت فى اليوم نفسه "قال إن الثوة الأفغانية يمكنها أن تستمر دونه، ما دام يدعمها الرفاق السوفيت، ولكن المسألة أن القوات المسلحة لا تقوم بتنفيذ أوامر تراقى الآن، بينما أوامره هو تُنفذ"[٧٧]. وادعى بوزانوف والممثلون السوفيت الآخرون أنهم لا يعلمون شيئًا عن مخططات الاغتيالات، لكن وزير خارجية أمين، شاه والى، جمع سفراء الدول الاشتراكية بعد ذلك مباشرة وأخبرهم أن السوفيت قد تعهدوا بضمان سلامة أمين عند زيارته لتراقى، وإنهم فشلوا فى الوفاء بوعدهم[٧٨].

بعد فرار تراقى، جعل أمين وحدات عسكرية موالية له تحاصر القصر، ودعا إلى اجتماع للمكتب السياسى الذى قام بنفى تراقى وعين أمين رئيسًا جديدًا للحزب الديمقراطى الأفغانى. وعندما حاول السوفيت أن يجعلوه يسحب ما قاله شاه والى عن محاولة الاغتيال، أجاب أمين: "هل يمكن أن أكون على خطأ؟ وهل يكون لخطئى ضرر بالحركة الشيوعية فى العالم؟ ولو أن المكتب السياسى باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى يرى ذلك، فإننى سأقبل نصيحتهم"[٧٩]. ولكن بدلا من قبول النصيحة، بدأ أمين حملة اعتقالات جديدة، ضد مؤيدى تراقى وضد أعدائه السياسيين. وتمت تصفية عدد من السجناء من نظام داوود ومن الجناح البارشامي للحزب الأفغانى، بل تمت تصفية تراقى نفسه فى السجن فى التاسع من أكتوبر، رغم النداءات السوفيتية بألا يتم قتله[٨٠].

لقد فشلت تمامًا المخططات السوفيتية للتخلص من أمين. فوجدوا أنفسهم فى مواجهة أمين رئيسًا للحزب وللدولة. بل والأدهى من ذلك أن أمين – وهو من كان فى أول عهد النظام شديد الإعجاب بالقادة السوفيت – أصبح الآن لا يثق بموسكو وببعض ممثليها المحليين، مخبرًا تابعيه إنه "عندما كذب علىّ السفير بوزانوف... فإننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أقول ما أظنه فى ذلك الشخص. إننى لا أريد أن ألتقى به أو أتحدث إليه. أنه من الصعب أن أفهم كيف لمثل هذا الكذاب المنافق أن يظل سفيرًا هنا كل هذا الوقت، وأراه أمرًا مقززًا أن يحاول السفير السوفيتى (وهنا يقسم أمين بحرارة) أن يرسم صورة مضللة لأحداث الرابع عشر من سبتمبر ويطلب منى أن أؤكد ما يقول. لن أفعل ذلك أبدًا".

فى موسكو، تم تكوين مجموعة قيادة عليا لإرسال التقارير إلى المكتب السياسى عن أفغانستان. وقد فضلت المجموعة، المكونة من أوستينوف ويورى أندروبوف (رئيس المخابرات) وجروميكو وبوناماريوف، فضلت منهج الانتظار حتى يتبين أمر أمين، مع زيادة الوجود العسكرى السوفيتى فى أفغانستان. أما فى كابول فقد بقيت العلاقات بين أمين وبوزانوف مجمدة. فى اجتماع فى السابع والعشرين من أكتوبر حاول السفير أن يرغم أمين على الحد من حملته الإرهابية مهددًا إياه بوقف المساعدات السوفيتية، وبعد هذا الاجتماع طلب أمين من موسكو رسميًا أن يتم استدعاء بوزانوف. كما أن السفير كان قد أدرك أن وقته فى كابول قد انتهى فطلب من جروميكو أن يتم نقله[٨١].

قبيل مغادرته للعاصمة الأفغانية، طلب بوزانوف لقاء كل صاحب سلطة فى الحكومة الخلقية. كان الهدف من تلك اللقاءات أساسًا هو إقناع قادة الحزب الأفغانى بمدى اعتماد نظامهم على الدعم السوفيتى، وتم إخبار وزير المالية أن موسكو قلقة بشأن نفقات مساعدات كابول فى العام التالى. وأكد لوزير التخطيط الحاجة إلى

التعلم من خبرات دولة اشتراكية متقدمة - الاتحاد السوفيتي. وتلقى رئيس القوات المسلحة وعوداً بأن الاتحاد السوفيتي سينظر في أمر المزيد من المساعدات المباشرة للضباط، كما سينظر في أمر المزيد من البرامج للأفغان لكي يتدربوا في الاتحاد السوفيتي. كانت الرسالة واضحة: لن يحصل هؤلاء القادة على المزايا التي اعتادوا عليها إلا إذا حسنوا علاقاتهم مع موسكو(٨٢).

كان حفيظ الله أمين يعلم تمام العلم أن الروابط التي تربطه بموسكو آخذة في الضعف. وبذل محاولات بائسة لتحسين موقفه بفتح علاقات مع الأمريكيين، وفي الوقت نفسه وجه نداء للكرملين بأن يقبلوا زعماء الحزب الأفغاني الجدد - وكأنه لا يعرف مدى صعوبة تحقيق هذا المزيج من المبادرات في أثناء صراع الحرب الباردة في أواخر السبعينيات(٨٣). في موسكو كان أوستينوف وأندروپوف وجروميكو - القادة الذين كانوا يديرون السياسة الخارجية بالنيابة عن ليونيد بريـــچينيف الضعيف - يرفضون مراراً لقاء أمين. في حواره الأخير مع بوزانوف، في التاسع عشر من نوفمبر، راح الزعيم الأفغاني يوضح مدى ما تم إنجازه في بلاده فيما يخص التعاون مع الاتحاد السوفيتي. بيد أن السفير السوفيتي غير المرغوب فيه لم يكن لديه ما يقدمه لأمين هدية رحيل(٨٤).

أدرك القادة في موسكو أن الموقف في المنطقة يتحول من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للاتحاد السوفيتي. ولم تشتت أزمة الرهائن بين أمريكا وإيران مخاوف موسكو من أن تتحول إيران إلى المزيد من العدوانية تجاه موسكو. ووضعت المخابرات السوفيتية في منتصف أكتوبر تقريراً بأن القادة الإيرانيين مقتنعون بأن "الاتحاد السوفيتي لم يتخل عن كفاحه الأيديولوچـــي ومحاولاته تكوين حكومة يسارية في إيران". فقد كانت المخابرات السوفيتية ترى أن أهداف الجمهورية الإسلامية هي إضعاف النظام الأفغاني، والتأثير في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، ومنع انتشار الشيوعية في المنطقة(٨٥).

في أفغانستان نفسها، يبدو أن إدراك ذلك الهدف الإيراني الأخير كان قد بدأ يقترب. فقد حسن الثوار الإسلاميون مواقعهم جيدًا في أكتوبر ونوفمبر، حيث كانت معنويات الجيش الأفغاني قد أحبطت بسبب الانقلاب وبسبب عقاب أمين القاسي لأعدائه. وبدأ الكرملين يتلقى تقارير غير موثقة من الرفاق السوفيت في أفغانستان عن مدى سوء الموقف في البلاد. كتب ف.پ.كاپيتانوف ***V.P.Kapitanov*** المستشار العسكري السوفيتي للجيش الثاني عشر الأفغاني، وكان في مقاطعة پاكيتا آنذاك، كتب يقول إن المعارضة كانت واقعة تحت ضغط عسكري وأن وحشية الضباط الأفغان باتت تؤرق السكان المحليين، وأن المعدات العسكرية السوفيتية يتم تحطيمها أو بيعها(٨٦).

وصل السفير السوفيتي الجديد فيكرات تابييف ***Fikrat Tabeev*** في أواخر نوفمبر، حيث كانت الخطط السوفيتية من أجل تدخل مسلح قد تمت في موسكو. كان اللقاء الأول والأخير بين أمين وتابييف، وهو عضو من أعضاء اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفيتي، في السادس من ديسمبر. وأصر أمين على الذهاب إلى موسكو؛ حيث كانت هناك قضايا مهمة تتعلق بالتعاون طويل الأمد بين الحزب الشعبي الأفغاني وبين الحزب الشيوعي السوفيتي عليه أن يناقشها مع بريـــچينيف. غير أن تابييف صده. فكما يتذكر فيما بعد، فقد رأى حينئذ أن الموقف في البلاد يقترب من الهاوية. "كابول مستضعفة. الجيش محروم من وجود قائد بعد حملات التصفية والانتقام التي خاضها أمين. رجال الدين ضد [النظام]. الفلاحون ضده. القبائل – وقد تحملوا الكثير من أمين – ضده. حول أمين لا يوجد سوى بعض التابعين، شأن الببغاوات يرددون كل ما يقوله من هراء عن 'بناء الاشتراكية' و'ديكتاتورية الـــبروليتاريا'". وقد غادر تابييف كابول في العاشر من ديسمبر ١٩٧٩(٨٧).

القرار السوفيتى للتدخل

عندما تمت مناقشة فكرة تواجد جيوش سوفيتية لأول مرة فى مارس ١٩٧٩، بعد أن اندلع التمرد فى غرب أفغانستان، رأى قادة الكرملين أنهم "لن يقوموا بنشر قوات فى أى حالة من الحالات". وجادل ألكسى كوسيجين ***Aleksei Kosygin*** وأندرى كيريلينكو ***Andrei Kirilenko***، اللذان بقيا حتى النهاية يعارضان الغزو السوفيتى، بأن الشيوعيين الأفغان أنفسهم هم من يقع عليهم اللوم فى مسألة التمرد. وأخبر كيريلينكو المكتب السياسى :"لقد منحناها كل شىء، وماذا كانت النتيجة؟ لا شىء ذا قيمة. لقد قاموا بإعدام الأبرياء بلا سبب وأخبرونا بأننا أيضًا قد قمنا بتصفية الناس فى عصر لينين. ترون أى نوع من الماركسيين وجدنا"[٨٨].

كان مقتل الرئيس تراقى على يد الرجل الثانى حفيظ الله أمين فى أكتوبر هو ما وضع القيادة السوفيتية على طريق التدخل. ففى ضوء الدعم السوفيتى السابق لتراقى، تشككت المخابرات السوفيتية فى أن أمين يخطط لما أسماه الـــچنرال شيبارشين "يتقمص دور السادات": انحراف كامل عن المعسكر السوفيتى وتحالف مع الولايات المتحدة مما يسمح للأمريكيين أن يضعوا "سيطرتهم ومراكز مخابراتهم بالقرب من أشد حدودنا ضعفًا"[٨٩]. وراحت المخابرات السوفيتية تراقب عن كثب لقاءات أمين مع المسئولين الأمريكيين فى كابول فى أواخر أكتوبر، اعتقادًا منها بأن الولايات المتحدة تبحث عن بديل لمواقعها التى فقدتها فى إيران.

ورغم أن الأوامر السياسية بشأن تدخل محتمل لم تكن قد صدرت بعد، فإن رؤساء أركان الجيش بدأوا فى أواخر أكتوبر الاستعدادات وبعض التدريبات لمثل هذه المهمة. كانت تلك الأوامر تعكس الاهتمام المتزايد لدى وزير الدفاع ديمترى أوستينوف *Dmitri Ustinov* بالقضية الأفغانية، وشعوره بأن اقتراح التدخل سيقبله زملاؤه من الناحية السياسية. وفى المباراة غير الذكية لمعرفة من سيخلف

بريـــچينيف – وكانت على أشدها فى المكتب السياسى فى خريف ١٩٧٩ – كان الرهان على الحذر فى مقابل المغامرة: "الطيش" أو "التأسى بنابليون"، كانت الشعارات القاتلة التى تستخدم ضد وزير الدفاع ذى الطموح السياسي، بينما "القوة" و"الحرص على مصالحنا"، كانت الشعارات التى تستخدم فى الجدل لصالحه.

بدأ زميل أوستينوف ومؤيده وخصمه أحيانًا يورى أندروپوف، رئيس المخابرات السوڤيتية، يميل نحو التدخل العسكرى فى أواخر ١٩٧٩. كانت المخابرات السوڤيتية مسئولة عن عدة صفقات سوڤيتية منذ شهر سبتمبر لخلع أمين من القيادة الأفغانية، بما فى ذلك محاولة واحدة على الأقل لاغتياله. لم تفلح أى من تلك الجهود، مما أغضب أندروپوف وربما أضعف موقفه السياسى[٩٠]، وكانت المخابرات السوڤيتية قد بدأت بالفعل العمل مع المنفيين من الحزب الأفغانى فى كل من تشيكوسلوڤاكيا وبلغاريا. فى وقت ما فى أوائل نوفمبر أخذت المخابرات السوڤيتية أكثر المنفيين أهمية مثل بابراك كارمال بوصفه زعيمًا للپارشام، والخلقيين المعادين لأمين مثل سيد محمد جوليابزوى *Sayed Muhammed Gulyabzoi* وأسد الله سارورارى *Asadullah Sarwari*– أخذتهم إلى موسكو، حيث كونوا ائتلافا سياسيًا، كان برنامجه السياسى العام قد وُضِع بمساعدة الإدارة الدولية السوڤيتية، ووضعت الخطط لخلع أمين من السلطة بمساعدة المخابرات السوڤيتية[٩١]. فى أواخر نوفمبر، بعد أن طلب أمين استبدال السفير السوڤيتى فى كابول بوزانوف، قرر أندروپوف وأوستينوف أن الطريقة الوحيدة لحل المشكلة الأفغانية هى التدخل العسكرى السوڤيتى والتصفية الجسدية لحفيظ الله أمين، وأدت نداءات أمين الملحة من أجل زيادة المساعدات العسكرية السوڤيتية، بما فيها القوات السوڤيتية، إلى اجترائهما، وجعلت أمر تقديم مقترحاتهما للمكتب السياسى أيسر عليهما.

أثرت الضغوط المتزايدة فى علاقة الشرق بالغرب – بما في ذلك في مجال الحد من التسلح – فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٩ على قرار أندروپوف وأوستينوف ويسرت الأمر عليهما أن يقنعا بعض زملائهما؛ وأدى قرار الناتو أن ينشر مجموعة جديدة من القاذفات متوسطة المدى فى أوروبا ورفض مجلس الشيوخ الأمريكى أن يقر اتفاقية ***Salt II*** أدى إلى إزالة مخاوف بعض أعضاء المكتب السياسى حول تأثير التدخل السوفيتى فى أفغانستان على عملية التهدئة. فكما قال أناتولى دوبرينين ***Anatoly Dobrynin*** فيما بعد، فإنه "فى شتاء ١٩٧٩ كانت عملية التهدئة بالفعل قد ماتت للعديد من الأسباب"[٩٢]. كان المشهد قاتمًا على الساحة الدبلوماسية مما ساعد على الانتصار على وزير الخارجية أندريه جروميكو – الذى كان فى أفضل أحواله، مشاركًا جبانًا فى السياسة العليا السوفيتية، وقد عارض التدخل فى مارس بعد أن تأكد فقط من اتجاه الرياح فى نقاشات المكتب السياسى.

بقى لرؤساء المخابرات ووزارة الدفاع عقبتان كان عليهم أن يتفادوهما لكى يقرروا إرسال قوات سوفيتية إلى أفغانستان. أولا، كان عليهم أن يحدوا من مجال المشاركين فى عملية صنع القرار للحد الأدنى حتى يتأكدوا أن القرار لن يتأخر بسبب تقديم تقارير رسمية من مختلف الإدارات والوزارات إلى المكتب السياسى. وساعدهم فى تلك الجهود كل من ميخائيل سوسلوف ***Mikhail Suslov*** وكبير مستشارى بريـــچينف فى السياسة الخارجية أدريه ألكساندروف–أچينتوف ***Andrei Aleksandrov-Agentov***. يتذكر كارن بروتنتس ***Karen Brutents*** نائب رئيس اللجنة المركزية بالإدارة الدولية، أنه تلقى مكالمة هاتفية من ألكساندروف–أچينتوف: "فى البداية سألنى ماذا أنا فاعل. وعندما أخبرته أننى كنت أكتب تقريرًا عن أفغانستان سألنى 'وماذا تكتب بالضبط؟' فلما قلت له إننى سأكتب رأيًا سلبيا قال 'إذن تقترح أن نعطى أفغانستان للأمريكيين؟' وأنهى المكالمـــة مباشـــرة"[٩٣]. لم يكن تقرير بروتنتس من ضمن المادة التى أعدت لأعضاء المكتب السياسى فى الاجتماعات الحاسمة[٩٤].

نفس الانشقاق حدث في العسكرية. الـــچنرال ف.ب.زاپلاتين ***V.P.Zaplatin***، المستشار العسكرى الأعلى لرئيس الإدارة السياسية فى الجيش الأفغانى، كان يعتبر قريبًا جدًا من أمين ومن ثم استدار إلى موسكو بغرض "التشاور" فى أوائل ديسمبر. وبينما هو هناك وصلته رسالة سرية من صديقه المستشار العسكرى الأعلى لرئيس الإدارة السياسية للجيش المركزى الأفغانى فى كابول الكولونيل إ.ن.كاپوستين. وقد كتب كاپوستين أن "لواء المخابرات ب.س.إيـڤـانوف يخطط لمغامرة فى أفغانستان يعتبرها كاپوستين وغيره من المستشارين متهورة وحمقاء"، وطلب من صديقه سرعة إخطار القيادة العليا. ولكن لسوء حظ كل من زاپلاتين وكابوستين، فقد كان الرســول الــذى وقــع اختيارهمــا عليه من مخبرى المخابرات المركزية. ولكى لا يكشف هذا المخبر سره للعسكرية، سُمح له أن يوصل رسالة كاپوستين إلى الـــچنرال شخصيًا، ولكن المخابرات تأكدت ألا يلتقى زاپلاتين بأى شخص ذى أهمية عندما كان فى موسكو(٩٥).

العقبة الأخيرة فى طريق التدخل كانت هى كسب أصوات، أو على الأقل تحييد، أعضاء المكتب السياسى الذين كانوا يعارضون بشدة إرسال قوات سوڤيتية طوال الأزمة، رجال مثل كوسيـــجين وكريلينكو. وأدرك يوستينوف وأندروپوڤ أن السبيل الوحيد لتنفيذ اقتراح التدخل هو إقناع ليونيد بريـــچينيڤ بالحاجة إلى ضربة سريعة. وقد تم إقناع رئيس الحزب – وهو رجل حذر وحويط فى الشئون الدولية بحكم العادة – عن طريق نقاشات تتصل بمكانته الشخصية على الصعيد العالمى. ووفقًا للـــچنرال ألكساندر لياخوفسكى ***Aleksandr Liakhovskii*** بعد انقلاب أمين "تغير موقف بريـــچينيڤ من المسألة برمتها. فلم يستطع أن يسامح أمين، لأنه كان قد وعد تراقى أنه سيساعده. ثم إنهم تجاهلوا بريـــچينيڤ كلية وقتلـــوا تـــراقى. وراح بريـــچينيڤ يكرر: كيـــف للعالم أن يصدق بريـــچينيڤ، لو أن كلماته لا وزن لها فى أفغانستان؟"(٩٦).

فى رسالة كتبها يورى أندروبوف بخط يده إلى بريـــچينيف شخصيًا، لخص فيها مسألة التدخل:

لقد تلقينا معلومات عن أنشطة أمين السرية، مـــا قـــد يعنى إعادة توجهاته السياسية نحو الغرب. وهو يخفى اتصالاته بالملحق الإدارى الأمريكى عنا. وقـــد وعـــد زعماء القبائل بأنه سيبتعد عن الاتحـــاد السوفيتى.... وفى اجتماعاته المغلقة يهـــاجم الـــسياسة السوفيتية وأنشطة المستشارين والخبراء السوڤيـــت؛ وقـــد تـــم إقصاء سفيرنا عن كابول. هذه التطورات تمثل خطـــرا بفقدان الإنجازات الداخلية التى حققتها الثورة الأفغانية من ناحية، وتهديدًا لمواقفنا فى أفغانستان من ناحيـــة أخرى. الآن ليس ثمة ضمان ألا يتوجـــه أمـــين إلـــى الغرب لكى يؤمن قوته الشخصية.

بيد أن أندروپوف استطاع أن يقدم لبريـــچينيف الحل لمشكلاته:

لقد اتصلنا مؤخرًا بمجموعة من الشيوعيين الأفغان المقيمين بالخارج. وفى عملية مشاورات مع بابراك كارمال وساروارى وجدنا – كما أخبرونا بشكل رسمى – أنهم قد وضعا خطة للتحرك ضد أمين وتكوين دولة ومؤسسات حزبية جديدة. بيد أن أمين قد بدأ حملة اعتقالات للمعارضين السياسيين؛ وتم القبض على خمسمائة شخص، وقتل ثلاثمائة منهم. فى تلك الظروف قام بابراك كارمال وساروارى بطلب المساعدة منا دون أن يغيرا خططهما للثورة، بما فى ذلك المساعدات العسكرية فى حال الحاجة إليها. لدينا كتيبتان تم وضعهما فى كابول، ومن ثم يمكننا أن نقدم المساعدة لو كانت هناك حاجة إليها، لكننا، فى حالة

الطوارئ، وتحسبًا للظروف العصيبة، نحتاج إلى مجموعة من القوات حول الحـــدود. لو تمت مثل هذه العملية، فإن ذلك سيمكننا من حل إشكالية الدفاع عن منجزات الثورة الأفغانية، واهبين الحياة مرة أخرى للمبادئ اللينينية عن الدولة وبناء الأحزاب في القيادة الأفغانية، ومدعمين موقفنا في تلك الدولة(٩٧).

ورغم أن وزير الدفاع أوستينوف قد اتفق في الرأي مع أندروبوف على الهدف السياسي من استخدام القوات السوفيتية، فإنه لم يشأ أن يقبل عملية محدودة حـــول الخطـــوط التي نصح بها رئيس المخابـــرات السوفيتية. ويتذكر الـــچنرال فـــالنتين فارينيكوف، الذي ترأس تخطيط العمليات في القيادة العامة أن أوستينوف كان يريد ٧٥٠٠٠ رجل للقيام بالعملية لسببين أساسيين: أولا: كان يريد أن يتأكد من أن خلع نظام أمين سيتم بسلاسة، حتى وإن قررت بعض مجموعات الجيش الأفغاني في كابول أن تقاوم. ثانيًا: كان يعتقد أن القوات السوفيتية ينبغي استخدامها لكي تحمي الحدود الأفغانية مع باكستان وإيران، وبالتالي تمنع العصابات الإسلامية مـــن التدعيم الخـــارجي. فـــي الســـادس مـــن ديسمبـــر، قَبِـــل أندروبوف خطة أوستينوف(٩٨).

في ظهيرة يوم الثامن من ديسمبر التقى كليهما بليونيد بريـــچنيف وأندريه جروميكو في مكتب الأمين العام بالكرملين. وبالإضافة لما كان أندروبوف قد أثاره من مخاوف مع بريـــچنيف في السابق، فقد أضاف هو وأوستينوف الآن الموقف الاستراتيـــچـــي. فقد عقد اللقاء بعد يومين فقط من الدعم الألماني الحيوي لقرار الطريق المزدوج ***Nato's double track decision*** في الناتو، "ذكر أندروبوف وأوستينوف المخاطر الواقعة على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي واحتمالية نشر قاذفات أمريكية قصيرة المدى في أفغانستان تستهدف مواقع استراتيـــچية في كازاخستان وسيبيريا وكل مكان آخر"(٩٩). وقد وافق بريـــچنيف على الخطة المبدئية للتدخل التي عرضها عليه كل من رئيس وزارة الدفاع والمخابرات السوفيتية.

بعد لقائهما ببريـــچينيف مباشرة، التقى أندروبوف وأوستينوف برئيس الأركان مارشال أوجاركوف فى قاعة والنت ***walnut room***، وهى قاعة اجتماعات صغيرة مجاورة للقاعة التى يلتقى فيها أعضاء المكتب السياسى فى العادة، وأخبراه بحديثهما مع بريـــچينيف، ومرة أخرى قام أوجاركوف – الذى كان قد سبق أن قام هو ونائباه الـــچنرال فـــارينيكوف ***Varennikov*** والمارشال أخروميڤ ***Akhromeyev*** بتحذير أوستينوف من آثار التدخل – قام بسرد أسبابه لعدم إرسال القوات السوفيتية. ولكن أوستينوف سيطر عليه، ودعا إلى اجتماع فى المساء لقيادات وزارة الدفاع أخبرهم فيه بأن يقوموا بتنفيذ استعدادات التدخل. وقال أوستينوف إن قرار إرسال قوات آت لا محالة.

فى أوائل ديسمبر كانت القوات الخاصة فى المخابرات السوفيتية قد بدأت بالفعل تتسلل إلى كابول. وتم وضع وحدة سبتسناز ***Spetsnaz*** فى قاعدة باجرام الجوية شمال المدينة، كما تم وضع وحدات للمخابرت بالقرب من القصر الرئاسى ومقر الحزب الأفغانى ومحطة الإذاعة الرئيسية. كان الهدف من "عملية أجات" ***Operation Agat*** للمخابرات هى خلع أمين ومساعده مجموعة كارمال فى الاستيلاء على السلطة. والتقى نواب رؤساء وزارة الخارجية السوفيتية، ووزارة الدفاع والمخابرات واللجنة المركزية بالإدارة الدولية مرتين على الأقل فى موسكو، لإيجاد نوع من التنسيق بين مسئولياتهم المختلفة فى التدخل المخطط، لكن دون تحقيق الكثير من النجاح، بسبب عدم رغبة المخابرات والعسكرية فى الخوض فى تفاصيل الخطط العملية.

فى الثانى عشر من ديسمبر اجتمع المكتب السياسى وصدق رسميًا على اقتراح التدخل. وترأس جروميكو الاجتماع، بعد أن وقع على الاقتراح مع أندروبوف ويوستينوف. وكتب كونستانين شيرنينكو ***Konstanin Chernenko*** كتب

بخط يده بروتوكولا قصيرًا يقبل فيه الاقتراح – بعنوان "في شأن الموقف في "أ"" – وجعل جميع أعضاء المكتب السياسى الحضور يوقعون بأسمائهم حول ما كتب. لم يكن ألكسي كوسيـــجين – الذى كان من المؤكد سيعارض قرار التدخل – حاضرًا. أما أندريه كيريلنكو فقد وقع بعد قليل من التردد. أما بريـــچينيف، الذى دخل القاعة بعد أن انتهى النقاش المقتضب، فقد أضاف اسمه بخط مرتعش فى أسفل الصفحة.

بعد ذلك بيومين، كان فريق عمل الأركان العامة، برئاسة المارشال سيرچـــي أخروميف *Sergei Akhromeyev* فى موقعه فى ترميز، فى مكان ليس ببعيد عن الحدود الأفغانية. وصلت مجموعة من فريق العمل إلى قاعدة باجرام الجوية خارج كابول فى الثامن عشر من ديسمبر. وبدأت العملية الرئيسية فى الثالثة من مساء يوم رأس السنة– حيث أقلعت قوات جوية من القواعد الجوية ١٠٣ و١٠٥ إلى كابول وشينداند فى غرب أفغانستان، كما عبرت وحدات تابعة للجيش الأربعين من الفرق العسكرية ٥ و١٠٨ الحدود فى كشكا وترميز. وقبل حلول ليل السابع والعشرين من ديسمبر مباشرة، هاجم أكثر من سبعمائة فرد من وحدات المخابرات السوفيتية الخاصة مقر أمين فى قصر دار الأمان، وبعد أن تجنب مقاومة شديدة من حراس القصر، قامت بتصفية الرئيس والعديد من أقاربه وأقرب معاونيه(١٠٠). ونصب بابراك كارمال، الذى ذهب مع وحدة من المخابرات السوفيتية إلى كابول عندما بدأ الهجوم على القصر، نصب نفسه فى اليوم التالى رئيسا للوزراء وأمينا عاما للحزب الأفغانى، مترئسا مجموعة من القادة العائدين معه من المنفى. أثناء الأيام الأولى من الاحتلال قضى بابراك وقتا طويلا يستجوب القادة من نظام أمين الذين كانوا قد تم أسرهم أحياء، موبخًا إياهم لأنهم قد عرضوا العلاقة بين الاتحاد السوفيتى والثورة الأفغانية للخطر. وقال لعضو الحزب المحنك غلام داجاستير بانشيرى "إننا والرفاق السوفيت نعتبرك شيوعيًا بمعنى الكلمة،

ولكنك خنت مصالح الرفقاء السوفيت الذين تحدثوا إليك فى موسكو"[١٠١]. لكن السوفيت أرغموا بابراك على أن يطلق سراح معظم الشيوعيين الذين قبض عليهم فى الأيام التالية للغزو، وأن يجعلهم، فى بعض الحالات، يشتركون فى الحكومة الجديدة فى مواقع قيادية، وكل ذلك باسم وحدة الحزب.

فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات كان الغرب – وليس الولايات المتحدة وحدها – يعتبر الغزو السوفيتى لأفغانستان دليلا قاطعًا على الأغراض السوفيتية العدائية. أما بالنسبة للنخبة السياسية فى موسكو فكانت ترى أن التدخل كان دفاعيًا وأنه يمثل سياسة الملاذ الأخير. لماذا إذن رغم تفوقهم فى القوة العسكرية والتأثير الدولى والبراعة التقنية، لم ينجح السوفيت فى تغيير السياسات الخلقية بأى وسيلة سوى التدخل العسكرى، الذى كانت نتيجته دمارًا هائلا لمكانتهم على المستوى العالمى؟ ولماذا اضطروا أن يتدخلوا ضد نظام كانوا قد أنفقوا الكثير من الجهد والمال لكى يحموه فى البداية؟ لابد من البحث عن إجابات لهذه الأسئلة فى محتويات أيديولوچية السياسة الخارجية السوفيتية وفى تصرفات الممثلين المحليين لموسكو، وكلاهما لم يبل بلاء حسنًا عند مواجهة الحرب الأهلية الأفغانية أو الإسلام الثورى.

وقد رأى بوزانوف ومساعدوه فى كابول أن مهمتهم هى مساعدة الأفغان فى التغلب على القهر الإقطاعى الداخلى والاعتماد على الغرب، وأن يقيموا دولة اشتراكية واقتصادا اشتراكيًا، وكان تحقيق تلك الأهداف ليزيد من الأمن السوفيتى ويحسن موقف موسكو ومكانتها فى المنطقة، وكانت "ثورة" الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى، مع إدخال المساعدات من الحدود الشمالية، ستصبح نصرًا "زهيد الثمن" للاشتراكية، وللدولة السوفيتية. ولكى تكون عملية التحول نحو الاشتراكية فى أفغانستان واضحة فى أذهان السوفيت، كان لابد من أن تحتوى على مجموعة

صغيرة من الرموز والأحداث. كان ينبغي أن يكون تسلسل "ثورة أبريل" ولغتها مشابهان لـ"ثورة أكتوبر" – أو بالأحرى مشابهان لصورتها في السبعينيات. كما أن الاستقلالية عن الغرب كانت تعني بالنسبة لبوزانوف وزملائه وجود تحالف قوى مع الاتحاد السوفيتي. كانت "الاشتراكية" تعادل المجتمع السوفيتي كما يعرفه المستشارون – وخاصة دور الحزب في ذلك المجتمع.

لم يجد المستشارون السوفيت في كابول ما "يميز" نظام تراقى منذ البداية. فالقيادة الحزبية الفصائلية والريف الوعر حيث أصبحت "الثورة" مجرد عنصر جديد في النزاعات الإثنية والعشائرية القديمة، والخطط الإصلاحية التي لا تكتمل والتي تتضمن أفكارًا غربية وسوفيتية – كلها عناصر لم تسهم في التعاطف السوفيتي مع النظام، وكلها كان يتم تسجيلها وإرسالها إلى موسكو. لكن رغم الفشل الملحوظ للحزب الأفغاني بقيادة تراقى وأمين، فإن رطانته ساعدت في إقناع السوفيت بأنه سيخرج من داخل الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني قيادة "اشتراكية حقة". وحتى يتم ذلك، فإن السفارة السوفيتية والمستشارين السياسيين والعسكريين والخبراء التقنيين هم رعاة الاشتراكية الأفغانية. فهم لن يقوموا بتخطيط تطوراتها فحسب، بل قاموا بتوجيه تنفيذ خططها أيضًا[١٠٢].

لابد من أن تكون التقارير الواضحة من السفارة في كابول قد جعلت موسكو تتأكد أنه بعد صيف ١٩٧٨ سيكون إحراز الأهداف السوفيتية في أفغانستان أصعب وأصعب، وقد كان القادة الأفغان يعملون ضد النصائح السوفيتية مما زاد من التوتر بين العاصمتين. كان من الممكن أن يؤدي العداء المستمر بين بوزانوف والخلقيين إلى جعل موسكو تقلل أو تقطع مساعداتها إلى كابول في أواخر خريف ١٩٧٨ لولا التغيرات الجذرية في المنطقة.

فقد جعلت الثورة الإيرانية موسكو تزداد اهتمامًا بسياستها في أفغانستان. ورغم أن الكرملين لم يكن متأكدًا من استحواذ اليسار على السلطة في إيران، فإنه لم يتوقع أن يكون الإسلاميون نواة الحكومة الجديدة. وفي مارس أو أبريل ١٩٧٩ كان القادة السوفيت قد بدأوا يرون أن طهران كانت تمثل خطرًا حقيقيًا على أمن المنطقة. ومن ثم كان للتواجد السوفيتي في أفغانستان أهمية جديدة؛ فقد ازدادت أهمية كابول الاستراتيـــجية وفائدتها بوصفها مكانا للتصنت والتجسس. وقد ازدادت أهمية الاعتبارات الإقليمية في منتصف ١٩٧٩، حيث كانت موسكو ترقب التطورات في إيران بالمزيد من الخوف. وكان التقدير السوفيتي السلبي للثورة الإسلامية ونتائجها على الصعيد الإقليمي الأشمل قد جعل موسكو تزيد من مساعداتها للنظام الخلقي. وقال مركز المخابرات السوفيتية لمحطاته بعد التدخل، إن "تدهور الموقف في أفغانستان لابد من اعتباره نتيجة للأحداث في إيران"[١٠٣]. زادت "الاستثمارات" السوفيتية الجديدة – التي بدأت في أوائل ١٩٧٩ – من رهان موسكو على استمرار النظام في كابول ولكنها لم تزد من فاعليته.

كان الانشغال السوفيتي بالسياسة الخارجية قد أعطى تراقي وأمين فرصة لاستخدام صراعاتهما مع إيران وباكستان لممارسة الضغوط من أجل المزيد من المساعدات السوفيتية. ولم يستطع بوزانوف أو مستشاروه أن يفهموا الأسس التاريخية أو الثقافية للعداء بين نظام خلق وبين الدول المجاورة. لقد تأثر تراقي وأمين بالقومية البشتونية في سنواتهما الأولى، وكان الأمل في السيطرة على الأقلية البشتونية في باكستان وكذا الخوف من تأثير إيران على الأقليات الشيعية الأفغانية من أولوياتهما السياسية، وكان قادة خلق يستعرضون في حواراتهم مع السوفيت الأصولية الإسلامية الإيرانية والعلاقات الباكستانية مع الولايات المتحدة لكي يضغطوا عليهم لزيادة الدعم العسكري الذي تقدمه موسكو[١٠٤].

وبالإضافة إلى افتقار السوفيت لفهم أهداف السياسة الخارجية البشتونية التقليدية، فقد كانوا يفتقرون أيضا إلى معرفة نظرة النخب المحلية الأفغانية لتورط موسكو في سياسات الحزب الأفغاني. وقد أسهم أسلوب المستشارين السوفيت الفظ والقائم على المواجهة – بمن فيهم بوزانوف، الذى أدى سلوكه إلى اكتسابه لقب القيصر الصغير "*little Czar*" – في عدم تمسك النظام بالولاءات المحلية(١٠٥). لم يكن على المعارضة أن تصنع المعجزات لكى تستغل الكراهية المحلية للسيطرة "الخارجية". وبسبب عدم مبالاة الممثلين السوفيت بكراهية أهل البلاد للسلطة الخارجية، فقد بالغوا جدا في تقدير تأثيرهم داخل الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. حتى عند استطاعة بوزانوف أن يؤثر على مجموعة كبيرة من القادة الأفغان، لم تكن ادعاءاته تضاهى نداءات حفيظ الله أمين المتوهجة، الذى استطاع العزف على أوتار ولاءات شخصية وسياسية نمت عبر عقود من الزمان. ورغم وعود السفارة لموسكو فإنها لم تستطع إيقاف ثورة اليورشام فـــى خريف ١٩٧٨ ولا خلع تراقى في العام التالى – وكان السوفيت على حق في توقعهم بأن يكون كلا الحدثين شفا الكارثة بالنسبة لنظام الحزب الأفغانى.

في البداية، في ١٩٧٨ لم يفكر ممثلو موسكو في كابول بأن الدعم السوفيتى لأفغانستان سيكون على هيئة أسلحة وتدريبات عسكرية. فقد كانت المساعدات التقنية، والتعليم، هما الأساس في برامج المساعدات التى اقترحها بوزانوف على موسكو. ولعل أفغانستان تمثل في هذا الصدد تباينًا واضحا مع ما كان يعتقد أنه نموذج للدعم السوفيتى للأنظمة الماركسية في العالم الثالث. وربما كان السبب في ذلك هو أن السفارة في كابول ومقر المخابرات السوفيتية والإدراة الدولية كانوا كلهم يعتقدون أن الدعم العسكرى الزائد قد يغرى النظام بإبعاد الشعب أكثر من خلال عملية تأصيل البرامج الإصلاحية. وعندما كان تراقى يطلب أسلحة كان في العادة يتلقى من بوزانوف محاضرات عن الحاجة إلى بناء الحزب وتقوية سياساته التحالفية (١٠٦).

ولكن عدم الرغبة السوفيتية فى تقديم كميات كبيرة من الدعم العسكرى اختفى فى أوائل ١٩٧٩. فقد أدى التهديد الإسلامى لاستمرارية النظام والأحداث فى إيران أن قررت موسكو المزيد من التدخل العسكرى فى الحرب الأهلية الأفغانية. ولكن كما أظهرت مهمتى إبيشيف **Epishev** وباڤلوفسكى **Pavlovskii** فقد اعتقدت الأركان العامة السوفيتية أن تكون المساعدات على هيئة معدات عسكرية ومستشارين ميدانيين وتدريب ومشاركة فى "عمليات خاصة" (بما فى ذلك الهجمات الجوية) – وليس على هيئة إدخال قوات المشاة السوفيتية(١٠٧).

كانت بدائل التدخل العسكرى فى رأى سفارة كابول والمستشارين العسكريين والمخابرات السوفيتية فى أواخر ١٩٧٩، هى إما التفاوض من أجل تسوية بين الخلقيين وبعض أعدائهم، أو التقرب أكثر إلى حفيظ الله أمين وتدعيم أسلوبه القوى القاسى فى الحرب. بعض الممثلين السوفيت، وأبرزهم سافرونشك **Safronchuk** حاولوا أن يجعلوا المفاوضات تستمر، متضمنة البارشاميين ومناصرى داوود والملك السابق ظاهر وأيضا مجموعات من المعارضة الإسلامية المعتدلة. وقد وجد سافرونشك أن مبادرته غير ممكنة بسبب التعنت الخلقى والافتقار إلى الدعم من موسكو، ولم يلتفت إلى خيار أمين بسبب الكراهية الشديدة التى كان يكنها السفير وقادة الكرملين له. وكما قال أحدهم "كان شبح تراقى على الطريق"(١٠٨).

ورغم أن لا أحد من كبار الممثلين السوفيت فى أفغانستان كان قد أوصى بتدخل عسكرى مكثف، فإن المسئولين السوفيت اختلفوا حول كيفية دفع النظام الأفغانى نحو التغيير. تلاعب بوزانوف ومستشارو السفارة بفكرة نشر وحدات مسلحة سوفيتية فى المواقع المهمة لكى يوضحوا "مقترحاتهم" لتراقى، لكنهم عادوا واستنتجوا أن الضغوط السياسية كانت كفيلة بذلك. أما المخابرات السوفيتية، التى كان يرأسها فى كابول كل من بوريس إيڤانوف **Boris Ivanov** وألكساندر

ماروزوف *Aleksandr Morozov*، فبدت متشككة في التورط العسكري المكثف، وأوصت بانقلاب عسكري يديره ويخطط له السوفيت، من شأنه أن يأتي بالزعماء البارشاميين إلى السلطة. أما رؤساء البعثات العسكرية والملحق العسكري السوفيتي الـجنرال ليونيد جوريلوف *Leonid Gorelov* فقد كانوا يعتقدون أنه في وجود التدريب العسكري والمعدات السوفيتية فإن الجيش الأفغاني سيكون في النهاية قادرًا على تصحيح الأخطاء السياسية(١٠٩).

أما بالنسبة للمكتب السياسي في موسكو، فإن التدهور التدريجي في العلاقات مع واشنطن في عهد إدارة كارتر جعل من السهل قبول فكرة أندروبوف وأوستينوف بأن الولايات المتحدة تريد الإخلال بالمكانة السوفيتية في أفغانستان، من خلال اتصالات سرية مع حفيظ الله أمين. كان ذلك التحدي الأمريكي – الذي جاء بعد تحد إسلامي تقوده إيران في المنطقة – هو ما سارع من وتيرة إيجاد حل للأزمة الأفغانية؛ وتحول الموقف في كابول من "غير مستقر" إلى "محتاج إلى التدخل السوفيتي". ولم تجد القيادة السوفيتية العجوز وسيلة أخرى سوى التدخل العسكري(١١٠).

لم يتوقع المكتب السياسي قوة رد الفعل الدولي على الأحداث في كابول واستخف بمدى رد الفعل الأمريكي. بريـجينيف نفسه كان يعتقد أن التدخل سيكون "عملية محدودة" وأنه "سينتهي خلال عدة أسابيع"(١١١). ولما كان الهدف الأساسي من العملية هو خلع قيادة أمين، فقد توقع بريـجينيف أن يستقر الموقف في أفغانستان حالما يتحقق هذا الهدف. ولكن مع قدوم "الشيوعيين الحقيقيين" إلى كابول، كان يمكن الحد من الدور السوفيتي، وكان بريـجينيف مستعدًا لدفع الثمن على الصعيد الدولي إلى أن يتحقق ذلك.

ولكن الشيوعية الأفغانية قد حطمت نفسها قبل نهاية صيف ١٩٧٩، قبل الغزو السوفيتى. فالنظام كان فى مواجهة قوة ثورية أقوى وأكثر شعبية – الإسلاميون الأفغان – وقد عجز عن أن يعيد تشكيل سياساته الداخلية أو الخارجية بحيث يستطيع أن يكسب ود أى تحالفات من أى نوع، ولذا لم يستطع أن يكسب الحرب الأهلية. إن الفشل السياسى الرئيسى فى التدخل السوفيتى فى أفغانستان كان الاعتقاد الخاطئ بأن القوة الخارجية يمكن أن تستخدم لكى تؤمن بقاء نظام عاجز ونجاحه عن أن يحقق لنفسه النجاح والاستمرار داخليا.

رد الفعل الإسلامى

لقــد قــدم التدخل السوفيتى قوة دفع جديــدة للمجموعات المقاومة الأفغانية المتمركزة في بيشاور، وخاصة للإسلاميين. ووفقًا لما قاله أحد القادة، وهو قلب الدين حكمتيار، فإن المقاومة لم تحقق الكثير من النجاحات بعد هرات، جزئيًا بسبب شدة حملات القمع التى خاضها الحزب الأفغانى وجزئيًا بسبب الخلافات بين الأحزاب الرئيسية السبعة حول الاستراتيــجية ومناطق السيطرة. ورغم أن تجنيد أعضاء جدد ظل مستمرًا، فإن عدد العمليات العسكرية قد قل فى الفترة بين صيف ١٩٧٩، ووصول القوات السوفيتية في يناير ١٩٨٠. ولكن مع المشاركة السوفيتية فى جمع العصابات المحلية، اتحد الإسلاميون مع مجموعات المقاومة هذه. وكانت الشهور التالية للغزو السوفيتى نقطة تحول بالنسبة للأحزاب المتمركزة فى باكستان مع زيادة كبيرة فى الدعم المحلى والمدد الخارجى.

لماذا بدأ الكثير من القادة المحليين – ومعظمهم كان يتشكك فى الإسلاميين – يتعاونون مع الحزب الإسلامى وأحزاب أخرى بعد الغزو السوفيتى؟ السبب الرئيسى هو سهولة الوصول إلى الأسلحة والمعدات والإمدادات الأخرى التى تستطيع تلك

الأحزاب توفيرها. فبعد زيادة الدعم الباكستاني، والأمريكي أيضًا بعد عدة أسابيع، أصبحت مجموعات المنفى المصدر الوحيد المتاح للمعدات التي كانت مجموعات المقاومة تحتاجها بشدة. كذلك كان هناك شعور متزايد بين الأفغان من كل المجموعات الإثنية أنه بمشاركة القوات السوفيتية في صف الحكومة، فإن فكرة قيام دولة علمانية قد فقدت السمعة الطيبة. وقد طرح الإسلاميون فكرة إقامة حكومة إسلامية مميزة، حتى وإن كانت تفاصيل ما يطرحون ليست جذابة لمعظم الأفغان.

كما أن قوة الإسلاميين قد ازدادت بفعل التدريب الأيديولوچي – وهو التدريب الذي حصلوا عليه من خلال الأجانب أو الأفغانيين الذين درسوا في المدارس الدينية في مصر أو السعودية أو باكستان. وأصبح المستشارون الذين يتصلون بصلات قوية مع الفصائل الإسلامية المتشددة في الشرق الأوسط ذوي أهمية كبيرة لزعماء المقاومة الأفغانية – أو المجاهدين، كما بدأوا يشيرون إلى أنفسهم بدءًا من ١٩٨٠-٨١. وبينما كان الزعماء الإسلاميون مثل قلب الدين حكمتيار ومحمد يونس خليص وعبد الرسول سياف حذرين جدًا في جلب هؤلاء الرجال إلى داخل أفغانستان، حيث ظنوا أنهم سيسببون جدلا كبيرًا بسبب تفسيرهم المتزمت للممارسات الإسلامية، فإنهم بدأوا يعتمدون على هؤلاء المستشارين في بحثهم عن استراتيچية سياسية ورؤية مستقبلية. وشجعهم على ذلك مساعدوهم في باكستان، الذين تعاطفوا مع "العرب" – كما كان يُعرَف هؤلاء المستشارون، أيًا كانت خلفياتهم – وأعجبهم التمويل والاتصالات الدولية التي كانوا يستطيعون جلبها إلى المقاومة الأفغانية.

كان الغزو السوفيتي لأفغانستان بالنسبة للمتعصبين في إدارة كارتر، وخاصة مستشار الأمن القومي زبيجنيو بريچنسكي، دليلا قاطعًا على النوايا السوفيتية العدائية في العالم الثالث. ففي تقريره الذي رفعه إلى كارتر في يوم الغزو، قال

بريــچنسكى إن "كلا من إيران وأفغانستان تعانيان اضطرابات شديدة" وإن "الحلم القديم لموسكو أن تسيطر سيطرة مباشرة على المحيط الهندى" آخذ فى التحقق[١١٢]. ورغم أن الرئيس نفسه كان ينزلق نحو تفسير مترقب للتصرفات السوفيتية على الأقل منذ أزمة القرن الأفريقى، فإن تصوير بريــچنسكى لسياسة بريچنيــڤ فى أفغانستان باعتبارها فعلا عدائيا محضا، وخطوة أولى تجاه تحدى مواقع الولايات المتحدة فى منطقة الخليج، هو ما جعل كارتر يرى أن السوفيت أعداء لا يلينون، وأن غزو أفغانستان كان هو التهديد الأخطر للسلام العالمى منذ ١٩٤٥[١١٣]. وعندما اجتمع مجلس الأمن القومى ليناقش إجراءات الرد الأمريكية، فاجأ الرئيس الجميع، بمن فيهم مستشاره للأمن القومى، بدعمه كل الاقتراحات المطروحة؛ بما فيها منع تصدير القمح الأمريكى إلى الاتحاد السوفيتى، ومقاطعة أوليمبياد موسكو ١٩٨٠، وقد كان كلا الإجراءين قليل النفع فى زيادة فرص الرئيس لإعادة انتخابه. ولكن الحاجة إلى الرد على السوفيت وردع أى اعتداء سوفيتى آخر كانت أقوى لكارتر من مهاراته للاستمرار السياسى. وقال "إن سلوكنا فى هذه الأزمة هو ما سوف يشكل الأفعال السوفيتية فى العشر إلى العشرين سنة القادمة... سنفعل أقصى ما فــى وسعنــا، باستثناء الحــرب العالميــة، لكــى نُرِىَ السوفيت أن ذلك كان خطأ جسيما"[١١٤].

ورغم شعور الرئيس القوى بالصدمة والغضب، فإن الغزو لم يكن مفاجأة لواشنطن بحال من الأحوال. فالإشارات المخابراتية الأمريكية - الجوية والأرضية - كانت تظهر أن القوات السوفيتية تحتشد لغزو أفغانستان منذ أواخر نوفمبر ١٩٧٩. كما أن الولايات المتحدة قد بدأت برنامجا للدعم المالى والمادى للمعارضة الأفغانية المعادية للشيوعية فى يوليو ١٩٧٩، وقد تصاعد هذا البرنامج مع تقدم العام. وفى أوائل سبتمبر طلب الأدميرال ستانسفيلد ترنر ***Stansfield Turner*** مدير المخابرات المركزية لكارتر بوجود عدة "خيارات تعزيزية" بما فيها تقديم "تمويل

للباكستانيين لشراء معدات عسكرية فتاكة للمنشقين...وكمية مماثلة من المعدات الفتاكة نعطيها لهم ليوزعوها على المنشقين"[١١٥]. ولكن التخطيط الأمريكي سرعان ما عاجلته الأحداث في أفغانستان نفسها.

في فبراير ١٩٨٠، بعد ستة أسابيع فقط من الغزو السوفيتي، ذهب بريـــچنسكي إلى باكستان، حيث ناقش برنامجًا سريًا مع الچنرال ضياء الحق وسافر إلى الجبهة الأفغانية حيث التقطت له صور فوتوغرافية وهو يرفع مدفع كلاشنكوف ويشير به نحو الحدود. وفي طريق عودته، توقف بريـــچنسكي في السعودية، حيث وقع اتفاقية تبادل تتيح مبادلة المجاهدين بأي شيء تقدمه أمريكا. وقبل أن يهزم كارتر على يد رونالد ريجان في الانتخابات الرئاسية في خريف ١٩٨٠ بفترة كبيرة، كان هناك توافق بداخل الإدارة الأمريكية على جعل أفغانستان "ڤيتنام سوڤيتية"[١١٦]. وكان المتزمت الأخير رئيس المخابرات الأمريكية ترنر قد اعترف بالهزيمة بالفعل في مارس؛ ففي رسالة كتبها إلى بريـــچنسكي اعترف بأن "مدى ثبات السوڤيت في المستقبل سيعتمد على مدى رؤية القيادة السوڤيتية لنجاح تدخلها في أفغانستان"[١١٧].

في ذلك الوقت كانت هناك عدة برامج أمريكية جديدة لمواجهة "الحكومات الماركسية الأصولية" في العالم الثالث، في اليمن وأنجولا وجزيرة جرينادا *Grenada* الكاريبية الصغيرة. وكان جنوب الجزيرة العربية بالنسبة لـــبريـــچنسكي قضية ذات أولوية كبيرة بعد اندلاع الحرب بين جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية المدعومة من الاتحاد السوڤيتي – مستعمرة عدن البريطانية سابقًا – وبين جمهورية اليمن الشمالية ***Northern Yemen Arab republic*** في فبراير ١٩٧٩. لقد استخدم السوڤيت ميناء عدن لكي يصعدوا من تدخلاتهم في إثيوبيا، ودعموا قيادة الحزب الأفغاني الجديدة اليسارية في أهدافها في إشعال تمرد في الشمال؛ ولكن بدلا من إعادة توحيد اليمنين، كانت النتيجة المباشرة للحرب الحدودية بينهما هي

زيادة تفكيك كل منهما. ودفع السوفيت نحو وقف إطلاق النار، الذى تم فى أواخر مارس. ولكن بالنسبة للولايات المتحدة كانت الأحداث فى اليمن دليلا أكبر على التقدم السوفيتى فى العالم الثالث، وبدا للرئيس كارتر أن جزءًا آخر مما أسماه بريـــچنسكى "قوس الأزمة" – من جنوب أفريقيا حتى قرن الشرق الأوسط – قد سيطرت عليه موسكو. وقد دعمت المخابرات المركزية قيام الولايات المتحدة بالتصرف لكى تمنع الحزب الأفغانى من "إشعال ثورة ماركسية فى الجزيرة العربية". فى السادس من أبريل ١٩٧٩ وافق مجلس الأمن القومى على برنامج للمساعدات السرية لليمن الشمالى، مع محاولة "خلق انشقاق" فى الجنوب الماركسى، وهى الخطة التى وصفها نائب مدير المخابرات المركزية روبرت جيتس ***Robert Gates*** بالـــ"مائلة إلى الأمام"[١١٨].

كان بدء الهجوم الأمريكى على العالم الإسلامى أسهل كثيرًا بسبب رد فعل المسلمين على الغزو السوفيتى لأفغانستان. فقرار موسكو قد جعل العديد من الأنظمة القومية تنقلب عليها – وقد أدان مؤتمر إسلام أباد الذى ضم خمسًا وثلاثين دولة إسلامية فى يناير ١٩٨٠ "العدوان العسكرى السوفيتى على الشعب الأفغانى" – وليس ذلك فحسب، وإنما جرد اليسار من الشرعية، وجعل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا أكثر استماعًا للإسلاميين[١١٩]. أصبح الاتحاد السوفيتى والشيوعية هما العدو الرئيسى بالنسبة للكثير من الإسلاميين وخاصة المجندين الجدد للدفاع عن القضية، أما الولايات المتحدة فهى حليف تكتيكى بالفعل وليس بالكلام فحسب؛ ورأى السعوديون أن المساعدات الأمريكية للمجاهدين الأفغان ضرورية. وقال رئيس إدارة المخابرات العامة السعودية الأمير تركى الفيصل لحلفائه من المخابرات المركزية الأمريكية *CIA* "إننا لا نقوم بعمليات، فنحن لا نعرف كيف نقوم بها. كل ما نعرفه هو أن نوقع شيكات"[١٢٠].

ورغم حدة الصراع بين الولايات المتحدة وإيران أثناء أزمة الرهائن، فقد كان للرئاسة الإيرانية الجديدة مخاوفها الشديدة من النوايا السوفيتية بعد الغزو السوفيتى لأفغانستان والعدوان العراقى فى ١٩٨٠. وبعد يومين من الغزو السوفيتى، التقى السفير فلاديمير فينوجرادوف *Vladimir Vinogradov* بالخومينى فى قم، وحاول أن يشرح له موقف بلاده. وقال فينوجرادوف إن موسكو سوف تساند طهران فى صراعها مع الولايات المتحدة ولكنها "تعتمد على الفهم الصحيح للتصرف الذى اضطرت إليه فى أفغانستان". بيد أن آية الله لم يجد أى توافق فى الأفكار فقال له: "ليس ثمة تفاهم متبادل بين أمة مسلمة وحكومة غير مسلمة"[١٢١]. ولم تأبه رسالته، التى حملها الحجيج الإيرانيون معهم إلى مكة فى ١٩٨٠، بواشنطن ولا موسكو:

> **أخرجوا القوى العظمة الخائنة من بلادكم ومن مواردكم الجمة. استعيدوا مجد الإسلام، واتركوا نزاعاتكم واختلافاتكم الأنانية، لأنكم تملكون كل شيء! اعتمدوا على الثقافة الإسلامية وانبذوا تقليد الغرب، واعتمدوا على أنفسكم. هاجموا أولئك المفكرين المفتونين بالغرب والشرق، واستعيدوا هويتكم الحقيقية، أدركوا أن المفكرين المأجورين قد أصابوا بلدانهم وشعوبهم بالكوارث. وما دمتم بقيتم مشتتين غير موحدين وفشلتم فى الاعتماد على الإسلام الحقيقى فسوف تستمر معاناتكم. إننا الآن فى عصر تقوم فيه الجماهير بإرشاد المفكرين وتنقذهم من الانحطاط والمهانة على يد الشرق والغرب. فاليوم هو يوم تحرك جماهير الشعوب؛ لقد أصبحوا هم المرشدون لمن كانوا فى السابق يتخيلون أنهم المرشدون [١٢٢].**

هوامش الفصل الثامن

(١) من أجل نظرة عامة ممتازة انظر

Kirsten E. Schulze, "The Rise of Political Islam, 1928-2000," in Antony Best et al., eds.. The Twentieth Century: An International History (London: Routledge, 2003).

(٢) الشخصيات الرئيسية في الصحوة الإسلامية الباكرة هي جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥)، وعلى وجه الخصوص محمد رشيد رضا (١٨٦٥- ١٩٣٥).

(٣) انظر *Mark J. Gasiorowski, US Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991)*

و*Barry Rubin, Paved with Good Intentions: The American Experience in Iran (Oxford: Oxford University Press, 1980).*

(٤) مذكرة من السكرتير التنفيذي للوزارة (بروبك) *Brubeck* إلى مساعد الأمن القومي الخاص بالرئيس (بندي) *Bundy* ، ٢١ يناير ١٩٦٣ في

Foreign Relations of the United States (hereafter FRUS), 1962-1963, Near East, p.311.

(٥) من أجل وجهة نظر نقدية انظر: علي محمد أنصاري :

Ali M Ansari, "The Myth of the White Revolution; Mohammad Reza Shah, 'Modernization' and the Consolidation of Power," Middle Eastern Studies, 37.3 (2001): 1-24.

(٦) محمد رضا بهلوي، خطاب في جامعة هارفارد، ١٣يونيو ١٩٦٨ على موقع

http://www.sedona.net/pahlavi/harvard.html.

(٧) من وزارة الخارجية إلى السفارة ، طهران، ١٦ يوليو ١٩٦٣، بما في رسالة كينيدي إلى بهلوي

FRUS, 1961-1963, vol. XVIII.

(٨) بولك إلى روستو، ١٧ ديسمبر ١٩٦٣، *FRUS, 1961-1963, vol. XVIII.*

(٩) *Baqer Moin, Khomeini: Life of the Ayatollah (London: I.E. Tauris, 1999). p. 104*

(١٠) *Ibid.,p.155*

(١١) خطاب الخوميني في قم، ٢٧ أكتوبر ١٩٦٤، على موقع

http://www.irib.ir/worldservice/ imam/speech/.

(١٢) *Henry Kissinger, Years of Renewal (New York: Simon & Schuster, 1999), p. 582*

(١٣) *Jonathan Randal, Kurdistan: After Such Knowledge, What Forgiveness? London: Bloomsbury, 1998), p. 175*

(١٤) *Kissinger, Years of Renewal, pp. 592-596; Randal, Kurdistan, pp. 153-193*

(١٥) *Mohammed Reza Pahlavi, Answer to History (New York: Stein & Day, 1980), p. 156.*

انظر أيضا:

Abbas Milani, The Persian Sphinx: AmirAbbas Hoveyda and the Riddle of the Iranian Revolution (Washington, DC: Mage, 2000).

من أجل نقاش مفيد لوجهات النظر المختلفة حول أسباب الثورة الإيرانية انظر

Farhad Kazemi, "Models of Iranian Politics, the Road to the Islamic Revolution, and the Challenge of Civil Society," World Politics, 47.4 (July 1995): 555-580.

(١٦) لمعرفة الأسباب الاقتصادية للثورة انظر:

Robert E. Looney, Economic Origins of the Iranian Revolution (New York; New York University Press, 1982).

ولمعرفة العلاقة بين "التقليديين" السياسيين وبين رجال الدين، انظر

Mohammad Gholi Majd, Resistance to the Shah: Landowners and Ulama in Iran (Gainesville, FL: University Press of Florida, 2000).

ويمكن أن تجد مقارنة مفيدة جدا بين دور المعارضة الإسلامية بداخل دول المنطقة فى

A. Banuazizi and M. Weiner, eds., The State, Religion, and Ethnic Politics: Afghanistan, Iran and Pakistan (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1986).

(١٧) *Peter G. Bourne, Jimmy Carter: A Comprehensive Biography from Plains 10 Postpresidency (New York: Scribner, 1997), p. 453.*

(١٨) *Ibid., pp. 266, 453*

(١٩) من تالبوت إلى رسك، ٦ يونيو ١٩٦٣

FRUS, 1961-1963, vol. XVIII, p. 570

(٢٠) انظر *Mohsen M. Milani, The Making of Iran's Islamic Revolution: From Monarchy to Islamic Republic (2nd edn; Boulder, CO: Westview Press, 199.1).*

(٢١)انظر *S.A. Arjomand, "Iran's Islamic Revolution in Comparative Perspective," World Politics, 38 (1986): 383-400*

(٢٢) *Paul Vieille and Farhad Khosrokhavar, Le discours populaire de la revolution Iranienne (Paris: Contemperanite, 1990), vol. II, p, 354.*

(٢٣) *Moin, Khomeini, p. 276*

(٢٤) الخومينى، رسالة إلى الحجيج، ١٢ سبتمبر ١٩٨٠ فى:

Hamid Algar, ed. and trans., Islam and Revolution: Speeches and Declarations, of Imam Khomeini (Berkeley, CA: Mizan Press, 1981), p. 302.

(٢٥) *Tulsiram, History of Communist Movement in Iran (Bhopal: Grafix, 1981), pp. 157-158*

انظر أيضا *Dr. Zayar, "The Iranian Revolution: Past, Present and Future,"*

على موقع *http://www.marxist.com/iran/index.html.*

لمعرفة وجهات النظر السوفيتية انظر

Richard Herrmann, "The Role of Iran in Soviet Perceptions and Policy, 1946-1988," in Nikki R. Keddie and Mark J. Gasiorowski, eds., Neither East Nor West: Iran, the Soviet Union, and the United States (New Haven, CT: Yale University Press, 1990), pp. 63-69.

(٢٦) تسجيل المحادثة بين بريـــچينيــڤ وهونيكر، ٤ أكتوبر ١٩٧٩

Berlin (hereafter SAPMO-BArch), DY30JIV 2/201/1342.

(٢٧) كان لدى الإسلاميين قوائمهم من الشيوعيين وكــذلك بعــض "الأدلــة" علــى التجــسس الشيوعي، من المخابرات البريطانية التى ساعدت أحد نواب شبراشين (رئيس المخـــابرات الروسية) فى طهران، واسمه الرائد ڤلاديمير كوزشكين *Vladimir Kuzichkin* أن يلجأ إلــى الغرب فى يونيو ١٩٨٢. وكل من شبراشين ونائب رئيس اللجنة المركزية أوليانوڤـــسكى *Ulianovskii* ينكران أنه تم تجنيد أعضاء من حزب توده عملاء عندهم ولكنهم يعترفون بأن المخابرات الروسية كانت مسئولة عن "الاتصالات التقنية" مع الزعماء الشيوعيين (انظر:

Alexei Vassiliev, Russian Policy in the Middle East: from Messianisim to Pragmatism [Reading: Ithaca Press, 1993], p. 165).

أفضل الكتب بالإنجليزية عن تدمير اليسار الإيرانى هى:

Sepehr Zabih, The Left in Contemprory Iran: Ideology, Organisation and the Soviet Connection (London: Craoin Helm, 1986)

و *Maziar Behrooz, Rebels with a Cause: The Failure of the Left in Iran (London: I.B. Tauris, 1999).*

من أجل وجهة نظر حول العلاقات السوفيتية الإيرانية مع إلقاء الضوء على الثمانينيات تحديــدا انظر:

Haim Shemesh, Soviet Iraqi Relations, 1968-1988: In the Shadow of the Iraq-Iran Conflict (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1992).

(٢٨) بوزانوف كما ورد فى

David Gai and Vladimir Snegirev, "Vtorzheine: opyt zhurnalistskogo rassledovaniia" (Invasion: The Experience of journalistic Investigation), Znamia, 3 (1991): 200.

(٢٩) لمزيد من المعلومات والسيرة الذاتية عن تراقى وأمين وكارمال انظر

Beverley Male, Revolutionary Afghanistan: A Reappraisal (New York: St. Martin's Press, 1982), pp. 20-51.

حول خلفية كارمال انظر أيضا المقابلة الصحفية معه في.*Trud, 24 October 1991*

(٣٠) حكمتيار نفسه هرب بمساعدة الباكستانيين، اللقاء الصحفي الذي أجراه المؤلف مع قلب الدين حكمتيار، بيشاور ، ١٢ مارس ١٩٨٥.

(٣١) السفارة السوفيتية، كابول، تقرير إلى وزارة الخارجية، موسكو، ٢٦ أبريل ١٩٧٨، كما ورد في

Vasily Mitrokhin, The KGB in Afghanistan, ed. Odd Arne Westad and Christian Ostermann, CWIHP Working Paper 34 (Washington, DC: Woodrow Wilson Center, 2001), p. 23.

وافقت المخابرات الروسية *KGB* على تقديرات السفير قائلة في برقية في ذات اليوم إنه "لا يمكن تجاهل احتمال أن تكون الموساد (المخابرات الإسرائيلية) هي التي تعمدت إثارة المؤسسة العسكرية في هذا الحزب حتى يثور ضد الحكومة لكي توجه لها لطمة".

(٣٢) كان لبوزانوف مكانة رفيعة في الهيئة الدبلوماسية السوفيتية وقد خاض العديد من الأسفار بصفته سفيرًا للاتحاد السوفيتي قبل أن يأتي إلى كابول وكان عضوا باللجنة المركزية للاتحاد السوفيتي. انظر أيضا تعليقات الجنرال فالنتين فارينيكوف في

"The Intervention in Afghanistan and the Fall of Detente. Transcript of an International Conference, Lysebu, September 1995," Norwegian Nobel Institute, 1995 (hereafter "Lysebu II"), p. 12.

لرد الفعل الأمريكي على الانقلاب انظر:

Harold H. Saunders to Cyrus R. Vance, "Briefing Memorandum: The Coup in Afghanistan," 27 April 1978, National Security Archives, comp., Afghanistan: The Making of US Policy, 1973-1990. (Guide and Index (Alexandria, VA: Chadwyck-Healy, 1990) (hereafter NSArch, Afghanistan), microfiche.

كان سوندرز مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى وجنوب آسيا. لمعرفة السياسات السوفيتية العامة انظر:

Steven R. David, "Soviet Involvement in Third World Coups," International Security, 11.1 (summer 1986): 3-36.

(٣٣) ألكساندر م. بوزانوف *Aleksandr M. Puzanov* إلى اللجنة المركزية، ٥ مايو ١٩٧٨،

"Politpismo: o vnutripoliliches-kom poloshenii v DRA" (On the Domestic Political Situation in the DRA [Democratic Republic of Afghanistan]), Rossiiskii gosudarstvennyi arkhiv noveishei istorii (hereafter RGANI), f. 5, op. 75, d. 1179, pp.2-6,16.

معظم تقارير بوزانوف كانت توجه إلى وزارة الخارجية وإلى الإدارة الدولية للحزب. والتقرير السياسي *politpisimo* هو تقرير سياسي دوري يتعين على السفراء السوفيت إرساله إلى موسكو.

(٣٤) *Ibid., pp. 1314, 16.*

(٣٥) من *Simonenko, Gankovskov, and Smirnov* إلى اللجنة المركزية ، ٢٣ مـايو ١٩٧٨
RGANI f. 5, op. 75,d.1182, p.7

(٣٦) أمين إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، ٢٣ مايو ١٩٧٨ ، إذ زار أمـين موسكو زيارة قصيرة في منتصف مايو

RGANI, f. 5, op. 75, d. 1182, pp. 1-8.

(٣٧) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٥ مايو ١٩٧٨
"Politpismo: op. vnutripoliticheskom poloshenii v DRA" (On the Domestic Political Situation in the DRA), RGANI, f. 5, op. 75, d. 1179, pp. 7, 9-10.

(٣٨) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٧ مايو ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 75, d. 1181, pp. 1-3.

(٣٩) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١١ يونيو ١٩٧٨ المصدر السابق ص١٠-١١، ١٣

(٤٠) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٧ يونيو ١٩٧٨ ، المـصدر الـسابق ص. ١٨-١٩؛ بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١١ يونيو ١٩٧٨ ، المصدر السابق ص . ١٣

(٤١) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٨ يونيو ١٩٧٨ ، المصدر السابق ص.٢٥-٢٦، ٢٧.

(٤٢) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٦ أغسطس ١٩٧٨ ، المصدر السابق ص.٧٧

(٤٣) *Ibid., pp. 7 5-76.*

(٤٤) *Ibid., pp. 76-77*

(٤٥) *Gai and Snegirev, "Vtorzheine," p. 201*

(٤٦) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٦ أغسطس ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 75, d. 1181, p. 77.

(٤٧) بوناماريوف كما ورد في
Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," p. 201.

(٤٨) المصدر السابق. بشأن شكوك المخابرات السوفيتية في أمين انظر
Aleksandr Morosov, "Kabulskii resident"Novoe vremia, 41 (1991): 29.
وقد كان موروسوف هو نائب المخابرات السوفيتية المقيم في كابول من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩.

(٤٩) – *Gai and Snegirev, "Vtorzheine," p. 201.* اللقاء الصحفي بين نائب وزير الخارجيـة ميخائيل كابتسا *Mikhail Kapitsa* والمؤلف ، ٧ سبتمبر ١٩٩٢.

(٥٠) *Ibid*

(٥١) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٤ نوفمبر ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 75, d. 1181. pp.123-129.

(٥٢) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٧ ديسمبر ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 70, d. 10.14, p, 8,
بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٤ نوفمبر
*f. 5, op. 76, d. 1181, p. 125,*١٩٧٨

(٥٣) بشأن إيران انظر بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٨ ديسمبر ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, pp. 4-5
وبوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٥ يناير ١٩٧٩، المصدر السابق ص.١٣. حول المستشارين التقنيين والمساعدات، بوزانوف إلى اللجنة المركزية ١٧ ديسمبر ١٩٧٨، المصدر السابق ص.١-٣. حول المعلومات المخابراتية انظر بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٨ ديسمبر ١٩٧٨، المصدر الأسبق ص.٥.

(٥٤) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٣٠ ديسمبر ١٩٧٨
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1041, pp. 6.7, 9.

(٥٥) جزء من بروتوكول الجلسة رقم ١٣٧ من اجتماع المكتب السياسي للجنة المركزية من الحزب الشيوعي السوفيتي في ٧ يناير ١٩٧٩، ملف خاص
RGANI, f. 89 kollektsiia, perechen 14, dokumein 24.
تم نقل المادة العلمية في هذا الملف من أرشيف الرئاسة بالكرملين إلى أرشيف الدولة الروسية للتاريخ المعاصر *RGANI* في أواخر ١٩٩٢.

(٥٦) أرخيبوف *Arkhipov* إلى اللجنة المركزية، ٢٨ فبراير ١٩٧٩
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1011, pp.20 23,26 27.

(٥٧) بوزانوف إلى اللجنة المركزية ، ١ يوليو ١٩٧٨،
RGANI, f. 5, op. 75, d. 1181, p. 31;
بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٢ أغسطس ١٩٧٨ المصدر السابق ص.٦٤-٦٩ ؛ بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٩ فبراير ١٩٧٩
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, pp. 23-24.

(٥٨) *Anthony Hyman, Afghanistan under Soviet Domination, 1964 1991 (3rd edn: Houndsmills: Macmillan, 1992), pp. 100-101.*

(٥٩) *Fred Halliday and Zahir Tanin, "The Communist Regime in Afghanistan 1978-1992," Europe-Asia Studies, 50 (1998): 1357-1380.*

(٦٠) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٩ مارس ١٩٧٩،
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1044, pp. 36-38, 37.

(٦١) *Kanoteka Sekretariata TsK KPSS* ملفات سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وسوف نسميها فيما بعد *KSTsK*، الجلسة ١٥١ (٢٠ مارس ١٩٧٩) الموضوع رقم ٢٥، في *RGANI*، بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٥ مارس ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1044, pp.40-41.

(٦٢) تسجيل المحادثة بين كوسيجين وجروميكو وأوستينوف وبوناماريوف وتراقي ، ٢٠ مارس ١٩٧٩،

OP, RGANI, f. 89 - kollekisiia, pereehen 14, dokument 26.

(٦٣) تسجيل المحادثة بين بريجنيف وتراقي ، ٢٠ مارس ١٩٧٩

OP, RGANI, f. 89- kollektsiia, perechen 14, dokument 25.

(٦٤) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٢ مارس ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1044, p. 29.

كان تراقي كثيرا ما يستخدم وصلة التليفون المباشرة الجديدة مع الكرملين أثناء أزمة حيرات. وتسجيل محادثة أخرى له (إلى رئيس الوزراء ألكسي كوسيجين *Aleksei Kosygin* في ١٨ مارس) منشور في *Moskowkie novosti*، ٧ يونيو ١٩٩٢، ص.١٢. بشأن وصلة التليفون مع موسكو انظر *KSTsK*، الجلسة ١٥٠ (١٣ مارس ١٩٧٩) ، الموضوع رقم ١٠، في *RGANI*

(٦٥) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٠ أبريل ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1044, pp. 43, 45-46.

(٦٦) *Mark Urban, War in Afghanistan (2nd edn; Houndsmills: Macmillan, 1990), pp.32-36.*

(٦٧) مقتطف بروتوكول الجلسة رقم ١٤٩ من المكتب السياسي للجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، في ١٢ أبريل ١٩٧٩.التقرير السياسي

"0 nashii dalneishei linii v sviazi s polozhe-niem v Afganistane" (On our future line in connection with the situation in Afghanistan),

الموقع من جروميكو وأندروبوف وأوستينوف وبوناماريوف

OP, RGANI, f. 89 - kollektsiia, perechen 14, dokument 27.

(٦٨) سافرونشك *Safronchuk* إلى اللجنة المركزية، ٢ يوليو ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1046, pp. 38-40;

من بروس ج. أمستوتس إلى وزارة الخارجية ، ٢٥ يونيو ١٩٧٩، برقية خاصة ٤٨٨٨؛ أمستوتس إلى الدولة ، ١٨ يوليو ١٩٧٩، برقية خاصة ٥٤٣٣، أمستوتس إلى الدولة ١٩ يوليو ١٩٧٩، برقيةخاصة ٥٤٦٣، وكلها على ميكروفيلم في أرشيف مجلس الأمن القومي،

أفغانستان. لقد أخبر سافرونشك أمستوتس، القائم بالأعمال الأمريكي، عن الخطط السوفيتية لـ"إعادة تركيب" الحكومة الأفغانية، ربما كمحاولة لتشتيت النقد الأمريكي للتورط العسكرى السوفيتي فى أفغانستان. انظر أيضا:

V. Safronchuk, "Afganistan vremen Taraki" (Afghanistan in Taraki's Time), Mezhdunarodnaia zhizn, 12 (1990): 86-96.

(٦٩) بوزانوف عن لسان أمين فى

Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," p. 201

(٧٠) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢١ يوليو ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, p. 94;

انظر أيضا إيفانوف *Ivanov* وأوسادشى*Osadchy* إلى مركز المخابرات السوفيتية ، ١٦ يونـوي و١٦ يوليو، كما ورد فى

Mitrokhin, KGB in Afghanistan

(٧١) *Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," pp. 218, 223;*

بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢١ يوليو ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, pp. 95-97;

Aleksandr Liakhovskii, Tragediia i doblest afgana, (Afghan Tragedy and Valor) (Mascow: Iskona, 1995) pp.84-89.

(٧٢) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٦ أغسطس ١٩٧٩،

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1044, pp. 81-84.

(٧٣) حول مهمة إيبيشيـف *Episher* انظر

NSArch, Afghanistan, p. 77;

انظر جوريلوف *Gorelov* إلى أوجاركوف *Ogarkov*، ١٤مارس ١٩٧٩

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, p. 216;

بشأن مهمة بافـلوفـسكى *Pavlovskii* انظر بافـلوفـسكى إلى أوتسينوف *Ustinov* ، ٢٠ و٢٥ أغسطس، المصدر السابق ٢١٧. وتقرير أوتسينوف إلى المكتـب السـياسى بعـد عـودة بافـلوفـسكى فى ٢٢ أكتوبر موجود فى أرشيف رئاسة الفيدرالية الروسية (*APRF)*

f. 3, op. 82, d. 149, pp. 120 122.

انظر أيضا

G.N. Sevostianov, "Dokumenty soveiskogo ruko-vodstva o polozhenii v Afganistane, 1979-1980" (Documents of the Soviet Leadership on the Situation in Afghanistan, 1979-1980), Novaia i noveishaia istoriia, 3 (1996): 91-99.

حول وجهات النظر العسكرية انظر

Artem Borovik, "Afganistan: podvodia itogi" (Afghanistan: The Conclusions), interview with General Valentin Varennikov, Ogonyok, 12 (1989): 6-8, 30-31.

(٧٤) *Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," pp. 204-208;* .

اللقاء الصحفى بين نائب وزير الخارجية الأسبق ميخائيل كابتسا والمؤلف، ٧ سبتمبر ١٩٩٢.
انظر أيضا

Bhabani Sen Gupta, Afghanistan: Politics, Economics, and Society (London: Pinter, 1986), p. 82.

(٧٥) *Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," p. 205.*

الملحق العسكرى السوفيتي كان الـجنرال جوريلوف، أما العميل المقيم للمخابرات الـسوفيتية فكان اللواء بوريس إيفانوف *Boris Ivanov*

(٧٦) *Ibid*

(٧٧) مذكرات بوزانوف، ١٩ سبتمبر ١٩٧٩، كما وردت فى
Mitrokhin, KGB in Afghanistan

(٧٨) *Morosov, "Kabulskii resident," pp. 28-31*. يدعى اللواء ليونيد شبرشين، وقد كان عميل المخابرات السوفيتية المقيم فى طهران فى ذلك الوقت، أن المخابرات لم تكن متورطة فـى محاولة اغتيال أمين (الحوار مع المؤلف، أوسـلو ، ١٨ سـبتمبر ١٩٩٥)، انظـر أيـضا *Lysebu II, pp. 78-79*. وكذلك فإن رواية متروخين *Mitrokhin* للمـسألة، وهـى الروايـة القائمة على تقارير المخابرات فى تلك الفترة، لم توضح ما إذا كانت المخـابرات متورطـة بشكل مباشر أم لا.

(٧٩) بوجدانوف *Bogdanov* إلى كريوشكوف *Kryuchko*، مسجلا الاجتماع مـع أمـين فـى ٩ أكتوبر ١٩٧٩، كما ورد فى
Mitrokhin, KGB in Afghanistan.

(٨٠) *Gai and Snegirev, "Vtorzhenie,", p. 210.*

(٨١) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٢٧ أكتوبر ١٩٧٩
RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, p. 112.

(٨٢) المحادثة مع عبد الكريم ميثاق (وزير المالية)، بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ٥ نوفمبر ١٩٧٩، المصدر السابق ص.١٢٥-١٢٦. المحادثة مع محمـد صـديق الميـار (وزيـر التخطيط)، بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٠ نوفمبر ١٩٧٩، المصدر السابق ص.١٣٤-١٣٦. المحادثة مع الرائد يعقوب (رئيس الأركان) بوزانوف إلـى اللجنـة المركزيـة، ١٣

نوفمبر ١٩٧٩، المصدر السابق ص.١٤٠- ١٤٣. وقد التقى بوزانوف بمحمد سوما (وزير التعليم العالى) وفقير محمد فقير (وزير الداخلية) وشاه والى (وزير الخارجية).

(٨٣) أمستوتز إلى وزارة الخارجية، ٣٠ سبتمبر ١٩٧٩، برقية رقم ٧٢٣٢، وأرشر بلود إلى وزارة الخارجية ، ٢٨ أكتوبر ١٩٧٩، برقية رقم ٧٧٢٦، وكلاهما فى *NSArch, Afghanistan;* في محادثة مع سافرونشك أكد أمين اتصالاته مع الأمريكيين، انظر *Safronchuk 10 MO, 29 October 1979, RGANI, f. 5, op. 76, d. 1046, pp. 67-70.*

(٨٤) بوزانوف إلى اللجنة المركزية، ١٩ نوفمبر ١٩٧٩ *RGANI, f. 5, op. 76, d. 10.15, pp.144-146.*

(٨٥) المخابرات السوفيتية *(G. Tsinev)* إلى اللجنة المركزية، ١٠ أكتوبر ١٩٧٩، تقرير بعنوان *"Rukovodstvo Irana o vneshnei bezopasnosti strani" (The Iranian Leadership on the Country's Foreign Security), RGANI, f. 5, op. 76, d. 1355, pp. 18, 19-20.*

(٨٦) *Vasilii Safronchuk, "Afganistan vremen Amina" (Afghanistan in Amin's Time), Mezhdunarodnaia zhisn, 1 (1991): 124-142; V. P. Kapitanov to MO, n.d. (late fall 1979), RGANI, f. 5, op. 76, d. 1337, pp. 5-7.*
للتعرف على الموقف العسكرى انظر *Urban, War in Afstlanisiaii, pp. 36-37.*

(٨٧) تابييف إلى اللجنة المركزية، ٦ ديسمبر ١٩٧٩ *RGANI, f. 5, op. 76, d. 10-15, pp. 152-153.*
انظر أيضا:
Pavel Demchenko, "Kak eto nachinalos v Afganistane" (How it Began in Afghanistan), Ekho planety, 46 (1989): 26-32.

(٨٨) تسجيل اجتماع المكتب السياسى للحزب الشيوعي السوفيتي، ١٨ مارس ١٩٧٩، فى *Odd Arne Westad, ed., The Fall of Detente: Soviet-American Relations during the Carter Years (Oslo: Scandinavian University Press, 1997), p. 302.*

(٨٩) الحوار مع المؤلف، أوسلو ، ١٨ سبتمبر ١٩٩٥

(٩٠) *Ibid. See also Lysebu II, pp. 75-94*

(٩١) *Mitrokhin, KGB in Afghanistan, pp. 85-86.*

(٩٢) *Lysebu II*

(٩٣) *Ibid., p. 177*

(٩٤) *Karen N. Brutents, Tridtsat let na Staroi Ploshchadi (Thirty Years at Storoia Ploschad,) (Moscow: Mezhdunarodnie Otnosheniia, 1998), pp. 451-504.*

(٩٥) Mirokhin, Kdti in Afghanistan, p. 91. The KGB reported that after the murder of Amin, Kapustin became "quiet and withdrawn."

(٩٦) Lysebu II, p. 81

(٩٧) Ibid., pp. 90 91.

هذه الوثيقة ، التى من المحتمل أن تكون قد كتبت فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٩، قام السفير دوبرينين بنسخها بيده من مصادر فى أرشيف رئاسة الفيدرالية الروسية AFRF أثناء تحضيره لمؤتمر ليسيبو.

(٩٨) Lysebu II, pp. 83-86;

المقابلة الصحفية بين المؤلف وفارينيكوف ،أوسلو ١٨ سبتمبر١٩٩٥. الرواية الخاصة بصنع القرار النهائى فى موسكو تقوم على نسخة من مؤتمر سبتمبر ١٩٩٥ فى ليسيبو، مدعمة بالحوارات واللقاءات الصحفية التى أجراها المؤلف مع الروس المشاركين فى المؤتمر وفى مناسبات لاحقة. انظر أيضا

Diego Cordovez and Selig S. Harrison, Out of Afghanistan: The Inside Story of the Soviet Withdrawal (Oxford: Oxford University Press, 1995), pp. 44-49.

(٩٩) الوثيقة التى ذكرها السفير دوبرينين فى ليسيبو. Lysebu II, pp.91 92

(١٠٠) عانت المخابرات السوفيتية من خسائر لا يستهان بها فى الهجوم على دار الأمان. فقد قتل ما لا يقل عن مائة عضو، وهو الأمر الذى جعل أندروبوف، وفقا لرواية متروخين Mitrokhin، يبتعد عن التقليد المتبع لدى المخابرات السوفيتية من تعليق صور الأبطال الذين قتلوا أثناء تأديتهم المهام الدولية النبيلة فى لوحات حداد فى القاعات والطرقات لأن ذلك سوف يلفت النظر ويسترعى اهتمام غير مرغوب فيه" (Mitrokhin, KGB in Afghanistan, p. 95).

(١٠١) لعب باتچيرى دورا غير واضح فى مسألة الغزو. لقد كان من المرشدين الذين يعتد بهم فى المخابرات الروسية (تحت اسم "ريتشارد")، تم توريطه فى التآمر ضد أمين، ولكن يبدو أنه أعاد النظر فى الأمر مرة أخرى فساند قيادة الحزب فى وقت التدخل السوفيتي. وبعد الإفراج عنه من السجن فى يناير ١٩٨٠، أعيد أدراجه فى المكتب السياسى للحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانىPDPA .

(١٠٢) انظر مثلا التقارير السياسية لبوزانوف ليومى ٤ أبريل و٢٧ يونيو ١٩٧٩ تحت عنوان

"O nekotorikh momentakh vnutripoliticheskogo polozheniia v Demokraticheskoi Respublike Afganistan" (On some aspects of the domestic political situation in the Democratic Republic of Afghanistan),

حول بعض جوانب الموقف السياسي الداخلى فى جمهورية أفغانستان الديمقراطية و

"Ob asushchestvlenii v DRA zemelnoi reformi i ee vliianii na razvitie vnutripoliticheskoi obstanovki" (On the implementation of land reform in the DRA and its influence on the development of the domestic political situation),

حول تطبيق الإصلاح الزراعى فى أفغانستان وتأثيره على تطور الموقف السياسي الداخلى

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1042, pp. 1-15, 16-27.

(١٠٣) *Mitrokhin, KGB in Afghanistan, p. 105.*

(١٠٤) *Male, Revolutionary Afghanistan, p. 28; Puzanov to MO, 19 February 1979, RGANI, f. 5, op. 76, d. 1045, pp. 23-24.*

(١٠٥) *Hyman, Afghanistan under Soviet Domination, p. 106.*

(١٠٦) بوزانوف إلى اللجنة المركزية ، ١ يوليو ١٩٧٨،

RGANI, f. 5, op. 75, d. 1181, pp. 29-33, 36-40.

انظر أيضا تقريره السياسي فى ٢٧ يونيو ١٩٧٩ (حول تطبيق الإصلاح الزراعى فى أفغانستان وتأثيره فى تطور الموقف السياسي الداخلى

RGANI, f. 5, op. 76, d. 1042, pp. 16-27.

للنقاش المقارن عن التدخلات السوفيتية انظر

Bruce D. Porter, The USSR in Third World Conflicts: Soviet Arms and Diplomacy in Local Wars, 1945- 1980) (Cambridge: Cambridge University Press, 1984).

حاول ساموبل ب.هنتنجتون وضع مقارنة حول التدخلات الأمريكية و السوفيتية أكدت اســتعداد موسكو لتقديم المساعدات العسكرية؛ انظر مثلا مقاله

"Patterns of Intervention: America and the Soviets in the Third World," National Interest (spring 1987): 39-47.

(١٠٧) انظر كتاب رئيس الأركان الروسى

Russian General Staff, The Soviet-Afghan War: How a Superpower Fought and Lost, trans. and ed. Lester W. Grau and Michael A. Gross (Lawrence, KN: University of Kansas Press, 2002).

(١٠٨) نائب وزير الخارجية السابق ميخائيل كابتسا فى لقائه مع المؤلف، ٨ سبتمبر ١٩٩٢.

(١٠٩) بشأن المخابرات الروسية انظر موروسوف

Morosov, "Kabulskii resident," Novae vremia (1991), no. 38, pp.36-39, no.39, pp.32-33,no.40, pp.36-37, no.41,pp.28-31;

وأيضا بوريس بونوماريــف *Boris Ponomarev* كما ورد فى

Gai and Snegirev, "Vtorzhenie," p. 226.

وفى الشأن العسكرى انظر إيـڤان باڤـلوڤسـكى *Ivan Pavlovskii* كما ورد فى:

Gai and Snegirev, "Vtorzhenie,", p. 218.

(١١٠) لقد رأت المخابرات تهديدين يتصاعدان: "الولايات المتحدة كانت تأمـل أنهـا بمنحهـا مساعدات مالية وعسكرية للمتمردين [الأفغان]، تكون قد أرضت الخومينى مما يجعله يصل إلى حل وسط فى مسألة الإفراج عن الرهائن". من مركز المخابرات السوڤيتية إلى محطـة المخابرات السوڤيتية، بكين، ٨ يناير ١٩٨٠، فى *Mitrokhin, KGB in Afghanistan*، نسخة على الآلة الكاتبة، نسخة بحوزة المؤلف.

(١١١) وجه بريـچينيـڤ هذه الملاحظات إلى السفير دوبرينين أثناء محادثة تمت فى منتصف يناير ١٩٨٠ (دوبريدين، مقابلة صحفية مع المؤلف، أوسلو، ٢٢ سبتمبر ١٩٩٥)

(١١٢) بريـچينيـڤ إلى كارتر، ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩، *NSArch, Carter-Brezhnev collection.*

(١١٣) انظر المقابلة الصحفية بين فرانك رينولدز *Frank Reynolds* وكارتر، وقد طبعت نسخة منها فى نيويورك تايمز *New York Times* بتاريخ ١ يناير ١٩٨٠.

(١١٤) تسجيل اجتماع مجلس الأمـن القـومى، ٢ ينـاير ١٩٨٠ *NSArch, Carter-Brezhnev collection.*

(١١٥) *Robert E. Gates, From the Shadowes: The Ultimate Insider's Story of Five Presidents and how they Won the Cold War (New York: Simon & Schuster, 1996), p.147.*

(١١٦) الجملة لبريـچنسكى، انظر :

Brzezinski to Carter, 26 December 1979, NSArch, Carter-Brezhnev Collection.

(١١٧) الملاحظة التى كتبها ترنر شخصيا على غلاف تقريرالمخابرات الأمريكية لبرزيزينسكى حـول السياسات السوڤيتية فى العالم الثالث، أوردها جيتس فى *Gates, From the Shadows, p.148.*

(١١٨) *Ibid., p. 150*

(١١٩) *Henry S. Bradsher, Afghan Commmunism and Soviet Intervention (Oxford: Oxford University Press, 1999), p. 105.*

(١٢٠) الأمير تركى نقلا عن:

Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 11, 2007 (Harmondsworth: Penguin, 2004), p. 72.

لقد صور كول (مؤلف هذا الكتاب) الأمير تركى، الذى أصبح الممـول الأساسـى للإسـلاميين الأفغان فى بداية الحرب، باعتباره نصيرًا للإسلام المتشدد فى السعودية ونـصيرًا لحقـوق

المرأة، مليونيرًا محبًا لعمله، ورجلاً تقيًا ومناورًا ومفكرًا، وصديقًا وفيًا للأمريكيين ومموِّلاً سخيًا للقضايا المعادية لهم" (ص.٧٣٠).

(١٢١) *Mitrokhin, KGB in Afghanistan, p. 104.*

انظر أيضا رواية فيـــنوجرادوف غير الدقيقة فى

See also Vinogradov's own somewhat inaccurate account in "Audientsiia na rassvetie" (Audience at Dawn), Mezhdunarodnaia zhizn (1991).

(١٢٢) الخوميني، رسالة إلى الحجيج في *Algar, Speeches and Declarations.*

الفصل التاسع

الثمانينيات: هجوم ريجان

كان انتخاب رونالد ريجان لرئاسة الولايات المتحدة فى الثمانينيات يمثل تغيرًا فى أسلوب، وليس فى أهداف، السياسات الأمريكية تجاه العالم الثالث. لقد أشار العامان الأخيران لـــچيمى كارتر فى الرئاسة إلى أولويات الإدارة الجديدة – تصعيد الضغوط ضد الأنظمة الراديكالية واكتساب حلفاء جدد فى الحركات المعادية للشيوعية. ولكن فى حين كان كارتر رئيسًا متسلطًا – وكان ما يقيده فى البداية هو التحفظات الأخلاقية وعدم الاتفاق مع مستشاريه، كان ريجان منذ البداية قد ترك السياسة وتنفيذها للآخرين. وكانت النتيجة مجموعة من المبادرات الجديدة المتناقضة أحيانًا، كانت تستهدف أنظمة العالم الثالث المتحالفة مع الاتحاد السوڤيتى، مثل نيكاراجوا وأفغانستان وأنجولا، قام الرئيس بمباركتها جميعًا. لقد أراد الرئيس أن يرى الهزائم السوڤيتية والتغيرات الداخلية فى التوجه السياسى لتلك الدول، لأن تلك التغيرات كان من شأنها أن تؤكد اعتقاده الشخصى بأن بلاده كانت فى صف التاريخ وأن الاشتراكية أصبحت شيئًا من الماضى. لكن رغم أنه كان يناضل ليتجنب آثار حرب ڤيتنام، كان يدرك أن عليه أن يفعل ذلك دون أن يزيد من خسائر الولايات المتحدة جراء هذا الصراع. وكان الالتزام الجديد بسياسة التدخل يعنى إيجاد حلفاء يرغبون فى القتال. لم يكن ريجان يبحث عن دول حراسة إقليمية من تلك النوعية التى كان يفضلها كسينجر – بل كان، أو بالأحرى كان مستشاروه المولعون بالأيديولوچيا، يبحثون عن حركات ثورية من النوع العكسى، حركات يكون لديها أسبابها الخاصة لتجعل الأنظمة الثورية تنزف(١).

كان منهج ريجان استمرارًا للسياسات والأساليب التى وضعها مستشار الأمن القومى لكارتر زبيجنيو بريــچنسكى وفريقه. فقبل الغزو السوڤيتى لأفغانستان بوقت طويل كان بريــچنسكى – بموافقة كارتر – قد بدأ تنفيذ ما أسماه البعض "استراتيــچية القوة المضادة" في العالم الثالث، أى تدعيم أى معارضة يمكن حشدها ضد حلفاء الاتحاد السوڤيتى فى أفريقيا وآسيا. وكان تأييد نظام سياد برى فى الصومال – الذى صنفه أحد مساعدى بريــچنسكى باعتباره رديئًا وغير أهل للثقة – نقطة تحول فى هذا الشأن: فالإدارة الأمريكية التى كانت تناضل من أجل إمدادات فى الأسلحة لحلفائها على المدى الطويل، أصحاب التاريخ الملطخ فى حقوق الإنسان فى ١٩٧٨، كانت ترغب فى البدء فى عملية كبرى لدعم إحدى أكبر الدكتاتوريات وأشدها دموية فى أفريقيا لكى تنتشله من حرب بدأها بنفسه[٢]. وفى ١٩٨٠ كان برى قد وضع فى مصاف الخمير الحمر بكمبوديا والمجاهدين الأفغان، باعتبارهم يستقبلون المساعدات الأمريكية لمحاربة الأنظمة الموالية لموسكو.

ذلك التحول عن أدنى درجات التشكك فى نوعية الحركات التى تستقبل الدعم الأمريكى بشكل مباشر أو غير مباشر، يمكن إرجاعه إلى الاهتمام الشديد لدى النخبة الأمريكية فى أواخر السبعينيات بالموجة الجديدة من التغير الثورى فى العالم الثالث وإلى التدخل السوڤيتى. وبينما كان التأكيد على التحدى الذى يمثله العالم الثالث يرجع جزئيًا إلى صعود اليمين الجديد ونقد الليبرالية فى أمريكا، فإن هذا التأكيد ارتبط أيضًا بالنظرة إلى الثورات باعتبارها نتيجة وليست سببًا للتدخل السوڤيتى. أدى مفهوم الشمولية – الذى قدمه بريــچنسكى وغيره من علماء الاجتماع فى أوائل الستينيات – إلى تطوير نظريات روستو ***rostowian*** عن الحداثة يفرض أنه عندما تعيق الثورة الاشتراكية التطور "الطبيعى" فى دولة ما، فإن الدعم الخارجى وحده هو ما يضع هذه الدولة ثانية على الطريق نحو الديمقراطية والرأسمالية[٣]. أى أنها تعتمد على أمريكا لكى تعيد النظام إلى "الدول حديثة

الاستقلال" التى انحرف بها الاتحاد السوفيتى عن عمد أثناء فترة التهدئة. ولو لم ينجح ذلك فإن أقدار هذه الدول تكون قد انهارت، وليس ذلك فحسب بل تصبح الولايات المتحدة نفسها، مع الوقت، فى خطر محدق(٤).

ورغم أن رونالد ريجان لم يكن ينتمى إلى أى من النظريات الشائعة فقد أصبح منذ منتصف السبعينيات فصاعدًا أحد أهم نقاد "اللافعل" الأمريكى فى العالم الثالث، وأبلغ المتحدثين عن التدخل الأمريكى. أثناء حملة انتخابات ١٩٧٦، وكان هو المرشح الجمهورى ضد الرئيس الموجود آنذاك، جيرالد فورد، استهدف ريجان مفهوم التهدئة بوجه عام:

أبلغ وصف لسياسة الولايات المتحدة الخارجية هو أنها تهيم على وجهها بلا هدف". وأنجولا حالة دالة. لقد أعطينا دعمًا كافيًا لأحد الجوانب لنشجعه أن يحارب ويموت، ولكن هذا الدعم لم يكن كافيًا أبدًا ليعطيه الفرصة لكى يكسب. ولذلك فإن الرابح لا يحبنا والخاسر لا يثق بنا ويرانا العالم ضعفاء وغير واثقين. فلو كانت التهدئة طريقًا مزدوجًا كما يفترض، لكان باستطاعتنا أن نقول للاتحاد السوفيتى أن يكف عن افتعال المشاكل ويترك أنجولا للأنجوليين. ولكن الأمور لم تسر بهذه الطريقة(٥).

فى ١٩٨٠ – ومع تسلم ريجان الرئاسة بعد تلكؤ إدارة كارتر فى خوض معركة ضد الإسلام الثورى، وضع ريجان كل المخاطر والتهديدات للأمن الأمريكى تحت نفس العنوان: "علينا ألا نخادع أنفسنا، إن الاتحاد السوفيتى وراء كل الاضطرابات الحالية. فلو لم يكن منخرطًا فى لعبة الدومينو هذه لما كانت هناك أية

نقاط ساخنة فى العالم"[٦]. كان ريجان يعتقد اعتقادا راسخا بأن السياسة الخارجية السوفيتية تناقض كـــل مـــا تمثله أمريكا، إنها نقيضها تماما، بل لعلها الوجه الشرير للإمبراطورية.

تفتت العالم الثالث وجذور هجوم ريجان

فى خارج الولايات المتحدة وفى أوائل الثمانينيات بدأ مفهوم العالم الثالث – الذى توحده نفس الذكريات التاريخية والقهر الإمبريالى والتحديات فى بناء دولة جديدة واقتصاد جديد – بدأ يتصدع. ورغم أنه، سياسيا، كان هناك ما يقسم أنظمة العالم الثالث أكثر مما يوحده، كان هناك الكثير من هذه الأنظمة حتى منتصف السبعينيات، مستعدة من خلال الأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز أن تظهر شكلا من أشكال الوحدة. وكان قطع البترول بعد حرب ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط، ومساعدة أفريقيا لنظام *MPLA* فى أنجولا حالتين دالتين. أما التحول فى أواخر السبعينيات نحو تأكيد المطالب الاقتصادية من خلال ما يسمى النظام الاقتصادى العالمى الجديد ***New International Economic Order (NIEO)*** – الذى تم تمريره فى البداية باعتباره قرارا للجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٧٤ – فيمكن اعتباره علامة على عدم الوحدة السياسية المتزايدة لدى دول العالم الثالث. ورغم أن النظام الاقتصادى العالمى الجديد كان يحتوى على الكثير من المطالب السياسية أيضا بالإضافة إلى المطالب الاقتصادية – مثل التعويض عن الأضرار الناشئة أثناء الحكم الاستعمارى – فإن رسالته الأساسية كانت إثبات الهوية الأساسية للعالم الثالث كمنتج للمواد الخام. لم تفعل هذه الرسالة الكثير لتوقف الرغبة فى العودة إلى الاختلاف فى مخيلات نخب العالم الثالث؛ بل على العكس، أدت المطالب الاقتصادية إلى زيادة الفرق بين دول العالم الثالث الصناعية وغير الصناعية[٧].

أثناء السبعينيات زاد النمو الاقتصادى فى بعض دول العالم الثالث فى آسيا وأمريكا اللاتينية زيادة كبيرة؛ فوصل متوسط النمو الاقتصادى فى كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونج كونج والبرازيل والمكسيك إلى ٧,٥%[٨]. وكان نمو صادراتهم المصنعة أشد إبهارًا، فقد زاد بمعدل متوسط أكثر من ١٣ % سنويًا فى وقت كانت معظم اقتصادات الدول الغربية تعانى الكساد. فى ١٩٧٩ أصبحت تلك الدول الصناعية الجديدة الست تمد الغرب بنحو ٤٠% من ملابسه المستوردة، وبدأت تنافس من أجل المساهمة فى أسواق السيارات وبناء السفن والإلكترونيات. ورغم بقاء مساحات كبيرة من الفقر، وخاصة فى أمريكا اللاتينية، ورغم بقاء استغلال العمال واستغلال البيئة قائمًا، كانت نجاحات نموذج التنمية القائمة على التصدير تمثل تحديًا مباشرًا للتوجه الجمعى الذى تدين به الكثير من أنظمة العالم الثالث. وعندما سارعت الصين فى أوائل الثمانينيات فى الانتقال الأيديولوجـــى من الاشتراكية إلى الإصلاح القائم على السوق، بدأت أعداد متزايدة من نخب العالم الثالث تتساءل عما إذا كانت الأيديولوچيات الجماعية يمكنها أن تحقق لهم التقدم الاقتصادى الذى يحتاجونه بشدة أم لا[٩].

كانت بداية الثمانينيات وقتًا للإحباط والانتكاسات الكبرى للكثير من الدول الثورية اليسارية التى نشأت فى الستينيات والسبعينيات، ولم تستطع أى دولة منها أن تقدم بديلا متكاملا عن الرأسمالية فى سياساتهم الداخلية، معتمدة فى معظم الأحيان على نماذج مستوردة من أوروبا الشرقية، يتم توفيقها بشكل خاطئ مع ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية. فقط فى حال وجود بنية تحتية لتقديم المواد الخام المهمة إلى الأسواق العالمية، لم تنجح برامج التأميم، وأدت فى الغالب إلى هجرة الكثير من البرجوازيين، الذين يمتلكون العلم والمهارات التقنية. ففى إثيوبيا مثلا هاجر ثلثا النخبة المتعلمة من البلاد فيما بين ١٩٧٤ و١٩٨٠[١٠].

أدى غياب نموذج اقتصادى قومى متكامل إلى زيادة التوتر السياسى داخل تلك الأنظمة، كما أدى إلى زيادة الصراع بينها وبين أعدائها فى الداخل؛ فكانت عندما تفشل أى دولة تستخدم هوية وطنية جديدة كشرعية جديدة لها على الصعيد الاقتصادى، تبدأ بعض المجموعات فى معارضة كل من سياسات الدولة والهوية التى تمثلها تلك السياسات. ففى الكثير من دول العالم الثالث التى بدأت فى أوائل الثمانينيات، اكتسبت الهويات الأصلية أرضية على حساب هوية ما بعد الاستقلال. وكان ذلك الصراع على أشده فى الدول ذات التوجهات الاشتراكية، لأن تلك الأنظمة رفضت من حيث الأيديولوچيا الاعتراف بوجود هويات محلية بخلاف هويتها هى، مما حال دون وجود مفاوضات؛ ولما كان المتمردون المحليون فيها يعتمدون على المساعدات الخارجية، فقد أدى ذلك إلى نشوب الحروب الأهلية. وفى منتصف الثمانينيات كانت معظم التحديات الداخلية غير الإسلامية لأنظمة العالم الثالث اليسارية تأتى من حركات ذات خلفيات إثنية(١١).

تفاقمت التحديات التى تسببها الصراعات على السياسات والهويات بسبب الانهيار الاقتصادى الحاد فى أواخر السبعينيات، وعانت أنظمة العالم الثالث اليسارية من الكساد؛ فقد كانت مقطوعة بالفعل عن المساعدات الغربية الرسمية ولم يكن لديها الكثير من الاهتمام بالتجارة الخاصة أو الاستثمار بسبب سياساتها وبسبب انجذابها إلى شرق آسيا. ولما كان أكثر من ٩٠% من صادرات دول مثل أنجولا وإثيوبيا واليمن الجنوبية ونيكاراجوا من المواد الخام، فقد أصابها انهيار الأسعار فى مقتل حيث انهار دخلها إلى النصف فيما بين ١٩٧٩ و١٩٨٢-١٩٨٣، وقد جعل انعدام المرونة فى نماذجها الاقتصادية الأزمة أسوأ وأسوأ، إذ أدى إلى انهيار المستويات المعيشية وعدم القدرة على مواجهة عواقب الكوارث الطبيعية مثل جفاف ١٩٨٣ والمجاعات فى إثيوبيا(١٢).

وأدى الكثير من العوامل العالمية التي سببت مسلسلات من الأزمات لدى حلفاء الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث إلى ركود في الاتحاد السوفيتي نفسه. ومن ١٩٧٩ فصاعدا، كان هناك انخفاض في نمو الناتج القومي المحلي للاتحاد السوفيتي من ٣% في ذلك العام إلى حوالي٠,٧%، وفقًا لما أشارت إليه تقارير المخابرات المركزية *CIA*. وقالت المخابرات الأمريكية في تقرير رفعته إلى الرئيس إن الاقتصاد السوفيتي "أصبح بطيئًا كالسلحفاة"[١٣]. ورغم أن أسباب الركود الاقتصادي السوفيتي تتعدى حدود هذا الكتاب، فمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الانهيار الحاد في الأسعار العالمية للبترول بدءًا من ١٩٨٢ – وهو السلعة التي تعتمد عليها الكثير من الصادرات السوفيتية الخارجية – قد أسهم في المشكلات الاقتصادية، وحد من قدرة موسكو على التصرف في المسائل الاقتصادية في الداخل والخارج. وكان معنى الدور العالمي الذي يقوم به السوفيت هو أن يستمر كل من الإنفاق العسكري – الذي وصل في أواخر السبعينيات إلى أقل قليلا من ٢٥% من الناتج القومي المحلي – والدعم للدول الاشتراكية، يستمران في الازدياد حتى الثمانينيات؛ رغم أنه كان واضحًا للقيادة أن النقص الذي يسببه ذلك في الداخل مضر اجتماعيا ومرفوض شعبيًا.

كان من الممكن التوفيق بين الفجوة متزايدة الاتساع بين أهداف موسكو العالمية والوسائل المتاحة لتنفيذ تلك الأهداف، لو أن القيادة كانت أصغر سنًا وأكثر مرونة ونشاطًا. فقد كان متوسط أعمار أعضاء المكتب السياسي في ١٩٨١ حوالي سبعين عامًا، وكانت القيادة العليا للحزب الشيوعي تتألف تقريبًا من نفس القادة الذين بدأوا الهجوم الجديد في العالم الثالث في أوائل السبعينيات. هذان العاملان تكاتفا ليجعلا مسألة التكيف أصعب وأصعب، حتى وإن أدرك كل عضو من أعضاء القيادة ("على نحو موضوعي" كما كانوا يقولون) أن التغير السياسي قد يكون مفيدًا، بل ضروريًا. وقد أدرك يوري أندروپوف الذي تولى منصب الأمين

العام بعد وفاة ليونيد بريـــچينيف فى نوفمبر ١٩٨٢ مخاطر "التوسع الزائد" لأنه بوصفه رئيسا للمخابرات كانت لديه القدرة على الوصول إلى المعلومات المخابراتية الفريدة[٤١]. وفى مواجهة معاداة السوفيتية لدى إدارة ريجان انشغل أندروبوف تحديدًا بالحد من العداء بين الاتحاد السوفيتى والدول الأخرى، وخاصة الصين وأوروبا الغربية، وأيضا اليابان وجنوب شرق آسيا.

ولكن القيادة السوفيتية لم يكن لديها حلول للمعضلة السوفيتية. فنرى أن النقاش فى المكتب السياسى فى ٣١ مايو ١٩٨٣ كان هو النقاش المعهود فى تلك الآونة؛ فبعد أن أخبر الأعضاء بجنازة أخرى فى الدائرة الداخلية، راح الأمين يشتكي من الموقف الذى بات فيه الاتحاد السوفيتى على الصعيد العالمى

لو نظرتم إلى الأحداث الدائرة فى الدول الغربية لقلــتم إن تحالفًا ضد السوفيت يتكون هناك. وبــالطبع هــذه ليست مصادفة، وإنه لأمر جد خطير... علينا أن نجــد حلا وسطا فى علاقتنا باليابان. فمثلا علينـــا أن نفكــر فى استغلال مشترك لتلك الجزر الصغيرة التى لا أهمية استراتيــچية لها. وربما يكون هناك مقترحات أخرى. إننى شخصيًا أعتقد أن اليابان بوسعها أن تبدأ تعاونًـــا أكثرنـــشاطا مـــع الاتحـــاد السوفيتى علـــى الـــصعيد الاقتصادى[١٥].

مثل تلك الأفكار النيرة كانت تتطاير فى ١٩٨٣-١٩٨٤ بشأن عدد من الدول ولكنها كلها لم تأت بأى ثمرة، بما أن موسكو لم تشأ أن تلمس القضايا الرئيسية التى أدت إلى الصراع مع تلك الدول فى المقام الأول. فرئيس الوزراء اليابانى ناكاسونى ياسوهيرو مثلا، لم يكن لديه أى بادرة لإشعال غضب واشنطن

بالتعاون مع موسكو فى أى مجال، حتى التجارة، ما دام أن مناقشة أمر السيادة فى الجزر الشمالية كان أمرًا يحَرِمه السوڤيت.

لم يكن لدى أندروپوف أى علاج للعداء المتزايد من المجتمع الدولى للاتحاد السوڤيتى إلا الإطراء على تعقل المستفيدين الأجانب من السوڤيت والعمل باجتهاد فى الداخل. نفس التفكير الأيديولوچى القائم على التدخل الذى أدى بالاتحاد السوڤيتى إلى الصراع مع الكثير من الدول حديثة التطور، والتى كان من الممكن إيجاد علاقة اقتصادية أقرب معها – مثل كوريا الجنوبية أو دول جنوب شرق آسيا – هو نفسه الذى منع الاتحاد السوڤيتى من اتخاذ التعديلات المطلوبة لتجنب العزلة العالمية. وفى حين أثبت حلفاء الاتحاد السوڤيتى من العالم الثالث أن دوره دور قوة عظمى، كان هؤلاء الحلفاء عبئا ثقيلا عندما قرر الاتحاد السوڤيتى الحد من التوتر مع الدول الرأسمالية.

وفى حين كان رونالد ريجان وبعض مستشاريه مقتنعين أن الاتحاد السوڤيتى على الجانب الخاسر من التاريخ، لم يستطع أى منهم أن يفهم مدى تغير وجهات النظر فى داخل القيادة السوڤيتية نفسها. وفى حين كانت الإدارة الأمريكية متحدة فى رطانتها على إدانة السلوك السوڤيتى، كانت منقسمة على نفسها بين معتدلين وراديكاليين فى النقاش حول مدى قدرة الولايات المتحدة على مواجهة الاتحاد السوڤيتى دون المخاطرة بالحرب. الكثيرون فى الولايات المتحدة وأوروبا كانوا يعتقدون أن أى إدارة أمريكية قادمة عليها أن تعتدل فى خطابتها عندما تمسك بزمام السلطة، لذا كانت الشهور الأولى فى إدارة ريجان صدمة بالنسبة لهم: فمنذ اليوم الأول والراديكاليون هم من يضعون أچندة الإدارة – وهم من كانوا يعتقدون فى أهمية أچندة مالية صارمة والحاجة إلى تراجع دور الاتحاد السوڤيتى فى العالم الثالث – حتى وإن كانوا يعتمدون فى تنفيذ تلك الأچندة على رموز مثل وزيرى

خارجية ريجان ألكساندر هيج *Alexander Haig* (١٩٨١-١٩٨٢) وچورچ پ.شولتز *George P.Shultz* (١٩٨٢-١٩٨٩)؛ وكان الراديكاليون يكتسبون قوتهم من خلال شعورهم بأهمية مهمتهم واعتقادهم أنهم ينفذون الوعود التى قطعها الرئيس أثناء الانتخابات. وكان انخراط ريجان فى بعض الأحيان فى صنع السياسة يؤكد أنه يدعم الخيارات الراديكالية، أكثر من دعمه لتلك المعتدلة التى كانت تأتى من البنتاجون ووزارة الخارجية[١٦].

الأسباب الرئيسية التى جعلت الرئيس يقضى الفترة الأولى من الرئاسة محاولا أن يضع بعض المبادئ الرئيسية فى سياسة تدخل الولايات المتحدة فى العالم الثالث، كانت هى عدم الخبرة السياسية لدى الراديكاليين، والخلافات بين مستشارى ريجان الأساسيين، والمقاومة من قبل المسئولين المعروفين. بعض الراديكاليين، عندما يستعيد ما مضى، يشير إلى عامى ١٩٨١-١٩٨٢ بـــاعتبارهما العامين الضائعين" لأنه لم يتم فيهما اتخاذ أى خطوات ملموسة للاشتراك فى الحرب ضد أنظمة العالم الثالث التى كان يدعمها الاتحاد السوفيتى[١٧]. الراديكاليون مثل ريتشارد بيرل وفرد إيكلى فى الدفاع وريتشارد پايپس فى مجلس الأمن القومى، أصيبوا بالإحباط عندما وجدوا أن المسئولين الأكثر خبرة كانوا يستهزئون بأفكارهم، حتى عندما كانت نفس تلك الأفكار، بعد وضعها فى إطار أكثر اعتدالا، يتم تداولها فى التصريحات السياسية الرئيسية للإدارة. وأدت الذكريات السعيدة لدى البعض منهم، وقت أن كانوا ينتقدون الحكومة من الخارج، إلى الاستقالة فى امتعاض. فقد ترك ريتشارد پايپس – وهو أستاذ التاريخ المتحمس الذى أصبح فيما بعد أكبر المتخصصين فى الشأن السوفيتى فى مجلس الأمن القومى – ترك الإدارة ليعود إلى جامعة هارفـــارد فى ١٩٨٢[١٨].

فــى الــوقت نفسه كــان المعتدلون مثل وزيــر الخارجية ألكساندر هيج *Alexander Haig* يحاولون أن يستخدموا رطانة ريجان لغرس الرعب فى نفوس معارضى أمريكا من العالم الثالث لكى يغيروا سلوكهم. وكان منهجه مشابهًا للمنهج الذى اقترحه عندما كان رئيسا للأركان فى إدارة ريتشارد نيكسون فى أوائل السبعينيات: اجعل العدو يرى أن الرئيس الأمريكى "مجنون"، بوسعه استخدام القوة المفرطة لحل الصراعات العالمية. فى آخر نوفمبر ١٩٨١ التقى هيج سرًا بوزير خارجية كوبا رودريجوس فى المكسيك للضغط على هافانا.

> **فى ١٩٧٥ شهدنا موقفًا جعلنا نــستنتج أن القيــادة السوفيتية تقيم التغيــرات التــى وقعــت فــى بلادنــا باعتبارها ذات طبيعة جيوسياسية - إننى أتحدث عــن ووترجيت والحرب فى فيتنام. وكــان ذلــك واضــحًا وضوحًا جليًا فى توسيع النشاط فى جنوب شرق آسيا وفى شمال غرب آسيا وغربيها. بهذا الأسلوب كــان هناك ميل - صحيح أو خاطئ - للاعتقاد بــأن هنــاك اتفاقا بين موسكو وهافانا فى الكثيــر مــن الأنــشطة العالمية، على الأقل اتفاق سرى، إن لم يكــن معلنًــا. وقد خلق كل ذلك حالة فى الولايــات المتحــدة أتــت بالسيد ريجان إلى السلطة(١٩).**

كان مهما أيضًا بالنسبة للراديكاليين الإشارة إلى المخاطر التى كانت الثورات بالكاريبى وأمريكا الوسطى توجهها إلى الولايات المتحدة، لأنهم كانوا يعرفون أن الرئيس يعتبر هذه منطقة لإثارة الهجمات ضد الولايات المتحدة. وبعد ستة أسابيع فقط من صعوده إلى السلطة كان ريجان يتحدث عما:

تعلمناه من التورط الفعلى للاتحاد السوفيتى وكوبا ومنظمة التحرير الفلسطينية وحتى القذافى فى ليبيا وغيرها من شعوب الكتلة الشيوعية بأن الشيوعية تأتى بهذا الإرهاب إلى هناك [فى السلفادور].... ومن الأمور الدالة أن الإرهابيين، العصابات فى السلفادور، كان يفترض أن يقوموا بثورة وأن تسقط الحكومة لأن الناس سوف ينضمون إلى هذه القوة المعتدية ويدعمونها. ولكن ذلك لم يحدث، فالشعب كان ضد ذلك تماما[٢٠].

كانت مشكلة توسيع التورط الأمريكى فى أمريكا الوسطى هو خوف الرئيس من أن يعتبر الشعب الأمريكى ذلك مقدمة نحو فيتنام أخرى. كان لابد إذن من أن يكون التدخل الأمريكى خفيًا، معتمدًا بالأساس على القوى المحلية لتقوم بالقتال. وكان لابد من التركيز أولا على السلفادور و، بدرجة أقل، على جواتيمالا – فالغالبية داخل الإدارة فى ١٩٨١ و١٩٨٢ كانت ترى أن تراجع الثورة فى نيكاراجوا نفسها سيكون أمرًا مكلفًا للغاية، على الأقل حتى يتم استئصال الحركات الثورية فى كل أمريكا الوسطى. لكن قلة منهم كانت تتحدث عن استنتاج عكسى: وأنه فقط باستئصال نظام ساندينستا فى نيكاراجوا، يمكن القضاء على مصدر "عدم الاستقرار" فى المنطقة. أما بالنسبة للراديكاليين فى عهد ريجان، كانت أمريكا الوسطى مؤشرًا على مكانة الولايات المتحدة على الصعيد العالمى: لو فشلت هناك فإنها تكون قد خسرت الحرب الباردة.

الحرب فى نيكاراجوا

لم تكن عداوة الولايات المتحدة للثورة فى نيكاراجوا بالأمر المستغرب للزعماء الذين أمسكوا بزمام السلطة فى ١٩٧٩. سميت جبهة سانديniستا للتحرير

الوطني *Frente Sandinista de Liberacion Nacional* على اسم زعيم العصابات الراديكالي أوجستو ساندينو *Augusto Sandino*، الذي قتل في ١٩٣٤ على يد الحرس الوطني المدعوم من قبل الولايات المتحدة. كان الحرس في السبعينيات، كما في الثلاثينيات، يترأسه أفراد من أسرة سوموزا *Somoza dynasty* وهي أسرة حكمت نيكاراجوا خمسين عاما وأدارتها وكأنها ضيعتها الخاصة. كان الشعار الأساسي لحركة ساندينو "يسقط سوموزا" – صيحة يطلقها الفقراء للثورة، ودعوة للوحدة لدى الطبقات المختلفة واتهاما لأمريكا بدعمها لنظام فاسد على مدار سنوات طوال.

كانت جبهة ساندينيستا واحدة بين كثير من الحركات السياسية في أمريكا اللاتينية، التي نشأت في أعقاب الثورة الكوبية واعتبرتها نموذجا لها. وكانت الأشد راديكالية بين حركات المعارضة في نيكاراجوا، ولذا كان النقاد الليبراليون لسوموزا والحزب الشيوعي الصغير بالدولة ينتقدانها لإصرارها على إعطاء الأولوية للكفاح المسلح. أما الأسوأ لأعضاء الجبهة أنفسهم أنهم لم يكونوا على وفاق فيما بينهم حول كيفية القيام بثورة، حيث انشقوا إلى ثلاثة فصائل (على الأقل)، وبالتالي فشلت محاولاتهم المختلفة لإعادة إحياء الحركة فشلا ذريعًا في أواخـــر الستينـــيات وأوائل السبعينيات. ومع وفاة معظم القادة الأصليين للجبهة، أو لوجودهم بداخل السجون، تُرك أمر الحركة لمجموعة من الشباب كان معظمهم من طلاب الجامعات والمدارس العليا لإنقاذها[٢١].

على عكس الأعمال الأكثر رسوخًا في الجبهة، لم يكن لدى الأخوين أورتيجا ـــــ دانيل وهومبرتو – اللذين ترأسا فصيل تريسريستا *Tercerista* الجديد – أي خطط راسخة أو محددة عن كيفية الإطاحة بأناستاسيو سوموزا آخر أفراد الأسرة. وكما يشير اسمها، كان الهدف الأساسي من مجموعة أورتيجا هو العمل كـــ"بديل ثالث" والتوسط بين الفصائل الأخرى، ولكن كما هو الحال في المنظمات اليسارية – انتهى بها الحال أن أصبحت فصيلا متماسكًا في حد ذاتها. في ١٩٧٧ كان انتهاء

الفصائل القديمة قد جعل أصحاب هذا الفصيل الجديد "تريسريستا" أقوى المتنافسين على السلطة في جبهة ساندينستا، وكان بحثهم عن استراتيـــچية قد أفضى بهم إلى مزيج من المواقف اللينينية والشعبية التي اجتذبت الدعم حتى من الأعضاء القدامى في الحركة.

في يناير ١٩٧٨ حالفهم الحظ؛ اغتيل أحد أهم المعارضين الليبراليين لسوموزا ويدعى پدرو چواكين شامورو ***Pedro Joaquin Chamorro*** في ماناجو، وكانت عدم الكفاءة الرجعية لسوموزا قد أغضبت كلا من إدارة كارتر والغالبية العظمى للبرجوازية في نيكاراجوا. أدى الاغتيال إلى مظاهرات بالشوارع وإضراب عام – الذي كان رغم فشله – دلالة واضحة على المعارضة المتنامية لنظام سوموزا. وأرسى أعضاء تريسريستا جبهة معارضة – ترأسها غير الساندينستيين – ساعدت على خفض التوتر بين اليسار والمقاومة الليبرالية للحكومة. في أغسطس احتلت عصابات ساندينستا برئاسة إيدن باستورا ***Eden Pastora*** البرلمان في وسط العاصمة ماناجو ولم يتم الإفراج عن الرهائن إلا بعد أن تم إطلاق سراح معظم القادة الأصليين من السجون.، أدى نجاح حملة أغسطس إلى ثورات ضد الحكومة في الأحياء الفقيرة حول العاصمة، ثورات حاول سوموزا إخمادها باستخدام القوات الجوية التي أمدته بها الولايات المتحدة. في أوائل ١٩٧٩ كان واضحا لواشنطن أن سوموزا قد أصبح عقبة أمام سياسات الاعتدال في أمريكا الوسطى، وأسقط البيت الأبيض برنامج المساعدات العسكرية، ومنع مشاريع المساعدات الاقتصادية الجديدة في محاولة لخلعه من السلطة. وعندئذ بدأت فنزويلا وبنما – ويحكـــم كلتيهما نظامـــان غيـــر اشتراكيين – بإمداد الساندينستيين بالأسلحة والتدريب(٢٢).

طوال فترة الثورة في نيكاراجوا كانت إدارة كارتر تفكر في العواقب من ناحيتين. فمن ناحية كانت تريد خلع سوموزا ومن ناحية أخرى كانت تريد أن تتجنب قيام نظام اشتراكي راديكالي في نيكاراجوا؛ كان بالقطع سيتحالف مع كوبا. في منتصف ١٩٧٩ مع تقدم قوات جبهة ساندينيستا للتحرير الوطني نحو ماناجو، قال أحد أعضاء الإدارة الأمريكية إنه "لا جدوى من الحديث ثانية عن خلع سوموزا لأنه لا يوجد معتدلون ليحلوا محله؛ ولا جدوى من إنقاذه لأنه في الجانب الخاسر"[٢٣]. في مجلس الأمن القومي جادل بريـــجنسكي من أجل تدخل أمريكي مباشر قائلا بأنه في وجود "تداعيات داخلية وعالمية كبرى... ستعتبر الولايات المتحدة غير قادرة على التعامل مع المشكلات في فنائها الخلفي". ولكن الرئيس لم يستطع أن يتخذ القرار. ورغم أن الولايات المتحدة نصحت بوقف إطلاق النار وقيام حكومة مصالحة وطنية وتدخل من قوات *OAS* – وكل ذلك من أجل أن تمنع انتصار ساندينيستا – فإن ماناجوا سقطت في أيدي جبهة ساندينيستا للتحرر الوطني في منتصف يوليو، وهرب سوموزا إلى ميامي. كان ذلك أول انتصار ثوري في أمريكا اللاتينية لأكثر من عشرين عامًا، وكانت السرعة التي تحقق بهـــا مفاجأة، لا لسوموزا والأمريكيين فحسب وإنما للثوريين أنفسهم.

عندما تولت جبهة ساندينيستا للتحرر الوطني السلطة باعتبارها الجزء المسيطر من الحكومة الائتلافية في يوليو ١٩٧٩، كانت بالاعتبارات السياسية عبارة عن مزيج من أغلبية من الراديكاليين الوطنيين المعادين للولايات المتحدة بشدة، وعدد صغير من الماركسيين مثل الأخوين أورتيجا (دانيل، الذي أصبح الشخصية القيادية في المجلس السياسي وهومبرتو وزير الدفاع)، وتوماس بورج الذي أصبح وزيرًا للداخلية. حتى تلك المجموعة الأخيرة، كانت تؤمن بشكل من أشكال الماركسية حيث ينضم ساندينو إلى ماركس ولينين. كان كل أعضاء ساندينيستا عالميين، يحتفون بالمساعدة التي تلقوها من كوبا ويدّعون الرغبة في مساعدة الثوريين في

دول أمريكا الوسطى الأخرى وعلى رأسها السلفادور وجواتيمالا. ولكن هدفهم الأساسي في ١٩٧٩ كان إعادة بناء دولة تسببت الحرب وإرهاب سوموزا فيها، في تشريد نصف المليون شخص وتدمير الاقتصاد. كان أسلوب أعضاء ساندينيستا يقوم على التأميم واستصلاح الأراضي، وهي السياسات التي كانت شائعة وشعبية لدى معظم أهالي نيكاراجوا، لكنها كانت السياسات نفسها التي أغضبت الحلفاء البرجوازيين السابقين، وجعلتهم ينقلبون على النظام[٢٤].

كذلك كانت السياسات الخارجية لأعضاء ساندينيستا محل جدل في نيكاراجوا. ففي حين اتفق الكثيرون من أهالي نيكاراجوا مع رغبة النظام الجديد في مساعدة الثوريين في دول أمريكا الوسطى الأخرى، كانوا يخشون من تأثيرها على نيكاراجوا، خاصة نتيجة للإجراءات الأمريكية المضادة. بالمثل، شعر معظم أهالي نيكاراجوا بالدين تجاه كوبا لمساعدتها لهم أثناء الحرب مع سوموزا، ولكنهم في الوقت نفسه شعروا بأن قادة ساندينيستا متقاربون قليلا مع فيدل كاسترو. أما فيما يخص الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة فكانت آراؤهم أكثر انشقاقا. ولجهلهم بـ"الاشتراكية الحقيقية الموجودة" واهتمامهم الضئيل بها، لم يكن لديهم رأي في الموضوع. ولكن بالنسبة للطبقة البرجوازية ومعظم المثقفين – الذين تربوا لسنوات على الدعاية الأمريكية المعادية للاتحاد السوفيتي – فكانت أي علاقة بالاتحاد السوفيتي غير مقبولة، حتى بالنسبة لأولئك الذين ساندوا في خلع سوموزا.

بالنسبة لأعضاء ساندينيستا فكانوا يبحثون بشغف عن سياسة عالمية للثورة وعلاقات مع الدول الاشتراكية التي لم تكن لتقطعها المعارضة في الداخل. كان ذلك جزءا من مهمتهم. وكما شرح توماس بورج "هذه الثورة تذهب لأبعد من حدودنا... لقد كانت ثورتنا دائما عالمية منذ أن حارب ساندينو في لا سيجوفيا. وكان معه عالميون من جميع أنحاء العالم ... وكان معه الزعيم السلفادوري العظيم

فارابوندو مارتى *Farabundo Marti*"[٢٥]. وفى الأسابيع الأولى من توليهم السلطة، كشف أعضاء ساندينيستا دعمهم لجبهة التحرير الوطنية لمارتى فى السلفادور، كما أعلنوا، على الملأ أنهم يريدون دعم الحركات الثورية الأخرى التى تحارب الظلم والقهر. حتى فيدل كاسترو الذى أرسل مستشارين إلى ماناجوا والذى كانت تربطه علاقات وثيقة مع زعماء ساندينيستا (فقد تدرب دانيل أورتيجا فى كوبا) كان قلقًا من أن تثير نيكاراجوا رد فعل من الولايات المتحدة. ولكن ذلك كان بالنسبة لأورتيجا كما كان لكاسترو قبل عشرين عامًا – هدفًا من أهداف ثورته: من خلال الثورات فى كل مكان أظهرت دولته تضامنًا عالميًا مع الآخرين؛ الأهم من ذلك أنها أظهرت استقلالها وسيادتها فى مواجهة الولايات المتحدة[٢٦].

عندما حاولت إدارة ريجان الجديدة فى أغسطس ١٩٨١ الضغط على أعضاء حركة ساندينيستا لإنهاء دعمهم للثورة فى السلفادور فى مقابل سياسة أمريكية أقل عداء، أجاب دانيل أورتيجا بأن نيكاراجوا "تهتم برؤية العصابات فى السلـــفـــادور ونيكاراجوا وهى تنتصر ... [إنها] درع لنا – تجعل ثورتنا أكثر أمانًا"[٢٧]. وعندما سخر مبعوث الولايات المتحدة مساعد وزير الخارجية، توماس إندرز *Thomas Enders*، من فكرة أن تصمد نيكاراجوا فى وجه الغزو الأمريكى، أجاب أورتيجا بأن أعضاء ساندينيستا قد قرروا "أن يدافعوا عن ثورتهم بالسلاح، حتى وإن تم تدميرنا، وأن نجعل الحرب فى أمريكا الوسطى كلها لو كانت تلك هى النتيجة"[٢٨]. ولكنه أضاف: "إننا لسنا انتحاريين" وإن ماناجوا تريد استمرار الحوار مع واشنطن.

كان النظام الجديد فى ماناجوا أكثر حذرًا فى الاقتراب من السوفيت والأوروبيين الشرقيين. وكان هذا الحذر يتفق مع نصيحة كاسترو وموسكو نفسها – فى اللقاءات التى عقدت فى كوبا فى ١٩٧٩ و١٩٨٠ – بأن أعضاء ساندينيستا بوسعهم أن

يثيروا رد فعل قويا جدا من الولايات المتحدة، إذا أقاموا علاقات مفتوحة ومكثفة مع الدول الاشتراكية. داخليا، كما نرى من الوثائق السوفيتية، كانت نظرة موسكو الأولى تنحصر في كون الثورة في نيكاراجوا اقتراحا غير أكيد، حيث إن أى مساعدة سوفيتية مباشرة قد تصبح خسارة أو ذات نتيجة عكسية. في الوقت الذى ضعفت فيه الشهية السوفيتية للتدخل في العالم الثالث، كانت الإدراة الدولية والمخابرات السوفيتية تنصح بالوقوف موقف الانتظار مع تمرير معظم المساعدات السوفيتية من خلال الكوبيين. ورغم اتفاق كاسترو مع المنهج الحذر - لأسباب تكتيكية - ظل يشعر بأن السوفيت عليهم أن يفعلوا المزيد من حيث المساعدات والدعم. كذلك جادل الألمان الشرقيون، الذين كانت تربطهم علاقات قوية بهافانا، جادلوا في ١٩٨٠ بالحاجة لبذل المزيد من أجل نيكاراجوا، وأقاموا علاقات مع زعماء ساندينيستا(٢٩).

في منتصف ١٩٨١، مع زيادة ضغوط إدارة ريجان على نيكاراجوا، كان السندنيستيون قد نالوا ما يكفيهم من حذر الكتلة الشرقية. أخبر عضو جبهة ساندينيستا كارلوس نونيز تيللى *Carlos Nunez Tellez* الألمان الشرقيين في يوليو، وهو يتعجب لعدم وصول أى مساعدات، بأن "الدول الاشتراكية وخاصة ألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتى وكوبا كانوا هم الأشقاء الحقيقيون لنيكاراجوا"(٣٠). ورغم أن ماناجوا كانت تستقبل أسلحة مصنوعة في الاتحاد السوفيتى منذ الأيام الأولى للثورة - في الغالب من كوبا - حاول توماس بورج جاهدًا الحصول على المزيد من المساعدات أثناء زيارته لموسكو في أغسطس ١٩٨١. في نوفمبر زار هومبرتو أورتيجا الكرملين وحصل على أول اتفاقية دعم عسكرى كبرى اشتملت على دبابات، وصواريخ أرض جو، وطائرات هليكوبتر. وبعد الزيارة ساعد في وضع نظام معقد لتسلم الأسلحة، منها تسلم أسلحة من الجزائر (التى كانت داعمًا للثورة في نيكاراجوا من البداية) وبلغاريا وفيتنام (التى أمدت نيكاراجوا بأسلحة

أمريكية تم الاستحواذ عليها) بالإضافة إلى إمدادات مباشرة من الاتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقية وكوبا. وكان دانيل أورتيجا قد شرح في مقابلة سابقة أن "نوع الدعم الذي تستطيع كوبا منحه لنا محدود للغاية لأنهم لا يقومون بتصنيع الأسلحة بالكميات التي نحتاجها، لذا فقد لجأنا إلى الجزائر والاتحاد السوفيتي للمساعدة"(٣١). في ١٩٨٤، في ذروة الصراع بين الولايات المتحدة ونيكاراجوا، قام حلفاء ماناجوا بإمدادها بكميات كبيرة من المعدات العسكرية الثقيلة، كانت تكفي لتحميل الغزو الأمريكي تكاليف باهظة، حتى وإن كانت المساعدات المدنية أقل كثيرًا مما كان يأمل السندينستيون(٣٢).

من قبل أن يتقلد رونالد ريجان منصب الرئيس، كان ومناصروه السياسيون يرون أن الثورات في أمريكا الوسطى تمثل تهديدًا مباشرًا للولايات المتحدة. ورغم حذره الشديد من التدخل المباشر ضد السندينستيين – رغم خطابته كان يكره أن يرى الخسائر الأمريكية في الصراعات في العالم الثالث – كان مصرًا أن يحتوى الثورة في نيكاراجوا ويمنع السندينستيين من منح المساعدة لثورات أخرى، وعلى رأسها الثورة في السلفادور. أخبر ريجان مراسل شبكة ***CBS*** والتر كرونكيت، في لقاء معه في مارس ١٩٨١ "أن السوفيت يحاولون أن يفعلوا في السلفادور ما فعلوه في أفغانستان دون أن يستخدموا قوات سوفيتية، وإنما من خلال قوات بالوكالة من خلال كوبا والعصابات"(٣٣). في ١٩٨٤، كانت نظرة الرئيس إلى السندينستيين قد تجسدت في صورة ساخرة حيث "شعب نيكاراجوا محاصر في السجون الشمولية، تحاصره ديكتاتورية عسكرية تزيده فقرًا، بينما يعيش حكامه في رفاهية مميزة ومحصنة، ويرسخون ثورتهم بنشرها لدى جيران نيكاراجوا أيضًا. إنها ديكتاتورية مهينة، وخطيرة، بسبب التواجد غير المرغوب فيه لآلاف من الكوبيين والسوفيت ومساعديهم من العرب الراديكاليين"(٣٤).

أصبحت السياسة الأمريكية فى أمريكا اللاتينية بالنسبة للكثير من الراديكاليين اليمينيين فى إدارة ريجان ساحة الحرب الداخلية المفضلة لفرض شكل جديد وأكثر عدائية عن الحرب الباردة، حل محل ما كانوا يرونه خواء أخلاقيًا لدى كيسنجر، واضطرابًا أخلاقيًا لدى كارتر. وكما يقول روبرت كاجان، وكان فى وزارة الخارجية وقتذاك، فإن الراديكاليين كانوا يحاولون الفوز فى "المعركة الداخلية من أجل الروح الأمريكية والمعركة الاستراتيـــچية على الاتحاد السوفيتى"، عن طريق الحصول على الدعم لخوض الحرب ضد الشيوعية فى أمريكا اللاتينية. وقام چين ج. كيركپاتريك ***Jeane J.Kirkpatrick***، وكان سفيرًا لأمريكا فى الأمم المتحدة، أحد أصوات المحافظين الجدد فى الإدارة، بتقريع كارتر لأنه لم يفهم المصالح الأمريكية:

> **لأن إدارة كارتر فشلت فى فهم المواصفات الأساسية للنظم السياسية فى أمريكا اللاتينيـــة، فقـــد اســـتهانت بضعف النظام فى تلك المجتمعات، وبالغت فى تقـــدير السهولة والبساطة التى يمكن بها استعادة السلطة إذا ما فقدت. ولأنهـــا رأت أن الثـــورات عوامـــل مفيـــدة للتغير، فشلت فى فهـــم أهـــدافها ودوافعهـــا، وفهـــم مشكلات الحكومات التـــى أصـــبحت عرضـــة للعنـــف الثورى(٣٥).**

كان الغزو الأمريكى لجمهورية جريـنادا ***Grenada*** الكاريبية فى ١٩٨٣ ، وكانت تحت السيطرة اليسارية منذ مارس ١٩٧٩، هو نقطة التحول نحو استراتيـــچية أكثر هجومًا على الأنظمة الثورية. وعندما قامت القيادة الثورية بتدمير نفسها بنفسها فى انفجار من الاقتتال الفصائلى فى أوائل أكتوبر ١٩٨٣، كان الراديكاليون

في إدارة ريجان يرون ذلك فرصة ذهبية لتحقيق انتصار أخير في العالم الثالث. في ٢٥ أكتوبر قامت القوات الأمريكية بالغزو وفي غضون أيام أمنت السيطرة على سكان جرينادا وتعدادهم مائة ألف نسمة. ورغم أنه حتى أشد مناصري الحرب الباردة ما كان ليرى في الاستيلاء على الجزيرة جائزة كبرى في السياق العالمي، فإن نجاح التدخل الأمريكي فيها أعطى دفعة للراديكاليين. فقال أحدهم "لقد أثبتت جرينادا أن الأمر يمكن أن يتم، أثبتت أن الجرأة والإصرار يمكن أن يهزما الشيوعيين"(٣٦). وبذلك أسهمت جرينادا في تطوير استراتيـــجية عالمية مضادة للثورة.

كانت الحرب السرية التي بدأتها إدارة ريجان على نيكاراجوا مستمرة في ١٩٨١. في البداية قامت المخابرات الأمريكية *CIA* بتدعيم القوات المعادية لساندينستا وإمدادها، وكان معظمها من الحرس الوطني لسوموزا، التي تلقت تدريبًا على يد الضباط الأرجنتينيين في هندوراس. وتدريجيا، ورغم المعارضة الشديدة من قبل الكونجرس الأمريكي، وسع البيت الأبيض الحرب، من خلال أساليب شرعية وغير شرعية، كما اتضح فيما بعد، إلى التسليح والتدريب والإمداد وتوجيه جيش معاد للثورة قوامه أكثر من خمسة عشر ألف رجل، ما سموا "الكونترا" *Contras*. وفي وجود قوات تعمل في داخل نيكاراجوا وعلى حدودها، كانت تلك هي أكبر عملية للمخابرات المركزية في أمريكا اللاتينية منذ عملية خليج الخنازير *Bay of Pigs* في ١٩٦١، وكانت قضية اتخذت مواصفات الحملة الكبيرة في نظر بعض مناصري ريجان. وأعلن وكيل وزارة الدفاع فريد إيكل ***Fred Ikle*** "أننا لا نبحث عن هزيمة عسكرية لأصدقائنا؛ ولا نبحث عن ورطة عسكرية، بل نبحث عن انتصار قوى الديمقراطية"(٣٧). وفعلت الإدارة أقصى ما في وسعها لتقنع السندينستيين ومناصريهم بأنها كانت جادة: لدرجة أن المخابرات المركزية لغمت الموانئ الرئيسية في نيكاراجوا لكي تمنع الإمدادات من الوصول إلى الحكومة. في

منتصف الثمانينيات، رغم النجاح العسكرى المحدود كانت حرب الكونترا قد دمرت الثقة الداخلية فى نظام ساندينستا.

ومع القوة العسكرية والاقتصادية التى وجهت ضد السندينستيين، كان السبب فى صمود حلفائهم من العصابات فى السلفادور هو قوة برامجهم السياسية. فأولئك الذين انضموا إلى الحركات الثورية كانوا يحاربون من أجل أرضهم وكرامتهم ضد الظالمين، سواء كان هؤلاء الظالمون هم ملاك الأراضى السابقون أو جيوش التدخل الخارجى. فى دراستها عن مشاركة السندينستيين فى الثورة فى السلفادور، استشهدت العالمة السياسية إليزابيث وود ***Elisabeth Wood*** بعبارات أحد هؤلاء النشطاء:

> **قبل الحرب، كان الأغنياء يحتقروننا. كانوا يروننا حيوانات تعمل ليل نهار، ثم لا نملك ما يكفينا لنعلم أبناءنا فى المدارس. فذاك هو السبب الجذرى للحرب: أننا لم نكن نملك بديلا، بل البديل الوحيد هو الاستسلام لليأس(٣٨).**

ويشرح أحد قادة جبهة التحير الوطنى فى السلفادور كيف وظفت العصابات هذا اليأس فى التعبئة العامة:

> **لقد وجدنا استقبالا جيدًا والكثير من المشاركة. كان التوزيع غير العادل للأراضى هو أحد الأسباب الرئيسية... ذلك الرفض لم يمكن التعبير عنه حتى ظهرت وحدات العصابات، مما أعطى آمالا فى التغيير. ولذا استطعنا أن نسمع نداء من أجل الثورة. أصررنا أن تنقص مساحة التاريا *tarea* [وهى المنطقة من**

ضيعة البن تعطى للعامل لكى يشذبها وينظفهـا مـن الأعشاب الضارة]... [وإن لم نفعل] كان من المستحيل أن نواكب موجة الدعم المقدم لنا[٣٩].

الرفض الأمريكى لدفع حكومة اليمين التى دعمتها نحو المفاوضات جعل الحرب على منطقة السلـفـادور الصغيرة أكثر وحشية. وصرح فريد إيكـل "إننـا لا نستطيع أن نتفاوض بشأن حل سياسى مقبول مع أولئك الناس، كما لم يستطع الديمقراطيون الاشتراكيون فى روسيا الثورية أن يتحدثوا مع لينين بشأن ترك البولشفية الشمولية" لقد وجد ريجان أن "العصابات

ليست مجرد مجموعة من الفلاحين أخذوا بنادقهم فى أيديهم وأرادوا أن يقوموا بثورة لأن الحكومـة كانـت طاغية. إنهم أناس مدربون عسكريًا، يسلحهم الاتحـاد السوفيتى وكوبا من خلال نيكاراجوا، التـى أصـبحت قاعدة اشتراكية فى هذه الدولة، لها إدارتها الخاصـة. أحد قادة محاربى العصابات ذكر علنًا منذ أيام، نعـم، إنهم أصدقاء للاتحاد السوفيتى؛ نعـم لقـد أرادوا أن يأتوا بالشيوعية إلى نصف الكرة الغربى[٤٠].

فى نيكاراجوا قلصت الحرب المساحة السياسية للسندنيستيين للمناورة، وجعلت القادة أكثر ديكتاتورية وعدم تسامح مع أى شىء لا يتوافق مع مخططاتهم الاجتماعية. وازدادت المقاومة للحكومة الجديدة لدى الأقلية فى ميسكيتو ***Miskito*** على الساحل الشرقى، فى الغالب بسبب الخطط غير المنظمة للتغيير الاجتماعى والاقتصادى، وتنامى الخوف من الحرب لدى أغلبية السكان خاصة بعد منتصف الثمانينيات. وكان رد فعل السندنستيين سيئًا ضد كل أشكال التشكك فى ثورتهم. أشار توماس

بورج وزير الداخلية السلطوى الذى عانى أكثر من غيره بسبب معتقداته فى فترة ما قبل الثورة، أشار فى ١٩٨٢ إلى التجارب الشيوعية فى كل مكان ليشرح مدى الانقسامات التى قد تسببها الثورة:

> **تحدثنا التجارب أن هناك عددًا من العناصر ينتمى إلى هذه المجموعات الاجتماعيـــة، لا تــستطيع أن تــسلم نفسها للحقيقة الجديدة، وأنه حتى بداخل الثورة هناك من يعتقدون أن أحلام العمال والفلاحين ستنتهى إلـــى كوابيس وأحلام الرؤساء ستنتهى إلى الجنـــة... لقــد كان لدى [جبهة ساندينستا] الحكمة والــشجاعة لكـــى تجد فحوى المتناقــضات الرهيبـــة بـــين نيكـــاراجوا وإمبريالية الولايات المتحدة. لقــد عرفــت، وســوف تعرف دور الطبقات الثوريـــة فـــى عمليـــات التحـــول السياسى والاقتصادى فى نيكاراجوا... لذا فإن جبهـــة ساندينستا هى الجبهة الرائدة التى لا تستبدل لوحـــدة شعبنا، وحدة قائمة على مـــصالح العمـــال والوطنيـــة القومية[٤١].**

كان تأثير الحرب في أمريكا الوسطى مروعًا. لقد قُتل فى نيكاراجوا ثلاثون ألف شخص (وهو الرقم الذى كان، حسبما أشار المؤرخ وليام ليو جراند *Wlliam LeoGrande*، بالنسبة لتعداد السكان، أكثر مما فقدته الولايات المتحدة فى الحرب الأهلية، وفى الحربين العالميتين، وفى حربى كوريا وفيتنام مجتمعين). وعانت الدولة من وجود أكثر من مائة ألف لاجئ، واقتصاد متضخم بشكل خارج عن السيطرة، وبطالة جماعية. أما فى السلفادور، الدولة متناهية الصغر، فكانت

العواقب أسوأ؛ والمشهد أكثر إظلامًا؛ سبعون ألف حالة وفاة، والجنائز تجوب الريف، والقرى مدمرة، والأرواح مبعثرة. ورغم أن وحشية الحرب الأهلية فى السلفادور فاقت كل ما رأيناه فى التاريخ الحديث فى أمريكا اللاتينية، فإن جهود الولايات المتحدة فى فرض التغيير - بمنحها مساعدات عسكرية تقدر بمليار دولار، ومساعدات اقتصادية تفوق ذلك ثلاثة أضعاف - لم يكن لها سوى الأثر القليل: ففى ١٩٩٠ كان أكثر من ٩٠% من أهل البلدة يعيشون فى فقر[٤٢].

كان للحرب فى الولايات المتحدة أيضًا آثار رهيبة، وإن لم تكن من حيث خسائر الأرواح. لقد أدت محاولات إدارة ريجان فى تحدى الكونجرس فى إمداد الكونترا بالمال إلى عملية إيران كونترا، مما أصاب أجندة المحافظين الجدد أمام الشعب وبداخل البيت الأبيض. كون رجال ريجان قد باعوا أسلحة للنظام الإسلامى الإيرانى (على أمل أن يقوم بالضغط على الإسلاميين اللبنانيين ليفرجوا عن الرهائن الأمريكيين)، واستخدموا هذه الصفقة ليمولوا القوات المعادية للثورة فى نيكاراجوا، لم يكن ذلك بالأمر اليسير حتى على مناصرى ريجان أنفسهم. ومع الحركة المضادة للحرب ومقاومة الكونجرس للحرب، أدت عملية إيران- كونترا إلى ضعف رغبة الإدارة فى التدخل الخارجى عند نهاية فترة الرئاسة الأولى، بيد أن نظرتها إلى العالم ظلت ثابتة: الحرب الباردة هى صراع بين الخير والشر، الولايات المتحدة فيه فى جانب الملائكة.

الحرب فى أفغانستان

ثبت للاتحاد السوفيتى أن غزو أفغانستان كان إشكاليا من حيث السياسة وفوضويا من حيث العسكرية، وذلك منذ البداية. حتى مع انتفاضات جناح أمين فى فصيل خلق، كان الحزب الديمقراطى الشعبى بعيدًا كل البعد عن كونه حزبًا متحدًا

– بل على العكس، لقد شهد مستشارو الحزب الشيوعى السوفيتى الكبار الذين انتقلوا إلى الجيش الأحمر كيف أدت زيادة الدعم السوفيتى إلى مناورة الأفغان للحصول على مناصب فى الحكومة. فى فبراير ١٩٨٠، كان على مجموعة من الزوار السوفيت رفيعى المستوى أن "يتحدثوا بلهجة حادة إلى" أمين عام الحزب الديمقراطى الشعبى بابراك كارمال لكى يرغموه على أن يصل إلى حلول فى مسألة الحرب الفصائلية من خلال وجود توازن فى القيادة بين مختلف "التوجهات"(٤٣). كذلك عمل السوفيت أوقاتًا إضافية ليجدوا طرقًا "لتوسيع" النظام بتضمين أعضاء غير شيوعيين فى الحكومة، ولكنهم لم يجدوا سوى القليل من المرشحين الذين كان كارمال يقبلهم. كان الكثير من هؤلاء الذين رشحهم السوفيت قد هربوا بالفعل من كابول إلى قواعد المجاهدين فى باكستان أو نفوا إلى أى مكان آخر. أما وقد ثبت أن العمل الذى يقوم به المستشارون المدنيون السوفيت أصعب مما كان مفترضا فى البداية، فقد ظل عددهم يتزايد حتى وصل إلى ما لا يقل عن ثمانية آلاف فى منتصف الثمانينيات.

فى الشهور التى تلت الغزو ظل مناصرو الملك المعزول ظاهر شاه والجماعات الإثنية والعشائرية تحكم المعارضة الأفغانية فى الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى بداخل أفغانستان. لكن هذه الصورة سرعان ما تغيرت. فقد كان الغزو السوفيتى فرصة ذهبية للمنظمات الإسلامية ليكون لها السيطرة بداخل المعارضة عن طريق استخدام القدرة العسكرية – التى تمدها بها باكستان – وعن طريق النداءات الشعبية للجهاد الإسلامى والوطنى ضد الغزاة. كان المطلوب من مئات الآلاف من اللاجئين الذين بدأوا عبور الحدود إلى الجبهة الشمالية الغربية بباكستان ومقاطعات بلوشستان *Baluchistan* أن يسجلوا أنفسهم مع واحدة من سبع مجموعات المنفى فى بيشاور، لكى يحصلوا على معونات. فى صيف ١٩٨٠ بدأت الأحزاب الإسلامية المرتكزة فى باكستان تنمو نموا ملحوظا، مزودة باستقطاب

الشباب الغاضب اليائس فى معسكرات اللاجئين والإمدادات القادمة من باكستان ومن الأنظمة العربية المحافظة ومن الولايات المتحدة(٤٤).

فى ١٩٨١ و١٩٨٢ ظهر نموذج غريب بداخل المعارضة الأفغانية. فبينما قامت المجموعات المحلية – التى كان يحركها الدفاع عن أرضها أكثر من الأمل فى ثورة إسلامية – بالقتال ضد الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى والسوفيت بداخل أفغانستان، كان على هؤلاء المحاربين أن يقيموا علاقة خضوع لأحد الأحزاب المتمركزة فى بيشاور، لكى يستطيعوا الحصول على الإمدادات التى كانوا يحتاجونها. وبالتالى تم تهميش أنصار ظاهر شاه أكثر وأكثر، كما تم تهميش أحزاب تقليدية أخرى، مثل تلك المجموعة التى كان يقودها رجل الدين البارز محمد نبى محمدى. بيد أن العلاقة بين جماعات الجهاد الإسلامى فى المنفى لم تكن بالعلاقات البسيطة أبدا؛ حيث كان لمعظمهم خلفيات فى انفصال أول طائفة فى داخل الأحزاب الإسلامية الأفغانية التى تقودها باكستان فى منتصف السبعينيات – الحزب الإسلامى بقيادة قلب الدين حكمتيار والجماعة الإسلامية بقيادة برهان الدين ربانى. وقد تطلب الأمر الكثير من الضغوط من الدكتاتور الباكستانى الجنرال ضياء الحق ورئيس المخابرات السعودية الأمير تركى الفيصل، لإرغامهم على الدخول فى نوع من التعايش، الذى تضمن أيضا، على الأقل من حيث الشكل، مجموعة نبى وغيرها من التقليديين. ولم يصبح التحالف بين الأحزاب السبع الرئيسية رسميا حتى ١٩٨٤، وحتى فى ذلك الحين، كان به من الصراع قدر ما به من التعاون(٤٥).

كان الغرض الأساسى من "قوة الطوارئ العسكرية المحدودة" التى أرسلها الاتحاد السوفيتى فى ديسمبر ١٩٧٩ هو أن تعمل كقوات بديلة للقوات الخاصة التى تخلصت من أمين، ووضعت مكانه بابراك كارمال زعيما أفغانيا. فى أول فبراير

١٩٨٠ أعطت موسكو - تحت ضغط من كابول - وحدات الجيش الأحمر هدفين عسكريين أساسيين، بالإضافة إلى تأمين التغيير فى قيادة الحزب الأفغانى. الأولى هى قطع الإمدادات الخارجية عن المجاهدين والتسلل من الخارج فى الفترة التى كان يتم فيها تعديل سياسات كابول. الثانية هى التعاون مع القوات الأفغانية فى تأمين حدود المدن والطرق والمطارات ومناطق التدريب العسكرى. واتضح أن المهمتين صعبتان على العسكرية السوفيتية، حتى بعد أن تم إرسال تعزيزات فى يناير وفبراير ١٩٨٠، حيث تم إحضار الجزء الأساسى من الجيش الأربعين - فرقتين عسكرتين للقاذفات، فرقة عسكرية منقولة جوًا، فرقة للهجوم الجوى، وتنظيمين منفصلين من القاذفات فيها معًا اثنتان وخمسون ألف رجل(٤٦).

المشكلتان العسكريتان الرئيسيتان اللتان قابلهما السوفيت هما سرعة تفكك الجيش الأفغانى بعد الغزو واستعداد أهل القرى فى أفغانستان أن يقدموا الطعام والمأوى والمعلومات للمجاهدين. وفى حين كان حفيظ الله أمين قائدًا لا يرحم ولكنه كفؤ، لم يكن لدى بابراك كارمال سوى القليل من الاهتمام والقليل من الفهم للمسائل العسكرية. فى الأسابيع الأولى الحرجة بعد وصول السوفيت، لم يتم فعل أى شىء لمنح المساندة للرتب الأدنى من الجيش، مما قلل من ولائهم وأحبط الروح المعنوية لدى من بقوا. وكما يستنتج التاريخ الرسمى الروسى للحرب فإن "القوات السوفيتية تحملت العبء الأكبر من الحرب مع لامبالاة المعارضة المسلحة للعدو"(٤٧). ورغم كل ذلك نعود للقول إن المقاومة سيئة الإعداد سيئة التنظيم، ما كانت لتصنع تأثيرًا كبيرًا فى السنوات الأولى من الحرب، لولا رغبة المجتمع القبلى الأفغانى فى مساندتها ودعمها؛ وكان ذلك مهمًا بالنسبة للأحزاب الإسلامية الرئيسية التى لم يكن لها أى جذور فى الريف الأفغانى. كان ما يعنى الكثير من الأفغانيين بعد ديسمبر ١٩٧٩، هو وجود تفسير لعيوب حكومة الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى: أن النظام أداة للغزاة الأجانب، وأن السبيل الوحيد لتدمير النظام هو قتل أكبر عدد ممكن من السوفيت.

بدت محاولات موسكو في التأكيد على المساعدات المدنية لأفغانستان في غير موضعها الصحيح، إذ كانت هناك مقاومة شعبية جماعية للوجود السوفيتي في المجتمع الأفغاني. ولكن الوثائق التي نملكها الآن عن الحرب تظهر أن مثل تلك الخطط عن الارتقاء بالأفغانيين – ومن ثم تقوية النظام الأفغاني – كانت ذات أهمية كبيرة للمهمة السوفيتية. من ضمن الثلاثة مليارات دولار التي تم تحويلها للمساعدات غير العسكرية، فيما بين ١٩٨٠ و١٩٨٩، كان المفترض أن يذهب أكثر من ثلاثين بالمائة إلى الأشكال المختلفة من التعليم، أو خلق نخبة جديدة تدعم الحزب وتحل محل الكثير من الأفغانيين الذين قتلوا أو هربوا منذ ثورة ساور، وقد حلت اللغة الروسية محل الإنجليزية بشكل إجباري في المدارس الثانوية، واستخدمت الكتب السوفيتية وشكل تدريس الماركسية نحو ٢٥ % من المناهج. وبمساعدة السوفيت، قدم النظام برنامجًا لمحو الأمية وأنشأ منظمات جماعية على جميع المستويات، وفقًا لنموذج شرق أوروبا. وشجع كارمال مشاركة المرأة في المجتمع كأحد أهداف الحكومة. ولكن معظم تلك الخطط أحبطت بسبب نقص الموظفين المدربين، وبسبب استهداف المعارضة المتعمد لمدرسي المدارس وللنساء المتعلمات بالتهديد أو بالقتل(٤٨).

منذ بداية عملية أفغانستان، وقعت القيادة السوفيتية في شك بشأن استراتيـجيتها وأهدافها الإجمالية. وكان الكثير من أعضاء المكتب السياسي يعتقدون أن ما أقرته الأمانة العامة في ديسمبر ١٩٧٩ كان عبارة عن تدخل سريع لتسهيل تغيير النظام. لم يكن المقصود من القوات أن تتدخل في حرب مباشرة مع المعارضة الأفغانية. بل على العكس، فبريـجينيف نفسه كان يعتقد، حتى أوائل فبراير، أن انسحاب القوات قد يبدأ في ربيع ١٩٨٠ وينتهي في أواخر الخريف. استخدم وزير الدفاع دميتري أوستينوف ***Dmitri Ustinov*** ورئيس المخابرات يوري أندروبوف ***Iurii Andropov*** الجدل بضعف النظام الأفغاني واستهداف المعارضة المتعمد للسوفيت.

بمن فيهم المدنيين، حتى يتم لهما الحصول على إقرار بتعميق التدخل السوفيتي. واستخدمت الثورات في قندهار في العام الجديد سببا لتوسيع العمليات، إذ قتل أكثر من خمسين جندي ومدني سوفيتي، ولم تفلت المخابرات الفرصة لكي ترسل للأمين العام التفاصيل المخيفة عن كيف ماتوا. كان على مؤيدي التدخل أن يكونوا أكثر حرصا في الجدل حول الضعف الأفغاني، لكن هذا الجدل ظل يأخذ منحى أن تتسع العمليات قليلا إلى أن يستطيع الشيوعيون الأفغان أن يعيدوا تنظيم أنفسهم والدفاع عن أنفسهم(٤٩).

وفي وجود تلك المشكلات، كانت موسكو تحاول بدءًا من ١٩٨٠ فصاعدًا أن تجد حلا دوليًا لوجود قواتها في أفغانستان. في مارس ١٩٨٠ اقترحت اللجنة المعنية بأفغانستان في المكتب السياسي انسحاب السوفيت من البلاد في مقابل اتفاقية أفغانية باكستانية مشتركة يضمنها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وكانت المشكلة – كما أدركها الكثير من مستشاري السياسة السوفيت المتشككين في الغزو – أن كلا من موسكو وكابول تشبثتا بتعريف كل الأنشطة المضادة للنظام بداخل أفغانستان باعتبارها مستوحاة من الخارج. بعبارة أخرى فإنه لتحقيق هذا الحل، فإن الأمر لم يكن يتطلب أن تكف باكستان عن إمداد المجاهدين فحسب – وهو الأمر الذي لم ترغب باكستان في فعله – ولكن أيضا نهاية لنشاط العصابات بداخل أفغانستان، وهو الأمر الذي لم يكن باستطاعة باكستان أو أي كيان آخر أن يقدمه، حتى وإن أراد. وكما يمكننا أن نتوقع لم يكن للمقترحات السوفيتية أي تأثير سياسي، حتى وإن أدت في النهاية إلى تمهيد الطريق لمحادثات الوساطة برعاية الأمم المتحدة أن تبدأ في جنيف في ١٩٨٢. في ظل مناخ الحرب الباردة في أوائل الثمانينيات، أصبحت قضية أفغانستان قضية ذات دلالة: فقد كانت تمثل بالنسبة للكثير من الدول التوسع السوفيتي ورغبة الغير في مقاومته.

كان الغزو السوفيتى بالنسبة للقائد العسكرى الباكستانى الـجنرال ضياء الحق يعنى الفرصة والتهديد، وإن كانت الفرصة تفوق التهديد كثيرًا. كان ضياء الحق يعتقد منذ البداية أن التدخل يعطى الفرصة للحركات الإسلامية التى يرعاها لكى تصبح المعارضة الأفغانية المدعومة عالميًا. كما ظن أنه سيعنى أن تتحرر باكستان فى نظر الولايات المتحدة وبريطانيا من وصمة العار التى لحقت بها جراء الانقلاب الذى قام به ضياء الحق وقيامه بتصفية سلفه المدنى ذى الفقار على بوتو وإحراق إسلاميين محليين للسفارة الأمريكية فى إسلام أباد عام ١٩٧٩. بعبارة أخرى، كان بوسع ضياء الحق أن يصل إلى غايتيه فى آن واحد: أن يحقق حلمه بقيادة الجهاد وأن يحصل على مساعدات من الغرب أثناء ذلك. وقد دعمت إدانة العالم الثالث للغزو السوفيتى خططه كثيرًا. فقد أدان المؤتمر الإسلامى الغزو، كما أدانته حركة عدم الانحياز على مستوى وزراء الخارجية فى نيودلهى فى فبراير ١٩٨١، حيث تم تمرير قرار برعاية باكستان على مشروع قرار أكثر اعتدالا كانت قد وضعته الهند. أما بداخل العالم الإسلامى، فكانت إيران، بل وحتى ليبيا – اللتان لم تعتبرا صديقتين لنظام ضياء الحق – على استعداد للتعاون معه لدعم المجاهدين الأفغان(٥٠).

بداخل باكستان، ترك ضياء الحق تنظيم دعم الإسلاميين الأفغان، كما ترك أكثر من مليون ونصف المليون لاجئ يعيشون على الجانب الباكستانى من الحدود، إلى رئيس جهاز الخدمات المخابراتية العسكرية الـجنرال أختر عبد الرحمن. وكان أختر، وهو زميل دراسة قديم لضياء الحق تخرج معه فى الدفعة الأخيرة من الأكاديمية العسكرية البريطانية الهندية قبل الاستقلال، كان يعرف بعدائه للهند وبتكريسه نفسه لمبدأ الجهاد. كان نظام الإمداد والسيطرة السياسية الذى وضعه الـجنرال أختر قد وضع منظمته فى المقدمة، حيث المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة أهم الممولين ومصر والصين أهم المزودين بالأسلحة من النوع

السوفيتى. كما نظم أختر معسكرات تدريب للمجاهدين، مع تفضيل للمنضمين إليه من الحزب الإسلامى بقيادة حكمتيار. كان المدربون فى تلك المعسكرات من الباكستانيين فى حين كان الضباط الأمريكيون والبريطانيون يقومون بتدريب الضباط الباكستانيين على الأسلحة الجديدة. بدءًا من ١٩٨٤ ساعدت المخابرات المركزية فى إدارة مراكز تدريب للأفغان الأجانب فى مصر، وربما أيضًا فى واحدة على الأقل من دول الخليج. والمعروف أن الـجنرال أختر قد زار الأخيرة ولكنه لم يوافق بوجه عام على تلك المعسكرات، حيث إنها انتزعت التجنيد والتدريب من تحت سيطرته المباشرة[٥١].

ظلت الولايات المتحدة حتى عام ١٩٨٣ ملتزمة بإطار المساعدات الذى وضعته إدارة كارتر؛ مما يعنى أن واشنطن كانت تدفع ثمن كميات صغيرة من الأسلحة والإمدادات الأخرى التى تأتى إلى المقاومة الأفغانية من خلال دول ثالثة. وكانت المساعدات الأمريكية – التى توزع من خلال وكالات باكستانية – أقل فى مجملها من تلك التى كانت تقدمها السعودية والدول العربية الأخرى فى السنتين الأوليين من الصراع، وبقيت كل من وزارة الخارجية والمخابرات المركزية تدير علاقات طيبة مع باكستان حتى يمكن توصيل الجهد الأمريكى الكبير من خلال تلك الدولة. كان هناك أيضًا مقاومة لدى الطبقة البيروقراطية، وخاصة فى وزارة الخارجية، ضد مواجهة السوفيت بهذا الأسلوب المباشر، خاصة وأن لا أحد كان يملك خطة ملموسة عن كيف سيظهر أى تدخل أمريكى أكبر. ولكن الأهم من كل ذلك وجود اعتقاد راسخ لدى المخابرات المركزية *CIA* وأجهزة المخابرات فى العالم الغربى بأن المجاهدين لن يستطيعوا مع الوقت أن يوقعوا ضررًا حقيقيًا أو شديدا بالسوفيت، ولذا فإن الاستثمار فى المقاومة الأفغانية لم يكن سوى رهان خاسر، فمن الأفضل إنفاق الوقت وبذل الجهد فى إعادة العلاقة مع باكستان ومن ثم القضاء على أى تغلغل سوفيتى أبعد من ذلك فى المنطقة[٥٢].

تطلب الأمر الكثير من المال والجهد حتى تقف الولايات المتحدة على حقيقة الـجنرال ضياء الحق وما كانت الإدارة تسميه "نظامه السلطوى الحميد"(٥٣). فى ١٩٨١ منحت الولايات المتحدة إسلام أباد برنامج مساعدات اقتصادية وعسكرية مدته ست سنوات قيمته ٣,٢ مليار دولار، كان يتضمن تسليم مقاتلات مروحية من طراز *F-16*(٥٤). فى تقرير لمخابرات الأمن القومى بالولايات المتحدة صادر فى نوفمبر ١٩٨٢، مع الكثير من تبسيط الأمر، وُجد أن "الاتفاق الأمريكى الباكستانى حول المساعدات الاقتصادية وبيع الأسلحة قد قوى من الموقف الباكستانى عالميا وأعاد إليها الثقة بنفسها". وأثناء زيارته لواشنطن فى الشهر التالى طالب الـجنرال ضياء الحق بالمزيد، بما فى ذلك موافقة أمريكية سرية على البرنامج النووى الباكستانى. ورغم أن كلا من ريجان وشولتز حذرا من تطوير الأسلحة النووية، فإن الوزير أشار للرئيس بأن "علينا أن ننتبه إلى أن الأسلوب الذى نتعامل به مع القضية النووية سيكون له عظيم الأثر على قدرتنا على الاستمرار فى التعاون مع باكستان لدعم الأفغان المحاربين من أجل الحرية"(٥٥). وفى محاولة ضياء الحق الحصول على مساعدات أمريكية أكبر أشار، دون ذكاء، إلى "ارتباطه القوى بالصين" وألمح إلى أن الصينيين "يبقون على وفائهم بسياساتهم واتفاقياتهم"(٥٦).

الولايات المتحدة والجهاد

فى ١٩٨٣ تجمعت عدة عوامل وظروف لتصنع منهجًا أمريكيًا حول أفغانستان. فالعلاقات مع باكستان لم تكن فى تحسن فحسب، ولكن تحالفًا سياسيًا بدأ يتكون فى الولايات المتحدة حول القضية الأفغانية بين الراديكاليين فى الإدارة والنشطين فى الكونجرس، حيث كانوا يدفعون من أجل تدخل أمريكى أكبر فى تسليح العصابات وإعدادها. استخدم بعض كبار المستشارين فى وزارة الدفاع –

مثل إيكل *Ikle* وبيرل *Perle* ونائبه إيلي كراكوفسكي *Elie Krakowski* – وكذا اثنان من مساعدى وزير الخارجية – إليوت أبرامز *Elliot Abrams* وپول ولفوڤيتز *Paul Wolfowitz* – استخدموا الضغوط للحصول على المزيد من المساعدات من السيناتورز پول تسونجاس *Paul Tsongas (D-Mass)* وجوردون همفرى *Gordon Humphrey (R-N.H.)* وأعضاء الكونجرس تشارلز ويلسون *Charles Wilson (D-Tex.)* ودون ريتر *Don Ritter (R-Pa)* وغيرهم، مجادلين من أجل أن تصل أسلحة أكثر تقدمًا وتدريبًا أمريكيًا أكبر إلى "المقاتلين من أجل الحرية فى أفغانستان"، أى المجاهدين[٥٧]. حتى الدبلوماسيون الأمريكيون فى إسلام أباد الذين كانوا يتشككون فى زيادة المساعدات ومعهم مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى نيكولاس ڤيليوتس *Nicolas Veliotes* كانوا قد بدأوا يغيرون وجهات نظرهم. كتب السفير لشـولتـز فى يونيو ١٩٨٣ يقول: "من المناسب الآن أن نعيد النظر فى سياساتنا فى أفغانستان"

> **هناك احتمال كبير ألا تؤدى بنا منظومة سياساتنا إلـى حيث نريـد – تحقيـق الانـسحاب الكامـل للقـوات السوفيتية... فالـسوڤيـت يـستطيعون الآن تحمـل الخسائر الحالية بشكل دائم...علينا أن نوضح لهـم أن باستطاعتنا أن نزيد من خـسائرهم.... ربمـا يكـون المجاهدون قد حاربوا السوڤيت إلى أن وصـلوا إلـى نقطة تجمد فى أفغانستان، ولكن على المدى الطويـل سيكون العنصر الفعال هو قـدرة الـسوڤيـت علـى الاستمرار وموارد المجاهدين المحدودة[٥٨].**

أدى تراجع الخطر السوفيتى عن باكستان والتحمس لمبدأ التدخل الذى خلقته عملية جرينادا إلى انتصار الراديكاليين فى الجدل السياسى حول أفغانستان فى خريف ١٩٨٣. ورغم ذلك، كانت الأسباب الرئيسية للمنهج الجديد هى القدرة القتالية لدى المجاهدين، ووضع البيت الأبيض والبنتاجون والمخابرات المركزية خطة من أجل زيادة الإمداد وشحن الأسلحة وإلحاق العناصر بالعصابات. فى ١٩٨٣، أى بعد ثلاث سنوات من بدء الحرب، أصبح واضحًا أن المجاهدين استطاعوا الاستمرار، بل وأحرزوا تقدمًا فى بعض المناطق على حساب السوفيت وحلفائهم. وكما كان يسعد الراديكاليين فى إدارة ريجان أن يشيروا دائمًا: فإن أفغانستان لم تكن المجر ولا تشيكوسلوفاكيا؛ فليس بوسع السوفيت أن يصلوا إلى تسوية سياسية بعد الغزو، وسوف تستمر المقاومة العسكرية. وحصلت سلسلة من الحمـــلات بالقرب من كابول فى ١٩٨٣، نظمها زعيم المقاومة غير الإسلامية عبد الحق على تغطية واسعة، ودعمت الشعور بأن السوفيت فى مأزق[٥٩].

كان تدخل رئيس المخابرات المركزية وليم كيسى، هو ما رجح كفة الميزان فى واشنطن. لقد كان كيسى دائمًا مقتنعًا بضرورة أن يجعل السوفيت "ينزفون دمًا" فى أفغانستان. ولكنه فى أواخر ١٩٨٣ بدأ يعتقد أن الاتحاد السوفيتى يمكن أن يُهزم فى أفغانستان، لا أن يتم احتواؤه فيها فحسب. مثل هذا الانتصار بالنسبة لكيسى – وهو من أنصار الحرب الباردة التقليديين – سيحقق نتائج رهيبة. فى أوائل ١٩٨٤ أخبر أحد مساعديه بأن "الاتحاد السوفيتى متسع للغاية وأنهم ضعاف. لو استطاعت أمريكا أن تتحدى السوفيت فى كل موقع واستطاعت فى النهاية أن تهزمهم فى مكان واحد، فإن ذلك سوف يبعثر أسطورة [الشيوعية هى المستقبل]، وسوف تبدأ فى التحلل"[٦٠]. وكان أول مكان يرشحه كيسى لهذه المهمة هو نيكاراجوا، ولكن فى ١٩٨٣-١٩٨٤، ومع المعارضة الداخلية لتدخل الولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى، والإمكانيات القتالية المشكوك فيها للكونترا، بدأ يرى

فى أفغانستان فرصة أفضل، وقال لزملائه "هنا يكمن جمال أفغانستان؛ فعادة ما يبدو الأمر وكأن الأمريكيين الوحوش الأشرار يضربون السكان الأصليين. أما أفغانستان فهى على العكس من ذلك تمامًا. الروس هم الذين يضربون السكان المساكين. إننا لا نفتعل الحرب، فالمجاهدون لديهم كل ما يحتاجون من دوافع. كل ما علينا فعله هو أن نقدم لهم المساعدة، المزيد من المساعدة"[٦١]. فى وقت ما من يناير ١٩٨٤، تم تكليف قوات المهام الأفغانية التابعة للمخابرات المركزية *CIA*، التى أنشئت فى أواخر ١٩٨٢، بوضع استراتيجية أمريكية جديدة أكثر عدوانية، بما يشتمل على إمدادات فى الأسلحة والتدريب والمزيد من المال للمقاومة الأفغانية[٦٢].

فى العامين الأولين من تنفيذ برنامج المساعدات الأمريكية، جاءت معظم الأسلحة التى تلقاها المجاهدون عبر ما سمى مشروع *SOVMAT*، الذى كان يعتمد على المعدات السوفيتية التى تم الاستيلاء عليها من كل مكان آخر فى العالم، ومن إمدادات الحلفاء السابقين للاتحاد السوفيتى، وخاصة مصر. وعندما بدأت هذه الإمدادات تنخفض فى أوائل ١٩٨٥، بدأت المخابرات المركزية تشترى أسلحة من خلال شركات وهمية فى العالم الثالث من دول الكتلة الشرقية مباشرة (وخاصة بلغاريا). فى أواخر ١٩٨٥ ساعدت المنظمة فى تأسيس مصنع كامل فى مصر تم تصميمه لإنتاج أسلحة سوفيتية للمجاهدين. فى ١٩٨٤ تم تنظيم برنامج تدريبى خاص للباكستانيين من جهاز المخابرات *Inter-Services Inteligence (ISI)*، وللمجاهدين الأفغان فى الولايات المتحدة كانت تديره المخابرات المركزية فى معسكرى تدريب خاصين بالجيش الأمريكى فى ڤيرجينيا: كامب برى وفورت باكيت. كما بدأت المخابرات المركزية تمنح أموالا للمنظمات الخيرية الإسلامية التى كانت تدعم المجاهدين. وكانت اثنتان من تلك المنظمات على الأقل تجند المسلمين المتطوعين – ومعظمهم من شمال أفريقيا – للحرب فى أفغانستان[٦٣].

في ١٩٨٥ كان هناك شبكة شديدة التعقيد من المساعدات الأجنبية للمجاهدين، حيث تعاونت الولايات المتحدة مع الحكومات العربية المحافظة والمنظمات التطوعية لتمويل الأهداف الرئيسية وإدارتها، وأتيحت كميات كبيرة من الأموال – ليس من خلال الدول العربية فحسب، وإنما قام الكونجرس، بحركه النائب الـذى لا يبارى تشارلز ويلسون ***Charles Wilson*** (الذى كان "يحرك النظام كله" وفقا لرأى بوب وودوارد)، قام بتخصيص أموال إضافية للجهاد[٦٤]. فى أواخر ١٩٨٥ تم تخصيص أموال إيران كونترا ***Iran Contra***، وإن كان تدفق الأموال لأفغانستان قد جعل كيسى يفكر فى تحويل بعض هذه الأموال إلى "المحاربين من أجل الحرية" فى كمبوديا وإثيوبيا[٦٥]. وكان بنك الائتمان والتجارة الدولية ***Bank of Credit and Commerce International (BCCI)*** برئاسة الباكستانى أجا حسن عبيدى، مع عدد من السعوديين البارزين فى مجلس الإدارة، هو البنك المفضل للمخابرات المركزية[٦٦]. وأحيانًا كانت المساهمات الواردة تكفى لأكثر من غرض – فمثلا الأموال التى طرحها سلطان بروناى استخدمت فى كل من نيكاراجوا وكمبوديا وأفغانستان.

ورغم الزيادة الكبيرة فى الدعم لأفغانستان فى ١٩٨٤–١٩٨٥، ظل بعض الراديكاليين فى الإدارة وفى الكونجرس يجادلون أنه دون أسلحة غربية متطورة عالية التكنولوچيا سيبقى المجاهدون دائمًا أدنى فى المستوى العسكرى من السوفيت وحلفائهم الأفغان. ومنذ وقت باكر فى ١٩٨٤ راح بعض المسئولين، مثل كلير چورچ فى المخابرات المركزية يجادل لصالح إمداد المقاومة بصواريخ ستنجر أرض جو خفيفة الوزن، التى – وإن لم تختبر فى المعركة – كان يعتقد أنها تعطى المجاهدين الفرصة للرد بفاعلية أكبر إذا ما هوجموا من الجو[٦٧]. ولكن الغالبية فى الإدارة عارضت إرسال الصواريخ، بسبب الخوف من رد الفعل السوفيتى وما قد يحدث لو أن الصواريخ المتقدمة سقطت فى "أيد خطأ". وعارضت رئاسة الأركان المشتركة هذا الموقف بشدة، كما عارضه معظم مستشارى كيسى فى المخابرات

المركزية. ما رجح كفة الميزان هو أن چورج شلتز انحاز إلى الراديكاليين وكان مع إعطاء الصواريخ. وذهل شلتز من التقارير الصادرة بشأن التصعيد السوفيتى للحرب فى ١٩٨٥، بعد أن أمسك جورباتشوف بزمام السلطة[٦٨]. قرر ريجان فى أبريل ١٩٨٦ أن يرسل صواريخ استنجر إلى كل من المجاهدين ومنظمة يونيتا الأنجولية – وقد تم استخدامها فى الشهر نفسه فى أفريقيا ضد القوات الجوية الكوبية؛ وفى أفغانستان تم استخدامها لأول مرة فى ٢٦ سبتمبر عندما تم إسقاط ثلاث طائرات هليكوبتر سوفيتية، من أصل أربع طائرات، فى غارة واحدة كانت تقترب من مطار جلال أباد.

بالنسبة لباكستان ومخابراتها *ISI*، كانت زيادة المساعدات للمجاهدين هدية من السماء. وبما أن إسلام أباد كانت تقوم بتوزيع معظم المساعدات، فقد كان معنى ذلك أن يدعى ضياء الحق لنفسه الفضل فيها، ومن ثم يقوم بتشكيل الوجه السياسى للمعارضة الأفغانية حسب إرادته. وكما قال الـچنرال يوسف *General Youssaf* رئيس مكتب *isi* الأفغانى فإن "المخابرات المركزية سوف تنظم وتدفع ثمن الشحن الى كراتشى، وتخبرنا بتاريخ الوصول. وعندما تصل السفن إلى *ISI* سنبدأ فى التخرين والتوزيع"[٦٩]. وكانت الـ*isi* تتأكد من أن تصل معظم المساعدات وخاصة الأسلحة الجديدة للحركات الإسلامية – وخاصة حزب حكمتيار[٧٠]. فى ١٩٨٦ كان ضياء الحق قد بدأ يعتقد أن على السوفيت الانسحاب سريعًا، وأن معركة السيطرة على أفغانستان ما بعد الشيوعية قد بدأت بالفعل، وقرر أن يبعد الولايات المتحدة عن المعادلة بأقصى ما يستطيع. فى الوقت نفسه كان حكمتيار وغيره من الإسلاميين المتطرفين قد بدأوا حملة إرهابية فى داخل أفغانستان وفى المعسكرات ضد المجموعات الأكثر اعتدالا من المجاهدين. كما بدأ زعماء الحزب الإسلامى وغيرهم من الراديكاليين – مثل الاتحاد الإسلامى بقيادة عبد الرسول سياف – بدأوا إخبار تابعيهم أنهم سيدينون الشيطانين الكبيرين، أمريكا وروسيا[٧١]. "إننا لا نعتقد

فيما يعتقده الأمريكيون" هكذا قال حكمتيار لزواره حتى رغم تصعيد المخابرات المركزية لعملها لتمد حركته بالأسلحة والمعدات(٧٢).

ثبت للاتحاد السوفيتي أن السيطرة على أفغانستان كانت أمرًا جد عسير. بدءًا من ١٩٨١ تحولت الحرب إلى مستنقع دماء، قتل فيه أكثر من مليون أفغاني وخمسة وعشرون ألف سوفيتي. ورغم الجهود محكمة التخطيط، لم يستطع الجيش الأحمر السيطرة على المناطق التي تقع في دائرة عمليات الأفغان – فقد كان يتقدم إلى حيث يسيطر الثوار، ويشغلهم لأسابيع أو أشهر، ثم ينسحب لأن المجاهدين يركزون قواتهم، أو لأن مقاومي الجيش الأحمر كانوا يهاجمون مكانًا آخر. ففي ١٩٨٥، مثلا كان السوفيت قد بدأوا ما يزيد على تسع هجمات ضد قواعد أحمد شاه مسعود في وادي البانـــچير دون أي نجاح يذكر. لم يكن الجيش الأحمر مستعدًا لمثل هذه الحرب المحدودة والطويلة. وأعيقت عملياته بسبب المعلومات المخابراتية غير الدقيقة والحاجة إلى الدفاع عن نشاطاته في إطار ماركسي لينيني. وأحبطت الروح المعنوية للجنود الذين ضمتهم القوات السوفيتية والبالغ عددهم تسعين إلى مائة وعشرين ألفًا عند عودتهم إلى الوطن حاملين شهادة، على كل من عدم قدرة الجيش على النجاح في أفغانستان، والأسلوب الوحشي الذي يعامل به الجيش جنوده أنفسهم(٧٣).

لم ينصب الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني ***PDPA*** نفسه ثانية أبدًا كقوة سياسية في أفغانستان بعد الغزو السوفيتي. حتى في وجود زعيم أفضل كثيرًا من بابراك كارمال التعس، كان الأمر يحتاج إلى معجزة لإعادة إحياء الشيوعية الأفغانية – ليس، كما يُعتقد دائمًا، بسبب رد الفعل "الوطني" ضد التدخل السوفيتي داخل الحزب، لكن لأن الجولة الأخيرة من الاقتتال الفصائلي الداخلي ذهبت باعتقاد معظم أعضاء الحزب في بناء حزب شيوعي باعتباره مشروعًا حيويًا وذا قيمة.

بالتأكيد، بقى هناك شيوعيون يكرسون أنفسهم للقضية ولكنهم كانوا يذهبون إلى تعريف أنفسهم بأنهم يساعدون السوفيت فى القضاء على الإسلام "الرجعى"، وليس القيام بتغييرات ثورية. فى ١٩٨٥ لجأت أعداد كبيرة من الشيوعيين السابقين – سواء بقوا بداخل الحزب الديمقراطى الشعبى أم لا – إلى الهويات الإثنية التى كانوا يأملون أن تشكل الأطر السياسية فى أفغانستان ما بعد السوفيت.

المساعدات والتجارة والأيديولوچيا

بالنسبة للكثيرين فى إدارة ريجان، فى حركة المحافظين الجدد الأمريكية وفى اليمين الأمريكى بوجه عام، كانت راديكالية اليسار بالعالم الثالث تمثل جزءًا من التهديد العالمى للولايات المتحدة. بيد أنها كانت موجودة لأن الإدارات الأمريكية السابقة قد فشلت فى مواجهتها والتعبير عن القيم الأمريكية. كان مؤيدو ريجان قد تعبوا من إدانة وطنهم باستمرار، وخاصة فى الأمم المتحدة، على يد ما اعتبروه ديكتاتوريات مفلسة من الدرجة الثالثة، حاولت التودد إلى السوفيت فقادت شعوبها إلى الفقر والعبودية. وبدأ الكثير من الأمريكيين يسألون أنفسهم لماذا تستمر دولتهم فى إعطاء مساعدات لأنظمة معادية لأمريكا؛ لماذا يقوم دافع الضرائب فى أمريكا بتمويل منظمات الأمم المتحدة، التى تعتبر أهم أدوارها الحط من مكانة الولايات المتحدة فى العالم؟ لقد آن الأوان، فى رأى اليمين الأمريكى، أن يرد الضربات لأنظمة العالم الثالث التى تعارض مهمة أمريكا.

كانت مواجهة العالم الثالث جزءًا من مشروع أكبر لاستعادة القوة الأمريكية التى عكفت عليها حركة اليمين الجديد فى السبعينيات. لقد صورت الولايات المتحدة وكأنها كانت تحت الحصار من قبل أوروبيين لاذعى النقد وأنانيين، ويابانيين متربحين، وزعماء فاسدين وغير مسئولين فى العالم الثالث. وكان

المحافظون الجدد الأمريكيون يعتقدون أنه من الأفضل بدلا من أن يشتركوا فى دحض معنويات دولتهم بأنفسهم، فإن الولايات المتحدة ينبغى أن تقف شامخة القامة، عندما تدين تصرفاتهم وترفع من شأن نفسها باعتبارها النموذج الحقيقى للتنمية فى العالم. حينئذ، وحينئذ فقط، سوف تستطيع أمريكا أن تكسب حلفاء فى المواجهة مع الاتحاد السوفيتى – "إمبراطورية الشر"، حسب تعبير ريجان – ويكون لديها القوة المعنوية الكافية لتغلب وتنتصر. كانت الحرب الباردة بالنسبة لمؤيدى ريجان صراعًا مستقبليًا لابد من أن يُربح. وحسب ما قاله الرئيس "إننا نعيش فى زمن من التغيرات العالمية الخاصة بالإنسان، زمن سوف يشير إلى ما إذا كانت الأفكار الحضارية عن الحرية الفردية والحكومة النيابية ودور القانون تحت حكم الرب سوف تنتهى أم تستمر"(٧٤).

تحدثت سفيرة الولايات المتحدة الجديدة إلى الأمم المتحدة، جين ج. كيركباتريك ***Jeane J.Kirkpatrick*** نيابة عن جناح المحافظين الجدد فى ائتلاف ريجان، مع تذكير واضح بضرورة الفصل بين الأنظمة "السلطوية" – مثل شيلى بينوشيه ***Pinochet*** – والأنظمة "الشمولية" – مثل الاتحاد السوفيتى وكوبا وألمانيا هتلر. فالأنظمة الأولى يمكن إصلاحها دون حرب أو تدخل؛ أما الأخرى فلا. وقد فشلت نظرية الحداثة فى الفصل بين اثنتيهما.

على الرغم من أنه لا يوجد مثال لمجتمع "اشتراكى" أو شيوعى تحول إلى الديمقراطية، فإن الأوتوقراطيات اليمينية تتطور أحيانًا إلى ديمقراطيات – فى وجود الوقت الكافى والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المواتية، والزعماء الموهوبين، والرغبة القوية الحقيقية فى وجود حكومة نيابية... إن السياق

المفهوم [للتغيير الذى ترعاه الولايات المتحدة] يحدث عندما تكون الأوتوقراطيات غير الشيوعية تحت ضغط من العصابات الثورية. وبما أن موسكو هى القوة المعتدية التوسعية اليوم، فإن هذه العصابات عادة ما تكون مكونة من متمردين يقوم الاتحاد السوفيتى بتشجيعهم وتسليحهم لتحدى الوضع القائم؛ ويتحول الالتزام الأمريكى "للتغيير" فى المطلق إلى مساواتنا بالعملاء السوفيت والمتطرفين غير المسئولين مثل آية الله الخومينى أو، فى النهاية، مثل ياسر عرفات(٧٥).

قام ريجان بتأنيب سلفه لأنه "وبخ الحكومات السلطوية الصديقة لنا بلا هوادة وتجاهل الحكومات السلطوية غير الصديقة"، ومن ثم عزم ريجان على الحديث ضد ما كان يراه أنظمة يسارية قمعية فى العالم الثالث. فيما يخص المساعدات الخارجية، اتهم إدارة كارتر بأنها كانت "تعمل تحت افتراض أن الولايات المتحدة عليها أن تثبت، ثم تثبت، ثم تعيد إثبات، طيبتها للعالم. إن إثبات أننا متحضرون فى عالم غير متحضر – ولا يأسف على ذلك – ليس بالأمر الضرورى"(٧٦). وقد فضل ريجان أن يضع شروطًا سياسية واضحة لكافة المساعدات الخارجية الأمريكية، بما فيها ما يتم تصريفه من خلال المنظمات العالمية مثل مؤسسات الأمم المتحدة، والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى. كانت إدارة ريجان منذ البداية أكثر حرصًا من أى حكومة أمريكية سابقة على استخدام الحرب الاقتصادية ضد أعدائها من خلال ضرب التجارة والعملة والمدخرات. "اجعلهم يصرخون"، كانت الصيحة التى ترددت فى أجواء السلطة، خاصة فى أثناء فترة الحكم الأولى لريجان، عندما كان النضال الأيديولوجى فى أوجه.

ولعدم ثقة مؤيدى ريجان فى الأمم المتحدة فقد حولوا انتباههم إلى مؤسسات بريتون وودز، البنك الدولى وصندوق النقد الدولى كأدوات لتنفيذ سياسة الاقتصاد الخارجى الأمريكى. مشكلة تلك المؤسسات أنها كانت تعمل فى الماضى وفقًا للأنماط الكنزية للاقتصاد؛ حتى وإن كان هناك تحول بطىء نحو المزيد من المحافظة فى أواخر السبعينيات، فإن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لأنصار ريجان. كان هدفهم هو إعادة التوجيه الكامل لكلا النوعين من المؤسسات نحو السياسة النقدية وأيديولوجيا السوق، فى حين يتم استخدام موارد المدخرات لخدمة الأهداف الأمنية للولايات المتحدة. شعاراتهم كانت المشروطية – بمعنى التغيير الداخلى والعالمى نحو حلول السوق كشرط مبدئى للمساعدة والتكيف – بمعنى نهاية الحصة الحكومية والإعانات والإنفاق الاجتماعى فى الدول المستقبلة تحت رعاية خبراء صندوق النقد الدولى. ويشهد النجاح الذى حققته الولايات المتحدة فى سنتين قصيرتين، بين ١٩٨١ و ١٩٨٣، فى إعادة تشكيل كل من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى على قوتها الاقتصادية المستمرة فى أوائل الثمانينيات – وهو أمر يختلف تمامًا عما كان المحافظون الجدد يدعونه قبل انتخابات ١٩٨٠ عندما توقعوا انهيارًا اقتصاديًا أمريكيًا حادًا. فى ١٩٨٣ قال مدير صندوق النقد الدولى فى دهشة إن "التكيف أصبح الآن عالميا... فلم يكن هناك من قبل مثل هذا الجهد المكثف المتقارب"[٧٧].

لم يكن نجاح الولايات المتحدة فى مؤسسات بريتون وودز، ولا نجاحها فى فرض المقاييس الاقتصادية الجديدة على الصعيد العالمى ممكنًا لولا الركود العالمى فى ١٩٨١-١٩٨٢ وآثاره. ولأنه كان قد جاء بعد الكساد الاقتصادى فى السبعينيات، فإن هذا الركود كان يعنى أن معظم الحكومات فى العالم الرأسمالى كانت تسعى إلى حلول جديدة لمشكلاتها. كان المنهج الأيديولوجى لإدارة ريجان وحكومة تاتشر فى بريطانيا يحمل أملا بالإصلاح الجذرى، الذى اعتقد زعماء كثر أن اقتصاداتهم

الداخلية والاقتصاد العالمي في حاجة إليه. في الوقت نفسه، أسهم الركود في انهيار شديد في أسعار المواد الخام التي كانت معظم دول العالم الثالث تعتمد عليها في صادراتها، ساحبا البساط من تحت أي خطط داخلية قد تكون لدى هذه الدول للتنمية، وتاركا إياها تحت رحمة مؤسسات الإقراض العالمية.

كانت آثار انهيار أسعار المواد الخام على سياسات العالم الثالث وعلى التحالفات الدولية في الثمانينيات شديدة وحادة. في الفترة بين ١٩٨٠ و١٩٨٢ انهارت الأسعار بنحو ٤٠ % في المتوسط. وكان هذا يعني في دولة مثل تنزانيا، أنه من أجل شراء سيارة نقل - إذا ما استخدمنا المثال الذي ضربه عالم الاجتماع روبرت إ.وود *Robert E.Wood* - في ١٩٨١ فكان على الدولة أن "تنتج أربعة أضعاف إنتاجها من القطن، أو ثلاثة أضعاف إنتاجها من البن أو ثلاثة أضعاف إنتاجها من الكاجو أو عشرة أضعاف إنتاجها من التبغ عما كانت تنتجه قبل خمس سنوات"[٧٨]. وكانت الدول الأشد فقرًا، أو تلك التي كانت تحاول القيام بتحول اجتماعي شامل (ومن ثم كانت تحتاج إلى دخل خارجي مستقر لكي يدعمها) كانت هي الأشد تأثرًا بانهيار الأسعار. ومع المديونية وفي بعض الأحيان سوء الإدارة والفساد، أدت الأحوال التجارية السيئة إلى القضاء على التنمية في العالم الثالث في الثمانينيات، حيث جعلت قيمة دخل الفرد من الناتج القومي المحلي يتراجع بنسبة ٤,٥% في أمريكا اللاتينية و٨,٣% في أفريقيا.

وفي حين تراجعت ظروف الإنتاج الداخلية والخارجية، فإن الكثير من دول العالم الثالث قد عانت من الديون الخارجية التي كانت قد اقترضتها في العقد المنصرم. القليل من الدول تم الضغط عليها لكي تسدد ديونها المبالغ فيها، حتى وإن بقيت الظروف العامة على حالها عندما تم منح القروض. ومع بناء ريجان آلته العسكرية، وزيادة العجز في الميزانية الأمريكية، ازدادت معدلات الفائدة بشدة

فى أوائل الثمانينيات – فتحولت من فائدة سلبية تتوافق مع التضخم تقدر بمتوسط ٧% فى ١٩٨٠، إلى فائدة إيجابية تقدر بحوالى ٢٢% بنهاية ١٩٨٢. لم يكن ثمة سبيل لكى تستطيع دول العالم الثالث السداد وفقًا للجدول، وكان بعضها – وخاصة تلك التى كانت مدينة بأموال كبيرة مستحقة – قد أفلست. وكان للعجز المكسيكى عن السداد فى ١٩٨٢ صداه فى النظام الاقتصادى العالمى؛ وكانت الشروط التى وُضعت لصندوق النقد الدولى من أجل انتشال المكسيكيين تتوافق تمامًا مع الأغراض الأمريكية، وترسل إشارات إنذار إلى العالم الثالث بأسره بأن قدرتهم على المناورة الاقتصادية قد أصبحت مقيدة.

ومع تنفيذ إدارة ريجان لما سمى بإجماع واشنطن – وكان يعنى فرض الحكومة الأمريكية والمؤسسات المالية الدولية للتغيير القائم على السوق فى العالم الثالث – فإن إدارة ريجان نفسها لم تكن هى النموذج للمسئولية المالية وفكر التجارة الحرة. فهى لم تطبق، فى عهدها الأول، إجراءات حمائية ضد ما اعتبرته منافسة غير عادلة فى السوق الأمريكية الداخلية فحسب، وإنما تسببت فى وجود أكبر عجز فى الميزانية الحكومية فى تاريخ أمريكا. لقد زادت الحكومة الأمريكية من سوء أزمة الديون العالمية، بأن كرست مواردها المتاحة من أجل برامج إعادة التسليح، ولكنها أيضًا عملت جاهدة لتبقى على الدولار مرتفعًا مقارنة بباقى العملات مما جعل عملية سداد الديون التى – غالبًا ما تتم بالدولار الأمريكى – أصعب على دول العالم الثالث. فى الوقت نفسه، لم يتطلب الأمر إجراء أى مبادرات سياسية للتعامل مع أزمة الديون، مما جعل ديون العالم الثالث تزداد أكثر وأكثر فى الثمانينيات؛ وكما ورد فى تقرير مهم عن الاقتصاد العالمى منذ ١٩٤٥، فإن سياسات ريجان لم تكن "معدة سلفًا وأيديولوجية فحسب" وإنما كانت "أنانية وعدوانية"(٧٩).

كان نموذج التنمية الذى وصفه إجماع واشنطن لدول العالم الثالث - والذى قام مبعوثوها بإجبار العالم الثالث على تنفيذه - أقل مرونة من السياسات التى تطبقها الولايات المتحدة على نفسها. فبالإضافة إلى التقشف فى الميزانية وانخفاض قيمة العملة، تكونت في بعض الحالات من تحرير الأسعار وتحرير التجارة، والخصخصة وفى بعض الأحيان ألغت الخدمات العامة تمامًا. أما تلامذة صندوق النقد الدولى المتميزون - أنظمة مثل أنظمة المغرب وساحل العاج وفنزويلا والفلـــبين - فقد مرت بفترات من إعادة التكيف الاقتصادى، ولكنها دفعت أثمانًا باهظة على الصعيد الاجتماعى؛ فكلها عانت من زيادة معدلات الفقر التى كان لها، أو التى لها الآن، آثار مدمرة على استقرارها السياسى، بل على تماسكها الوطنى. فى دولة مثل مالى، وهى واحدة من أفقر الدول الأفريقية ومن ضمن أولى الدول التى نفذت الإصلاح الهيكلى الذى فرضه صندوق النقد الدولى كشرط لمنحها المزيد من القروض، ازدادت نسبة وفايات الرضع بأكثر من ٢٥% فيما بين ١٩٨٠- ١٩٨٥، بعد أن كانت قد انخفضت لأكثر من ٢٠% منذ الاستقلال. شأن التجارب الاشتراكية فى إثيوبيا فى الوقت نفسه (انظر الفصل السابع من الكتاب)، فإن سياسات الدولة لم تخلق الجوع أو سوء التغذية وإنما صعبت على الشعب التعامل مع تلك الظروف[٨٠].

لم تكن عدم الكفاءة الاقتصادية والضغوط التى مارستها المؤسسات المالية العالمية هى وحدها الأسباب التي جعلت معظم دول العالم الثالث تتجه إلى اقتصاد السوق فى أوائل الثمانينيات. فقد كان الصعود الاقتصادى الملحوظ فى الدول الرأسمالية فى شرق آسيا، وخاصة النجاح السريع الذى حققته الصين فى التكيف مع الأسواق العالمية سببًا فى ضعف الإيمان بالحلول الاشتراكية، ليس فى بقية آسيا فحسب بل فى العالم الثالث كله. فمع أكثر من ٧% متوسط نمو سنوى فى كل

الاقتصادات غير الاشتراكية في المنطقة، ونسبة ٩% نمو سنوى بالصين، وهى نسبة مذهلة، كان لابد من التوقف عند تلك النتائج الاقتصادية فى كل مكان آخر فى العالم. فى ١٩٨٤ كان العديد من قادة العالم الثالث الذين عبروا فى السابق عن اهتمامهم بالتعلم من أوروبا الشرقية وكوبا – مثل جيرى رولينجس فى غانا وموسى تراورى في مالى ودينيس ساسو- نجسو فى جمهورية الكونغو الشعبية – قد بدأوا يعلنون أنهم يدرسون معجزة شرق آسيا. لكن هؤلاء القادة انتهوا إلى حلول فرضها عليهم صندوق النقد الدولى، بعد أن قرروا التخلى عن الاشتراكية والتخطيط الاقتصادى من أجل أن يمنحهم المزيد من القروض، ولكن رحلاتهم إلى شرق آسيا جعلتهم يشعرون بالراحة لأنهم اختاروا التكيف مع السوق العالمية.

ربما كان تغيير الصين لتوجهاتها هو الصدمة الأعنف للكثير من سياسيى العالم الثالث. فقد كان اشتراكيو العالم الثالث قد اعتادوا على توجيه الصين لهم تهمة الافتقار إلى الإخلاص الأيديولوجـــى الماركسى، لذا فقد ذهلوا من معانقة الصين للسوق بهذه الحماسة الشديدة فى الثمانينيات، وكان معظم الناس فى العالم الثالث يعتقدون أن تحالف الصين مع أمريكا فى السبعينيات كان خطوة شديدة البراجماتية من قِبَل بكين، توجهها ضد أعدائها اللدودين، ألا وهم السوفيت. ولكن فى ١٩٨٤ اتضح أن انفصال الصين عن الاتحاد السوفيتى قد فتح الطريق نحو نظام اجتماعى واقتصادى جديد تمامًا، يقبل قيم السوق بينما فى الوقت نفسه يبقى على الدولة ذات الحزب الواحد، والسيطرة السياسية الصارمة. لقد جعل النموذج الصينى بعض زعماء العالم الثالث يعتقدون أن باستطاعتهم إعادة توجيه اقتصاداتهم مع الإبقاء على القوة السياسية. لقد أرهقتهم محاربة النظام الرأسمالى العالمى ومحاربة شعوبهم فى الوقت نفسه، مما جعل النموذج السياسى الصينى مغريًا لهم بقدر ما فى ذلك النموذج من نمو اقتصادى.

بالنسبة لدولة مثل موزمبيق، الغارقة فى الديون، وفى وجود تمرد داخلى دموى، وإن أمكن احتواؤه، برعاية جنوب أفريقيا، ومع تمزق بنيتها التحتية، فليس بمستغرب أن تحاول التوصل إلى حل وسط مع الولايات المتحدة. ومع نفاد صبر الزعيم الموزمبيقى ساموراا ماشيل *Samora Machel* من النصائح التى كان يتلقاها من مساعديه السوفيت والألمان الشرقيين - ورغم قناعاته الاشتراكية - بدأ فى ١٩٨٢ مصالحة بطيئة مع واشنطن. كان ماشيل اشتراكيًا براجماتيًا، قام بتنظيم محادثات لانكستر هاوس التى أدت إلى استقلال زمبابوى فى ١٩٨٠ وقام بنصح رئيس الوزراء الزمبابوى الجديد روبرت موجابى لتجنب الأخطاء الديماجوجية التى وقع فيها هو نفسه عند إقامة الاشتراكية. فى ١٩٨٤، ومع زيادة الضغوط من الولايات المتحدة، وقع ماشيل اتفاقية مع حكومة جنوب أفريقيا، تعهد فيها الطرفان بالتوقف عن مساعدة مجموعات المعارضة فى الدولة الأخرى. وتم القضاء نهائيًا على أنشطة المؤتمر الوطنى الأفريقى فى موزمبيق. وأصبحت ما يسمى باتفاقيات نكوماتى *Nkomati Accords* فى شئون أفريقيا الجنوبية، حيث كانت هذه المرة الأولى التى يقوم فيها نظام أفريقى راديكالى بتوقيع اتفاق مع جنوب أفريقيا؛ كما أنها أظهرت الفائدة المحدودة جدًا التى خلفتها السياسات الداخلية الاشتراكية والتحالف مع الاتحاد السوفيتى فى دولة مثل موزمبيق. ورغم دحض جنوب أفريقيا لهذه الاتفاقيات بعد عامين، ووفاة ساموراا ماشيل فى حادث طائرة مشكوك فيه بداخل جنوب أفريقيا فى ١٩٨٦، فإن اتفاقيات نكوماتى كانت دافعًا قويًا للغير، مثل المؤتمر الوطنى الأفريقى لتبدأ إعادة توجيه سياساتها الداخلية والخارجية(٨١).

قبل التغيرات التى وقعت فى الاتحاد السوفيتى بكثير، التى بدأت مع انتخاب ميخائيل جورباتشوف فى ١٩٨٥، كان الكثير من دول العالم الثالث الأصولية تقوم بعملية تحول عن مبادئ الماركسية اللينينية ذات الطابع السوفيتى. وباستثناء دول مثل أفغانستان وإثيوبيا ونيكاراجوا، التى كانت قد أبعدت عن النظام الاقتصادى العالمى بسبب ضغوط الولايات المتحدة (عدم الإقراض الاستراتيجى" كما ورد

فى خطاب ريجان)، كانت كل دول العالم الثالث الحليفة للاتحاد السوفيتى (ماعدا كوريا الشمالية) قد بدأت شكلا من أشكال الإصلاحات المتوجهة نحو السوق قبل ١٩٨٥. وكان "نموذج" شرق آسيا بالقطع غير متوافق مع احتياجات العالم الثالث، بالقدر نفسه الذى لم تكن النماذج الأخرى المفروضة عليهم أثناء الحرب الباردة. ولكن كما رأينا كانت هناك عوامل شد وجذب أدت إلى هذا التغيير. فقد انتهى الأمر بالكثير من الدول الراديكالية إلى اقتصادات أسوأ من اقتصادات الأنظمة التى حلت محلها، مما أدى إلى معاناة شديدة لأهالى تلك الدول. فى بعض الحالات فقد الزعماء أنفسهم الإيمان بالتخطيط وكان يحدوهم الأمل فى أن يهربوا إلى نموذج اقتصادى أفضل (مع احتفاظهم ببعض سياسات التوزيع لديهم فى محلها). ولكن الأهم من ذلك كان عوامل الجذب التى من خلالها اشترط الغرب "الإصلاح الهيكلى" من أجل تفاعل اقتصادى طبيعى. كان ذلك امتدادًا دراميًا للحرب البادرة إلى الاقتصاد العالمى، وهو الامتداد الذى أصبح نجاحًا كبيرًا للولايات المتحدة.

فى ١٩٨٣و١٩٨٤ كانت تطورات عديدة تشير إلى تغير أحوال الاتحاد السوفيتى والاشتراكية فى العالم الثالث تغيرًا دراميًا. على الجانب السوفيتى، كان هناك الركود السياسى والاقتصادى والعزلة الدولية المتزايدة جراء الحرب فى أفغانستان. على الجانب الأمريكى كان هناك ريجان ونزع السلاح والتدخلات المعادية للثورات. أما من جانب العالم الثالث، فقد خدعه التخطيط المستوحى من الماركسية، وتحت ضغط من الغرب بدأ يتحرك فى اتجاه الاقتصادات القائمة على السوق. فى الكثير من الحالات، كما فى حالة موزمبيق، كان البحث عن نمط اقتصادى جديد هو نفسه البحث عن السلام والمصالحة فى داخل حدود الدولة؛ فقد أرهق كل من الشعب والحكومة من الاضطراب المدنى والحملات الشعبية والنداءات المستمرة للتضحية والإيمان بالثورة. كان شكلا من أشكال الاستسلام، وقد حدث عنوة، ولكنه كان يبدو – كما كانت الثورة تبدو للجيل الذى سبق – المخرج الوحيد.

هوامش الفصل التاسع

(١) هناك بالفعل الكثير من الأدبيات حول سياسة ريجان فى العالم الثالث؛ حتى الآن فإن أفضل الأدبيات هى

James M. Scott, Deciding to Intervene: The Reagan Doctrine and American Foreign Policy (Durham, NC: Duke University Press, 1996),

ولكن انظر أيضا:

Peter W. Rodman, More Precious than Peace: The Cold War and the Struggle for the Third World (New York: Schribner's Sons, 1994),

و *Robert A. Kagan, A Twilight Struggle: American Power and Nicaragua, 1977-1990 (New York: Free Press, 1996),*

و *Chester Crocker, High Noon in Southern Africa: Making Peace in a Rough Neighborhood (New York: Norton, 1992).*

تلك الثلاث الأخيرة كتبها مسئولون فى وزارة الخارجية فى إدارة ريجان

(٢) محادثة المؤلف مع جارى سيك *Gary Sick* ، ١٨ سبتمبر ١٩٩٥، ليسيبو.

(٣) استخدم مفهوم "الشمولية" لأول مرة كهدف سياسى على يد الفاشيين الإيطاليين فى العشرينيات. وكان استخدامه فى الستينيات يستند إلى الدروس المفترضة التى أفرزتها هزيمة ألمانيا النازية وإيطاليا واليابان؛ وقد استلهم المصطلح من *Hannah Arendt's Origins of Totalitarianism* الذى نشر لأول مرة فى ١٩٥١.

(٤) هناك فى فكر بريـچنسكى تعارض غريب بين نظرته التنبوئية عن الدور الأمريكي وتأكيده، وكأنه كيسنجر، على تعلم السوفيت من الأفعال الأمريكية.

(٥) الخطاب بالراديو، ٣١ مارس ١٩٧٦، على موقع

http://www.reaganlegacy.org/speeches/

(٦) *Wall Street Journal, 3 June 1980*

(٧) لنظرة عامة رائعة بهذا الشأن انظر:

Jagdish N. Bhagwati, ed., The New International Economic Order: The North-South Debate (Cambridge, MA: MIT Press, 1977)

(٨) *Kofi Buenor Hadjor, Penguin Dictionary of Third World Terms (Harmondsworth: Penguin, 1993), p. 223*

(٩) لبعض المقارنات المثيرة بين سياسات الدولة انظر

Peter B. Evans, Embedded Autonomy: States and Industrial Transformation (Princeton, NJ: Prince-ton University Press, 1995);

انظر أيضا، من وجهة نظر المستشارين الغربيين:

The Elusive Quest for Growth: Economists' Adventures and Misadventures in the Tropics (Cambridge, MA: MIT Press, 2001).

(١٠) انظر *Forrest D. Colburn, The Vogue Revolution in Poor Countries (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), especially pp. 97-105.*

(١١) للنقاش المهمة حول مفاهيم الدولة والأمة فى العالم الثالث أثناء الحرب الباردة انظر:

Bertrand Badie, L'etat importé: essai sur l'occidernalisation de l'ordre politique (Paris: Fayard, 1992), especially pp. 169-200.

انظر أيضا *Dawa Norbu, Culture and the Politics of Third World Nationalism (London: Routledge, 1992),*

و

Nicola Weber and Andreas Biermayer, Das Chamäleon Ideologie im Kontext einer "Neuen Ordnung" mit alten Strukturen (Munster: I-it, 1993).

(١٢) انظر مثلا *Martin Ravallion and Shaohua Chen, "Distribution and Poverty in Developing and Transition Economies: New Data on Spells during 1981-93," World Bank Economic Review, 11 (1997)*

(١٣) *CIA, "The Soviet Economy in 1978-79 and Prospects for 1980: A Research Paper," June 1980, on http://www.foia.cia.gov.*

وتؤكد الأرقام الروسية الحديثة هبوط النمو فى السبعينيات كما تشير إلى عام ١٩٧٩ باعتباره عام صعب على وجه الخصوص. انظر

V.A. Vinogradov, chief ed., Ekonomichesaaia istoriia Rossii XIX-XX vv: sovremennyi vzgliad (The Economic History of Russia in the Nineteenth and Twentieth Centuries: A Contemporary View) (Moscow: Rosspen, 2000).

(١٤) بدأ أندروبوف نفسه يستخدم مصطلحا مشابها فى ١٩٨٣ – *perekhitrit*، وترجمته الحرفية "المتجاوز" – حول الارتباطات الخارجية السوفيتية (لقاء صحفى مع نائب وزير الخارجية الأسبق ميخائيل كابتسا ، موسكو ، ٨ سبتمبر ١٩٩٢).

(١٥) تسجيل اجتماع المكتب السياسى للجنة المركزية بالحزب الشيوعى السوفيتي، ٣١ مايو ١٩٨٣ مشروع التاريخ الدولى للحرب الباردة *CWIHP Bulletin, 4.*

(١٦) انظر *Beth Fischer, The Reagan Reversal: Foreign Policy and the End of the Cold War (Columbia, MO: University of Missouri Press, 1997)*

و *James M. Scott, Deciding to Intervene: The Reagan Doctrine and American Foreign Policy (Durham, NC: Duke University Press, 1996), especially pp.14-39.*

(١٧) إيلى كراكوسكى *Elie Krakowski* فى مؤتمر *CWIHP* حول أفغانستان ، واشنطن العاصمة، أبريل ٢٠٠٢.

(١٨) المقابلة الصحفية بين المؤلف وريتشارد بيبس، أوسلو ، مايو ١٩٩٣.

(١٩) فورتينيكوف إلى اللجنة المركزية بالحزب الشيوعى السوفيتي، ١٥ ديسمبر ١٩٨٠، *RGANI,f. 5, op. 8.1, d. 551, pp. 1-27;*

تسجيل المحادثة بين رودريجوس وهيج، ٢٣ نوفمبر ١٩٨١، أرشيف الأمن القومى *NSArch*.

وكان رد فعل رودريجوس على اتهامات هيج بشأن أمريكا الوسطى هى أن "الاتحاد السوفيتى لا يريد بحال من الأحوال أن يتورط فى أى فعل قد يبدو أنه عملية ثورية لايرغب فى المشاركة فيها".

(٢٠) لقاء صحفى مع وولتر كرونكايت *Walter Cronkite* من شبكة أخبار *CBS*، ٣ مارس ١٩٨١.

(٢١) للمزيد حول تاريخ الساندنيستا، انظر:

Matilde Zimiriermann, Sandinista: Carlos Fonseca and the Nicaraguan Revolution (Durham, NC: Duke University Press, 2000),

و *Dennis Gilbert, Sanidinistas: The Party and the Revolution (Oxford: Basil Blackwell, 1988).*

(٢٢) من أجل معرفة عامة انظر

Thomas W. Walker, ed., Nicaragua in Revolution (New York: Praeger, 1982).

(٢٣) *Kagan, Twilight Struggle, p. 91*

(٢٤) انظر مثلا مذكرات أحد أهم القادة الساندنستيين، توماس بورج *Tomas Borge*

The Patient Impatience: From Boyhood to Guerrilla. A Personal Narrative of Nicaragua's Struggle for Liberation (Willimantic, CT: Curbstone Press, 1992).

(٢٥) *Kagan, Twilight Struggle, p. 197*

(٢٦) انظر شهادة أورتيجا نفسه فى

60 preguntas a un sandinista: entrevista a Daniel Ortega Saavedra (Sixty Questions to a Sandinista: Interview with Daniel Onega Saavedra) (Managua: Radio la Primerisima, 1994).

(٢٧) *Kagan, Twilight Struggle, p. 192*

(٢٨) الكثير من الدعم الأمريكي لحكومة السلفادور كانت قد أعدته إدارة كارتر؛ انظر

"Presidential Determination on Nicaraguan Support for Salvadorean Guerrillas," 1 October 1981, box 33, subject file meetings, Brzezinski collection, Jimmy Carter Presidential Library,

و *Bob Woodward, Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981-1987 (New York: Simon & Schuster, 1987).*

الجزء الأول من تسجيل هذه المحادثة سلمته حكومة نيكاراجوا إلى محكمة العدل الدولية *ICJ* فى ١٩٨٦، انظر

ICJ, Military and Paramilitary Activities in and against Nicaragua (Nicaragua v. United States of America,), Merits, Judgment 27 June 1986;

انظر أيضا

William M. LeoGrande, Our Own Backyard: The United States in Central America, 1977-1992 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1998), p. 120.

(٢٩) السفير السوفيتي إلى كوبا فوروتينكوف*Vorotnikov*، مذكرة المحادثة مع باول كاسترو، ١ سبتمبر ١٩٧٩، *CWIHP Bulletin, 8-9*؛ تقرير ألمانيا الشرقية حول الزيارة إلى نيكاراجوا، يونيو ١٩٨١

SAPMO-BArch, J IV 2/20/149.

(٣٠) تسجيل المحادثة بين *AIV* وبين كارلوس ننز تلز *Carlos Nunez Tellez*، ٢٠ يوليو ١٩٨١ *SAPMO-BArch, J IV 2/20/149*.

(٣١) تسجيل اللقاء التليفزيونى بين دانيل أورتيجا لسلسلة الحلقات عن الحرب الباردة على شبكة تليفزيون *CNN*، على موقع:

http://www.cnn.com/SPECIALS/cold.war/episodes/18/interviews/ortega/.

(٣٢) للمزيد عن التفاعل بين نيكاراجوا والكتلة الشرقية فى ١٩٨١-١٩٨٤ انظر تسجيل المحادثة بين هونيكر ودانيل أورتيجا، برلين، ٢٠ يونيو ١٩٨٤

SAPMO-BArch, DY-30 JIV 2/201/1586;

انظر أيضا *Danuta Paszyn, The Soviet Attitude to Political and Social Change in Central America, 1979-1990: Case-Studies on Nicaragua, El Salvador and Guatemala (Houndsmills: Macmillan, 2000), pp. 39-55.*

(٣٣) مقابلة مع والتركرونكايت من شبكة *CBS News*، ٣ مارس ١٩٨١.

(٣٤) ملاحظات إلى مجموعة عمل حول سياسة الولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى، ١٨ يوليو ١٩٨٤، على موقع *http://www.reagan.utexas.edu/resource/speeches/ 1984/71884d.htm.*

(٣٥) تم نشره أصلا فى *Commentary* (يناير ١٩٨١)، ثم أعيد طبعه تحت عنوان *"US Security and Latin America"*

فى *Jeane J. Kirkpatrick, Dictatorships and Double Standards: Rationalism and Reason in Politics (New York: Simon & Schuster, 1982), p. 89.*

(٣٦) مسئول رفيع بإدارة ريجان، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، أغسطس ١٩٩٩.

(٣٧) *Fred C. Ikle, "US Policy for Central America: Can We Succeed?"*

كان إيكل نائب وزير الدفاع في إدارة ريجان.

(٣٨) *Elizabeth Wood, Insurgent Collective Action and Civil War in El Salvador (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p. 201.*

(٣٩) *Ibid., pp. 117-118*

(٤٠) جلسة أسئلة وإجابات مع طلاب الجامعة حول القضايا الداخلية والخارجية ، ٢٥ مارس ١٩٨٣،
Public Papers of the residents of the United States (hereafter PPP-US), Ronald Wilson Reagan

على موقع *resource/speeches/1983/32583c.htm.http://www.reagan.utexas.edu*

(٤١) توماس بورج *Tomas Borge* ، ١ مايو ١٩٨٢، خطاب في مانـاجو، أعيـد طبعـه فـي *Intercontinental Press* ، ٣١ مايو ١٩٨٢.

(٤٢) للآثار الناجمة عن الحرب الأهلية في السلـڤادور انظر
Margaret L. Popkin, Peace without Justice: Obstacles to Building the Rule of Law in El Salvador (University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 2000).

و *Manuel Montobbio, La metamorfosis de pulgarcito: transicion politics y proceso de paz en El Salvador (Tom Thumb's Transformation: Political Transition and Peace Process in El Salvador) (Barcelona: Icaria, 1999).*

(٤٣) قد يظن المرء أن القول أيسر من الفعل في هذا الأمر. فكما يشير هنري برادشـر فـإن الوزارة الجديدة لكارمال تضمنت سرواري كنائب أول لرئيس الوزراء، الذي اتهم علنا بأنه شخصيا قام بتعذيب النائب الثاني كشتمند، بينما قضى الأخير فترة في السجن فـي ١٩٧٨. انظر:
Henry S. Bradsher, Afghan Communism and Soviet Intervention (Oxford: Oxford University Press, 1999), p. 121.

(٤٤) انظر *Gilles Dorronsoro, La revolution afghane: des communities aux taliban (Paris: Karthala, 2000), pp. 109-154.*

وهذا الكتاب هو أفضل ما كتب حول السياسات الأفغانية في الثمانينيات.

(٤٥) وفقا للـچنرال محمد يوساف ، نائب رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية، فإنـه فـي أوائل عام ١٩٨٤ "نفد صبر زاي وأصدر توجيهاته في الثانية صباحا بأن على الأحزاب أن تقوم بتكوين تحالف من سبعة أحزاب وأن تصدر إعلانا مشتركا بهذا المحتوى في خلال ٧٢

ساعة. ولم يقل ما سوف يفعله إن تراجعوا عن ذلك. كان القادة يدركون أنه لولا مساندة باكستان، متمثلة فى ضياء الحق، لانتهى كل شيء".

Mohammed Youssaf with Mark Adkin, Afghanistan: The Bear Trap. The Defeat of a Superpower (Havertown, PA: Casemate Publishers, 2001), p.35.

وكتاب الجنرال يوساف يقدم بحثا ممتازًا عن مشاركة المخابرات الباكستانية للمقاومة الأفغانية.

(٤٦) *Russian General Staff, The Soviet-Afghan War: How a Superpower fought and Lost, trans. and ed. Lester W. Grau and Michael A. Gress (Lawrence, KS:University of Kansas Press, 2002).*

(٤٧) *Ibid., p. 19.*

(٤٨) *Dorronsoro, Revolution afghane, pp. 193-227; Fred Halliday and Zahir Tanin, "The Communist Regime in Afghanistan 1978-1992," Europe-Asia Studies, 50 (1998): 1357-1380.*

(٤٩) المقابلة مع دوبرينين، انظر أيضا

"The Intervention in Afghanistan and the Fall of Detente. Transcript of an International Conference, Lysebu, September 1995," Norwegian Nobel Institute, 1995.

(٥٠) لمعرفة أهداف، انظر خطابه إلى الشعب فى ٣ يونيو الذى نشر تحت عنوان:

"Islamic Order, Our Goal" (Islamabad: Directorate of Films and Publications, Ministry of Information and Broadcasting, Govt. of Pakistan, [1980]).

(٥١) معلومات من المقابلات الصحفية التى أجراها المؤلف فى باكستان فى ١٩٨٦ و١٩٩١ ولكن للأسف لا يمكننا ذكر أى من أسماء الذين أدلوا لنا بمعلومات.

(٥٢) معلومات من الشهادة الشفوية لكل من إيلى كراكوفسكى *Elie Krakowski* وميلتون بيردن *Milton Bearden* ونيكولاس فيليوتس *Nicholas Veliotes* فى مؤتمر تحت عنوان

"Towards an International History of the War in Afghanistan, 1979-89,"

نظمه مشروع التاريخ العالمى للحرب الباردة، واشنطن العاصمة، ٢٩-٣٠ أبريل ٢٠٠٢.

organized by the Cold War International History' Project in Washington, DC, 29-30 April 2002.

(٥٣) وزير الخارجية إلى سفارة الولايات المتحدة، إسلام أباد، لنائب وزير الخارجية إيجلبرجر والسفير سبيرس، (نوفمبر ١٩٨٢) أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان.

(٥٤) فيليوتس إلى وزير الخارجية ، ٢٩ نوفمبر ١٩٨٢،أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان.

(٥٥) شولتز إلى ريجان، ٢٩ نوفمبر ١٩٨٢) أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان.

(٥٦) تسجيل المحادثة بين شولتز وزاى، ٦سبتمبر ١٩٨٢، أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان.

(٥٧) كان تسونجاس وريتر قد اقترحا حلا بالفعل فى ١٩٨٢ عن تزويد المجاهدين بمساعدات مادية أكثر تأثيرا، ولكن هذا الاقتراح لم يتم تمريره حتى ١٩٨٤، بسبب محاولات الإدارة أن تربط بين مساندة الأفغان وبين مساندة "المقاتلين من أجل الحرية" فى كل مكان آخر (أى نيكاراجوا – وهى السياسة التى عارضتها الأغلبية بالكونجرس) وبسبب الشكوك فى الكونجرس حول إمكانية إيجاد النقود لتمويل الأفغان.

(٥٨) السفارة الأمريكية، إسلام أباد، إلى وزير الخارجية ، يونيو ١٩٨٣، أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان.

(٥٩) إيلى د. كراكوفسكى ، محادثة مع المؤلف ، ٢٩ أبريل ٢٠٠٢.

(60) Jay Winik, On the Brink: The Dramatic Behind-the-Scenes Saga of the Reagan Era and the Men and Women who Won the Cold War (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 447.

انظر أيضا ماكفارلين *McFarlane* إلى شولتز *Shultz* ،

"US-Soviet Relations: A Framework for the Future,"

حيث يجادل مستشار الأمن القومى بأن الاتحاد السوفيتى سوف يجد فى العالم الثالث أصعب المناطق لوجود توافق مع الولايات المتحدة، لأسباب خاصة بالمبدأ (٢٤ فبراير ١٩٨٤، أرشيف الأمن القومى، مجموعة أفغانستان).

(٦١) *Joseph E. Persico, Casey: From the OSS to the CIA (New York: Viking, 1990), p. 226.*

(٦٢) هذه المبادرات الجديدة تم تجميعها فى أوامر ريجان لاتخاذ قرارات الأمن القومى ١٦٦،
"US Policy, Programs, and Strategy in Afghanistan,"
٢٧ مارس ١٩٨٥. وهذه الوثيقة لم يتم الإفراج عنها بعد.

(٦٣) رئيس محطة المخابرات الأمريكية *CIA* فى إسلام أباد آنذاك ميلتون بيردن، قدر أعداد المسلمين الأجانب الذين كانوا يقاتلون فى أفغانستان بحوالى ألفين إلى ثلاثة آلاف مقاتل فى ١٩٨٦ (محادثة مع المؤلف ، واشنطن العاصمة ، ١٩ أبريل ٢٠٠٢). لازال من الصعب تحديد مدى اتساع هذه الشبكة. فبالإضافة إلى معسكرات التدريب فى باكستان، كان هناك معسكر فى مصر وربما معسكر آخر فى إحدى دول الخليج، كل منهما يعمل محليا ولكن بمساعدة المخابرات الأمريكية *CIA*.وقد قام الصينيون بتدريب بعض الأفغان وربما الأجانب أيضا فى معسكر جنوب غرب الصين.أما حكومة تاتشر – فكما هو منهجها دائما – "خصخصت" مساعداتها العسكرية إلى أفغانستان، مستخدمة المال العام لتدفع للمرتزقة

ليقوموا بتدريب متخصصي ISI (هذه المعلومات جمعها المؤلف في بيـــشاور فـــي ١٩٨٥ و١٩٨٦؛ ومن المحادثات مع تشارلز كوجان وميلتون بيردن، واشنطن العاصـــمة، أبريـــل ٢٠٠٢). للأسف فإن أحد أهم مصادر المعلومات وهو كتاب:

John K. Cooley's Unholy Wars: Afghanistan, America, and International Terrorism (2nd edu; London: Pluto Press, 2000),

لا يعتمد عليه؛ فبعض المعلومات التي يستخدمها كولي تعود أصـــلا إلـــى معلومـــات ســـوفيتية مغلوطة من الثمانينيات (مقابلة صحفية مع فاسيلي ميتروخين Vasiliy Mitrokhin ، لنـــدن، أكتوبر ٢٠٠١ ؛ انظر أيضا

Mitrokhin, The KGB in Afghanistan, ed. Christian Ostermann and 0. A. Westad, [Washington, DC: Cold War International History Project, 2002]).

(٦٤) وفقا للـــجنرال يوساف ذهب نائب الكونجرس ويلسون إلى أفغانستان مع ISI عدة مرات في منتصف الثمانينيات، حيث كان يتلذذ بأن يصوروه على حصان أبيض مرتـــديًا ملابـــس المجاهدين وواضعا حزاما من الرصاص حول صدره. وكان في ذروة الإثارة عندما انفجرت بجانبه قذيفة طائشة... ولأننا كان معنا عدة قناصة فقد حاولنا إغراء طائرة هليكوبتر لتأتي في نطاقنا حيث أراد المجاهدون أن يستعرضوا مهاراتهم، وقد كان حماس ويلسون أن يرى طائرة تسقط قدر حماسهم. ولكن لسوء الحظ فقد ابتعدت الطائرات".

(Youssaf, Bear Trap, pp. 54-55).

(٦٥) *Woodward, Veil;*

مسئول رفيع بإدارة ريجان، المقابلة مع المؤلف، واشنطن، أغسطس ١٩٩٩.

(٦٦) كان بنك الائتمان والتجارة الدولي، الذي انهار في ١٩٩١، يضم حسابات العائلة السعودية المالكة وكذا حسابات أسرة بن لادن وكان أحد إخوة بن لادن يعمل في مجلس إدارة البنـــك. انظر المسودة قبل الأخيرة من

"The BCCI Affair: A Report to the Committee on Foreign Relations, United States Senate, by Senator John Kerry and Senator Hank Brown, December 1992," on http://fas.org/irp/ congress/1992_rpt/bcci/.

(٦٧) كان لدى المجاهدين صواريخ أرض جو من نوع "بلوبايب" بريطانيـــة الـــصنع وبعـــض الصواريخ خفيفة الوزن سوفيتية التصميم من طراز SA-7 منذ أواخر ١٩٨٣ . ولكن رغـــم أنها كانت ناجعة في البداية، فقد كانت أسهل أن تتفاداها الطائرات الهليكوبتر والمقاتلات.

(٦٨) وفقا لأحد مساعديه، فقد كان شلتز يبحث عن أسلوب ليضغط به أكثر وأكثر على السوفيت منذ ١٩٨٣، عندما تأثر بشدة بمأساة اللاجئين الأفغان بعد زيارته إلـــى معـــسكراتهم فـــي باكستان (نيكولاس فـــليوتس، مقابلة، واشنطن العاصمة، أبريل ٢٠٠٢).

(٦٩) *Youssaf, Bear Trap, p. 73.*

انظر أيضا

Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 11, 2001)1 (Harmondsworth: Penguin, 2004).

(٧٠) يرى الـجنرال يوساف رئيس مكتب *ISI* بأفغانستان أن حكمتيار "مؤمن لأبعد حد بحكومة إسلامية فى أفغانستان، مدير إدارة ممتاز وعلى حد علمى الشخصى أمين للغاية. ورغم ثرائه النسبى فهو يعيش حياة موفرة. وهو أيضا قاس ومتعجرف وغير مرن ومعلم صارم ولا يتفق مع الأمريكيين"

(Youssaf, Rear Trap, p. 36).

(٧١) مجموعة سياف عاشت حياة مختلفة بعد أن عاد أحد مقاتليها الأجانب، وهو يستاذ عبد الرازق جينجيلانى وكان قد انضم إليها فى الثمانينيات، إلى وطنه فى الفلبين فى ١٩٨٩، وقد تحول من واعظ إسلامى حسن الكلمة فى البرامج الحوارية إلى رئيس جماعة خارجة تعرف بجماعة أبو سياف.

(٧٢) اختارت جماعة حكمتيار الزعماء الدينيين المعتدلين والطبقة المتعلمة الأفغانية فأرهبتهم أو اغتالتهم. وكان اغتيالها لأكبر الكتاب الأفغان عن الحرب سيد بهاء الدين مجروح فى بيشاور فى ١١ فبراير ١٩٨٨ وقع مروع. وجهة نظر حكمتيار عن الولايات المتحدة خلال لقائه مع المؤلف فى ١٢ مارس ١٩٨٥. المخابرات الأمريكية ، فى الوقت نفسه، استمرت فى الدفاع عن الجماعة. وأخبر أحد مسئولى المخابرات الأمريكية نظيره الفرنسى أن "قلب الدين ليس بالسوء الذى تخشونه" (وردت العبارة فى *Ghost Wars, p. 151*).

(٧٣) رئيس الأركان الروسى

Russian General Staff, Soviet-Afghan War, especially chs. 7 (Combat Support) and 9 (Morale).

(٧٤) رونالد ريجان "الأجندة هى النصر" ٢٦ فبراير ١٩٨٢ على موقع

Ronald Reagan, "The Agenda is Victory," 26 February 1982, on http:// www. thereaganlegacy. com.

(٧٥) *Kirkpatrick, "Dictatorships and Double Standards," Commentary (November 1979).*

(٧٦) خطاب رونالد ريجان بعنوان "هدف أمريكا" *"America's Purpose,"*، ٢٥ مارس ١٩٧٨، على موقع *http://www.reaganlegacy.org/speeches/*. كان حلفاء الولايات المتحدة لازالوا معفيين : "الرئيس موبوتو لازال متمسكا بالبرامج الصعبة الشجاعة للإصلاح الاقتصادي،

والإذعان لمتطلبات بنك النقد الدولي، وسياسة ليبرالية لحقوق الإنسان" مستشار الأمن القومي ماكفارلين يخبر الرئيس ريجان، ٢٧ فبراير ١٩٨٤، صندوق ٤٢، الشئون الأفريقية، السكرتارية التنفيذية لمجلس الأمن القومي، مكتبة الرئيس رونالد ريجان، *Simi Valley, CA*.

(٧٧) رئيس صندوق النقد الدولي جاك دي لاروسير دي شامبو، كما ورد في
Wood, Insurgent Collective Action, p. 300.

ومن الطريف أن رئيسي صندوق النقد الدولي في الثمانينيات جاك دي لاروسير وخليفته ميشيل كامديسس *Michel Camdessus* كانا قد ارتدا عن سياسة عدم الخضوع للنظام النقدي للمدرسة الفرنسية القومية لإدارة الأعمال حيث تخرجا.

(٧٨) *Wood, Insurgent Collective Action, p. 267*

(٧٩) *Philip Armstrong, Andrew Glyn, and John Harrison, Capitalism Since 1945 (Cambridge, MA: Blackwell, 1991), p. 293.*

(٨٠) انظر أيضا الرواية الرائعة
Ibrahima Ly, Toiles d'araignées (Paris: Harmattan, 1985). Eric Toussant, La bourse ou la vie: la finance contre les peuples (Paris: Editions Syllepse, 1998), p. 157.

(٨١) لجنة جنوب أفريقيا للحق والمصالحة "حالة سامورا ماشيل على موقع
South African Truth and Reconciliation Commission, "The Case of Samora Machel," on http://www.contrast.org/truth/html/summary.html.

الفصل العاشر

انسحاب جورباتشوف ونهاية الحرب الباردة

بدأ الهجوم الأمريكى على المواقع السوفيتية فى العالم الثالث فى الوقت الذى تصاعدت فيه شكوك موسكو نفسها فى سياساتها فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. فى البداية لم تُجدِ محاولات ريجان فى نشر الثورة المضادة أن تدفع السوفيت إلى الانسحاب – بل على العكس، فالأدلة تؤكد أنه حتى عام ١٩٨٧ جعلت الضغوط الأمريكية الأمر أكثر صعوبة على موسكو أن تجد لها مخرجًا من ورطتها فى العالم الثالث. وفى حين استمرت المناقشات بين الزعماء السوفيت حول فرص الاشتراكية خارج أوروبا فى فترة الفراغ السياسى بعد بريچنيف – وإن كان بشكل أكثر فتورًا عما كان قبل غزو أفغانستان – فإن الأيديولوجية والتحالفات والمخاوف والتنافس الحزبى جعلهم يحجمون عن المزيد من الاستنتاجات الراديكالية. ولكن عندما أصبحت أفغانستان فى أوائل الثمانينيات، من أهم مشاغل موسكو فى العالم الثالث، فإن غياب أى نتائج سياسية هناك أكد أن الجنوب قد أصبح يمثل مشكلة فى العلاقات السوفيتية الخارجية، وليس الفرصة الواعدة التى كان يبدو عليها قبل عقد مضى.

قبل صعوده إلى السلطة، كان ميخائيل جورباتشوف يفكر فى العالم الثالث بنفس الأسلوب الذى كان يفكر به قطاع كبير من النخبة المثقفة السوفيتية، من الإقبال عليه فى منتصف السبعينيات إلى الشك فيه فى منتصف الثمانينيات. ومع

صعوده إلى السلطة كان جورباتشوف مازال ممزقًا بين تفاؤله العام بشأن الفرص العالمية للاشتراكية وحذره الناشئ عن قراءته الماركسية. كذلك حذره مستشاروه الذين كانت لهم خبرة بالعالم الثالث من خلال الإدارة الدولية بالحزب، وكثير منهم كانوا من ضمن من بدأوا النقاش حول اشتراكية العالم الثالث فى أواخر السبعينيات. ورغم ذلك فإن جورباتشوف كان فى البداية يعتقد أن بإمكانه إصلاح علاقة الاتحاد السوفيتى بحلفائه فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، كما بوسعه إصلاح تحالفات الاتحاد السوفيتى مع أوروبا، بل وإصلاح الاتحاد السوفيتى نفسه. وقال بأن الأمر يحتاج إلى المزج الصحيح بين الحزم والواقعية من جانب موسكو إلى جانب تقوية "قيادة صحيحة" بداخل الدول المتجهة نحو الاشتراكية. ورغم المحاولات الكثيرة التى سبقته فإنه عزم على وضع دروسه الخاصة عن العالم الثالث.

هجوم جورباتشوف

كان التحليل الماركسى لنظام العالم الرأسمالى هو نقطة انطلاق ميخائيل جورباتشوف فى تطوير العلاقات السوفيتية بالعالم الثالث. لقد رأى ومستشاروه فى ١٩٨٥-١٩٨٦ مجرد سلسلة من المعوقات المؤقتة للاشتراكية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية خلقها الصعود الاقتصادى للولايات المتحدة وانتشار الرأسمالية فى شرق وجنوب شرق آسيا، والتكامل الناجح الذى حققته البرجوازية المحلية فى بعض دول العالم الثالث فى اقتصاد عالمى مركزه الولايات المتحدة. ويبقى الوضع الهيكلى للرأسمالية العالمية ثابتًا منذ أزمات السبعينيات؛ فالولايات المتحدة كانت بالفعل تواجه منافسة عالمية متزايدة من أوروبا الغربية واليابان، ومن ثم كان التغير الاقتصادى التالى سيؤدى إلى صراعات، ليس بين واشنطن ونخب العالم الثالث فحسب، وإنما فى داخل التحالف الذى كونته الولايات المتحدة بعد الحرب

العالمية الثانية؛ وكان جورباتشوف عند توليه السلطة، مولعًا بالقول بأن "حقبة ما بعد الحرب" قد انتهت، وأن الاتجاه "المتوازن" نحو الاشتراكية فى تحسن.

بيد أن السكرتير العام الجديد ومستشاريه لم يروا أن الصعوبات التى تواجهها اشتراكية العالم الثالث كانت نتيجة أسباب موضوعية. بل رأوا أن كلا من الأحزاب المحلية والاتحاد السوفيتى قد ارتكبوا أخطاء استغلها الإمبرياليون. كان جورباتشوف يعتقد أن أخطاء الاتحاد السوفيتى كانت هى الأسوأ، حيث كان ينبغى على القادة السوفيت أن يكون لديهم الخبرة فى الصراع الطبقى والبناء الاشتراكى، وهى الخبرة التى كانت تساعد فى وضع أحزاب العالم الثالث ودوله لتقف على الطريق الصحيح.

كان من رأى جورباتشوف أن أخطاء السياسات السوفيتية فى العالم الثالث كانت مرتبطة بأخطاء السياسة المحلية السوفيتية. وأن الخطأ الأكبر كان عدم وجود طريق طويل المدى واضح ومحدد نحو الاشتراكية، يقوم على أساس "الظروف الموضوعية" في كل دولة. بل لقد عمل جورباتشوف بالنقد الذى بدأه إصلاحيو أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات – وكثيرون منهم كانوا قد أصبحوا من معاونيه – بأن موسكو بدلا من قيامها بتشجيع التحليل الصحيح لدى ثوريى العالم الثالث، تجاهلت أمورًا مهمة فى النظرية السياسية، بسبب المكابرة والإهمال والتعجل. فبدلا من إخبار زعيم مثل منجستو إثيوبيا بأن بناء الاشتراكية فى دولته كان عملية بطيئة تتطلب جيلا على الأقل، راح الخبراء السوفيت يقولون للإثيوبيين وغيرهم إن التقدم نحو مستوى أكبر من التنمية كان يمكن تحقيقه من خلال عوامل "ذاتية" مثل "الوعى الاشتراكى" و"التمسك بالمبادئ"؛ وقال جورباتشوف إن تلك الذاتية كانت موجودة بسبب رغبة "بعض" الزعماء السوفيت فى أن ترتبط أسماؤهم بالتقدم فى العالم الثالث[1].

أدى الافتقار إلى النظرية السياسية الصحيحة بالمعنى اللينينى، فى رأى جورباتشوف، إلى عدد من المواقف اليسارية المتطرفة لدى زعماء العالم الثالث الاشتراكيين. كان أشدها إشكالية هو محو سياسة التحالفات السياسية مع الجماعات السياسية والاجتماعية الأخرى. وبدلا من قيام بعض زعماء العالم الثالث بزيادة أعداد حلفائهم الداخليين فى صراعهم ضد الإمــبريالية والرجعية المحلية، أنقصوا من أعدادهم عن عمد من خلال سياسات اقتصادية واجتماعية محلية لم تكن صالحة لمرحلة التنمية القائمة فى دولهم. لقد سمح السوفيت لزعماء العالم الثالث بأن يسيئوا فهم المرحلة التى كانت دول مثل أنجولا أو أفغانستان تقبل عليها فى الطريق نحو الاشتراكية: ليس بناء الاشتراكية، بل ليس التفكيك التدريجى للرأسمالية، وإنما مرحلة ما قبل الرأسمالية حيث التحالف مع البرجوازية "التقدمية" لم يكن طبيعيًا فحسب، وإنما كان ضروريًا.

وقال جورباتشوف إن أخطاء السياسة السوفيتية قد أضيفت إلى سلسلة من أخطاء الشيوعيين والتقدميين فى كل مكان آخر لتصنع الصعوبات التى واجهها العالم الاشتراكى فى منتصف الثمانينيات. وبسبب إخفاقاتهم الداخلية، كان الكثير من أنظمة العالم الثالث يعتمد على مساعدات الدول الاشتراكية، وخاصة الاتحاد السوفيتى. ورغم رغبة جورباتشوف فى الاستمرار فى دعم أنظمة العالم الثالث التقدمية، كان قد أوضح فى بداية ١٩٨٦ أن هذا الدعم يعتمد على "تصحيح" السياسات المحلية وزيادة "التنسيق" مع موسكو ودول شرق أوروبا ودول مثل كوبا، حيث كانت الاشتراكية قد قامت بالفعل. بعبارة أخرى فإن الاتحاد السوفيتى لن يستطيع الاستمرار فى مساعداته لهذه الدول على نفس منوال منتصف الثمانينيات، إلا حال قيام أحزاب العالم الثالث بالمزيد، وسماح حلفاء موسكو بذلك.

ولكن آراء جورباتشوف عن العالم الثالث – ونظرته النقدية للموقف السوفيتى الداخلى – لم يكن فى البداية علامة على أسلوب أكثر دفاعية تجاه أفريقيا

وآسيا وأمريكا اللاتينية، فقد كان الزعيم الجديد ومستشاروه ينتقدون افتقار الزعماء السوفيت السابقين إلى الرغبة فى الدفاع عن "المكاسب الاشتراكية"، وكان ذلك بسبب عدم قدرة جيل بريچنيــف على تقدير الأولويات. ويرى أناتولى تشرنيايــف ***Anatolii Cherniaev*** مساعد جورباتشوف للسياسة الخارجية، وجود خطأين فى تقدير الأولويات. الخطأ الأول كان عدم إعطاء أولوية لدول العالم الثالث المهمة مثل الهند والعراق وجنوب أفريقيا فوق الدول الأقل أهمية مثل إثيوبيا وغينيا بيساو. الخطأ الثانى كان عدم التصرف السريع الحاسم أمام التقدم الإمبريالى. وكان عدم وجود رد فعل سوفيتى على الغزو الأمريكى لجرينادا ***Grenada*** فى١٩٨٣ وانزلاق موزمبيق إلى المعسكر الإمبريالى من خلال معاهدات نكوماتى مع جنوب أفريقيا مثالين شائعى الاستخدام. ورغم أن هذه المبادئ قد تبدو متعارضة بعض الشيء – فإن أحد الأسباب التى جعلت موسكو لا تتعامل بحدة مع مغامرة ريجان فى جرينادا، كان تحديدًا الشعور بأن السيطرة على "جزيرة التوابل" ليست بالأمر المهم – فإن تلك المبادئ صنعت أرضية خصبة للزعيم الجديد الذى كان يريد أن يحيى السياسات السوفيتية، وخاصة فى الوقت الذى رأى فيه أن المعسكر الاشتراكى كان يواجه حملات العالم الإمبريالى العنيفة.

كان أناتولى تشرنيايــف هو خير من يقوم بمهمة إسداء النصح للزعيم السوفيتى الجديد حول العالم الثالث. فقد كان عضوًا فى الإدارة الدولية للجنة المركزية منذ ١٩٧٠، ومن ثم استطاع أن يتتبع منحنيات العلاقات السوفيتية مع أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية عن كثب، ويشارك فى النقاشات السياسية، وإن لم يكن مشاركًا أساسيًا فيها. فى أواخر السبعينيات بدأ يشترك مع مواقف كارن بروتنتس وغيره من نقاد التدخل السوفيتى، ورغم اعتداله النسبى، فإن ارتباطاته كانت كافية لإعاقة مستقبله المهنى، على الأقل حتى صعود جورباتشوف إلى

السلطة. وفى أوائل ١٩٨٦ اختاره جورباتشوف ليحل محل ألكسندروف أجنتوف *Aleksandrov Agentov* مساعدًا رئيسيًا للسكرتير العام فى الشئون الخارجية.

بحلول عام ١٩٨٥، اتضح لمن هم مثل أناتولى تشرنيايـــف وكارن بروتنتس أن الحرب فى أفغانستان كانت السبب فى تأزم العلاقات السوفيتية بالعالم الثالث. وكان كثير من كبار المسئولين فى وزارة الخارجية يرون ذلك، حيث لم يدعموا أبدًا الغزو السوفيتى. الخطأ فى أفغانستان فى نظر أولئك الناس لم يكن فشل التدخل من الناحية العسكرية أو كونه لا يحظى بالدعم الشعبى فى العالم الثالث وأوروبا فحسب، ولكن عدم القدرة على تحدى الفكر الذى قاد إلى أفغانستان مادام الصراع على أرضها لم ينته بعد. بعض القادة الذين اتخذوا القرار فى ١٩٧٩ كانوا لايزالون فى مراكز قوة – فأندريه جروميكو، وزير الخارجية حتى صيف ١٩٨٥، كان رئيسًا للاتحاد السوفيتى، وبوريس بوناماريوف بقى على رأس الإدارة الدولية *MO* حتى ربيع ١٩٨٦، والأهم، أن قرار التدخل كان يعتبر قرارًا جماعيًا لا يمكن العدول عنه إلا بإجماع النخبة بالحزب.

كان أول رد فعل لجورباتشوف على المستنقع الأفغانى الذى ورثه هو التحرك نحو سياسة أكثر تحديدًا وأكثر عدوانية فى كل من الحرب والتعاملات الدبلوماسية مع كل من الولايات المتحدة وباكستان[٢]. فى صيف ١٩٨٥ تم توجيه تعليمات إلى مستشارى جورباتشوف العسكريين بوضع خطط لتقوية النظام وتقوية موقف موسكو العسكرى فى أفغانستان على مدار العام التالى، تحضيرًا لانسحاب منظم للقوات السوفيتية بدءًا من منتصف ١٩٨٦. ولم يكن جورباتشوف ليتخلى عن حل أزمة أفغانستان، وإنما كان يريد أن يضع إطارًا زمنيًا ليتجنب الوعود المفتوحة التى قدمها من سبقوه. لكنه لم يرغب أن يستمر فيما رآه حيلة غربية "لاستنزاف" السوفيت فى أفغانستان إلى الأبد، إذا لم تنجح الهجمات الجديدة. وكما أخبر الرئيس

الأمريكى رونالد ريجان فى لقائهما الأول فى جنيف فى نوفمبر ١٩٨٥، فإن الغرب لم يكن يريد انسحاب القوات السوفيتية سريعًا – "إنكم تريدون قواتنا هناك، وكلما كان ذلك لمدة أطول كان أفضل"[٣].

فى اجتماع شامل مع الزعيم الأفغانى بابراك كارمال فى موسكو فى بداية أكتوبر، وضع جورباتشوف خطته أمام حليفه. ورغم إحباطه من طلبات كارمال المتواصلة بزيادة المساعدات منذ ربيع ١٩٨٥، فإنه عرف أنه ينبغى عليه أن يكون حذرًا عند الحديث عن الأمر مع الأفغان، حتى يتجنب المزيد من الاقتتال فى كابول أو انهيار النظام سياسيًا. ولذا كان لابد من أن يُطعم إصرار جورباتشوف على الإصلاحات السياسية والاقتصادية فى أفغانستان بالمزيد من المساعدات الاقتصادية، بالإضافة إلى الهجمات العسكرية لحساب النظام. وكان السكرتير العام، جورباتشوف، أقل حدة عندما نقل لزملائه فى المكتب السياسى ما قاله لكارمال:

> **بحلول صيف ١٩٨٦، عليكم أن تكونوا قد حددتم كيف تدافعون عن قضيتكم بأنفسكم. سوف نساعدكم ولكن بالسلاح فقط وليس بالقوات. وإذا أردتم استمرارًا فعليكم بتوسيع قاعدة النظام، ونسيان الاشتراكية وعقد اتفاق مع القوى المؤثرة فعليًا، بمن فيهم زعماء المجاهدين وقادة المنظمات التى تناصبونها العداء الآن. عليكم بإعادة إحياء الإسلام، واحترام التقاليد وأن تحاولوا إظهار بعض الفوائد الملموسة للثورة. نظموا جيشكم وأعطوا رواتب إضافية للضباط والملالى. دعموا التجارة الخاصة، فلن تستطيعوا خلق اقتصاد مختلف فى المستقبل المنظور[٤].**

في الوقت نفسه اتسعت الحرب في أفغانستان بشكل ملحوظ، إذ حاول الـــچنرال الجديد المسئول عن العملية ميخائيل م.زايتسيف ***Mikhail M.Zaitsev*** وضع خطة مستقبلية للتعامل مع مشكلة العصابات، وتم إرسال ستة آلاف جندى لمحاولة منع الإمدادات عن المجاهدين عبر الحدود، كما تم تحريك أعداد كبيرة من القوات السوفيتية والأفغانية اقترابًا من الجبهة الپاكستانية للغرض نفسه، وأيضًا في محاولة للهجوم على العصابات أثناء تحركها إلى أفغانستان. كذلك حاول السوفيت ترويض باكستان بزيادة الغارات الجوية والمدفعية عبر الحدود - وقد تضاعفت مثل هذه الحادثات من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦ حيث وصل عددها الإجمالي في ١٩٨٦ إلى ١٤٠٠ غارة. وكان زيتزيف مأمورًا بالحد من تورط القوات السوفيتية في المواقع الحدودية أثناء المعارك مع العصابات حتى يحد من إصابات المعركة. ازدادت ميزانية التورط السوفيتى في أفغانستان بشدة في ١٩٨٦- بنحو ثلاثين في المائة وفقًا لأرقام المخابرات المركزية، بسبب تكثيف الحرب الجوية على وجه الخصوص[٥].

في الوقت نفسه كانت المبادرات لإنهاء الحرب تزداد صعوبة بسبب عدة عمليات قام بها المجاهدون في داخل الاتحاد السوفيتى، بتحريض من المخابرات الباكستانية ***ISI*** وبتشجيع من بيل كيسى ومركز الـــ***CIA*** في إسلام أبـــاد. مـــازلنا لا نعرف الكثير عن تلك العمليات، ولكنهم قاموا بالكثير منها بدءًا من ١٩٨٥ فصاعدًا. كثيرون ممن كانوا يعبرون الأراضى السوفيتية كانوا يفعلون ذلك ليوزعوا نسخًا من القرآن الكريم وتجنيد أوزبك وطاچيك للقيام بأعمال تخريبية وهجمات. بيد أنه في أبريل ١٩٨٧ قام فريق من هؤلاء بالهجوم على مصنع بداخل أوزبكستان السوفيتية، مما أدى إلى مقتل ثمانية أشخاص، وإصابة أكثر من أربعين آخرين. استشاط جورباتشوف غضبًا، وتوعد إسلام أباد "بعواقب وخيمة تهدد أمن باكستان وتكاملها" لو استمرت الهجمات. تلك الهجمات منحت زخمًا سياسيًا للسوفيت

الذين كانوا يريدون تصعيد الحرب، والذين أبوا أن يصدقوا إمكانية التوصل إلى أى اتفاق مع الأمريكيين والباكستانيين بشأن أفغانستان(٦).

كذلك أغضبت المعاملة التى تلقاها الجنود السوفيت فى معسكرات المجاهدين فى باكستان جورباتشوف. وأبدى اعتراضه عدة مرات للأمريكيين ولكن دون جدوى. فى ديسمبر ١٩٨٦ بعد أن كشفت المخابرات السوفيتية عن أن قوات حكمتيار قد أسرت تسعة عشر فردًا من أفراد الجيش الأحمر بالقرب من قرساك فى الجبهة الشمالية الغربية فى باكستان، فقدَ جورباتشوف صبره وجعل سفيره الجديد إلى الولايات المتحدة يورى دوبينين يقدم احتجاجًا حادًا.

> **المسئولية..كاملة تقع على عاتق السلطات الأمريكية. إننا نعرف أن ممثلى القوات الخاصة الأمريكية الموجودين فى قرساك وغيرها من معسكرات الثورة المضادة فى الأراضى الباكستانية يشجعون الهجمات التى يتعرض لها المواطنون السوفيت، ويحاولون إقناع الجنود السوفيت بأن يخونوا دولتهم. مثل هذه التصرفات للرعايا الأمريكيين الذين يقومون بعمل القاتل والسجان يعجز أمامها العقل البشرى؛ إنها تناقض أبسط قواعد الأخلاق(٧).**

وبينما كان جورباتشوف ومستشاروه يحاولون جاهدين أن يجدوا نهاية للحرب فى أفغانستان، كان لبعض مفكرى الحزب فى ١٩٨٥ و١٩٨٦ – بمن فيهم عدد من الذين أدينوا بسبب شكوكهم فى سياسات العالم الثالث فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات – كان ليم أسلوب مختلف فى إقناع الزعماء بالحاجة إلى التغيير. وظل المفكرون النقديون مجرد قلة مميزة فى العامين الأولين من حكم

جورباتشوف، حتى بداخل مؤسساتهم، رغم أنهم نجحوا فى التقرب إلى مساعد السياسة الخارجية الجديد تشرنيايف وكانوا كثيرًا ما يستشيرهم خبراء الإدارة الدولية للجنة المركزية (خاصة بعد أن حل أناتولى دوبرينين ***Anatolii Dobrynin*** السفير السوفيتي لدى الولايات المتحدة لوقت طويل محل بوناماريوف رئيسًا للإدارة فى صيف ١٩٨٦). وقد مهد مقال عن شئون العالم الثالث تم نشره فى جريدة الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية ***World Economy and International Affairs*** كتبها وضعه ***IMEMO*** الذى لجأ إليه معظم المفكرين النقديين فى صيف ١٩٨٥، مهد الطريق للأغلبية:

> **فى السبعينيات تفاقمت بحدة التناقضات الداخلية فى الإنتاج الرأسمالى من جديد، مما يؤكد تعميق الأزمة العامة للرأسمالية... وراح تطبيق الرأسمالية على منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية بشكل غير إنسانى يزداد، كما ازدادت العواقب الاجتماعية الاقتصادية والبيئية المدمرة ظهورًا ووضوحًا...إن الانتقال الحقيقى والفعلى إلى الاشتراكية سيتم إنجازه عن طريق الثورة لكسر النظام الرأسمالى، وكما تظهر التجارب التاريخية فإن ذلك يتم من خلال ارتداد الدول أو مجموعات الدول عن النظام الرأسمالى[٨].**

وقد عكست وجهات نظر جورباتشوف – العامة والخاصة – هذا الموقف الماركسي. وكما قال تشرنيايف "فى ربيع ١٩٨٦ كان جورباتشوف معنيًا بمشكلة ديون العالم الثالث. وطلب تقارير وحسابات من المتخصصين وكان يغضب في كل مرة عندما يستنتجون أنها مشكلة معقدة فى الاقتصاد العالمى لا يمكن إرجاعها إلى

الجشع والاستغلال الإمبريالي". وحتى في أول اجتماعاته مع ريجان تطرق جورباتشوف إلى فهمه الخاص عن ثورات العالم الثالث وقضاياه:

> **كان هناك من يظنون بإمكانية القضاء على الثورة الأمريكية ...فعلى مدار فترة طويلة من الزمن كان ملايين الناس منخرطين في مثل هذا الصراع - في الهند وإندونيسيا والجزائر... والاتحاد السوفيتي لا يعتقد بإمكانية فرض نمط معين للحياة ما لم يكن المجتمع مؤهلا لها...وينبغي ألا تظن الولايات المتحدة أن موسكو لديها هذه القوة الجبارة أو أن جورباتشوف يفكر عندما يستيقظ صباح كل يوم في أي البلاد سيرغب في تنظيم ثورة(٩).**

أخبر جورباتشوف الأمريكيين في جنيف عندما كانوا يهاجمون الدور السوفيتي في العالم الثالث بأن "التطور الطبيعي لبلاد العالم الثالث هو أن تسعى أولا لنيل الاستقلال السياسي، ثم تناضل من أجل السيطرة على مواردها وعمالتها"(١٠).

كانت أمريكا اللاتينية أحد قضايا العالم الثالث التي تابعها السكرتير العام الجديد باهتمام. فقد كان جورباتشوف يرى أن سلوك الولايات المتحدة تجاه نيكاراجوا ما هو إلا عدوان إمبريالي وأصر على أن يقوم الاتحاد السوفيتي بدور أكبر لمساعدة ماناجوا *Managua*. أثناء عامه الأول في الحكم زادت المساعدات الاقتصادية السوفيتية إلى نيكاراجوا بأكثر من أربعين بالمائة، جزئيًا بسبب الحظر التجاري الذي فرضته الولايات المتحدة في مايو ١٩٨٥؛ وكان جورباتشوف قد وافق بالفعل على إمداد نيكاراجوا ببترول سوفيتي زهيد الثمن أثناء زيارة دانيل أورتيجا لموسكو في مايو ١٩٨٥. كما أكد السكرتير العام الجديد للكوبيين أنه إذا

شنت الولايات المتحدة هجومًا شاملاً على الساندينستا، فإن الاتحاد السوفيتى سوف يساعد كوبا، ويمدها بالعتاد عند مساعدتها لنيكاراجوا. كما قال جورباتشوف إن موسكو لن تترك نيكاراجوا تحت رحمة الإمبرياليين فى أى ظرف من الظروف[١١].

كذلك كان جورباتشوف عازمًا على تحسين العلاقات مع اليسار بأوروبا الغربية فى القضايا التى تخص العالم الثالث. كان يعرف أن الحرب فى أفغانستان لا تلقى أى شعبية لدى الاشتراكيين أو الشيوعيين الأوروبيين، ووجه بأن تقوم الإدارة الدولية بحملة لشرح أسباب الوجود السوفيتى فى أفغانستان. كانت النقطة الرئيسية فى الدعاية السوفيتية هى أن الجيش الأحمر يعمل على مساعدة التقدميين الأفغان للدفاع عن أنفسهم ضد الإسلاميين الذين يريدون هدم المدارس والبنية التحتية والمؤسسات الثقافية، وحرمان النساء والأقليات من الحق فى التعليم والمشاركة فى المجتمع. لم تستطع الجدليات الجديدة لموسكو أن تكسب الشيوعيين الإيطاليين الذين كانوا ينتقدون التدخلات السوفيتية فى العالم الثالث منذ منتصف السبعينيات. لقد فشل جورباتشوف فى إدراك أنه مع منتصف الثمانينيات لم يعد الحزب الشيوعى الإيطالى أو حلفاؤه فى أوروبا الغربية يرون فى الاتحاد السوفيتى قوة إيجابية على صعيد السياسة العالمية. فالغضب بشأن إثيوبيا وأفغانستان وبولندا، وكذلك النقد اللاذع الذى وجهه الحزب لسجلات حقوق الإنسان السوفيتية فتح هاوية لم تستطع محاولات الدعاية الجديدة فى موسكو أن تغلقها[١٢].

منذ بداية ١٩٨٦، كان هناك توتر ملحوظ بين فهم جورباتشوف للأحداث فى العالم الثالث القائم على الماركسية من ناحية، ورغبته فى التهدئة مع الولايات المتحدة من ناحية أخرى. كان الزعيم السوفيتى يعرف منذ لقائهما الأول أن ريجان يضع "التوسع السوفيتى فى العالم الثالث" على رأس أجندته السياسية. وكانت مذكرة الأمن القومى الأمريكى التى وُضعت تحضيرًا لمحادثات جنيف تقدم "رسالتها الأساسية: نريد أن تتوقف الدول عن محاولة توسيع نفوذها من خلال التدخل

العسكرى والقهر"[١٣]. فقد أراد الأمريكيون أن يروا السوفيت يستسلمون فى ذلك الأمر، قبل مناقشة القضايا الأخرى وحلها. لقد كان الموضوع، كما أدرك جورباتشوف، استراتيجية غير ذكية للابتزاز؛ ولكنه رغم ذلك كانت لديه الرغبة فى أن يتحدث على الأقل مع الولايات المتحدة حول ما كانوا يسمونه "الصراعات الإقليمية"، لو أراد الأمريكيون أن يستمروا فى التفاوض حول الأمور التى كان يراها أكثر أهمية مثل الحد من التسلح. ولذا فإن الوزير شولتز ***Schultz*** أخبر زعماء دول الناتو الذين قابلهم وريجان فى طريق العودة من جنيف بأن "السوفيت كانوا مستعدين لاجتماعات منتظمة حول القضايا الإقليمية" و"يعتبرونها مهمة". تلك الاستراتيجية، كما قال رئيس الوزراء النرويجى كير فيلوخ ***Kare Willoch*** فى الاجتماع كانت محاولة "لإدماج الاتحاد السوفيتى فى صلب الحضارة الأوروبية من خلال تقوية الروابط بين الشرق والغرب"[١٤].

ولكن جورباتشوف كان أبعد ما يكون عن الاندماج فى ١٩٨٦، إذ كان ذلك يعنى التخلى عن الدور السوفيتى فى العالم الثالث. ورغم أنه أشار إلى الحرب فى أفغانستان باعتبارها "جرحًا ينزف" فى المؤتمر السابع والعشرين الفاصل للحزب الشيوعى السوفيتى فى ربيع ١٩٨٦، فإنه أكد للزعيم الكوبى فيديل كاسترو فى اجتماع فى الثانى من مارس، "ضرورة الحفاظ على السلطة فى أنجولا وإثيوبيا وموزمبيق وغيرها من الدول الأفريقية التى تأخذ المنحى المعادى للإمبريالية"[١٥]. وأخبر رفاقه مرارًا أنه لا يفهم لماذا كان لزامًا على الاتحاد السوفيتى أن يبدو مقيدًا فى سياسته فى العالم الثالث رغم أن الأمريكيين أنفسهم لا يفعلون ذلك. فى اجتماع المكتب السياسى فى الخامس عشر من أبريل ١٩٨٦، بعد أن ضربت الغارات الأمريكية ليبيا، وبخ جورباتشوف إدارة ريجان: "إننا لا نستطيع العمل مع هذه العصابة. لن يذهب شـفرنادزة ***Schevardnadze*** إلى واشنطن فى مايو...وسوف نلمح بأننا لا يمكننا أن نحل المشكلات المعقدة مع هذه الإدارة"[١٦].

خروجًا من أفغانستان

في أواخر ١٩٨٦ أصبح واضحًا لكل من جورباتشوف وكثير من مستشاريه الأساسيين أن الاستراتيجية السوفيتية النشطة في أفغانستان لم تكن ناجحة؛ فالرغبة الأمريكية في إمداد المجاهدين بكميات غير محدودة من السلاح والتنظيم الجيد للعصابات ومشاركة محاربين أجانب – معظمهم من الباكستانيين والعرب – في صف المقاومة، كانت كلها عوامل جعلت من المستحيل الوصول إلى موقف أفضل قبل الانسحاب. وفي فبراير ١٩٨٧ كان جورباتشوف قد وصل إلى حافة اليأس.

> **بالطبع بإمكاننا أن نترك أفغانستان سريعًا، دون أي تفكير، ونقول إننا لا يتعين علينا أن ندفع ثمن أخطاء القيادة السابقة، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك. إننا نسمع من الهند ومن أفريقيا أننا إذا حزمنا حقائبنا ورحلنا فإن ذلك سيكون ضربة لسلطة الاتحاد السوفيتي في حركة التحرر الوطني – سوف تبدأ الإمبريالية هجومًا [آخر] في العالم الثالث إذا تركنا أفغانستان... لقد ذهب الملايين من جنودنا إلى أفغانستان، وسوف نعجز أمام شعبنا عن تفسير سبب عدم إكمالنا [الحرب]. لقد منينا بخسائر رهيبة. من أجل ماذا؟ لقد هدمنا سمعة بلادنا وجلبنا الكثير من المرار. لماذا خسرنا كل أولئك الفتية؟[١٧].**

كانت آثار الحرب على الاتحاد السوفيتي ومكانته العالمية هي أهم ما يشغل بال جورباتشوف. في اجتماعات المكتب السياسي في نهاية ١٩٨٦ وبداية ١٩٨٧ أكد أن "أهم ما في الأمر ألا يدخل الأمريكيون أفغانستان"[١٨]. ولكنه كان يدرك ما

قد يكون "البديل" – كما قال بنفسه: "لو أننا قدمنا مائتى ألف جندى آخر فإن سياسة البريسترويكا كلها سوف تنهار"[١٩]. و"لو أننا وقعنا فى المأزق مرة أخرى فسيكون الأمـر سيئًا علـى بلادنا. وهو ما يريده الغرب – أن يجدوننا فى مأزق، أن نقع. لا تعنيهم سياستنا الخارجية، وإنما ما سوف يحدث للاشتراكية"[٢٠].

وبينما كان جورباتشوف يفكر، وقعت عدة أحداث كان من شأنها أن تسمح له بالانسحاب. فبعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب، كان موقف جورباتشوف فى الحزب الشيوعى السوفيتى وفى الدولة السوفيتية أكثر أمانًا بشكل عام – ولو أراد أعداؤه السياسيون أن يعملوا ضده، لكان لزامًا عليهم أن يفعلوا ذلك قبل المؤتمر؛ إذ إن مفاهيم الإصلاح وإعادة البناء التى يؤيدها جورباتشوف قد تم إقرارها فى ذلك الاجتماع. وببطء، راحت علاقاته مع الغرب أيضًا توضع على أرض صلبة، وخاصة من خلال اتصالاته مع زعماء غرب أوروبا. وأدرك أنه لن يواجه تهديدًا مباشرًا بالحرب من الغرب بالصورة التى كان يخشاها هو وبعض معاونيه عندما جاءوا إلى السلطة. كانت علاقاته برئيسة الوزراء المحافظة مارجريت تاتشر لها أهمية خاصة – وقد خاض جورباتشوف نقاشا مستفيضا معها أثناء زيارتها لموسكو فى مارس ١٩٨٧، عن القضايا التى تفصل بين المفاهيم الغربية ونظيرتها السوفيتية. وفى حين ظل جورباتشوف، رئيس الحزب الشيوعى السوفيتى، يجادل من أجل القضايا الاجتماعية والاقتصادية لثورات العالم الثالث، راح يقول الآن "إننا لم يكن لدينا أبدًا مبدأ نشر الثورة الاشتراكية فى العالم"[٢١]. ومن الواضح أن رأى جورباتشوف حول بعض القضايا فيما هو "خطأ" من جانب الاتحاد السوفيتى كان يقترب من رأى معارضيه السابقين.

كذلك سارت الأمور فى منتصف ١٩٨٧ فى اتجاه الانسحاب السوفيتى بسبب الصعوبات التى واجهها الغرب بسبب التدخل الأمريكى فى أمريكا الوسطى،

فقد أصبحت حرب ريجان ضد نيكاراجوا، التي لم تكن أبدًا ذات شعبية في أوروبا الغربية، تواجه مشكلات في الولايات المتحدة أيضًا في ١٩٨٧. في نوفمبر ١٩٨٦، أرغم ريجان على تأكيد أن إدارته كانت تبيع السلاح سرا لإيران - بادعاء تأمين الإفراج عن الرهائن الأمريكيين الذين كانت تحتجزهم مجموعات موالية لإيران في لبنان، وأن محصلة البيع تستخدم لتمويل ثوار نيكاراجويين، بعد أن قام الكونجرس بالحد من هذه المساعدات تمامًا. كانت جلسات الاستماع التي بثها التليفزيون عن تلك الفضيحة من مايو إلى أغسطس ١٩٨٧ تُتابع عن كثب في موسكو، وقد أكدت للكثير من صانعي القرار أن الولايات المتحدة لن تحرص على التدخل المباشر في المستقبل، ولا حتى في أفغانستان[٢٢].

أخيرًا، نجحت موسكو في إزاحة بابراك كارمال وإحلال رئيس البوليس السرى نجيب الله البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا محله، مما كان يعني أن الطريق كان قد أصبح مفتوحًا تجاه انسحاب منظم[٢٣]. كان هناك توتر كبير في موسكو بشأن هذه العملية - فالكثير من القادة السوفيت كانوا يتذكرون ما حدث مرتين من قبل، عندما حاولوا تنظيم انقلاب في كابول. ولكن هذه المرة، ورغم مظاهرات البارشام التي قاموا بها لصالح كارمال في كابول، أطاع الزعيم الأفغاني التعليمات السوفيتية وترك مكتب أمين عام الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني سلميا "لأسباب صحية" في مايو ١٩٨٦. ورغم ذلك احتاج نجيب الله لأكثر من ستة أشهر حتى استطاع السيطرة على الحزب وعلى الجيش. وانقسم البارشام قسمين: بينه وبين كارمال ، وقد احتفظ الأخير ببعض نفوذه داخل الحزب، حتى بعد أن أرغم على الاستقالة من وظيفة رئيس الدولة الرسمية في نوفمبر ١٩٨٦. فقط بعد أن وافق كارمال في مايو ١٩٨٧ على العودة إلى الاتحاد السوفيتي - من حيث جلبته قوات موسكو إلى كابول قبل ذلك بثماني سنوات - أن خيم بعض الاستقرار الظاهري على الحزب الشيوعي الأفغاني الممزق.

في اجتماع المكتب السياسي في ١٣ نوفمبر ١٩٨٦، أوضح جورباتشوف لزملائه لأول مرة رأيه "إننا نحتاج إلى أن ننهي هذه العملية في أسرع وقت ممكن". وفي حين كان التأكيد في مناقشات المكتب السياسي في أواخر ١٩٨٥ على "الجمع ما بين الإجراءات العسكرية والسياسية" أصر جورباتشوف في اجتماعات نوفمبر ١٩٨٦ الحاسمة على أن تعود القوات السوفيتية إلى أرض الوطن قبل نهاية ١٩٨٨ – مهما حدث. وساند زملاؤه وجهات نظره تماما. بل ذهب المارشال أخروميييف *Akhromeev* لأبعد من ذلك حين قال

> **لا توجد ثمة قطعة أرض واحدة في [أفغانستان] لم يحتلها أحد الجنود السوفيت...ولا توجد مشكلة عسكرية واحدة إلا وقد تم حلها، ورغم ذلك ما من نتيجة. المشكلة برمتها تكمن في حقيقة أن النتائج العسكرية لم تتبع بالأفعال السياسية. في المركز هناك سلطة؛ أما في المقاطعات فلا. إننا نسيطر على كابول ومراكز المقاطعات، ولكن في المناطق المحتلة لن نستطيع أن نقيم سلطة. لقد خسرنا المعركة من أجل الشعب الأفغاني.**

في بداية ١٩٨٧ بدأت تتكون الاستراتيجية السوفيتية للانسحاب. لقد وضعت الخطة لجنة خاصة على مستوى المكتب السياسي – برئاسة وزير الخارجية شيفرنادزة – حيث كلفها جورباتشوف بأمر الانسحاب، ولكن المخابرات السوفيتية هي التي قامت بالمهمة. وهناك سببان لذلك: فقد شعر جورباتشوف أن لجنة أمن الدولة كانت أكثر المؤسسات السوفيتية دراية بالمشكلات السياسية في أفغانستان وكيفية تجنبها. ثانيا أن نجيب الله كان يعمل مع المخابرات السوفيتية عن كثب

طيلـــة عملـــه السياســـى، وليس عندمـــا تـــرأس أمن الدولة الأفغانى ***KhAD*** فى ١٩٨٠-١٩٨٧[٢٤]. وقد تم تكليف ڤيلاديمير أ. كريكوف رئيس الإدارة الأولى بالمخابارت السوڤيتية بمساعدة نجيب الله على تنفيذ خطة جديدة للوسطية وبناء التحالف استعدادًا للانسحاب السوڤيتى.

كانت الخطة الجديدة، فى رأى كريكوف، قد وضعت وفقًا لـــ"مستوى التنمية" القائم فى أفغانستان فى ذلك الحين وليس وفقًا للأحلام والتمنيات عن كيف ستكون فى المستقبل. فنجيب الله عليه أن يقوم بـــ"تحرير وطنى" فى بلاده ويحتاج إلى حلفاء للقيام بهذا الغرض – البرجوازية، رجال الدين، المناهضين للشيوعية من غير الإسلاميين، وحتى زعماء العصابات المعتدلة وممثلى الملك السابق ظاهر شاه. فى مشاوراتهم الداخلية كان نجيب الله ومستشاروه للشئون الخارجية يصفون غزو ١٩٧٩ والانقلاب الشيوعى فى ١٩٧٨ (ومشاركة الشيوعيين فى الانقلاب ضد الملك فى ١٩٧٣) بأنها "أخطاء فادحة" و "غلطات سياسية". لقد دعا الزعيم الأفغانى الجديد إلى وقف إطلاق النار من جانب واحد فى منتصف يناير ١٩٨٧ (والذى لم يُلحظ بوجه عام)، كما دعا إلى انعقاد "لجنة للمصالحة الوطنية"، وأعطى المعارضة مقاعد فى الحكومة. كما أنشأ مجلسًا أعلى للقبائل، حيث أقر دستورا جديدا كان يخلو من معظم الإشارات إلى الاشتراكية. ولكن الأهم، أن نجيب الله فى منتصف ١٩٨٧ – وكان هو نفسه بشتونيًا من عشيرة أحمدزاى ***Ahmadzai*** – بدأ محادثات سرية مع مجموعات المقاومة المتمركزة فى باكستان داعيًا إلى تحالف على أسس عرقية.

بدأت المفاوضات الدولية بين الدبلوماسيين الأفغان والباكستانيين، التى حاولت الأمم المتحدة الإبقاء عليها فى جنيـــف منذ ١٩٨٢، تأخذ دلالات جديدة مع تغير سياسات جورباتشوف ونجيب الله. لقد دفع الدبلوماسى الإكوادورى دييجو

كوردوفيز *Diego Cordovez* الذى كان وسيطًا فى المحادثات، دفع من أجل حل يقوم على الضمانات الدولية ليصاحب بداية الانسحاب السوفيتى – وهو حل شبيه بما اتخذه يورى أندروپوف فى ١٩٨٢. ولكن الدبلوماسية المباشرة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كانت هى ما فتح الطريق أمام إمكانية التوصل إلى اتفاق حقيقى. فى منتصف ١٩٨٧ كان الدبلوماسيون السوفيت قد أوضحوا لنظرائهم الأمريكيين أن موسكو كانت تريد الانسحاب من أفغانستان باعتبار ذلك جزءًا من تفاهم أكبر بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة حول العالم الثالث. ولكن تصميم جورباتشوف على أن يتم الانسحاب فى نهاية ١٩٨٨– وهو الأمر الذى أعلنه نجيب الله فى نوفمبر ١٩٨٧– أعاق السوفيت بشدة. كان كل من الأمريكيين وحلفائهم الباكستانيين – الذين كانوا يزدادون تفضيلا للزعماء الإسلاميين الأفغان – على علم بأن استمرار المفاوضات سيؤجل الموعد النهائى الذى فرضه السوفيت.

أظهر اجتماع القمة بين ريجان وجورباتشوف الذى عقد فى واشنطن فى ديسمبر ١٩٨٧ للأمريكيين أن السوفيت كانوا على استعداد للانسحاب حتى فى عدم وجود ضمانات أمريكية وباكستانية لعدم التدخل دعمًا للمجاهدين. ووضع جورباتشوف تعليقاته بالإشارة إلى "زيادة الدعم للتسويات السياسية الإقليمية" فى صراعات العالم الثالث، ثم أوضح رؤيته الخاصة بأفغانستان: "لا يمكن اعتبار أفغانستان دولة اشتراكية. ففيها العديد من المواصفات التى لا تنطبق على الاشتراكية: تعددية حزبية، قبلية، رأسماليين وعناصر تدين. لقد كان السوفيت واقعيين. لم يرغبوا فى جعل أفغانستان اشتراكية". كانت موسكو تحتاج إلى تعاون واشنطن فى تخفيف حدة الخط الإسلامى القوى الذى كان الدكتاتور الباكستانى الـــجنرال ضياء الحق ينتهجه فى مفاوضات جنيـــف كما كانت تحتاج إلى توقف الولايات المتحدة عن إمداد المعارضة الأفغانية بعد أن يبدأ الانسحاب السوفيتى. وأضاف جورباتشوف أن مساندة ريجان للاتحاد السوفيتى "سوف تساعد السوفيت

على الحكم على النوايا الأمريكية بشأن مواقف الصراعات الإقليمية الأخرى"، مؤكدًا أن الاتحاد السوفيتي سوف يتوقف عن بيع السلاح إلى نيكاراجوا إذا تضاءلت التدخلات الخارجية الأخرى في أمريكا الوسطى[٢٥]. ولكن بدلا من إعطاء جورباتشوف ما طلبه من ضمانات، وعد ريجان بالاستمرار فى مساندة المجاهدين مهما حدث فى جنيــڤ .

أما وقد أدرك جورباتشوف أنه لن يحصل على شيء من الأمريكيين، فقد قرر القيام بنوع من المقامرة؛ فألقى بيانًا في التليفزيون السوفيتي في ٨ فبراير ١٩٨٨ يقول فيه إن اتفاقًا بشأن أفغانستان قد "أوشك" أن يتم، وإن هناك وثيقة سيتم التوقيع عليها في جنيــڤ في ذاك الربيع، وإن القوات السوفيتية ستخرج من أفغانستان في خلال عام من التوقيع. وبطريقة معينة نجحت المقامرة: ففي كابول، أدرك نجيب الله أن عليه أن يوقع وإلا فلن يحظى بشيء سوى معاداة السوفيت. وفي إسلام أباد بدأ ضياء الحق – وفقا لنصيحة الأمريكيين – يعتقد أنه لن يخسر شيئا بالتوقيع. بيد أن اتفاقيات جنيــڤ التى تم التوقيع عليها فى الرابع عشر من أبريل لم تكن ذات جدوى في تحقيق السلام في أفغانستان. فالسوفيت كانوا سينسحبون في ١٥ فبراير ١٩٨٩ ؛ ولكن الأمريكيين لن يتوقفوا عن مساعدة العصابات إلا عندما تقوم موسكو بإبطال اتفاقياتها مع نظام نجيب الله. أما زعماء المجاهدين، فقد تحدثوا الآن بصوت واحد – وهو الأمر الذى كان يشتد ندرة كلما أوشك الوجود السوفيتى على الانتهاء – حيث أدانوا عملية السلام التى.لم يكونوا جزءًا منها. وقد أوضح ضياء الحق الأمر لرفاقه، ولواشنطن وللمجاهدين، أى أن الاتفاقيات فى نظره لم تكن تساوى الورق الذى كتبت عليه. واستمر سعي باكستان لإقامة حكومة إسلامية في أفغانستان حتى بعد أن تم اغتيال ضياء الحق في حادث طائرة في أغسطس ١٩٨٨[٢٦].

في صباح بارد يوم الخامس عشر من فبراير ١٩٨٩، كان الـجنرال بوريس جروموف، آخر قادة القوات السوفيتية في أفغانستان، يعبر الجسر فوق نهر أم داريا عائدًا إلى أوزباكستان، حيث كان الجيش الأحمر قد جاء إلى أفغانستان قبل عشر سنوات. كان أسلوب جروموف في المغادرة – الخروج سريعًا دون النظر للوراء – يمثل بالنسبة للكثير من السوفيت علاقتهم بالتدخل. ففي مجتمع تفتحت فيه آفاق جديدة نتيجة الإصلاحات التي قام بها جورباتشوف، كان النظر إلى الخلف هو آخر ما قد يفعله الناس. كان التورط في أفغانستان يعني بالنسبة للغالبية العظمى من السوفيت مثالا سيئا للدور البغيض المبالغ فيه الذي لعبته حكومتهم في العالم الثالث. وبالتالي كان الانسحاب من كابول يعني بالنسبة لهم نهاية تدخل فاشل. في ١٩٨٩ كان الافتخار الشائع بدور الاتحاد السوفيتي على الصعيد العالمي، وهو التباهي الذي كان موجودا قبل ذلك بسنوات، قد خبا، وحل محله فقدان الثقة في النظام السوفيتي، وكذلك الاقتناع بأن قادة الاتحاد السوفيتي يبعثرون موارده خارج البلاد بينما كان الشعب يرزح تحت وطأة الفقر.

وفي حين ازداد الانتقاد العام للمغامرة السوفيتية في أفغانستان نتيجة لسياسة المكاشفة لدى جورباتشوف، كان على الزعيم السوفيتي نفسه أن يحارب طوال السنوات الثلاث الباقية له في السلطة، لكي يمنع النخبة في حزبه من التورط مرة أخرى في المستنقع الأفغاني. أولا: كان عليه أن يظل حاسمًا أثناء الفترة الأخيرة من الانسحاب، إذ كانت الانتهاكات الباكستانية الصريحة لاتفاقيات جنيـف قد جعلت بعض جنرالات الجيش وبعض كبار الضباط في المخابرات السوفيتية يحدوهم الأمل في استمرار تواجد سوفيتي محدود. ولكن بعد بضعة أسابيع من سير جروموف على الجسر، أدى حصار المجاهدين لمدينة جلال أباد ونداءات نجيب الله من أجل المساعدة إلى وجود تحالف قوى في المكتب السياسي – حيث دعا شـفرنادزة وكريكوف ووزير الدفاع الجديد يازوف – إلى غارات جوية سوفيتية

ضد القوات المعتدية. ولكن جورباتشوف كان قد اتخذ قراره على أسس لا علاقة لها بالموقف العسكرى فى أفغانستان ولن يلين: "إننى ضد أى نوع من القصف... وما دمت أشغل منصب السكرتير العام لن أسمح لأحد أن يكسر الوعد الذى قطعناه على أنفسنا أمام العالم"[٢٧]. فى النهاية بقى نظام نجيب الله لمدة أطول مما بقى نظام جورباتشوف، ساعده فى ذلك الاقتتال الداخلى بين المجاهدين وإمدادات الأسلحة السوفيتية وبداية الشكوك الأمريكية حول جدوى وضع الجماعات الإسلامية الأصولية فى موضع السيطرة على كابول. فى بداية ١٩٩٢ ومع رحيل الاتحاد السوفيتى، تفكك نظام الحزب الديمقراطى الشعبى الأفغانى. بعد أربع سنوات سيطر انقلاب للمجاهدين الأصوليين – طالبان – بدعم من باكستان على العاصمة وأخرجوا نجيب الله من مخبئه وعذبوه وقتلوه وعلقوا جثته المشوهة على القصر الذى كان السوفيت قد نصَّبوه زعيمًا فيه ذات يوم. وهكذا وصلت الشيوعية الأفغانية إلى نهاية طريقها القصير الدموى.

أسباب الانسحاب السوفيتى

أصبح الخروج السوفيتى المهين من أفغانستان علامة على فشل سياسات موسكو فى العالم الثالث. فالشيوعيون السوفيت قد فشلوا فى الإبقاء على نظام يسارى فى أفغانستان – وهى دولة جوار قد تدخل الاتحاد السوفيتى فى سياساتها عن كثب منذ أوائل العشرينيات – بل إنهم بتدخلاتهم قد أضعفوا مساندة السياسة الخارجية السوفيتية فى الداخل وفى العالم الثالث. كان الكثير من السوفيت يرفضون تكلفة الحرب وانعدام النتائج، وليس السياسات التى أدت إلى ذلك. ولكن لما كان جزء مهم من شرعية نظام الحزب الشيوعى السوفيتى يعتمد أساسا على دوره كقوة عظمى بالخارج، كان الفشل فى أفغانستان يمثل تحديا كبيرا للمبادئ الرئيسية فى سياسته الخارجية: القوة العسكرية السوفيتية والتقدم العالمى للاشتراكية.

أما فى العالم الثالث فقد أدى التدخل السوفيتى فى أفغانستان إلى إسراع المثقفين والزعماء السياسيين بالابتعاد عن الشيوعية والاقتراب من أنواع مختلفة من الهويات، كانت فى معظم الأحيان قومية أو عرقية أو دينية. فى الكثير من الدول الإسلامية فتحت الحرب الأبواب على مصاريعها – فى الوقت الذى كان فيه جيل الأربعينيات والخمسينيات يتحول من الإسلام إلى الاشتراكية العلمانية، كان جيل أواخر السبعينيات والثمانينيات يتحول من الاشتراكية إلى الإسلام السياسى. فى الكثير من الحالات بقى الناس على حالهم- فكل الزعماء الإسلاميين الراديكاليين فى أفغانستان كانوا ينخرطون فى جماعات يسارية فى شبابهم. وفى الوقت الذى تحول فيه جورباتشوف من التأكيد على الانتصار إلى التأكيد على الانسحاب، كان الغالبية العظمى من الشباب المنخرطين فى السياسة فى العالم الإسلامى من شمال أفريقيا إلى إندونيسيا، قد حولوا وجهتهم من موسكو إلى مكة.

ولكن فى حين لم تؤد الحرب فى أفغانستان إلى نتائج جديدة من المفهوم الداخلى ولا فى السياق العالمى، كان قرار الانسحاب اختيارًا واعيًا من إدارة جورباتشوف. فرغم كل التكلفة الاقتصادية والخسائر فى الأرواح والنقد فى الداخل وفى الخارج، فليس من شك فى أن الاتحاد السوفيتى كان قادرًا على الإبقاء على الوضع القائم فى ١٩٨٥ لفترة زمنية طويلة لو أنه أراد ذلك. لكن فى أوائل ١٩٨٧ كان السكرتير العام قد قرر سحب القوات السوفيتية، وفى السنتين التاليتين كان الاتجاه السياسى واضحًا، رغم أن المسائل المتعلقة بالكيفية والتوقيت لم تكن واضحة أو محددة. لماذا إذن تصرف جورباتشوف ومن معه بتلك الطريقة؟

رغم أن النقاش هنا سيركز على الأسباب المباشرة لقرار جورباتشوف، فإن هناك العديد من الأسباب طويلة الأمد التى لابد من ذكرها. أهمها فى هذا النقاش هو تغير الفكر السوفيتى عن العالم الثالث منذ أواخر السبعينيات. فقد كان قرار

جورباتشوف بشأن أفغانستان موجودًا كبديل في أوائل الثمانينيات – في نهاية نظام بريچنيــف، بل إن النقد الداخلي بالحزب للسياسات السوفيتية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لم ينته منذ ١٩٧٩. كذلك لعبت الصعوبات السوفيتية دورًا مهمًا بالنسبة لأفغانستان، كما كان لها دور مهم في كل سياسات جورباتشوف. لقد أدى الانهيار الشديد في الدخل القومي الذي مرت به الدولة السوفيتية في بداية الثمانينيات – نتيجة لانخفاض أسعار الصادرات من المواد الخام – إلى أسوأ ما يمكن أن يحدث في اقتصاد موجه يتم فيه الإنفاق على الأسلحة بهذه الدرجة. كذلك لعب النقد الموجه من الداخل والخارج إلى الحرب في أفغانستان دورا محوريا. فقبل ١٩٨٥ كان أهم نقد – من ذلك النوع الذي يتم الإنصات إليه في موسكو – يأتي من الشيوعيين في أوروبا الغربية ومن الأصوليين في العالم الثالث. ولكن بعد ١٩٨٥ كان يأتي من داخل الاتحاد السوفيتي نفسه؛ في البداية في خطابات إلى قيادة الحزب ثم بعد ذلك في وسائل الإعلام التي ازدادت انفتاحًا.

ومع ذلك لابد من فهم القرار بالانسحاب لابد أن نفهمه بناء على أسبابه المباشرة. من هذا المنظور سنجد أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية للانسحاب. السبب الأول هو الانتقاد السوفيتي لاشتراكية العالم الثالث، وهو ما وجد طريقه إلى قيادة الحزب من خلال اختيار جورباتشوف لمستشاريه. السبب الثاني هو الأمل السوفيتي في إمكانية القضاء على العداء مع أمريكا من خلال الوصول إلى حلول وسط في العالم الثالث. السبب الثالث كان التمسك الأيديولوچي بمبدأ حق تقرير المصير، الذي نشأ عن قراءة جورباتشوف للينين، وهو المبدأ الذي أخرج الحزب الشيوعي السوفيتي من أفغانستان، بل ومن الكرملين في النهاية.

في السنوات القليلة الماضية رحنا نعيد اكتشاف النقاش الماركسي الذي دار في الحزب الشيوعي السوفيتي وفي معاهد الأبحاث في أواخر السبعينيات وأوائل

الثمانينيات عن طبيعة الثورات في العالم الثالث. كان النقد الرئيسي للسياسة الرسمية يركز على سوء فهم موسكو للطبقية في تلك الثورات مثل التي وقعت في إثيوبيا وأنجولا وأفغانستان. وقال النقاد إنه بدلا من كونها ثورات للتحرر الوطني تقودها "الطليعة" الماركسية، فإن بعض تلك الأنظمة – مثل نظام منجستو – كانت تمنع قوى التنمية وتمثل المصالح "الإقطاعية" ضد الطبقة البرجوازية. وبمساندته لتلك الأنظمة انتهى المآل بالاتحاد السوفيتي إلى الوقوف على الجانب الخطأ من التاريخ. وقد تسببت الحرب التي كانت دائرة في أفغانستان في إسكات هذا النقد إلى درجة كبيرة، ولكنه عاد وظهر في منتصف الثمانينيات وأصبح يمثل خلفية أساسية لقرارات جورباتشوف.

كان انتقاد التدخلات السوفيتية في العالم الثالث قويًا لأنه كان ماركسيًا بالأساس ولأنه بداية من أواخر ١٩٨٦ كان يطرح علنًا نتيجة لسياسة الشفافية. وقد ساعد بالطبع في تفسير الخطأ في السياسات السوفيتية فيما يخص أفغانستان تحديدًا، ومن ثم في التدخلات في العالم الثالث في كل مكان آخر. فلو أن الدول موضع التساؤل لم تكن مستعدة للاشتراكية، فإن الأساس الذي قامت عليه السياسة السوفيتية كان خطأ. لم تكن تلك جدلية للانسحاب السوفيتي في حد ذاته، ولكنها كانت جدلية تؤكد الحاجة إلى التغيير الجذري في الفكر من مفهوم الوحدة مع الرفاق في الخارج، إلى مفهوم آخر أكثر محدودية، هو مساعدة دول العالم الثالث ضد الهجمات الإمبريالية. مثل هذا التغير لم يكن بالطبع غريبًا في سياق التاريخ السوفيتي، فقد سبق أن حدثت مثل هذه التحولات في العشرينيات والخمسينيات والستينيات. كان تحولا استطاع الاتحاد السوفيتي أن يقوم به بسهولة، ولم يمنعه عن الاستمرار في الحرب الباردة في العالم الثالث وإن كان ذلك تحت مبدأ استراتيجي مختلف.

الجديد هنا كان عدد الحلفاء من العالم الثالث الذين كانوا يعتمدون على الدعم السوفيتي، والنقد الشعبي العنيف والمتباين للسياسات السابقة، ودرجة تحول هذا النقد مباشرة ضد الدول والحركات التي كان يدعمها السوفيت. لقد ازدادت أسهم الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث عن ذي قبل من ناحية، كما أن التغيرات التي أحدثها جورباتشوف في المجتمع السوفيتي قد فتحت الباب للتحليلات الماركسية وغير الماركسية لسياسات الماضي (والحاضر أيضًا على نحو متزايد). كانت النتيجة أن بدأت من ١٩٨٧ عاصفة شديدة من الانتقادات لسياسة التدخل السوفيتية ولدول العالم الثالث التي كانت تتلقى المساعدات السوفيتية، وقد ذهبت تلك العاصفة إلى حدود ودرجات أبعد كثيرًا مما تخيل جورباتشوف. وبينما الكثير من المعلقين يكثرون الحديث عن تقدم الاشتراكية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فإنهم قد رأوا أن التدخلات السوفيتية مكلفة للغاية، وراحوا يطرحون أسئلة صريحة ومحرجة عما تم إنجازه. كتب راشيك م.أفاكوف ***Rachik M.Avakov*** في عدد نوفمبر ١٩٨٧ في جريدة سوفيتية كبيرة عن الشئون الدولية: "لقد أصبح تقليدًا عمليًا أن توضع عبارات مثل "لقد قابلوا عقبات"، أو "عليهم تجنب المقاومة الداخلية ونتائج الاستعمار " وما إلى ذلك من عبارات، بدلا من تحليل الأزمات والعمليات السلبية التي تحدث في الدول ذات التوجهات الاشتراكية، بما في ذلك الفشل في اقتصاداتها وسياساتها الداخلية والخارجية"(٢٨).

وفي مقال رئيسي في الجريدة نفسها "الاقتصاد العالمي والشئون الدولية" كتب جيورجي ميرسكي ***Georgii Mirskii*** الخبير البارز بشئون الشرق الأوسط، "إن دراساتنا، بتأكيدها على دور العوامل الطبقية، لم تلق الضوء على التباينات الإثنية والدينية الداخلية لدى شعوب آسيا وأفريقيا؛ إن المجتمع الشرقي مغمور بالصراعات الكبرى حول الأمور القومية والإثنية والدينية والعشائرية والمحسوبية"(٢٩). وأخبر ميرسكي والخبير البارز بشئون العالم الثالث نوداري سيمونيا ***Nodari Simoniia***، أخبرا أعضاء بارزين في الإدارة الدولية للحزب الشيوعي السوفيتي في

مؤتمر في أواخر ١٩٨٧ بأن الاتحاد السوفيتي كان في حاجة إلى إعادة النظر في منهجه بالكامل في العالم الثالث وإلى أن يقيمه على أساس ما هو كائن وليس على أساس ما ينبغي أن يكون. في إدارة أصبحت بعد رحيل بوناماريوف ناقدًا رئيسيًا لسياسة الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث، تم الإنصات إلى تحذيراتهما بأن بعض نتائج عدم الاستقرار بالعالم الثالث – مثل التطرف والإرهاب والحرب الأهلية – قد تصبح خطرًا يهدد الاتحاد السوفيتي وليس فرصًا يمكنه استغلالها. ومع عدم رغبة الإدارة في التخلي عن تحالفات الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث، قامت بإعادة تشكيل علاقاتها، بحيث تقوم موسكو بدعم التغيرات الداخلية من خلال وضع مواصفات محددة ودقيقة عند استخدام المساعدات السوفيتية.

كذلك لعبت المخابرات السوفيتية ***KGB*** دورا مهما في خلق مناخ جديد لعلاقات الاتحاد السوفيتي بالعالم الثالث. لقد طُلب من أعضاء المخابرات تقديم أدلة على الفساد وسوء الإدارة وازدواجية التعامل (بما في ذلك تمويل المشروعات نفسها من الغرب ومن الاتحاد السوفيتي في الآن نفسه)، وقدموا سيلا لانهائيًا من التقارير حول مثل تلك الحالات، قليل منها انتهى على مكتب السكرتير العام بدءًا من منتصف ١٩٨٦، وقد استشاط جورباتشوف غضبًا. وأخبر رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي مستشاريه، في نقاشات خاصة، بأن بعض زعماء العالم الثالث الذين كان يُكن لهم احترامًا حقيقيًا اتضح أنهم لا عقيدة لديهم ولا خلق. والسؤال الذي طرحه كان كيف يمكن التعامل مع الموقف. وكان تشرنيايف ***Cherniaev*** – مستشاره في هذه القضية وفي الكثير من القضايا الأخرى – مقتنعًا منذ أن بدأ العمل تحت رئاسة جورباتشوف في ١٩٨٦ بأن على السوفيت أن ينسحبوا من العالم الثالث. ولكن تلك لم تكن الإجابة التي كان رئيسه يريد أن يسمعها. لقد كان جورباتشوف – كعادته – يحاول أن يجد وسيلة ليبدأ الهجوم، لتأمين المواقع السوفيتية في الوقت الذي يتقدم فيه الإصلاح[٣٠].

كانت أزمة ١٩٨٦ فى اليمن الجنوبية نقطة تحول فى نظرة جورباتشوف إلى العالم الثالث ولقدرة الاتحاد السوفيتى على التأثير فى الإصلاح فى الدول البعيدة. كان السوفيت الحليف الأول لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية – الدولة الماركسية اللينينية الوحيدة فى الشرق الأوسط – لقرابة عشرين عامًا، وقد منحوها كمًا كبيرًا من المساعدات. فى ١٩٨٠ كانت اليمن الجنوبية خامس أكبر متلق للمساعدات السوفيتية بعد الهند وإثيوبيا والعراق وفيتنام. وكان زعماء الحزب الاشتراكى بها قد تدربوا فى الاتحاد السوفيتى أو ألمانيا الشرقية وكان رئيسها البراجماتى على ناصر محمد مفضلا لدى السوفيت منذ أن تفوق فى مناورة الجناح الأكثر راديكالية فى الحزب فى ١٩٨٠. ورغم التقارير الصادرة عن كل من الإدارة الدولية باللجنة المركزية *MO* وعن المخابرات التى أوضحت التوجهات الإثنية للمتنافسين فى الرئاسة اليمنية، فإن المكتب السياسى السوفيتى اختار أن يعتقد أن الدولة كانت مستقرة نسبيًا. ولما وقع اقتتال عنيف فى عدن بعد محاولة انقلاب فى يناير ١٩٨٦، أسقط فى يد السوفيت تمامًا فلم يعرفوا كيف يكون رد فعلهم. كانت أولى تعليمات لجورباتشوف هى إجلاء الرعايا السوفيت بعيدًا عن الضرر مع تصاعد الحرب الأهلية. وبعد شهر من الاقتتال – حيث قتل أكثر من عشرة آلاف واستخدم الجيش المعدات السوفيتية ليسوى عدن بالأرض – استطاع الكرملين أن يفرض شكلا من أشكال الوحدة على الحزب اليمنى. وبينما كان جورباتشوف يقدم مساعدات لإعادة بناء الدولة، كان إيمانه باشتراكية العالم الثالث على المحك. ويتذكر تشرنيايــف تساؤل جورباتشوف باستمرار عقب كارثة اليمن "لماذا نحن هناك؟"[٣١].

لقد صدمت الحرب الأهلية فى اليمن عددًا كبيرًا من حلفاء الاتحاد السوفيتى أيضًا. ففى حوار بين منجستو وإريك هونكر رئيس ألمانيا الشرقية فى فبراير ١٩٨٦ قال الأخير "تمامًا كما فى جرينادا، تظهر الأحداث فى اليمن ما يمكن أن

يفعله عدم النضج اليسارى". الفرق بين جورباتشوف وغيره من الزعماء هو أنه كان يريد أن يأخذ خطوات "لتنقية الأجواء"، ليس فى اليمن فحسب وإنما فى العلاقات السوفيتية بالعالم الثالث بوجه عام. بل إنه كان على استعداد لأن يفكر فى زيادة المساعدات شريطة أن يحذوا زعماء العالم الثالث حذوه ويعترفوا بأخطائهم السابقة ويقدموا برامج إصلاحية تحتوى على "المصالحة الوطنية" واحترام حقوق الإنسان. وعندما لم يأت أى من حلفاء الاتحاد السوفيتى فى العالم الثالث بمثل تلك الخطط، أظهر جورباتشوف غضبه بوضوح وانتقدهم بسبب طلباتهم التى لا تنتهى من الاتحاد السوفيتى. وعندما التقى منجستو فى أبريل ١٩٨٧ قال له أن يبحث عن إمدادات فى أى مكان آخر. وعندما أخبره زعيم نيكاراجوا دانيل أورتيجا فى العام نفسه بأن اقتصادهم كان فى هبوط وبأن الولايات المتحدة قد أعطت المعارضين ٢٧٠ مليون دولار، قال له جورباتشوف إنه يأمل ألا يكون معنى ذلك أنه يطلب منه ٢٧٩ مليون دولار. "فلتذهب ولتطلب من غيرى" كانت تلك هى الرسالة الواضحة الموحدة التى تلقاها زعماء العالم الثالث من موسكو بدءًا من منتصف ١٩٨٧ فصاعدًا.

بالإضافة إلى الانشغال الشديد بأفغانستان – الذى مهد الطريق للانسحاب السوفيتى من مناطق أخرى فى العالم الثالث – أصبحت الأزمة المتصاعدة فى إثيوبيا جزءًا من أجندة جورباتشوف بدءًا من بداية ١٩٨٨. فى أبريل ١٩٨٨ ومع بداية هجمات المعارضة فى إريتريا وفى العديد من المقاطعات الإثيوبية، راح منجستو يبعث برسائل مذعورة إلى موسكو من أجل زيادة المساعدات العسكرية، وقد جادل كل من دوبرينين ووزير الخارجية شــڤرنادزة ***Shevardnadze*** – الذى كان يجد صعوبة فى التخلى عن الحلفاء القدامى لأسباب عاطفية أكثر منها سياسية – جادلا من أجل زيادة المساعدات، ودعمهما فى ذلك وزير الدفاع دميترى يازوف. أما رئيس الأركان سيرچى أخروميــف فقد جادل ضد ذلك ودعم

تشرنيايــف وغير موقفه؛ إذ قال تشرنيايــف لجورباتشوف "إنك تحث الناس فى لقاءات المكتب السياسى وعلى الملأ أن يــتخذوا قرارات سياسية حقيقية؛ وهنا نحن نسير على الروتين القديم: أحد الأصدقاء يطلب ونحن نعطى على الفور. إن أسلحتنا لن تغير شيئًا – سوف تدفع منجستو فقط إلى محاولة يائسة بأن يحل كل شىء بالقوة العسكرية"[٣٢]. وفى النهاية منح جورباتشوف كميات محدودة للغاية من المساعدات للنظام الإثيوبى. ويبدو أن كرهه الشخصى لمنجستو، إذ أخبرته المخابرات السوفيتية بتقارير حقوق الإنسان الخاصة بنظامه، قد لعب دورا مهمًا فى اتخاذ ذلك القرار.

شأن حلفاء الاتحاد السوفيتى فى أوروبا الشرقية، لم يستطع الكثير من حلفائه فى العالم الثالث أن يفهموا سريعًا أن سياسات موسكو كانت قد بدأت تتغير جذريًا. بعضهم حاول أن يكيف سياساته وفقًا لهوى جورباتشوف، ولكنهم وجدوا أنهم كانوا بذلك يخاطرون ببقائهم هم، والبعض الآخر راح يقاوم. وقال فيديل كاسترو لأحد الزوار من ألمانيا الشرقية فى مارس ١٩٨٧ "إنها حقًا قصة مفزعة، عندما تبدأ دولة كبيرة تجرب إصلاحات تتصل بالعديد من الدول الأخرى" خاصة عندما يكون العديد من منظريها "مفتقرين إلى المعرفة والتجربة"[٣٣]. وقد بادل "المنظرون" السوفيت كاسترو العداء؛ إذ يقول تشرنيايــف فى مذكراته:

> **"ذلك الملتحى" قد دمر الثورة وهــا هــو الآن يــدمر الدولة...لا أحد فى أمريكا اللاتينية يأخذ كوبــا مأخــذ الجد. لم تعد تمثل "نموذجــا" لأحــد. انتهــى العامــل الكوبى... ولو انفصل كاسترو عنا فسوف يجرح نفسه فحسب. وسوف نكسب نحن سياســيًا، كمــا ســنوفر خمسة مليارات سنويًا. من ســيعارض؟ المتــشددون والمتعصبون فى "المعــسكر الاشــتراكى" والأحــزاب الشيوعية المحتضرة التى ولى زمانها[٣٤].**

ورغم زيادة عدم ارتياح جورباتشوف لمعظم تحالفاته مع العالم الثالث، كان الأمر يتطلب وقتًا طويلا قبل أن تبدأ حكومته في الحد من مساعداتها الخارجية، وعندما حدث ذلك أخيرًا فى ١٩٩٠ كان بعد ضغوط من المجلس الوطنى المستقل الذى راح يزداد قوة ألا وهو مجلس السوفيت الأعلى ***Supreme Soviet***. وبعد أن كشفت إيلينا إيروفييــفــا وغيرها من المثقفين حقائق المساعدات السوفيتية وأرقامها للعالم الثالث لأول مرة فى أواخر ١٩٨٩ كان التراجع الشعبى كبيرًا. وراح الكثير من الناس يسألون أنفسهم لماذا تقرض حكومتهم دول العالم الثالث ديونًا تقدر بـــ٨٧,٥ مليار روبل واقتصادها يتهاوى. وكما لاحظ أحد المعلقين فإن فرص رد هذا الدين أقل من الصفر بما أن نمط التنمية الذى يسعى السوفيت إلى تطبيقه فى هذه الدول هو بعينه النموذج الذى فشل فى الاتحاد السوفيتى نفسه. فى منتصف يونيو ١٩٩٠ – وتأثرًا بحرب الخليج الأولى – أمر مجلس السوفيت الأعلى بالحد من كافة أشكال المساعدات السوفيتية الخارجية وبخاصة العسكرية، واضطر جورباتشوف إلى إصدار مرسوم رئاسى بإعادة تقييم كافة اتفاقيات المساعدات القائمة[٣٥].

فى ١٩٩٠ جعلت خيبة الأمل والنقد اللاذع لدى الشعب أمر التدخل السوفيتى فى العالم الثالث اقتراحًا سياسيًا صعبًا وخطيرًا فى الداخل. لا شك، رغم ذلك، أنه حتى وقوع الانقلاب الفاشل فى أغسطس ١٩٩١، الذى دمر الحزب الشيوعى، كان جورباتشوف يستخدم قواه الموروثة ليتدخل فى الخارج كلما شعر بأن ذلك كان ضروريًا. المشكلة بالنسبة لتحالفات الاتحاد السوفيتى مع العالم الثالث هى أن السكرتارية العامة للحزب الشيوعى السوفيتى كانت تشارك الجماهير خيبة الأمل، وتفضل فك الارتباط بالعالم الثالث. لقد لخص أحد المعلقين البارزين على الشئون الخارجية، وهو ديمترى فولسكى ***Dmitrii Volskii***، الحالة السائدة فى ديسمبر ١٩٨٨:

لقد حدث أكثر من مرة أن نجد أن دولة أفريقية أو آسيوية مختلفة تمامًا عما صورته لنا وسائل الإعلام. ولا يتضح ذلك إلا بعد سقوط نظامها. عندئذ فقط نتأكد أن "القوى القومية الوطنية" عندما يأتون إلى السلطة يتصرفون كأنهم أمراء إقطاعيون أو ما قبل إقطاعيين وأن "المشروعات الصناعية المهمة" التى أقيمت فى لمح البصر بأموال الشعب كانت مطلوبة فقط لإشباع غرورهم، وأن الدولة بعد أن عكفت على الطريق إلى "التحولات التقدمية" و"تقوية الاستقلال الوطنى" حلت بها كارثة اقتصادية وأن شعبها، وقد أصابه الإعياء والسخط، قد فقد صبره فى النهاية وأطاح بحكامه[٣٦].

كان جورباتشوف نفسه مقتنعًا بأن العالم الثالث ليس له سوى القليل من الأهمية قصيرة المدى للاتحاد السوفيتى ولذا فقد كان يرى بدءًا من منتصف ١٩٨٦ أن بإمكانه استخدام الصراعات القائمة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ليجد أرضية مشتركة مع الولايات المتحدة، ومن ثم يحسن موقفه التفاوضى فى قضايا أخرى مثل القضايا المتعلقة بأوروبا والحد من التسلح والتجارة. وساعدته النظرة النقدية عن ثورات العالم الثالث التى أخذها عن مستشاريه، على التمسك بالمطالب الصارمة لإدارتى ريجان وبوش من خلال الإيحاء بأن السياسة السوفيتية قبل ١٩٨٥ - ١٩٨٦ كانت خطأ، وأن الأنظمة اليسارية ينبغى أن تبقى وتستمر، خاصة إذا كان لها الحق فى الاستمرار. ومع اقتراب التوصل إلى حل بشأن أفغانستان عن طريق المفاوضات، كان جورباتشوف يأمل أن يستخدم هذه المباحثات

نموذجا لحل ما راح يشير إليه الآن باعتباره "صراعات إقليمية" – مستعيرًا في ذلك المصطلح الأمريكي. في خطابه في الذكرى السبعين لثورة أكتوبر، بدلا من أن يطرح مسألة الصراع الطبقي، قدم السكرتير العام وجهة نظره عن "عالم متشابك متكامل، عالم يدعو إلى توازن في المصالح على أسس متساوية". وكان يرى في العالم الثالث "تشكيلة من المصالح المتعارضة... الدافع إلى التحرر، الذي كان موجودًا في مرحلة الصراع من أجل الاستقلال السياسي، راح يضعف الآن بالطبع... أما العوامل التي تشكل الدافع [الجديد] فكانت متباينة وغير متجانسة"[٣٧].

وضع أحد نواب وزير الخارجية السوفيت الشباب، وهو أندريه كولوسوفسكي، وكان قد انخرط في مباحثات الحد من السلاح السوفيتية-الأمريكية، وضع منهجًا جديدًا راديكاليًا في التعامل مع واشنطن في شئون العالم الثالث في مقال كتبه في يونيو ١٩٨٨ أقره رئيسه إدوارد شـيفرنادزة:

> إننا نحتاج إلى نظرة جديدة إلى الدول النامية تتخلى عن الأيديولوچيا وترى تفرد العمليات القائمة هناك، وتدرك أيضًا اعتماد هذه الدول على التنافس القائم بين النظامين الاجتماعي والاقتصادي... لقد أظهرت التجارب أن أي نظام يتصارع مع الأمريكيين لا يحقق بالضرورة التقدم الاجتماعي والعدالة والديمقراطية... وستصبح صورة الاشتراكية أكثر جاذبية بكثير عندما يرى العالم الخارجي أن جوانب الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان موجودة في تقييمنا للأحداث في المناطق الأخرى وفي اختيارنا لأصدقائنا وحلفائنا[٣٨].

وقد اتبع مسئول آخر بالخارجية السوفيتية وهو أدريه كوزيريـــف ***Andrei Kozyrev*** الذى أصبح فيما بعد أول وزير خارجية للرئيس الروسى بوريس يلتسين، هذا المنهج بلهجة أكثر راديكالية في أكتوبر ١٩٨٨. وقال في جريدة الشئون الدولية ***International Affairs*** إن الاتحاد السوفيتي لم يعد لديه أى سبب لكي يكون فى "حالة مواجهة طبقية مع الولايات المتحدة أو أى دولة أخرى...إن أسطورة أن المصالح الطبقية للدول الاشتراكية والنامية تصطدم مع الإمـــبريالية لهى أسطورة لا ترقى إلى درجة النقد، أولا لأن معظم الدول النامية تتمسك بالنموذج الغربى للتنمية أو تتجه نحوه، وثانيًا لأنها لا تعانى من الرأسمالية قدر ما تعانى من الافتقار إلى الرأسمالية"(٣٩).

بالنسبة للأمريكيين، بدا التغيير فى نظرة جورباتشوف إلى العالم الثالث عظيمًا بشكل لا يُصدَق. بيد أن ابتهاجهم لم يمنعهم عن استغلال الصعوبات الاقتصادية والسياسية التى كان الزعيم الشيوعى الجديد يواجهها، وكذا استغلال مثاليته وكرمه وأحيانًا سذاجته. فى مؤتمر واشنطن فى ديسمبر ١٩٨٧ قدم السوفيت اقتراحًا بالتوقف عن إمداد نيكاراجوا بالأسلحة فى حال تبنت الولايات المتحدة عملية السلام الإقليمية التى أنشأها رئيس كوستا ريكا أوسكار أرياس ***Oscar Arias***. ولكن الولايات المتحدة ظلت تمارس المزيد من الضغوط على موسكو من أجل المزيد من التنازلات فى أمريكا اللاتينية، وخاصة بعد أن تولى چورج بوش الرئاسة فى ١٩٨٩. وكذلك بشأن الجنوب الأفريقى عندما عرض جورباتشوف فى مؤتمر موسكو فى مايو-يونيو ١٩٨٨ أن يكف عن إمداد ***MPLA*** فى حال توقفت الولايات المتحدة عن إمداد يونيتا ***UNITA***، أجاب ريجان إن "هدف سافيمبى الوحيد هو إنشاء حكومة فى أنجولا يستطيع فيها الشعب أن يختار مصيره". وفى نهاية اليوم الأول من الاجتماعات أعطى جورباتشوف لريجان ورقة كتبها بنفسه كان يريد أن يوقع عليها كلاهما:

بناء على فهمهما للواقع الذى تشكل فى العالم اليوم، يرى الزعيمان أن أى مشكلة لا يمكن حلها، ولن يمكن حلها، بالوسائل العسكرية. إن الزعيمين يريان أن التعايش السلمى هو المبدأ العام لكل العلاقات الدولية. ولابد من إدراك أن المساواة بين الدول وعدم التدخل فى الشئون الداخلية وحرية الاختيار الاجتماعى السياسى هى المبادئ الراسخة والإجبارية للعلاقات الدولية.

قد لا يكون بمستغرب أن يقوم مستشارو الرئيس الأمريكى بنصحه ألا يوقع، وانفجر جورباتشوف فى خيبة أمل: "كان للرئيس الخيار، ولكنه بدا غير راغب فى ممارسه السلطة المخولة إليه"(٤٠). أخذا فى الاعتبار أسلوبه الشخصى جدًا فى صناعة السياسة الخارجية ببلاده، لم يستطع جورباتشوف أن يفهم أن أى رئيس أمريكى لن يستطيع أن يوقع على مثل تلك الاتفاقية إلا مع إعادة تقييم أساسى لمنهج بلاده برمته بشأن العالم الثالث، وأنه على العكس منه هو شخصيا، لم يكن ريجان ولا بوش ينويان تغيير منهجهما.

وضع جورباتشوف ومستشاروه – وخاصة وزير الخارجية شفرنادزة، الذى أصبح فيما بعد رئيسًا لجورجيا المستقلة – وضعًا تصوريًا لأهمية تقرير المصير الوطنى، أبعد من أى تصور لزعيم أى قوة كبرى فى القرن العشرين. لقد قام الرئيس السوفيتى بممارسة ما كان كل من الليبراليين والثوريين ينادون به فى مطلع القرن – ألا وهو الإصرار على السماح لشعوب العالم بتقرير مصائرها بدون تدخل خارجى. كان ذلك هو مبدأ جورباتشوف الذى التزم به، حتى وإن لم يكن من الواضح إن كانت الولايات المتحدة سوف تدين بالمبدأ نفسه أم لا. ويمكننا فهم قوة

هذا المبدأ فى الكرملين فقط من خلال الشهور الأخيرة لجورباتشوف فى منصبه رئيسًا للجمهورية عندما قام جورباتشوف – بصفته أول رئيس للدولة فى التاريخ – بالاستقالة نتيجة تصويت أجزاء من الجمهورية الاتحادية بالقضاء على تلك الجمهورية.

نهاية العالم الثالث

فى أواخـــر الثمانينيـــات، لـــم يعـــد للعالـــم الثالث وجود باعتباره مفهومًا سياسيًا أو اقتصاديًا له معنى. لقد دفعت التغيرات التى بدأت في السبعينيات الأجزاء المختلفة من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فى اتجاهات مختلفة، بل متناقضة. فى مجال الاقتصاد كان بعض دول شرق أسيا وجنوب شرقيها فى منتصف فترة من النمو الرأسمالى السريع المرتكز على اختراق منتجاتها المصنعة للأسواق العالمية. أما أمريكا اللاتينية فكانت تعانى ركودًا، محملة بديون ثقيلة وعدم توازن اجتماعى متزايد. بالنسبة لمعظم الاقتصادات الأفريقية كانت الثمانينيات كارثة، حيث هبط الدخل القومى هبوطًا حادًا مخلفًا الفقر المدقع لشعوبهم. أما من الناحية السياسية فقد ابتعدت أمريكا اللاتينية عن الدكتاتوريات العسكرية فى وجود الاعتقاد الذى استلهمته من الولايات المتحدة بأن نمو السوق والديمقراطية يأتيان متلازمين. بعض الدول غير الشيوعية في شرق أسيا تحركت في الاتجاه نفسه، وإن كان ببطء شديد. فى أفريقيا والبلقان وأجزاء من جنوب آسيا، سيطرت الهويات الإثنية على الأيديولوجيات كأسباب أساسية للصراع. فى بعض دول العالم الثالث الواقعة فى قلبه – الحزام الإسلامى من المحيط الأطلنطى فى أفريقيا إلى الحافة الآسيوية للمحيط الهادى – كان الإسلام السياسى يواجه السياسة العلمانية وفى بعض الأحيان يحل محلها. وفى نهاية الحرب الباردة بدا أن العالم الثالث يتصدع.

وبدلا من ثلاثة عوالم – أيا كان الشكل الذى يمكن تخيلها به- فإن التسعينيات قدمت مفهوم "العولمة" أو، لنستخدم مصطلحا أفضل، "الأمركة". وبدت الأسواق فى العالم، خاصة الأسواق المالية، مرتبطة على نحو شديد التعقيد والتشعب بالاقتصاد العالمى الرأسمالي المتمدد، مع وجود الولايات المتحدة – القوة العظمى الوحيدة الباقية – فى مركزه. أصبحت سياسة الاستهلاك والديمقراطية الليبرالية هى القيم الرئيسية للطبقة المتوسطة فى العالم، وأصبح التمسك برأسمالية السوق الحرة هو اللعبة الوحيدة فى المدينة للإصلاحيين الذين درسوا فى الغرب، على الأقل لبعض الوقت. أما خارج "المدينة"، على هوامش الشبكات الإلكترونية التى كانت سمة للطبقة المدنية العالمية الجديدة المحمودة، فكان هناك الكثير من الضحايا للحرب الباردة فى العالم الثالث. معظم أولئك كانوا فلاحين، يعيشون داخل المدن أو خارجها، فى قرى شديدة الفقر أو فى عشوائيات، حيث الأمركة مرفوضة ويتم مقاومتها.

هذه الانقسامات الجديدة، التى تغذت عليها الصراعات الجديدة، تتضح وضوحا جليا فى الأسلوب الذى انتهت به الحرب الباردة فى بعض الدول موضع الدراسة فى هذا الكتاب. فى أفغانستان، عندما انهار نظام نجيب الله أخيرًا فى ١٩٩٢، بدا الحزب الإسلامى الأصولى مهيأ للسلطة ولكن الجماعات الإثنية والإسلامية ذات المواقف الأقل تطرفًا فى القضايا السياسية والاجتماعية كانت تعارضه. وفى الحرب الأهلية التى نتجت عن ذلك تم تدمير معظم كابول وبدأت الدولة تتصدع حول الخطوط الإثنية إلى أن سيطرت حركة طالبان الجديدة التى دعمتها باكستان والسعودية سيطرة سريعة فى ١٩٩٥- ١٩٩٦، وقد فازت طالبان لأنها وعدت بالسلام والأمن فى بلد أرهقت شعبه الحروب وانعدام النظام؛ وأيضًا لأن الكثير من زعمائها كانوا يعتبرون تقليديين أكثر منهم إسلاميين أصوليين. فى ٢٠٠١ سيطرت طالبان على أكثر من ٩٠% من أراضى أفغانستان التى بدت أنها فى الطريق إلى وجود حكومة موحدة لأول مرة منذ ١٩٧٨.

كانت طالبان، وهى حركة رجعية أصولية أكثر منها ثورية إسلامية، سيئة الحظ لأنها ورثت من ضمن اتصالات الحرب المعادية للسوفيت ارتباطًا بالسعودى الإسلامى أسامة بن لادن وجماعته المتطرفة "القاعدة". كان بن لادن قد ترك بصمته فى الحرب ضد السوفيت كواحد من الشبان العرب الكثيرين الذين كرسوا أنفسهم ليدفعوا بالغزاة الشيوعيين خارج أفغانستان. ورغم أنه تحالف مع العدو اللدود لزعماء طالبان، قلب الدين حكمتيار، فإن أولئك الزعماء كانوا يشعرون بأن أفغانستان مدينة له، وعندما عاد إلى البلاد فى مايو ١٩٩٦ وبعض من رفاقه ومؤيديه من الثمانينيات، منحوه المأوى بينما راح هو يساعدهم للسيطرة على كابول والمدن الشمالية. فى أثناء ذلك كان الإسلاميون الذين جُندوا لقتال السوفيت فى أفغانستان عن طريق الشبكات الغامضة التى أنشأتها المنظمات الإسلامية والحكومة السعودية والمخابرات الأمريكية *CIA* فى الثمانينيات، كانت قد ذهبت للدفاع عما اعتبرته قضيتها – الدفاع عن الأمة الإسلامية برمتها – فى البوسنة والشيشان والجزائر والمناطق الكردية من العراق. فى التسعينيات انضمت الكثير من شعوب الشمال الأفريقى والسعوديين والفلسطينيين الأردنيين إلى القاعدة، منجذبة إلى حماسة بن لادن وموارده ورغبته فى ضرب الشيطان الكبير الباقى فى العالم غير الإسلامى: الولايات المتحدة.

الكثير ممن تعاطفوا مع القاعدة – من المسلمين عامة وفى أفغانستان خاصة – وجهوا غضبهم ضد كل من حكوماتهم الفاسدة غير الكفء، وضد التأثير الغربى فى الدول الإسلامية. وفى حين أصبحت المنظمات الإسلامية الكبيرة أكثر اعتدالا من الناحية السياسية فى أواخر التسعينيات، حيث كانت تؤهل نفسها للاستيلاء على السلطة من أعدائها التقليديين، أى الحكومات اليسارية العلمانية، فى دول مثل الجزائر وليبيا وسوريا والعراق، كانت القاعدة تتحرك فى الاتجاه المعاكس، مفضلة الإرهاب على الفعل السياسى. أصبح بن لادن وأتباعه أكثر عزلة بين الحركات

الإسلامية جزئيا بسبب نشاطاتهم، على الأقل حتى الاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق. ورغم أن الإسلاموية كانت قد بدأت تنتهى كأيديولوجية ثورية مع انضمامها إلى الحياة السياسية العامة، فإن رفض العالم الإسلامى منذ الحرب الباردة كان يكفى لإشعال الجماعات الإرهابية مثل القاعدة لمدة طويلة فى المستقبل. بهذا المعنى فإن الموقف كان أشبه بما حدث فى أوروبا فى أواخر السبعينيات، حيث انضم اليسار الراديكالى إلى الحياة السياسية مخلفًا وراءه فصيل الجيش الأحمر الألمانى ***German Rote Armee Fraktion*** أو ***Italian Brigate Rosse***

بالنسبة للهند الصينية – وهى المنطقة التى أسهمت الحرب الباردة فى تحطيمها – كان هناك نوع من التسوية قرب نهاية تلك الحقبة، وإن كان أقل شمولا مما أمل الكثيرون. فى ١٩٨٦ كانت ڤيتنام قد بدأت سحب قواتها من كمبوديا، ولكن دعم الصينيين والولايات المتحدة وجنوب شرق آسيا للخمير الحمر وحلفائهم جعل الانسحاب صعبًا. فى ١٩٨٨ كان الـڤيتناميون قد أوضحوا أنهم سوف يسحبون قواتهم كلها عند نهاية العقد، ولكن رغبة جورباتشوف الزائدة فى الوصول إلى اتفاق مع بكين، وآمال هانوى لفتح أسواقها على بقية جنوب شرق آسيا واقتصاداتها الآخذة فى الاتساع، عجلت بالانسحاب. وقبل زيارة الزعيم السوڤيتى للصين فى مايو ١٩٨٩ مباشرة – وهى الزيارة الأولى لرئيس الاتحاد السوڤيتى منذ ثلاثين عامًا – أعلنت ڤيتنام أن كل قواتها ستخرج فى نهاية سبتمبر ١٩٨٩. وقد زادت الولايات المتحدة من تدخلاتها كرد فعل لذلك، محاولة – للمرة الأولى – أن تخلق جبهة قتال معادية للخمير الحمر، لمواجهة الحكومة الكمبودية المتحالفة مع ڤيتنام. بيد أنه فى نهاية ١٩٩١ كانت منظمة ***ASEAN*** – منظمة التكامل الإقليمى التى كانت هانوى وبنوم بنه ***Phnom Penh*** تأملان أن تنقذ اقتصاديهما المدمرين – كانت قد أقرت تسوية تفاوضية تحت مظلة الأمم المتحدة، واستمرت الحرب ضد الخمير الحمر حتى وفاة بول بوت فى ١٩٩٨.

أما في أفريقيا فكانت التغيرات في نهاية الحرب الباردة أشد. في إثيوبيا حيث كان نظام منجستو هيلا ميريام – كما رأينا – يعاني صعوبات كثيرة منذ ١٩٨٧ ، أدى استمرار جورباتشوف في منح المساعدات السوفيتية إلى تأجيل النتيجة وليس منعها، وقد استجاب منجستو للهجمات العسكرية للمعارضة فغيَّر مسمى بلاده ليصبح جمهورية إثيوبيا الديمقراطية الشعبية ***People's Democratic Republic of Ethiopia*** وأعلن إيمانه بالماركسية اللينينية، كما راح يتقرب من هافانا وبرلين في بحثه عن حلفاء. لم ينفعه أي منهما. في مايو ١٩٨٩، بينما كان منجستو في زيارة لبرلين، حاول جيشه أن يخلعه، ورغم أنه نجا من محاولة الانقلاب فقد واجه نظامه انهيارًا اقتصاديًا، ليس بسبب تخفيض المساعدات السوفيتية وإنما بسبب تخفيض أسعار الصادرات الأساسية. وفي يأسه، استدار منجستو إلى الحليف القديم لإثيوبيا الإمبريالية: إسرائيل، التي عرضت بدورها مساعدة النظام في مقابل السماح للأقلية اليهودية بالهجرة إلى إثيوبيا. في بداية ١٩٩٠ حل منجستو الزراعة المحلية وقام بإصلاح السوق، كما أعلن أنه كان مستعدًا للعمل مع الولايات المتحدة، وأعيد تسمية الحزب الشيوعي ليصبح حزب الوحدة الديمقراطية لإثيوبيا ***Democratic Unity Party of Ethiopia*** حيث تختصر اختصارًا دالا إلى *DUPE* (وتعني الإمعة).

ولكن ذلك كله كان قليلا جدًا ومتأخرًا جدًا وغير مقنع بالمرة لأعداء منجستو. أما وقد تخلوا هم أنفسهم عن ماضيهم الماركسي، فقد تقدمت جبهة التحرير الشعبية تيجراي ***Tigray People's Liberation Front (TPLF)*** المعارضة نحو العاصمة أديس أبابا، بينما كانت جبهة تحرير إريتريا ***EPLF*** قد حررت إريتريا كلها، وعزلت الجيش الرئيسي للجنة المركزية ***Derg*** وقوامه مائتا ألف رجل في أسمرة. في ٢١ مارس ١٩٩١ سهلت الولايات المتحدة نفي منجستو السريع إلى زمبابوي مع الاعتراف بحكومة فيدرالية جديدة تحكمها جبهة التحرير الشعبية تيجراي في أديس أبابا. بعد ذلك بيومين – وعلى غرار النموذج المعمول

به في أوروبا الشرقية – أسقط شعب أديس أبابا تمثال لينين الكبير الموجود فى منتصف العاصمة، والذى يقال إنه كان أغلى تمثال للينين خارج الاتحاد السوفيتى. ومع حصول إريتريا على استقلالها فى ١٩٩٣، تُرك الإثيوبيون ليعانوا الفقر والجوع مثوبة من تحطيم حلم منجستو بالاشتراكية.

فى أنجولا فسرت حكومة جنوب أفريقيا التهدئة السوفيتية الأمريكية والدعم الأمريكى الذى تجدد لليونيتا ***UNITA*** بزعامة چوناس سافمبى باعتباره رخصة جديدة لمحاولة خلع نظام مبلا ***MPLA***. وأمل الجناح اليمينى للحزب الوطنى، الذى اعتلى السلطة بزعامة الرئيس پ.و.بوتا ***P.W.Botha*** أن يرى أنجولا تتفكك، والكوبيين يغادرون أو يُهزمون حتى تستطيع أن تنظم تسوية شبيهة فى ناميبيا، كتلك التى نظمتها لما يسمى "أوطان البانتو المستقلة" ***independent bantu homelands***. كان بوتا يريد أن يركز جهوده على تحطيم الحزب الوطنى الأفريقي ***ANC*** داخل جنوب أفريقيا نفسها ومنعه من أن يكون له قواعد على حدودها. أما حركة مبلا ***MPLA*** فمن جانبها كانت تأمل أن تخرج حركة يونيتا حتى تعيد توحيد البلاد وتمهد الطريق إلى الإصلاح الداخلى والتطبيع مع الولايات المتحدة. وتوقف هجوم حركة ***MPLA*** وكوبا بالقرب من كويتو كوانـــافـــال ***Cuito Cuanavale*** جنوبى أنجولا، عندما قامت قوة من أكثر من خمسة آلاف جندى جنوب أفريقى بالهجوم عبر الحدود. بحلول نوفمبر ١٩٨٧ كانت أكبر حرب فى أفريقيا منذ الحرب الإثيوبية الصومالية تستعر حول كيوتو حيث فصل الجنوب أفارقة المهاجمين بين قوات حركة فابلا ***FAPLA*** والقوات الكوبية وبين الشمال. ما أرعب المستشارين السوفيت هو إرسال فيدل كاسترو، من يناير إلى مارس ١٩٨٨، خمسة عشر ألف من خيرة جنوده إلى أنجولا لبدء هجوم مضاد، مشيرًا إلى بريتوريا بأن كوبـــا كانت مستعدة لأن تقاتل بداخل ناميبيا لو لم ينسحب الجنوب أفارقة من كويتو كوانـفـال.

ورغم استيائهم من تصرفات كاسترو، عمل الأمريكيون والسوفيت معًا لاستخدام ثقل المفاوضات التي خلقها الزعيم الكوبي برغبته في مواجهة الجنوب أفارقة. كان عدد الجنود الجنوب أفارقة الذين يقتلون في كويتو كواناڤال وعلى حدود ناميبيا في ازدياد، وبدأ بعض زعماء الحزب الوطني وقوات الدفاع الجنوب أفريقية يفضلون الانسحاب. في يوليو ١٩٨٨ وقعت أنجولا وكوبا وجنوب أفريقيا اتفاقية وقف إطلاق نار في نيويورك حيث كانت الأمم المتحدة هي الضامن. وفي اتفاقية نهائية، تم توقيعها في ديسمبر، اتفق كاسترو وحركة *MPLA* على سحب كل الجنود الكوبيين في غضون سبعة وعشرين شهرًا. ووافقت جنوب أفريقيا على احترام حدود أنجولا والتفاوض بشأن وقف إطلاق النار مع منظمة التحرير الناميبية *SWAPO*، مع النظر إلى تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٤٣٥ بشأن الاستقلال الناميبي. ومن دواعي السخرية، أن القوة الخارجية الوحيدة التي احتفظت بحق التدخل المستمر في المنطقة كانت الولايات المتحدة التي ضاعفت مساعداتها لجوناس سافيمبي وحركته يونيتا ليصل إلى ثمانين مليون دولار في ١٩٩٠. لقد تلقت حركة يونيتا أكثر من ٢٥٠ مليون دولارًا من المساعدات الأمريكية فيما بين ١٩٨٦ و١٩٩١، بما في ذلك أسلحة متقدمة مثل صواريخ ستنجر أرض جو.

بيد أنه مع حصول ناميبيا على الاستقلال في ١٩٩١، وخروج السوفيت والكوبيين، وسعي حكومة حركة *MPLA* للتقرب من واشنطن، كان زمن جوناس سافيمبي قد أوشك على الانتهاء. فعندما رفض الاعتراف بنتيجة انتخابات ١٩٩٢ التي أعطت الأغلبية لحركة *MPLA*، وبدأ الحرب الأهلية من جديد، حولت الولايات المتحدة ولاءها نحو حكومة لواندا. كان لديه من المعدات ما يكفي ليبقى تمرده مستمرًا لعشر سنوات أخر، وساعده في ذلك سيطرته على معظم حقول الألماس الأنجولية، كما ساعده أصدقاؤه ومعارفه في أمريكا وأوروبا. في فبراير ٢٠٠٢، ومع عمل حكومة *MPLA* عن كثب مع الجنسيات الغربية المتعددة

لاستخراج الثروة المعدنية بالبلاد، وفى وجود شائعات بأن الأسلحة الأمريكية التى تمنح ليونيتا قد بدأت تظهر فى الشرق الأوسط، عانـــد الحـــظ ســـافيمبى أخيرًا؛ إذ قامت حركة *FAPLA* بمهاجمته وقتله بالقرب من الحدود مع زامبيا. وبعد ثمانية عشر عامًا من استقبال ريجان له بصفته ضيفًا مفضلاً فى البيت الأبيض، تم دفن جثمان سافيمبى الذى اخترقه الرصاص تحت شجرة فى المدينة التى توفى فيها لكى يمكن رؤيته. ومع التأكيد على ما آلت إليه الحرب الباردة منذ الثورة الكوبية، كان المشهد المروع يذكر البعض بالأسلوب الذى عرض به الجيش البوليـــفـــى جثمان تشى جيفارا فى ١٩٦٧(٤١).

بالنسبة لأنجولا، كانت عواقب الحرب الأهلية والتدخلات الخارجية كارثية حقًا. فالدولة التى كان يمكن أن تصبح الأغنى فى أفريقيا، تدهور بها الحال إلى الفقر والجوع. تدهورت الخدمات العامة والبنية التحتية لأن دخل الحكومة كله كان موجهًا للحرب. وعلى الصعيد السياسى تدهورت حركة *MPLA* أيضًا إذ أصبحت نظامًا يعج بالفساد وخدمة المصالح الذاتية. ورغم الدخل المتزايد من البترول والمعادن التى كان يتم تصديرها بعد انتهاء الحرب الأهلية، فإنه لم يساعد الشعب كثيرًا فى الخروج من الدمار الذى جرته عليهم الحرب. فى تقرير صدر حديثًا عن منظمة حقوق الإنسان قيل إن "أنجولا واحدة من أعلى الدول فى معدلات الإصابة بالألغام الأرضية فى العالم؛ فمن ضمن تعداد السكان الذى يصل إلى تسعة ملايين نسمة، هناك عدة آلاف قد بُترت أعضاؤهم، معظمهم قد أصيبوا من الألغام الأرضية. والإحصاء الذى كثيرًا ما يتم استخدامه هو أن سبعين ألف شخص قد أقعدوا بسبب الألغام الأرضية. وقياسًا على ذلك، فإنه فى دولة يصل تعداد السكان فيها إلى حجم تعداد سكان الولايات المتحدة، فإن الرقم سيصبح ١,٧٥٠,٠٠٠ شخصًا"(٤٢).

كان الحزب الوطنى الأفريقى ***African National Congress*** فى جنوب أفريقيا أحد أكبر التحولات بعد الحرب الباردة، فمع تراجع نظام الفصل العنصرى فى أواخر الثمانينيات، بضغط من العقوبات الدولية والتنافر المتزايد مع الولايات

المتحدة، والهزيمة العسكرية فى أنجولا، بدأ البيض البارزون فى جنوب أفريقيا محادثات غير رسمية مع الحزب الوطنى الأفريقى. فى هذه المحادثات أوضح الجيل الأصغر سناً فى الحزب الوطنى، من داخل الحزب الشيوعى ومن خارجه، أن التأميم والنمو السريع للاشتراكية لم يكونا هدفين لهم. ولم يعد تابو مبيكى ***Thabo Mbeki***، وقد تدرب فى الاتحاد السوفيتى، لم يعد يقتبس كلمات ماركس أو إنجلز، ولكنه راح يطمئن رجال الأعمال البيض والسود فى جنوب أفريقيا أن أعمالهم ستكون فى أمان تحت حكم الحزب الوطنى. وبدلا من الاستهزاء "بالرأسمالية السوداء" باعتبارها "تأكيدًا للتطفل بدون أى أساليب للتعويض" كما فعل أمام الجمهور الكندى فى ١٩٧٨، أوضح أنه كان يريد أن يتنافس المزيد من الرأسماليين السود مع الرأسماليين البيض فى الاقتصاد الموجه للسوق[٤٣]. وعندما قام ف.و.دوكلرك ***F.W.de Klerk*** خليفة ب.و.بوتا ***P.W.Botha*** بالإفراج عن نلسون مانديلا وسمح بإجراء انتخابات حرة فى ١٩٩٤ فاز فيها الحزب الوطنى فى النهاية، أصبح مبيكى – وهو الخليفة الذى اختاره منديلا – أصبح هو الضامن لقيام جنوب أفريقيا رأسمالية مستقرة.

بيد أن الحزب الوطنى الأفريقى لم ينس ديونه القديمة. فبعد الإفراج عن نلسون مانديلا كانت أول زيارة له لكوبا، حيث ظهر مع فيدل كاسترو على منصة فى ماتنزاس فى يوليو ١٩٩١، وهما يحتفلان بالذكرى الثامنة والثلاثين لانطلاقة الثورة الكوبية. ووقف مانديلا أمام حشد مبتهج وهو يشيد بإسهام كوبا فى تحرير جنوب أفريقيا. وأخبر الكوبيين أن معركة كويتو كوانافال ***Cuito Cuanavale***

> **هى ما جعل أنجولا تتمتع بالسلام وتحقق سيادتها، ومكنت هزيمة الجيش العنصرى شعب ناميبيا من تحقيق استقلاله. وحطمت الهزيمة النكراء للقوات العنصرية الباغية أسطورة المستعمر الأبيض الذى**

لا يقهر، وكانت هزيمة الجيش العنصرى إلهامًا لشعب جنوب أفريقيا المكافح. ودون هزيمة كيتــو كواناڤــال لما كانت مؤسساتنا لتُشرَع[44].

لكن بالنسبة لكوبا نفسها لم تكن الحرب الباردة تعنى انفراجة لشعبها. فقد بقى الحظر الاقتصادى الأمريكى كما كان، وكذا بقيت كل المحاولات الأمريكية الأخرى لعزل البلاد دوليًا. لقد روعت أحداث أوروبا الشرقية فى ١٩٨٩ كاسترو، وبالتالى لم تكن لديه الرغبة فى القضاء على الشيوعية. وبعد أن قام السكرتير العام التشيكوسلوڤاكى المتشدد ميلوس چاكس ***Milos Jakes*** بزيارة كوبا فى يناير ١٩٨٩ قال جورباتشوف إن "كاسترو أيضا يلعن البريسترويكا باعتبارها خيانة للماركسية اللينينية والثورة والاشتراكية والأصدقاء، وباعتبارها انتهازية وتعديلية من أسوأ الأنواع. والآن كان فيدل يخبر چاكس بأن كوبا كانت المرفأ الأخير للشيوعية وأنها ستبقى مخلصة لها إلى النهاية"[45]. وبقيت بالفعل. فقبل خلع إريك هونكر رئيس حزب ألمانيا الشرقية بأسبوعين وشهر من سقوط حائط برلين، كان كاسترو قد بعث إليه رسالة شخصية ردد فيها "صلابة وحدة الشيوعيين والشعب الكوبى كله واستمراريتها ضد المؤامرات والضغوط التى يمارسها الإمبرياليون ضد جمهورية ألمانيا الديمقراطية ***GDR***. إننى أعانقك كأخ لى"[46].

فى ديسمبر ١٩٨٩، ومع سقوط آخر النظم الشيوعية فى ألمانيا الشرقية، ومع انشغال النظم الأخرى فى العالم الثالث بصنع السلام مع معارضيهم ومع الولايــات المتحدة، تحدث كاسترو فى لقاء تذكارى للشهداء الكوبيين الذين ماتوا فى أنجولا:

الآن تريد الإمــبريالية أن تنضم دول شــرق أوروبــا الاشتراكية إلى عملية نهب [العالم الثالث]. وهذا الأمر

لا يبدو أنه يزعج منظرى الإصلاحات الرأسمالية قيد أنملة. ولهذا السبب فإنه فى تلك الدول لا أحد يذكر مأساة العالم الثالث، وتتدافع الحشود التعسة نحو الرأسمالية ومعاداة الشيوعية... فلو سارت الأمور فى مسارها الحالى، ولو لم تتخل الولايات المتحدة عن مفاهيمها، فما الأفكار الجديدة التى يمكن أن نتحدث عنها؟... من المستحيل أن نقوم بثورة أو تصحيح اشتراكى حقيقى دون حزب قوى ومنظم ومحترم. من المستحيل القيام بمثل هذه العمليةعن طريق تشويه الاشتراكية وتحطيم مبادئها، وتحقير الحزب، والافتراء على رواده وتجريدهم من الأخلاق، والقضاء على دور القيادة ومحوالمبادئ الاجتماعية وزرع بذور الفوضى فى كل مكان(٤٧).

وبينما كان كاسترو يصارع فى الداخل ضد المطالب المتزايدة بالتعددية السياسية وإصلاح السوق، كانت حكومة نيكاراجوا تبحث عن صفقة مع معارضيها فى إطار عملية سلام كونتادورا، التى نظمتها مجموعة من دول أمريكا اللاتينية. كانت فحوى الاتفاقية التى تم التوصل إليها فى فبراير ١٩٨٩ هو أن الساندينيستا قد وعدوا بإجراء انتخابات حرة ونزيهة بعد عام من الاتفاقية فى حال وافق الكونترا (المعارضون) على إنهاء أنشطتهم العسكرية. ورغم استمرار الاتحاد السوفيتى فى الدعم العسكرى لحكومة الساندينيستا – وكانت إدارة بوش الجديدة تضغط على الاتحاد السوفيتى نفسه – بدأ الاتحاد السوفيتى يضغط على دانيل أورتيجا لكى يلتزم بالموعد المحدد، حتى عندما اتضح أن الكونترا لن يتخلوا عن أنشطتهم العسكرية.

وعندما أبدى يورى پاڤلوف رئيس قسم أمريكا اللاتينية فى الخارجية السوڤيتية اعتراضه للأمريكيين بأن السوڤيت – وهم من لم ينظموا أبدًا انتخابات ديمقراطية – ليسوا أهلا لتدريس الديمقراطية لشعب نيكاراجوا، أصرت واشنطن على تطبيق ما أسماه وزير الخارجية "التعذيب الصينى بالماء" على جورباتشوف؛ وقال بيكر للرئيس بوش "سنظل نقول لهم مرارًا وتكرارًا – وكأنها القطرة، تلو القطرة، تلو الأخرى – إن عليهم أن يكونوا جزءًا من الحل فى أمريكا الوسطى، أو سيكون عليهم مواجهة الكثير من المشكلات الأخرى الأصعب"(٤٨).

جاءت تسوية نيكاراجوا لعدة أسباب داخلية وعالمية. كان الاقتصاد فى نيكاراجوا يتهاوى بسبب الحرب الاقتصادية التى شنتها الولايات المتحدة عليها، بينما من الناحية العسكرية كان الساندينيستا يحرزون تقدمًا ضد الكونترا الذين كانوا مشتتين رغم المساعدات المكثفة التى كانوا يتلقونها من الولايات المتحدة. وتسببت فضيحة إيران كونترا فى تصعيب الأمر على البيت الأبيض لكى يطالب بالمزيد من التمويل لحلفاء أمريكا فى نيكاراجوا، في حين أشارت ممارسات أمريكا فى هندوراس (والغزو الأمريكى لپنما فى ديسمبر ١٩٨٩) أشارت للساندينيستا بأن واشنطن قد تقرر بعد كل ذلك القيام بحرب شاملة. أما جورباتشوف فكان يطالب بإجراء انتخابات، فى الغالب ليرضى الأمريكيين. حتى فيدل كاسترو قال إن الانتخابات ستكون فكرة جيدة، رغم أنه أعرب عن أسفه لقرار الساندينيستا بالسماح للمعارضة اليمينية بأن تعيد وسائلها الإعلامية كما أعرب عن أسفه من إعادة الممتلكات التى تم تأميمها إلى أصحابها.

عندما خسرت جبهة الساندينيستا انتخابات فبراير ١٩٩٠، راحت حركات يسارية أخرى فى أمريكا الوسطى تتخلى عن الكفاح العسكرى. فى السلڤادور وقعت حركة *FMLN* اتفاقية سلام برعاية الأمم المتحدة فى العام التالى، رغم أن

الجناح اليمينى والعسكرية بقيا مسيطرين على البلاد. وقد أنهت اتفاقية السلام معظم انتهاكات حقوق الإنسان فى البلاد، وجعلت حركة ***FMLN*** حزبًا سياسيًا شرعيًا، مما جعل للفقراء والفلاحين فى السلفادور صوتًا داخل النظام السياسى. وقد طرحت عضوة من لجان الدفاع عن الأرض المرتبطة بحرب العصابات سؤالا على نفسها عندما أجرى معها لقاء فى ١٩٩٢:

> **من أجل ماذا كانت الحرب؟ مـن أجـل حـل مـشكلة الأرض. إننا نشعر أن شيئًا ما قد حدث، ونعرف بأننـا سوف نتحرر - وهذا قد فزنا به من الحـرب. دخـول مرتفعة؟ من يدرى؟ وألا ينظر إلينا باعتبارنا عبيـدًا، وهذا قد فزنا به[٤٩].**

إن كلماتها تلخص الموقف فى نهاية الحرب الباردة وفى نهاية العالم الثالث. وبينما تبقى الكثير من الصراعات - السياسية والاقتصادية - التى قمنا بدراستها فى هذا الكتاب غير منتهية، فإن الكثير من الشعوب فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية قد بدأت من خلال تحركاتها تستعيد بعض الكرامة الإنسانية التى كان الاستعمار والحرب الباردة قد سلباها إياها. لقد أظهر ذوبان مفهوم العالم الثالث - إلى عدة مواقف وأنظمة وأفكار - ما يمكن أن يتم تحقيقه والثمن الذى يُدفع فى ذلك. فى بعض الأماكن تركت المسلمات المتشددة الموحَدة للماضى، تركت المجال للمزيد من التسامح والتعايش السلمى والتعددية. فى أماكن أخرى تبدلت المسلمات القديمة بأخرى جديدة. ولكن المكسب العام للجميع هو أن الناس لم يعد ينظر إليهم باعتبارهم عبيدًا.

هوامش الفصل العاشر

(١) لتطور وجهة نظر جورباتشوف انظر المذكرات المختلفة لـ*Anatolii Cherniaev* وخاصة كتاب

My Six Years with Gorbachev, trans. and ed. Robert D. English and Elizabeth Tucker (University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 2000),

وكذلك مذكرات مساعد رئيسى آخر لجورباتشوف وهو ألكساندر ن.إيـاكوفلوف *Aleksandr N. Iakovlev.*

(٢) تسجيل المحادثة بين جورباتشوف وراعول كاسترو، ٥ أبريل ١٩٨٥، أرشـيف مؤسـسة جورباتشوف. وقد كان اجتماع جورباتشوف مع الزعيم الباكستانى زاى الحق، الذى أتى إلى موسكو ليحضر جنازة شمنكو كانت، وفقا لرواية أحـد مـساعدى زاى المقـربين، مليئـة بالاتهامات والتهديدات السوفيتية.

(٣) تسجيل المحادثة بين ريجان وجورباتشوف، ١٩نوفمبر ١٩٨٥، الاجتماع الشامل الثـانى، أرشيف الأمن القومى *NSArch*.

(٤) جزء من مذكرات تشرنييـف، ١٧ أكتوبر ١٩٨٥، فى

Chernyaev, Six Years with Gorbachev, p.42

(٥) الـ*CIA* ، إدارة المخابرات.

"The Costs of Soviet Involvement in Afghanistan: An Intelligence Assessment," February 1987, pp.iv, 2, on http://www.foia.cia.gov

(٦) انظر محمد يوسف مع مارك أدكين

Mohammed Youssafwith Mark Adkin, Afghanistan: The Bear Trap. The Defeat of a Superpower (Havetown, PA: Casemate Publishers, 2001), ch. 12,

و *Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 11, 2001 (Harmondsworth: Penguin, 2004), pp. 161-162*

انظر أيضا مقابلة نائب وزير الخارجية السوفيتي الأول الأسبق *Georgii Kornienko* مع المؤلف، ٥ أكتوبر ١٩٩٣.

(٧) تسجيل المحادثة بين دوبينين وأرماكوست، ١ ديسمبر ١٩٨٦. خدمة المراجـع الوثائقيـة المفرج عنها *DDRS*. كان الموظفون الأمريكيون يقومون على الأقل باستجواب الـسوفيت

الذين يقعون فى أسر المجاهدين (مسئول CIA سابق، مقابلة مع المؤلف ، واشنطن العاصمة، نوفمبر ١٩٩٩).

(٨) *Mirovaia ekonomika i mezhdunarodnye otnosheniia, 5 (1985).*

ولكن انظر أيضا مقالة ليونيد أبالكين *Leonid Abalkin* في نفس الموضوع

"Leninskoia teoriia imperializma v svete sovremennykh realnosti" (The Leninist Theory of Imperialism in Light of Contemporary Realities.)

(نظرية لينين عن الإمبريالية فى ضوء الحقائق المعاصرة)

(٩) تسجيل المحادثة بين ريجان وجورباتشوف ، ١٩ نوفمبر ١٩٨٥ أرشيف الأمن القومى *NSArch.*

(١٠) تسجيل المحادثة، ١٩ نوفمبر ١٩٨٥، الاجتماع الموسع الثانى *NSArch*

(١١) لقاء المؤلف مع أناتولى تشيرنيايف، واشنطن العالصمة، ٢٠ أبريل ٢٠٠٢، تسجيل المحادثة بين هونكر وكاسترو، موسكو، ٣ مارس ١٩٨٦. *SAPMO-BArch, DY30 2462*، وقال كاسترو أيضا "لا أحد يمكن أن يتنبأ ألا تتدخل إدارة ريجان عسكريا في نيكاراجوا أو السلفادور".

(١٢) حول بداية الصراع السوفيتى الإيطالى انظر تسجيل المحادثة بين *Enrico Berlinguer* و *Kirilenko* و *Zagladin* ، بولوجنا، ٢٤ مارس ١٩٧٥، أرشيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الإيطالى *PCI Archives, 204, vol. III, 2' bimestre 1975*؛ حول مدى نقد الحزب الشيوعى الإيطالى للسياسة الداخلية السوفيتية فى السبعينيات انظر *Unita*، ٦ ديسمبر ١٩٧٦، وحول ردود الأفعال السوفيتية على نقد الحزب الشيوعى الإيطالى للسياسة السوفيتية تجاه العالم الثالث، انظر مكاتبات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي، إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الإيطالى ٧ مارس ١٩٧٧، *PCI Archives, 297, 1496-97.*

(١٣) *NSDD 194, "Meeting with Soviet Leaders in Geneva: Themes and Perceptions," 25 October 1985, NSArch.*

(١٤) تسجيل المحادثة، جلسة خاصة لمجلس شمال الأطلنطى، ٢١ نوفمبر ١٩٨٥، *NSArch.*

(١٥) *Cherniaev, Six Years with Gorbachev, p. 52*

(١٦) ملاحظات تشيرنيايف، اجتماع المكتب السياسى ، ١٥ أبريل ١٩٨٦، أرشيف مجلس الأمن القومى *NSArch*

(١٧) ملاحظات تشيرنيايــف *NSArch*. هذه الملاحظات من المحتمل أن تكــون مــن اجتمــاع المكتب السياسى فى ٢٣أو ٢٦ فبراير ١٩٨٧. ويحتوى كتاب تشيرنيايــف علــى روايــة مختلفة قليلا. *Six Years with Gorbachev., p. 106*

(١٨) ملاحظات تشيرنيايــف من اجتماع المكتب السياسى فى١٣ نوفمبر١٩٨٦ *NSArch*

(١٩) ملاحظات تشيرنيايــف، اجتماع المكتب السياسى،٢٣ أو ٢٦ فبراير ١٩٨٧*NSArch*

(٢٠) ملاحظات تشيرنيايــف، اجتماع المكتب السياسى فى ١٢ ديسمبر ١٩٨٦، *NSArch*

(٢١) *Chemiaev, Six Years with Gorbachev, p. 100.*

انظر أيضا ملاحظات تشيرنيايــف من اجتماع المكتب السياسى فى ٢ أبريل ١٩٨٧، عندما ناقش جورباتشوف زيارة تاتشر، أرشيف مؤسسة جورباتشوف، موسكو.

Archive of the Gorbachev Foundation, Moscow.

(٢٢) كان لوفاة وليام كيزى فى مايو ١٩٨٧ ما يدعم هذا الاعتقاد.

(٢٣) الأمين العام الجديد كان يعرف بنجيب حتى أكتوبر ١٩٨٧ عندما لجأ إلى استخدام كلمــة الله فى اسمه. وقد رحب السوفيت بتغيير الاسم رغم أنهم عندما يتحدثون عنه حديثا خاصا فإنهم لا يضعون كلمة الله فى كلامهم.

(٢٤) تترجم الهيئة العامة للاستعلامات.

(٢٥) تسجيل المحادثة بين ريجان وجورباتشوف، واشــنطن العاصــمة، ٩ ديــسمبر ١٩٨٧، وتسجيل المحادثة بين ريجان وجورباتشوف فى غذاء عمل،١٠ ديسمبر ١٩٨٧ ، أرشــيف الأمن القومى *NSArch*.

(٢٦) وفقا للــجنرال محمد يوساف ، كان ضياء راغبا فى الموافقة على ترتيبات اقتسام السلطة فى كابول بعد أن تم التوصل إلى اتفاقية جنيــف، ولكن كإجراء تكتيكى فقط.

(٢٧) *Chemiaev, Six Years with Gorbachev, p. 208.*

(٢٨) *Rachik M. Avakov, "Novoe mishlenie i problema izucheniia razvivaiush-chikhsia strau" (The New Thinking and Problem of Studying the Developing Countries),* (الفكر الجديد وإشكالية دراسة الدول النامية)

Mirovaia ekonomika i mezhdunarodnye otnosheniia, 11 (1987): 48-62.

(٢٩) *Ibid*

(٣٠) حول المخابرات السوفيتية والحالة الأفغانية تحديدا انظر

(Moscow: Olimp, 1996). (الملف الخـــاص)*Vladimir Kriuchkov, Lichnoe delo (Private File)*
especially vol. I.

(٣١) انظر مذكرات شخنازاروف*Shakhnazarov* عن اليمن (ثمن الحرية: إصلاح جورباتشوف من وجهة نظر مساعده)

Tsena svobody: Reformatsiia Gorbacheva glazami ego pomoshchnika (The Price of Freedom: Gorbachev's Reformation through the Eyes of his Assistant) (Moscow: Rossika Zevs, 1993), pp.386-387.

(٣٢) *Chemiaev, Six Years with Gorbachev, p. 144.*

(٣٣) تسجيل المحادثة بين جنثر كلبر (المكتب السياسى لــ*SED*) وكاسترو، هافانا، ٢٦ مارس ١٩٨٧، *SAPMO-BArch, DY30 2462.*

(٣٤) *Chemiaev, Six Years with Gorbachev, pp. 204-205.*

(٣٥) مقابلة مع *Elena Erofeieva* فى *Izvestia*، ١٠ يوليو ١٩٨٩. قــرار المجلــس الأعلــى للاتحاد السوفيتى، ١٣ يونيو ١٩٩٠.

(٣٦) *Dmitri Volskii, Izvestia, 22 December 1988.*

(٣٧) *Pravda, 3 November 1987.*

(٣٨) *Andrei I. Kolosovskii, "Regionalye konflikti i globalnaia bezupasnost" (Regional Conflicts and Global Security),* (الــصراعات الإقليميـــة والأمـــن العـــالمى) *Mirovaia ekonomika i mezhdunarodnye otnosheniia, 6 (1988): 32-41.*

(٣٩) *Andrey Kozyrev, "Confidence and the Balance of Interests," International Affairs, 11 (Moscow, 1988): 3-12.*

(٤٠) كل الكلمات المأثورة أخذت من تسجيل المحادثات بين ريجان وجورباتسوف، ٢٩ مـــايو و ١ يونوي ١٩٨٨، أرشيف الأمن القومى.

(٤١) كتب ريجان فى ١٩٨٧ "عزيزى الرئيس سافــمبى، أعرف أنك مشغول جدا هذه الأيـــام على جبهة المعركة....وأود أن أنتهز هذه الفرصة لأعرب عن خالص أمنياتى مرة أخرى لك ولقوات يونيتا الأبية وأنتم تجلبون الحرية لأنجولا. وسوف أكون معكم بفكرى فى الأســـابيع والشهور القادمة" (ريجان إلى سافــمبى، ١٠ أغسطس ١٩٨٧

box 91630, Herman Cohen files. White House staff files, Ronald Reagan Presidential Library. لمعرفة تطور العلاقات الأمريكية–الأنجولية و السوفيتية – الأنجولية انظر

Jose Patricio, Angola-EUA: os caminhos do bom-senso (Lisbon: Publicacoes Dom Quixote, 1998),

و *Michael McFaul, "The Demise of the World Revolutionary Process: Soviet-Angolan Relations under Gorbachev," Journal of Southern African Studies, 16.1 (1990): 165-189;*

للمزيد عن عملية السلام انظر

Chester A. Crocker, High Noon in Southern Africa: Making Peace in a Roiigli Neighborhood (New York: Norton, 1992);

و *Anthony G. Pazzanita, "The Conflict Resolution Process in Angola," Journal of Modern African Studies, 29.1 (1991): 83-114;*

ومن وجهة النظر السوفيتية

M.V. Maiorov, "Mezhdunarodnoe posrednichestvo: iz opyta otechestvennoi diplomatii" (International Mediation: The Experience of Patriotic Diplomacy),Novaia; inoveishaia istoriia, 6 (2000): 17-34.

(٤٢) مشروع أسلحة منظمة حقوق الانسان، القتل مستمر: الألغام فى جنوب أفريقيا على موقع:

Human Rights Watch Arms Project, "Still Killing: Landmines in Southern Africa," on http://hrw.org/repons/1997/lmsa/.

(٤٣) تابو مبيكى، الخطاب الذى ألقاه فى اوتوا، كندا، ١٩-٢٢ فبراير ١٩٧٨، على موقع

http://www.anc.org.za/ancdocs/history/mbeki/prc-1994/.

قارن ذلك مع تصريحاته فى حواره لرؤساء الصحف الجنوب أفريقية، ٢٦نوفمبر ١٩٩٠. انظر أيضا

Sean Jacobs and Richard Calland, eds., Thabo Mbeki's World: The Politics and Ideology of the South African President (London: Zed Books, 2003).

(٤٤) نيلسون مانديلا، خطابه فى ماتانزاس، كوبا، ٢٦ يوليو ١٩٩١، على موقع

http://www.lanic.utexas.edu/la/cb/cuba/castro.

(٤٥) *Chernaiev, Six Years with Gorbachev, p. 204.*

(٤٦) كاسترو إلى هونكر ، ٣ أكتوبر ١٩٨٩،

SAPMO-BArch, DY30 2462.

(٤٧) كاسترو، خطابه أثناء الاحتفال بتكريم الكوبيين العالميين الذين سقطوا فى أنجولا، هافانا، ٧ ديسمبر ١٩٨٩، على موقع

http://www.lanic.utexas.edu.

(٤٨) *Robert A. Kagan, A Twilight Struggle for the Third World (New York: Free Press, 1996), p. 644.*

(٤٩) عضو لجنة الدفاع عن الأرض، لاس مارياس، السلفادور إلى إليزابيث وود فى ١٩٩٢، حيث وردت فى كتابها

Insurgent Collective Action and Civil War in El Salvador (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

خاتمة

ثورات القوى العظمى وتدخلاتها وانهيارها

مازال يفترض أن الحرب الباردة كانت سجالا بين قوتين عظميين من أجل القوة العسكرية والسيطرة الاستراتيجية مركزة فى أوروبا. هذا الكتاب، على العكس من ذلك، يدعى أن أهم جوانب الحرب الباردة لم تكن عسكرية ولا استراتيجية، وإنها لم تتركز فى أوروبا؛ بل كانت مرتبطة بالتطور السياسى والاجتماعى فى العالم الثالث. وقد أشرت إلى أن العمليات المزدوجة لإنهاء الاستعمار وتثوير العالم الثالث لم تكن بحد ذاتها نتاج الحرب الباردة، ولكنها أثرت فيها بأساليب أصبحت مهمة للغاية وساهمت فى تكوين العالم كما نعرفه اليوم. بعض تلك المؤثرات حدث بالمصادفة بينما وقع البعض الآخر من خلال تدخلات مباشرة؛ ولكنها مجتمعة صنعت نموذجًا كان له عواقب وخيمة وكارثية على العلاقة بين الدول المحابية لأوروبا والأجزاء الأخرى من العالم اليوم.

بالحس التاريخى – وخاصة بزاوية رؤية من الجنوب – كانت الحرب الباردة استمرارًا للاستعمار ولكن بأساليب ووسائل مختلفة قليلا. كعملية صراع، تركزت حول السيطرة والهيمنة، وخاصة من حيث الأيديولوچية. كانت أساليب القوتين العظميين وحلفائهما المحليين قريبة الشبه بالأساليب التى عُمل بها فى الحقبة الأخيرة من الاستعمار الأوروبى: مشاريع اجتماعية واقتصادية عملاقة، ووعود بالحداثة لمسانديهم، ووعيد بالموت للمعارضين أو من يقفون فى طريق التقدم. بالنسبة للعالم الثالث، لم يكن التسلسل الذى انحدرت منه الحرب الباردة يبدأ

فى ١٩٤٥ أو حتى فى ١٩١٧، ولكنه بدأ فى ١٨٧٨ فى مؤتمر برلين الذى قسم أفريقيا بين القوى الإمــبريالية الأوروبية – أو لعله بدأ فى ١٤١٥، عندما فتح البرتغاليون مستعمرتهم الأفريقية الأولى. ولم يكن الصراع بين القوتين العظميين أو أبعاده الأيديولوجية عنصرًا جديدًا فى هذه السلسلة الكبيرة من محاولات الهيمنة الأوروبية، فالقوى التى قامت بالتدخل من قبل كانت دومًا فى صراع فيما بينها، أحيانًا بسبب الأفكار المتصارعة. وكما قال چوزيف كونراد ***Joseph Conrad*** فى ١٩٠٢ فى كتاب قلب الظلام ***Heart of Darkeness*** – أعنف ما نشر من نقد للاستعمار على الإطلاق:

> **إن الاستيلاء على الأرض، أو ما يعنى فى الغالب أننـــا نأخـــذها ممن لديهم لـــون بشـــرة مختلف عن لوننـــا أو أنوف أفطس من أنوفنا، لـــيس بـــالأمر الجيـــد إذا فكرت فيه. الفكرة فقط هى ما تجعلنا نستحلها. الفكرة التى خلفها، ليس التظاهر العـــاطفى وإنمـــا الفكـــرة؛ والاعتقاد غير الأنانى فى تلك الفكرة– وكأنها شـــيء تقيمه، وتسجد له وتقدم له القرابين[1].**

إن مأساة تاريخ الحرب الباردة، فيما يخص كلا من العالم الثالث والقوتين العظميين، هى أن المشروعين التاريخيين اللذين كانا فى الأصل معاديين للاستعمار أصبحا جزءًا من شكل أقدم للهيمنة، بسبب كثافة الصراع فيهما، والمخاطر التى انطويا عليها، والمخاوف الكبرى من العواقب التى قد تقع لو انتصر الخصم. ورغم أن واشنطن وموسكو بقيتا ضد الاستعمار الرسمى طيلة الحرب الباردة، فإن الأساليب التى انتهجها كلاهما فى فرض رؤيته للحداثة على دول العالم الثالث، كانت قريبة الشبه بأساليب الإمبراطوريات الأوروبية الزائلة من قبل، وخاصة

الإمبراطوريتين السابقتين مباشرة: المشاريع الاستعمارية البريطانية والفرنسية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. تلك الأساليب تركزت حول فرض تغيرات ثقافية وديموغرافية وبيئية على مجتمعات العالم الثالث، مع استخدام القوة العسكرية لهزيمة من يقاوم. ومع وجود مفاهيمهم التأسيسية عن العدالة الاجتماعية والحرية الفردية التى تقلصت إلى أيديولوجيات للمرجعية الذاتية، كانت نقطة البداية هى ما أسماه چيمس س.سكوت ***James C.Scott*** متبعًا ديـفيد هارفـى ***David Harvey***: الحداثة الرفيعة ***high modernism***، التى تعرف وفقًا لهارفـى بأنها

> **الاعتقاد فى التقدم الثابت والحقيقة المطلقة، والتخطيط العقلانى للنظم الاجتماعية المثالية تحت ظروف ثابتـة من المعرفة والإنتاج... وكانت الحداثة التى نتجت عن ذلك وضعية وتقنوقراطية وعقلانية فى الوقت نفـسه كما كانت مفروضة باعتبارها عملا لمخططين طليعيين من النخبة، فنانين ومعماريين ونقاد... تقدم "تحـديث" الاقتصادات الأوروبية سريعًا، فى حين كان يتم تبريـر اندفاع السياسة والتجارة العالميتين بأنها تجلب "عملية تحديث" محسنة وتقدمية إلى العالم الثالث المتخلف(٢).**

ومع تمرد أجزاء من العالم الثالث ضد السيطرة الاستعمارية نحو منتصف الثلث الأول من القرن العشرين، كانت الثورات التى تلت ذلك مُستلهَمة إما من الشكل الأمريكى أو السوفيتى من الحداثة الرفيعة. فى فترة من فترات انعدام الاستقرار العالمى، ليس بمستغرب أن تميل النظم المبنية على أسس أيديولوچية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى إلى التدخل فيما كان يبـدو أنـه مبـاراة

لا طائل من ورائها، ما لم يكن هناك موانع قوية ضد ذلك فى الداخل. ولكن الأغرب كان الدور الرئيسي الذى لعبته النخب المحلية فى التحريض على تدخلات القوى العظمى وتسهيل ذلك. فقد زاوجت هذه النخب بين أغراضها الداخلية الخاصة والإيمان بأيديولوچية عالمية مشتركة، فكان هدف الكثير منهم هو وجود شكل من أشكال تدخل القوى العظمى بدءًا من مرحلة الثورة. قليل منهم وضعوا أچندات، اقتصادية وسياسية وعسكرية، أدركوا أنها لن تنفذ إلا من خلال التدخل الأمريكى أو السوفيتى. وكثير منهم أشعل الحرب على مواطنيهم لكى يرغموهم – أحيانًا بالاتفاق مع المتدخلين الأجانب – على قبول الخطط المركزية للتطور. ربما كانت نخب العالم الثالث تلك ترى أكثر من حلفائها من قوى الحرب الباردة العظمى أن التحديث ومحو طبقة الفلاحين تمامًا، هدف أعلى يستحق ويبرر استخدام أقسى أنواع العنف.

إذن، ساعدت الأيديولوچيات الحرب الباردة وتدخلات القوى العظمى فى وضع عدد من دول العالم الثالث فى حالة حرب أهلية شبه دائمة. فى بعض الحالات كان من المحتمل قيام صراع عنيف فى نهاية فترة الاستعمار على كل الأحوال، ولكن وجود قوتين عظميين متعارضتين أيديولوچيًا، كان يتسبب فى دوام مثل هذه الصراعات ويجعل حلها أصعب. كان هناك سببان رئيسيان لدوام الحرب. السبب الأول كان اقتناع النخب المحلية بأن دورهم ضرورى وأخلاقى. فمع رؤيتهم للفجوة التى تفصل حياة شعوبهم عن الحياة التى يعيشها العالم الموالى لأوروبا، اشتعلت أچنداتهم باليقين بأن التغير لم يكن ممكنًا فحسب وإنما ضروريا، وأن أى ثمن سيكون معقولا للقضاء على الجوع والمرض والجهل والظلم. ثم إن الدافع الأخلاقى نحو التقدم الذى أرادوه كان مشتركًا بين القوتين العظميين، بينما كانت تفاصيل كيفية التنفيذ تستوحى من إحداهما. بعبارة أخرى لم يكن من الصعب أن يجدوا تأكيدًا على أچندات التغيير[٢].

أعطت مواجهة الظروف التى كانت الغالبية العظمى من طبقة الفلاحين تعيش فيها مساحة ضئيلة للمساواة الأخلاقية بين الثورة ومعارضيها. وكما قال تشى جيفارا فى خطابه أمام مؤتمر الوحدة الأفروآسيوى فى الجزائر عام ١٩٦٥، بعنوان "موت الإمبريالية وميلاد عالم أخلاقى"

> **إن الصراع ضد الإمبريالية – للتخلص من عبودية الاستعمار أو الاستعمار الجديد – وهو الصراع الذى يتم من خلال الأسلحة السياسية أو سلاح الحرب... ليس بمعزل عن الصراع ضد التخلف والفقر. كلا الصراعين يمثل مرحلة فى الرحلة نفسها نحو مجتمع جديد يتسم بالثراء والعدل فى الآن نفسه... علينا أن نكسب معركة التنمية باستخدام أكثر أنواع التكنولوجيا تقدمًا. فليس بوسعنا أن نبدأ من قاع الإنسانية صعودًا من الإقطاع إلى العصر الذرى الإلكترونى...لابد من أن تكون هناك قفزة تكنولوجية كبرى إلى الأمام... فى المصانع الكبرى وأيضًا فى الزراعة المتطورة(٤).**

قامت النخب المُستغربة بوضع خطط الحرب الباردة – وما استتبع ذلك من تدخلات عسكرية – للتقدم نحو ما اعتبروه أسمى الأهداف. فى أول تصريح كبير له، أخبر النظام الشيوعى فى أفغانستان الجماهير بأن أهدافه كانت هى الإصلاح الزراعى و"القضاء على النظام الإقطاعى القديم والعلاقات السابقة على الإقطاع" و"ضمان المساواة فى الحقوق للنساء والرجال فى جميع المناحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والمدنية" التعليم الجامعى، والخدمات الصحية المجانية ومحو الأمية والقضاء على البطالة(٥). كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من

الإرادة حتى يمكن الاعتقاد بأن تكون هذه أجندة واقعية من أجل التغيير فى دولة كـــانت الأفقر فى آسيا، وقد بلغت فيها نسبة الأمية ٢٤%، ومتوسط عمر الفرد ٤٢ عـــامًا[٦]. ولكن كما قال الزعيم الشيوعى حفيظ الله أمين فى أول رسالة له وهو رئيس:

> **إن الشعوب هى صانعة التاريخ، وهى ما تجلـــب أهـــم ظواهر التطـــور الاجتمـــاعى مـــن خـــلال الثـــورات الاجتماعية الناجحة، وهذا هو ما قـــال عنـــه الـــزعيم العظيم لعمـــال العـــالم إن الثـــورات هـــى احتفاليـــات المظلومين والمقهورين والمستَغلين. ولـــيس بوســـع الجماهير أن تصنع نظاما اجتماعيًا جديدًا إلا فى وقـــت الثورة. فى ذلك الوقت باستطاعة النـــاس أن يقومـــوا بمعجزات[٧].**

وبسبب الثنائية القطبية لنظام الحرب الباردة العالمى، كان بوسع نظم العالم الثالث وحركاته أن تتحالف دائمًا مع إحدى القوتين العظميين، أيًا كانت حماقة خططها الداخلية. أحيانًا كانت تلك التحالفات تحدث من تلقاء نفسها على نسق القول بصداقة عدو العدو؛ وأحيانًا كانت تحدث بسبب اعتبارات استراتيچية أو احتياجات اقتصادية. ولكن فى معظم الأحيان كانت تحدث بسبب شعور ما بالترابط الأيديولوچى، حيث أفكار الحليف وأغراضه تتوافق مع أفكارك وأغراضك. فى بعض الحالات أدى ذلك إلى أغرب أنواع التقاء الفكر، مثل ما حدث عندما وجدت النخب السلطوية التنموية فى جنوب ڤيتنام فى نظرية الحداثة الأمريكية معركة مشتركة ضد الشيوعية، وكانت الأدوات التى ابتدعوها مثل برنامج القرية الاستراتيچى (وكان شبيهًا إلى درجة كبيرة بالبرنامج الذى استخدمه السوڤيت

والشيوعيون ضد أعدائهم الفلاحين في إثيوبيا) حداثية للغاية. وكما شرح أحد المساعدين الشباب لوالت روستو *Walt Rostow* في ١٩٦١:

مع مرور السنين ... سوف تستطيع كل قرية أن تكوّن أدواتها المساعدة. في الوقت نفسه سيمكن إقامة مركز زراعي جديد في منتصف "مجتمع المدينـة الأهليـة". سيكون فيه سوق تجارية وموقف للحافلات ومتـاجر وقاعات اجتماعات ومدرسة ومعهـد تـدريب مهنـي ومحط طائرات مروحية [و] أراضٍ جميلـة. سـيكون المركز الزراعي حداثيًا تمامًا - سوف يحـول حيـاة القرية إلى المستقبل دون أن يقتل القرية القديمة(٨).

ومن المثير للدهشة أن عددًا كبيرًا من الفلاحين اختاروا أن يقاوموا. وقد أخذت مقاومتهم أشكالا مختلفة ونادرًا ما توافقت مع الأنماط الأيديولوجية التي كان الحداثيون يفضلونها. في معظم الحالات كان الفلاحون يحاربون من أجل قراهم ومعتقداتهم وعائلاتهم. في القليل من الحالات، شأن فيتنام والجزائر، سعت أعداد غفيرة إلى شكل من الحداثة من شأنه أن يمنحهم الكرامة والاحترام ويحفظهم في الوقت نفسه من أي هجمات عليهم. ولكن بوجه عام، كانت معاركهم ضد القوة المركزية، حتى وإن ادعت تلك القوة أنها تمثل قيمًا "طائفية" أو "محلية" كما في حالة إثيوبيا أو أفغانستان. وبينما كان الزعماء يختارون إحدى الأيديولوجيات المستوردة ليقوموا بتمثيلها، فليس من دليل على أن الفلاحين أنفسهم حاربوا شيئًا سوى الدولة - الدولة المستوردَة، حسب كلام برتراند بادي *Bertrand Badie* - وهي الدولة التي كانت تمد قبضتها نحو قراهم. كانت معاركهم دفاعية، مثلما كانوا

فى فترة الاستعمار ، وكما أصبحوا بعد أن استطاعوا بثوراتهم أن يخلعوا الدول صاحبة القناعات الأيديولوچية.

الحروب التى تم خوضها أثناء الحرب الباردة كانت شديدة التدمير. وبما أنها كانت حروبًا ضد الفلاحين، فإن الوسيلة المثلى للانتصار فيها كانت من خلال الجوع والعطش، وليس من خلال المعارك والقنابل. فالأساليب التى استعملت فى تلك الحروب كانت تهدف إلى القضاء على حياة الناس وليس القضاء على ممتلكاتهم. فى دولة تلو أخرى – كردستان، جواتيمالا، فيتنام، أنجولا، إثيوبيا – كان الفلاحون يخرجون من قراهم ويوضعون فى الاختيار ما بين الخضوع أو الجوع. حتى بعد إعلان نهاية الحرب، استمرت الحكومات فى إضرام الحروب على البعض من سكانها الفلاحين: فكثير مما أسماه صندوق النقد الدولى والبنك العالمـــى – فى ***twenty-twenty wisdom*** فى أواخر الثمانينيات – سوء إدارة ولا ميالاة، كان فى الحقيقة حروبًا قُصِد بها كسر إرادة المجتمع الفلاحى عن طريق تدمير مصادر المياه ونظم الرى والمراعى. وكان العنف الثقافى أشد وطأة من العنف الجسمانى: فالملايين أرغموا على تغيير دياناتهم ولغاتهم وتركيبتهم العائلية، وأحيانًا أسمائهم حتى يتلاءموا مع التقدم.

فى أواخر فترة الاستعمار أعطت الهجمات على المجتمعات الفلاحية أشكالا جديدة للمقاومة الأيديولوچية على نحو يمكن تسميته بأنه "قائم على الهوية" – أى تحديد الهويات الأخرى الخارجة عن سياق الحداثة. كانت هذه بدائل عن الهويات المفروضة والسلوك المبرمج أو أنماط الطاعة عديمة المعنى وعديمة النفع المادى[٩]. ومع تلاشى دعاوى كل من الاشتراكية والأمركة، أصبحت الإثنية والدين – وهى القيم نفسها التى حاولت أيديولوچيات الحرب الباردة أن تنكرها – أصبحت محورية بالنسبة للكثير من النشطاء السياسيين فى العالم الثالث. وقد

استشعر ريتشارد رايت ***Richard Wright*** ذلك بالفعل فى باندونج، عندما تحدث عن "وعى عنصرى، أثارته مواقف الغرب وأفعاله، وقد امتزج بالمشاعر الدينية الدفاعية؛ هنا فى باندونج امتزج الاثنان فى شيء واحد: نظام عنصرى ودينى لتحديد الهوية يظهر فى نوع عاطفى من القومية أصبح الآن يتخطى حواجز الدول، وينصهر ويذوب ويتحد مع بعضه بعضاً"(١٠).

كان الغرب المناصر لأوروبا هو العدو بالنسبة لبعض حركات الهوية التى ظهرت من بين الحطام الذى خلفته الحرب الباردة فى العالم الثالث– عدو رهيب ممتدة أرضه بطول النصف الشمالى من الكرة الأرضية وله مستعمرات موالية فى جنوبها: أستراليا ونيوزيلندة وحتى أمريكا اللاتينية. ولأن القليل من هذه الحركات لديها سلطة دولة، وهى أقل قوة حتى من المعارضين المحليين، فقد استخدم بعضها القوة للتعبير عن قضاياه، كما حدث فى الولايات المتحدة فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وعندما يقيمون دولا، وهم يتجهون إلى ذلك بالفعل، فمن الممكن أن يقودهم الغضب والضغينة التى بداخلهم إلى نوع من الفاشية مما يتحول إلى مصدر جديد للعنف وانعدام الاستقرار فى مناطقهم وفى أى مكان آخر. إنها ليست صورة سعيدة، ولكنها فى اعتقادى صورة واقعية. وبذلك يصبح الإرهاب أقل الشرور الناشئة عن الحرمان والحروب.

حدد سجال الحرب الباردة لكل من المنتصر والمهزوم أو الفائز والخاسر – الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى – المستقبل لهما. انهارت الدولة الخاسرة منهية الاشتراكية السوفيتية والإمبراطورية الروسية. فى منتصف التسعينيات، ومع نهاية الجمهوريات غير الروسية، والأزمة الاقتصادية والحرب فى مقاطعة الشيشان التى ادعت روسيا أن الإسلاميين قد أرغموها على دخولها (ولكن المسلمين الشيشان رأوا أنها كفاح ضد الاستعمار)، بدا الدور السابق للاتحاد السوفيتى كقوة عظمى

عالمية حلمًا غريبًا على معظم الروس. وفى سخرية ساذجة تقمصها البعض بعد السقوط، محاولين نكران ماضيهم وإظهار أنفسهم كمواطنين من العالم (الرأسمالى)، كان هناك قدر كبير من العنصرية. بعضهم ادعى أن أنظمة العالم الثالث وحركاته قد استغلت الاتحاد السوفيتى واستطاعت بمساعدة المسئولين الفاسدين أن يثروا على حساب الروس. وانتشرت الشائعات عن مدى ما تم إعطاؤه لنيكاراجوا وفيتنام ومنظمة التحرير الفلسطينية. أما الحزب الوطنى الأفريقى بجنوب أفريقيا فقد كان فوق مستوى النقد. وبعد احتفالات نوبل التى جرت فى أوسلو فى ديسمبر ١٩٩٣، كتب أحد المعلقين فى جريدة "إزفستيا" ***Izvestia*** "كان من الممكن أن نفهم الأسباب إذا ما مُنحت جائزة نوبل للسلام لدى كلرك ***De Klerk*** قبل ثلاث سنوات، عندما قام وحده بتغيير دفة البلاد بعيدًا عن الفصل العنصرى. ولكن ما علاقة نيلسون مانديلا بذلك؟ كان دى كليرك هو الذى أخرجه من السجن، ومنح فرصة لشرعية الحزب الوطنى الأفريقى"[١١].

أيًا كان ما اعتقده الروس وما رأوه فى حطام الاتحاد السوفيتى، فإن الخسائر المباشرة للتدخلات الخارجية لم تكن سببًا رئيسيًا فى انهياره. فالحزب الشيوعى السوفيتى أنفق أقل من ٢,٥ % من إجمالى نفقات الدولة على المساعدات العسكرية والمدنية للعالم الثالث فى السنوات العشر الأخيرة له فى السلطة. ورغم أن ذلك يعد أكثر نسبيًا من أى دولة أخرى فى ذلك الحين، فعلى المرء أن يتذكر أن تلك الأرقام كانت تتضمن معظم تكاليف الحرب فى أفغانستان والتى كان لها وحدها أكثر من النصف. أما من حيث الجانب الاقتصادى الواقعى، فقد كان باستطاعة الاتحاد السوفيتى أن يستمر فى تدخلاته الخارجية، حتى أثناء فترة الكساد والركود، خاصة إذا استمر الاقتصاد المخطط.

فيما يتعلق بالاقتصاد، كان إجمالى الخسائر التى تكبدها الاتحاد السوفيتى بوصفه قوة عظمى، أكبر من احتماله. فمنشآته العسكرية الكبيرة، التى استنزفت ما وصل إلى ثلث الإنفاق الإجمالى للدولة، أضعفته لأنها استنزفت موارد من جوانب منتجة فى الاقتصاد. وعندما تباطأ النمو الاقتصادى الإجمالى، كما حدث منذ أواخر السبعينيات، أصبحت مساحة المناورة والتلاعب فى الميزانية لدى الحزب الشيوعى السوفيتى أقل، خاصة وأن الاتحاد السوفيتى كان يعتمد على أسعار المواد الخام شديدة التذبذب فى السوق العالمية كمصدر للعملة الصعبة، وتناقصت قدرة الدولة على الاستجابة إلى الضغوط من الشعب – ولم تكن أبدًا أكبر بكل المقاييس – فى الوقت الذى أدت الديمقراطية إلى زيادة تلك الضغوط[١٢].

وهنا تقع التدخلات فى العالم الثالث فى صلب الأحداث أثناء انهيار الاتحاد السوفيتى. فقد كانت الخسائر السياسية لاستمرار التدخلات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية كارثية، فى وقت كان الناس فى موسكو وغيرها من المدن قد بدأوا يحسبون أنصبتهم فى تلك الخسائر فى إطار الاقتصاد المنهار؛ وأصبحت الحرب فى أفغانستان رمزًا لهذه الخسائر، فى الأرواح كما فى الموارد. فى أواخر الثمانينيات أصبح الزعماء السوفيت الذين تسببوا فى التدخلات يعتبرون حمقى أو محتالين، وتسببت الحرب والأسلوب الذى أديرت به فى فقدان الثقة للكثيرين فى الدولة السوفيتية. ومع الانهيار الاقتصادى وكارثة المفاعل النووى فى تشرنوبيل والثورات فى أوروبا الشرقية، حطمت صورة الدخول فى حروب غير ضرورية، ومساندة نظم غير مستقرة حطمت صورة الحكومة وخلقت انطباعًا عامًا بسوء الإدارة والفشل المستمرين. وعندما كان على الموظفين فى الكرملين أن يحددوا موقفهم أثناء محاولة الانقلاب فى أغسطس ١٩٩١ تركوا هم أنفسهم الحزب الشيوعى السوفيتى لهذه الأسباب.

في داخل النخب السوفيتية، كانت الخسارة الأساسية للتدخل هي القضاء على النظرية السياسية الماركسية. وكما قيل في السبعينيات، فقد كانت أنظمة العالم الثالث الجديدة مرآة للاشتراكية، ولكن كلما كان مسئولو الحزب الشيوعي السوفيتي يتمعنون في الصورة كانوا يكرهون ما ينظرون إليه. بالنسبة للكثيرين، بدا حلفاء الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث وكأنهم يقومون بأداء مسرحية هزلية عن العالم الاشتراكي المتقدم الذي ظنوا أنهم يمثلونه. ولكنهم أيضًا أدركوا أن ذلك الأداء المتقلب انعكاس لأجزاء من أيديولوجيتهم وبعض من ممارساتهم. في أواخر الثمانينيات – بداخل النخب نفسها – بدأت مرآة الاشتراكية تعكس صورًا عن أخطاء الاتحاد السوفيتي. وأصبحت الاشتراكية تعني لبعضهم تخلفًا دائمًا، بينما الرأسمالية تعد بحداثة حقيقية. كان ميل النخبة السوفيتية لتلك النسخة من الحداثة بمثابة تضحية تقدمها، بما أن معظمهم ظلوا يفكرون في إطار شكل أو آخر من أشكال الاشتراكية؛ ولكن عندما أرغمهم انقلاب أغسطس ١٩٩١ – وما أثاره من احتمال العودة إلى الستالينية – هجروا الحزب وهجروا الاشتراكية، ومن ثم انفتحوا على ديمقراطية المجتمع الروسي وعلى سلب الموارد الوطنية ونهبها الذي حدث في التسعينيات.

مع انهيار إحدى القوتين العظميين، أصبحت القوة الأخرى هي القوة الفائقة في زماننا. وكما أصبح واضحًا من تاريخ الحرب الباردة، فمن غير المحتمل أن يؤرخ المؤرخون في المستقبل لظهور الولايات المتحدة كقوة فائقة ببداية التسعينيات؛ بل من المحتمل أن يرى كثيرون منهم أن أمريكا قد دخلت تلك المرحلة في بداية، القرن المنصرم وليس في نهايته. من هنا يستتبع إن فترة الحرب الباردة لم يكن بها أبدا قوتان عظميان متساويتان، فالواضح إن إحداهما كانت "أعظم" من الأخرى، رغم أن قوتها لم تكن أبدًا بلا حدود. كان لدى أمريكا المزيد من كل شيء: القوة والنمو والأفكار والحداثة. وكان نمو تلك الجوانب كلها في

الولايـــات المتحـــدة جـــزءًا مهمًا فى تاريخ الحرب الباردة في داخلها وعلى الصعيد العالمى.

كان كارل ماركس محقًا عندما تنبأ بأن الولايات المتحدة ستكون القوة الثورية الأساسية فى القرن العشرين، قوة تجتاح الأنماط الاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة أمامها فى طريقها إلى التفوق العالمي. لقد حولت أمريكا التجارة وأسواق المال، وخلقت نوعًا جديدًا من الاقتصاد العالمى. لقد هزمت أعداءها – ألمانيا واليابان والاتحاد السوفيتى – مع وضعها شروط الثورات الديمقراطية التى أعادت تشكيل سياساتهم ومجتمعاتهم. لقد ألهمت حلفاءها الأوروبيين تغيرات جوهرية بداخل دولهم وفيما بينهم، مع المساعدة فى الحصول على المزايا والأمان الاجتماعى، وخلق مجتمعات أكثر انفتاحًا، كما ساعدت فى عملية التكامل الانتقالى الهادفة إلى تكوين الاتحاد الأوروبى. لقد خلقت نوعًا جديدًا من الثقافة المسموعة المرئية، وما استتبع ذلك من أنماط استهلاكية، وخلقت العالم الثالث، من خلال التدخلات المتكررة، وحاجتها إلى المواد الخام، و– فوق كل ذلك – من خلال رؤيتها للتنمية.

وفى دراستهم لعمليات التغيير الكلية هذه، بدأ بعض المؤرخين يخلطون بين القوة والأخلاق. فقد رأوا أن الولايات المتحدة قوة من أجل الخير فى العالم، ومن ثم استنتجوا أن الأخلاق هى القضية وهى المبدأ وراء دورها العالمى. ذلك الاستنتاج محدود النظرة يمكن شرحه فقط على نحو أيديولوچى – فالتوحد مع رؤية المستقبل الذى تمثله واشنطن قوى لدرجة أن الخصائص الأخلاقية التى تمثلها هذه النظرة تطغى على جميع الجوانب الأخرى. وبأسلوب شبيه بالمعارضين الشيوعيين بشكل عجيب، فإن الغاية تبرر طبيعة الفعل. هذا المنهج لا يمثل خطأ منطقيًا فحسب وإنما – كما اتضح من الحالة السوفيتية – يمثل خطرًا إذا ما طُبق إلى النهاية. وكون الولايات المتحدة تعتبر فى نظر أناس كثيرين حول العالم مجتمعًا

شديد الجاذبية – وذلك للعديد من الأسباب – فذلك لا يبرر العنف الذى حاولت به السيطرة على العالم، خاصة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

من وجهة نظر العالم الثالث، فإن نتائج التدخل الأمريكى وتبعاته كانت كئيبة حقا. فبدلا من كونها قوة من أجل الخير – وهو ما قصدته – دمرت تلك التدخلات الكثير من المجتمعات وتركتها عرضة للمزيد من الكوارث بفعل أيديهم. فإلى الآن لم يفلح الدمج بين النمو المستقر والديمقراطيات المستقرة الذى سعت إليه واشنطن إلا فى نصفى دولتين (هما كوريا الجنوبية وتايوان)، ولكن هذا الدمج قد غاب عن حوالى ثلاثين دولة أخرى كانت الولايات المتحدة قد تدخلت فى شئونها، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر منذ ١٩٤٥. كانت المآسى البشرية التى سجلت فى تلك الأثناء مهولة سواء للعدو أو الصديق. والأدهى من ذلك أن تلك المآسى مازالت مستمرة بالنسبة لبعض الدول، حيث هناك من الألغام الأرضية والأسلحة ما يكفى لتدمير حياة جيل كامل لم يولد بعد.

أحد الجوانب المخيفة فى الأسلوب الذى انتهت به الحرب الباردة هو أن استسلام الشيوعية فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى غطى على نتائج التدخلات الكارثية على مدار عقود فى العالم الثالث. فلو أن الشيوعية قد انهارت، جزئيا بسبب السياسة الأمريكية الخارجية الناجحة – أو هكذا كان التفكير – فإن ذلك النجاح كان لابد من أن ينعكس حتى على نقاط الضعف فى التدخل الأمريكى مثل الحرب فى فيتنام. والبعض ممن يعيدون قراءة التاريخ يدعون أن الولايات المتحدة من خلال تدخلاتها المعادية للشيوعية فى العالم الثالث، قد وفرت الوقت للتحولات الرأسمالية فى مناطق مثل جنوب شرق آسيا لكى تحدث من الداخل. تلك التغيرات، بدورها، مهدت الطريق لعولمة المال والأسواق فى التسعينيات. بعبارة أخرى فإن التضحية الأمريكية قد مكنت الأفراد والدول من المشاركة فى الانتعاش

الاقتصادى التالى للحرب الباردة، وكانت الفكرة أنه من خلال الانتصار الكبير فى الحرب الباردة، استطاعت الولايات المتحدة أن تطلق قوى الحرية التى من شأنها – وحدها – أن تحول العالم إلى ديمقراطيات حرة واقتصاد سوق.

ذلك الشعور بالانتصار كان السبب في كون التسعينيات – على ما كان بها من حروب في الخليج والصومال وكوسوفو – تعتبر فترة هدوء نسبى فى التدخلات الأمريكية. بالإضافة، طبعًا، إلى أنه لم يكن ثمة ما يهدد التفوق الأمريكى العالمي، وبعد سعار الثمانينيات كان هناك ضجر عام من الحرب لدى الشعب الأمريكي كله. ومع التقدم الاقتصادى ومع فكرة الاستهلاك التى توفر المزيد من المنتجات لنسب أكبر من الأمريكيين أكثر من أى وقت مضى، تضاءل اهتمام الناس بالعالم الثالث وصراعاته ومعاناته. وكما يقول خبير المخابرات الأمريكية فى الشأن الأفغانستانى ميلتون بيردن ***Milton Bearden***، "هل كنا فعلا نهتم بمستقبل مانچارهار ***Nangarhar*** على المدى الطويل قيد أنملة؟ ربما لا. واتضح، ماذا تظن؟ اتضح أننا لم نهتم."(١٣). ونحت إدارة كلينتون الأسئلة الصعبة – مثل أزمة الديون، وزيادة الفقر العالمى والقنابل الأمنية الموقوتة فى كوريا أو فلسطين – نحتها جانبًا لكي يتعامل مع تلك المشكلات أناس آخرون. ومع سير الأمور فى مسارها الطبيعى نحو التحسن فى العالم الثالث، فإن أماكن مثل نانجارهار – أحد معاقل طالبان – كان عليها أن تنتظر. بل إنها تلاشت من نظر القائمين على المخابرات الأمريكية. وكما قال أحد ضباط المخابرات الأمريكية فى صيف ٢٠٠١ فإن تلك العمليات التافهة لا تحدث"(١٤).

ورغم الاعتماد المؤقت على القوى الطبيعية للتاريخ فى التسعينيات، فإن سياسة التدخل الجديدة العنيفة التى رأيناها بعد الهجمات الإسلامية على أمريكا فى سبتمبر ٢٠٠١ لم تكن فجائية بل كانت استمرارًا – وإن بأسلوب أكثر تطرفًا –

لسياسة أمريكا أثناء الحرب الباردة. الفارق الوحيد طبعًا كان غياب أى قوة عالمية تكبح جماح النوايا الأمريكية كما فعل الاتحاد السوفيتى فى بعض الحالات على الأقل. ولكن أيديولوجية التدخل واحدة، ولها نفس الأهداف الإجمالية: إن الولايات المتحدة لن تكون فى أمان إلا إذا قامت بتغيير الأسواق وتغيير العقول على المستوى العالمى. الهجوم الجديد سيتم – رغم الاعتراضات الجماعية، وله أهداف كبرى، ونداء الحرب به أقوى من ذى قبل. وكما قال المتحدث الرسمى باسم الخارجية الأمريكية ريتشارد بوشر ***Richard Boucher*** فى كلمته التى ألقاها فى لندن فى عيد الشكر فى العام السابق على غزو العراق:

> **إننى أعتبر نفسى مواطنًا أمريكيًا بسيطًا لا يعرف الخجل. إننى أؤمن بالحرية باعتبارها حقًا، ومسئولية، وقدرًا، وكقوة لا يمكن أن تقهر. وفى سياق عملى، فإنها أكبر من الإيمان: إنها سياسة خارجية. وسوف تدافع الولايات المتحدة عن الحرية بلا هوادة... بالنسبة لى فالأمر هكذا – بوضوح وبساطة. الولايات المتحدة تمثل الحرية، تدافع عنها وتدفعها إلى الأمام، وتكبر مجتمع الحرية لأننا نعتقد أن هذا هو الفعل الصحيح(١٥).**

لقد قدم الغزو والاحتلال الأمريكى للعراق نموذجًا كبيرًا لكون الحرية والأمن قوة الدفع الأساسية للسياسة الأمريكية الخارجية، وكما يحدث دائمًا عندما تدخل أقوى دولة فى العالم الحرب، تتضاءل الجوانب الأمنية مع انهيار الدولة المعارضة. فى حالة العراق، تحول تضاؤل المخاوف الأمنية إلى مهزلة عندما لم توجد أى ترسانات أسلحة كيماوية أو بيولوجية أو نووية – وهى الأسباب المُدّعاة

للحرب. وتبقى السعي الأيديولوچي نحو الحرية، مهدذا بتحويل العراق إلى كابوس من الصراع الذى لا ينتهى بنفس الأسلوب الذى حدث فى الكثير من الدول أثناء الحرب الباردة.

هل يمكن أن تكون هناك نهاية للتدخل الأمريكى؟ أرى أن ذلك غير محتمل، ولكنه ليس مستحيلا. فكما أظهر هذا الكتاب فإن الولايات المتحدة كانت قوة تدخلية طيلة وجودها، وكان ظهورها بصفتها قوة عالمية فوق العادة قد جعل ذلك أمرًا واقعًا دائما. ولكن هناك أمريكا أخرى، تلك التى تجسدت فى مقاومة الحرب فى ڤيتنام، والمظاهرات ضد التدخل فى أمريكا الوسطى ومعارضة غزو العراق واحتلاله. هذه النزعة المناهضة للتدخل تكون فى أقوى حالاتها عندما تظهر أن الحروب فى الخارج قد تهزم التقدم فى الداخل. من الناحية الأيديولوچية، السبيل الوحيد لكسر الارتباط بين ما وصفه چيفرسون بأنه "أذواق" تدخلية و"نظرية" ديمقراطية قد يكون – كما ينبغى أن يكون فى كل السياسات الديمقراطية – من خلال الدعوة إلى ما من شأنه أن يخدم مصالح الدولة. إنه النقاش الذى تحتاجه أمريكا الآن، لأنه كلما ازدادت المقاومة العالمية للتدخل الأمريكى، أصبحت ممارساتها الديمقراطية أكثر عرضة للضغوط فى الداخل. ودون إعادة توجيه حقيقية لسياستها الخارجية، قد تنتهى الديمقراطية الأمريكية إلى نفس مصير الاشتراكية السوڤيتية.

فى نهاية الحرب الباردة، كان نسبة واحد إلى أربعة من سكان العالم يعيشون فى مناطق تحظى بمستوى معيشى متقدم. أما اليوم فقد أصبحت النسبة واحد إلى ستة، ومازال الفرق بين الأرقام يتزايد بسرعة. وعلى المدى البعيد سيكون من المستحيل أن تقوم الأقلية المميزة، الآخذة فى التضاؤل العددى، بفرض أوامرها الاقتصادية والسياسية والعسكرية على العالم. وما لم تتراجع مسببات الفقر، فإن

الغالبية الفقيرة ستقلب الموازين ضد الولايات المتحدة والعالم المناصر لأوروبا، من خلال التدخل في شئونهم بنفس الأسلوب الذى قامت به الولايات المتحدة وأوروبا على مدار قرون. من هذا المنظور فإن الجريمة التى ارتكبت ضد المدنيين فى برجى نيويورك لم تكن أكبر، أو أصغر، من تلك الجرائم التى ارتكبت ضد الشعوب فى لواندا أو كابول أثناء الحرب الباردة. ففى ضوء التاريخ القريب لم تكن الصدمة الكبرى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ فى الفعل الإجرامى نفسه وإنما فى أين وقع.

قد يعتمد إذن المستقبل على الكيفية التى نراجع بها الأفعال للحد من إمكانية وقوع الصراعات العنيفة، ولو أن هناك درسًا كبيرًا مستفادًا من الحرب الباردة، فهو أن التدخل العسكرى من طرف واحد ليس فى مصلحة أحد، بينما الحدود المفتوحة والتفاعل الثقافى والتبادل الاقتصادى العادل سيفيد الجميع. ليس ذلك جدلا سلاميًا – فأنا أؤمن بشدة بالحق فى الدفاع عن النفس عند التعرض للهجوم، ولكنه جدل من يدرك أنه فى عالم زاد فيه التنوع الأيديولوچى، فكما أن الاتصالات تربطنا معًا، فإن السبيل الوحيد للعمل ضد الصراع المتزايد هو من خلال تشجيع التفاعل، مع إدراك الاختلاف، والعمل بشكل جماعى لإحباط الأحداث الكارثية؛ وتبقى الحرب الباردة نموذجًا صارخًا لما يمكن أن يكون عليه العالم عند حدوث العكس وعند سيطرة الأنظمة التدخلية

هوامش الخاتمة

(١) *Joseph Conrad, Heart of Darkness (1902; Harmondsworth: Penguin, 1994)*

(٢) *James C. Scott, Seeing Like a State (New Haven, CT: Yale University Press, 1998), p. 377,* حيث أوردها

David Harvey, The Condition of Post-Modernity: An Enquiry into the Origins of Social Change (Oxford: Basil Blackwell, 1989), p. 35.

(٣) لمحاولة فهم الخراب الذى جلبته القوى غير الحكومية، انظر

Thandika Mkandawire, "The Terrible Toll of Post-Colonial 'Rebel Movements' in Africa: Towards an Explanation of the Violence against the Peasantry," Journal of Modem African Studies, 40.2 (2002); 181-215.

(٤) خطاب ألقى فى ٢٦ فبراير ١٩٦٥، حيث ورد فى

John Gerassi, ed., Venceremos! The Speeches and Writings of Ernesto Che Guevara (New York: Macmillan, 1968), pp. 378-385.

(٥) *A. M. Baryalai, ed.. Democratic Republic of Afghanistan Annual: 1979 (Kabul: Kabul Times Publishing Agency, 1979), pp. 62-70.*

(٦) *UNDP, Human Development Report 1990, on http://hdr.undp.org/reports/*

(٧) خطاب ألقى فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٩، حيث ورد فى

Emine Engin, ed., The Revolution in Afghanistan (n.p. (Istanbul?); Iscinin Sesi, 1982).

يُرجع هنا إلى مقال لينين "تخطيطين للديمقراطية الاجتماعية فى الثورة الديمقراطية" فى كتابه

"Two Tactics of Social-Democracy in the Democratic Revolution," in Collected Works, (4th English edn; Moscow: Progress, 1972), vol. IX, pp. 15-140.

(٨) مذكرة من كينيث يونج إلى والت روستو، ١٧ فبراير ١٩٦١،

NSF, Box 325, John K. Kennedy Presidential Library,

حيث ورد فى

David Milne, "America's Mission Civilisatrice: The Strategic Hamlet Program for South Vietnam," ورقة لم تنشر.

(٩) *Bertrand Badie, La fin des territoires: essai sur le desordre international et sur l'utilite sociale du respect, (Paris: Fayard, 1995) p. 214.*

(١٠) *Richard Wright, The Color Curtain: A Report on the Bandung Conference, forward GunnarMyrdal (London: Dobson, 1956).*

(١١) *Boris Piliatskin, Izvestia,* ، ١٠ ديسمبر ١٩٩٣. انظر أيضا القوات البروتستانتية فـــى موسكو حول الهجمات العنصرية "تقرير عن العنصرية المناهضة للأفارقة فى موسكو" على موقع

Moscow Protestant Chaplaincy's Task Force on Racial Attacks, "Report on Anti-African Racism in Moscow," on http://www.moscowproiestantchaplaincy.org.
Daniel Williams, "From Russia with Hate: Africans Face Racism,"

دانيل وليامز، "من روسيا مع الكراهية: الأفارقة يواجهون العنصرية"

Washington Post, 12 January 1998; . ولمعرفة كيف أثرت العنصرية على حروب روسيا فـــى القوقاز، انظر

Roman L. Meredith, "Making Caucasians Black: Moscow since the Fall of Communism and the Racialization of non-Russians," Journal of Communist Studies and Transition Politics, 18.2 (2000):1-27.

(١٢) الاقتصادى الروسى *Stanislav Menshikov* فى *Voprosy ekonomiki,* ، ٧ يوليو ١٩٩٩.

(١٣) بيردن *Bearden* ، كما ورد فى

Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 11, 2001 (Hannondsworth: Penguin, 2004), P. 173.

(١٤) وردت فى *Ruel Marc Gerecht in the Atlantic July-August 2001*

(١٥) وردت فى *The Independent (London), 29 November 2002.*

بعض الاختصارات التى وردت هنا :

AFRF أرشيف رئاسة الفيدرالية الروسية

AVPRF أرشيف السياسة الخارجية للفيدرالية الروسية

DDRS خدمة المراجع الوثائقية المفرج عنها

NPMP مشروع نيكسون للمواد الرئاسية

NSA أرشيف الأمن القومى

RGANI أرشيف الدولة الروسية للتاريخ المعاصر

المؤلف فى سطور:

أود آرن وستاد

هو مدير مركز دراسات الحرب الباردة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن حيث يقوم بتدريس تاريخ الحرب الباردة وتاريخ شرق آسيا. لقد قام بكتابة (أو تحرير) عشرة كتب عن التاريخ العالمى المعاصر، آخرها كتاب مواجهات حاسمة: الحرب الأهلية الصينية ١٩٤٦ – ١٩٥٠.

Decisive Encounters: The Chinese Civil War, 1946 -1950 (٢٠٠٣)

وكتابه مع جوسى هانيماكى *Jussi Hanhimaki* الحرب الباردة: تاريخ فى وثائق وروايات شهود عيان (٢٠٠٣)

The Cold War: A History in Documents and Eyewitness Accounts

المترجمة فى سطور:

مى السيد محمد مقلد

مترجمة فى وزارة الخارجية صدر لها فى إطار المركز القومى للترجمة كتاب "حالات من الإضطراب النفسى والعقلى" و"الفكر السياسى فى القرن العشرين". المجلدين الأول والثانى.

المراجع فى سطور:

طلعت الشايب

كاتب ومترجم. ترجم وراجع نحو أربعين عملا من بينها: "صدام الحضارات" و"حدود حرية التعبير" و"فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى" و"الحرب الباردة الثقافية" و"الفنون تحت ضغط العولمة" .... إلخ

التصحيح اللغوية: عــــــلا طــعــمة
الإشــراف الفــني: محســن مصطفى